مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

قراءات في الفكر القومي

الكتاب الخامس

القومية العربية وفلسطين والأمن القومي وقضايا التحرر

مجموعة من المؤلفين

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

قراءات في الفكر القومي

الكتاب الخامس

القومية العربية وفلسطين
والأمن القومي وقضايا التحرر

مجموعة من المؤلفين

Bibliotheca Alexandrina
0116024

قراءات في الفكر القومي

الكتاب الخامس

القومية العربية وفلسطين

والأمن القومي وقضايا التحرر

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

قراءات في الفكر القومي

الكتاب الخامس

القومية العربية وفلسطين والأمن القومي وقضايا التحرر

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل

مجموعة من المؤلفين

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
قراءات في الفكر القومي. الكتاب الخامس: القومية العربية وفلسطين والأمن القومي وقضايا التحرر/ مجموعة من المؤلفين.
٥٥٢ ص. - (سلسلة التراث القومي)
يشتمل على فهرس.
١. القومية العربية. ٢. القضية الفلسطينية. ٣. البلدان العربية - الأمن القومي. ٤. الوحدة العربية. أ. السلسلة.
320.54

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز
الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦

المحتويات

تنويه وشكر ٨
المقدمة ٩
تقديم الكتاب الخامس ١٨
١ ـ الاستقلال القومي: ما هو، ومستلزماته .... نقولا الحداد ٢١
٢ ـ وثبة العرب، وكيف خرجوا من الصحراء إلى الظفر ...... محمد عبد الله عنان ٢٧
٣ ـ أهم حادث أثر في مجرى حياتي .... عبد الرحمن الشهبندر وهدى شعراوي ٣٣
٤ ـ القضية العربية: حديث مع الأمير عبد الله
أمير شرقي الأردن .... طاهر حمدي الطناحي ٣٦
٥ ـ الامبراطورية العربية وهل آن أن تتحقق؟ ....عبد الرحمن عزام ٤٠
٦ ـ وضعنا القومي الحاضر .... محمد فاضل الجمالي ٤٥
٧ ـ لو استقل العالم العربي ....د. عبد الرحمن الشهبندر ٥١
٨ ـ يا لله لفلسطين! .... أحمد حسن الزيات ٥٤
٩ ـ في القضية الفلسطينية: عوامل الخلاف بين العرب واليهود .... أمين سعيد ٥٦
١٠ ـ فلسطين لا تقهر ....ابراهيم عبد القادر المازني ٦٣
١١ ـ التعاون الحربي بين العرب والأمم الديمقراطية
في الحرب الماضية .... هيئة تحرير مجلة **الهلال** ٦٦
١٢ ـ التطبيق القانوني للحلف العربي الممكن .... يوسف قابيل ٦٩
١٣ ـ التعاون العربي .... خليل مطران ٧٥
١٤ ـ الوحدة العربية .... أحمد أمين ٧٧
١٥ ـ الوحدة العربية .... محمد فريد وجدي ٨١
١٦ ـ الوحدة العربية ....محمد رفعت ٨٣
١٧ ـ روابط الأمم: الفرعونية؛ الفينيقية؛ العروبة؛ الصهيونية؛
السلالة؛ القرابة القومية؛ الانسانية .... هيئة تحرير مجلة **الهلال** ٨٦
١٨ ـ قضية فلسطين هي قضية العرب .... اميل زيدان ٩٣
١٩ ـ جامعة الأمم العربية في الميزان الدولي .... عباس محمود العقاد ١٠١

٢٠ ـ كيف يتحرر العرب من النفوذ الأجنبي؟ .... ابراهيم عبد القادر المازني ١٠٥
٢١ ـ المغرب العربي .... النادي الثقافي القومي ١٠٨
٢٢ ـ الإنسان غاية ووسيلة .... بديع الكسم ١٢٤
٢٣ ـ نحو مجتمع عربي أفضل: التجزيئية في المجتمع العربي .... نازك الملائكة ١٢٦
٢٤ ـ معركة الوعي العربي .... قدري قلعجي ١٣٩
٢٥ ـ معركة الوعي العربي .... سامي عطفه ١٤٦
٢٦ ـ أزمة القيم في المجتمع العربي .... عبد الجليل حسن ١٥٤
٢٧ ـ الانبعاث .... سهيل ادريس ١٦٤
٢٨ ـ المعركة .... سهيل ادريس ١٦٧
٢٩ ـ معركتنا معركة القومية الجديدة .... عبد الله عبد الدائم ١٧٠
٣٠ ـ زحف التحرر العربي .... محمد مندور ١٧٥
٣١ ـ مرض السيادة القومية .... علي بدور ١٧٨
٣٢ ـ عيوب الحياة العربية الراهنة .... عبد اللطيف شرارة ١٩٣
٣٣ ـ مراحل اليقظة العربية الأخيرة .... عبد اللطيف شرارة ٢٠٠
٣٤ ـ في قضايانا القومية .... سهيل ادريس ٢١٠
٣٥ ـ العروبة وآلام المخاض .... عبد الله عبد الدائم ٢١٣
٣٦ ـ ثورة الجماهير الشعبية العربية في ثورة العراق .... عبد الله عبد الدائم ٢١٨
٣٧ ـ بالماء تحيا اسرائيل .... عبد الله عبد الدائم ٢٢٤
٣٨ ـ وحدة الدم العربي في مصر .... أحمد محمد الحوفي ٢٣٢
٣٩ ـ القومية العربية.. ومؤامرات التخريب .... محمد جلال كشك ٢٣٦
٤٠ ـ لقاء الثورات .... سهيل ادريس ٢٤٤
٤١ ـ بين الخرافة والحقيقة .... عبد الله عبد الدائم ٢٤٦
٤٢ ـ درس الهزيمة الأكبر .... استفتاء الآداب ٢٦٣
٤٣ ـ طريقنا إلى «تغيير الإنسان العربي»! .... حسين مروة ٢٦٧
٤٤ ـ اليقظة الشعبية الشاملة .... عبد الله عبد الدائم ٢٧٥
٤٥ ـ نحو تخطيط شامل للعمل العربي .... اسماعيل سراج الدين ٢٩٣
٤٦ ـ اسرائيل والرفض العربي .... عبد الله عبد الدائم ٣١١
٤٧ ـ الإنسان العربي الجديد: رؤى جديدة، مهمات جديدة .. عبد الله عبد الدائم ٣٢٣
٤٨ ـ إلى الشباب العربي .... عصمت سيف الدولة ٣٣١
٤٩ ـ حرب التحرير العربية الفلسطينية: انطلاقتها وأبعادها .... هادي طعمة ٣٣٤
٥٠ ـ المقاومة من وجهة نظر قومية .... عصمت سيف الدولة ٣٤٩
٥١ ـ من حركة المقاومة الفلسطينية إلى حركة المقاومة العربية .. عبد الله عبد الدائم ٣٩٥
٥٢ ـ الوحدة العربية ومعركة تحرير فلسطين .... عصمت سيف الدولة ٤٠٥
٥٣ ـ معركة المصير .... سهيل ادريس ٤٢٣

٥٤ ـ وحدة الأمة العربية وعصر الامبريالية .... محمد حافظ يعقوب ٤٢٥
٥٥ ـ في الرومانتيكية العربية .... شكري فيصل ٤٣٤
٥٦ ـ العرب: جدلية التكون القومي والتحرر الثوري .... خليل أحمد خليل ٤٤٢
٥٧ ـ حول علاقة بعض القوى الوطنية والتقدمية بعبد الناصر .... منير شفيق ٤٥١
٥٨ ـ مطلوب! علاج الأزمة من الجذور .... محمد جابر الأنصاري ٤٦٨
٥٩ ـ أثر ظهور الحركة القومية العربية
في اندثار الامبراطورية العثمانية ....أسعد عبد الرحمن ٤٧٢
٦٠ ـ نظرية الأمن القومي العربي .... جهاد عودة ٥٠٥
٦١ ـ موقف الصهيونية كفكرة وحركة من القومية العربية ...... عبد الله عبد الدائم ٥١٧
فهـرس ٥٤٣

تنويه وشكر

تودّ لجنة الاعداد أن تعرب عن أنها قد اجتهدت وحاولت بأقصى قدرتها أن تكون في عملية الاختيار معتمدة على بعض الأسس التي راعتها في اختيار وتبويب الأجزاء الخمسة لهذا المؤلف. وهي إذا كانت قد اختارت هذا المقال ولم تختر ذاك، واستلت هذا الفصل من الكتاب وليس ذاك، فهو لأنها، ضمن قدرتها ومدى اطلاعها، قد علمت بوجود هذه المادة واستطاعت الوصول إليها، ولم تعلم بغيرها أو لم تستطع الوصول إلى غيرها مما لم يضمه المُؤَلَّف. المهم هو أن اللجنة تتوقع أن تكون هناك مادة ثقافية تصلح تماماً لأن تضم إلى الكتاب ولم ترد فيه. صحيح أن أقصى الجهد قد بذل لتلافي ذلك، إلا أننا لا نتوقع الكمال وانعدام النقص. وعلى كل حال، فالذي نقدمه ليس فصل الخطاب ولا يمثل آخر المطاف في الموضوع، بل هو جهد على الطريق قابل للتقويم والمواصلة والاقتراب من الكمال في المستقبل.

كما ان اللجنة تود أن تعرب عن شكرها الجزيل وامتنانها العميم لجميع الكتاب الذين شملهم هذا الكتاب، الذي يشكل خروجه إلى القارئ العربي الآن فرصة جديدة للاطلاع على جهد سبق أن قاموا به مشكورين مبجلين من أجل هدف سام وغرض نضالي نبيل، هو بعث الشعور القومي في الأمة العربية. لجميع أولئك الكتاب علينا واجب الشكر والتنويه بالفضل والاشارة إلى الخدمة العامة التي أدوها في الماضي عندما نشروا تلك المقالات لأول مرة، ويؤدونها اليوم ثانية للجيل الجديد الذي ربما لم تتح له الظروف الاطلاع عليها. لأولئك المجاهدين في المجال الثقافي من أجل توحيد الأمة العربية وتحريرها وقيام نهضتها الحديثة، التحية والتقدير مجدداً، ونحن نعيد نشر كتاباتهم من أجل الهدف النبيل نفسه الذي توخوه من قبل. لقد كان هدفهم نبيلاً، وهو هدفنا نفسه الآن من إعادة النشر. إن مركز دراسات الوحدة العربية، إذ يقوم بهذا العمل، يتوخى المساهمة بما يستطيع في المجهود الثقافي المعاكس للعمل الإعلامي المعادي الآتي من مختلف المصادر في الاتجاه المضاد للقومية العربية.

مركز دراسات الوحدة العربية

المقدمة

ـ ١ ـ

منذ بدء النهضة العربية الحديثة ظهر الفكر القومي كحلّ للوضع العربي بعد أن قارب العهد العثماني على الانتهاء بحصيلة قاتمة من التخلف الاقتصادي والاجتماعي من جهة، والتعصب القومي المتمثل بحركة التتريك من جهة أخرى. ومنذ ذلك الوقت والفكر القومي يتطور حول محور جوهري واضح وبسيط هو توحيد الأمة العربية، وإن كانت بدايات النهضة قد عبّرت عن نفسها بشكل أولي تمثّل بشعور الحكم اللامركزي والتميز عن القومية التركية.

وفي مجال تنظير أسباب القومية العربية ودوافعها، كان هناك الرأي أن التيار الجديد إن هو إلا صدى للنزعة القومية الأوروبية. ولم يكن لدى هذا الرأي من الأدلة المقنعة غير التوافق الزمني وحوادث الاتصال بالغرب. ولم يكن من الصعوبة تفنيد هذا الرأي، فهناك الكثير مما يمكن أن يقال عنه في هذا المجال، ولكن ذلك، وإن كان لا يقع في جوهر ما نحن فيه، إلا أنه لا بد من الاشارة إلى موضوع واحد مهم هو أن نظرية التأثر (إن صح التعبير) تغفل أن الأمة العربية أمة قديمة مضى على تكوينها زمن طويل، وهي في شعورها كأمة، مهما كان شكل ذلك الشعور وأشكال التعبير عنه، أقدم من أمم الغرب وأطول عمراً، وأنها ذات حضارات قوية في التاريخ. ودارس التاريخ يعرف أن العرب ربما يكونون من أكثر الأمم اهتماماً بالأصول والأنساب وأقواها شعوراً بالخصائص. أقول ذلك ولا أقصد بالطبع انعدام التفاعل الفكري بين النهضة العربية والتيارات الفكرية التي كانت سائدة في الغرب وغير الغرب، فذلك من طبيعة الأشياء، فهو موجود في جميع حقب التاريخ بدرجة أو بأخرى. إن التفاعل والتأثر المتقابل وانتقال الأفكار ظواهر لا يمكن نكرانها أو الحيلولة دونها مهما كانت الظروف، لا بل ليس من المصلحة أن يحدث ذلك.

واليوم، وبعد أن مضى على بداية النهضة العربية الحديثة كل هذا الزمن، وبعد أن مرت حركة القومية العربية بالمراحل التي مرت بها، نقف اليوم في بداية مرحلة جديدة قد أطلقنا عليها أحياناً مرحلة تجديد الحديث عن القومية العربية. وإن كان في هذا التعبير ما

به مما يبعث على التساؤل، فهو لأن الفكر القومي قد مرّ في مرحلة انحسار نسبي في الفترة الأخيرة بسبب عوامل سياسية ونفسية أكثر منها فكرية. إن تجديد الحديث عن القومية العربية نفسه أمر تقف وراءه عوامل سياسية، هي أن الأمة العربية لم تستسلم لوضع التجزئة والسيطرة الاستعمارية ونشوء الكيان الصهيوني، بل رفضت ذلك الوضع واستجمعت بعضاً من قواها لهجوم معاكس. ومن هنا نشأ الشعور بأهمية النشاط الثقافي من أجل دعم هذا الاتجاه. وما قيام مركز دراسات الوحدة العربية إلا دليل على الرغبة من المهتمين بالفكر القومي بأن يساهموا في هذا الواجب القومي مهما تواضعت المساهمة. وخلاصة كل ذلك هي أننا نجد أهمية للعمل الثقافي القومي.

- ٢ -

في بداية النهضة العربية، كما كان الحال في جميع مراحلها ولو بدرجات متفاوتة، كانت هناك مسألة مقومات القومية العربية، أي عوامل تكوين الشعور القومي. وفي هذا المجال استمد الفكر القومي مادة غزيرة من اللغة والأدب، وكان ذلك أمراً منتظراً. فالفكر القومي كان مهتماً بتحليل المشاعر ووصف الأحاسيس والتفتيش عن الأسباب وشرح المقومات، فتناول اللغة والثقافة والتاريخ والمشاعر المشتركة محققاً إجماعاً أو شبه إجماع على أهمية هذه العوامل في تكوين الشعور القومي. ولكنه سرعان ما توسع إلى عوامل أخرى كان الإجماع عليها أقل، كالعنصر والمصالح المشتركة والدين. وكان في جميع ذلك يحاول تفسير الشعور الذي يسبق عادة التحليل والتنظير الفكري. إن الشعور يسبق التنظير، ولكن التنظير بحد ذاته يوقظ الشعور ويقويه، وهكذا كانت تلك العلاقة تفعل مفعولها في وسط مثقفي القومية العربية وكتّابها.

ويلاحظ أيضاً أن هذه البداية قد اتسمت بشيء من العمومية والتشابك مع حقول المعرفة وفروع التيار الفكري في ذلك الوقت، فكانت هناك المعاجم وكتب التاريخ وإحياء التراث، والحديث عن الشخصية المستقلة، والتغني بفضائل الشخصية العربية وبطولاتها، إلى جانب الشروح والكتابات الأكثر وضوحاً في موضوع عوامل القومية العربية. وبفعل عملية التطور والنضج الثقافي وتطور الأحداث، حدثت عملية الانتقال إلى مرحلة متطورة أعلى، فكان بذلك الإنتاج الفكري القومي المنظم الذي تناول موضوع القومية العربية بحد ذاته وأفاض في تنظيره، موصلاً الموضوع إلى مختلف طبقات المجتمع ومسمعاً الصوت إلى كل زاوية. وقد لعبت الأحزاب القومية في الوطن العربي الدور الأول في ذلك، كما ساهم ساطع الحصري في ذلك مساهمة تجلب الانتباه.

وإذا ما استدارت العين الأخرى على ما حدث للمجتمع العربي سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، نجد أن أمراً مهماً قد حدث في غير المجال الفكري. فالأقطار العربية قد حقق معظمها الاستقلال عن الاستعمار الغربي وقامت الدولة القطرية. ومع قيامها، بدأت عملية طرح المسألة الاقتصادية والاجتماعية، أي أحوال الشعب المعاشية. هذا في

الداخل، أما في الخارج فقد بدأت القضية الاجتماعية تأخذ أبعاداً حادة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبدأ الصراع بين الشرق والغرب، ووضع موضوع التنمية وأحوال الطبقات المسحوقة على بساط البحث والاختلاف والصراع. وكانت خلاصة كل ذلك أن فكر النهضة العربية الحديثة أخذ يهتم بموضوع بناء الدولة العربية الجديدة، أي نظامها الاقتصادي والاجتماعي، إلى جانب موضوع بعث الشعور القومي وتفسيره.

إن هذا التطور المهم الذي حدث في الفكر القومي كان من أهم ما حدث، فهو قد نقل التفكير القومي من مستوى إلى مستوى أعلى، هو النظرية، لأنه اعتبر المجتمع الذي يسعى لبنائه هو الموضوع، وبذلك كان واقعياً، بمعنى مماشاته الواقع واهتمامه بشؤون الأمة والإنسان، وهو أمر لو لم يحدث لانعزل الفكر القومي عن تطور المجتمع وما يحدث في العالم، ولأدى ذلك في النهاية إلى ضموره وعزوف الجماهير عنه. وبعبارة أخرى، استطاع الفكر القومي أن يستوعب التطور، فبقي حياً ملموساً وواقعياً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان هذا التطور منطقياً من حيث تفاعله مع روح العصر، مكتسباً صفة إنسانية ومتفاعلاً مع مشاعر الإنسان العربي في عصره الحديث.

وهنا أيضاً، وكما هو في جميع الحالات المشابهة، كان هناك تفاعل حي مع نظريات العالم في عملية واسعة من النقد والتأثير والتأثر، وفي بعض الأحيان الصراع الحاد والاقتتال الفكري، وحتى المادي.

وبفعل هذا الالتصاق بقضية الشعب من خلال اهتمام الفكر القومي بالجانب الاقتصادي والاجتماعي وتفاصيل معيشة الفرد وأوضاع المجتمع في مختلف المجالات، تولد طبيعياً ذلك الشعور بالمسؤولية السياسية، أي الشعور بأن القضية ليست قضية فكرية بحتة، بل إن الفكر نفسه وسيلة لتغيير المجتمع نحو الأفضل، وبذلك كان نشوء الحركات القومية المستندة إلى فكر قومي هدفه ليس تغيير أفكار ذلك القطاع المحدود من المجتمع ـ قطاع الفكر والثقافة ـ بل تغيير المجتمع برمته سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. وهكذا تطور الفكر القومي إلى مستوى جديد آخر في بناء النظرية القومية، سواء في مجال بناء المجتمع أو في مجال بناء الحركات السياسية. وكان ذلك تطوراً مهماً تعود إليه مزية إبقاء الفكر القومي حياً، ويفسر توسيع قاعدته الشعبية، وبذلك أصبحت الثورة ممكنة، وهذا الذي كان ولو بأشكال ودرجات متباينة. وهكذا تحوّلت القومية العربية من تيار فكري إلى ثورة سياسية.

ـ ٣ ـ

في التاريخ العربي الحديث حادث مهم لا يمكن إلا المرور به في مجال البحث في تطور الفكر القومي، هو القضية الفلسطينية. إن ما حدث لفلسطين من جميع الوجوه يمثل موضوعاً قومياً جديراً بالاهتمام في هذا المجال. إن تحليلاً فكرياً كاملاً لهذه القضية أمر

صعب في هذا المجال، إلا أنه لا بد من إشارة موجزة لأهم ما يمكن أن يتضمنه الموضوع.

لقد عرف العرب الاستعمار الغربي بشكل نفوذ وهيمنة واستعمار مباشر واستغلال اقتصادي، كما عرفوه بشكل مسعى لطمس الشخصية القومية والقضاء على اللغة العربية، وفي حالات أشد من ذلك، بشكل محاولة للدمج والتذويب بالبلد المستعمر كما في حالة الجزائر. ولكن كل ذلك كان دون ما حدث في فلسطين، إذ إن الذي حدث هو الاستعمار الاستيطاني، بكل معنى الكلمة، وبكل ما ينطوي عليه من إفراغ الأرض من أهلها وإحلال المستعمرين في مكانهم، وبذلك كان يمثّل صراعاً على الوجود المادي للإنسان المواطن. وقد أعقب ذلك تجربة واقعية لحياة فقدان الوطن والأرض من قبل اللاجئ الفلسطيني لمدة غير قصيرة من الزمن. إن مواطن الأرض المحتلة الذي بقي في أرضه قد عرف بالتجربة وضعاً اضطهادياً من قِبَل الاحتلال الصهيوني لم يعرفه أي عربي آخر. والحركة الصهيونية وكيانها في فلسطين يتوسعان تدريجياً في رقعة ذلك الكيان على حساب الشعب الفلسطيني والبلدان العربية المجاورة. كل ذلك قد خلق حالة من الشعور بتهديد الوجود لا يقوى على وصفها أحد من دون تجربة عملية. إن القومية العربية الآن تواجه حالة أكثر تعقيداً وحدّة من وضع التجزئة وتردي أحوال الدولة القطرية. إنها حالة الصراع من أجل البقاء ضد خطر مادي ملموس وليس محتملاً، وتلك مسألة واقعية من حيث السياسة، ولكنها ذات أثر فكري، فالفكر لا يمكن أن ينفصل عن الشعور.

إن القومية العربية تواجه في قضية فلسطين تحدياً معروف الأبعاد، ولكنها، من ناحية أخرى، تواجه وضعاً فكرياً تتجلى فيه بالملموس اليومي بشاعة الاستعمار الغربي ولاانسانيته وزيف ادعاءاته في التقدم واحترام الإنسان. إنها مقارنة غنية في معانيها الفكرية.

ـ ٤ ـ

ومن الأمور الفكرية المهمة التي واجهت الفكر القومي، مسألة العلاقة بالدين التي فحواها المحدد العلاقة بالإسلام. إن هذه المسألة في بدايتها كانت نتيجة لذلك الوضع المتخلف الذي ساد الفترة العثمانية، فترة العزلة عن الماضي الحي وعن روح العصر. ولعل أكبر خطأ ارتكب في تاريخ الفكر السياسي العربي هو التصور أو القول أحياناً بتناقض بين العروبة والإسلام. إن التحليل الموضوعي يشير بكثير من الأدلة على أنه ناشئ عن فهم خاطئ لروح الإسلام الأولى ولعلاقة الروح والجوهر بالشكل، أي النصوص، وعن ضعف في القدرة على معرفة التاريخ العربي وعلاقة العرب بالأمم الأخرى ودور العرب في الإسلام. ولكن الأمر لا يقتصر على قصور فكري بريء القصد، بل يتعداه إلى تأثر غير مقصود، وفي بعض الأحيان مقصود، بالشعوبية وآرائها الفكرية.

ومهما يكن، فقد حدث ذلك أحياناً، إلا أن الفكر القومي قد حقق انجازاً مهماً

في التطور، إذ نجح في مقاومة سوء الفهم هذا وصحح العلاقة الفكرية بين العروبة والإسلام. صحيح أن هذا التصحيح لم يكن شاملاً لجميع التيارات إلا أنه حدث ويتقدم بمرور الوقت. الإسلام هو روح العروبة، بمعنى أنه يعطي العروبة روح الثورة على الظلم والخطأ، وهو حافز للتقدم، ويعطيها النظرة الإنسانية في احترام الإنسان والمساواة بين الأمم من جهة، ويجعل وحدة الأمة العربية وقوتها وتقدمها مهمة أساسية لصالح الإسلام والمسلمين في العالم من جهة أخرى. إن نشر رسالة الإسلام يتطلب أن يكون للعرب دور أساسي فيه. وبذلك حقق الفكر القومي تقدماً مهماً في مجال اختراق محاولة بناء قاعدة للتناقض بين العروبة والإسلام، وإن كان ذلك التناقض قد فعل مفعوله السلبي في مرحلة ما وإلى حدّ ما.

ولكن يلاحظ في المرحلة الأخيرة ظهور بوادر ايجابية تمثلت بتصحيح متدرج في الأفكار والمواقف في التيارات الإسلامية، حيث نما الإدراك بخطأ التناقض المصطنع بين العروبة والإسلام.

ـ ٥ ـ

وبعد أن توثقت العلاقة بين البناء النظري للفكر القومي وتطور المجتمع العربي، أي بعد تكوين العلاقة بين النظرية والواقع، أصبح الفكر القومي، في الوقت نفسه مؤثراً في الواقع ومتأثراً به، وذلك هو الوضع الصحيح. وقد نتج من تكوين هذه العلاقة توسيع القاعدة الشعبية للفكر القومي، متمثلاً بنشوء الحركات القومية التي أصبحت ذات أثر في الوضع السياسي بشكل متدرج، حتى وصل مرحلة الفاعلية، فقامت الوحدة بين سوريا ومصر، وحدثت الثورات القطرية ذات الاتجاه القومي بدرجة أو بأخرى، وقد سميت هذه المرحلة مرحلة الدخول في مجال تحقيق المبادئ. إلا أن الفشل الذي أعقب ذلك في حادثي الانفصال وحرب ١٩٦٧ قد هز الوضع السياسي العربي وهز معه الوضع الفكري لتيار القومية العربية، فحدث الانحسار النسبي. ويلاحظ على هذه الفترة فكرياً أنه قد انحصر النشاط فيها في محاولة فهم أسباب الفشل، وهو جانب سلبي وعلى شيء من الايجابية غير المباشرة، متمثلاً بالاهتمام بالتنمية والتضامن العربي والعمل العربي المشترك، أي الحرص على ما سمي بالحد الأدنى. كل ذلك نشاط سياسي بالطبع إلا أنه لم يعدم شيئاً من التنظير الفكري المساند له. ولكن يلاحظ مع كل ذلك أن التيار القومي بقي موجوداً في الساحة ينتظر تطور الأحداث السياسية ولم يعدم أصواتاً مصرة وصيحات ثورية صامدة، حتى أتى الانعطاف السياسي مجدّداً الآمال وباعثاً على الثقة بالنفس، فارتفع صوت الوحدة العربية وتحرير فلسطين من جديد، وترددت أصداء ذلك في ميادين الحياة كافة، ومنها الحياة الفكرية.

إن التطور عملية معقدة، وذلك أمر عليه اجماع المثقفين. والتعقيد يعني، من جملة ما يعني، تعدد عوامل الجذب والدفع وعناصر السلب والايجاب، كما أن العلاقة بينها

ليست علاقات بسيطة من السبب والنتيجة، بل مركبة، لذلك فليس من المنتظر أن يكون خط سير المجتمع مستقيماً، بل إن صفته الأساسية هي التعرج. وليس ذلك هو المهم، بل المهم أن يكون الخط صاعداً.

وفي هذا الصدد، لا بد من التفريق بين أمرين في بحث مسألة العلاقة بين الفكر والواقع. أن يتأثر الفكر بالواقع، ذلك أمر طبيعي ومرغوب فيه، وهو ما يجب أن يكون إذا لم يرد للفكر أن ينعزل ويضمر. ولكن مسؤولية الفكر في عملية تقدم الواقع يجب ألا تكون تابعة، بل محركة متفاعلة وقائدة لتطور المجتمع. صحيح أن السياسيين غالباً ما تصدر منهم المساهمات المهمة في التطور الاجتماعي، إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود مجال للفكر، بل على العكس من ذلك تماماً. والسياسيون أنفسهم عندما تتوفر لهم القدرة على المساهمة يكونون في الغالب متأثرين بدرجة أو بأخرى بالنشاط الفكري الذي يبذله المفكرون في عملية التطور، كما أنهم في الغالب ما يكونون سياسيين ومفكرين في الوقت نفسه.

تلك هي نقطة ضعف في الفكر العربي عموماً، وهي ظاهرة يستحق الفكر العربي عليها الانتقاد؛ يجب أن يكون الفكر القومي مؤثراً في الأحداث لا متأثراً بها فقط.

وعلى كل حال، فذلك نقد صحيح، ولكنه من حيث الواقع أمر نظري، فإن الذي حدث في المجال الفكري كان يمثل القدرة الموجودة التي تعكس درجة التطور. إن الضعف النسبي للفكر العربي في مجال علاقته بعملية التطور قد يرجع إلى سبب ذاتي وقصور يعود إلى أمور خارجة عن الإرادة. ولكن الأمر قد لا يقتصر على ذلك، بل يتعداه إلى الموقف الأخلاقي للمفكر العربي نفسه، أي إلى أمور تتعلق بالموقف الشخصي، بكل ما ينطوي عليه ذلك من صلابة وثبات وتضحية ومتانة خلق وإخلاص للمبادئ. إن القصور الذي يمكن ارجاعه إلى هذا النوع من العوامل أمر مختلف لا نستطيع أن نقول عنه إنه مفروض لا سبيل إلى معالجته، لذلك فهو يستحق النقد وإشارة التقصير.

- ٦ -

إذا كانت مقولة إن الذهن البشري يزداد حيوية وتفاعلاً، وبالتالي يزداد نشاطاً عندما يتعرض لأفكار الآخرين، صحيحة، عندها يكون التنوع والاختلاف في الرأي مفيداً. إن الحقيقة مسألة فلسفية، ومهما اختلفت تعاريفها وتعددت الأمور التي تنطوي عليها يبقى فيها شيء مهم نستطيع أن نستعين به في هذه المناقشة، هو أن الحقيقة مهما كان تعريفها ومحتواها لا تنكشف للإنسان مرة واحدة. نقول ذلك لا لسبب فني هو التعقيد، بل لسبب جوهري هو أن الحياة تتطور. وإذا كانت الحقيقة التي يتحدث عنها الفلاسفة تُعنى بالحياة (مهما كان الفهم الفلسفي لذلك)، فإن ذلك يعني منطقياً أن الحقيقة تتكشف بالتدريج، وذلك هو معنى القول المعتاد: إن المعرفة تتراكم. نسوق كل ذلك لنقول بأن عملية التعلم مستمرة، وإنه لا أحد يستطيع الجزم أنه يعرف كامل الحقيقة الآن. صحيح

أن هناك نظريات وضعها مفكرون رصينون ومحترمون تقول بمثل هذا الادعاء (أو ربما الأغلبية تقول بذلك)، إلا أن المهم هو ليس ذلك، بل القبول بوجود أكثر من نظرية، أي قبول تعايش النظريات وتنافسها أمام العقل البشري. كل النظريات مفيدة وإن كانت أقل من ادعاء المعرفة الكاملة للحقيقة، إذ إن كل واحدة تجلب الانتباه لأمر أو أمور مهمة. لذلك كان لتعدد الآراء أهمية، ليست فكرية فقط، بل وعملية أيضاً.

إن الفكر القومي منذ بدايته حتى يومنا هذا يتضمن العديد من الآراء بدرجات متباينة من التنظيم والتنسيق والاقتراب من النظرية. ومهما كانت قضية الخطأ والصواب والقصور والكمال والفائدة والضرر، والنعوت الأخلاقية كافة، يبقى الاطلاع عليها جميعها أمراً مفيداً. إن المناقشة القديمة حول أيهما يحقق المصلحة العامة، المقياس المسبق (أي الرقابة) أم المناعة الذاتية (أي حرية الفكر) في التعامل مع ما يعرض على الجمهور من أفكار، قد حسمت بالتجارب العملية لصالح تكوين المناعة الذاتية والقدرة الذاتية على تمييز الخطأ من الصواب، وإن كان ذلك يتضمن بعض الخسائر والأضرار، إلا أن ذلك هو الثمن، ولا يوجد تقدم من دون ثمن. إن شعار حرية الفكر كان وسيبقى هو الأصح وبفضله حققت البشرية التقدم عندما اهتمت به وحصدت التخلف عندما أهملته. لذلك كان مهماً وجوهرياً أن تؤخذ جميع الأفكار والتيارات في عملية إعادة الاطلاع على الفكر القومي العربي، وهو موضوع هذا العمل الثقافي.

في الوضع العربي الآن عوامل ايجابية، ولعل أهم ما فيه من ذلك هو أن الفترة الماضية، منذ بداية النهضة الحديثة، قد شهدت تحديات للفكر القومي لم تكن سهلة ولا قليلة الخطورة. كانت هناك التحديات الفكرية متمثلة بنظريات طرحت كبديل لفكرة القومية العربية، وقد حققت بعض تلك النظريات تقدماً لا يستهان به في حينه، كما حصل للماركسية مثلاً، إذ تبادر إلى ذهن بعضهم في مرحلة ما أنها هي الأمل وطريق التقدم والخلاص، إلا أن تلك النظريات البديلة سرعان ما انحسرت وبانت نقائصها واتضح قصورها، فلم تصمد طويلاً.

وكانت هناك أيضاً التحديات السياسية متمثلة بالحوادث السياسية السلبية، كفشل الجمهورية العربية المتحدة. ولعل من أهم تلك التطورات السياسية السلبية هو ظهور الدولة القطرية كبديل للوحدة. إلا أن هذه الحوادث هي الأخرى لم تستطع القضاء على الاتجاه القومي، وإن كانت أضعفته إلى حدّ ما. فقد عاد أمل الوحدة إلى الظهور بشكل جاد، كما اتضحت نقاط الضعف في الدولة القطرية، خصوصاً في مجالي الأمن القومي والتنمية الاقتصادية. إننا نرى ملامح شعور واسع، بعضه صريح وبعضه خفي، بأن لا خلاص للأمة إلا بالوحدة التي هي أساس القوة والتقدم والحرية.

إذا كان هذا التقدير صحيحاً، فعلى الفكر القومي واجب عليه أن يؤديه هو التجاوب وتقوية خط النهوض. وفي مجال الواجب، يتبادر إلى الذهن بالدرجة الأولى أهمية الإنتاج الفكري الأصيل الذي يوسع هذا الشعور ويقويه من أجل أن تبدأ عملية

التصاعد والتأثر والتأثير المتقابل بين الفكر والعمل السياسي القومي. ولكن حتى يبدأ ذلك، لا بد من البداية، وإن كانت متواضعة. والبداية هنا هي محاولة بعث التراث القومي ليفعل مفعوله، كما فعل بعث التراث العربي مفعوله في بداية النهضة العربية الحديثة. لذلك كان هذا الجمع لهذه القراءات التي حرصنا على أن تكون حرة، بمعنى التنوع والأمانة. والقصد هو بالطبع المساهمة المتواضعة التي نأمل أن تحقق هدفها في تقوية الشعور القومي عند المثقف العربي، وعند الجمهور العربي.

- ٧ -

والآن، وبعد أن تجلّى بوضوح ابتعاد العالم الغربي عن الموضوعية في الجانب الإعلامي، بعد أن كاد الاعتقاد يسود أن الاعلام الغربي يتوخى الحقيقة، وبعد أن حاول الغرب جاهداً تعميم هذا الاعتقاد بشتى الوسائل، وبعد أن أخذت تتكشف، ولو بالتدريج، العلاقة المحبوكة بين الآلة الإعلامية بشتى صنوفها وبين مراكز السلطة واتخاذ القرار في العالم الغربي، تلك العلاقة التي تتكون من نسيج مالي واستخباري وإداري، أقول بعد أن حدث كل ذلك بات لزاماً علينا نحن العرب أن نحاول فهم حقيقة الموقف الغربي فكرياً. وبكلمات أخرى، علينا أن نعرف الجواب عن السؤال المهم، ألا وهو: هل الغرب موضوعي في المجال الفكري إزاءنا نحن العرب؟ هل هناك موضوعية فكرية في ما يتعلق بالعلاقة بنا نحن العرب؟ إن البحث عن الجواب عن هذا السؤال مهم الآن، كما كان مهماً في الماضي، ولا سيما أن بعض المثقفين العرب ربما لا يزال لديه بقية من نظرة ايجابية إلى تلك العلاقة في مجال الفكر. إننا ومنذ مدة طويلة، كنا نرى، وقد جاءت الأحداث لتقوّي ذلك الرأي، أن الغرب ليس موضوعياً في الفكر كما كان غير موضوعي في الإعلام إزاء علاقته بنا نحن العرب وإزاء جميع بلدان العالم الثالث التي تقوم بينه وبينها علاقة إشكالية محورها النفوذ والهيمنة والتأثير الاستعماري.

إن مسألة الغرض المسبق في الفكر الغربي ليست جديدة، فهناك مجمل النشاط التبشيري المدعوم بالنشاط الثقافي والإنتاج الفكري الذي كان ولا يزال في جوهره يخدم الغرض السياسي للدولة الغربية ومصالحها. كما تجدر الاشارة أيضاً إلى مجمل الإنتاج الثقافي الذي قام به المستشرقون، والذي اتضحت أغراضه السياسية المسبقة بأدلة كثيرة جلبت انتباه عدد من الكتّاب العرب، فكتبوا عنها منوهين ومناقشين ذلك الميل المشوب بالغرض السياسي.

والغرض من إيراد هذه الملاحظات هو التمهيد للقول إن القومية العربية والوحدة العربية كانتا دوماً، ومنذ بداية النهضة العربية الحديثة، هما الموضوع الأكبر الذي سعى الفكر الغربي والثقافة الغربية لمقاومته فكرياً وبشتّى الأساليب الذكية وغير الذكية أحياناً. وبالطبع، فالحركة الصهيونية تعير ذلك أهمية أولى، لذلك كانت جهودها الثقافية في المقاومة تتناسب مع درجة عدائها لنا.

والذي يتسنى له استعراض الجهد الثقافي المعادي، يجد العديد من المحاور التي

يدور حولها البحث والنقاش، وإن كانت كلها تصبّ في النهاية في مجرى الهدف السياسي المسبق ـ هدف إضعاف فكرة القومية العربية والوحدة العربية. فهناك محور البحث في شؤون الأقليات وإحياء لغاتها وتراثها، وهناك محور التأكيد على أثر القومية في الغرب في ظهور القومية العربية للتوصل إلى عقد صلة بين القومية العربية والأفكار النازية التي تحرر منها العالم، وهناك محور خلق التناقض بين القومية العربية والإسلام، وهناك مسألة التشكيك بأصالة الحضارة العربية الإسلامية وتقليل أهمية ما أضافته تلك الحضارة إلى حضارة العالم. ثم هناك كل ما من شأنه أن يغذّي الانقسامات الطائفية والمذهبية والتشكيك بالحوادث المهمة في التاريخ العربي ويضعف الثقة بالنفس. ثم هناك مسألة العصرنة وما تنطوي عليه من نظرة عالمية تتأتى من الاندماج بالغرب والتخلي عن الهوية باسم التقدم ومماشاة روح العصر. ولا يقل أهمية عن ذلك اشاعة الثقافة القانونية التجريدية في المجال القومي التي تنبض بها عبارة الشرعية الدولية، والتي تهدف في نهاية المطاف إلى إضفاء صفة الديمومة والثبات على وضع التجزئة والدولة القطرية تحت غطاء القانون الدولي وشرعية ما هو موجود. ويجد المحص شيئاً غير يسير من ذلك في النشاط الثقافي للأمم المتحدة ومؤسساتها.

والذي يعير مسألة الجهد الثقافي المعادي الذي يبذله الغرب والحركة الصهيونية ضد الفكرة القومية والوحدة العربية، إذا ما فتش ملياً يجد أن هذا الجهد قد تكونت له مؤسسات كثيرة العدد وواسعة النشاط، بعضها مزروع في الوطن العربي والبعض الآخر في بلدان الغرب، وهو يتخذ شتى الأشكال المؤسسية كمراكز البحوث وأقسام الدراسات العربية والإسلامية والشرقية في الجامعات الغربية.

لذلك علينا نحن العرب، ولا سيما من يعمل في المجال الثقافي القومي، أن نعير ذلك الاهتمام المناسب، فكما يكون الهجوم يجب أن يكون الهجوم المعاكس بحسب التعبير العسكري. علينا أن نوسع نشاطنا الثقافي القومي، كماً ونوعاً، وأن يكون الهدف أولاً مخاطبة جيل الشباب. علينا أن نحسن مخاطبة هذا الجيل كما أحسن من سبقنا مخاطبتنا خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. ويقع مشروع هذا الكتاب في نطاق هذا الجهد الذي نأمل أن يكون مفيداً.

مركز دراسات الوحدة العربية

تقديم الكتاب الخامس

وفي هذا الجزء أيضاً هناك نوع من التعدد في المواضيع إلا أنها في النهاية لها ما يربطها بجامع مشترك. فهناك أولاً القضية الفلسطينية التي هي بالنسبة إلى القوميين العرب مسألة في صميم القضية القومية لأنها تتعلق بسلامة جزء من أرض الوطن العربي. فالاستعمار البريطاني الذي مهّد للغزو الصهيوني يعني الاعتداء على أمر مهم في الاعتبار القومي ألا وهو سلامة أرض الوطن. فمهما كان الاجتهاد واختلفت الآراء في موضوع القومية تبقى سلامة أرض الوطن قضية مركزية. وسلامة أرض الوطن متصلة بشكل مباشر بسلامة الشعب، أي الشعب العربي الفلسطيني، لذلك كان دوماً أمر الدفاع عن الأرض وعن سلامة الشعب ووجوده في مقدمة الاهتمام القومي. وهذا هو معنى القول إن القضية الفلسطينية قضية قومية.

ومن الجانب الآخر للموضوع، كانت أحداث الغزو الصهيوني لأرض فلسطين والخطر الذي تعرّض له شعبها قد أججت الشعور القومي، وعملت بذلك كعامل مساعد على نشر الوعي القومي من خلال الشعور الذي أخذ يدبّ في نفس كل عربي، بدرجة، أو بأخرى، بأن بلاده ووجوده مهددان بشكل أو بآخر عاجلاً أم آجلاً. وشعور كهذا من شأنه تحريك الدافع القومي وتقوية الوعي بالذات القومية والوجود القومي.

حقاً لقد كانت أحداث القضية الفلسطينية منذ بدايتها موضوعاً مهماً في الجهد الثقافي القومي. وما هو مدرج في هذا الجزء ليس إلا النزر اليسير بالنسبة إلى مجموع ما كتب من قبل القوميين وغيرهم. ومع ذلك، فللقضية الفلسطينية مكان مهم في محتويات هذا الجزء، ومن دون ذلك يكون الجهد ناقصاً. وبصورة متعلقة بذلك ومتصلة به، تعالج بعض مقالات هذا الجزء الموضوع الأوسع ألا وهو موضوع الأمن القومي العربي. وهنا لا بد من التنويه إلى أن اتساع هذا الموضوع أمر يجب ألا يكون صعب الفهم، فالأمن القومي العربي معرض لأخطار أخرى غير الخطر الصهيوني، بغض النظر عن الحجم والجدية التي تتصف بها الأخطار الأخرى مقارنة بالخطر الصهيوني. إن تخوم الوطن العربي في بعض الجهات تتعرّض للضغوطات، كما توجد هناك حركات انفصالية تغذيها الدول الاستعمارية. ثم هناك الموضوع الجديد الذي تطلق عليه الأدبيات المتداولة الآن اسم

«الأمن الغذائي» و«الأمن المائي». لقد كان لجملة موضوع الأمن القومي بدائرته الواسعة ومحتوياته المتعددة مكان بارز في محتويات هذا الجزء.

وهنا تجدر الاشارة إلى نقطة ذات أهمية للقارئ الكريم هي أن الكتابات عن القضية الفلسطينية والأمن القومي واسعة وأكبر بكثير من أن يحتويها كتاب كهذا، كما أن جزءاً مهماً وكبيراً منها حديث التاريخ وفي متناول القارئ العربي الآن. لهذه الأسباب معاً لم نجد من المناسب أن نحاول ضمها أو ضم الجزء الأكبر منها، بل عمدنا إلى الاختيار. أما الأساس الذي اعتمدنا عليه في عملية الاختيار فهو أن يكون المقال إيضاحياً وافياً بالغرض ويصلح لأن يعوض إلى حدّ جيد عن كثير مما يقترب منه من المقالات الأخرى التي آثرنا عدم شمولها. إن هذا الاعتبار نسبي بالطبع وخاضع للاجتهاد، ومن الممكن أن تثور حوله اختلافات الرأي بشأن ما ينطبق عليه وما لا ينطبق عليه هذا المعيار. ومهما يكن، فهو اعتبار فضّلنا الإتيان على ذكره تنويراً للقارئ.

ثم هناك اعتبار آخر هو أن تكون المقالات تاريخية فيها شيء من القدم وليست في متناول القارئ الحديث بسهولة في الوقت الحاضر. وهو هدف مهم في اعتبارات اختيار مواد هذا الكتاب عموماً. وهنا أيضاً يخضع المقياس للاجتهاد والآراء المتباينة، فما هو في متناول هذا القارئ قد لا يكون كذلك بالنسبة إلى القارئ الآخر وهكذا.

ثم هناك قضايا التحرر العربي عموماً. وهنا أيضاً تتسع العبارات لأمور شتى تبدو مختلفة إلا أنها لا تخلو من دائرة واسعة تجمعها. إن قضية التحرر العربي تعني في جوهرها ذلك الكفاح الذي تخوضه الأمة بعد أن تتحسس ذاتها، أي كيانها ووجودها القومي. والتحرر يعني تحرراً خارجياً من نفوذ الاستعمار بأشكاله كافة، وداخلياً من جميع عوائق التوحيد والتقدم والنهضة. إن هذا الموضوع الواسع قد شكل كفاحاً متصلاً شهدته الأقطار العربية بدرجات متباينة وامتد على حقبة زمنية ابتدأت من فجر النهضة العربية الحديثة في أواخر العهد العثماني واستمرت في مرحلة دخول الاستعمار الغربي ولا تزال مستمرة بشكل أو بآخر. المهم في كل ذلك هو أن الحافز لحركة التحرر هو الشعور القومي بضرورة الاستقلال القومي وإنشاء الكيان العربي الجديد المتجه نحو النهضة والتقدم والرفاه والعدالة لمجموع أفراد الأمة. ويلاحظ أن النضال الثقافي في هذا المجال الواسع قد ساهم فيه الكتّاب العرب من مختلف الأقطار العربية ولم يكن مركزاً أو مقصوراً على قطر أو عدد قليل من الأقطار العربية. كما يلاحظ أنه أعار مخاطبة الشباب أهمية خاصة، نظراً إلى ما يتمتع به الجيل الشاب من صفاء في الذهن وتجرد نسبي من المصالح وطاقة على العمل والحماس والاستعداد للتضحية.

ولن نختتم هذا التقديم من دون الاشارة إلى المتفرقات التي ضمها هذا الجزء. فالمتفرقات أمر لم يكن من الممكن تجنبه، إذ لم يكن بالمستطاع تصنيف جميع المحتويات تحت أبواب محددة، فذلك من طبيعة أمور هذا المؤلف المكوّن من مجموعة مقالات. إن

المتفرقات وإن كانت تحمل هذا الاسم إلا أن ذلك لا ينقص من فائدتها وملاءمتها، فهي تعالج مواضيع شتى إلا أنها جميعها تتعلق بموضوع المؤلف، ألا وهو القومية العربية والشعور القومي.

لذلك فالخاصية هذه وحدها تكفي لكي توفر للمقال الأرضية الصالحة لأن يتضمنه هذا الجزء. وهنا أيضاً كان لاعتبار قدم المادة وتيسيرها بعد أن كانت غير متوفرة بسهولة بين يدي القارئ من الجيل الجديد مكان الأهمية في الاختيار. كما كان لمساهمة كتّاب من مصر وسوريا وآخرين من المغرب بشكل ملحوظ في مقالات هذا الجزء أهمية خاصة.

مركز دراسات الوحدة العربية

الاستقلال القومي: ما هو، ومستلزماته(*)

نقولا الحداد

أولاً: ما هو الاستقلال القومي؟

يُعنى اليوم بالاستقلال القومي المطلق، أو باستقلال أمة، أو باستقلال شعب، تمتع القوم أو الأمة أو الشعب بالحكم الذاتي التام بحسب نظام أو دستور يسنه نواب ينتخبهم الشعب، ويقضي هذا الدستور بأن يتولى إدارة الحكومة حكام ينتخبهم أو يوافق على تعيينهم هؤلاء النواب أيضاً. وبعبارة أخرى، يقضي هذا الدستور بأن تكون الحكومة تحت سيطرة نواب الشعب ومسؤولة لديهم.

جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية والجمهورية الفرنسوية نموذجان لهذا الاستقلال التام المطلق، على أن الاستقلال هذا منثلم كثيراً أو قليلاً في مواضع مختلفة في كثير من الحكومات الدستورية.

ففي انكلترا (التي تُعدُّ في مقدمة الأمم من حيث الحكم الذاتي) للملك بحسب الدستور يد ولو ضعيفة في إدارة الحكم، والملك فوق القانون، ولا شأن للشعب في تمليكه، وللأعيان حقوق ليست للعامة.

وفي المانيا للإمبراطور يد طولى ونفوذ واسع في إدارة الحكم من الوجهة الدستورية. ولما كان الامبراطور الحالي مندغماً في السلطة العسكرية والسلطة العسكرية مندغمة فيه أصبحت الحكومة الالمانية تحت سيطرة السلطة العسكرية خلافاً لسائر الحكومات الدستورية جميعاً لأن هذه تسيطر على السلطات العسكرية.

وفي روسيا قبل الانقلاب الأخير كان الدستور الروسي يخوّل القيصر نفوذاً يضارع نفوذ امبراطور المانيا أو يزيد.

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٢٦ (١٩١٧)، ص ١١٢ ـ ١١٨.

وفي تركيا كان لحزب الاتحاد والترقي نفوذ واسع قضى تدريجاً على روح الحكم الذاتي. وقد لعب هذا النفوذ دوراً في الدستور نفسه حتى أيد سيطرة هذا الحزب وعادت العناصر العثمانية غير التركية إلى تحت نير الترك وغدت تقاسي من عنف الاتحاديين واعتسافهم ما كانت تقاسيه بعد حكم عبد الحميد الذي كان مطلق السلطان. فالعناصر التي تحكمها عناصر أخرى لا تعد مستقلة ولا شريكة في الاستقلال مهما كان الدستور مؤسساً على مبادئ الحكم الذاتي.

وفي كندا وأستراليا وولايات افريقيا الجنوبية المتحدة الحكم ذاتي محض، وإنما يشرف عليه إشرافاً فعلياً الحكم الانكليزي عن يد نائب الملك. فالاستقلال يعد مثلوماً.

وفي المكسيك حكم الرئيس دياز نحو عشرين سنة لا بمطلق اختيار الشعب حسب الدستور المكسيكي بل بحوله هو وطَوْله وسطوته إلى أن قام الجنرال ماديرو وتغلب عليه بثورة وخلعه.

في جميع الجمهوريات الأمريكية الجنوبية والوسطى كثيراً ما لا يتبوأ رئيس جمهورية كرسي الرئاسة إلا إذا تغلب بحرب دموية عل منازعيه. فالاستقلال في كل هذه الجمهوريات يعد معدوماً. ولا عبرة بكونها جمهوريات يتعاقب فيها رؤساؤها من الشعب نفسه لأن السلطة ليست مستمدة من أكثر الشعب بملء اختياره.

إذاً لا يعد شعب مستقلاً مطلق الاستقلال إلا إذا كانت السلطة الحاكمة ـ والسلطة كلها ـ مستمدة من الشعب نفسه ـ ومنه وحده ـ بملء اختياره. فإذا استعلى فرد على شعب أو شعب على شعب أو قهر قسم من الشعب قسماً آخر كان الاستقلال مثلوماً مهما كان نظام الحكم الدستوري استقلالياً.

على أن انثلام الاستقلال لا يقضي حتماً بعدم تمتع الشعب بنعمة الاستقلال. فقد تكون السيطرة الأجنبية على الاستقلال حاميته أو مؤيدته أو صائنة له من التداعي إلى السقوط أو من العبث به ولا سيما إذا كانت القوة المسيطرة في يد حكومة هي نفسها استقلالية تحب الاستقلال وتحترمه.

ثانياً: مستلزمات الاستقلال

لا يتيسر الاستقلال القومي المطلق إلا إذا تيسرت كل مستلزماته. وبقدر ما ينقصه من هذه المستلزمات يكون منثلماً. وإليك أهم هذه المستلزمات:

١ ـ تكوُّن القومية ووحدتها

الاستقلال صفة لذات. فلا استقلال بلا مستقل كما أنه لا حمرة بلا أحمر، أي أنه لا يقال باستقلال قوم ما لم يتكون ذلك القوم أولاً. فما هو القوم في عرف السياسة؟

القوم يؤلف من أفراد من الناس تربطهم روابط طبيعية اجتماعية مختلفة: الدم، واللغة، والعقيدة الدينية، والعقيدة السياسية، والعادات التقليدية، والمصالح الاقتصادية، والمنطقة الجغرافية. وبهذه الروابط يتكون منهم جسم واحد تتحرك أجزاؤه، أفراده وفئاته، معاً حركات متوافقة متصاقبة، بحيث تصبح هذه الحركات كأنها حركة واحدة صادرة من جسم واحد تتجه إلى غاية واحدة هي نفع القوم نفسه كله.

فالقوم في هذا العرف يفيد معنى وحدة مادة الجماعة ووحدة حركتها ووحدة غايتها. وكلما نقصت أو انفصمت رابطة من تلك الروابط انثلمت وحدة القوم وضعفت قوميته، حتى متى زالت تلك الروابط أو زال معظمها وأهمها، تلاشت القومية وأصبح أولئك الأفراد مجموعة جماعات أو ملل أو نحل مختلفة غير متصاقبة وغير متوافقة في كل حركاتها، وكل جماعة تتحرك حركة تتجه بها نحو نفعها الخاص بقطع النظر عما إذا كانت حركتها تتفق مع حركة جماعة أخرى أو تختلف عنها. وفي هذه الحال تتراوح الجماعات بين الفوضى والحروب أو الخضوع لحاكم مستبد يجمعها تحت سيطرته بيد من حديد.

على أن متانة كل رابطة من هذه الروابط تختلف باختلاف الأقوام، وباختلاف الأزمنة أيضاً؛ فاختلاف الأقوام، في العقيدة الدينية مثلاً، هي عند الشرقيين أقوى منها جداً عند الغربيين، حتى إنها جعلت كل طائفة قوماً قائماً بذاته. ولا تكاد تجمع هذه الأقوام المختلفة في العقيدة إلا الجامعة السياسية الجبرية. والغالب في الغرب أن العقيدة السياسية مقدمة على العقيدة الدينية، أي أنها أشد رابطة كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن رابطة العقيدة الدينية ضعيفة جداً فيها بإزاء رابطة السياسة، بل إن تلك تكاد تكون معدومة. ورابطة الدم أقوى في الولايات الجنوبية الأمريكية منها في نيوزيلاندا، فإن الأمريكان في الجنوب يتعصبون ضد الزنوج، في حين أن مهاجري نيوزيلاندا يتحدون مع قومها الأصليين.

وأما في اختلاف الأزمنة، فكرابطة اللغة، فإنها تفوقت على رابطة العقيدة في إبان هذه الحرب في سوريا. وربما كان الأمر كذلك في كثير من البلاد المحاربة أيضاً. على أنه يقال بالاجمال إن أقوى الروابط رابطة اللغة لأنها الوسط الواسع الذي تتحرك فيه وتتمازج عقول الأفراد وعواطفهم، وتليها رابطة المنطقة الجغرافية التي تتمازج فيها مادة القوم، ثم رابطة الدم، فرابطة العقيدة، فالعادات، فالمصالح الاقتصادية... الخ.

من ذلك نفهم لماذا قومية فرنسا أو قومية الولايات المتحدة أمتن من قومية بريطانيا العظمى (بدليل أن ايرلندا تريد أن تنفصل عنها)، ولماذا قومية انكلترا أمتن من قومية النمسا، وقومية هذه أمتن من قومية تركيا، وقومية هذه أقوى من قومية زنوج افريقيا.

٢ ـ التربية الاجتماعية

في الأمة التي تخضع لحاكم مطلق السلطة تضعف أو تكمن جميع الروابط بين أفراد الأمة وبين جماعاتها، إذ يحل محل روابطها رابطة سلطة الحاكم الأعلى، أي أن الأفراد لا

يرتبط بعضهم ببعض اللهم إلا برابطة المصلحة فقط، وإنما يرتبطون كلهم بالحاكم الأعلى، أو بعبارة أخرى، إن سلطة الحاكم الأعلى تجمعهم تحت إمرته. وأما الروابط الأخرى فتكون ثانوية، أو بالأحرى تكون كامنة غير عاملة لعدم لزومها لربط الأفراد في جماعة، ولعدم استقلال الأفراد في إراداتهم وأفكارهم وعواطفهم، أي أنهم غير مباح لهم كجماعة أن يريدوا أو أن يشتهوا أو أن يرتأوا.

ففي هذه الحالة تكون التربية الاجتماعية معدومة. والمراد بالتربية الاجتماعية أن يعرف القوم حقوقهم وواجباتهم الاجتماعية كجماعة يتعاون أفرادها ويتضامنون ويتشاطرون العمل والنفع، وأن يمارسوا هذه الحقوق والواجبات من غير تفريط ولا إفراط أو أن يعرفوا كيف يمارسونها.

أما الحقوق الاجتماعية فتكاد تنحصر في:

أ ـ أن يكون لأفراد الجماعة ملء الحرية في الاتفاق على شكل النظام الذي يستصوبونه لتدبير شؤونهم وسياسة أمورهم، وعلى تنقيح هذا النظام وتعديله كما شاؤوا.

ب ـ الاتفاق على اختيار الأشخاص الذين يتولون تنفيذ هذا النظام.

ج ـ أن يكون لكل فرد الحق بالتمتع في نعم هذا النظام بلا تفاضل ولا تمييز.

وأما الواجبات لقاء هذه الحقوق فيمكن ردها إلى ثلاثة:

(١) خضوع الأفراد والفئات أو الجماعات للنظام الذي اتفق الجمهور (أو أغلبيته) على وضعه، واحترام هذا النظام وتأييده.

وذلك يستلزم أن يكون القانون السلاح الوحيد الذي يتسلح به كل فرد، موظفاً كان أو غير موظف، في أي عمل يعمله. وأما إذا كان بعض الأقوياء يتسلحون بجاههم، أو بصولتهم أو بسلطتهم المخولة لهم من قبل الشعب، أو بمالهم لتنفيذ رغائبهم المخالفة للقانون، تداعى الاستقلال للسقوط وأصبحت الجماعة تحت خطر الفوضى وعرضة للفساد السياسي الداخلي. وربما أفضت الحال إلى الثورة وإلى الوقوع تحت نير الغزاة.

ولكن إذا كان أضعف فرد من أفراد الجماعة يستطيع أن يتهدد أقوى معتد عليه بالقانون، ويقدر أن يوقفه عند حده بهذا التهديد، وكان رجال الحكم قائمين على تنفيذ القانون بكل أمانة ودقة، كان الاستقلال القومي متيناً وراسخاً.

(٢) لما كان الاجماع يتعذر في كثير من الأمور أو يستحيل، كان لا بد من الاكتفاء باتفاق الأكثرية على تقرير أي أمر. فمن الواجب أن تذعن أقلية القوم لقرار أكثريته، ذلك لأن الحق في الأمور الاجتماعية نسبي يختلف باختلاف الأحوال. وليس من قياس لمقايسة الحق إلا اتفاق الأكثرية. أجل قد ترتكب الأكثرية خطأ في حق مصلحة الجماعة ويكون الصواب في جانب الأقلية، وإنما لما كان الفيصل الوحيد بين القوم المختلفين هو أكثريتهم

كان قرار الأكثرية حقاً ولو كان خطأ في نظر الآخرين، وقول الأقلية بطلاناً ولو كان صواباً، وإلا تعذر تقرير أي أمر من الأمور وتعرضت الجماعة للثورات الأهلية.

على أن وقوع الأكثرية في الخطأ قليل أو نادر لأن جمهور العامة يغلب أن ينقادوا إلى خاصتهم هم متى رأوهم أكثر هدى وسداداً. على أن الجري على رأي الأكثرية الخاطئ أقل ويلاً للجماعة من تمرد الأقلية ونزاعها العنيف مع الأكثرية، لأنه متى اتضح الخطأ يسهل الجنوح إلى الصواب. ولكن نشوب النزاع الحاد بين الفئتين قد يفضي إلى تمزيق الجماعة.

(٣) اعتبار المصلحة العمومية أهم من المصلحة الفردية والتضحية بهذه فدية لتلك إذا لم يكن بد من هذه التضحية. مثال ذلك أن تأمر مصلحة الصحة العمومية بعزل مصاب بوباء تفادياً لانتشار الوباء، أو أن تأمر مصلحة التنظيم بهدم منزل لتصحيح شارع عمومي، أو أن تأمر بنقل معمل أو مصنع ضار بالسكان ومقلق لراحتهم من وسط الحي العامر إلى مكان بعيد عن السكان.

فواجب الفرد لقاء هذه المصلحة العمومية الإذعان لأوامر الحكومة عن طيب خاطر ورضى ولو كان في إذعانه ضرر عليه وخسارة، لأنه كما يتمتع الجمهور بنفع تضحيته يتمتع هو أيضاً بنفع تضحيات أخرى ضحى بها الجمهور.

وإنما يرضى الفرد بهذه التضحية متى وزن الأمور وثبت له أن جميع مصالحه تتهدم وتذهب سدى إذا فقدت الجماعة روح اعتبار المصلحة العمومية فوق المصلحة الفردية. فإذا أصر كل فرد من القوم على تقديم مصلحته الخصوصية بالرغم مما فيها من منافاة المصلحة العمومية انتفى مبدأ تعاون الأفراد وتضامنهم وتشاطرهم نفع هذا التضامن، وبالتالي اضمحلت وحدة القوم وصار الأمر فوضى. وفي الفوضى خسارة على الفرد تفوق جداً التضحية التي ضنّ بالتضحية بها لمصلحة الجمهور.

٣ ـ الارتقاء في التمدن إلى مستوى واحد

الاستقلال القومي بالمعنى السابق بيانه يندر أو يقل أو يكون معدوماً في القبائل المنحطة. وحيثما يتراءى لك الاستقلال مستتباً في قبيلة منحطة نجد لأقل تبصرة أن هذا الاستقلال وهم لا حقيقة لأن القومية ضعيفة أو منحلة. وما تراه من الاستقلال إنما هو استقلال الأفراد لا استقلال الجماعة.

وقد لا تتكوّن القومية في قبيلة منحطة إلا إذا سيطر عليها كبير من كبرائها وتحكّم فيها. فالاستقلال الحقيقي مفقود بدليل أن زعامة القبيلة موضوع تنازع بعض أفرادها الأقوياء، تنازع حتى الدم. فالأقوى الذي يتغلب على منازعه يسود القبيلة. إذاً ليس الأمر شورى بين أفراد القبيلة.

على أنه كلما ارتقى القوم في المدنية والعمران أمكنهم الاستقلال وطرح نير السيطرة

الاستبدادية عن أعناقهم. ولا مشاحة في أن أرقى الأمم وأعرقها في المدنية أكثرها تمتعاً بنعمة الاستقلال. ولا شذوذ لهذه القاعدة.

وسبب ذلك واضح، وهو أن اتساع دائرة العرفان ونضج العقول وسلامة الضمائر وصحة الآداب واشتباك الأفراد في المصالح على قواعد التضامن والتعاون ـ كل ذلك يقدر الأفراد على فهم نعمة الاستقلال القومي وكيفية الحصول عليه وتأييده والتمتع بنعمته. الفهم يشترط أن يكون ارتقاء الأفراد كلهم إلى مستوى واحد. فإذا كان الارتقاء منحصراً في فئة منهم دون فئة كان فريق منهم أحياناً مستبدين متحكمين، وفريق آخر خدمة مسودين مستعبدين. وبذلك ينتفي الاستقلال انتفاء تاماً أو ينثلم ثلمات كبيرة يتعذر صدها إلا بارتقاء العامة إلى صف الخاصة.

٤ ـ سبك القوم في قالب واحد

من أهم مستلزمات الاستقلال القومي وحدة القومية، وربما كان أهم شرط لوحدة القومية سبك تصورات الأفراد وآرائهم وعواطفهم في قالب واحد لكي يسهل تفاهمهم وتوافقهم. وتختلف تصورات أفراد القوم، كأن ترى فئة سفور المرأة عيباً، وترى فئة أخرى تحجبها غبناً لها، أو كأن يستعظم زيد معرّة الاغتصاب ويستسهلها عمرو، أو كأن يستسهل فلان تقليد الأزياء الأجنبية ويستصعبها فلان آخر. ففي حالة اختلاف التصورات، إذا عرضت صورة على القوم لا تجدها تستلفت الجميع معاً، فيكترث لها فريق وقد لا يفطن لها فريق آخر.

وتختلف آراء القوم، كأن ترى فئة فضل الاقتباس من علوم الأمم الأخرى أو صناعاتها أو أزيائها، وترى فئة أخرى تقديس التقاليد والمحافظة على القديم. فإذا بسطت اقتراحاً للقوم في حالة تباين آرائهم يتعذر عليك أن توفق بينهم.

وتختلف عواطف القوم، كأن يتأثر بعضهم أكثر من البعض الآخر للرزايا وللبركات، أو كأن يميل بعضهم إلى جمال الطبيعة أكثر من البعض الآخر، أو كأن يحب بعضهم التبجيل والتمجيد ولو تملّقاً ويكرهه البعض الآخر. فإذا ضربت على وتر عاطفة استفززت فئة من الناس دون فئة أخرى.

فالاختلاف البيِّن في التصورات والآراء والعواطف عقبة في سبيل الاستقلال القومي، وإنما يتلاشى هذا الاختلاف بطبع أنفس القوم بطابع واحد أو سبك هذه المذكورات في قالب واحد.

والوسيلة الناجعة لهذا السبك توحيد أسلوب التربية والتعليم. ومهما اختلف أفراد القوم أو فئاته في تلك المذكورات، فبتوحيد أسلوب التربية والتعليم يمكن تلاشي هذا الاختلاف في جيل أو بضعة أجيال.

وثبة العرب،

وكيف خرجوا من الصحراء إلى الظفر(*)

محمد عبد الله عنان

إن وثبة العرب من قفار مكة إلى الغزو، وإقدامهم في قلة من العدد، ونقص في الأهبة على اقتحام دولتين من أعظم دول التاريخ مما يثير الدهشة ويدعو إلى التأمل، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن نصر العرب بعد فترة يسيرة من ظهور الإسلام على الدولة الفارسية ذات المدنية العريقة، والجيوش الجرارة، والأهبة العسكرية الوافرة، واجتياحهم معظم أقطار الدولة الرومانية على ما كانت عليه من منعة في القوى، وضخامة في الموارد، وإنشاءهم في مدى نصف قرن فقط على أنقاض ما هدموا من صروح الدولتين الفارسية والرومانية، دولة شامخة تناهض أعظم دول التاريخ ـ لا نبالغ إذا قلنا إن ذلك من المعضلات التاريخية التي لا يكاد يكفي لشرحها ما نعرف من قوانين التاريخ وعلل العمران.

بيد ان في ظروف العصر الذي حدثت فيه وثبة العرب الأولى، واضطرام الصراع بين دولة الخلفاء الناشئة الفتية، وبين فارس والقسطنطينية، ما يقرّب فهم هذه المعضلة، وإن تكن العوامل المادية لم تعمل في إذكاء فورة العرب ما عمل الدين الجديد الذي التف العرب حول لوائه، أعني أن وثبة العرب هذه وما اقترن بها من فتوح باذخة وانتصارات باهرة ترجع إلى عاملين أساسيين أحدهما مادي، ويتعلق بظروف الأمم التي قضت الحوادث أن تكون فرائس العرب، والآخر معنوي ويتعلق بتأثير الإسلام في نفوس القبائل العربية التي خرجت من الصحراء إلى الغزو باحثة عن السلطان والثروة والملك.

فأما العامل المعنوي فآثاره في وثبة العرب قوية بارزة. طلع الدين الجديد على قبائل مشردة مشتتة تعيث بعقليتها التقاليد الوثنية، وتمزقها الحروب الأهلية، فألف بينها، وأمدها بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية متينة. وكانت خواص العصر الذي ظهر فيه

(*) نُشر في: الهلال، المجلد ٣٤، الجزء ٩ (١٩٢٦)، ص ٩٣٩ ـ ٩٤٤.

النبي العربي مما يمهد للدعوة الجديدة، ويدعم ذيوعها وتقدمها؛ كان عصراً يعصف الانحطاط العقلي فيه بالطبقات الحاكمة والارستقراطية في العالم المتمدين عصفاً ذريعاً. وكان معظم المجتمعات يموج سأماً وسخطاً على الأحوال والنظم التي كانت تسود وقتئذ، وكان السواد من البشر يطمح إلى إقامة نظم اجتماعية أرقى وأمثل، فكانت بوادر من هذه الريح العامة تهب في بلاد العرب، وكان العرب يشعرون بالحاجة إلى دين أمتن في نظمه، وأنقى في تعاليمه وتقاليده من الوثنية المضطربة المنحلة، بل كانت شعوب فارس والشام ومصر تشعر بمثل هذه الحاجة إلى تعاليم جديدة ترضي مشاعرها الدينية بأكثر مما كانت ترضيها تعاليم النصرانية أو اليهودية أو المانوية التي كانت تضطرم بالخلاف جنباً إلى جنب، ويحوطها الجدل المستفيض، فلما ظهر النبي العربي ألفى أمة بأسرها يحفزها تيار التقدم، ويذكي عزائمها ظمأ العرفان والملك.

ولعل الإسلام كان في ناحيته التشريعية أشد أثراً منه في نواحيه الأخرى، فقد خلقت الشريعة الجديدة من القبائل العربية مجتمعاً منتظماً متماسكاً، واستبدلت العرف وحكم الأهواء بقوانين حكيمة تستند في روحها إلى أقوى مبادئ الطبيعة البشرية ومشاعرها، ولا ريب أن الشرائع التي تحكم العالم المعنوي أشد ما تكون أثراً، وأعظم ما تكون فوزاً إذا ألمت في أحكامها بنواحي التفكير ووجهات العواطف في المجتمع الذي تسن له، وهذا ما روعي في أحكام الشريعة الإسلامية مراعاة شديدة، وما جعلها مدى القرون قانوناً سياسياً واجتماعياً لكثير من الدول والمجتمعات الإسلامية، بل هذا هو السر في أن كثيراً من المجتمعات الإسلامية المتمدينة ما زالت في عصرنا تحتكم إلى الأحكام والنصوص التي وضعت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، وهذا ما يشير إليه المؤرخ فنلي في قوله: «قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول اتباعه وأعمالهم، ووضعت عبقريته أساس نظام ديني سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر، من أجناس مختلفة وصفات متباينة. إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الآسيوية، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغ والاسكندر».

ثم إن مبدأ الوحدة كان له أثر عظيم في ربط القبائل، فوحدة الإله، ووحدة العرب القومية، ووحدة الإدارة الدينية والمدنية والقضائية والعسكرية، واندماجها جميعاً في نظام رئيسي واحد، كانت عاملاً قوياً في التفاف القبائل حول الدين الجديد، وإجماعها على بث دعوته، ودفع سلطانه بحماسة وعزم كان لهما أثر عظيم في سير الفتوحات الإسلامية الأولى.

وهذا عنصر ايجابي في أثر الإسلام في وثبة العرب، ولكن يوجد ثمة عنصر سلبي يرجع إلى مشاعر الشعوب التي كانت مهاداً أولى لانتشار الإسلام، ففي فارس كان الأكاسرة يضطهدون النصارى واليهود ويسومونهم أمرّ ضروب الخسف والارهاق، وكان أباطرة الدولة الرومانية الشرقية يضطهدون اليهود وأحرار المفكرين في جميع أقطار الدولة،

وذلك في الوقت الذي أعلن المسلمون فيه حرية الاعتقاد والضمائر أينما ذهبوا، وحرص ساستهم حيناً على تطبيق هذا المبدأ إلى حدود لا بأس بها في عصر كان الإسلام فيه فتياً، وكانت جذوة الحماسة الدينية تستعر في نفوس الخاصة والعامة معاً، فكانت هذه السياسة عاملاً قوياً في اكتساب تأييد فريق كبير من رعايا الدولتين الفارسية والرومانية الذين كانوا يناصبون العداء دين الدولة ويعانون من أجل ذلك ألواناً شتى من الجور والعسف.

* * *

وأما العوامل المادية فترجع إلى اضمحلال الدولة الرومانية الشرقية في الوقت الذي برز فيه العرب من الصحراء، وإلى الفوضى السياسية والاجتماعية التي كانت تقصم أعصاب الدولة وتقوّض من صروح سيادتها ومنعتها. كانت القوانين الرومانية شر ممزق لوحدة الدولة الشرقية، وأشد بواعث الانحلال والتفرق لأقطارها ورعاياها، ذلك أنها كانت تمعن في التفريق بين طبقات المجتمع وبين رعايا الدولة أنفسهم، فتؤثر الرومانيين بالمناصب والامتيازات، والتمتع بحقوق سياسية واجتماعية تأباها على غير الرومانيين من رعايا الدولة، هذا إلى أن الجيوش الرومانية في العصر الذي نتحدث عنه كانت قد فقدت صبغتها القومية واندس فيها المرتزقة وأبناء المقاطعات المفتوحة الذين اضطرت الدولة أن تلجأ إليهم في حمايتها وصد غارات المعتدين عليها، وتأييد سلطتها في شاسع أقطارها. وكان لهذا المزج بين العناصر الرومانية والعناصر الأجنبية أثره في انحلال عصبية الدولة المستمدة من جيشها الثابت، حيث غاضت منه الروح القومية التي دفعته فيما سلف إلى آكام ايقوسيا وسواحل البلطيق ولم تعد تكفي دقة النظام لإخماد المصالح والمطامع الفردية.

على أن ظفر العرب الحربي يرجع من بعض الوجوه إلى أسباب عرضية لم يكن للعرب عليها من سلطان، ولم يحسبوا لها حساباً، ذلك أن جيوش الصحراء الناشئة لم تكن لتضارع الجيوش الرومانية والفارسية المنظمة في الكفاية أو تناهضها في الأهبة، على أن قسماً كبيراً من الجيوش العربية تلقى تجاربه الحربية في الحروب الفارسية، وكانت الحماسة الدينية واعتبار الحرب واجباً مقدساً يقومان لدى الفتية الأحداث مكان النظام والكفاية، بل كانت هذه الحماسة تبز شجاعة الجنود الرومانية، وتطغى عليها، ثم إن الطاعة العمياء لأوامر الرؤساء والقادة كانت خاصة واضحة في الصفوف العربية، وكانت تعوضها مما يعتورها من نقص في الأهبة والخبرة.

ونلاحظ أن المفاجأة والسرعة كانتا من خواص الفتوحات العربية الأولى ومن عوامل نجاحها، ذلك لأن الحماسة مهما بلغت من الاضطرام لا تثبت في حرب طويلة الأمد، ولأن النظام والكفاية ينتهيان غالباً بالفوز متى زال أثر المفاجأة، والصدمة الأولى. على أن العرب استطاعوا في معظم فتوحاتهم أن يفوزوا سريعاً باجتناء الثمرة، وتثبيت أقدامهم في الأرض المفتوحة بين شعوب تمزقها الخلافات الدينية، ويضنيها الارهاق والعسف، وتحفزها البغضاء والسخط، ولأن الجيوش الرومانية كانت تخسر في معظم هذه المعارك ما

كانت تتفوق به على العرب من مزايا النظام والدربة، وما كانت تستطيع أن تستمد من عطف الشعوب المحكومة لو لم تكن هذه الشعوب قد أعرضت منذ أمد طويل بعطفها ومؤازرتها عن حكومة تسومها الخسف والذلة.

أضف إلى ذلك، أن الدولة الرومانية اضطرت إلى أن تتلقى وثبات العرب في عهد أنضبت فيه الحروب الفارسية مواردها، وأضنت قواها، وعاثت بمنعة جيوشها، وحطمت نفوذ الحكومة المركزية، وعاونت نفراً من الزعماء وحكام المقاطعات على الفوز بنصيب وافر من الاستقلال في الحكم، وكانت العاطفة الوطنية قلما تلقى ملاذاً في صدور أولئك الزعماء، بل كانت تكاد تكون مجهولة من جميع الطبقات والأفراد في الدولة الشرقية، فكانت الأطماع والمصالح المادية وحدها تحركهم وتسير جهودهم، وكانت الغاية القصوى لكل منهم أن يدعم استقلاله في البلد الذي يحكمه، ولك مثل من ذلك في تصرف المقوقس في مصر، وفي تصرف غيره من حكام المقاطعات، والمدن، وكان هذا التصرف من جانب الحكام المحليين يدعمه تصرف سكان المقاطعات أنفسهم، ذلك أن فريقاً كبيراً منهم كان يزاول التجارة وينعم بالثروة، ويسعى إلى نيل السلام والحرية الدينية بأي ثمن.

وفي مصر وفلسطين، كانت سياسة بطارقة الاسكندرية وبيت المقدس تجنح إلى مؤازرة العرب، لما كان بينهم وبين الأباطرة من خلاف ومشادة، ولما آنسوا من وقوف العرب عند حد الفتح والإحجام عن محاربة الضمائر والشعائر، وكان فريق كبير من نصارى مصر وفلسطين لا يحبّذ سياسة البطارقة لا سيما في عهد هرقل لاعتبارهم أن هرقل كان كافراً خارجاً على الدين، ولما شاهدوا من عدالة العرب واعتدالهم في الحروب الأولى، وما رأوا من قناعتهم في فرض الضرائب التي كانت حكومة الدولة تثقل بها كاهلهم.

والحقيقة أن العرب قدموا لأول عهدهم بالفتح أمثلة سامية من الاعتدال وضبط النفس، واجتناب الكبائر والأساليب الوحشية التي كانت تسود صحف الحرب في تلك العصور. فقارن مثلاً وصية أبي بكر أول الخلفاء إلى الجيش الذاهب لقتال المرتدين: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ، ولا المرأة، ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل... الخ» ـ قارن ذلك بما كانت الجيوش الرومانية والفارسية تمعن فيه من صنوف السفك والتخريب في غمار الحروب التي كانت تضطرم بينهما قبيل وثبة العرب، وقارن تصرف عمر في سفره من مكة إلى بيت المقدس يحمل زاده على راحلته، وقدومه إلى المدينة ليتسلمها من بطريقها فريداً في غير ما جلبة ولا موكب، بما كان يحف مقدم الأباطرة وعمالهم إلى المقاطعات من ضروب الفخامة والبذخ، والتسامي عن الاختلاط بالشعب، ثم قارن صرامة القواد العرب في توقيع الأحكام ورفع الظلامات، وحماية أهل البلاد المفتوحة من عسف الجند الظافرين بما كان ينزله عمال الامبراطور وضباطه بهم من

صنوف المظالم والمغارم من دون وازع ولا عقوبة. هذه الفروق بين العدالة والجور، والاعتدال والتطرف، والعفة والشراهة، والتسامح والارهاق، كانت من أقوى العوامل التي ذللت سبل الظفر والفتح أمام جيوش الصحراء ومهدت لها مسالمة الشعوب المفتوحة وتأييدها، وبعثت إلى هذه الشعوب نوعاً من الطمأنينة على مصائرها في ظل سادتها الجدد، وخففت لديها من شأن هذا التغير في السيادة، فلم يحط مقدم العرب بما يحوط مقدم العدو المغير عادة من ضروب الارتياع والجزع.

* * *

هذه السياسة الحكيمة من جانب العرب لم تكن عامة شاملة بيد أنها لبثت حيناً في عصر انحلال وتطور، تستثمر عوامل السخط واليأس التي كانت تجيش بها صدور مجتمعات معلومة مضطهدة، وكان القليل من بوادرها المادية يشيد للعرب من التأييد قوى لا تغنمها الجيوش الجرارة، ويمهد لهم سبلاً من الوئام وحسن التفاهم لا يحققها عنف ولا جبروت. ولنا من ذلك أمثلة بارزة في تصرف الخلافة في البلاد المفتوحة، ففي الشام ومصر واسبانيا كانت تقام الكنائس إلى جانب المساجد، وكان للنصراني أو لليهودي ما للمسلم تقريباً من حرية الاعتقاد والتمتع بإقامة شعائر دينه، وكانت الضرائب تفرض في معظم الأحوال على مثل عام لا يكون الدين فيه سبباً للايثار والتفرقة، وأكثر من ذلك أن العرب لأول عهدهم بالفتح كانوا يتركون معظم المجتمعات غير المسلمة تحتكم إلى شرائعها وتقاليدها الخاصة، فكانت الشريعة اليهودية والشريعة النصرانية تطبق إلى جانب الشريعة الإسلامية.

وأثر هذه السياسة واضح في الظروف التي أحاطت بقيام الدولة العربية في البلاد المفتوحة، فقد كانت تقوم في الغالب عقب الفتح على أسس متينة لا تزعزعها عوامل السخط التي تضطرم بها صدور المغلوبين عادة على الفاتح المغير وتجعل سلطانه محفوفاً بالمخاطر يقوم على بركان مستتر من البغضاء وظمأ الانتقام ورغبة التحرر وينفجر لأقل بادرة ولأول فرصة. ولذلك استطاع العرب أثناء انهماكهم بالفتح أن يعنوا في الوقت نفسه بمختلف الشؤون الإدارية، وأن يوثقوا عرى الوئام والتفاهم مع الشعوب المغلوبة، وأن يخضعوها تدريجياً لنظم الإسلام وروحه متجنبين ما يحوط الطفرة من الآثار والعوامل الرجعية التي ترتد إلى صدور المتعجلين عادة، فتعجل بفناء دولة قامت على أسس من العنف والارهاق المستمر، وتجاهلت كل العواطف والمشاعر، ولم تراع إلا ما تقصد من غايات.

فليس غريباً أن يسجل التاريخ أن توغل العرب في الأمم النصرانية كان في الغالب محوطاً بعطف الشعوب التي سعوا إلى إخضاعها، وأن الحكومات النصرانية كانت في هاتيك العصور أشد جوراً وعسفاً، وأن شعوب الشام ومصر رحبت بشريعة محمد، وأن تعاون قبط مصر مع المسلمين على إخضاع الروم، وقتال البربر لافتتاح افريقية كان بغضاً

منهم لحكومة القسطنطينية واغتباطاً بالحكم الجديد. يقول فنلي: «ولا بد أن تقتسم الكنيسة والدولة عبء هذه الوصمة، إذ يصعب أن نحدد من العوامل والأسباب ما يمكن أن ينسب إلى جور الرومان في فرض الضرائب واستلاب الأرزاق أو إلى امعان الكنيسة في المطاردة الدينية وارهاق الضمائر والعبث بحرية الاعتقاد».

* * *

ولقد راعَ العرب لأول مغامرتهم في سبيل الفتح أن ينالوا مثل هذا الظفر بجندهم القليل وأهبتهم القاصرة، ولكن سرعان ما أدهشهم بعد ذلك أن تجرؤ قوة في العالم على مناوأتهم أو رد تيار ظفرهم، فاكتسحوا سواد العالم الروماني القديم وجازوا البحر إلى أوروبا حتى أشرفوا على ضفاف اللوار في أقل من نصف قرن. على أن ثورات حماستهم الأولى ما لبثت أن هبطت أمام الدعة والرخاء والسلام الذي نعموا به في ظل الدولة المنظمة، والثراء العاجل، فأحسّوا عندئذ منعة الدولة الرومانية، ولاقوا هزيمتهم الحاسمة على يدها في المشرق تحت أسوار القسطنطينية، وهبت جموع الفرنجة ووقفت في وجههم سداً منيعاً في سهول تور (بلاط الشهداء)، واستحال صراع الدولة الإسلامية والدولة الرومانية من بعد ذلك في المشرق إلى حملات ناهبة وفتوحات محلية كانت سجالاً بين الفريقين.

أهم حادث أثر في مجرى حياتي(*)

- ١ -

عبد الرحمن الشهبندر

أتخلق الحوادث المرء الذي تريده أم يخلق المرء الحوادث التي يريدها؟

قضيت شطراً من حداثتي في عصر السلطان عبد الحميد، فكنت أشعر أنا والخلّص من الإخوان الذين أجتمع بهم بكابوس نيخ على البلاد العثمانية من جراء الجاسوسية وكم الأفواه والضرب على الأيدي الحرة والتصرف بخيرات الأمة، حتى إذا بدرت بوادر الحرية في الروملي ودقت ساعة الدستور في سلانيك شمّرنا عن ساعدنا في سوريا لتأييد هذا الانقلاب والوقوف مع إخواننا في الجيش العثماني في وجه أهل الرجعى، فألفنا الهيئات الإدارية لجمعية الاتحاد والترقي في طول البلاد وعرضها، وكانت دمشق الشام عاصمة لهذه الهيئات وكانت مربوطة بالمركز العام في سلانيك. أما القطب الذي درنا حوله في السياسة الوطنية التي اتبعناها يومئذ فأساسه ما دونته جمعية الاتحاد والترقي في السطر الأول من يمينها المقدسة، وهو خدمة الأمة العثمانية خدمة خالصة من غير تفريق بين عناصرها. وقد شغفنا بهذه الأخوة والمساواة شغفاً عجيباً حتى إن القائد أركان حرب المرحوم سليم بك الجزائري، وهو من أخلص إخواننا وأنفذهم، لما بلغه أن جمعية في الآستانة تألفت عقيب الانقلاب العثماني لخدمة العرب باسم الإخاء العربي وقف في حفلة حافلة في دمشق وامتشق حسامه وصاح بأعلى صوته: «إننا نسمع بتأليف جمعية باسم الإخاء العربي، فكل من تحدثه نفسه بالانضمام إليها ليس له إلا هذا السيف». هذا كان شعور أحرار العرب عامة في تلك الأيام، ولكن أخذت الأخبار تتسرب إلينا من مختلف الجهات بأن الاتحاديين في الآستانة ينوون الشر بالعرب وبقوميتهم، فكنا نكذب تلك الاشاعات ونعدها من باب الاختلاقات التي يروجها أعداء الحرية إلى أن حدثت لي الحادثة

(*) نُشر في: الهلال، المجلد ٣٨ (١٩٣٠)، ص ٩١٩ - ٩٢٠.

الآتية التي أزالت من نفسي الشكوك لأنها كانت من مصدر رسمي، وهي أن موظفاً قضائياً كبيراً من أصدق رجالات العرب وهو المرحوم كامل بك الصلح نقلته الحكومة من مناستر إلى دمشق، فلما مر على الآستانة ليقابل وزير العدلية ـ الحقانية ـ نجم الدين ملا بك ويتلقى منه التعليمات الجديدة قال له هذا: «إنك ذاهب الآن إلى رياسة محكمة الاستئناف في الشام، فاجعل المحاكمات من الآن فصاعداً بالتركية لأننا قررنا تتريك العناصر». هذا ما قصه علي سراً رجل نزيه من أنزه رجالنا فجاء شهادة قطعية على عزم الاتحاديين على سلوك سلك عنصري جديد مع العرب ليس محكوماً عليه بالفشل فقط بل محفوفاً بالأخطار. إن هذه الجملة المقتضبة التي نقلها لي القاضي الجليل كانت فاتحة عصر جديد في حياتي، إذ نقلتني من ذاك الانمحاء في القوميات العثمانية المتناكرة إلى تأييد قوميتي العربية في الجامعة العثمانية. وكان الاتحاديون كلما خطوا في هذا المضمار باعاً خطت العناصر الأخرى ذراعاً إلى أن حلت كارثة الحرب العامة، فظن العاملون في جمعية الاتحاد والترقي أن ساعة الانتقام دنت فارتكبوا تلك الموبقات والجرائم التي تقشعر منها الأبدان في سوريا وسائر المناطق العربية، وحسبي أن أقول هنا إن الضابط الكبير نفسه الذي ندّد بجمعية الاخاء العربي سنة ١٩٠٨ ذهب على أعواد المشانق التي نصبها السفاح أحمد جمال باشا لرجالات العرب في اليوم السادس من أيار/مايو سنة ١٩١٦.

هذا هو المتحول الذي فتح عيني إلى الخطر المحدق بالأمة العربية، فسرنا تلك السيرة القومية الجديدة. أما الذين لعبوا هذه اللعبة العنصرية الخطرة من الاتحاديين فقد نالوا جزاءهم على أيدي الحكومة الكمالية أو غيرها. ومن سوء حظهم أنهم لم ينالوا الحظوة لدى المفكرين من رجال الترك أنفسهم، حتى إنني وأنا في قلب هذا المعمعان العربي مدين في شطر عظيم من حياتي للوالي التركي الكبير المرحوم خلوصي بك، وذلك للملاحظة الدقيقة التي أبداها لي في أواخر شهر تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩١٥، مما حملني على مغادرة البلاد العثمانية بطريق الصحراء إلى العراق، فالهند فوادي النيل. وإذا كان هذا مبلغ غضبنا على من تحرش بقوميتنا من إخواننا الترك في جمعية الاتحاد والترقي فأنت أدرى بما يغلي في صدورنا من النقمة على الأجانب المستعمرين الذين لا يطمعون في القضاء على لغتنا فقط بل يحاولون محق سائر المقومات في حياتنا العربية. ومعنى ذلك في معجم الوطنية سلسلة من الحوادث والاضطرابات لا مسكن لها إلا تحقيق الرغائب القومية.

ـ ٢ ـ

هدى شعراوي

كان أسلافنا يرون في تعليم البنت مفسدة لأخلاقها، ولذلك كان أغلب الآباء يحرمون على بناتهم ورود مناهل العلم العذبة ويؤثرون بقاءها جاهلة لا تبصر شعاع العلم والعرفان.

وإذا تساهل بعض الآباء سمح لابنته بتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ بعض سور من القرآن الكريم ليتسنى لها تأدية الفروض الدينية. وقد كدت أكون ضحية هذا الوهم القاسي لولا حادث طرأ علي أثناء دراستي فأثار نفسي، وكان له أطيب الأثر في حياتي، خصوصاً في الاستزادة من العلم ببذل كل مجهود لتذليل الصعوبات التي كانت تعترضني في هذا السبيل.

كنت في طفولتي كمعظم أترابي أتلقى مبادئ القراءة والكتابة في المصحف الشريف، فحبب القرآن إليّ اتقان اللغة العربية وأوجد عندي رغبة شديدة في الأدب العربي، فاقتنيت بعض الكتب المفيدة لمطالعتها، ولكني رأيتني لا أقوى على قراءتها لأنها خالية من الشكل.

سألت معلمي عن سبب ذلك فقال: «لأنك لم تتلقي علم النحو»، فرجوته أن يعطيني دروساً فيه، فوقع رجائي عنده موقع الغبطة والسرور، وأتى في اليوم الثاني يحمل تحت إبطه كتاباً صغيراً، ولكن لسوء الحظ كان لي مرب مكلف بمراقبة تعليمي، فصادف أن حضر في صباح ذلك اليوم، فلما وقع نظره على الكتاب الذي أحضره المعلم سأله عنه، فأجابه فرحاً مسروراً: «طلبت مني الهانم اعطاءها دروساً في النحو فلبيت طلبها، وسنبتدئ اليوم في تعليم قواعد اللغة العربية». وكنت أنتظر أن يقابل هذه الرغبة بمثل ما قابلها به معلمي، ولكني دهشت إذ رأيته يتصدى للمعلم مستهزئاً به قائلاً له: «خذ كتابك وانصرف فإنها لن تكون يوماً من الأيام محامياً...».

القضية العربية:

حديث مع الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن(*)

طاهر حمدي الطناحي

متى بدأت القضية العربية ــ الأدوار التي مرت بها ــ كيف انتهت إلى ثورة على الأتراك ــ منشور جلالة الملك حسين ــ الوثائق التي تبودلت مع جلالة الملك حسين والانكليز ــ ماذا يضمره المستقبل للقضية العربية؟

في ٣٠ حزيران/يونيو سنة ١٩١٦ أذاعت دار الحماية البريطانية في مصر المنشور الآتي:

«جاءت رسمياً أخبار تثبت الأخبار التي نشرتها شركة روتر في ٢٢ حزيران/يونيه الحالي عن خلع الحجازيين بقيادة الشريف الأكبر السلطة العثمانية عن الحجاز. وهذه الأخبار متفقة مع تلك على أن مكة وجدة والطائف أصبحت في قبضة الشريف الأكبر. وعلى أن المدينة محصورة حصراً محكماً. ونزيد عليها أن «الليث» سلمت إلى الحجازيين بعد ذلك، وأن حاميتها العثمانية أسرت. هذا، ولا تزال في مكة قلعة صغيرة، وفي الطائف قلعة أخرى ممتنعتين عن التسليم. ولكن تسليمهما مترقب من يوم إلى آخر».

وقد اختلفت الروايات بعد هذه الأخبار في الأسباب التي أدت إلى خروج الشريف حسين بن علي أمير الحجاز على الأتراك. فبالرغم من المنشور الذي أذاعه وقتئذ في جميع الأقطار عن أسباب هذا الخروج، فقد ذهب فريق إلى أنه كانت هناك معاهدة أمضيت تحت أستار الكعبة من سنة ونصف سنة بين الحجاز واليمن وسائر القاطنين بشبه جزيرة العرب على أن ينفصلوا عن الدولة العثمانية، وينشئوا دولة عربية مستقلة.

وذهب فريق إلى أن الشريف حسين علم حين كان في الآستانة بما يضمره الأتراك للعرب من الاندماج في الجنسية التركية، ومحو كل ما هو عربي، فأوجد ذلك في نفسه

(*) نُشر في: الهلال، المجلد ٣٩، الجزء ١٠ (١٩٣١)، ص ١٤٦٣ ـ ١٤٦٦.

ميلاً إلى الاستقلال. ونزوعاً إلى الانفصال في الفرصة المناسبة.

وذهب فريق آخر إلى أن الشريف حسين كان صديقاً للمرحوم الأمير يوسف عز الدين (وارث عرش آل عثمان)، وكان يرى فيه أكبر مصلح في الدولة. فلما ذاع خبر موته أرسل نجله الثاني وقائد جيشه الأمير فيصل (جلالة الملك فيصل) إلى الآستانة ليتحقق الخبر، فعاد إليه يحمل أنباء الغدر به، فجمع إليه رجاله ورؤساء القبائل، وأطلعهم على نيات الأتراك، وبذلك سهّل لنفسه سبيل الانفصال.

ذلك ما كانت تختلف به الروايات وتتضارب في أسباب الثورة العربية أو انفصال العرب عن الأتراك في أبان الحرب الكبرى. وإذا قلنا الثورة العربية فإنما نعني جزءاً من القضية العربية التي ابتدأت قبل نشوب هذه الثورة. وكانت في الحقيقة وليدة الزمان، ولكن بعضاً من نواحيها ما زال في طي الكتمان.

وقد زار مصر في الشهر الماضي سمو الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن، ونزل ضيفاً على حضرة السيد عبد الملك الخطيب المعتمد السابق للحكومة الحجازية في مصر. فأحببنا أن نتشرف بمقابلة سموه لنقف منه على تفاصيل القضية العربية، وعلى الأدوار التي مرت بها، وبعد أن حيينا سموه التحية اللائقة، قلنا لسموه:

- هل يسمح سمو الأمير بأن يذكر لنا كيف نشأت القضية العربية، وكيف تطورت وما هي الأسباب التي أدت إليها؟

فقال: «نشأت القضية العربية بعد أن تولى الصدارة العظمى بالدولة العثمانية مدحت باشا الشهير. فقد سعى لقلب نظام الدولة العثمانية من نظام سلطاني مطلق إلى نظام دستوري مقيد. فانقلب الحال في البلاد العثمانية من الحاكمية السلطانية الخليفية إلى حكم جنسي.

«وحيث إن السلطان من العنصر التركي. والعنصر التركي من الأقليات العثمانية، فقد رأى الأتراك بعد إعلان الدستور أنهم قد وقعوا في خطر انقلاب ليس من مصلحتهم. وأنه ربما يؤدي هذا الانقلاب إلى احتلال عربي للحكومة والبرلمان فشرعوا في الضغط على الانتخابات.

«ثم إنهم لما رأوا أن هذا التدبير غير مستمر، وغير مثمر، شرعوا في تتريك العناصر. ومن هنا انبعثت في العرب روح ترمي إلى الاستقلال والانفصال احتفاظاً بالكيان الجنسي.

«وما حدث من هذا القبيل لم ينس إلى الآن. وكلنا يذكر أن سورية كانت تطلب إدارة لامركزية، وأن الوزير طلعت باشا ضرب موعداً مع عبد الحميد الزهراوي عضو مجلس الشيوخ العثماني ومن كان معه في باريس للمفاوضة فيما تطلبه سورية. وكان ذلك سنة ١٩١٣.

«ثم إن الأتراك عزموا على المحادثة مع السيد الادريسي بعد ثورته المشهورة لمنحه إدارة ممتازة تخص عسير. وقد عهد إلى الصدر الأعظم عزت باشا القائد الشهير في مفاوضة إمام اليمن بعد آخر قتال نشب بينه وبين العثمانيين. فكانت النتيجة أن اعترفت تركيا بسلطة الإمام الزيدي في جبال اليمن ووافقوا على أن يدعى «أمير المؤمنين باليمن». وقد أعطي ملك نجد رتبة مشير وعين قائداً ووالياً لنجد بعد أن انتزع «الاحساء» من يد الدولة العلية قهراً.

«كل هذا جرى بعد إعلان الدستور العثماني وقبل اعلان الحرب العظمى. ومن هذا يعلم أن العرب قد وصلوا إلى الوقت الذي يجب أن يصلوا فيه إلى حقوقهم الطبيعية. وما كانت الثورة إلا نتيجة ما ذكر. وما حصل بعد الحرب هو معلوم وقد درس درساً واضحاً. وسئل عنه من هو أجدر مني بالإجابة. وقد نشرت الأسباب المباشرة لهذه الثورة في أول منشور أصدره جلالة المرحوم والذي في ابتداء اعلانها».

نقول: وقد تضمن هذا المنشور ما أتته حكومة الاتحاديين من المظالم، وتقتيلها لزعماء العرب، وتضييق الخناق عليهم، وتركهم أسرى للجماعة، وسبي الأتراك للمخدرات من نساء العرب واقتيادهن إلى الثكنات العسكرية بما تأباه الشريعة الإسلامية والشهامة العربية.

وقد أردف هذا المنشور بمنشور آخر بتاريخ ١١ ذي القعدة سنة ١٣٣٤هـ جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[١]

«لقد رأينا دفعاً للالتباس ومنعاً لما عسى أن يحدث من التردد في حقيقة قيامنا ونهضتنا معاشر الحجازيين الموضحة أسبابها في منشورنا الأول أن نردفه بهذه الأسطر ليكون منها لأفاضل العالم عموماً والمسلمين خصوصاً زيادة الاطلاع على نياتنا ومقاصدنا المتعلقة بكياننا من حيث هو ملتزمين فيها أقرب المواد عهداً وأبسطها دلالة».

ثم ذكر خطأ الدولة العثمانية في دخولها الحرب وهي قريبة عهد بالخروج منها، حتى جازفت برعاياها والأمم الخاضعة لها في حرب ضروس لا تقوى عليها. وأنحى باللائمة على حكومة الاتحاديين لمعاداتها دول البحار التي تشرف سواحلها عليها، فكانت النتيجة أن تألبت عليها هذه الدول وانتقصتها من أطرافها وأصبحت حدود المملكة العثمانية أسوار الآستانة فقط. ثم ذكر تعسف حكومة الاتحاديين أثناء هذه الحرب، وظلمهم للعرب وغيرهم. وقال في خلال هذا المنشور:

«إننا قمنا، ولا يزال قيامنا ومجاهرتنا بالعداوة والبغضاء مقصوداً بهما أنور، وجمال،

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الجاثية،» الآية ٢٩.

وطلعت وشيعتهم. وإنه ليشاركنا في ذلك كل مسلم عاقل حتى أفراد البيت العثماني، ودليلنا مع مشاركة هذا البيت الجليل اغتيال المتغلبة لعميده الشهيد السعيد ولي عهد السلطنة المغفور له المرحوم يوسف عز الدين. . . وإننا نتبرأ منهم ونظهر لهم العداوة والبغضاء، ويشترك معنا فيها كل بر وتقي من مسلمي البلاد العثمانية، وسائر البلاد الإسلامية بسبب ما أتوه من الوبال، وما جروه على دولة الإسلام من الاضمحلال حتى جعلوها ضحية لأغراضهم وغاياتهم النفسية. . . نبرأ إلى الله منهم ونعلم أنها كلمة الحق عليها نحيا وعليها نموت».

هذا مجمل المنشورين اللذين صدرا على أثر إعلان المغفور له الملك حسين انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية. وقد أحالنا عليهما سمو الأمير للوقوف على أسباب هذا الانفصال، ثم أحببنا أن نقف من سموالأمير على الوثائق التي تبودلت مع جلالة والده ومع الانكليز بصدد هذا الانفصال، فقلنا لسموه:

- لما تم الاتفاق بين المغفور له جلالة والدكم وبين الانكليز في طي الكتمان، أذاع بعضهم أن الوثائق التي تبودلت بين الفريقين علم منها أنهما اتفقا فيها على أن البلاد العربية إلى حدود الاسكندرون شمالاً إلى ما يزيد عن الدرجة السادسة والثلاثين العرضية تكون بلاداً مستقلة، وأنه إذا احتاجت البلاد العربية إلى مستشارين تأخذهم من انكلترا، وأن تبقى البصرة بيد الانكليز. . . هذا بعض ما أذيع عن مضمون هذه الوثائق، وقد بقيت سراً مكتوماً إلى اليوم. فهل تسمحون لنا بإماطة اللثام عما تحتوي عليه هذه الوثائق؟

فقال: «ما زالت الوثائق التي تسألون عنها موضوعة في خزانة المرحوم والدي إلى الآن. ولا يمكنني أن أميط اللثام عنها، وأنشرها على الناس حتى يحضر صاحبا الجلالة الملك فيصل والملك علي. وبعد ذلك حين يجيء الوقت المناسب يكون هذا الإرث الثمين الذي هو للعرب بيد العرب».

قلنا: وماذا ترون سموكم في مستقبل القضية العربية؟

فقال: «هذا منوط بعبقرية الرجال الذين اؤتمنوا عليها. فإذا عالجوها بحكمة وحزم، وساروا بها في الطريق الصالح، فإنها لا ريب تفوز بالنجاح. ولا تنس أن تعليم النشء تعليماً استقلالياً هو من العوامل الهامة في نجاح هذه القضية، ووصولها إلى الغاية المطلوبة.

«فإذا أراد العرب أن يحتفظوا بكيانهم، ويحصلوا على استقلالهم كاملاً، فعليهم أن يربوا ناشئتهم تلك التربية الاستقلالية الصالحة التي تجعل منهم دعائم قوية لصرح الاستقلال».

الامبراطورية العربية

وهل آن أن تتحقق؟(*)

عبد الرحمن عزام

قد تكون الدعوة إلى تأسيس امبراطورية عربية حلماً من الأحلام. ولكن كم من المشروعات الكبرى والحقائق العظمى كانت قبل وجودها حلماً في رؤوس المفكرين، وخيالاً في أذهانهم، ثم ما لبثت أن صحت الأحلام، وتحقق الخيال، وإذا كل شيء قد أصبح حقيقة ملموسة وأمراً واقعاً. والامبراطورية العربية وجدت غير مرة في الأحقاب الماضية في عهد الأمويين والعباسيين وغيرهم. فليس بعيداً أن تعود هذه الامبراطورية إلى ما كانت عليه أو إلى أحسن مما كانت عليه. وليس بعيداً أن تكون اليوم حلماً، ثم تصبح غداً حقيقة واقعة.

تكاد تكون حلماً وقد كانت حقيقة، ويكاد ينكرها أهلها، وكانوا لا يتصورون الحياة بغيرها! أرأيت إذن كيف تذل النفوس وتتراخى الهمم؟

كنت أتحدث مع أحد محرري **الهلال** عن الوحدة العربية والدولة المنتظرة كنتيجة لهذه الوحدة، وكلما أفضت في الحديث نظر إلي كمن يستمع إلى حلم لذيذ، ثم سألني أن أظهر على الناس بهذه الفكرة فلعلي واجد من يؤمن بها.

وما هي بدعوة جديدة ولا فيها غريب، بل هي الأصل. واستسلام العرب في المشرق والمغرب للعيش بغير دولة هو الغريب!

فها أنذا أسائل العرب في آسيا وأفريقيا، بل أسائل المرتابين في مستقبل هذه الأمة العظيمة أن يذكروا ماضيهم.

ليذكروا امبراطورية الأمويين والعباسيين والفاطميين والموحدين والمرابطين

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٤٢، الجزء ٤ (١٩٣٤)، ص ٣٨٥ - ٣٨٩.

والحفصيين. ليذكروا مئات السنين التي كانت فيها امبراطورية العرب زاهية عزيزة.

ليذكروا ذلك فيؤمنوا ببعثها، فما مات العرب وإنما غشيهم النعاس. وقد تضاعف عديدهم واتسعت أوطانهم.

ليذكر المرتابون دولة الخلفاء الراشدين، وقد بسطت في عشر سنين سلطانها على ملك كسرى وقيصر.

وقد كان ملك كسرى وقيصر أعرق حضارة وأكثر علماً وأعظم ثراء. ولو أن رجلاً ساح في ذلك العهد ببلاد الفرس والرومان ورأى قلب الجزيرة ثم بعث اليوم ليطوف العالم، لشهد بأن الأمة العربية الحالية في مكان مهيأ لإقامة الامبراطورية أكثر مما كان عليه أسلافها وقت أن غيروا وجه البسيطة.

فإذا تحدثنا عن قيام هذه الامبراطورية اليوم، فإنما نستند إلى حقائق تاريخية وواقعية وإلى قوى طبيعية ظاهرة وكمينة في سبعين مليوناً من البشر.

أرأيت لو أن رجلاً في القرن السابع الهجري رأى عمر بن الخطاب قبل عشر سنين من توليه الخلافة وأوحي إليه أن عمر سيكون بعد عشر سنين وارث كسرى وقيصر، أكان يرتاب فيما أوحي إليه أم كان يؤمن به؟

ومع ذلك فقد رأى الناس عمراً بدوياً ضالاً ورأوه سيد العالم. فما بال المرتابين من العرب ينكرون اليوم أن نقول إن سبعين مليوناً تربطهم عقيدة دينية ولغة موحدة وعرف مشترك يصلحون لإقامة امبراطورية؟

في أوائل القرن الماضي كان بين مرتزقة الجند في القاهرة رجل يعيش في عش الفوضى والاضطراب بين قوم عمهم الجهل وسادت فيهم الخرافات. ذلك الرجل لم يمت حتى أقام امبراطورية عربية.

فلو أن سائحاً تعرف إلى محمد علي بين طائفة «الباش بوزوق» من الأرانطة وقيل له إن هذا الجندي سيملك مصر والسودان والشام والحجاز ونجد، أكان يسخر من ذلك القول، أم كان يؤمن به؟ ومع ذلك فقد رأى الناس محمد علي رأس الامبراطورية العربية.

وفي أواخر القرن الماضي ظهر رجل في جزيرة «أبا» في النيل الأبيض كان يحترف في دنقلة وغير دنقلة تعليم القرآن للصبية ويطوف البلاد لايؤبه له. ولم يمت هذا الرجل حتى هزم الدولة المصرية والدولة البريطانية جميعاً. وما كان أحد ليدري مصير الدولة التي أقامها لو امتد به الأجل، ذلك هو محمد أحمد المهدي.

وقد قام على أعقابه رجل من البقارة رؤي في كردفان يسوق حماراً هو كل ما يملك ويصحب زوجته وولده، ورؤي هذا الرجل بعد عشر سنين ملكاً عظيماً كان بعض ضحاياه امبراطور الحبشة نفسها، ذلك هو عبد الله التعايشي.

وفي أوائل هذا القرن كان عبد العزيز بن سعود ضيفاً لاجئاً مع أبيه عند أمير الكويت. وهو اليوم يستطيع أن يعبئ ثلثمائة ألف مقاتل لا يعرفون لغيره أمراً.

والعرب اليوم ملأوا الأرض يعمّرون المنطقة المعتدلة في غربي آسيا وشمالي افريقيا وهم من أشد الأقوام بأساً، كما هم في أمصارهم من أقربهم إلى مناهل العلم والحضارة.

فإذا قيل إنهم على أبواب الخروج للعالم بالدولة التي تليق بعظمتهم التاريخية الخالية ظن المرتابون أننا نسبح في حلم لذيذ.

ليس بين العرب وبين بعثهم مرة أخرى إلا أن يؤمنوا بأنفسهم وأن يؤمنوا بوجودهم، فقد افتتنوا بعظمة غيرهم حتى نسوا ذلك الوجود.

وليس بين العرب وبين الامبراطورية التي تمثل عظمتهم إلا أن يكونوا كاليابانيين والصينيين والروس والترك والأفغان والفرس مؤمنين بأنهم أمة لها حق تقرير مصيرها.

وقد اخترت هذه الأمم للمثل لأن العرب في مجموعهم ليسوا أقل منها نضجاً ولا حضارة.

ففي اليابان وروسيا عشرات الملايين من البشر الذين لا يمتازون عن البقارة في جنوبي كردفان أو العجمان في شرقي نجد، ولا يدرون من الحياة إلا أن يكدوا كما يكد النمل للعيش على غذاء من الأرز أو البر.

وإنما هي العزة القومية والمثل الأعلى والقدوة الحسنة هي التي جعلت من هاتين الامبراطوريتين أكبر دول العالم.

والأمة العربية موجودة بصفات محدودة وهيئة مستقرة فهي ليست في دور التكوين، بل هي مخلوق حي كامل الخلقة.

وما الامبراطورية التي نتحدث عنها إلا مظهر لكائن حي ما يزال في محنة الشك في نفسه والريب من قدره.

لقد أتيح لي أن أخالط الشعوب العربية في افريقيا وآسيا. وبالرغم من الحدود المصطنعة التي تفصل هذه الشعوب، ومن الاستعمار الأوروبي الذي يعمل على حلّ عرى الوحدة فيها، بل بالرغم من انحدار دمائها من الأصول السامية والحامية، فإن الأمة العربية الحديثة هي وحدة اجتماعية وثقافية وليدة تاريخ مشترك لها خواصها الظاهرة والخفية التي تميزها عن غيرها من الشعوب والأمم.

وهي بحالتها الراهنة ـ التي هي نتيجة لفعل الأربعة عشر قرناً الماضية ـ جديرة بأن تحتل مكانها بين أمم العالم العظيمة الموحدة.

ففي برقة أو نجد وعلى بحر العرب أو على الفرات، وفي لبنان أو في الأطلس، أمة ذات مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها وعرفها، تجمعها الكليات وإن اختلفت الجزئيات.

داؤها في العراق والشام ومصر والسودان والمغرب هو الفتنة، فقد فتنوا جميعاً بعظمة الغير، ونسوا أنفسهم. ودواؤهم الدعوة إلى الإيمان بالذات والمثل يضربه أفذاذ الرجال ليثبتوا به الإيمان.

قد يقول بعض الناس: إننا لا ننكر أن الناطقين بالضاد أمة واحدة، ولكن أنى لهذه الشعوب المنتشرة في آسيا وافريقيا أن تتعاون في امبراطورية واحدة؟ فإن كان هذا هو كلام الناس لأن الدعوة مستحيلة فليذكر المعترضون أن للانكليز في افريقيا وحدها ملكاً هو أوسع من أرض الأمة العربية. وفي الهند من البشر خمسة أضعاف عدد العرب يحكمهم والٍ واحد، وفي الامبراطورية الروسية سيبيريا وحدها أوسع رقعة.

ولو ذكر العرب دول آبائهم في الامبراطورية الأموية أو العباسية أو الفاطمية وذكروا مواصلات ذلك العهد لعلموا كيف سمت الثقة بآبائهم وقصر اليأس بهم.

* * *

والآن وقد قربت إلى الأذهان فكرة الوحدة، هل لي أن أشير إلى بعض الضرورات التي تقتضي من المفكرين أن يتخذوها شعارهم، إذ لا مستقبل للشعوب العربية بغيرها؟

نحن في القرن العشرين في عصر التناطح بين كتل بشرية ضخمة، والتنافس بين قوى مجمعة تستند إلى موارد متعددة من الثروات الطبيعية، فلا سبيل لمجاراتها والعيش معها على قدم المساواة، ولا سبيل لأن يكون لأمتنا صوت مسموع في الدنيا إلا إذا كانت لنا جبهة متراصة تعدّ وراءها عشرات الملايين وتستمد لها العيش والرخاء من ثروات منوعة في الزراعة والصناعة.

فمن المستحيل على الشعوب القليلة العدد المستندة في عيشها إلى غلّة واحدة أن تتقدم إلى الصدر في محضر الأمم الكبيرة، بل لا بد أن تعيش ذيلاً وعالة على غيرها.

نحن في عصر «الكارتل والترصت» وقد مضى زمن الدكان الصغير. فهل يظن العراقيون أو الشاميون أو المصريون أنهم يستطيعون الوصول إلى حياة محترمة بغير الوحدة؟ وليذكر قادة الرأي وأهل البصر ألا وجود للدولة قبل النهضة ولا بقاء لها بغير الأمن والسلامة، ولا أمن في العصر الحاضر لغير القوى الكثيفة.

وهنا يحسن بي أن أذكّر مواطني المصريين إلى قول نشر للأستاذ ويغال العالم الأثري الذي مات أخيراً. فقد قال وأثبت بشواهد كثيرة أن مصر كانت على الدوام امبراطورية، إلا حين كانت تستولي عليها أمة أجنبية، وأنها إذا شاءت أن تستقل في هذه الأيام وجب عليها أن تنظر إلى تاريخها القديم وتعتبر به لأنها بين أمرين لا مفر منهما: إما امبراطورية تستولي على طرابلس والسودان وفلسطين وسوريا، وإما أمة مغلوبة يحكمها غيرها وتستبد بها دول أجنبية. وذلك لأن مركزها الجغرافي ــ وهي محوطة بالصحاري المفتوحة من كل ناحية ــ يجبرها على أن تؤمن حدودها بعبور هذه الصحاري والتغلب على الشعوب القاطنة

بعد حدودها. وكلما تراخت قبضتها على هذه الأمم وانحسرت امبراطوريتها وقعت فريسة للفاتحين.

وقد ضرب ويغال مثلاً بالأُسرة الثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة والبطالسة والفاطميين والأيوبيين ومحمد علي.

وهو حق لا مراء فيه، وكم كنت أشعر به وقت أن قاتلنا الانكليز على حدود مصر الغربية سنة ١٩١٦.

وقد منّ الله على مصر الحديثة بأن بسط حدودها شرقاً وغرباً، فجعلها قلباً في جسم أمة عظيمة تمتد من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي.

فهي في وسط إخوة في العقيدة والدم واللغة، فيجب عليها أن تستفيد مما أحدثته العصور الإسلامية وأن تكون في طليعة الدعاة إلى الوحدة. فليس لها سلامة بغيرها كما أنه لا حياة لبقية الشعوب العربية بدونها.

❊ ❊ ❊

والنتيجة أن الدعوة إلى الامبراطورية العربية ليست حلماً يلده الخيال الواسع، بل هي تستند إلى حقيقة تاريخية وإلى ضرورة حالة، فالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشعوب العربية تستلزمها، وهي الضمان الوحيد للاستقلال والحرية والسلم الداخلي والخارجي لهذه الشعوب.

وأخيراً أرجو ألا يسيء أحد فهم هذه الدعوة. فلست أقصد بكلمة الامبراطورية العربية غير الوحدة على أي مظهر تحققت. وليس الغرض تغلّب قبيلة على قبائل أو أمير على أمراء أو استئثار إقليم ببقية الأقاليم.

إنها ليست تصوراً لنظام دون آخر ولا هيئة من الهيئات التي تكون عليها الدولة دون أخرى. وإنما أول القصد وغايته التعاون بين الشعوب العربية لتكون جبهة واحدة تسير على ضوء المثل الأعلى الذي يخرجه مزاجها المشترك إلى الغاية السامية التي هي جديرة بالأمة الحرة الكريمة.

وضعنا القومي الحاضر(*)

محمد فاضل الجمالي

ان اضطراب السياسة العالمية اليوم وتسلُّح الأمم المختلفة واستعدادها للحروب وتوصل البعض منها إلى مطامعها وآمالها بقوة السلاح والغارات وتوصل الأخرى بقوة السياسة والتنظيم، كل ذلك مما يحمل المرء على التفكير في موقف قومه ومصيرهم، ويتطلب درسنا الأوضاع التي تحيط بأمتنا دراسة اجتماعية واضحة، وذلك لكي نستعد لمجابهة الطوارئ العالمية من جهة ولنستفيد من الأوضاع للوصول للغاية المثلى التي ينشدها كل قومي مخلص من الجهة الأخرى. وبهذا الدافع اخترت موضوعاً لمقالي «وضعنا القومي الحاضر». وإذا ما قلت وضعنا القومي، فلا حاجة للذكر بأني أقصد وضع «الأمة العربية» من مراكش إلى البصرة، ومن جبال طوروس إلى سواحل المحيط الهندي. ولا بد لادراك وضعنا الحاضر إدراكاً كاملاً من توجيه الفكر إلى العوامل الأساسية والقوى المادية والمعنوية الفعالة التي تعمل في العالم الحديث فتكوّن وضعنا الحاضر. ويمكن حصر هذه العوامل في ثلاث نقاط رئيسية نشأت ونمت في القرن التاسع عشر بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وهذه هي:

أولاً ـ القومية: وعنها نشأ كيان معظم الأمم القائمة اليوم إن لم نقل كلها.

ثانياً ـ العلوم الطبيعية وهي التي أدت إلى المخترعات العجيبة المدهشة فأكسبت الإنسان قوة وتغلباً على الطبيعة، لم يكن ليحلم بهما في كل تاريخه الغابر.

ثالثاً ـ الاستعمار، هو بشكله العصري الحديث وليد القومية، وهي تستخدم نتاج العلوم الطبيعية.

فلأجل أن نفهم وضعنا القومي الحاضر، لا بد لنا من درس وتفهم هذه القوى المعنوية والمادية الثلاث. قوى القومية والعلم الحديث والاستعمار فإن لهذه القوى الثلاث أثرها ومفعولها الواضح فينا، وهي إن لم نستعد لها ونمسك بزمامها سحقنا وغلبنا على أمرنا والعياذ بالله.

(*) نُشر في مجلة: المثنى (بغداد)، العدد ٥ (٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦)، ص ٢ ـ ٥ و٢٨.

أما القومية فهي القوة الماسكة والدافعة للأمم والشعوب في هذا العصر. ومن يتصفح التاريخ من بداية القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر يجد أن قوة القومية هي أكبر قوة تمسك البشر معاً وتدفعهم إلى اقتحام المخاطر في ميادين الحياة على اختلافها.

القومية دين اعتنقه البشر المتمدن بقطع النظر عن اختلاف مذاهبهم أو لون بشرتهم أو لسانهم أو موقعهم الجغرافي. والتاريخ الحديث حافل بأخبار الحروب الكثيرة التي أسالت الدماء أنهراً في سبيل تعزيز الكيان القومي. فهذه دول البلقان كاليونان وبلغاريا انسلخت عن الدولة العثمانية كلها الواحدة تلو الأخرى في سبيل القومية. وهذه المانيا تعد مثالاً حياً ناطقاً للوحدة القومية، وكذلك قل عن ايطاليا. وهذه بولندة ما استقر أبناؤها المجزأون سابقاً حتى وحدوا شملهم وأعادوا استقلالهم بعد الحرب العالمية. وهذه ارلندة الحرة بقيت منبعاً للاضطرابات والمظاهرات حتى انفصلت عن بريطانيا العظمى في سبيل قوميتها. ولو نظرنا إلى خارطة أوروبا لوجدنا أن العامل الأساسي لتقسيماتها الحالية هو «القومية» اللهم عدا بعض الدويلات التي أجبرها الوضع أن تكون حاجزاً بين دولتين كبيرتين ليقلل من دواعي الاصطدام بينهما، كالبلجيك وسويسرة. ويمكننا القول باختصار إن المئة سنة التي سبقت الحرب العالمية هي الحقبة التي تبلورت فيها القوميات في أوروبا. ولكن أوروبا القومية في هذه المدة تسلحت بالمخترعات والعلوم الحديثة. فالعلوم الطبيعية الحديثة أنتجت المكائن، وهذه ضاعفت الإنتاج بكميات هائلة والمكائن تتطلب مواد خاماً للإنتاج وتتطلب أسواقاً جديدة للصرف. كما إن العلوم الطبيعية أدت إلى اختراع الأسلحة الجهنمية التي تفتح بها البلاد المتأخرة لتسلبها موادها الخام ولترسل إليها البضائع التي نتجت من هذه المواد وتبيعها فيها بأضعاف قيمتها. وأخذت الأمم الأوروبية كل في سبيل قوميتها تتبارى مع الأخرى في فتح البلدان واستغلال الشعوب المتأخرة. وما يهمنا هنا بصورة خاصة هو استغلالهم للشعوب الآسيوية وبالأخص الشرق الأدنى. فإن تزاحم انكلترا وفرنسة وروسية وألمانيا وايطاليا على تقسيم الدولة العثمانية واستغلال ممتلكاتها عن طريق الامتيازات مما يملأ المجلدات الضخام والذي لا يخلو من الخوض فيه كتاب تاريخ حديث مهما كان ابتدائياً.

ولكن لحسن حظ الشرق، بل لحسن حظ الإنسانية عموماً والشرق الأدنى خصوصاً أن هذه الأمم الأوروبية الاستعمارية لا تستطيع الاتفاق في ما بينها ولن تستطيع، وإلا لقضت على الشرق قضاء مبرماً. فبينما هي تمعن في الاستعمار من جهة فإنها تتقاتل في ما بينها على تقسيم السلب من جهة أخرى. وإن هذا التزاحم بين الأمم الأوروبية الاستعمارية والتكالب في ما بينها هو ما يجب أن تستفيد منه الأمم الشرقية الناهضة أكبر استفادة ممكنة، إذا استيقظت وتنظمت، ولحسن الحظ أن الشرق أخذ يستيقظ من رقدته التي استغرقت قروناً، وكانت القومية هي المنبه والعامل المهم. هذا الإكسير الجديد الذي أخذ مفعوله يسري من أمة إلى أمة، من الغرب إلى الشرق. ولكن هذا الشرق العظيم حين استيقظ وجد نفسه مكبلاً بسلاسل الغرب، مثقلاً بكابوس الاستعمار، ومع ذلك فالجيل الحاضر يشاهد وثبة الشرق الجبار وقيامه في وجه الغرب قومة المحتج المزدري.

وربما كانت أول أمة شرقية نجحت في قوميتها هي اليابان قبل الحرب، وتركيا وإيران بعد الحرب.

فإن قصة نهضة اليابان وسدها أبوابها في وجه الاستعمار في أول الأمر وإرسالها البعثات العلمية والفنية إلى البلاد الغربية لاقتباس العلوم الطبيعية وما يتفرع عنها من المخترعات وتطبيقها ذلك على مواردها الطبيعية من الأمور المعروفة. وإني لأنصح للشباب العربي أن يدرسوا هذه القصة بتفصيل إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك قبلاً. إن الأمة اليابانية هي الأمة الشرقية الوحيدة التي تبارت مع الأمم الغربية الاستعمارية وبزّتها في نواحي الحياة الصناعية والعسكرية، وإن الأمم الغربية على اختلاف درجاتها في العظمة والقوة لتهاب اليابان اليوم وتحسب لها حساباً كبيراً. كيف لا واليابان أخذت تغزو حتى أسواق أوروبا نفسها بمصنوعاتها فتعطل عمالها وتبور صناعتها؟ وإن الكتاب الغربيين على اختلاف مللهم قد أمعنوا في معالجة الخطر الياباني أو ما يسمونه بـ «الخطر الأصفر» على أوروبا.

وأما نهضتا تركيا وإيران فقد قامتا على مرأى ومسمع منا. كل يوم نقرأ في الصحف عن انتصارات جارتينا في المحافظة على حقوقهما الطبيعية وسيادتهما السياسية، فليست تركيا الجديدة بنت ذلك «الرجل المريض» الذي كانت الأمم الغربية تمتص دمه على الدوام، وإنما هي كيان جديد قوي منظم. الأمة التركية الجديدة أمة تيقظت واتحدت وضحت ألوفاً من الأرواح في سبيل الدفاع عن أرضها وفي سبيل كيانها القومي، ثم مسكت زمام شؤونها بيدها فأخذت تتسلح بسلاح الغرب الاقتصادي والعسكري وما يتطلبه هذا السلاح من تجديد ثقافي واجتماعي. وتركيا اليوم أمة تحترمها جميع الأمم الغربية، لها مكانتها السياسية في دواوين السياسة ودواوين الثقافة العالمية.

والنهضة الإيرانية تقتفي أثر النهضة التركية، فإن إيران الجديدة ليست إيران قبل الحرب المقسمة إلى مناطق نفوذ استعمارية، إيران المنهوكة بتأثير الامتيازات الأجنبية. وهي فضلاً عما تتمتع به من سيادة قومية واستقلال تام في إدارة شؤون بلادها اليوم فيها نهضة صناعية واجتماعية تبشّر بمستقبل مجيد. ولئن شاهد القرن الماضي (القرن التاسع عشر) قيام القوميات الأوروبية وتسلحها بسلاح العلم الحديث وتطلعها إلى الاستعمار، فسيشاهد هذا القرن (القرن العشرون) نهضة القوميات الآسيوية وتسلحها بسلاح العلم الحديث وصدها مطامع الاستعمار وإجبار الغرب على الاعتراف بمساواة الشرق له ومعاملته معاملة الند للند على أساس المصلحة المتبادلة.

ليست اليابان وتركية وإيران هي الأمم الشرقية الوحيدة التي نهضت نهضة قومية وأخذت تتسلح بالسلاح الغربي، سلاح العلم والمخترعات، بل هناك أمم آسيوية أخرى نهضت نهضات قومية خطيرة، وهي وإن لم تقطع الأشواط الكافية في سبيل وحدتها القومية واستقلالها بعد، فإنها على الدرب ومن سار على الدرب وصل. ومن هذه الأمم أمتنا العربية العزيزة ذات التاريخ المجيد والحضارة الخالدة.

لا أريد في هذا الموقف أن أتوغل في تاريخ نهضتنا القومية الحديثة؛ كلنا يعرف بأننا إلى أواخر الحرب كنا أجزاء من جسم «الرجل المريض» نعاني ما يعانيه من آلام نفوذ الاستعمار الغربي، ومن آلام الجهل والتعصب والفقر والمرض. وكلنا يعرف عن قيام أحرار العرب في الآستانة وسورية والعراق والحجاز وجهادهم في سبيل جمع الشمل القومي. أجل نعرف شيئاً عن استشهاد الأبطال على المشانق في مرجة الشام في سبيل الفكرة العربية كما نعرف جيداً أن نشوب الثورة العربية في الحجاز كان في سبيل الحصول على استقلال العرب ووحدتهم القومية، كما نعرف جيداً العهود والوعود التي قطعها الحلفاء على أنفسهم من أجل استقلال العرب ووحدة العرب. نعم نعرف ذلك كله، ولكن انتهاء الحرب العالمية ونكث الحلفاء بوعودهم وعهودهم، فتح صفحة جديدة في تاريخ النضال القومي. وما يجب أن نعنى به الآن هو هذه الصفحة الجديدة التي سيتوقف ما يكتب فيها على الشباب. أجل يتوقف ما سيكتب في هذه الصفحة على جهود الشباب العربي وتضحياته وعلى بسالته وسلامة تفكيره.

والآن لأُلقِ نظرة الطائر المحلق على حالتنا الحاضرة فأسرد باختصار ما سطر إلى الآن في الصفحة الجديدة من تاريخنا منذ الحرب العالمية إلى الحال الحاضر.

بعد أن نكث الحلفاء عهودهم بعد الحرب شاءت مصالحهم أن تبقى البلاد العربية مجزأة: فدخل العراق تحت الانتداب الانكليزي، وسورية تجزأت، فدخل القسم الشمالي تحت الانتداب الافرنسي، وهذا قسم أيضاً إلى دويلات لبنان وسورية الداخلية والعلويين وجبل الدروز والاسكندرونة، كما دخل القسم الجنوبي من سورية، أي فلسطين، تحت الانتداب الانكليزي على أن تكون وطناً قومياً للصهيونيين، وشرق الأردن أصبحت إمارة تحت الانتداب الانكليزي أيضاً. ولم تنج من هذا التقسيم إلا نجد واليمن، فإنهما سدّتا أبوابهما في وجه النفوذ الغربي. بينما الإمارات العربية وعدن بقيت تحت النفوذ الأجنبي. أما افريقية العربية فباستثناء مصر، أصبحت كلها تحت الاستعمار الغربي. هذا هو الوضع الراهن الذي جابهه العربي بعد الحرب، وهو وضع تأباه كرامة العربي، وهو لم يعترف به ولن يعترف ما دامت هناك قطرة دم تجري في عروقه وقيراط حمية تستفزه. جابه العربي هذا الموقف بشجاعة وشهامة ورباطة جأش، فلم يتسرب اليأس إلى قلبه، ولم تهن عزيمته، بل استأنف الجهاد مجدداً بعد الحرب. فقام العراق، وكان أول الأقطار العربية كفاحاً ضد الاستعمار. وقامت مصر تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها، وقام المجاهد العربي عبد الكريم زعيم الريف، فجاهد حتى خارت قواه وانحلت جيوشه. وكم قدمت سورية، منبت الفكرة القومية الخصب، وضحّت بالنفس والنفيس في مناضلة الاستعمار، وهذه فلسطين العزيزة تقوم للمرة الثالثة معلنة للعالم بأن العربي يفضل أن يموت شهيداً على أن يحيا في وطنه ذليلاً مهان الكرامة.

ليس ما ظفر به العربي في جهاده بعد الحرب بالشيء الكثير مما يطمح وتصبو إليه نفسه، ومع ذلك فلا يجوز أن يستهان به، فمع أن البلاد العربية لا تزال مجزأة فقد أخذت

الروابط القومية في هذه الأجزاء تظهر واضحة صريحة للملأ، فتبادل الشعور بين العراق وسورية وفلسطين ومصر لهو دليل ساطع على وحدة الشعور القومي، وهذا الشعور هو أول ركن في تكوين الوحدة القومية، وإن التعاهد والتعاون بين المملكة العربية السعودية واليمن وبينهما وبين العراق لهو خطوة مباركة في سبيل إزاحة الحواجز السياسية. ومع أن النفوذ الغربي لا يزال يعمل في بعض أقسام الوطن العربي، فإن المملكة السعودية واليمن حافظتا على سيادتهما التامة واستقلالهما الكامل. كما إن ظل النفوذ الأجنبي قد تقلص في العراق، وأخذ الافرنسيون في سورية والانكليز في فلسطين ومصر يشعرون بأن مصالحهم تقضي بإعادة النظر في سياستهم الاستعمارية والاصغاء إلى صوت الحق المنبعث من قلوب أمة نهضت نهضة قومية مباركة، وهي تأبى أن تعيش مكبلة محكومة.

أما وقد وصلنا إلى هذه المرحلة من النشوء القومي في الوقت الذي أخذت الأمم الاستعمارية تتشاحن في ما بينها في سبيل مطامعها الاستعمارية التي لما نرى لها حداً، فيجدر بنا أن نتهيأ للمرحلة الجديدة في مراحل كفاحنا القومي، هذه المرحلة التي ستقع تبعتها على كواهل الشباب بالدرجة الأولى، ولأجل النجاح في هذه المرحلة يجب أن تتوفر في نظرنا ثلاثة شروط في الكفاح:

١ ـ انتظام الشباب وتوليهم مسؤولية العمل القومي.

٢ ـ جعل الكفاح القومي شعبياً.

٣ ـ جعل الكفاح عاماً مشتركاً لا موضعياً.

وها نحن نوضح في ما يلي كلاً من هذه الشروط:

١ ـ لقد قام القادة من أبناء الجيل الماضي ولا سيما الذين اشتركوا في الحروب القومية والثورات خير قيام بواجبهم القومي ولولاهم لما وصلنا إلى المرحلة التي نحن فيها من النشوء القومي، لكن الموقف اليوم يتطلب دماً جديداً، دماً حاراً من شباب الجيل الناهض. ولو نظرنا إلى الحركات القومية الحديثة في أوروبا لوجدنا أنها تقوم في الغالب على عواتق الشبان المثقفين المنتظمين، فهل آن لشبابنا أن يدركوا المسؤولية التاريخية الملقاة على عواتقهم؟ أنا لا أشك أبداً في حسن نية شبابنا وإخلاصهم، كما إننا لا نشك في استعدادهم للتضحية في سبيل الأمة ووحدتها. ولكن ما يتألم له كل قومي غيور هو عدم انتظام الشباب وتكتلهم، فليس لدينا ما يشبه تنظيمات الشباب النازي في المانيا أو الفاشيست في ايطاليا، أو الكومسومول في روسيا، أو السكوت في انكلترا. إن هذه التشكيلات تتطلب من الشباب إيماناً وانتظاماً وعملاً موحداً، وهذه كلها هي الشروط الأساسية لكل نجاح. إننا نعتقد أن شبابنا معظمهم مؤمن ولكنهم لم يتعلموا الانتظام الذي يتطلب كثيراً من ضبط النفس وكبح الأنانية، وكذلك فهم لم يتعلموا الاجتماع والقيام بعمل موحد. وإني لا أعرف عذراً للشباب المنور اليوم بعد أن اتضحت العلل النفسية لعدم تكتلهم في مثل نادي المثنى، وعدم تنظيم أنفسهم وقيامهم بأعمال قومية

منتجة. كما إني لأدعو أعضاء نادي المثنى وهيئته التأسيسية إلى العمل على جمع الشباب وتوحيد صفوفهم بنشاط أقوى وفعالية أكبر، فإن عليهم أن يوجدوا تشكيلات للشباب ترابط مع شباب البلاد العربية الأخرى وأن يعقدوا المؤتمرات لهذه الغاية.

٢ ـ الشرط الثاني للكفاح: قلنا أن يكون شعبياً، ولا نقصد بهذا أن جمهور الشعب العربي لم يقم بقسطه في الكفاح، بل بالعكس، إن التضحيات التي قامت بها الجماهير في سبيل مقاومة الاستعمار لَمِمّا يسجله تاريخنا القومي بأحرف ذهبية، ولكن ما ندعو إليه هو بث فكرة الوحدة القومية بين الجماهير وتوضيحها لهم. وهذه مهمة عظيمة يجب أن يتعهدها الشباب ـ مهمة الثقافة القومية الشعبية ـ فكل فرد عربي يجب أن يكون متحسساً، يحس الوحدة القومية، متطلعاً إلى اخوانه في أجزاء الوطن الأخرى، ومع أن تعريف الجماهير معنى القومية وحدود الوطن الأكبر هو من مهمات المدارس، فعلى الشباب أن يشتركوا فيها ويعملوا على تثقيف الجماهير فيبثوا بينهم الأفكار القومية الصحيحة ويحفزوهم إلى العمل القومي.

٣ ـ أما الشرط الثالث للنجاح في الكفاح القومي فهو أن يكون مشتركاً عاماً لا موضعياً. كلنا يعلم أن الظروف السياسية بعد الحرب العالمية اقتضت أن يقوم كل جزء من أجزاء الوطن بالكفاح لتخليص نفسه وحده. فهذا العراق ناضل وحده، وكذلك سورية ومصر والريف، وهذه فلسطين اليوم تناضل لوحدها. ولئن كانت الظروف في ما مضى تستدعي الاشتغال على انفراد، فقد تطورت الحالة اليوم، وعلى الأجزاء التي تتمتع بالاستقلال من الوطن العربي أن توحد جبهتها في الدفاع عن كل جزء من أجزاء الوطن العربي، وعن كل قضية فيها مصلحة العرب سواء كانت هذه المصلحة عامة أو موضعية.

إن الوضع القومي مساعد اليوم وسيساعد أكثر فأكثر في القريب العاجل على العمل. وتحقيق الأمل القومي لم يعد حلماً بعيداً، بل هو حقيقة قريبة المنال، وذلك إذا تسلح الشباب العربي بسلاح القومية والعلم الحديث ووقفوا وقفة موحدة مدافعين عن استقلال أمتهم ووحدتها.

لو استقل العالم العربي(*)

عبد الرحمن الشهبندر

«.. فاستقلال العالم العربي استقلالاً منفرداً محلياً، كما تبدو بوادره في هذه الأيام، ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً إلى نظام يشبه نظام عصبة أمم شرقية عربية مؤلفة من بلدانه، ويشتد التعاون الوثيق بينها على قدر الثمار التي تقتطفها من هذا النظام..».

لم تستطع الدعوة إلى الأخوة البشرية ـ على ما فيها من نغمة عذبة جذابة ـ ولا المذهب الاشتراكي الحر ـ على ما فيه من قواعد معقولة مقبولة ـ أن يطمسا معالم القومية الجنسية، أو يذهبا بالفوارق اللغوية الثقافية، فالعالم لا يزال مقسوماً إلى انكليز وألمان وفرنسيين وطليان وعرب واسبان، وما إلى ذلك من أقوام وشعوب، ناهيك بتلك الاضطهادات الجنسية الحادة القائمة مثلاً على زعم النازيين الألمان بأن دمهم لا يجوز أن يختلط بدم اليهود أبناء سام! وما نزال نقرأ في العلوم الاجتماعية والتاريخية شأن الثقافات الاغريقية والرومانية والعربية والجرمانية والانكلوسكسونية واللاتينية، وقد استجد اليوم شأن الثقافة التركية وقول المتحمسين لها إن مدنيتها هي الأولى، وإن لغات العالم كلها مشتقة من لغتها لأنها «لغة الشمس».

لا غرو أننا نجد الشعوب النازلة في العالم العربي، والتي شعرت بالروابط الثقافية الاجتماعية الأساسية التي تربط بعضها ببعضها الآخر، تهب من رقدتها، فتجد في هذه الروابط من عوامل التعاون والتضافر والاتحاد ما يعد فاتحة انقلاب سياسي خطير في تاريخ القرن العشرين.

وقد تجلى هذا الشعور بعض التجلي بما فعله أبناء العرب لفلسطين، على ما فيه من نقص وإبطاء، فقد تضافروا في افريقيا وآسيا على مد يد المعونة لإخوانهم الفلسطينيين في جهادهم الوطني، فتألفت في العالم العربي اللجان لتنظيم الاعانات المالية، ونشر الدعاية الفلسطينية، وغير ذلك مما كان له الأثر الطيب، وكان نداء ملوك العرب مسك الختام

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٤٥، الجزء ١ (١٩٣٦)، ص ٦ ـ ٨.

تجلت فيه بوادر التنظيم السياسي من ناحية الملوك والأمراء العرب بتوسطهم، ومن ناحية الشعب الفلسطيني بنزوله طائعاً مختاراً على هذا التوسط.

وفي الحق أن لهذه البادرة لأسبقية يهمنا معاشر العرب الاحتفاظ بها، وإن حاولت أوروبا أن تقلل من شأنها، وهي في الخطورة تأتي في الدرجة التالية فقط من البطولة التي أبداها الفلسطينيون مع إخوانهم الذين أتوا لنجدتهم من سورية ومن العراق.

والآن نرى أوروبا تنقسم إلى معسكرات، ونجد التطاحن بين البلشفية والفاشيستية والديمقراطية بالغاً أشده، وعصبة الأمم تخسر ما بقي لها من أثر ضئيل، والمعاهدات تصبح قصاصات ورق، وآخر الدول التي تنفض عن نفسها الغبار المكدس فوقها، دولة بلجيكا؛ فبعد هذا كله وبعد تسابق القابضين على زمام الممالك إلى الاستعانة بالأقوام الناشئة، ماذا يحدث يا ترى لو هبت هذه الروح التي نجدها في فلسطين اليوم كما وجدناها في العراق سنة ١٩٢٠، وفي سورية سنة ١٩٢٥، فعمت جميع بلدان العالم العربي، وظهرت البطولة الكامنة فيه كما ظهرت في نابلس والخليل والقدس ويافا وحيفا وغزة وبئر السبع، وسائر تلك البقاع التي سيردد ذكرها الأحفاد كما يرددون ذكر معارك «المزرعة» و«الغوطة» و«الحاضر» في سورية الشمالية.

إن هذا يعني أمراً واحداً، وهو أن هذه البلدان ستسير في سبيل الحرية، شاء الذين يسخرونها للأغراض الحقيرة أم أبوا، فلا يمضي حين من الزمن إلا وهي تتمتع باستقلالها الذاتي. والأمم مثل الأفراد، متى انتهت من مشاكلها المحلية، وتدبير أمورها الداخلية، انصرفت إلى علائقها الخارجية وبحثت عن المنافع التي تصيبها من القوى المحيطة بها، فكما أن الأخ يبحث عن أخيه، كذلك القطر الشقيق يبحث عن شقيقه، وهكذا تسير الأمور نحو التعاون المنشود بين بلدان هذا العالم.

فاستقلال العالم العربي استقلالاً منفرداً محلياً، كما تبدو بوادره في هذه الأيام، ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً إلى نظام يشبه نظام عصبة أمم شرقية عربية مؤلفة من بلدانه، ويشتد التعاون الوثيق بينها على قدر الثمار التي تقتطفها من هذا النظام، ولا سيما متى أصبحت حوزتها الدولية مضمونة بحمايته وتحت رعايته، على الرغم من الصولات الاستعمارية التي يصولها الغرب للبسطة السياسية والاقتصادية.

ونظرة واحدة على المصور الجغرافي، تدل على المقام الرفيع الذي يتمتع به عالمنا العربي. فهو يقف جبهة واحدة منضمة متشابهة من خليج الاسكندرونة في الطرف الشمالي للجانب الشرقي من البحر المتوسط إلى مضيق جبل طارق في الغرب، حيث يتصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي، فتشمل هذه الجبهة سورية وفلسطين وسيناء وقناة السويس ومصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش أو المغرب الأقصى. وحسبك من هذه الأقطار أن تذكر أنها فقط تعلم أنها أقطار تجمع بينها أواصر اللغة والعقيدة والتاريخ والشيء الكثير من لحمة النسب. وهي تعلم أن ماضيها متشابك ومستقبلها يدور حول مركز واحد. وقصارى القول إن هذه الأقطار لو أرادت أن تؤسس امبراطورية، أو أن تؤلف حلفاً، ما

كان الأعضاء الداخلون في هذه الامبراطورية أو هذا الحلف أبعد عن الوئام والتشابه من أعضاء «الامبراطورية البريطانية» أو ولايات «الولايات المتحدة» في أمريكا. أين هذه الجبهة المتشابهة المتحدة في الشق الجنوبي من البحر المتوسط من الجبهة المخروقة الممزقة المتنافرة في الشق الشمالي التي تبتدئ من الأناضول، وتنتهي كذلك بجبل طارق لتشمل الترك وهم في وضعهم الحاضر، مثل شجرة القرآن لا شرقيون ولا غربيون. وتشمل كذلك الصرب والألبان والكرواتيين والفنيسيين والايطاليين والفرنسيين والاسبانيين.

إن هذه الجبهة العربية التي تستقل النصف الجنوبي من البحر المتوسط هي الممر الطبيعي لكنوز آسيا وافريقيا إلى أوروبا، وهي نفسها تفيض بالخيرات والبركات، ففيها منابع الزيت ومنابت القطن وحقول الحبوب وبساتين الثمار وجنائن الأزهار، وهي وارثة الامبراطوريات القديمة، وفي ظلها الوارف تم الاتصال بين الثقافات الخالية والمدنية الحاضرة. فإذا ما قدر لأهلها أن يحصلوا أولاً على حريتهم الموضعية، ثم على تعاونهم الشامل، فإن قسطاس السياسة العالمية يصبح بيدهم لأنهم يتحكمون حينئذ في حوض البحر المتوسط، ومن تحكّم فيه تحكم في العالم إجمالاً.

ونحن معاشر العرب مع اعترافنا بقصورنا وانهماك كثير من أقطارنا في الشؤون الموضعية البحت وغفلة زعمائنا عن تبعة هذا التعاون الخطير - نقول: لقد صار للعروبة كلمة صريحة في السياسة الدولية وأخذ بعض القابضين على أزمة الممالك يتسابقون إلى خطب ودها، فهي ذات نفوذ في لندن وباريز وروما، ولن يكون اليوم بعيداً الذي يعترف لها فيه بشأنها في حل المعضلات العالمية، وهذا كله يتوقف على تنظيمها تنظيماً جديداً، وتسليحها بجميع الوسائل التي تجعل جانبها عزيزاً وكرامتها موفورة.

يا للّه لِفلسطين!(*)

أحمد حسن الزيات

يا لله لفلسطين مشرق الهدى والسلام، ومهبط الوحي والإلهام، ومجتلى عين موسى، ومسرح قلب عيسى، ومسرى روح محمد، وقدس الأديان الثلاثة، وقبلة الإسلام الأولى، ومهد الأنبياء، ومقبرة الرسل، ومعبد الشرق والغرب، ومجرى العسل واللبن!!

يا لله لفلسطين! ماذا فعلت بها الأحداث وجرّت عليها المطامع؟ أبعد أن رفع الإسلام عنها آصار العبودية وأوزار اليهودية تعود بها المقادير السود إلى استعمار (طيطوس) القاهر، واستثمار (يهوذا) الجشع، فيعود إليها الفساد والفوضى والقهر والفقر والموت؟!

أبعد أن استخلصها للعروبة (عمرو الداهية) من (أرطبون)، وسجل استقلالها العالمي (صلاح الدين) على ناصية (غودفروا) يستبيح ذمارها طرائد البشرية وفي صدورهم ترات الأمم وحزازات القرون، فينزلونها نزول الوباء، ويحلونها حلول الفتنة؟

* * *

ليست اليوم بصدد أن أفند هذه السياسة المريضة، فحسبها منطق الحوادث وأدلة الواقع؛ إنما أريد بهذه الكلمة أن أصور فلسطين العربية بين بحر يرشُّها باليهود والحرب، وقفر يحصبُها بالمرض والجدب، وأخواتها في العروبة وفي الإسلام مطمئنات على ضفاف الأنهر النضاحة بالنعيم، وعلى رياض السهول الفواحة بالنعمة، ينظرن إليها نظر الغرير الأبله وهي تمشي في النار، وتخوض في الدم، وتطلب القوت فلا تجده، وتنشد الأمن فلا تناله. أريد أن أصور حال هؤلاء الكماة الأباة الذين يغاديهم الفزع، ويراوحهم الموت، وهم يدافعون عن حقهم في الحياة، وينافحون عن مرقدهم من الأرض، ويقولون للواغل الثقيل وللحامي الدخيل: إنها موتة لا مناص منها. ولئن تُنثر أشلاؤنا على أديم الوطن، وتقبر أجسادنا في ثرى الأجداد، أحب إلينا من أن نعيش شرداء في

(*) نُشر في: الرسالة، السنة ٦، العدد ٢٦٥ (آب/أغسطس ١٩٣٨)، ص ١٢٤١ ـ ١٢٤٢.

كل طريق، طرداء في كل بلد!

لقد شن اليهود على عرب فلسطين الحرب في صراحة ووقاحة؛ وأعلنوا الجهاد الديني والقومي بالتطوع والتبرع، وسلحو ذؤبانهم بالمنايا والمنى. ودفعوهم في وجه الحق والعدل والشرف ومن ورائهم مصارف اليهود تمدهم بالذهب، ومصانع الانكليز تمدهم بالحديد؛ فانطلقوا يخرِّبون المدن، ويحرقون الحقول، ويقطعون السبل، ويحصرون المؤمنين الآمنين في أجواف الدور، وفي شعاف الجبال، لا يجدون منصرفاً إلى الزرع، ولا سبيلاً إلى القوت. وقد شغلهم الدفاع المقدس عن الحمى والنفس عمن وراءهم من الشيوخ والأطفال والنسوة، فتركوهم يتضاغون من الجوع، ويرتعدون من الخوف، ويكابدون برُحاء الهموم على وطن يستبيحه الغريب، وشعب يتخطفه الموت، وحق يتحيفه الباطل، ومستقبل يتكنفه الظلام، وحال من البؤس تقطع الرجاء وتوهي الجَلَد لولا إيمان المسلم وبسالة العربي واستماتة المظلوم.

فلسطين العربية كلها اليوم بين منفيّ يلوذ بكنف الأعداء، وضعيف يتلهى بالدعاء والبكاء، ومدافع يقتات بالعشب ويعتصم بالصحراء؛ وليس للمنفيّ شفيع إلا الأمل، ولا للضعيف عائل إلا الصبر، ولا للمدافع منجد إلا الإيمان.

أما إخوان النسب وإخوان العقيدة فكأنهم لا يملكون لمأساة فلسطين الدامية إلا عزاء المجامل، ورثاء الشاعر، ودعاء العاجز، وبكاء المرأة.

أيها المسلمون! إذا ذهبت عصبية الجنس، فهل تذهب نخوة الرجولة؟ وإذا ضعفت حمية الدين فهل تضعف مروءة الإنسان؟ إنا لا نقول لكم تطوعوا، ولكنا نقول تبرعوا. وليس في التبرع للجريح بالدواء، وللجائع بالغذاء، نقض لمعاهدة ولا غدر بصداقة. وأقل ما يجب للقريب على القريب، وللجار على الجار، يدٌ تواسي في الشدة، وقلب يخفق في المصيبة، ولسان يحتج في المظلمة. فهل يزكو بعربيتكم والجود غريزة في كيانها، وبإسلاميتكم والمواساة ركن من أركانها، أن تقفوا من فلسطين موقف الخلي المتفرج، يسمع الأنين فلا يعوج، ويبصر الدمع فلا يكترث؟

إن فلسطين تقاتل للحياة لا للمجد، وتناضل عن القوت لا عن العزة؛ وخليق بمن يدفع عن نفسه أن يُعان، وبمن يذود عن رزقه أن يُعذر.

إن فلسطين من البلاد العربية بمكان القلب، ومن الأمم الإسلامية بموضع الاحساس؛ وسيعلم الغافلون أن محنتها سبيل المسلمين إلى التعاطف، وصرختها نداء العرب إلى الوحدة...

في القضية الفلسطينية:
عوامل الخلاف بين العرب واليهود(*)

أمين سعيد

تقوم قضايا الشعوب القومية لاسترداد حق سليب أو استقلال مضاع أو لدفع ظلامة وكشف سرّ، أما أن تكون هنالك قضية مدارها اجلاء شعب عن بلاده لإحلال شعب أجنبي في محله، فهو الذي لم يقع حتى الآن، ولم يرو له التاريخ مثيلاً.

ولعل هذا الشذوذ في وضع القضية الفلسطينية هو الذي أكسبها هذا الاهتمام وأسبغ عليها هذا الثوب الفضفاض من الخطورة وبعث شعوب الشرق العربي، ومن ورائها شعوب العالم الإسلامي، إلى العناية بها وعقد المؤتمرات لأجلها.

ولهذه القضية أصلان: أحدهما عند العرب، والثاني عند اليهود: ولعل درس القضية من هاتين الناحيتين يساعد على استجلاء غوامضها وتقريبها من ذهن القارئ الذي لم يتابعها في أدوارها ومراحلها.

فالقضية في نظر اليهود قضية شعب مشتت يراد انقاذه وإحياؤه وإنشاء كيان قومي له وجمعه على صعيد واحد ووطن واحد. وحيث إن في فلسطين كثيراً من آثارهم الدينية وذكرياتهم التاريخية فقد وقع اختيارهم عليها لتكون دار هجرتهم وقاعدة ملكهم.

ولا يعارض العرب اليهود في سعيهم لإحياء دولتهم وتجديد مجدهم، فإن ذلك من خصائصهم وحدهم، وإنما يعارضون في اتخاذ فلسطين قاعدة لهذا البعث والتجديد، وفي جعلها وطناً لليهود وفي حشرهم إليها من جميع أنحاء الأرض، لأن تكاثر اليهود فيها واستيلاءهم على أراضيها ومرافقها ـ وهو ما وقع فعلاً حتى الآن ـ يضطرهم إلى الجلاء تخلصاً من ضغط الأكثرية اليهودية وتشديدها، وما بعد الجلاء إلا الفناء والهلاك. ومعنى هذا أن اليهود لو اختاروا بلاداً غير فلسطين لهجرتهم الجديدة ما لقوا مقاومة من العروبة ولا نضالاً.

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٤٧، الجزء ١ (١٩٣٨)، ص ١٥ ـ ٢٠.

وهناك صراع عنيف بين العرب واليهود وضع اليهود في هذه القضية وضع المهاجم المعتدي، لأنهم إنما يكافحون لانتزاع فلسطين من أهلها العرب وإنشاء دولة يهودية في ربوعها. وأما العرب فهم مدافعون يسعون لدرء الخطر اليهودي المحدق بهم، ولكي يعيشوا مطمئنين في أرضهم، آمنين في سربهم، لا يطردون ولا يفنون ولا يقذف بهم إلى الصحراء ليموتوا جوعاً وعطشاً، كما يقترح بعض غلاة اليهود.

وندرس بإيجاز الوسائل التي يتوسل بها اليهود، ثم نقف على ذلك بسرد أعمال العرب موجزين بقدر الامكان، فالتوسع في شرح هذه القضية يحتاج إلى مجلدات ضخمة، وقد ألف فيها حتى الآن كثيرون من أبناء الأمتين.

أولاً: وسائل اليهود

رجوع اليهود إلى فلسطين، أو أرض المعاد بعد الشتات، مما نص عليه في التوراة وفي كل الكتب الدينية الأخرى، ويذهب فريق منهم كل يوم إلى البراق في القدس فيصلون عنده ويبكون طوال الوقت، فيذكرهم هذا البكاء بمجدهم القديم، ويحفزهم إلى العمل لاسترداده.

ولقد بدأت «محاولة» اليهود للرجوع إلى فلسطين بشراء الأراضي من العرب وإنشاء المستعمرات والمدن، فابتاعوا في سنة ١٨٧٢ مزرعة صغيرة في جوار يافا اسمها «نيتر» هي أول ما ابتاعوه،، ثم اشتروا مزرعة«زمارين» في قضاء حيفا، ثم توسعوا تدريجاً.

ويجب أن نلاحظ هنا أن شراء الأراضي والفوز بها تدريجاً هو شعار اليهود في فتحهم السلمي، وفي تأسيس ملكهم وإحياء دولتهم، فهم يبذلون الأموال الطائلة في شرائها لاعتقادهم أن شراء الأراضي بالمال هو أسهل الوسائل لامتلاك البلاد، ومتى امتلكوا أراضيها، أو امتلكوا أكثرها سهل عليهم طرد العرب وإخراجهم منها.

ويستعين اليهود أيضاً بالهجرة، فالهجرة وامتلاك الأراضي في الأراضي المقدسة هما الدعامتان الكبيرتان اللتان يقوم عليهما مشروع الدولة اليهودية، فالهجرة تسهل عليهم التفوق عددياً على العرب وانتزاع الأكثرية منهم، ومتى صارت الأكثرية العددية لهم صاروا أصحاب البلاد، وهذا ما يميط اللثام عن سبب هذه الضجة التي يثيرها يهود العالم طلباً لفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وعن سبب إلحاح العرب في طلب وقف الهجرة اليهودية، وجعلهم ذلك شرطاً لكل اتفاق وتفاهم، وطلبهم وقف بيع الأراضي إلى اليهود، وأن يكون ذلك بتشريع خاص تصدره الدولة.

١ ـ الحركة اليهودية في العهد العثماني

نعود بعد هذا البيان فنقول إن محاولة اليهود الرجوع إلى فلسطين بطريق الهجرة وامتلاكها بطريق شراء الأراضي ليس بجديد، بل هو مما فكروا فيه ونفذوه في العهد

العثماني القديم. وقد بلغ الأمر بالمستر هرتسل واضع كتاب **الدولة اليهودية** وصاحب مشروع إعادة اليهود إلى فلسطين، أنه ذهب في سنة ١٩٠٢ إلى الآستانة للسعي عند السلطان عبد الحميد بإقطاع فلسطين لليهود مقابل مليون جنيه باسم قرض يعقده أغنياء اليهود للدولة ومساعدات مادية أخرى، فعاد مخفقاً فاشلاً، فقصد مع بعض زعماء اليهود لندن واتصل برئيس الوزراء الانكليزي، وهو يومئذ السر جوزيف تشمبرلن، والد المستر نفيل تشمبرلن الرئيس الحالي، فباحثه في مشروع جمع اليهود، فاقترح عليهم الرئيس الانكليزي أن يقطعهم أرضاً في افريقيا الشرقية يهاجرون إليها ويتدبرونها، فأبوا وأصروا على تملك فلسطين، فصرفهم قائلاً إن هذا ليس من اختصاصه.

ولم يحل هذا الاخفاق بين زعماء اليهود وبين مواصلة السعي لشراء الأراضي وتنشيط الهجرة مما استوقف نظر رجال الدولة العثمانية في آخر الأمر، فأصدروا تعليمات إدارية منعوا بها إقامة اليهودي المهاجر في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر، وكانوا يأتون يومئذ بحجة الزيارة فيسلم قلم الجوازات القادم منهم «تذكرة إقامة» حمراء لمدة ثلاثة أشهر يجب عليه أن يغادر البلاد بعدها. كما سنت تشريعاً منعت به تملك الأجانب، فصاروا يشترون بأسماء مستعارة.

ومع ما بذله اليهود من جهد ونشاط سحابة الحكم العثماني، فإن عددهم في فلسطين لم يزد عند إعلان الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ على ٥٤ ألفاً بعدَ ما كانوا بضعة آلاف قبل ظهور حركة الانعاش اليهودي. أما مساحة الأراضي التي تملكوها فما كانت تزيد أيضاً على ٤٥ ألف فدان. وقد قاتل الترك الصهيونية في زمن تلك الحرب أشد قتال. فنكلوا بفريق كبير من اليهود وأقصوا فريقاً إلى الأناضول ودمروا بعض مستعمراتهم إذ تبينوا أنهم يتجسسون عليهم لأعدائهم.

٢ ـ الحركة اليهودية في الحرب

كانت فرصة الحرب من الفرص الثمينة لليهود فاستغلوها إلى أقصى درجات الاستغلال، مستفيدين من غفلة العرب وضعفهم، وكانوا لم ينهضوا حقيقة من كبوتهم، وأخذ اليهود يتكلون على الدعم الدولي، فاتصلوا بالانكليز وأسدوا لهم خدمات يقول اليهود في وصفها أنها جزيلة، فتجسسوا لهم وأذاعوا الدعوة إلى الهزيمة والتخاذل في المانيا والنمسا، وقاتلوا هاتين الدولتين مع تركيا قتالاً شديداً ثم اكتتبوا لقرض النصر الذي عقدته انكلترا في سنة ١٩١٦ بما يبلغ نحو مئة مليون جنيه، وبالاجمال فقد وضعوا أموالهم ومواردهم وجميع وسائلهم ووسطائهم المعروفة تحت تصرف الحكومة الانكليزية، ثم قالوا لها بعد ذلك: نريد أن تهبينا فلسطين. وكان الانكليز ما يزالون يحاربون في صحراء سينا، على أبواب فلسطين، وكانوا قد قطعوا عهداً صريحاً للعرب بأن تكون فلسطين من جملة أجزاء الدولة العربية التي تعهدوا بأن يساعدوهم في إنشائها (من كتاب السر هنري مكماهون نائب ملك الانكليز في مصر للشريف حسين أمير مكة يوم ٢٤

تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩١٥)[١].

واهتدى الانكليز إلى حل شيطاني يرضي اليهود ولا يزعج العرب كثيراً، فأرسل اللورد بلفور يوم ٢ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩١٧ إلى المستر روتشيلد يبلغه أن حكومة جلالة الملك قررت جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود بشرط ألا يلحق ذلك ضرراً بالحقوق المدنية والدينية للطوائف الأخرى[٢].

وطاف اليهود بهذا الوعد عواصم المدن الكبرى، فاعترفت به الحكومة الفرنسوية يوم ١٤ شباط/فبراير سنة ١٩١٨، والحكومة الايطالية يوم ١٩ أيار/مايو سنة ١٩١٨، والولايات المتحدة يوم ٢١ آب/اغسطس من السنة نفسها. ثم أدمج بصك الانتداب البريطاني بفلسطين، وقد أقرته عصبة الأمم يوم ٢٢ تموز/يوليو سنة ١٩٢٢ وصار جزءاً منه، وهذا الوعد هو كل ما يحملونه من بريطانيا حتى الآن.

ثانياً: أعمال العرب

ما كان العرب بغافلين عن مطامع اليهود وسعيهم لامتلاك أراضيهم وديارهم، وقد رأيت أن الحكومة العثمانية حاربتهم وقيدت هجرتهم وحالت دون تملكهم، وما كانوا غافلين عما يدبرونه في أوروبا وينسجونه من حبائل وشباك، ولذلك ما كاد يعلن وعد بلفور، وقد أذيع رسمياً يوم ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، حتى قابله العرب بالاحتجاج والاستنكار[٣]. واتسع نطاق مقاومة العرب لليهود ومشروعاتهم بعد ختام الحرب العظمى وإلغاء الأحكام العرفية التي كانت مبسوطة على هذه البلاد وبعد اطلاق حرية الأقلام والاجتماع. ويمكن القول بأن عرب فلسطين أجمعوا اجماعاً تاماً على مقاومة المشروع الصهيوني، فلم يشذ منهم شاذ ولم يخرج خارج. وقد تجلت هذه المقاومة في صور شتى.

١ ـ الجمعيات

كان أول ما فكر فيه عقلاء الفلسطينيين عقب ختام الحرب العظمى لمقاومة الصهيونية هو إنشاء جمعيات محلية، فتألفت في كل مدينة فلسطينية جمعية باسم «الجمعية الإسلامية ـ المسيحية» شعارها محاربة الصهيونية ومقاومتها. وكان من أبرز أعمال هذه

---

(١) انظر: أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ٣ ج (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٤)، ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤.

(٣) أعلنت الثورة العربية الكبرى في الحجاز يوم ٩ حزيران/يونيو ١٩١٦ عقب اتفاق بين العرب والانكليز، وبذلك تكون قد تقدمت الظهور الرسمي للحركة اليهودية ولوعد بلفور.

الجمعيات أنها عقدت يوم ١٢ شباط/فبراير سنة ١٩١٩ في يافا مؤتمراً قررت فيه ضم فلسطين إلى سورية، وكان يحكمها يومئذ الأمير فيصل، وذلك تخلصاً من وعد بلفور.

٢ ـ المؤتمرات

وتدرج الفلسطينيون من تأليف الجمعيات إلى عقد المؤتمرات وارسال الوفود إلى أوروبا للدفاع عن قضيتهم، فعقدوا أول مؤتمر لهم في دمشق يوم ٨ حزيران/يونيو سنة ١٩١٩. وذلك لمناسبة وصول لجنة كراين الأمريكية إلى سورية لاستفتاء سكانها في تقرير مصيرهم فقرروا:

١ ـ عدم الاعتراف بوعد بلفور.

٢ ـ منع الهجرة الصهيونية.

٣ ـ ضم فلسطين إلى سورية.

وأيد قرارهم هذا المؤتمر السوري الذي عقد في دمشق ونادى باستقلال سورية بما في ذلك فلسطين. وكانوا يطلقون عليها اسم سورية الجنوبية، وبالأمير فيصل ملكاً عليها.

وعقدوا مؤتمراً ثانياً في دمشق يوم ٢٧ شباط/فبراير سنة ١٩٢٠ قرروا فيه:

١ ـ أن فلسطين (سوريا الجنوبية) جزء لا يتجزأ من سورية.

٢ ـ رفض وعد بلفور والهجرة اليهودية ومقاطعة اليهود اقتصادياً في سورية.

٣ ـ رفض قيام حكومة وطنية في فلسطين، بل الاعتراف بمطلبي الفلسطينيين وهما: عدم فصل فلسطين عن سورية، ومنع الهجرة اليهودية.

وغادر الفلسطينيون دمشق في أواخر شهر تموز/يوليو سنة ١٩٢٠ بعد دخول الفرنسويين إليها وإسقاطهم الحكومة الفيصلية. وكانوا يعلقون عليها آمالاً جساماً، فعقدوا يوم ١٤ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٢٠ مؤتمراً في حيفا قرر ما يأتي:

١ ـ رفض وعد بلفور.

٢ ـ منع الهجرة اليهودية.

٣ ـ إنشاء حكومة وطنية لفلسطين.

وألف المؤتمر لجنة تنفيذية لمتابعة الاشراف على الحركة الوطنية وتنفيذ قراراته.

وعقدوا يوم ٢٥ حزيران/يونيو سنة ١٩٢١ مؤتمراً رابعاً في القدس، فاختاروا وفداً سافر إلى انكلترا لبسط مطالبهم أمام الحكومة البريطانية. وعقدوا مؤتمراً خامساً في نابلس يوم ٢٢ آب/اغسطس سنة ١٩٢٢، وسادساً في يافا يوم ١٦ حزيران/يونيو ١٩٢٣، وسابعاً في القدس يوم ٢٠ حزيران/يونيو سنة ١٩٢٨. وكانوا في كل مؤتمر يؤيدون قراراتهم القديمة ويلحون بتنفيذها ويرون قبولها الحل الوحيد لمشكلتهم.

٣ ـ المقاطعة والاضراب والثورة

ورأى العرب في سنة ١٩٣٥ أن وسائلهم السلمية قد أخفقت فتخطوها إلى وسائل العنف. فقد تكون أجدى نفعاً وأشد تأثيراً ووقعاً، فأعلنوا يوم ٢٠ نيسان/ابريل سنة ١٩٣٦ إضراباً عاماً بدأ في يافا وشمل البلاد الفلسطينية كلها، ونادوا بأنهم لن يعودوا من إضرابهم حتى تقف هجرة اليهود ويمنع بيع الأراضي، ثم اقترن الاضراب بثورة قادها المجاهد فوزي بك القاوقجي، وقد استمرا (الثورة والاضراب) إلى يوم ١٢ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٣٦، ثم وقفا بتدخل ملوك العرب. فقد أرسل الملك غازي والملك عبد العزيز والأمير عبد الله يناشدون العرب أن يكفوا عن الثورة ويخلدوا إلى السكينة «معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل».

وأرسلت الحكومة البريطانية في تلك الفترة لجنة تحقيق ملكية إلى فلسطين برياسة اللورد بيل لوضع اقتراحات تسترشد بها في معالجة هذه المعضلة، فاقترحت تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق:

١ ـ منطقة يهودية تؤسس فيها دولة لليهود.

٢ ـ منطقة عربية تضم إلى شرق الأردن وتؤلف معها دولة عربية.

٣ ـ منطقة حياد تشمل الأماكن المقدسة وتظل تحت حماية بريطانيا وانتدابها.

وقابل العرب هذا الاقتراح بالاستنكار الشديد لأنه يجزئ بلادهم وينشئ فيها دولة لليهود، وتداعوا إلى مؤتمر عقدوه في بلودان يوم (٨ ـ ١١ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٧) فقرر:

١ ـ أن فلسطين جزء لا ينفصل من أجزاء الوطن العربي.

٢ ـ رفض ومقاومة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة لليهود فيها.

٣ ـ الإصرار على طلب الغاء وعد بلفور وعقد معاهدة مع بريطانيا تضمن للشعب العربي الفلسطيني استقلاله وسيادته وأن تكون حكومته دستورية للأقليات فيها ما للأكثريات من حقوق.

٤ ـ تأييد طلب وقف الهجرة اليهودية وإصدار تشريع يمنع انتقال الأراضي إلى اليهود.

٥ ـ يعلن المؤتمر أن استمرار الصداقة بين الشعبين البريطاني والعربي متوقفة على تحقيق المطالب السابقة، وأن إصرار انكلترا على سياستها في فلسطين يرغم العرب أجمعين على اتخاذ اتجاهات جديدة، كما إن الائتلاف بين العرب واليهود لا يتم إلا على هذه الأسس.

ولم تزحزح هذه القرارات الانكليز عن موقفهم ولم تبعثهم على إنصاف العرب ولا على تعديل سياستهم وإهمال مشروع التقسيم الجديد، بل شرعوا في تنفيذه فعلاً، فكان سبب اندلاع نيران الثورة الحاضرة وقد بدأت يوم ٢٦ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٧، وما تزال متقدة، وما يزال العرب ينادون بأنهم لن يكفوا عن النضال حتى تجاب طلباتهم ويدرأ الخطر الذي يهددهم. وكان من جراء امتداد الثورة هذا الامتداد أن عقد المؤتمر البرلماني في القاهرة يوم ١٨ تشرين الأول/اكتوبر الجاري والمؤتمر النسائي يوم ١٤ منه.

هذا بسط موجز لقضيتي العرب واليهود في فلسطين، ومنه يستبين القارئ أن العرب كانوا في جميع الأدوار مدافعين لا مهاجمين. وأن أقصى ما يسعون إليه هو استبقاء بلادهم وأراضيهم وعدم تمكين اليهود من إنشاء دولتهم.

فلسطين لا تقهر(*)

ابراهيم عبد القادر المازني

كنا في حديث فلسطين يوماً، فأخذ بعضنا يصف ما يبدي الثوار من الجرأة، والذكاء، وسعة الحيلة، وحسن التدبير والحكمة، وروى في هذا العرض قصصاً عجيبة، فهم بالقليل الموجود من السلاح القديم، يقاومون أمضى الأسلحة الحديثة، من طيارات، ودبابات، ومدافع جبلية، ومدافع رشاشة، وليس لهم سيارة واحدة يتنقلون بها، ولكنهم في كل مكان، ويصنعون القنابل بأيديهم، ويتخذون من أنابيب الماء فوهات مدافع، ويتخذون خطة الهجوم في كل حال، ويتولون الحكم بين الناس، ويقضون بالعدل، ويفضون المنازعات، ويطوون صفحات الخلافات والعداوات القديمة، ويدخلون المحاكم، وينحون قضاة الحكومة ويقضون هم في ما هناك، فينفذ أمرهم، ولا ينفذ أمر الحكومة، ويشيرون باتخاذ «العقال» بدلاً من الطربوش أو غيره من ألبسة الرأس، فإذا هو على رأس كل عربي من أبناء البلاد، ولو كان يصطاف في مصر أو سورية. وقد زالت هيبة الحكومة؛ وكفت «محاكم الصلح» عن العمل إلا في مدن أربع ليس إلا، وصارت الحكومة الحقيقية هي حكومة الثوار.

وقال أحد الذين كانوا في المجلس: «إن هذا لعجيب! ولا شك أن بين الثوار كثيرين من المثقفين والمتعلمين؛ ولكن السواد الأعظم أقرب إلى السذاجة والفطرة، فكيف تيسر كل هذا لهم؟»‏.

فلم يسعني إلا أن أقول: «إنهم يعملون بوحي الفطرة المستقيمة. وليس عجيباً أن يحسنوا التدبير، ويحكموا الخطط، ويضبطوا الأمر، ويظهروا ذكاءً واقتداراً. وهل كان عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومعاوية وأضرابهم من خريجي كمبردج، وسان سير، ومن حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه؟ أريد أن أقول إننا لا نتعجب لما ظهر من مواهب العرب بعد ظهور الإسلام، وما كان من تغلبهم على

(*) نُشر في: **الرسالة**، السنة ٦، العدد ٢٧٥ (تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٨)، ص ١٦٤٣ ـ ١٦٤٤.

دولتين كبريين في ذلك العهد، وفي آن معاً، فلا محل إذن للتعجب لما قدرت عليه ثورة العرب في فلسطين حيال دولة كبرى شاكية مستعدة».

والواقع أن فلسطين لم يعد في الامكان قهرها وإرغامها على قبول ما لا تقبل. ولقد استفزها إلى هذه الثورة المجيدة ظلم أريد بها ولا مثيل له في التاريخ، على الأقل في ما أعرف أنا. ويجب أن نذكر أن العرب كانوا حلفاء لبريطانيا وزملاءها في الحرب العظمى، وقد خرجوا على دولة الخلافة يومئذ، وهي دولتهم، وأكثرهم مسلمون، بل كان الثائرون على السلطة العثمانية الملتحقون بجيش الثورة العربية، من المسلمين.

فعلوا ذلك لأنهم طلبوا الحرية، ونزعوا إلى الاستقلال. وقد عرفت بريطانيا هذا، ورضيت به، وشجعتهم عليه، ووعدتهم بتحقيقه؛ ولو كانوا يعلمون أنهم سيصيبهم ما أصابهم لما ثاروا، إذ لا خير ولا معنى لاستبدال نير بنير.

وهذا الجيش العربي هو الذي أعان على فتح فلسطين وسورية، وسلخ البلاد العربية كلها من السلطنة العثمانية. وكان جيش بريطانيا يدخل بلداً بعد بلد، فيجد الأمور ممهدة، ويقابل بالترحيب والحفاوة، لأنه حليف العرب. فماذا كان جزاء العرب؟ مزقت بلادهم كل ممزق، وأخلفت الوعود كلها، فلم ينجز الحلفاء للعرب منها واحداً. وما استقلت العراق إلا بثورة، ولا عقدت المحالفة السورية إلا بثورة بل ثورات، ومع ذلك لا تزال معلقة لا يعرف مآلها أحد. أما فلسطين فكان خطبها أدهى، فما اكتفت بريطانيا بالانتداب، بل رمتها بشعب غريب فتحت له الثغور وقالت له ادخل، واستول على البلاد، وأقم لك فيها دولة، واتخذ منها وطناً. وما كانت البلاد بغير أهل حتى تفعل بريطانيا ذلك، ولا هي بالأرض الواسعة الرقعة، العظيمة الخصب، حتى تحتمل هذا السيل من المهاجرين إليها. وإن اليهود لمضطهدون في أنحاء شتى من الأرض، ولكن ما ذنب فلسطين؟ ومن تهكم الحوادث وسخر الأقدار أن ترمي بالهجرة اليهودية والوطن القومي الصهيوني البلاد العربية التي نعم اليهود في ظل دولتها بالعدل والعطف والحرية كما لم ينعموا في ظل دولة أخرى، فقد كانوا في الأمم الأخرى مضطهدين محقرين، وكان البريطانيون أنفسهم في القرون الوسطى يعدونهم أنجاساً منبوذين. ونحسب أن اليهود يقرأون روايات وولتر سكوت!

فإذا كان الشعب الفلسطيني قد ثار، فله العذر؛ وإذا كان على قلة عدده وانقطاع المدد عنه، قد راع الدنيا بثورته الجليلة فلا عجب، فإنه يدافع عن حقله وبيته بأدق المعاني العرفية للفظ الدفاع عن الحوزة، فإن بيته ينسف بالديناميت فيشرد هو وأبناؤه ونساؤه في الجبال الجرداء، والسهول الخصبة التي يملكها تقتطع وتوهب للدولة الصهيونية، فماذا يصنع هذا الشعب غير أن يثور؟ وماذا يسعه، وقد ثار، إلا أن يستبسل ويستميت؟ إنه موت بموت، فالموت مع الشرف وبعد الدفاع الكريم إلى الرمق الأخير، أولى من الموت جوعاً في جبال عارية لا ماء فيها ولا شجر، هي التي يراد طرد العرب إليها لإنشاء الدولة الصهيونية.

يضاف إلى هذا أن الغدر الفظيع الذي تنطوي عليه هذه السياسة، بشعب كان من أقوى الأعوان لبريطانيا في الحرب العظمى، وأخلصهم لها، يضاعف عزم الثوار، ويجعلهم أقوى وأجرأ.

ومن الجلي أن سياسة الوطن القومي على حساب العرب قد أخفقت، وأن إنشاء دولة صهيونية في فلسطين قد ارتد إلى عالم الخيال الذي لا محل له في عالم الحقائق. ومن الواضح الآن أن على بريطانيا إذا أرادت إمضاء العزم على تقسيم البلاد وإقامة دولة للصهيونية فيها، أن تجيش الجيوش وتسير الأساطيل لتفتح فلسطين عنوة، فما يكفي كل ما لها هناك الآن من قوة وعتاد. وأوضح من ذلك كله وأجلى حقيقتان أخريان، أما الأولى فتلك أن ثورة فلسطين ـ وهي أعدل ثورة قامت في الدنيا وأروع ما شهد العالم من مثيلاتها ـ قد جمعت قلوب العرب في الأقطار جميعاً وألفت بينها، فهم الآن أمة واحدة وإن كانت دولهم كثراً، وعلى بريطانيا أن تختار صداقة هذه الأمة أو عداوتها، وعليها أن تقيس قدرة العرب جميعاً إلى قدرة فلسطين وحدها. ونعتقد أنها تؤثر صداقة العرب ولا تجازف بعداوتهم ولا سيما أنه ليس لها باعث من مصالحها الخاصة الحيوية على اختيار خطة العداء. والعرب يقولون الآن لبريطانيا كما قال ابن الرومي:

أمامك فانظر، أي نهجيك تنهج   طريقان شتى، مستقيم، وأعوج

والمستقيم أولى، وهو الذي سيكون إذا كان علمنا بالانكليز ليس كله خطأ.

والحقيقة الأخرى أن بريطانيا لا تخدم اليهود بهذه السياسة، وإنما تثير عليهم نقمة العالم العربي والعالم الإسلامي، وهم أمة لا ينقصها أن يزيد كارهوها. ونحسب أن اليهود قد بدأوا يدركون هذا، ويفطنون إلى أن السياسة الصهيونية تورثهم عداء هم في أشد الغنى عنه.

التعاون الحربي

بين العرب والأمم الديمقراطية في الحرب الماضية(*)

هيئة تحرير مجلة «الهلال»

أتاحت الحرب العالمية الماضية الفرصة للعرب والدول الديمقراطية للتعاون معاً ليس فقط في ميدان السياسة، بل أيضاً وعلى الأخص، في ميادين الحرب شرقاً وغرباً. وقد تم ذلك التعاون على أوسع وجه وأسفر عن نتائج باهرة.

فقد اشتبكت الدول الديمقراطية ـ أي الحلفاء ـ في سنة ١٩١٤ في حرب مع المانيا وحليفاتها النمسا وتركيا وبلغاريا، وكان العرب الخاضعون للحكم العثماني في ذلك الوقت يتوقون إلى التحرر منه. كما أن شعوباً عربية أخرى كانت خاضعة لحكم فرنسا وانكلترا. فماذا فعلت تلك الشعوب، وأية مساعدة حربية قدمت للحلفاء، وهل كانت لمساعدتهم قيمة تذكر؟

إليك الجواب عن هذه الأسئلة.

عندما نشبت الحرب في سنة ١٩١٤ كان الخلاف قد بلغ حده الأقصى بين رجال تركيا الفتاة من ناحية وزعماء الحركة العربية اللامركزية من ناحية أخرى. ولا نقول الحركة «الانفصالية» لأن العرب ما كانوا وقتئذ يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية، بل كانوا يطالبون بإنشاء نظام لامركزي للحكم، تتمتع بموجبه الأقطار العربية بنوع من الاستقلال الداخلي الضيق، ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية، أو بعبارة أخرى، كان العرب يطالبون بأن يكون لهم نصيب وافر من الإدارة والحكم.

لكن سياسة الباب العالي أدت إلى فشل كل محاولة قام بها قادة الحركة اللامركزية، ومن ثم إلى تحويل هذه الحركة إلى عداء صريح، فثورة مسلحة.

وجاءت الحرب العالمية فأعطت العرب فرصة نادرة لكي يأخذوا بالقوة ما كان الترك يرفضون اعطاءهم إياه بالحسنى، ويمكن أن يقال هنا إن العرب طبقوا بالرغم منهم قول

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥٠ (١٩٤١)، ص ٤٧ ـ ٤٩.

المثل السائر: «الحرية تؤخذ ولا تعطى».

أولاً: الثورة العربية

نشبت الثورة العربية إذن في المدينة حيث رفع لواءها المغفور له الملك حسين ـ وكان في ذلك الوقت يلقب بشريف مكة ـ وهرع العرب من مختلف الأقطار والأمصار، وعلى الخصوص من العراق وسورية، إلى الانضواء تحت ذلك اللواء، واندفعوا خفافاً شجعاناً إلى ميادين القتال لكي يأخذوا من الترك ما رفض هؤلاء أن يعطوه.

وتألف جيش الثورة العربية من نوعين من المقاتلين: من الجنود النظاميين، ومن المتطوعين من رجال القبائل البدوية. وكان يقود الجيش النظامي القائدان جعفر باشا العسكري ونوري بك السعيد (وهو نوري باشا الآن) ويقود القبائل الثائرة زعماؤها ومشايخها، تحت إشراف أنجال الحسين، وهم علي وفيصل وعبد الله.

وكان التعاون تاماً بين الجيوش العربية العاملة في الحجاز وبادية الشام وشرق الأردن، وبين الجيوش الحليفة العاملة في فلسطين وفي ما بعد في العراق. فإن كل حركة كان يقوم بها العرب في الميادين المخصصة لهم، كانت تتم بالاتفاق مع القيادة العليا لجيوش الحلفاء في الشرق، أي مع الجنرال اللنبي وأركان حربه. وقد ظل هذا التعاون قائماً إلى نهاية الحرب، فاستخلص العرب من أيدي الترك ولاية الحجاز، والبقاع الواقعة شرق فلسطين، ودخلوا دمشق وحمص وحماة وحلب وبيروت. ولعب الكولونيل لورنس وغيره من البريطانيين أدواراً مهمة في ذلك الزحف الموفق من مكة إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ثانياً: عرب افريقية الشمالية

وبينما كان رجال الثورة العربية يتعاونون في الشرق الأدنى مع الجيوش الحليفة، كان مئات الآلاف من عرب افريقية الشمالية يجودون بأرواحهم في الميادين الغربية ويدهشون البريطانيين والفرنسيين وحلفاءهم بما يقومون به من أعمال البطولة والفروسية النادرة. فإن فرنسا وجهت في ذلك الوقت نداء إلى سكان المغرب والجزائر وتونس والصحاري الافريقية دعتهم فيه إلى التطوع وحمل السلاح في صفوف جيشها للدفاع عن «الحرية والعدالة وحقوق الشعوب»، فاندفع أولئك العرب الأشاوس اندفاع السيل لتلبية النداء، وخاضوا غمار المعارك في فرنسا من أول الحرب إلى آخرها.

ثالثاً: المهاجرون

وليس هذا كل ما حدث، بل إن عدداً كبيراً من السوريين واللبنانيين تطوعوا أيضاً في الفرقة الأجنبية الفرنسية، أو في جيش الشرق الفرنسي الذي اشترك في الحملة على فلسطين وسورية، فأخذوا نصيباً وافراً من المعارك التي دارت رحاها في الشرق والغرب.

وفي الوقت نفسه، تقدم آلاف من العرب المهاجرين إلى أمريكا يطلبون التطوع في الحملة الأمريكية التي أرسلت إلى فرنسا بعد دخول الولايات المتحدة الحرب بجانب

الحلفاء، فساهم أولئك المهاجرون العرب في الجهاد المشترك الذي قام به إخوانهم في الدولة العثمانية وافريقية الشمالية.

رابعاً: نصيب مصر في هذا التعاون

ويمكن القول أيضاً بأن مصر أخذت نصيبها من ذلك التعاون الحربي مع الحلفاء في تلك الملحمة العالمية، فقد أرسلت حملة مصرية إلى الحجاز، وقامت فرقة العمال المصريين بمجهود عظيم كان له أكبر أثر في بلوغ النصر النهائي في الشرق الأدنى.

فالتعاون الحربي بين العرب والحلفاء في الحرب العالمية الماضية كان إذن واسع النطاق ولم يقتصر فقط على البلاد العربية نفسها، بل تعداها إلى أوروبا، فحارب العرب في فرنسا والبلقان في الوقت الذي كانوا يحاربون فيه أيضاً في الحجاز وفلسطين وبادية الشام والعراق.

خامساً: فائدة هذا التعاون

وأما الفائدة التي جناها الحلفاء من تعاون العرب معهم في تلك الحرب، فإنها لا تنكر، وقد اعترف بها الحلفاء أنفسهم وأقروا بأنها كانت عاملاً من العوامل الفاصلة التي أدت إلى النصر.

ففي الشرق الأدنى، كانت الثورة العربية سبباً لتمزيق وحدة الجيش التركي يعمل الجنود العرب فيه على التهاون والتمرد والفرار للالتحاق بإخوانهم الثائرين. وبدل أن يحارب العرب في صفوف الترك راحوا يحاربونهم، فكأن شطراً كبيراً من الدولة العثمانية قد انفصل عنها للانضمام إلى أعدائها.

وفي الغرب، أي في فرنسا، حمل الجنود العرب من أبناء افريقيا الشمالية جزءًا من العبء الثقيل الذي ألقي على عاتق الجيش الفرنسي، وضمن لفرنسا زيادة قوتها من ناحية، والاطمئنان على الأمن في ممتلكاتها العربية، لأن سكان المغرب والجزائر وتونس لزموا السكينة وصاروا يتطلعون إلى اخوانهم المحاربين في الميدان الغربي، راجين لهم الانتصار على أعداء فرنسا وقد أصبحوا أعداءهم.

وأما العرب الذين تطوعوا في الفرقة الأجنبية والجيش الأمريكي، فقد ساهموا في إحراز النصر مساهمة فعالة حملت الحكومتين الفرنسية والأمريكية على مكافأتهم والاقرار بفضلهم.

وإذا كان العرب اليوم يقفون في صف الديمقراطية ويتعاونون معها، فليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة. فالعرب ديمقراطيون بالفطرة، والمبادئ التي تحارب الدول الديمقراطية من أجلها، هي مبادئ يقدسها العرب ويريدون لها أن تسود العالم. فعسى الديمقراطيات أن تخرج من هذه المحنة ظافرة موفقة، فتعمّ الحرية الشعوب صغيرها وكبيرها، ويتمتع بالاستقلال من حرم منه، وتحقق الأماني القومية التي تخالج نفوس العرب في مختلف أوطانهم.

التطبيق القانوني للحلف العربي الممكن(*)

يوسف قابيل

تجددت الدعوة في الزمن الأخير إلى الحلف العربي وتناول الموضوع بالبحث كثير من قادة الفكر في الأقطار العربية. ولا غرو أن يتحمس أهل هذه الأقطار للدعوة إلى هذه الفكرة الجذابة التي تعيد إلى أذهانهم ذكرى العصر الذهبي للعرب، حيث كانوا يبسطون سلطانهم على معظم العالم المتحضر ولهم فيه مهمة القيادة الفكرية العليا في جميع مناحي الحضارة البشرية.

وشأن كل كثرة تفكر اختلفت الآراء في البحث، فمن داع يدعو إلى تأليف «عصبة أمم عربية» قوامها أربعة أقطار عربية فقط، هي مصر والعراق والشام وجزيرة العرب، ودستورها الآية الكريمة: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾[1] على أن تعمل هذه «العصبة» بالتعاون مع الدولة البريطانية باعتبارها حليفة لتلك الشعوب[2] ـ ومن معترض على هذه الدعوة ـ وهو متأثر في إجابته بفكرة الدولة العربية الواحدة الجامعة ـ بقوله: وأي ضرورة تلك التي تشعرنا بوجوب قيام عصبة أمم عربية؟ أهناك خلاف بين الشعوب العربية أو حروب أو مصادمات في المصالح يخشى منها على السلام في الشرق الأدنى؟ ليس هناك بالطبع شيء من هذا كله. فما عصبة الأمم التي يراد انشاؤها إلا وسيلة للدفاع المحتمل ـ إن كان ـ ضد دولة أو دول أخرى غير عربية. وإذا كان هذا هو الواقع فإن من الضروري أن يكون ذلك الحلف حراً من سلطان بعض الدول الأوروبية وتغلغل نفوذها السياسي في الكتلة الجديدة إلى أبعد مدى. . . ـ ومن الطبيعي أن يكون تفكير الشعوب العربية في الحلف بينها مستمداً من فكرة اتحاد الشعوب التي كانت متفرقة في وقت من الأوقات، ثم أتيح لها الاتحاد بعد جهاد طويل وأحداث خطيرة. وكان ذلك الاتحاد بدء تاريخ حياة جديدة لها. فلا شك أن الشعوب العربية إذا

(*) نشر في: **الهلال**، المجلد ٥٠، الجزء ١ (١٩٤٢)، ص ١١٨ ـ ١٢٣.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية ٩.

(٢) أحمد أمين، «الحلف العربي،» **الثقافة**، السنة ٣، العدد ١٣٦ (آب/اغسطس ١٩٤١).

ذكرت التحالف فيما بينها كان في ظهر تفكيرها ما حدث للشعوب الايطالية التي اتحدت بعد تفرق. ثم استطرد إلى تحديد مدى ذلك الحلف بأنه ليس من الجائز أن نسمي الاجتماع بين الدول حلفاً إذا كان أهم ما في ذلك الاجتماع تبادل الجهود الثقافية واتصال العلماء والأدباء في مؤتمرات سنوية أو دورية، وإن مثل هذه العلاقات الثقافية بين الشعوب العربية لا يمكن أن يقال له حلف في كثير أو قليل - إذ المحك الحقيقي الذي يمكن أن تميز به حقيقة الحلف هو مقدار الترابط المادي الذي يؤدي إلى التعاون على الحياة في حالة السلم وإلى التعاون على الدفاع في حالة الحرب[٣].

وذهب كاتب فاضل آخر إلى أن اتحاد الأمم العربية حقيقة واقعة لا ريب فيها لا ينقصها إلا أن نعترف بها ونستفيد منها. ثم دعا إلى ابتداء العمل في بعض الجوانب إلى أن يتيسر العمل في الجوانب الأخرى، فتصير الجامعة الخاصة عملاً والجامعة العامة أملاً يطمح إليه[٤].

وانتحى باحث جليل ناحية مغايرة بعض الشيء لمن سبقه من حضرات الكتّاب، فأشار بأن يؤلف أولاً «اتحاد من أمم وادي النيل»، وهي مصر والشعوب الأخرى التي تقع أراضيها على ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه على أن ينظر في تأليف اتحاد عربي شرقي إسلامي في ما بعد[٥].

هذه خلاصة موجزة لما سطرته فئة جليلة من حضرات الباحثين الأفاضل في موضوع الحلف العربي ولا يخرج ما كتبه حضرات الكتّاب الآخرين في شيء يذكر عما أوردنا خلاصته آنفاً. والذي يلفت النظر في كل هذه الأبحاث أنها لم تخرج عن حد الرأي التمهيدي الذي يبسط المقدمة ولا يحدد النتيجة الحاسمة التي تخرج بفكرة «الحلف العربي» من حيز الأمنية غير المحددة إلى نطاق التطبيق العملي، وهو ما سنحاول علاجه في ما يلي بعد مناقشة العروض السابقة استيضاحاً للأمر.

أولاً: عصبة الأمم العربية

مما لا شك فيه أن الأمم العربية في وضعها الراهن تعجز فرادى عن أن تتخذ لنفسها مكاناً علياً بين الأمم العظمى.

ولسنا في صدد التنقيب عن علة ذلك الضعف الفردي، فهو مما يخرج عن نطاق الموضوع، ولكنا نقرر فقط حقيقة مجردة نستند إليها في مواصلة البحث. ولما كانت طبيعة

---

(٣) محمد فريد أبو حديد، «حول الحلف العربي،» الثقافة، السنة ٣، العدد ١٣٧ (آب/اغسطس ١٩٤١).

(٤) عبد الوهاب عزام، «الحلف العربي،» الثقافة، السنة ٣، العدد ١٤٠ (أيلول/سبتمبر ١٩٤١).

(٥) فؤاد أباظة باشا، في: المقطم، العدد ١٦٣٠٣.

الرابطة التي تربط أفراد العصبة لا تخرج عن نطاق المد بالمعونة الفائضة عن حد الدفاع عن الذات قبل كل شيء، ولما كانت المصالح الدولية الأخرى لكل عضو من أعضاء العصبة تفرض عليه التزامات عظيمة الشأن كثيراً ما تتعارض والمصالح المشتركة للعصبة، ولما كان الضعف الفردي لكل عضو من أعضاء العصبة يضطره في كثير من الأحيان إلى مجاراة الدول العظمى التي تجمعه وإياها مصالح دولية لا غنى له عنها في كثير من الأحيان، لهذا نجد أن فكرة التعاون داخل العصبة سوف تتراجع في النهاية إلى حد أدنى يتناول التافه من الأمور، على حين تتناول العلاقات الدولية الأخرى ـ خارج العصبة ـ عظيم الأمور وخطيرها ـ ولا أدل على هذا التطور الطبيعي من الفشل الذريع الذي لاقته عصبة الأمم الأوروبية.

هذا إلى أن تكوين «عصبة أمم عربية» مقابل «عصبة أمم غير عربية» في مكان آخر سيدفع الدول الأخرى إلى إثارة معنى «التعصب» ـ بحق أو بدون حق ـ لا سيما وأن هذه الدول تسعى دوماً لخلق «المبررات» للتدخل في شؤون المستضعفين.

ومن تحصيل الحاصل الاشارة إلى أن اقتراح إنشاء هذه العصبة في ظل دولة أوروبية قوية يتيح الفرصة الفريدة لهذه الدولة بالتدخل التدريجي في شؤون هذه العصبة، ثم الهيمنة في النهاية على أعضائها فرادى، إذ إن مجرد التفكير في إنشاء العصبة العربية في ظل معونة دولة أجنبية أوضح دليل على ضعف العصبة وقوة الدولة الأجنبية المراد الاستظلال بمعونتها، والتاريخ السياسي حافل بأمثال هذه التجارب، والسعيد من وعظ بغيره.

ثانياً: الدولة العربية الجامعة

يعلم كل مطلع على التاريخ السياسي أن البلاد العربية اجتمعت كلها تحت حكومة واحدة في عصر الدولتين الأموية والعباسية. ولكن ما لبثت هذه الدولة الضخمة زمناً حتى أخذ الوهن يدبّ في أوصالها وبدأت أعراض التفكك التدريجي تظهر عليها تبعاً لاتساع أقطارها وبعد كثير من أرجائها عن مركز الحكم الرئيسي فيها، مما دعا كثيراً من الولاة والأمراء إلى الخروج على الخلفاء ومن في حكمهم والاستقلال المحلي بكثير من الأقطار التي ولوا عليها.

ولم يكن طمع الولاة والأمراء وحده هو العامل الأوحد على تفكك الدولة العربية الجامعة، بل كان هناك عامل قوي آخر لا يقل مدى تأثيره عن ذلك، وهو تفاوت مستوى الحضارة وعدم التجانس بين الأقطار المختلفة التي جمعت الدولة العربية القديمة بين شتاتها. فمما لا شك فيه أن صفة «التجانس» لازمة لكل ما يراد الجمع بين أجزائه بصفة دائمة وإلا كان المصير إلى «التنافر» الذي يعقبه الانحلال وشيكاً، وهو ما تم في الدولة العربية القديمة برغم تحمس النفوس وشباب الإيمان في ذلك العصر.

وبعيد علينا ونحن في صدد هذا البحث المخلص أن نرمي إلى تزكية فريق دون آخر

من الأقطار العربية. فالشعوب العربية قبل كل شيء إخوان في اللغة والدين، ذلك الدين الديمقراطي القيم الذي سوى بين الناس كافة بقوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[٦] ـ ولكنا رغم هذا التسليم الصادق بمبدأ المساواة في الروحانيات لا نستطيع أن ننكر في نفس الوقت أن هناك من العناصر الدنيوية البعيدة الأثر ما يحدد مكانة الدول ويسجل تفاوتاً ملحوظاً بينها لا يجوز إغفاله إذا أريد إنشاء جامعة سياسية عظيمة تخضع في تكوينها أكثر ما يكون إلى أوضاع دنيوية آمنة يسير العالم على حكمها، فضلاً عن قوله تعالى: ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**﴾[٧].

ومن هنا يتضح أن التجربة العملية والأوضاع السياسية لا تشجع بحال ما على إنشاء حلف عربي في صورة دولة عربية جامعة كما أرادها بعض حضرات الكتّاب الأفاضل، وعلى الأخص وأن النزوع إلى الاستقلال الفردي قد أصبح الآن أشد وضوحاً مما كان عليه في القديم وأن العالم بلا مراء ينتقل بخطوات طبيعية واسعة من نظام «المركزية» إلى نظام «اللامركزية»، وأصلح النظم للبقاء ما تمشى مع التطور الطبيعي.

وأما ما ذهب إليه حضرة الباحث الفاضل الذي دعا إلى تأليف اتحاد من شعوب وادي النيل فقط ـ على أن ينظر في تأليف اتحاد عربي شرقي في ما بعد ـ فمما لا يتناول جوهر البحث، إذ إن اختراق نهر ما بعدة أقطار مختلفة ليس مدعاة إلى تأليف جامعة رفيعة بين تلك الدول برغم عدم تجانسها في ما عدا ذلك، إذ يكفي في مثل هذه الحال أن تؤلف لجنة دولية لتدبير المياه وتوزيعها وفق الحاجة إليها إلى جانب تدبير شؤون الملاحة في ذلك المجرى على غرار «لجنة الدانوب الدولية» في أوروبا الوسطى التي تقوم بعملها في هذا الصدد خير قيام بغير ما حاجة إلى رابطة أخرى.

ثالثاً: التطبيق القانوني

نستخلص من عرض هذه الآراء المختلفة ونقاشها المستفيض أن العناصر الجوهرية التي يجب توفرها في «حلف عربي» صالح للبقاء هي:

١ ـ التجانس بين الدول راغبة الاتحاد.

٢ ـ قوة الترابط بين الأعضاء إلى حد اندماج المصلحة الفردية للعضو في المصلحة المشتركة للحلف، وذلك مع مراعاة الاحتفاظ بالشخصية الفردية للعضو قدر المستطاع.

فما نقترحه إذاً ليس حلفاً جامعياً صرفاً ـ نسبة إلى الدولة العربية الجامعة ـ ولا استقلالياً صرفاً تماماً مع مبدأ عصبة الأمم العربية التي تضم بين جناحيها دولاً فردية بسيطة مستقلة.

---

(٦) القرآن الكريم، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

(٧) المصدر نفسه، «سورة هود،» الآية ١١٨.

وهذا التصوير وإن بدا عسير التكوين لأول وهلة إلا أنه ميسور التحقيق في النظام الذي أطلق عليه القانون الدولي العام: «نظام الدولة المركبة». فقد قسم شراح القانون الدولي العام الدول من حيث تكوينها إلى «دول بسيطة»، وهي القائمة بذاتها فقط، و«دول مركبة»، وهي التي تتكون من اتحاد دولتين أو أكثر على أساس الخضوع لرئيس دولة واحد. ثم قسّم الشراح الدولة المركبة بدورها إلى عدة نظم نختار من بينها نظامي: (١) الاتحاد المركزي (Federal State)، و(٢) الاتحاد الحقيقي (Real Union)، ولا يكاد يفترق الاتحادان المختاران عن بعضهما إلا في عدد الدول المكونة لكل منهما. فبينا نجد أن الاتحاد المركزي يمكن أن يجمع بين دول متعددة، نرى أن الاتحاد الحقيقي لا يعقد إلا بين دولتين فقط، وهي تفرقة راعيناها في مقترحاتنا التي سنأتي على ذكرها في ما بعد، ومن أمثلة الاتحاد المركزي البرازيل والمكسيك. ومن أمثلة الاتحاد الحقيقي: النمسا والمجر إلى عام ١٩١٨، والسويد والنرويج إلى عام ١٩٠٥.

ويتكون الاتحاد المركزي من انضمام طائفة من الدول بعضها إلى بعض في اتحاد دائم(٨)، على أن تقوم الحكومة المركزية بتسيير الشؤون الخارجية وشؤون الدفاع والسياسة المالية العليا للاتحاد، وما يتبقى من ميادين النشاط الحكومي الأخرى مثل: التعليم والصحة والزراعة والأشغال العامة، وما إلى ذلك يحتفظ به للحكومات المحلية تحقيقاً لمبدأ الاحتفاظ بأكبر قسط ممكن من الاستقلال المحلي للدول الأعضاء في الاتحاد.

فلا غضاضة إذاً في ذلك المزج الجزئي الذي ستوكل فيه الدول الأعضاء بعض ميادين نشاطها إلى إدارة الاتحاد ـ التي هي جزء من الاتحاد، في النهاية ـ على حين يكسب ذلك المزج هيئة الاتحاد هيبة دولية، ولا ريب نعتقد أنها أصبحت ألزم ما يكون للثبات في التحرك الدولي سياسياً واقتصادياً ـ وذلك فضلاً عن أن أعباء الاستقلال قد أصبحت الآن ثقيلة بحيث تنوء بحملها الدول الصغيرة البسيطة ـ وهي أعباء الدفاع الوطني بمختلف نواحيه البرية والبحرية والجوية إلى جانب التمثيل الدبلوماسي والقنصلي وما إلى ذلك من الأعباء الدولية التي تعجز دولة بسيطة صغيرة عن الاضطلاع بها وحدها، مما يجعل من مثل هذه الدولة كرة تتقاذفها أطماع الدول العظمى من وقت لآخر.

يأتي إلى ذلك أنه حتى وسائط الحكم في الحكومة المركزية للاتحاد ستكون مشاعة بين جميع أعضائه بحيث لا يخشى أن تطغى دولة فيه على الأعضاء الآخرين، إذ إن السلطة التشريعية والتنفيذية على التدريج ستنتخب وتعين من جميع دول الاتحاد على أساس تعداد سكان كل قطر منها.

وينطبق توزيع الاختصاصات هنا على نظام الاتحاد الحقيقي مع فارق قصر الاتحاد الحقيقي على دولتين فقط.

---

(٨) ينص على ذلك عادة في دستور الدولة التي هي عضو في الاتحاد.

رابعاً: الحلف العربي المقترح

وتمشياً مع عنصر التجانس ـ السابق الذكر ـ بين الدول العربية الراغبة في الاتحاد من جهة، وتحقيقاً لقوة الترابط بين هذه الدول من جهة أخرى نقترح تقسيم الدول العربية إلى أربع وحدات كبرى:

الوحدة الأولى: مصر، سوريا، لبنان، فلسطين (اتحاد مركزي) تحت عنوان «المملكة المتحدة المصرية».

الوحدة الثانية: مراكش، الجزائر، تونس، طرابلس (اتحاد مركزي) تحت عنوان «اتحاد شمال أفريقيا».

الوحدة الثالثة: العراق، شرق الأردن (اتحاد حقيقي) تحت عنوان «المملكة المتحدة العراقية».

الوحدة الرابعة: الحجاز، اليمن (اتحاد حقيقي) تحت عنوان «المملكة المتحدة الحجازية»، على أن يطبق على كل من الوحدة الأولى والثانية ـ للأسباب التي أشرنا إليها ـ نظام الاتحاد المركزي، وأن يطبق على كل من الوحدة الثالثة والرابعة نظام الاتحاد الحقيقي.

وعلى أن تتوج هذه الاتحادات بعد تكوينها «بمعاهدات صداقة وتحالف» تعقد بينها وبين بعضها بما توحيه المصالح الدولية المشتركة بينها على غرار ما يعقد من هذه المعاهدات بين الدول الصديقة التي تجمعها ببعضها علاقات سياسية واقتصادية وثقافية وثيقة.

هذا ما رأيت من واجبي الادلاء به من رأي عملي قانوني، ولست بغافل عما يقف في سبيل تحقيق هذا الغرض من عقبات كبيرة. ولكني على يقين في نفس الوقت من أن إيضاح الهدف والأخذ الصادق بصحته خطوة حسنة في سبيل الوصول إليه، ولا سيما نحن الآن على أبواب تطور عالمي كبير ينزع ولا ريب إلى إقرار سياسة رشيدة أساسها الرضا المتبادل في العلاقات الدولية ـ ومن سار على الدرب وصل.

التعاون العربي(*)

خليل مطران

التعاون العربي كان وما زال واجباً في كل حين وسيكون غداً أوجب.

الأمة العربية جمعاء على اختلاف أقطارها ترى ضرورة هذا التعاون، ولكنها رأته إلى اليوم بعيني قلبها، ويؤلمني المصارحة بأنها لم تره إلى اليوم بعيني رأسها.

الفطرة، البيئة، اللغة، دين الكثرة الكبرى وأثره في القلة وإن اختلفت ديناً، كل ذلك يدعو إلى تحقيق الوحدة العربية وإلى التعاون في ما بين أجزائها.

نعم إننا أجمعنا على هذه الأمنية وعلى نشدان تحققها، وقد آن في ما أعتقده، ويعتقده كل مخلص الولاء لقوميته، أن نهيئ الأسباب ونمهد السبل لإدراك تلك الغاية.

ما من عربي لا يرى في الصميم من قلبه صور المجاهدين المعاصرين ـ من بقي منهم ومن استشهد ـ في سبيل الوحدة العربية، وما من عربي إلا وهو اليوم ممتلئ القلب فخراً وسروراً بما تفضل به حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المفدى من عالي التأييد لهذه الحركة المباركة، وتنطق كل جوانحه بالشكر لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء الحكومة المصرية الذي وجه هذه الحركة بحكمته وصدق إيمانه توجيهاً لا بد أن يؤتي ثمراته.

أما ما يكون من أمر التعاون العربي بعد الحرب، فجوابي عنه بقدر ما تسمح به حالتي من الضعف هو ما يلي:

ليس من السهل على الباحث المحقق وهو يفكر في موضوع الوحدة العربية أن يقرر وجهة نظره في ما يختص بكيفية التعاون بين الأقطار العربية بعد أن تضع الحرب أوزارها، فإن الأمر يتوقف على ما يقرر في مؤتمر الصلح، فإذا جاءت شروطه ملائمة كما هو مأمول لاستقلال الأمم العربية في معنى الاستقلال الصحيح، ففي هذه الحالة يتوقف شأن الوحدة العربية على ما تكون صورة الحكم عند كل حكومة من الحكومات العربية، وعلى ما يتيسر تأليفه من تلك الصور في شكل حلف سياسي أو قومي أو

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥١، الجزء ٤ (١٩٤٣)، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦.

اندماج بين بعضها والبعض الآخر.

على أن هناك وسائل يمكن التفاهم عليها من الآن بين الحكومات العربية ليبنى عليها صرح التعاون المقبل، وهي تتلخص في وسيلتين كبيرتين:

إحداهما أقرب إلى التنفيذ على تشعب فروعها، وهي الخاصة بالتعاون الاقتصادي، ولتحقيق هذا التعاون الاقتصادي لم يدرس بتفصيله إلى الآن في بلد واحد من بلدان العرب دراسة مستوفاة يبدو منها بالتدقيق ما يملكه من موارد داخلية، وما يحتاج إلى جلبه من جيرانه، وإذا وضعت هذه الدراسة في كل بلد عربي بالعناية والدقة وعلى الأوضاع العلمية الشائعة عند أمم الغرب، تيسر الاتجاه في مسألة التعاون بالتفضيل والايثار إلى أي بلد عربي يمكن الاصدار إليه والاستيراد منه. وعندئذ تعقد المجتمعات والمؤتمرات المتبادلة للتفاهم في هذه النقاط. ولعل الحريات التي تكون الحكومات قد كسبتها عقب أن تضع الحرب أوزارها وتحققت فعلاً، تساعد على أن هذه الشعوب العربية المختلفة يتسنى لها الاتجاه الذي تنشده في أمورها الاقتصادية أكثر مما كان يتسنى لها من قبل.

أما الوسيلة **الثانية** التي ينهض عليها صرح التعاون العربي، فأعني بها المسألة الثقافية. فقد بدأت الحكومة المصرية لبضع سنوات خلت تعنى بها عناية جديرة بما يحمله هذا الاسم من تجلة واحترام. وفي هذا العهد منحتها وزارة المعارف العناية الواسعة النطاق التي هي قمينة بها، وذلك على أثر ما بدا من التحول في أمر الحكومة التي تتولى أزمة هذه الشعوب.

وقد كان من حسن التوفيق ويمن الطالع أن بدئت في سبيل هذا التعاون الثقافي دراسات وعقدت اجتماعات ووضعت أوليات لمبادئ معلومة بين مصر وبين بعض البلاد العربية، ومثل هذه الدراسات والاجتماعات والمؤتمرات العلمية ستتوالى حسبما يبدو من النيات التي أعربت عنها جهات متعددة من الأقطار الشقيقة.

وعندما يتم التفاهم على الصور النهائية الشاملة لهذا التعاون الثقافي، لا أدري أننا سنحرز منه على الفور نتائج ذات بال، ولكن من اليقين أن التوافق في الرأي والاتجاه وتسيير برامج التعليم في مدارس هذه الأقطار ومعاهدها العلمية المختلفة، سيكون له من الأثر في وقت غير بعيد، ما يمكن حكومات البلدان العربية من مواجهة أي حل عام شامل تتجه إليه عواطف الأمم العربية، وتؤيدها عند ذلك بصائرها ومعارفها وثقافة أبنائها على نحو خاص.

والخلاصة أنني في دخلة نفسي أرى أن العرب أمة واحدة من حيث الفطرة والعاطفة والنزعة إلى التآلف في ما بينها، ولكن دون اجتماعها في جسم واحد عقبات شاقة لا بد من تذليلها واجتيازها بادئ ذي بدء، وذلك في مدى قد يطول. أما الذي أراه ممكناً فهو تحالف ممالكها ودولها بعد الحرب على شكل يؤمنها من الخارج، ويضمن سلامتها وحرياتها في الداخل، وهذا ما ستساعد على تحقيقه رغبات الشعوب بأكثر مما ستساعد عليه طوايا الحكومات، ولا بد له في النهاية من النجاح.

الوحدة العربية(*)

أحمد أمين

أمام الأمم العربية الآن مشاكل ثقافية معقدة قد لا يواجه مثلها غيرها من الأمم، فالأمم الغربية تواجه مشاكل، ولكن ليست من جنس مشاكلنا، وإن كانت تتصل بها. لقد حددت الأمم الأوروبية مسلكها في التعليم وأوضحت غايتها إلى حد ما، ولكنها في طريقها المرسوم تجد بعض المشاكل، كالرغبة في تعميم التعليم غير الأولي ونشر الثقافة وتعديل المناهج وإصلاح بعض الخطط.

أما الأمم العربية فمشاكلها أعقد من ذلك لأنها إلى الآن لم ترسم خططها واضحة، ولم تضع التعريف للتربية الذي يتفق وأغراضها وآمالها، ولذلك مزقت أساليب التربية المختلفة وحدتها، هذا تعليم ديني بحت، وهذا تعليم مدني بحت، وهذا تعليم لخدمة فرنسا، وهذا تعليم لخدمة انكلترا، وهذا تعليم لخدمة أمريكا، وهذا تعليم لخدمة التبشير ونحو ذلك. وكل هذا لا يقيد بقيود قومية مما ليس له نظير في أية أمة حية ترعى مصالحها ولا تسمح بتمزيق وحدتها، ونشأ عن ذلك اختلاف النزعات الأساسية بين الأمة العربية الواحدة، فكيف بالأمم العربية مجتمعة، ونشأ عن هذا أيضاً اختلاف المنطق واختلاف التفكير، هذا في منتهى الرجعية، وهذا في منتهى الحرية، وهذا في منتهى العصبية الدينية، وهذا في منتهى العصبية اللادينية، وهذا في منتهى العصبية لأمة أوروبية، وهذا في منتهى العصبية ضد كل نزعة أوروبية، حتى لكأننا في برج بابل.

قد تجد شيئاً من هذه النزعات المختلفة في الأمم الأوروبية، ولكنك لا تجدها بهذه الحدة وبهذا التناقض كما تجدها في الأمم العربية، بل في الأمة الواحدة العربية، ويشبه الخلاف بيننا وبينهم الخلاف بيننا في الملابس والخلاف بينهم في الملابس، فكلهم يلبسون على نمط أساسي واحد، وإن اختلفوا ففي قيمة ما يلبسون لا في شكل ما يلبسون. أما نحن فنختلف في الأساس وفي الأشكال اختلافاً لا حد له.

إذن، نحن في أشد الحاجة إلى الاجابة عن هذين السؤالين:

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥١ (١٩٤٣)، ص ٥٩٧ ـ ٦٠٠.

ـ كيف نوحّد أسس التعليم ولا نسمح بهذه النزعات المتباينة الضارة ولا نجيز الاختلاف إلا في العرض لا في الجوهر؟

ـ ما تعريف التربية التي يجب أن ينشدها العرب، ما الجملة التي تركز فيها كل أغراض الأمم العربية في التربية والتي يجعلها رجال التربية نصب أعينهم لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة؟

هذه إحدى المشاكل التي تواجه العرب.

والمشكلة الثانية، أن العرب يختلفون عن أوروبا في شيء جوهري، وهو أن الأمم الأوروبية والأمريكية حددت نوع مدنيتها وثقافتها، عمدت إلى الثقافة اليونانية والرومانية وغيرهما فغربلتها، واتخذت خيرها، وامتصت عصارتها، وبنت عليها حضارتها وثقافتها، وخلصت من ذلك كله، ورسمت لمدنيتها منهجاً تسير عليه في كل شأن من شؤون الحياة، ومنها الثقافة.

أما العرب فلهم موقف آخر، هم بين ثروة قديمة من الثقافة العربية، فيها الخير والشر والغث والسمين وحبات الدر وحبات الحصا، وثقافة غربية فيها الضار والنافع كذلك ولا غنى لنا عنها، تحكمنا بطبيعتها وكيمياها وما تنتج من آلات وصناعات، فإن كان على الأوروبيين عبء واحد، فعلى الأمم العربية عبئان.

ماذا نأخذ من تراثنا القديم وماذا ندع؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذا ندع؟ إن لنا ديناً ولنا لغة ولنا أدباً لا بد أن نستمده من وحي آبائنا، وإن للغرب علوماً وفنوناً وصناعات لا بد أن نستمد منها لنجاري الزمن.

كيف نوفق بين المدنيتين ونمزج بين الحضارتين، ونكون لنا شخصية ممتازة لا هي كل الشرق القديم ولا هي كل الغرب الحديث؟ كيف ننقي قديمنا ونأخذ زبدته ونفرغ منه، وكيف نحدد ما ينفعنا من الجديد ونرسم خريطته، وننتهي من ذلك ولا يكون علينا إلا ملء الخانات الفارغة منه؟

ثم مشكلة ثالثة:

لقد خلقت لنا المدنية الحديثة علوماً لا عهد لنا بها، وفي هذه العلوم مصطلحات متنوعة لا تحصى في الطبيعة والكيمياء والفلك والاجتماع والنفس والعمارة والصيدلية، وخلقت لنا ألوفاً وألوف الألوف من الأدوات والصناعات والعقاقير ومركباتها ونحو ذلك، ولا غنى للعرب عن استعمالها. فكيف نتفق على تعريفها وتوحيد مصطلحاتها والاتفاق على الألفاظ الصالحة لها، فليس يليق أن تنفرد كل أمة عربية بوضع مصطلحاتها ما دامت اللغة العربية ملكاً لجميع الأمم العربية وقدراً مشتركاً للتفاهم بينهم؟ ما وسائل التعريب؟ ما قواعد التعريب؟ كيف ينظم التعريب؟ كيف يبذل الجهد للفراغ من كل المصطلحات الأوروبية حتى نقف مع الأوروبيين على قدم المساواة، وننتهي من الماضي،

ولا نواجه في الحاضر إلا ما اخترع حديثاً واكتشف حديثاً.

ثم مشكلة رابعة:

لكل أمة من الأمم الحية دائرة معارفها، بل دوائر معارفها، تكتب بلغتها وتساير العلم في مراحله ويعاد طبعها بين حين وآخر ويزاد في الطبعة الجديدة ما وصل إليه العلم الحديث بين الطبعتين، وكل أمة تعنى في دائرة معارفها بنوعين، القدر المشترك بين جميع الأمم، والعناية الخاصة بموضوعاتها الخاصة من جغرافيتها وتاريخها وأعلامها، هذا ما عملته انكلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وغيرها.

فماذا فعلت الأمم العربية في هذا السبيل؟ دائرة معارف للبستاني لم تكمل وأكل عليها الدهر وشرب، وتقدم العلم عليها حتى أصبحت في عداد التاريخ، ثم لم تجد من يكملها ويقدمها مع الزمن، ويطبعها طبعة جديدة تتفق والنهضة العربية يكون فيها خير التراث العربي وخير التراث الغربي.

ومشكلة خامسة:

إذا وحدت الأمم العربية تعريف تربيتها ورسمت خطتها في التعليم، فلا بد من الفصل بين مسألتين، قدر أساسي مشترك تتساوى فيه الأمم العربية من حيث المناهج والخطط والغرض، وقدر خاص غير مشترك تحافظ فيه كل أمة عربية على شخصيتها فتتوسع في جغرافية بلادها وتاريخ رجالها، وتسير كل أمة في المستوى الذي يناسب استعدادها ومقدرتها المالية.

فما هو هذا القدر المشترك، وما هو هذا القدر الخاص، وكيف يحدد وكيف يرسم؟

* * *

هذه في نظري أهم المشاكل التي تواجه العرب من الناحية الثقافية. هذه هي الأسئلة التي يجب أن تطرح ويجاب عليها.

فكيف يكون ذلك؟

لهذا جملة وسائل، منها أن يكون هناك مكتب للتعاون الثقافي تختار كل حكومة عربية من يمثلها فيه، وهؤلاء يتبادلون الرأي في هذه المشاكل وأمثالها، ويضعون الأسس اللازمة للسير عليها، وهذا هو ما بدئ به فعلاً حسبما أعلم، ولا ينقصه إلا التعميم واشتراك الأمم العربية كلها فيه، والنشاط في عمله.

ولكن هذا وحده ـ في نظري ـ لا يكفي، فالممثلون الرسميون عادة يضطرون إلى تقدير اعتبارات سياسية قد تحد من نشاطهم وتلون بحوثهم وتفكيرهم.

ومن أجل هذا ينبغي أن تكون بجانب هذه الهيئة الرسمية هيئة أخرى غير رسمية، فيؤلفون جمعية تعاونية تبحث الموضوعات بحثاً طليقاً مجرداً عن الاعتبارات السياسية،

وهذه ـ فضلاً ـ عن خدمتها للفكرة تفيد فائدة كبرى الهيئة الرسمية، وهذه الجمعية يختار أعضاؤها ممن عرفوا بالاخلاص والجد والاستهواء السياسي والغيرة على مصلحة الأمم العربية الثقافية، وتتعاون هذه الجمعية في غرضها، وتعمل في وضح النهار، ولا يكون لها غرض إلا خدمة الثقافة ومعالجة المشاكل التي أسلفنا الاشارة إليها.

وهذه الجمعية تعقد مؤتمراً كل سنة على مثال المؤتمر الطبي، كل سنة في قطر من الأقطار العربية، سنة في القاهرة، وسنة في دمشق، وسنة في بغداد، وسنة في مكة، وهكذا.

ويكون للجمعية سكرتيريتها تحدد أغراض الاجتماع وموضوعات البحث، ويتعاون أولو الخير والبر على إمدادها بالمال اللازم لها، ويكون لهذه الجمعية مجلة، بل مجلات، فمجلة لنشر أعمال المؤتمر وأخباره، واختيار لجانه الفرعية ومبلغ نشاط الأعضاء واللجان في نواحيها الثقافية المختلفة، ومجلة تكون على نمط المختار من ريدرز ديجست تعنى بخلاصة خير المقالات التي تنشر في الصحف والمجلات العربية، بل والإسلامية من غير العربية، فمثل هذه المجلة تقرب من أفكار الشرق، وتؤلف بين ثقافته وترقي تفكيره، وفي هذا خدمة للوحدة العربية الثقافية، وهكذا.

ثم بجانب هذا وذاك ضروب أخرى من التعاون الثقافي لا بد منها، مثال ذلك، تبادل كبار الأساتذة والعلماء والأدباء في الأقطار العربية المختلفة، فأساتذة الشام في مصر والعراق، وأساتذة العراق في مصر والشام، وأساتذة مصر في الشام والعراق، وهكذا في الاجازات المدرسية، وفي المسامحات الصيفية، فهذا يخلق جواً علمياً بديعاً وتعاوناً ثقافياً جليلاً.

ثم انتهاز الفرص العلمية والأدبية لذلك، فمهرجان لذكرى أبي العلاء في الشام تلقى فيه البحوث الأدبية من أساتذة الأقطار العربية، ومهرجان للإمام الشافعي في مصر تلقى فيه البحوث التشريعية والقانونية، ومهرجان للخليل بن أحمد في العراق تبحث في البحوث اللغوية، ولعمر بن الخطاب في دمشق، ولأبي الطيب المتنبي في حلب، وللإمام الأوزاعي في بيروت، وهكذا لا ينفض مهرجان حتى يعدّ مهرجان آخر، وفي هذه المهرجانات تتلاقى الأفكار وتتوالد الآراء، وسيكون من نتيجة ذلك حتماً التفكير في الاصلاح من جميع نواحيه، اللغوي والأدبي والنحوي والتشريعي، ونحو ذلك.

إذا تم ذلك كله ــ وهو ما أرجو أن يكون بعد الحرب مباشرة ــ فنحن أمام نهضة عربية وثابة وإصلاح عربي شامل ووضع أسس لبناء العرب في هيكل الثقافة، وبذلك يساهمون في بناء صرح الثقافة العالمية مع البانين، ويشيدون مع المشيدين.

والله ولي التوفيق.

الوحدة العربية(*)

محمد فريد وجدي

الوحدة العربية حقيقة اجتماعية موجودة بين جميع الشعوب التي تتكلم بالعربية، وإنما هي بالخطوة المزمع اتخاذها لتقريرها رسمياً، تتطور إلى شكل دولي لا بد منه في دور الانقلابات الاجتماعية التي يتوقع أن تلي الحرب الحاضرة. والظواهر الاجتماعية كالظواهر الطبيعية تحدث عندما تصلح العوامل المحيطة بالجماعات لإحداثها، ولا تستطيع أية قوة معارضة أن تمنع حدوثها.

لم يكن العالم في يوم من الأيام على مثل ما هو عليه اليوم من النزاع والتناحر، حتى ليخيل للرائي أنه ارتكس إلى عهد الجاهلية الأولى، لولا أن الرؤوس المفكرة لم تفقد رشادها، فأعلنت أن ليس القصد من هذا النزاع العدوان على المبادئ الإنسانية العليا التي وصل إليها الاجتماع بعد تقلبه في أدوار شتى، ولكن القصد تثبيتها، والوصول بها إلى أرقى مدلولاتها، فكان هذا حافزاً للأمم والجماعات التي تربطها روابط قوية، على أن تثبت وجودها قبل أن يحين وقت التسويات الاجتماعية المنتظرة، فتحفز الشعوب العربية اليوم إلى طبع الوحدة الموجودة بينها بالفعل، بطابع تعاقد دولي، هو من الفطنة السياسية بمكان عظيم.

بقي علينا أن نبحث في المزايا التي يستفيدها بعض هذه الشعوب من بعض من وراء قيام هذه الوحدة.

فأما من الناحيتين الثقافية والاقتصادية، فقد كان التعاون فيهما بين الشعوب العربية جارياً في مجراه الطبيعي قبل حدوث الحلف المتوقع حدوثه بينها، ولا مشاحة في أنهما بعده يبلغان أقصى ما يمكن أن يبلغاه من التوسع فيه.

ولكن الأثر العظيم لهذه الوحدة سيظهر في الناحية السياسية، والشعوب العربية أحوج ما تكون إليها في حالتها الراهنة والمستقبلة. فقد حدثت أحداث كانت على جانب

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥١ (١٩٤٣)، ص ٦٠١ ـ ٦٠٢.

عظيم من الخطورة في اليمن وسورية وغيرهما، قضت عليها فيها الأوضاع السياسية أن تكون منفردة أمام قوى لا قبل لها بها، فلو كانت الوحدة المراد تحقيقها موجودة إذ ذاك، كانت تلك الشعوب لا تشعر بالانفراد أمام تلك القوى، وكان لتدخل سائر الشعوب العربية في شد أزرها، مبرر سياسي لا يمكن تجاهله، فكانت تلك الشعوب المهتضمة تستفيد من هذه النجدة فوائد قيمة.

هذا ويتوقع من وراء هذه الوحدة ما هو أدق من هذا وأدخل في حياة تلك الشعوب. ذلك أن منها من هو في حاجة ماسة إلى نظم أقوم مما هي عليه، وتوجيهات لا بد منها لجعل حياتها الاجتماعية أصلح لإنتاج ثمراتها الطيبة، فيكون لبعضها حق في إسداء النصح لها في ما يتعلق بما ذكرنا.

نعم إن إسداء النصح ليس بمتعذر بينها على كل حال حتى ولو كانت الوحدة بينها غير مطبوعة بطابع رسمي، ذلك بسبب التعاطف التقليدي الموجود بين تلك الشعوب، ولكن بين إسدائي إياك النصح وأنا شريكك في الربح والخسارة، وبين اسدائك ونحن غير مترابطين سياسياً، بون بعيد.

هذه أظهر النواحي وأجلها خطراً، ولكن هناك نواحي بسيكولوجية خفية لا يجوز لباحث اجتماعي أن يغفلها من حسابه:

منها ما تحدثه هذه الوحدة من بعث روح النهوض في تلك الشعوب، فإن أثر شعورها بالنصراء والمؤيدين، يكون وهي تقطع أشواط الحياة الاجتماعية، وتجتاز حوائلها وعقباتها، غير أثر شعورها بانفرادها بذلك، فإنها في الحالة الأولى تندفع غير هيابة ولا وجلة، فتسرع في خطواتها لبلوغ أغراضها، وفي الثانية تتئد وتكثر من الاحتياط، وترتد لأول صدمة.

ومنها ما تحدثه هذه الوحدة من روح التغاير المحمود بين أعضائها، فتهتم بإزالة أسباب التفاضل بينها وبين أخواتها، وتتوثب إلى التكسل لتصل إلى المستوى الذي لا تحتاج معه لمعونة غيرها. هذا شعور غريزي شديد الفعل في النفسية الإنسانية، ولا يصح الاستخفاف به لدى الباحثين في عوامل نهوض الأمم.

ومنها شعور تلك الشعوب بأن هناك رقابة أدبية، على أعمالها، واهتماماً شديداً من حلفائها باستقامة طريقتها. هذا الشعور وحده يحدث في ثنايا الصدور وسويداوات القلوب من آثار التقويم والتعديل، وإن لم يؤبه له، ما لا تحدثه الرقابة التأديبية للحكومات القوية.

الخلاصة أن ما الشعوب العربية بسبيله اليوم من إعلان الوحدة بينها دولياً، له من الآثار الأدبية والمادية عليها، ما هي أشد الحاجة إليه في حالتها الراهنة والمستقبلة.

الوحدة العربية(*)

محمد رفعت

كان الطريق إلى تأليف هذه الوحدة ممهداً ذلولاً منذ الحرب العالمية الأولى، ولكن السياسة الأوروبية التي تلت الحرب قد خيبت الآمال التي عقدها العرب على بريطانيا، فبدلاً من الوحدة نبتت دويلات متجزئة متفرقة ومشاكل معقدة أنتجت عدة ثورات كادت تودي بمركز بريطانيا في شرق البحر الأبيض المتوسط.

ومسألة الوحدة العربية مسألة عاطفية قومية قبل أن تكون مسألة سياسية. والمعروف عن الخلق البريطاني أنه خلق عملي يتخبط ويتعثر إذا واجهته حركة عاطفية وطنية. فلا عجب إذا رأينا الانكليز يخطئون في سياستهم نحو العرب، فقديماً أخطأوا في أمريكا وفي الهند وفي ارلنده وفي مصر، وكما انتهى الأمر في تلك البلاد بأن فهمت انكلترا حقيقة الموقف وأذعنت له، كذلك يظهر أن الأمر سينتهي ببريطانيا وحلفائها أخيراً فتعترف بحق الشعوب التي تتكلم اللغة العربية سواء في شرق البحر الأبيض المتوسط أم في جنوبه.

وأهم ما أفادته انكلترا وفرنسا من المسألة العربية حصولهما على البترول من العراق وتوصيل الأنابيب من الموصل إلى حيفا في فلسطين لتغذية السفن البريطانية، وإلى طرابلس لتغذية السفن الفرنسية، وكانت فرنسا تستورد من هذا البترول ٤٠ بالمئة من مجموع ما تحتاجه منه، وها هي الولايات المتحدة بأمريكا تحاول تدعيم نفوذها السياسي بتوصيل أنابيب البترول من الخليج الفارسي إلى البحر الأبيض المتوسط.

وقد استقل الملك عبد العزيز بن سعود في بلاد العرب واستقر له الأمر في المملكة السعودية بانتصاره على قوات الملك حسين، وإعلان نفسه ملكاً على الحجاز سنة ١٩٢٩. وانتهت وصاية انكلترا على العراق بعقد معاهدة بينهما سنة ١٩٣٢، وعقدت مصر المستقلة مع بريطانيا معاهدتها سنة ١٩٣٦، واضطرت فرنسا إلى قبول استقلال سوريا ولبنان أخيراً. ولم يبق إلا فلسطين وفيها تواجه انكلترا مشكلة من أعقد المشكلات. فإنه

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥٢ (١٩٤٤)، ص ١٧٠ ـ ١٧٢.

كما يهم انكلترا ارضاء العالم الإسلامي بإنصاف العرب في فلسطين، كذلك يهمها إلى جانب ذلك ألا تغضب ملوك المال من اليهود في أوروبا وفي أمريكا.

ولا ننسى الشعوب التي تسكن جنوبي البحر الأبيض المتوسط وتخضع لسلطان الدول الأوروبية، مثل مراكش والجزائر وتونس وليبيا، فهي شعوب تختلف عن سكان المستعمرات الأوروبية الأخرى في افريقيا، شعوب راقية لها قوانين وأديان إلهية ولغة وأدبيات، وكان لها في الماضي تاريخ مجيد ومدنية اقتبست منها المدنية الحديثة نوراً وعرفاناً، ولها آثار تعتز بها وتحفزها إلى العمل على استرداد مجدها الغابر. لذلك كان عمل الحاكم الأجنبي في إخضاع هذه الشعوب عملاً محفوفاً بأشد الأخطار، فمن اضطرابات إلى قلاقل وثورات وحروب تقهر فيها الشعوب المحكومة آناً، فتسكن فترة من الزمن تستجم في أثنائها لتقوم ثانية تستأنف جهادها في سبيل الاستقلال.

وجميع هذه الشعوب قد تأثرت بالروح الوطنية التي سادت الشعوب العربية والإسلامية بعد الحرب العظمى الأولى، فهم أيضاً يتوقون إلى الاستقلال واقتفاء أثر المصريين وتتبع خطواتهم في نهضتهم.

هذه خلاصة وجيزة لموقف الشعوب التي تتكلم العربية، فعلى أي أسس تقوم الرابطة بيننا وبينهم بعد الحرب؟

هناك روابط من أنواع مختلفة، الأولى رابطة الوحدة أو الاتحاد التام، ومعناه ارتباط الشعوب تحت تاج واحد وتكوين شخصية دولية واحدة مثل انكلترا واسكتلندا، والحجاز ونجد، في الوقت الحاضر، والنمسا والمجر، والسويد والنرويج في الوقت الماضي.

وهناك رابطة الاتحاد التمثيلي، أي الاتحاد الذي يجمع إمارات أو ممالك عدة ترسل مندوبيها أو ممثليها في «دياط» أو مجمع واحد يمثل الجميع ويضع قراراته لينفذها جميع الأعضاء. ويلاحظ أنه في مثل هذا الاتحاد لا يسري سلطان المجمع على الشعوب أو الأهالي وإنما تكون قراراته ملزمة للأمراء أو الملوك.

وقد كانت إمارات المانيا، ينتظمها اتحاد تمثيلي قبل توحيدها بزعامة بروسيا سنة ١٨٧١. وكذلك كانت إمارات الراين في عهد نابليون، وكانت كذلك الولايات المتحدة قبل دستورها الحالي، وقد فشلت هذه الاتحادات فشلاً تاماً. ويعرف هذا النظام بالنظام الكنفدرالي (Confederation).

وهناك رابطة الولايات المتحدة، أو النظام الفدرالي (Federal)، وبه ترتبط الولايات أو الأقسام معاً، فتشترك في حكومة مركزية أو سلطة تنفيذية واحدة لها قوة دفاع واحدة وسياسة خارجية وتجارية واحدة، ويترك لكل ولاية قسط وفير من الاستقلال تتمتع به في شؤونها المحلية.

ومن رأيي أن جميع هذه الروابط لا تصلح للوحدة العربية. فهم لا يرضيهم أن يجتمعوا تحت تاج واحد، أو أن يكون لهم حكومة تنفيذية واحدة تتكلم باسمهم لدى الدول. ونظام الاتحاد التمثيلي قد دل التاريخ على سخفه وقلة صلاحه ما دامت الهيئة التي

تمثل الاتحاد لا تملك قوة تنفيذية يخضع لها أعضاء الاتحاد. أما النظام الفدرالي أو نظام الولايات المتحدة، فهو أصلح هذه النظم وأوفقها من الوجهة العملية، ولكنه نظام لا يوافق الروح الوطنية الفتية التي تميز الشعوب الحديثة العهد باستقلالها لا سيما إذا كانت هذه الشعوب تختلف في مستواها المدني والاقتصادي.

إذن فكيف السبيل إلى الوحدة؟ اني أرى الوحدة قائمة لا ريب فيها في الشؤون الثقافية، وأعتقد أن الوحدة الاقتصادية يمكن تعزيزها وتحقيقها على مدى الأيام. أما في السياسة، فالسبيل إلى الوحدة يأتي عن طريق الميثاق العربي (Arab Covenant) الذي يجمع بين الشعوب العربية والقريبة منها، مثل اثيوبيا، وذلك على نسق ميثاق عصبة الأمم، ولضمان تنفيذ شروط الميثاق واستمرار العمل به، تؤلف لجنة دائمة تتولى مراقبته وإدارته وتتعهد أعضاءه بالارشاد والتوجيه.

الخلط بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية

وختاماً أرى لزاماً أن أنبه إلى الخطر الذي يتهددنا من جراء الخلط بين السياسة الداخلية والمسائل الخارجية. لقد جر علينا هذا الخلط في الماضي متاعب وعثرات ونكوصاً على الأعقاب، وأدى ذلك كله إلى ارجاء دستورنا وتأخير استقلالنا زمناً طويلاً. لقد كانت مسألة استقلالنا بعد الحرب الكبرى الأولى مسألة دولية بيننا وبين بريطانيا أولاً، ثم بيننا وبين دول الامتيازات ثانياً. فلم تمض سنة أو سنتان على ثورتنا سنة ١٩١٩ حتى تحول الموضوع إلى مسألة داخلية. وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن نبرهن على أننا خليقون بحكم أنفسنا، فوضع الدستور وجاء البرلمان واقتضى منطق الحوادث اجراء الانتخابات وتكوين الأحزاب وتولي الحكم، وبذلك انقسمنا شيعاً وأحزاباً وسرت في البلاد روح العداء والقطيعة بين الأفراد والأسرات ورجال الحكم، ونتج عن ذلك كله أننا شغلنا عن هدفنا الأول وهو الوصول إلى الاستقلال الحقيقي وبقينا سبعة عشر عاماً نتجاذب أطراف الحكم ونتراشق بالتهم حتى انبلجت أمامنا الحقيقة سافرة في النهاية، فحزمنا أمرنا وظفرنا باستقلالنا الحقيقي سنة ١٩٣٦.

وأخشى ما أخشاه بعد الحرب أن تحول مسائلنا الخارجية إلى مسائل داخلية أخرى يكون محورها هذه المرة «هل نحن قادرون على الدفاع عن أنفسنا؟»، بدلاً من «هل نحن قادرون على حكم أنفسنا؟». وقد ينبني على هذا الاختبار ظهور خلافات جديدة تنشب بين أسلحة الدفاع المختلفة والسلطات السياسية، فنشغل بها وتبقى مسائلنا الدولية الحيوية معلقة ردحاً من الزمن. فعلى قادة الرأي في هذه البلاد أن يأخذوا حذرهم وأن يكونوا مؤمنين بحق الوطن فلا يلدغوا من جحر مرتين، وأن يعملوا متفقين على برنامج دفاعي دولي واحد يرتبط به الجميع ويعملوا يداً واحدة على تحقيقه، سواء أكانوا داخل الحكم أم خارجه، ولهم بعد ذلك أن يختلفوا ويتساجلوا ويتنافسوا ما شاؤوا في مسائل السياسة الداخلية والاقتصادية والاجتماعية، وليكن مبدأنا بعد الحرب كما كان مبدأنا قبل الاستقلال وبعده «مصريون قبل كل شيء».

روابط الأمم:

الفرعونية؛ الفينيقية؛ العروبة؛ الصهيونية؛ السلالة؛ القرابة القومية؛ الإنسانية(*)

هيئة تحرير مجلة «الهلال»

أقوى عاطفة اجتماعية تتحرك في الإنسان هي عاطفة القومية، على ظن أن القوم هم من سلالة نسلية واحدة. فالعشيرة في نظر بنيها هي مجموعة أسرات متفرعة من أصل واحد أو جد واحد. ولذلك يعد أفرادها أنفسهم ذوي قربى. فالعاطفة القرابية إذن مركز العاطفة القومية والشعوبية أيضاً. وعلى الرغم من أن الأمة قد اندمجت فيها أسرات من أمم أخرى، أو أن الشعب خليط عناصر من أمم وشعوب، تبقى العاطفة القومية أو الشعبية أقوى العاطفات الاجتماعية. وبالطبع أقوى منها العاطفة القرابية، لأن السلالة النسلية ظاهرة فيها من ناحية الأبوة. وقلما يفطن إلى أن السلالة امتزجت فيها عناصر أسرات أخرى من ناحية الأمومة.

العاطفة القومية قوية جداً إلى حد تضحية الأفراد لأجل القوم، بسبب أن أفراد القوم يعتقدون أنهم تسلسلوا من أصل واحد، وأن دماً واحداً ينبض في عروقهم جميعاً. وقلما يفطنون إلى العوامل الاجتماعية الأخرى التي تربطهم، كاللغة والدين والاقليم ووجوب الدفاع عن الوطن، . . . الخ. فالمصري يزعم أنه مسلسل من دم فرعوني، والسوري من دم فينيقي، والعراقي من دم أشوري بابلي، . . . الخ. على يقين أن ما طرأ على السلالة من عناصر أجنبية، لم يكن بكثرة إلى حد أن تفقد السلالة ذاتيتها.

على أن القوم يجهلون أن قوميتهم من صنع العوامل الاجتماعية المتعددة، وأن الأسرة فقط من صنع العوامل البيولوجية. ويجهلون على الخصوص أن القرابة التي يسمونها قرابة دموية، ليس فيها من التسلسل الدموي شيء بتاتاً، لأن دم كل شخص

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥٢، الجزء ٥ (١٩٤٤)، ص ٦٤٠ ـ ٦٤٦.

مصنوع في نخام عظامه له وحده، ولم يدخل إلى عروقه حويصلة واحدة من أبيه ولا كرية واحدة من دم أمه. إن فكرة اشتراك الأسرة أو السلالة أو القبيلة أو الأمة في دم واحد، إنما هي فكرة خاطئة جداً، حتى إن فكرة تكوين الجنين من لحم أمه ودمها وعظمها خطأ فاضح أيضاً. لا تقدم الأم لجنينها إلا البويضة الملقحة، والغذاء له من المواد التي هضمتها وكانت هي تتغذى بها. والأمر واضح في الحيوانات البائضة، فإن جنينها يتغذى ويتكون لحماً ودماً من الزلال والمح المخزونين في قشرة البيضة.

فروابط الأسرة إذن بيولوجية واجتماعية معاً، وأما روابط الأمة أو الشعب فاجتماعية فقط. تلك بيولوجية لأن التناسل فيها واضح لا يزال محصوراً، واجتماعية أيضاً لأن عشرة الأهل والأقارب في بيئة واحدة محدودة جعلت لها رابط القرابة متيناً جداً. ورابطة الأمة اجتماعية فقط لا بيولوجية، لأن الرابط النسلي توزع وتبدد، واختلطت به الأنسال المختلفة. ورابطة الشعب ضاعت فيها الروابط النسلية، بما امتزج في الشعب من سلالات أخرى. والفرق بين الأمة والشعب أن الأمة أقل تلوثاً بسلالات أجنبية، والشعب خليط سلالات مختلفة.

كذا شعوب هذا العصر جميعاً.

عبرنا فيما تقدم الرابط البيولوجي عبوراً سريعاً، فنأتي الآن إلى روابط الأمم والشعوب الاجتماعية، وهي روابط قوية، وفيها منشأ العواطف القومية المتفاوتة بين الأمم.

أهم الروابط: **أولاً**: الإقليم أو الوطن الجغرافي الذي يتزاوج فيه أبناء الشعب، ويتعاملون تعاملاً محتوماً في صنوف الارتزاق والمعيشة كل يوم.

ثانياً: اللغة لأنها واسطة التفاهم بين أفراد الأمة، والإعراب عن روح التعاون والتضامن، ففيها تتحرك عاطفة المودة والإخاء.

ثالثاً: الدين وفيه وسيلة الاشتراك الروحي والاشتراك العقلي في عقيدة واحدة، تشد رباط المحبة والإخاء وتوطد السلام إلى حد بعيد.

رابعاً: الحرص على سلامة الوطن من غزو الأمم الأخرى.

هذه أهم الروابط لكل أمة وشعب، فضلاً عن روابط أخرى ذات شأن كضرورة المعاملة والثقافة واللهو والزي والعادات التقليدية، . . . الخ.

ضمن هذه الروابط تكون الجنسية الوطنية أو القومية وفيها تتربى العصبية، وهي تعصب المرء لقومه أو وطنه والدفاع عنه بكل قوته. ولا تقتصر الجنسية على السلالة ولا السلالة محسوبة مادة لها، وإنما أصبح ما يسمونه الآن وطناً، هو الرابط الأقوى للقوم مهما اختلفت سلالاتهم وأصول جنسياتهم. وأظن أن الأمم الأمريكية أوضح شاهد على ذلك.

الولايات المتحدة الأمريكية تضم عناصر من جميع الأمم بلا استثناء. ولأن

المهاجرين الأولين كانوا انكليزاً، استمرت اللغة الانكليزية لغة القوم والديانة المسيحية ديانتهم. وصار كل من هاجر إليها، يضطر أن يتكلم الانكليزية ويدين بالمسيحية، وقلّ من بقي يدين بغيرها. وأربت فيها الأجناس الأوروبية وغيرها على الإنكليز، ولكن بقيت اللغة الإنكليزية سائدة. وعلى الرغم من أن أهلها الحاليين لا يزالون يعرفون جنسياتهم السابقة، فهم يتعصبون لوطنهم الجديد. وقائد جيشهم الأعلى الآن المارشال أيزنهور ألماني الأصل، ولكنه يحارب الألمان بكل قوة وشدة.

فالقومية الوطنية التي تربطها اللغة والدين والإقليم والمصلحة المشتركة، هي التي تدفع القوم للدفاع عن قوميتهم، ولا شأن في هذا للدم ولا للسلالة النسلية، أي أنه لا شأن للرابطة البيولوجية بتاتاً.

إن التعصب لفكرة أن القوم الواحد نتاج سلالة واحدة، وأن الدفاع عنه لأجل بقاء هذه السلالة نقية من دماء السلالات الأخرى، لهو تعصب ضار بالمدنية العصرية التي تحتم الاختلاط والامتزاج، فضلاً عن أن الفكرة خاطئة كما تقدم.

والغريب جداً في هذا العصر أن بعض الدول المستعمرة تحرم مهاجرة بعض الأمم إلى مستعمراتها كأستراليا ونيوزيلاندا مثلا. وبعض الممالك تصعب جداً على الأغراب فيها اقتباس جنسيتها، ذلك على الرغم من أن القبائل القديمة كانت تقبل بلا شرط ولا قيد اندماج أفراد من قبائل أخرى تمنحهم في الحال جميع الحقوق التي للقبيلة.

إن تحريم اندماج عناصر أجنبية بالقوم الوطني في هذا العصر لمن الغرابة بمكان. هل بعد اندفاع الأمم منذ القديم في تيار المهاجرات وامتزاجها بعضها ببعض تقوم دول هذا العصر فتضع الحجب والفواصل بين عناصر الأمم؟ وهل بعد أن حاربت الولايات المتحدة الأمريكية بعضها بعضاً، لأجل تحرير العبيد الزنوج وإدماجهم بالأمة، تقوم بعض الدول فتمنع امتزاج الصفر بالبيض والآسيويين بغيرهم؟ أية أمة من أمم الأرض تستطيع الآن أن تقول إنها أمة نقية من وباء الأمم الأخرى إن صح أن الدماء تتسلسل؟

كانت الأمة السورية ولا تزال إلى الآن تقول إنها من سلالة فينيقية. ومن أي أصل كانت السلالة الفينيقية؟

لا نبحث في أصل الأمة الفينيقية، الذي كان خليطاً من الميديين والعيلاميين والسومريين والبابليين، والعرب أيضاً ـ نزحوا من شط العرب عند خليج العجم إلى سوريا وإلى شواطئها في مئات من السنين، وبرعوا في فن الملاحة فخاضوا البحر الأبيض المتوسط حتى إن بعثة منهم طافت حول أفريقيا إلى أن عادت إلى البحر الأحمر.

فهؤلاء الذين سموا في ذلك الزمن فينيقيين، طافوا في جميع شواطئ البحر المتوسط كتجار، وأنشأوا مدناً وأساكل، واختلطوا بجميع الأمم التي فتحوا بلادها تجارياً، وكانوا يعودون إلى وطنهم الفينيقي بأنسال غريبة عن سلالتهم.

فقبل أن تمتد سيادة الامبراطورية الرومانية، كانت السلالة الفينيقية قد تلوثت بسلالات عديدة أخرى. ولما استفحلت الامبراطورية الرومانية وانتشرت العناصر اللاتينية واليونانية في آسيا الصغرى وسوريا، لم يبق في الأمة السورية إلا بقايا يسيرة من السلالة الفينيقية. فما قولك بها بعد اضمحلال الامبراطورية المذكورة، وطغوان الفتح الإسلامي، وامتداد الامبراطورية العربية، إذ أصبح أهل سوريا مزيجاً (ولا أقول خليطاً) من عرب ورومان ويونان وأفريقيين. ولما توالت الحروب الصليبية دخل على المزيج عناصر أوروبية. وكان قبل تداول البابليين والمصريين لسوريا، وهي بينهما يحدث مثل هذا المزيج. فلا يمكنك أن تقول إن سوريا الآن فينيقية. إن سوريا اليوم هي ما انتهى إليه أمرها من تغلب العروبة على لغتها ودينها، وأصبحت تقاليدها عربية لا غش فيها بحسب العوامل الطبيعية لتكوين الأمم.

والغريب في مصر بعد انقضاء دول الفراعنة، وتقلب دول أخرى غريبة عليها، قام في العهد الأخير أناس يزعمون أن المصريين من سلالة الفراعنة. ومن أين أصل الفراعنة؟ راجع مسبرو وورولنصن وغيرهما من المؤرخين المحققين تعلم أن الأمة الفرعونية سلالة أقوام سامية، وفدت إلى مصر من بلاد العرب عن طريق باب المندب إلى الحبشة، فأعالي السودان، فوادي النيل. وكانوا على الأكثر عرباً أكثر مما كانوا آشوريين وبابليين. ولا أظن أن المصريين اليوم يقبلون أن يردوا أصل السلالة الفرعونية، التي يريدون الالتجاء إليها إلى سلالة أفريقية زنجية.

الأمم الفرعونية سامية الأصل. واللغة الهيروغليفية أخت اللغات السامية، وبينها اشتراك في كثير من الكلمات والروابط النحوية، كأسماء الإشارة والضمائر وأسماء الموصول... الخ. ، الأمر الذي لا يبقي شكاً بأن الأمم الفرعونية مشتقة من الأصل السامي، الذي اشتقت منه العربية والعبرانية والسريانية والفينيقية... الخ.

مع ذلك لا تستطيع أن تقول إن الأمم الفرعونية استقلت بفرعونيتها وحافظت عليها. فقبل أن تنقضي دول الفراعنة، كان الرومان واليونان قد طغوا على مصر وامتزجوا بقومها. ثم خلفت دولة البطالسة الدولة المصرية الأخيرة، ثم غزتها الامبراطورية الرومانية. وما لبثت أن فتحتها الدولة الإسلامية العربية، فالعثمانية. فحدث في عهد هذه الدول الأجنبية المتعاقبة، امتزاج بين ناسها وأهل مصر حتى تلاشت السلالة الفرعونية في أمة جديدة عربية وليدة تلك العناصر.

ولا يخفى على القارئ أن العنصر العربي لقح العنصر المصري مرتين على الأقل. الأولى في زمن الرعاة (الهكسوس)، والثانية بعد الفتح الإسلامي. فتحولت لغتها إلى عربية وديانتها إلى إسلامية، فهي الآن بحكم العوامل الاجتماعية التي تكوّن الأمم أمة عربية لا ريب في عروبتها، حتى ولا ريب في تسلسلها البيولوجي إن أمكن تحقيق هذا.

وأظن أن الأمة العراقية الحالية، أقل الأمم العربية تعصباً لتاريخها القديم، فهي لا تعرف نفسها الآن آشورية أو بابلية، بل أمة عربية، فضلاً عن أنها في الأصل بابلية

منحدرة عن أحد الفروع السامية أيضاً. ولكنها بما تغلب عليها من العناصر الفاتحة، ضاعت أو تلاشت سلالتها القديمة. ولما جاء الفتح الإسلامي صارت عربية بحتة، لغة وديناً، وتلقحت بالعنصر العربي، وعلى الرغم من الطغيان الطوراني أو التركي عليها بقيت عربية صرفاً. وكذلك الطغيان التركي لم يلاشِ العربية في سوريا.

مثل ذلك يقال في بلاد شمالي افريقيا. فهي مزيج من الأمم الأوروبية والفينيقية القديمة التي استعمرت شواطئ افريقيا. ولما جاء الفتح الإسلامي صبغها صبغة عربية باللغة والدين ولقحها بالعنصرية العربية. فهي الآن عربية ولا شك في عروبتها. وقد ضاعت أصولها.

ليس لأمة على الأرض اليوم أصل أكيد.

والغريب أن مالطة خليط من الأمم اللاتينية والعربية، وهذه غالبة فيها لأن لغتها في جدول تسلسل اللغات معدودة عربية. تحقق ذلك في دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان لغة، ولكن المالطيين يستنكفون أن يقال إنهم عرب في الأصل، وإن لغتهم عربية ممسوخة.

* * *

علم القارئ مما تقدم أنه ما من أمة على سطح الأرض تستطيع أن تزعم أنها ذات سلالة نظيفة من سلالات أمم أخرى. فما هي روابط الأمة إذن؟

اللغة هي أقوى رابط في تكوين الأمة، وتليها رابطة الدين. والدين وحده لا يكفي رابطاً لأمة من الأمم، بل قد يكون أحياناً مضعفاً للوطنية، إذا اشتمل الوطن الواحد على أكثر من دين واحد، لما فيه من التفريق في عنصرية الأمة. كما أن اختلاف اللغة في قوم ديني واحد يفرق بين أهل الدين. أوروبا كلها مسيحية، فانظر ما بينها من العداء والعدوان.

وكان من رعايا الدولة العثمانية عرب مسلمون وأتراك مسلمون، ومع ذلك لم يربطهم الإسلام لأن اللغة تفصلهم على الرغم من أن ٦٥ بالمئة من كلمات اللغة التركية كلمات عربية. والقرآن يوجب على الأتراك المسلمين أن يقرأوه باللغة العربية. ولما أتيحت الفرصة للعرب في الحرب الكبرى الماضية انفصلوا عن الترك وحاربوهم. فما كانت رابطة الدين أقوى من رابطة اللغة.

تختلف الأمم الآن بعضها عن بعض، ليس بالسلالة لأن السلالات جميعاً تلاشت بعضها في بعض، وإنما تختلف في مدنيتها وعمرانها وعاداتها، وهذه تتوقف على ثقافاتها، فلا يميز الأوروبي نفسه عن الصيني والهندي باعتبار أنه من سلالة أشرف وأنقى، بل باعتبار أنه أرقى ثقافة وتمدناً.

وقد ظهر أخيراً داء السؤدد في بعض الأمم. فالألمان فتنتهم نظرية مفكر من

مفكريهم «نيتشه» بأن الأمة التي تريد أن تكون سيدة الأمم، يجب أن تنتج إنساناً متفوقاً يفوق في قدرته البشر. زعموا أنه فيلسوف، وهو افتتن بنفسه، ولكن فتنته ما جازت على الأوروبيين حتى ولا على قومه الألمان، فوصفوه بالحمق. ولكن نظريته صادفت هوى من المولعين بالسؤدد، كالامبراطور غليوم الذي اعتقد أن الإنسان الألماني متفوق، ويجب أن يسود جميع الأمم. فأثار الحرب الماضية لهذا الغرض ففشل، وظهر بعده هتلر مفتوناً هذه الفتنة وظهر أنه فاشل، فالفكرة من أصلها فاشلة حمقاء.

واعتصم هتلر وأعوانه بنظرية أن الشعب الألماني نوردي الأصل (Nordic)، وفي هذا الأصل جرثومة التفوق. ولما رام أن يستميل اليابان إليه، رام أن يبرهن لليابانيين أنهم من أصل نوردي، وأنهم أقرباء الألمان من أرومة واحدة. فأوعز إلى أستاذ أجناس البشر في الجامعة، أن يلقي محاضرات يبرهن فيها على ذلك. فاستنكف الأستاذ أن يخرج عن الحقيقة إلى الضلال، لئلا يصير هزأة بين زملائه العلماء، فأعرض عن الطلب. ولما تكرر أمر هتلر له مرتين وهو يأبى أن يلبي، أوعز إليه أحد أصدقائه أن يفعل أحد أمرين: إما أن يجيب الطلب أو أن يرحل عاجلاً، وإلا كانت نهاية حياته في معسكر المعتقلين، ففر إلى سويسرا ومنها إلى إنكلترا، ولا يزال فيها إلى الآن. قرأت هذه القصة في كتابين.

أما مسألة النوردية كسلالة قائمة بذاتها فقد ظهر أنها اختراع أحد المؤرخين لغرض. ومثلها نظرية الآرية كلتاهما لا تثبتان أكثر مما تثبت الفينيقية أو الفرعونية اليوم.

بقيت كلمة لا بد منها بشأن جنسية اليهود التي يتوسلون بها إلى مشروع الوطن القومي الصهيوني في فلسطين. وأمر هؤلاء اليهود غريب جداً، فقد شذت رابطتهم عن روابط جميع الأمم. فليست لهم رابطة إلا رابطة الدين فقط، أو بالأحرى رابطة العقيدة الاجتماعية، وبالأخص الثقافية. فلا يمكن أن تقول إنهم سلالة قائمة بذاتها متسلسلة من عهد موسى أو إرميا أو عاموص، بل هم دون جميع الأمم طائفة دينية «لمامة» من جميع الأمم لو جمعتها في صعيد واحد، لما وجدت تشابهاً بين جماعاتها بشيء سوى العقيدة. فلا لغة ولا تقاليد ولا مدنية تجمعهم. هم في القديم طائفة مركبة من كثير من أمم الشرق وأمم البحر المتوسط، ثم الأمم الأوروبية، لأن يهود اليهودية والجليل الذين لم يشغلوا إلا شرقي البلاد المسماة الآن فلسطين، تشتتوا مراراً تحت أحكام الفاتحين من الاسكندر إلى طيطس، وتغلغلوا في أوروبا وأفريقيا. ولما كانت ديانتهم روحية، وكان إلاههم واحداً يتسامى على المادة، رأى الوثنيون أن الديانة اليهودية أرقى من ديانتهم الوثنية، ورأوا إلاههم أعظم شأناً من الأوثان، فاعتنق كثيرون ديانتهم ولا سيما لأن شريعتهم تجعلهم الشعب الخاص لله، وتمنحهم تفوقاً على جميع الأمم.

فاليهود المتشتتون في العالم الآن ليسوا في الأصل من سلالة اسرائيل، بل هم من أجداد وثنيين. ترى ذلك جيداً في سحنتهم، وفي تقاليدهم وثقافاتهم، فاليهودي في بولاندا بولاندي بكل معنى الكلمة سوى العقيدة الدينية، وفي ألمانيا ألماني كهتلر نفسه، وفي إسبانيا إسباني. . . الخ. وهم يختلفون عن يهود الشرق في بهق بشرتهم وازرقاق

عيونهم، واصفرار شعورهم. فلا يتصلون بأية علاقة بيهود فلسطين الحاليين ولا رابطة تربطهم معهم بتاتاً حتى بالعاطفة الدينية يتنافرون. لا رابطة بين جماعات اليهود المتشتتة في العالم إلا رابطة واحدة وهي شريعة موسى وتعاليمه فقط. هي سر ارتباطهم لأنها تسيغ لهم حقوقاً لا تسيغها لغيرهم، ولا تسيغها شريعة أخرى لأحد. ولا محل للتوسع بهذا الموضوع الآن.

إذن دعوى الصهيونيين بأن فلسطين بلادهم، وهم عائدون إليها لإنشاء وطنهم القومي فيها وتأسيس دولة يهودية إنما هي دعوى باطلة لا أساس لها البتة، إنما أهل فلسطين الحقيقيون هم سكانها المقيمون بها. كانوا في الأصل يهوداً، ثم تنصر كثيرون منهم، ثم أسلموا إلا قليلين، وصارت العروبة رابطتهم الشرعية القانونية.

بقيت لنا كلمة وجيزة يجب أن يختم بها هذا المقال، وهي أن هناك رابطة إنسانية تربط جميع الأمم، هم الذين يصح القول فيهم إنهم من سلالة واحدة ـ بنو آدم وحواء ـ هم سلالة إنسانية آدمية واحدة مهما تشعبت السلالات وتمازجت. ولكن لسوء الحظ رابطة الأقوام القومية أي رابطة اللغة لا تربطهم. فكيف يمكن أن يعودوا أمة واحدة أو أخوة واحدة بحيث يتمهد السبيل لتفاهمهم وتلافي تخاصمهم. وإذا كانت اللغة هي الرابطة الأقوى للأمم، فلا يمكن أن تعود الأمم جمعاء أمة واحدة إنسانية، إلا إذا صارت ذات لغة واحدة كما كانت لعهد أبناء آدم وأحفاده. فلماذا لا يكون للعالم الآن لغة واحدة تربط عناصره وتلاشي تناحره.

«الله كريم».

قضية فلسطين هي قضية العرب(*)

اميل زيدان

لا يسع المتأمل في أخبار فلسطين هذه الأيام إلا الاقتناع بأن حالتها جد خطيرة قد تسفر بين عشية وضحاها عن جسام الحوادث.

وقد صدق السير رونلد ستورز حاكم القدس الأسبق بقوله أخيراً: «إن فلسطين أشد بلدان الشرق الأوسط تعرضاً للاضطراب وأكثرها توليداً للارتباك في المستقبل».

ولقد تفاقمت مساعي اليهود في أقطار العالم ولا سيما في البلاد الأنكلوسكسونية حيث لهم مكانة ممتازة وسطوة ونفوذ في عالمي المال والصحافة على الخصوص. فكلما اقتربت الحرب من نهايتها المحتومة تحركت جحافل الدعاية اليهودية تستميل الناس بمختلف الأساليب إلى العطف على القضية الصهيونية.

ولا بد من الاعتراف بأن تلك الدعاية المحكمة قد نجحت نجاحاً غير يسير، كان من ثماره بعض التصريحات العجيبة التي ألقاها نفر من كبار الساسة في أمريكا وانكلترا لمصلحة الصهيونية. ولعل أعجبها جميعاً ذلك القرار الذي جاء أنه طرح للبحث في مؤتمر حزب العمال الأخير ومؤداه ـ إلى جانب فتح أبواب الهجرة لفلسطين بدون قيد ـ أن يطلب إلى مصر وشرق الأردن وسوريا النزول عن بعض أراضيها حتى تتسع فلسطين لمهاجري اليهود من أقطار العالم جميعاً.

فينبغي إذن اتخاذ خطوات عاجلة لمقابلة المساعي الصهيونية بمثلها وفرض وجهة النظر العربية على العالم. يجب أن تهب الشعوب العربية ـ ومصر في المقدمة ـ للدفاع عن العرب الفلسطينيين كما هب اليهود في جميع الأقطار للدفاع عن الصهيونية.

فالآن وقت العمل، والآن وقت المساومة المجدية. أما إذا تُركت الأمور إلى ما بعد الحرب فقد تضيع الفرصة، ولا تكون الأحوال مواتية.

(*) نُشر في: الهلال، المجلد ٥٣، الجزء ١ (١٩٤٥)، ص ١٢ ـ ١٨.

ولم يكتفِ الصهيونيون بالسعي السياسي وبث الدعاية، بل عمدوا إلى التسلح على صورة واسعة. فليس بخافٍ أن لدى يهود فلسطين أسلحة وافرة معظمها من أحدث الأنواع هُربت إليهم من جهات مختلفة وما زالت تأتيهم بدون انقطاع.

وقد أنشأوا هيئات إرهابية ذات أنظمة عسكرية شبيهة بالفاشستية، ولا شك أن بينهم طائفة من المغامرين الفدائيين الذين لا يحجمون عن المجازفة بحياتهم عند الاقتضاء ـ كما دلت على ذلك الحوادث الأخيرة.

أولاً: قضية فلسطين هي قضية العالم العربي

إن مصير فلسطين يهم جميع البلاد العربية، بل يرتبط بصميم كيانها. فالعناية بها ليست من قبيل العطف «الأفلاطوني» أو المناصرة الكلامية.

إن نظرة إلى الخريطة تكفي للاقتناع بأن فلسطين بمنزلة مركز الدائرة للعالم العربي. فهي ـ فضلاً عن مكانتها المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء ـ جسر المواصلات بين البلاد العربية والطريق الذي لا غنى عنه للجميع بين المصري والعراقي والسوري واللبناني وغيرهم من أبناء العربية.

فلن تقوم للوحدة العربية قائمة ما لم تحتفظ فلسطين بصبغتها العربية ويؤمن أهلها العرب على مستقبلهم.

ثم إن المطامع الصهيونية لا تقف عند حدود فلسطين، بل إن برنامج الصهيونيين يشمل السيطرة ـ المالية والاقتصادية في الأقل ـ على الجانب الأكبر من الشرق العربي ـ بعد أن يستقروا طبعاً في فلسطين وتصبح لهم فيها الأكثرية.

وعرب فلسطين هم أقرب الجيران إلى مصر. وقد خضعت بلادهم لمصر فترة غير قصيرة في أيام محمد علي الكبير، وما زال الفلسطينيون يذكرون عهد ابراهيم باشا وعدله المشهور. وفي فلسطين آثار مصرية من مختلف العهود وجاليات وعائلات مصرية كبيرة.

ثانياً: من وعد بلفور إلى الكتاب الأبيض

ليس بين المشاكل العالمية مشكلة ظهر فيها وجه الحق مثل ظهوره في مشكلة فلسطين، ولم تكن فلسطين قبل الحرب الماضية وحدة جغرافية أو سياسية ذات كيان مستقل، بل كانت قسماً من ولاية سورية العثمانية، أو هي في الواقع ـ كما جاء في دائرة المعارف البريطانية ـ الثلث الجنوبي لسوريا.

وقد ظل الصهيونيون يبذلون المساعي ويعقدون المؤتمرات لإنشاء وطن قومي يلم شتاتهم، فلما كانت الحرب الماضية اتفقت مصلحة الإنكليز ومصلحة الصهيونيين: أما مصلحة الإنكليز فرغبتهم في إيجاد نقطة ارتكاز في الشرق الأدنى وتأمين قناة السويس من الشرق، وأما مصلحة الصهيونيين فالاعتماد على دولة قوية لتنفيذ أغراضهم. فكان وعد بلفور.

على أن وعد بلفور لم يرمِ إلى جعل فلسطين دولة يهودية، وإنما صرح بأن يكون لليهود في فلسطين وطن قوميّ. وقد برّت بريطانيا بما وعدت، بل حققت أكثر مما وعدت.

فإن نسبة اليهود في فلسطين كانت نحو ٦ أو ٧ في المئة قبل الحرب الماضية، فأصبحت الآن نحو ٣٣ في المئة. وهذه الأرقام وحدها كافية لبيان ما كسبه الصهيونيون.

وقد تقلبت على القضية الفلسطينية بعد وعد بلفور أدوار كثيرة ليس يتسع المجال لسردها إلى أن كانت الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، حيث عقد على أثرها مؤتمر لندن الذي مُثلت فيه فلسطين والدول العربية، ولما لم يتفق المجتمعون على صيغة ترضي الجميع أصدرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض بتاريخ ١٧ أيار/مايو ١٩٣٩ وافق عليه البرلمان وارتبطت به انكلترا وتعهدت بتنفيذه سواء أقبله العرب واليهود أم لم يقبلوه.

ومضمون الكتاب الأبيض:

١ ـ عدم تجاوز النسبة الحاضرة في العدد بين العرب واليهود.

٢ ـ منع بيع الأراضي لليهود إلا في مناطق معينة.

٣ ـ وقف الهجرة اليهودية بعد آذار/مارس ١٩٤٤.

٤ ـ إعادة النظر في المسألة الفلسطينية بعد عشر سنوات بغية إنشاء حكومة ذات استقلال ذاتي.

والواقع أن سواد العرب في فلسطين يرتضون الكتاب الأبيض أساساً للتفاهم مع اشتراط النزاهة في تنفيذه. أما الصهيونيون فلم يقبلوه ولن يرضيهم إلا إنشاء دولة يهودية يسيطرون على مصيرها ـ بل لقد قال أحدهم إنهم يريدون أن تصبح فلسطين يهودية مثلما انكلترا انكليزية.

ثالثاً: إلى أي حد نجح الصهيونيون؟

في فلسطين اليوم نحو ١,٢٠٠,٠٠٠ عربي (ولفظ «عربي» يطلق على المسلم والمسيحي على السواء، إذ إنهما متضامنان تمام التضامن) ونحو ٦٠٠,٠٠٠ يهودي (وهو أكثر من الرقم الرسمي، إذ لا شك أن عدداً كبيراً من اليهود قد تسرب إلى فلسطين بطرق غير شرعية).

فأما اليهود فخليط من جنسيات مختلفة، وبرغم المساعي التي بذلتها الصهيونية لإدماج الجميع في قالب عبراني واحد فما زالت ثمة فوارق جسيمة بين البولونيين منهم والروس والليتوانيين والرومانيين والألمان واليوغسلاف... الخ.

بل إنهم يؤلفون طبقات تتفاوت رقياً وفي أعلاها اليهود المنتمون إلى بلاد

انكلوسكسونية أو ألمانية. وهذه الطبقة العليا تنظر شزراً إلى ما دونها. وأخشى ما يخشاه الصهيونيون حين تضع الحرب أوزارها أن يعود اليهود الوافدون من بلاد راقية إلى مواطنهم التي نشأوا فيها وترعرعوا.

وقد قامت الصهيونية كما لا يخفى بمساعدات مالية من يهود العالم أجمعين. ولا يُنكر أنها بذلت نشاطاً عجيباً وقامت في بعض الأحوال بما يشبه المعجزات. على أنه يحسن بنا ألا نأخذ بالمظاهر، فلنحلل موقفهم من ناحيتي الزراعة والصناعة:

فأما الزراعة فلا يمارسها منهم الآن إلا ٣٣ في المئة، مع أنهم زعموا أن غاية الصهيونية الأولى إنما هي العودة إلى الأرض. أضف إلى ذلك أن جانباً كبيراً من مشروعاتهم الزراعية ليس يجدي عملياً، بل هو أشبه شيء بالمنشآت الخيرية التي لا تقوم إلا على ما يأتيها من معونة خارجية.

أما الصناعة، فلا شك في أن يهود فلسطين نجحوا أثناء الحرب الحاضرة ـ بمساعدة الحكومة الانكليزية ـ في توسيع مصانعهم وإنتاج أشياء كثيرة شحت في الأسواق. وقد استفادوا فوائد جمة من هذه الناحية. غير أن من ينعم النظر في هذا النمو السريع وفي الأحوال الاستثنائية التي تم فيها لا يسعه إلا أن يبدي أشد التحفظ بشأن مصيره في المستقبل حين ترفع المساعدة الحكومية وتفتح الأسواق للمصنوعات الأجنبية.

رابعاً: حالة العرب الحاضرة

لقد سمع الناس كثيراً عن تقدم اليهود في فلسطين ـ ولا عجب فاليهود أمهر من استخدم الدعاية وحذق أساليبها ـ ولم يسمع الناس عن العرب إلا نادراً، في حين أنهم قد ضربوا بسهم في مختلف نواحي التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن تقدم العرب في فلسطين لم يكن نتيجة للانتداب ولا للصهيونية، بل يجوز القول إنه تحقق على الرغم منهما. فالصهيونية قد حالت دون نمو العرب الطبيعي، كما أن الانتداب قد منح اليهود أهم الامتيازات الاقتصادية. ولولا ذلك لتضاعف نشاط العرب ولآل إليهم استغلال الثروة الطبيعية في تلك البلاد.

إن تقدم العرب في فلسطين قد تمشى جنباً إلى جنب مع تقدم سائر الأقطار العربية في العقود الأخيرة من السنين. وفي ما يلي بعض البيانات نوردها على سبيل التمثيل لا الحصر.

التربية والتعليم: إن عرب فلسطين من أكثر الشعوب ميلاً إلى نشر العلم والتعليم. ففي المدارس ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ تلميذ وتلميذة من أبناء العرب. ويندر أن يوجد ولد أو بنت بين الخامسة والثانية عشرة لا يذهب إلى المدرسة. وعندهم طبقة من طلبة الجامعات الشرقية والغربية. كما تخرّج كثيرون في أرقى المعاهد وتخصصوا في مختلف العلوم والفنون.

وقد أنشأوا من مالهم الخاص وبغير مساعدة خارجية عدداً غير قليل من المدارس الثانوية والابتدائية والفنية، وذلك فضلاً عن المدارس الحكومية التي يؤمها أبناء العرب.

الصناعة: مع أن سواد العرب من المزارعين فإنهم لم يهملوا الاشتغال بالصناعات. فهناك عدة مصانع ناجحة للسجاير ولعيدان الكبريت، وأخرى للصابون وغيرها لزيت الزيتون والسمسم وللأثاث والزجاج والجلود والخزف والشكولاته والسجاد والأصباغ والحياكة... الخ.

الزراعة وتربية الماشية: معظم الزراعة في أيدي العرب، فإنهم يتفوقون على اليهود في زراعة الموالح والزيتون والخضروات، فضلاً عن زراعة الحبوب.

وتدل الإحصاءات الأخيرة على أن لدى العرب من الماشية أضعاف أضعاف ما لدى اليهود، وكذلك الحال في الجمال والخيل والبغال والحمير والدواجن.

المصارف والجمعيات التعاونية: للعرب مصرفان كبيران رأس مال كل منهما عربي صرف وما برحا في نمو وازدياد. وفي فلسطين ما يزيد على ١٥٠ جمعية تعاونية، مع أن الحركة التعاونية لم يمض عليها أكثر من عشر سنوات.

النشر والتأليف: إن الإقبال على المطالعة شديد جداً في فلسطين العربية، وتصدر فيها عدة جرائد ومجلات وبها ما يقرب من ٣٠ مطبعة عربية. أما ما يوزع من صحف مصر ومجلاتها وكتبها فتزيد نسبته على مثلها في سائر البلاد العربية.

النهضة الاجتماعية: وفي فلسطين عدا ما ذكرنا نهضة اجتماعية مباركة تساهم فيها السيدات العربيات بنصيب مشكور، كما أن هناك نهضة صحية تبدو في المستشفيات الخصوصية العديدة وفي المستشفيات الخيرية التي تبرع بنفقاتها الطائلة كثيرون من المتبرعين.

خامساً: المشكلة اليهودية العالمية لا تُحَل في فلسطين

قال هرزل مؤسس الصهيونية: «من السخف أن ننكر وجود مشكلة يهودية فإنها موجودة حيثما توجد جماعة من اليهود. وإذا لم توجد في جهة حملها إليها مهاجروهم: إننا نهاجر إلى الجهات التي لا نضطهد فيها ولكن ظهورنا في تلك الجهات يحمل على اضطهادنا».

وقال برنار لازار وهو من أوثق الباحثين في هذا الموضوع: «إن شعوراً عاماً كمناوأة اليهود ظهر في كل زمان ومكان، ليس أمراً عرضياً أو نزوعاً طارئاً، بل لا بد أن تكون له أسباب عميقة وأصول بعيدة الغور».

ولا شك في أنه من واجب الساسة إيجاد حل للمشكلة اليهودية. وليس هذا مكان

البحث في الحلول الممكنة أو المقترحة. وقد يمكن القول بأن استعمار فلسطين لن يكون هو الحل الذي يرفع المظالم عن اليهود، وليس من العدل في شيء أن يطالب العرب وحدهم بحل مشكلة اليهود العالمية على حسابهم دون الشعوب طراً.

وإذا كان التاريخ يعيد نفسه فإنه يخيل إلي أنه ستهب بعد هذه الحرب ريح معاداة لليهود حتى بين الشعوب التي كانت تحسن معاملتهم، فإن الحرب الماضية ما كادت تضع أوزارها حتى اشتدت مناهضة اليهود في القارة الأوروبية كلها بل تعدتها إلى أمريكا.

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قررنا أن على اليهود أنفسهم حل مشكلتهم، وأنه لا بد لهم من الإقلاع عن النزعة العنصرية التي لا تنسجم مع روح هذا العصر.

سادساً: حجج اليهود وحجج العرب

ليس أدل على براعة اليهود من أنهم استطاعوا استمالة نفر من كبار الساسة إلى القضية الصهيونية، في حين أنها لا تحتمل الامتحان المنزه عن الغرض. فإن بطلانها واضح يكاد يثب إلى ذهن المتأمل فيها ولو هنيهة وجيزة. وقد وصفها أحد كبار اليهود، وهو المستر مورغنتو سفير أمريكا في الآستانة في الحرب الماضية ووالد وزير المالية الأمريكية الحالي بقوله إنها «أعظم تضليل ظهر في التاريخ اليهودي».

أجل إن القضية الصهيونية باطلة من الناحية الجنسية، ومن الناحية التاريخية، ومن الناحية الاقتصادية. ولكن ليس يكفي أن يقتنع العرب بذلك، بل يجب تنظيم دعايتهم على طراز عالمي لبلوغ الهدف المنشود.

وقد كانت حجة الصهيونيين الوحيدة هي أن فلسطين موطن اليهود الروحي ومطمع أبصارهم منذ القدم. ولكن هذه الحجة لا يعقل أن يترتب عليها تشريد أمة آمنة ليحل محلها مشردو اليهود من مختلف النواحي.

إلا أنهم اليوم حين يدافعون عن قضيتهم يدخلون عناصر أخرى في دعواهم:

فيقولون تارة إن البلاد العربية متأخرة تحتاج إلى عنصر ممدن كاليهود.

وتارة يدعون أن العرب لم يبدوا مثلما أبداه اليهود من العطف على قضية الحلفاء.

ويقولون مرة إن فلسطين يمكنها أن تستوعب أكثر من خمسة ملايين نسمة، فعلام التضييق على مهاجري اليهود؟

وأخرى يقولون إن اليهود قد نالهم من الاضطهاد ما يوجب تعويضهم ومساعدتهم على الاستقرار، وقس على ذلك حججاً لا تثبت أمام الفحص النزيه.

فعلى العرب إلى جانب تفنيد هذه الحجج الواهية إذاعة ما لديهم من الحقائق الراهنة، وهي تكاد تكون مجهولة للعالم الغربي الذي لا يسمع في الغالب إلا نغمة واحدة من فريق واحد. من ذلك:

١ ـ إن فلسطين عربية ويجب أن تظل عربية، وهي بلد مقدس لدى المسلم والمسيحي على السواء.

٢ ـ إن مشكلة اليهود العالمية شيء، ومشكلة فلسطين شيء آخر.

٣ ـ إن نسبة اليهود في فلسطين كانت قبل الحرب الماضية ٦ أو ٧ في المئة، فأصبحت ٣٣ في المئة.

٤ ـ إن مقاومة الصهيونية لا تتعارض مع عطف العرب على ما أصاب اليهود من محن.

٥ ـ إن الحكومة البريطانية قد ارتبطت رسمياً بالكتاب الأبيض بعد تجارب طويلة دامية.

٦ ـ إن الشعب العربي الفلسطيني شعب راق قد ضرب بسهم في نواحي التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

٧ ـ إنه لا قيام لوحدة عربية أو تحالف عربي ما لم تستقر الحال في فلسطين وتحتفظ بصبغتها العربية.

سابعاً: فلسطين والدول الكبرى

ثلاث دول سيكون لها الشأن الأكبر بعد الحرب في العالم وفي الشرق الأوسط بصفة خاصة: بريطانيا وروسيا وأمريكا.

أما أمريكا فمع أنها شديدة الرغبة في توطيد مركزها الاقتصادي في الشرق الأوسط وفي أن تكون التجارة حرة لا امتنان فيها لدولة على أخرى، مع ذلك ومع اهتمامها العظيم بمشروعات الزيت في البلاد العربية، فلسنا نعتقد بأنها تذهب إلى حد منازعة بريطانيا مكانتها الأولى في هذه المناطق، بل الأغلب أن يتم التفاهم بين الدولتين الانكلوسكسونيتين على ما يضمن المصالح الأمريكية ولا ينتقص من المكانة البريطانية.

ولطالما كرر الساسة البريطانيون خطورة شأن الشرق الأوسط للامبراطورية البريطانية. وقد أثبتت هذه الحرب تلك الخطورة وزادتها توكيداً، حتى لقد قالت جريدة **التيمس** أخيراً: «ليس من عامل أشد خطورة لمصير بريطانيا كدولة عظمى من مكانتها في الشرق الأوسط».

ولعل هذا القول يلخص موقف بريطانيا بعد الحرب واتجاه سياستها. فالرأي السائد

أنه لا بقاء للامبراطورية البريطانية بدون الشرق الأوسط.

فهل يمكن أن يتوطد مركز بريطانيا مع مجافاة العرب؟ كلا. بل لقد أبدت رغبتها في تشجيع كل حركة من شأنها التأليف بين العرب. وليس يخفى على رجالها طبعاً أنه لن يتم تآلف العرب بدون فلسطين العربية. وما على الحكومة البريطانية إلا أن تنفذ سياستها القائمة على الكتاب الأبيض بدون تردد أو محاباة.

على أن موقف روسيا ما يزال مجهولاً. ويذهب بعض الكتاب السياسيين إلى أنها سوف تنزع بعد النصر إلى سياسة التوسع خارج بلادها. فهل تتجه نحو البلاد العربية؟ ليس يخفى أن في روسيا ملايين من المسلمين وأن بينها وبين العروبة والإسلام صلات وروابط من قديم الزمان، على أن من سبق الحوادث التنبؤ بما تسفر عنه الأيام من تفاهم أو تصادم بين بريطانيا وروسيا.

* * *

لقد أتى تضامن البلاد العربية بزعامة مصر ومليكها المحبوب بنتائج حاسمة حين عرضت مشكلة لبنان، ولا شك في أن النجاح سيحالفها إذا ما وقفت في مسألة فلسطين مثل ذلك الموقف.

جامعة الأمم العربية في الميزان الدولي(*)

عباس محمود العقاد

الميزان الدولي هو ميزان الواقع.

والواقع الذي يقرر استقلال الأمم هو في الأعم الأغلب قوتها التي تحمي بها نفسها من الدول الكبيرة، أو قلة الطمع فيها، أو صعوبة الاتفاق بين الطامعين فيها على خطة واحدة.

وليس في الأمم العربية أمة تضارع الدول الكبيرة في القوة العسكرية، وليست هي بالتي يزهد فيها الأقوياء، إذا تمكنوا من الاستيلاء عليها.

فالعوامل التي تعمل لمصلحة الأمم العربية في الميزان الدولي هي صعوبة التفاهم بين الدول الكبرى على تقسيمها، وما يقترن بهذا التقسيم من إثارة الخلاف في مسائل التقسيم والتوزيع برمتها. وقد كان هذا الميزان أيضاً قائماً على صورة أخرى قبل الحرب العالمية الماضية. وإن أمم الجامعة العربية التي كانت ولايات عثمانية في ذلك الحين، كانت مطمعاً لثلاث من الدول الكبرى على الأقل، وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى.

فكانت روسيا تتطلع إلى فلسطين وتتعرض لشؤونها باسم الدفاع عن الكنيسة الأرثوذكسية، وكانت فرنسا تتطلع إلى لبنان وما يتصل به من البلاد السورية، وكانت بريطانيا العظمى تتطلع إلى شواطئ الخليج الفارسي وتود أن تثبت أقدامها في وادي النيل.

فلم تستطع واحدة منها أن تحقق غرضاً من أغراضها فيما عدا الاحتلال البريطاني لمصر وهو موضوع تم التفاهم عليه بين الدول الأوروبية في صفقة جامعة.

أما الأمم التي لم تتفاهم الدول الأوروبية في شأنها فلم يتغير مركزها قبل الحرب

(*) نُشر في: **الهلال**، المجلد ٥٣، الجزء ٤ (١٩٤٥)، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

العالمية الماضية، ولم يكن بقاؤها على حالها خوفاً من قوة الدولة العثمانية ولا حرصاً على حقوقها أو حقوق أبناء الأمم العربية، وإنما كان كما قدمنا مظهراً من مظاهر الخلاف بين الدول الكبرى على التقسيم والتوزيع.

فلما انتهت الحرب العالمية الماضية وخرجت منها روسيا مضطربة والنمسا منحلة وألمانيا مغلوبة وإيطاليا في حالة القلق والتردد، تيسر الاتفاق بين بريطانيا العظمى وفرنسا على مسائل الانتداب في لبنان وسورية والعراق وفلسطين، وتغير في الميزان الدولي وضع هذه البلاد. فالضمان الذي تكفل ببقاء تلك الأمم ـ من أمم الجامعة العربية ـ على حالها قبل الحرب العالمية الماضية هو الضمان الذي يمنع المساس بمراكزها في الآونة الحاضرة، ويزيد عليه بعض الاعتبارات الأخرى التي لم تكن قائمة يومئذ أو لم يكن لها من الشأن الخطير في السياسة العالمية مثل شأنها الآن.

ومنها أن رقعة البلاد العربية هي ملتقى القارات الثلاث، فهي من ثم ملتقى المواصلات البحرية والبرية والجوية التي تربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وليس من مصلحة الدول الكبرى أن تكون هذه الرقعة في قبضة دولة واحدة تعزلها عن سياسة الدول الأخرى. ومنها أن النفط ينبع في بعض هذه البلدان أو يمر منها، وهو حاجة عالمية لا يسهل التسليم فيها لدولة واحدة.

ومنها أن المركز الحربي الذي تشغله بلاد الأمم العربية من أهم المراكز الحربية في الكرة الأرضية، فمن اللازم أن يصان هذا المركز الخطير من موجبات القلق والثورة أو من الاحتكار الذي يطلق يداً واحدة ويغل سائر الأيدي، كما يصان من التوزيع الذي يؤدي إلى الاحتكاك فالاصطدام. وهذا عدا البواعث الاقتصادية العامة التي تستدعي فتح هذه السوق الواسعة للتصدير والتوريد، وتأبى على الدول أن تسمح بإغلاقها في وجه فريق دون فريق. فالواقع الذي يقرر للأمم العربية مركزها في الميزان الدولي هو صعوبة التفاهم على تقسيمها أو السيادة عليها.

وإذا ذكرنا هذه الصعوبة، فمن الواجب ألا ننسى أن روح الاستقلال النامية في هذه الأمم، تعتبر سبباً من أقوى الأسباب التي تقيم الصعوبات في طريق التقسيم والتوزيع، وأن اقتران هذه الروح المستقلة النامية بروح التضامن العربي، يعزز مكانة الأمم العربية جميعاً، ويميل بالدول الكبرى إلى تفضيل سياسة المجاملة والحذر على سياسة القمع والعدوان.

وينبغي أن نذكر دائماً أن الميزان الدولي يتغير حيناً بعد حين وجيلاً بعد جيل. ومن أمثلة ذلك ما قدمناه عن اختلاف هذا الميزان من أثر الحرب العالمية الماضية، وما ترتب على هذا الاختلاف من إمكان التفاهم بين فرنسا وبريطانيا العظمى، بعد أن كان التفاهم متعذراً مع اشتراك الدول الأخرى في هذا الميزان. فلو أن روسيا ـ مثلاً ـ خرجت منتصرة من تلك الحرب لما تفاهمت الدول على مبدأ الانتداب كما تفاهمت عليه في حالة

انهزامها، ولجاز كثيراً أن يتغير التقسيم أو لا يحدث على الإطلاق.

وكذلك يجوز في المستقبل أن يتغير الميزان الدولي على وجه من الوجوه بظهور عامل جديد أو اختفاء عامل قديم، فإذا وقع هذا فقد يتبدل الموقف تبدلاً يرضينا أو يناقض ما نرومه ونترقبه في الآونة الحاضرة، وإن كنا نرجو أن تصدق الدلائل التي ترينا اليوم أن المستقبل للحرية، وأن زيادة الأمم المستقلة أقرب إلى الاحتمال من نقصها في الزمن المقبل القريب.

أما والحالة على وضعها الذي نراه، فوزن الأمم العربية في الميزان الدولي هو وزن الأمم التي يراد استقلالها لأنه أسهل من استعبادها، ويحسب الحساب لصداقتها وعداوتها، لأنها تحتل معابر العالم التي تدور حولها مصالحه في حالتي السلم والحرب، وفي جميع أحوال الوفاق والخلاف بين الأقوياء. وهي إلى هذا وذاك صاحبة أصوات ستة من خمسين صوتاً في جامعة الأمم المتحدة، فهي بهذه الأصوات تملك الترجيح بين الآراء والخطط، وتستحق الرعاية في مواقف الحرج بين أقوى الأقوياء. وإذا جاز أن تتفاهم الدول الكبرى على مواطن النفوذ في كل قطر من الأقطار العربية، فهي لا تستطيع بذلك أن تلغي إرادة الحكومة الوطنية، ولا أن تحرمها كل ما تملكه من وسائل الرفض والقبول، ووسائل التمييز والترجيح في كثير من الشؤون الهامة. وتزداد قدرة الحكومات الوطنية على هذه الخطة كلما تراجعت الأمور إلى قرارها في حالة السلام وانتظمت الهيئات الدولية التي يناط بها سماع القضايا القومية والفصل في مظالم الشعوب.

وإذا صحت بوادر التفاؤل فالواضح لنا الآن أن فرص الحرية تزداد وأن فرص الاستبعاد تنقص على تعاقب الأيام، وأن أمم الشرق العربي قد يكون لها دور في تثبيت الديمقراطية، تحتاج إليه أمم الغرب نفسها على ما لها من القدم الراسخة في الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية، لأن الحكم الديمقراطي لا يستهدف اليوم لخطر أعظم ولا أقوى من خطر المذاهب المادية الهدامة، وفي مقدمتها الماركسية، وكثيراً ما تقف العقيدة الديمقراطية عزلاء في وجه المذاهب المادية التي تهددها بين الغربيين. أما في الشرق العربي فهذه العقيدة الناشئة تعززها العقائد الروحية العريقة التي ترعرعت بين كثير من الطوائف الغربية، ومن مصلحة الأقوياء مثل أوروبا وأمريكا أن يتاح للشرق دوام الإيمان بالحرية الديمقراطية كما تتاح له العصمة من الفاقة وسوء المعيشة. فإن هذا الشرق إذا انقلب على الديمقراطية، وضعفت فيه الثقة بالعدل الاجتماعي فلن ينقلب وحده، ولن يقف أثر انقلابه عند حد من الحدود في القارتين الآسيوية والافريقية، وليس وقوع هذا المحظور بالخطب الذي ينجو العالم كله من عقباه.

إن جامعة الأمم العربية عنوان صادق للاتجاه الجديد في ميزان العلاقات الدولية، ومن كان يماري في الاتجاه الجديد الذي تتجه إليه الإنسانية في العصر الحاضر، فعليه أن يرجع خمسين سنة فقط إلى الوراء لينظر أين كان مكان الأمم التي لم تملك من الثراء

والسلاح إلا بمقدار ما تملكه الأمم العربية اليوم. وليحسب الفارق بين ذلك المكان ومكان الجامعة العربية في العصر الحاضر، فإنه فارق لا يستصغره على خمسين سنة إلا رجل لا يحسن القياس.

نعم إننا لا نملك من الصوت في سياسة العالم ما يملكه الأمريكيون والإنكليز والروسيون، فهل معنى ذلك أن الإنسانية لم تتقدم في المعاملات الدولية، ولم يطرأ عليها تغيير في آداب السياسة العالمية؟.. كلا.. وإنما معناه أن الدنيا لا يزال فيها الأقوياء والضعفاء، ولا يزال فيها السابقون والمتخلفون، وسبيلنا إذا أردنا أن تبطل شكوانا من هذا التفاوت أن ننشد القوة وأن نتقدم إلى الطليعة. أما أن تزول الفوارق بين بني الإنسان، جماعات وأفراداً، فلا سبيل إليه، ولا حيلة للمؤتمرات ولا للمعاهدات فيه.

كيف يتحرر العرب من النفوذ الأجنبي؟(*)

ابراهيم عبد القادر المازني

أمتنا العربية دول شتى. وليس من هذا ضير، فإن وحدة الأصل والثقافة والميراث التاريخي، واللغة، والدين أيضاً على العموم، لا تمنع أن لكل شعب من الشعوب العربية في موطنه الخاص، خصائصه التي يتميز بها، ومن الخير أن تبقى له هذه الخصائص، وأن يظل متميزاً بها بين اخوته، وقادراً على إنمائها والانتفاع بها، وإقامة حياته الخاصة على مقتضاها، وتوجيه نفسه بفضلها الوجهة التي هو أصلح لها. وإن قوماً منا ــ أنا منهم ــ ليرجون أن يتيسر في المستقبل أن تكون للدول العربية ــ مع بقاء كل منها مستقلة بشؤونها ــ حكومة عليا قائمة على الشورى، يوكل إليها وضع النهج السياسي العام حيال الدول الأخرى أو جماعاتها، وتتولى توحيد كل ما يسهل ويفيد توحيده من النظم وما إليها بلا افتئات على حق، أو تضييق لحرية، فتصبح البلاد العربية «دولاً متحدة» لا مجرد «ولايات» متحدة كأمريكا أو سويسرا. وهذا نظام من الممكن أن تتطور إليه جامعتنا العربية الحالية، وأعتقد أن هذا التطور حاصل، وأن بداياته واضحة من الآن، على حداثة عهد هذه المؤسسة الجامعة، ولا بأس من البطء حتى تطمئن القلوب، وتألف النفوس مراحل التطور، وتقتنع بمزايا التنظيم الموحد على الأيام.

ولكنني ــ كما يستفاد مما أسلفت ــ لا أذهب إلى حد الاندماج، لا لأسباب سياسية، بل لأني أعتقد أن الاندماج يقضي على مزايا الخصائص القومية لكل شعب من شعوبنا العربية، ويتركها في الواقع عبارة عن أمم تشعر بأنها مغلوبة على أمرها، وهو شعور سيئ لا يثمر إلا البغضاء، والتململ، والانقباض، وإجراء العواطف والأفكار في مجار لا صالحة ولا مأمونة. ولو كان الأمر إلي، أو لو كان لرأيي وزن عند الساسة والمصلحين لأشرت بمنح كل مديرية من مديرياتنا المصرية أوفر قسط من الحرية المحلية لإدارة شؤونها وتعهد مرافقها، على مثال الواقع في الولايات المتحدة الأمريكية أو السويسرية، وتبقى جملة هذه المديريات هي مصر، وتكون كلها خاضعة للحكومة المركزية

(*) نُشر في: الهلال، المجلد ٥٤، الجزء ٣ (١٩٤٦)، ص ٢٩١ ــ ٢٩٣.

في السياسة العامة والتنظيم الموحد اللازم لما يعني الأمة كلها، وحينئذ كنا نرى كيف تتنافس المديريات وتتسابق إلى الأخذ بأسباب الرقي، وكيف تنفض عنها غبار الجمود الذي يفرضه عليها علمها أن أمرها كله ليس بيدها، وأنها ليست مسؤولة عن نفسها، وأنها ليست مكلفة، ولا مقبولاً منها، أن تصنع لنفسها شيئاً.

ودولنا العربية حظوظها من الاستقلال متفاوتة. والدولة السعودية أتم الجميع استقلالاً، وأوفرها نصيباً من الحرية، وليس لدولة أجنبية ما، نفوذ خاص في بلادها، وإن كان لا يسعها ـ ككل دولة مستقلة أخرى، كبرت أم صغرت ـ إلا أن تُدخل في حسابها، مواقف الدول الأخرى واستعدادها، ومبلغ حاجتها هي إلى هذه أو تلك، وما تقضي به مصلحتها على العموم. وكل دولة تفعل ذلك وتتحراه، فليس فيه جديد أو غريب، أو ما من شأنه أن يتخذ دليلاً على أن لدولة أجنبية نفوذاً في البلاد السعودية.

أما سائر دولنا العربية فلا تخلو واحدة منها من نفوذ دولة أجنبية، ولك أن تقول بريطانيا على التعيين، وهو نفوذ مرجعه في الوقت الحاضر إلى القوة العسكرية، فإن لبريطانيا قوات في العراق، وشرقي الأردن، وفلسطين، ومصر، وما زالت لها قوات في لبنان وإن كانت ستجلو عنها قريباً. ولا ريب في أن هذا نفوذ بغيض لاستناده إلى القوة، ولا خير فيه لبريطانيا ولا لدولنا، لأن كل ما تجنيه بريطانيا منه إنما تناله غصباً، لا عن رضى منا وإيثار. وإذا قيل إن هذا النوع من العلاقة بيننا وبين بريطانيا لا يخلو من فائدة لنا، قلنا قد يكون هذا صحيحاً من بعض الوجوه، ولكنه لا شك في أننا نتقبل الخير حين يتفق أن يجيئنا من هذا الطريق، بنفوس غير راضية، لأن استقلالنا مقيد بوجود هذه القوات وما تكسب بريطانيا من نفوذ. والأمة المقيدة الاستقلال تكون أشبه بالإنسان الذي بترت ساقه وركبت له مكانها ساق خشبية، وانه ليستطيع أن يروح ويغدو بها، ولكن الساق الطبيعية أصلح وأكفل بتمكينه من السعي الذي يريد أن يسعاه، وتيسيره عليه. وفي وسع بريطانيا أن تنال بفضل الصداقة الحرة أطيب من كل ما يمكن أن تناله بالنفوذ المستند إلى القوة. وأظن أن هذا من البديهيات.

وكيف نتحرر من هذا النفوذ البغيض حتى ولو كان نافعاً؟

لا شك أن بريطانيا دولة قوية عزيزة الجانب، وفي وسعها أن تخضعنا لمشيئتها وترغمنا على ما تبغي بالقوة. ولكن أين هذا المجنون الذي يتصور أن ضمير العالم يمكن أن يقبل أن تسلط بريطانيا علينا الحديد والنار؟ قد يقال إن ضمير العالم شيء معنوي لا حساب له أمام الدبابات والطائرات، وقد يكون هذا صحيحاً، ولكننا لسنا في عصر تيمورلنك أو جنكيزخان. ولكل عصر روحه، وروح هذا العصر الذي نعيش فيه قد تسمح بخنق أمة صغيرة واستعبادها، ولكنها تسمح بذلك على شرط أن تكون هناك حجة تبدو وجيهة، وعلى ألا يكون للخنق مظهر مادي مفضوح، أو مظهر عدوان، أو مظهر غير إنساني الصبغة.

فاستخدام القوة إذن أمر خارج عن نطاق البحث، فيجب إهماله. ومؤدى ذلك أن

نتشجع ونثق بأنفسنا، ونؤمن بحقنا في الحياة الحرة الكريمة، وبقدرتنا على الفوز بها بغير حاجة إلى قوة حربية تعادل أو تقارب قوة بريطانيا. فإنه لا أمل لنا في شيء إذا كان مثل هذه القوة لازماً للظفر بحقوقنا، ومن أين نجيء بها وبريطانيا حريصة على الحيلولة دونها؟

وما من إنسان يحترم من لا يحترم نفسه. وما من إنسان خسر ما له قيمة بحرصه على احترام نفسه. وقد يكرهه البعض، ولكنهم على كرههم له، ونفورهم منه، لا يسعهم إلا أن يوقروه، وينزلوه حيث أراد لنفسه من منازل الكرامة.

وهل رأى أحد قطة تحاول أن تمشي على لوح من الخشب مثلاً؟ إنها تمد يدها أولاً، وتجس، فإذا اطمأنت إلى ثبات ما تحتها، مدت رجلها، فخطت خطوة، ولا تزال تفعل ذلك في حذر وأناة حتى تعبر اللوح كله. وكذلك السياسة البريطانية: تمد يدها ـ كالقطة ـ على سبيل الاختبار، فإذا وجدت ليناً ومسايرة مدت يداً أخرى، وإذا اصطدمت بمقاومة ردتها، وظلت حيث كانت وكأنها لم تحاول شيئاً.

* * *

والواقع أن السياسة البريطانية ما نالت من استقلالنا منالاً، ولا بسطت كل هذا النفوذ علينا، ولا صار لها هذا السلطان الخفي أو الظاهر إلا بفضل جبننا وضعفنا. فنحن نجبن، أمام السياسة البريطانية، فتمتد اليد الأخرى وتتمكن، وعلى الأيام يصبح الجبن فينا، والافتئات أو التحكم منها، عادة. وكل شيء في الدنيا عادة كما نعرف. والضعف يخيل إلى بعضنا أن المصلحة تقضي بهذه المسايرة، وقد تشير عليه مصلحته الخاصة بذلك، فيموهها ويجعلها تبدو في صورة المصلحة العامة. ولا أدري أي مصلحة لأمة من الخضوع لأمة أخرى؟ ولا أدري أي شر يتقى بالمسايرة، وكل الشر في المسايرة؟ وماذا يمكن أن تخسر أمة أكثر مما خسرت من الاستقلال والحرية، حين تقول لمسترقها «لا» حاسمة قاطعة لا تردد فيها ولا تلعثم؟ أيضيع فوق ما ضاع، أو أعز منه؟ إن الأمر لا يمكن أن يستقيم لدولة أجنبية بالغة ما بلغت من القوة، إذا أبى المستضعفون أن يسايروها أو يعاونوها على أنفسهم. وهذه حقيقة يجب أن تتقرر في الأذهان، والعمل بها هو السبيل للتحرر التام من كل نفوذ أجنبي، فإن الأجنبي قد يستطيع أن يمنعنا من فعل شيء نهمّ به، ولكنه لا يستطيع أن يرغمنا على فعل شيء لا نريده، إلا إذا لجأ إلى أساليب القرون المظلمة، ولا سبيل إلى هذه في زماننا.

فلننفِ الخوف من نفوسنا إذن، ولنثق ولنؤمن بها، ولنتشجع، فإن هذه سبيلنا الميسرة. وإلا فما أغرب أن نطلب الحرية الصحيحة لا المزيفة ـ فإن هذه موفورة ـ وأن نتردد أو نجبن، ونخاف مما يجشمنا السعي لها وطلبها! وما يكلفنا حرباً ولا ضرباً، وإنما يكلفنا شجاعة قلب، وجرأة جنان، وثقة بالنفس.

المغرب العربي(*)

حادثان مهمان للأمة العربية حدثا في هذا الشهر مرت عليهما الصحافة العربية مر الكرام.

الحادث الأول هو خبر انتشار موجة المجاعة التي طغت على بعض الأقطار العربية وفي مقدمتها المغرب العربي، إذ اكتسحت هذه المجاعة المغرب العربي من أقصاه إلى أقصاه مع أنه غني بالخيرات الزراعية والمواد الأولية والأيدي العاملة.

والصحف العربية لم تبحث الموضوع بقدر ما يستحقه هذا الحادث من الأهمية. فلم تكلف نفسها حتى عناء السؤال عن أسباب هذه المجاعة وطرق مكافحتها، كما أنها لم تنبه الأمة العربية إلى واجبها القومي تجاه هذه الأقسام العربية التي نزلت فيها الكارثة.

والحادث الثاني هو ما أذاعه الراديو من أن الحكومتين الافرنسية والانكليزية رفضتا السماح للجنة الهلال الأحمر المصرية التي استطاعت جمع بعض التبرعات لهذه الأقطار لتوزيعها كمساعدة على السكان المحتاجين في المغرب العربي.

وقد يستغرب الإنسان هذا الرفض من قبل الحكومتين اللتين تحكمان المغرب العربي أو تسيطران عليه الآن مع أن الدولتين لم تستطيعا رفض لجان الصليب الأحمر السويدية أو السويسرية في الذهاب إلى المانيا عدوتهم الأولى لتوزيع المساعدة الغذائية لما أصابها من الجوع في نهاية الحرب الماضية. زد على ذلك فإن صلة البلاد العربية بالمغرب العربي صلة قربى واتصال مباشر أكثر من صلة الشعب السويدي أو السويسري بالشعب الالماني.

وكيف تستطيع الدولتان أن تستهترا بمطالب البلاد العربية في وقت أخذت القضية العربية تشغل مكاناً هاماً في السياسة العالمية، ولها خمس دول ممثلة في هيئة الأمم المتحدة. والأغرب من ذلك أنه لم يرتفع صوت من الأمة العربية يظهر النقمة والألم من هذا العمل الذي يخالف الإنسانية ولا يتفق ومبدأ الحق البشري الذي أعلنت الدول أنها تدافع عنه، وقد سكتت الهيئات العربية الشعبية عن هذا الحدث الهام أيضاً ولم تستطع أن

(*) محاضرة ألقيت في النادي الثقافي القومي في دمشق عام ١٩٤٧.

تسجل احتجاجها، مع أن أمتنا اعتادت تسجيل الاحتجاجات في أكثر المناسبات الهامة والبسيطة.

فلتفسير هذا السكوت الشعبي ولتبيان سر معاملة الدول الأوروبية لنا في قضية المغرب العربي، لا بد لنا أن نبحث أولاً في القضية العربية وعلاقتها في المغرب العربي واتجاهاتها، لنعرف سر هذا الأمر ومغزى هذه المعاملة.

الأمة العربية تمتاز عن كثير من الأمم الأخرى المشابهة لها في الهدف والغاية في أنها أمة كانت قديماً موحدة وقضت زمناً طويلاً تابعة لدولة مركزية واحدة. لذلك فالشعور بالوحدة العربية أو الاتحاد العربي أو ضم كافة الأقطار العربية في نظام واحد مقبول في نفس كل عربي. وهذا الاتجاه يثبته التاريخ وتدعمه الحاجة، فهدف الأمة العربية اليوم ليس حلماً كما كان الحال عند فلاسفة الألمان أو شعراء الطليان، وإنما حقيقة واقعة. وهذه الحقيقة هي التي استطاعت أن تحافظ على بقاء الأمة العربية صامدة أمام خطوب الدهر ومطامع الدول الاستعمارية ذات القوة والسلطان.

وأهم اعتراض يوجهه إلينا رجال أوروبا هو كيف يستطيع العرب أن يوحدوا هذه البلاد الشاسعة الواسعة الأطراف التي تمتد من المحيط الأطلسي حتى خليج البصرة، والتي تضم هيئات اجتماعية متباينة ومصالح مختلفة؟ وهذا الاعتراض قد صادفته بنفسي من أحد الأساتذة الالمان الذين كانوا يهتمون بأمر العرب ويريدون أن يفهموا إمكانية تحقيق الوحدة بين الأقطار العربية. فأجبته بأن العرب استطاعوا في وقت لم تتعد فيه طرق المواصلات الابل والخيل والحمير من توحيد هذه البلاد وجعلها خاضعة لدولة مركزية عاشت قروناً وأنتجت حضارة ومدنية لا تزال آثارها في آسيا وافريقيا وأوروبا تشهد لها. فإذا استطاعوا في ذلك الوقت ذي الوسائط الابتدائية أن يوحدوا هذه البلاد ويديروا الحكم فيها بعدل ودعة، فهلا يستطيعون في هذا اليوم الذي ظهرت فيه الكهرباء واللاسلكي والطيارة والسيارة من توحيد الوطن العربي.

وهناك دول كثيرة أخرى أراضيها أكثر اتساعاً من بلاد العرب وشعوبها أكثر اختلافاً في ما بينها من الشعوب العربية، ومع ذلك فهي تعيش في نظام موحد وتدار من قبل حكومة مركزية واحدة. فما دامت هذه البلاد ترتبط برباط قومي واحد وتستهدف هدفاً واحداً فلا يضيرها أكبرت مساحة أرضها أم صغرت، أقلّ عدد سكانها أم كثر.

لذلك فإن الزمن كفيل بتحقيق هدف الأمة العربية كما حقق لكثير من الأمم الأخرى هدفها، فما دامت أمتنا تؤمن بذلك فسوف تصل يوماً ما إلى غايتها.

فإذا كان الزمن سيكفل ذلك، فما هي وظيفة الحركة القومية ولِمَ تصرف الجهود من أجل ذلك؟

كما أن الهدف في العلم هو استثماره في الصالح العام وخدمة الإنسانية، فكذلك هدف الحركات القومية العام هو تعجيل الوصول إلى الهدف لاستثمار قوى الأمة في

الإصلاح بعد تكتلها وتقديم رسالة بشرية، وهذه الغاية العامة هي التي تدفع بالقوميين من أبناء الأمم للتضحية ولإسراع خطاهم في حركاتهم الإصلاحية.

إن الحركة القومية إنما هي مدرسة الأمة، فكما أن واجب المدرسة اختصار الطريق وتسهيل اكتساب المعلومات الضرورية للحياة بواسطة تنظيمها وتنسيقها وجعلها في مستوى الطلاب وقابلياتهم، فكذلك الحركة القومية تعتمد في سيرها على خصائص الأمة والأسس العلمية للمجتمع الذي تعمل فيه لتستطيع بذلك تنظيم سبل الكفاح وطرق العمل، وكلما خطت بسرعة اختصرت الزمن واستفادت من ثمرة الكفاح والعمل واستخدمت نتائج ذلك في تحسين حالة البلاد ورفع مستوى الشعب.

وحركتنا القومية شبيهة بمدرستنا. فكما أن المدرسة العربية لم تستطع لعدم وضوح الخطة وتهيؤ الامكانيات الضرورية لها من إصلاح الجيل الحاضر أو إخراج جيل يتمتع بالصفات التي تصبو إليها الأمة، فكذلك الحركة القومية العربية لم تسجل حتى الآن نصراً جوهرياً في ميادين السياسة وساحات الكفاح ولذلك أسباب عدة.

لنستعرض الآن ما هو معلوم لدينا عن الحركة العربية وعلاقتها بالمغرب العربي ولننفذ قليلاً إلى زواياها المظلمة علّنا نرى نقاط الضعف فيها بوضوح.

لقد بدأت القضية العربية في ثلاثة مراكز مختلفة وبوسائل متباينة، ولكنها كانت كلها تستهدف غاية واحدة وتتجه نحو هدف واحد.

فالمركز الأول وجد في داخل البلاد العربية، لا سيما في بيروت والشام والقاهرة حيث بدأت الجمعيات الأدبية واللجان الثقافية تقوم بواجبها القومي في إحياء معالم الأمة العربية الأدبية المندثرة، وقام هذا المركز بخدمة كبيرة، إذ استفاد من كنز الأمة الثقافي فنشر كثيراً من آثار العرب وأحيا كثيراً من معالم اللغة العربية.

أما المركز الثاني فقد اتخذ مقره في الآستانة وبدأ بصورة أدبية أولاً، وضم شمل الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في عاصمة الدولة العثمانية في جمعيات ثقافية ونواد أدبية، ثم مال نحو الاتجاه العسكري لأن أكثر الطلاب العرب كانوا آنذاك في مدرسة الحربية التركية. وقد وجد هناك عدد من الضباط العرب الذين اختلطوا برفاقهم الضباط الأتراك فلمسوا فيهم الروح العنصرية التركية العنيفة وأنهم لا يعبأون إلا بكل ما هو تركي فقط، فكان طبيعياً على أبناء العرب أن يفكروا في التكتل وجمع الشمل ليتدبروا أمر أمتهم العربية ومستقبلها.

أما المركز الثالث فكان في باريس، وباريس كانت قبل الحرب العالمية الأولى مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً ضم جمعاً كبيراً من شباب العرب، لا سيما من سوريا والمغرب العربي ومصر لاكتساب العلم والاستفادة من الحضارة الغربية. وباريس كانت تشجع كل حركة ضد الدولة العثمانية، فسياستها إذن سياسة عطف على العناصر المناوئة للأتراك وفي مقدمتها العناصر العربية لأنها كانت طامعة في أخذ جزء آخر من أجزاء الامبراطورية

العثمانية، فكانت مقررة الاستيلاء على سورية ولبنان لتضيفهما إلى مستعمراتها الأخرى، فهي لم تكتف باستعمار أكبر قسم عربي في شمال افريقيا، بل وضعت خطتها لاحتلال هذه البقعة العربية الجميلة، وقد شجعتها على وضع هذه الخطة أمور كثيرة أهمها ضعف الدولة العثمانية ووجود عطف على فرنسا في هذه القطعة العربية، لأن فرنسا ظهرت منذ زمن يزيد على القرن بأنها تدافع عن الحرية والمساواة، فاستخدمت مبادئ الثورة الفرنسية وسيلة لاكتساب عطف شعوب كثيرة، ومنها الشعب العربي في هذا القسم من الوطن العربي. وبما أن الخلاف بدأ يدب بين الشعب العربي ورجال الحكم في تركيا من جراء انتشار الفكرة العنصرية الضيقة في نفوس الشباب التركي الذي استولى على الحكم في تركيا وأصبح يدير الدولة العثمانية وفقاً لخطة، فكان طبيعياً أن ينال مركز باريس العربي عطف السياسة الافرنسية ويأخذ الاتجاه السياسي في سيره.

وقد اقتصر مركز باريس في حركته على أبناء العرب من القسم الشرقي، ولم يشترك معهم اخوانهم المغاربة الذين كانوا آنذاك قوة كبيرة ومستعدين لأن يساهموا مع إخوانهم العرب في كافة الحركات التحريرية، والسر في ذلك يعود إلى نقطتين هامتين:

الأولى أن فرنسا كانت تعطف على الحركة العربية على شرط أن لا تتناول المغرب العربي، **والثانية** لأن الوعي القومي آنذاك كان محدود المدى مقتصراً على البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية، فكان هدف الغرب تخليص البلاد العربية من حكم الأتراك أكثر من تأسيس حركة عربية قومية عامة.

ولو نهج العرب في باريس النهج القومي الصحيح واستفادوا من تجمعهم من جميع أقطار العرب فوحدوا حركتهم لتغير وجه التاريخ العربي، فهذا الاتجاه الضيق في القضية العربية ما زال يؤثر على تطور الحركة العربية لا سيما قضية المغرب حتى يومنا هذا.

فها إننا نجد أن جميع المراكز العربية الثلاثة لم تكن ذات صلة وثقى بالمغرب العربي، ولم يحاول أي واحد منها أن يستفيد من قوة العرب في المغرب، فيستخدمها في صالح الأمة العربية، ويضع بذلك أسس القومية العربية على قواعد ثابتة وأسس صحيحة.

ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى اضطر العرب قبل أن تنضج قضيتهم أن يشتركوا فيها، فانقسموا إلى قسمين: قسم يقاتل بجانب الأتراك كضباط وجنود تابعين للدولة العثمانية، وقسم فر إلى الحجاز فكوّن جبهة عربية استطاعت بمساعدة الحلفاء أن تعلن الثورة على الحكومة العثمانية.

فدخول العرب الأحرار بجانب الحلفاء الذي كان يضم فرنسا المستعمرة لشمال افريقيا لم يفتح للعرب مجالاً للتفكير في أمر المغرب العربي، كما أنه ليس هناك ما يدعو لذلك في نظر العرب آنذاك، فانصرفت الجهود كلها لمحاربة الأتراك والتخلص من حكمهم الجائر دون أن تؤخذ الحيطة ضد الحليف الجديد الذي ظهرت نيته السيئة ومطامعه الاستعمارية في أثناء الحرب نفسها.

فعدم التفكير في قضية المغرب في كل مراحل القضية العربية للأسباب التي ذكرت جعل الحركة العربية كحركة قومية مبتورة غير كاملة وأفقدها الدعامات الأساسية التي تحتاجها الحركة في بناء كيانها، وهذا هو السبب الأول في أن أكثر حركاتنا القومية ما زالت تأخذ الشكل الإقليمي المحلي لأننا لا زلنا نسير على نفس الطريقة الأولى، فرجال سياستنا رغم اقتناعهم المنطقي بالاتجاه العربي العام ما زالوا غير عابئين في خطواتهم السياسية العملية بما يحدث أو يجري في المغرب العربي ولا يعيرون ذلك ما يستحقه من التفكير والجهد السياسي.

بعد هذه المقدمة عن الحركة العربية وأسسها يحسن بنا أن نجيل الطرف في افريقيا الشمالية، ولا بأس من أن نرجع إلى بعض الحوادث التاريخية القديمة التي لها علاقة وتأثير في وضعنا الحالي.

عرف التاريخ شمال افريقيا لما كان مسكوناً من قبل عشائر بربرية ذات لهجات معينة وعادات ثابتة، وقد أرجع كافة العلماء غير المتحيزين أصل البربر إلى العنصر العربي، فقد ثبت أن القبائل البربرية قدمت افريقيا من آسيا، كما أن لهجاتهم وكثيراً من عاداتهم لها صلة وثقى بلهجات وعادات حِمْيَر اليمانية، إلا أن البربر كانوا على صلة وثقى بمصر وأوروبا لموقع شمال افريقيا الجغرافي وبعدهم عن الانقلابات الاجتماعية والسياسية في الجزيرة العربية وما حولها، فثبت فيهم طابعهم الخاص وجعله منسجماً مع محيطهم الجديد وعلاقاتهم مع جيرانهم.

وكثير من البربر من استطاع ارجاع نسبه إلى قبائل عربية، كما أن تولي طارق بن زياد قيادة الجيش العربي في زمن الأمويين الحريصين على العصبية العربية يثبت لنا ذلك ويدعم هذا الادعاء.

إلا أن انقطاع البربر عن الموجات العربية أحدث تباعداً بين القسمين. وقد خفف هذا التباعد من فترة بعض العلاقات التي حصلت بين القسمين المتباعدين.

فأول اتصال وثيق حصل بين جزيرة العرب والهلال الخصيب وبين شمال افريقيا هو هجرة الفينيقيين الكنعانيين من صور إلى شمال افريقيا وتأسيسهم بلدة قرطاجنة، ثم دولتها، وذلك في القرن الثالث قبل المسيح، فكونت قرطاجنة دولة ذات سيادة بحرية وتجارية وسهلت امتزاج المدنية الشرقية بالغربية، وليس هذا الأمر بغريب ما دام العنصران يمتدان إلى أصل واحد.

وبتأسيس قرطاجنة بدأ النزاع الشديد بين أوروبا والعناصر العربية، وما زال مستمراً حتى يومنا هذا. والتاريخ رغم تحزبه الكثير يثبت لنا وجه الشبه بين أخلاق الدولة القرطاجنية وأخلاق العرب أثناء الدعوة الإسلامية وبعدها. ففي النزاع الذي حصل بين قرطاجنة وروما ظهر التسامح العربي بأجلى مظاهره، بينما سجلت القسوة الأوروبية رقماً قياسياً، فها إن التاريخ يذكر أن الرومان قد أحرقوا قرطاجنة ثلاث مرات وسبوا النساء

ودمروا كل معالم الحضارة والمدنية فيها، فيذكر مثلاً أن عدد سكان قرطاجنة كان قبل احتلال الرومان لها ٧٠٠ ألف نسمة، فأصبح بعد ذلك ٢٥ ألفاً من الرجال و٣٠ ألفاً من النساء سيقت سبايا.

وهكذا أتلفت روما أكبر مدينة شرقية آنذاك كانت تفيد العالم مع أن التاريخ لم يصفها بالوحشية، كما وصف أعداءها وهم الجرمان الذين لم يقوموا إلا بتخريبات جزئية بالنسبة لهذه، فدعاهم بالبرابرة ولا زال الكثيرون متأثرين بهذا اللقب الذي نالته القبائل الجرمانية.

فاستيلاء روما على شمال افريقيا لم يتصف بصفة التدمير والتخريب والقتل والتشريد فقط، وإنما امتاز أيضاً باستعمار فظيع، فكان الرومان يسلبون الأرض من سكانها ويمتلكونها ويقسمونها بينهم دون أن يراعوا حرمة قوانين أو عدلاً إنسانياً.

هاتان الصفتان اللتان اتصف بهما الاستيلاء الأوروبي على شمال افريقيا منذ القديم بقيتا ملازمتين لاستعمارهم حتى يومنا هذا، وهذا ما يفسر لنا بجلاء سر بقاء هذا الجزء العربي من بلاد افريقيا حياً رغم المصائب الكبيرة والكثيرة في الزمن الماضي والوقت الحاضر. وقد بقي النزاع شديداً بين افريقيا الشمالية وأوروبا الجنوبية، إلا أن افريقيا العربية لم تستخدم نفس الطريقة التي استخدمتها أوروبا، مع أن افريقيا سجلت انتصارات كثيرة على جنوب أوروبا واحتلت في مناسبات كثيرة عدة أقسام منها، فالرقة العربية والتسامح العربي ظهرا جلياً في طباع العناصر العربية أينما كانت وفي كل زمن، فرغم استطاعة سكان افريقيا أثناء هجوم الوندال (الجرمن) على الرومان وانتهاك حرمتهم فقد قاتلوهم بنفس السلاح الروماني، وهو القتل والتشريد والسبي، وأبوا أن ينتقموا لأنفسهم ويعاملوا الرومان المنكسرين مثل ما عوملوا به أيام عزهم وانتصارهم، فوقف أهل البلاد الأصليين متفرجين محايدين وأبت كرامتهم أن يثأروا من الرومان أو يشاركوا الوندال الأوروبيين في أعمالهم رغم الآلام الكثيرة التي كانوا يقاسونها من الرومان طيلة حكمهم.

وقد صنع اليونانيون بالوندال أثناء احتلال افريقيا الشمالية مثل ما صنع الوندال بالرومان، وبقي السكان الأصليون على الحياد أيضاً وغير مشتركين في هذه الأعمال القاسية. ورغم احتلال افريقيا الشمالية من قبل أوروبا عدة مرات لم تستطع أوروبا أن تؤثر عليها، لا بعاداتها، ولا بثقافتها ولا بنظمها الاجتماعية، بل بقي السكان محافظين على عاداتهم القديمة وطبائعهم الشرقية ولغاتهم المحلية.

ويذكر التاريخ أن الرومان تأثروا أكثر مما استطاعوا أن يؤثروا.

ولما زحفت جيوش العرب تحمل الراية الإسلامية وتنشر الدين الحنيف أنقذت جيوش العرب الجرارة افريقيا العربية من ظلم أوروبا، وقد وجدتها سليمة الجسم والروح. لذلك استطاع العرب أن يستفيدوا من أبناء المغرب العربي، فيؤلفوا منهم فرقاً

وكتائب ذات خصائص حربية ممتازة ويدمجوها في جيوشهم ويفتحوا بهم كافة الأقطار الساحلية، كما استطاعوا أن يحتلوا بهم اسبانيا ويصلوا حتى قلب فرنسا.

وإن الدين الإسلامي دين العرب قد شق طريقه حالاً إلى نفوس السكان، لأن التقارب العنصري بين العرب الفاتحين وأحفاد الحميريين كان قوياً سهّل كل امتزاج بين القسمين، كما حصل ذلك عند مجيء العرب إلى قرطاجنة، إلا أن الحركة الإسلامية امتازت عن سابقتها بأنها وحدت المشرق العربي بمغربه بفترة وجيزة وكونت منهما دولة واحدة تخضع لمركز واحد وذات نظام واحد.

إلا أن هذه الوحدة السياسة بين عرب المشرق والمغرب التي تمت على يد الجيوش الإسلامية لم تدم مع الأسف طويلاً، فلم يمض عليها نصف قرن أو ما يزيد قليلاً حتى رأينا الأمة العربية تنشطر سياسياً إلى شطرين، فتكوّنت خلافتان، الأولى في الشرق «بغداد»، والثانية في الأندلس. وقد مالت شمال افريقيا بطبيعة موقعها والخصائص الأخرى إلى مركز الأندلس، وحصلت الهوة الكبيرة ثانية بين المشرق العربي والمغرب، ولا تزال الهوة قائمة حتى اليوم. أما من الوجهة الاجتماعية والثقافية والدينية، فاستمرت الوحدة العربية طويلاً، وان ظهور بعض التباين في الإنتاج الثقافي والأدبي لم يزد الأمة العربية إلا ثروة وقوة انسجام لأن الوحدة الدينية كانت قوية في شمال افريقيا. فعلى الرغم من اختلاف القبائل القادمة من الشرق وطبعها بطابع العرب الحجازيين وانتساب سكان شمال افريقيا إلى اليمانيين، فإن الانسجام تم بين القبائل العربية في هذا القسم في فترة قصيرة، وكان الانسجام محكماً والوحدة متينة.

ولقد حصل تطاحن سياسي وعسكري بين الخلافتين العربيتين، إلا أن هذا التطاحن لم يرجع للأمة العربية وحدتها السياسية ثانية، وقد خابت مساعي كل من الخلافتين في الحصول على الوحدة، إذ لم تستطع كل واحدة منهما اخضاع الثانية لنفوذها وسلطانها، رغم حاجة الأمة العربية إلى ذلك. فاستمر الانفصال السياسي بين القسمين وانشغل كل قسم بمشاكله الخاصة وقابل مصائبه لوحده، فنتج عن ذلك أن تفرقت الأمة إلى دويلات صغيرة عاشت كل منها لوحدها وفي نزاع داخلي وخارجي مستمر.

ووقعت حوادث مهمة سهلت أمر التعاون بين الدويلات العربية أو بين القسم الأكبر منها، إلا أن هذه الحوادث رغم جسامتها وقوة تأثيرها لم تستطع أيضاً توحيد الأمة العربية، فلا الحرب الصليبية ولا الدولة الفاطمية ولا الدولة العثمانية استطاعت ايجاد الوحدة السياسية السابقة أو ما يشابهها.

ومع أن فترة الانقسام السياسي كانت طويلة بقيت عناصر الأمة العربية وسجاياها من عادات ودين واعتقاد، ثابتة في القسمين، رغم كل النوائب التي نزلت بالعرب واحتفظ بها المشرق العربي كما احتفظ بها المغرب العربي.

بعد هذه النظرة التاريخية ننتقل بكم أيها السادة إلى صراع الأمة العربية لا سيما

المغرب مع الاستعمار الأوروبي، ولا بأس من أن ننظر إلى الأمة العربية كوحدة، لأن قسميها الشرقي والغربي ابتليا بالاستعمار في وقت واحد.

بدأ الاستعمار الأوروبي في البلاد العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فدخل هذا الاستعمار بلادنا العربية من جبهتين، اخترق الجزيرة العربية من خليج عدن ١٨٣٨، ودخل شمال افريقيا من الجزائر ١٨٣٠.

دخلت انكلترا عدن بطريقة انكليزية، فما كادت تثبت أقدامها في هذا الميناء الهام حتى أخذت تتوسع وتتوغل في البلاد العربية المجاورة، تدرسها وتخضعها لسلطانها، وقدمت فرنسا إلى المغرب العربي من الجزائر بالطريقة الافرنسية المعلومة، فجرت في توسيع مستعمراتها وتثبيت أقدامها في خطة شبيهة بالخطة الانكليزية، فطرق الاستعمار أصبحت معلومة بعد أن أشبعت بحثاً وجربت في أكثر أنحاء العالم. فالدولة المستعمرة تتوخى الوصول لغاياتها بحجج واهية وأعذار ضعيفة، كالدفاع عن حرية التجارة أو المحافظة على مصالح الدولة أو الدفاع عن حرية الأديان والمعتقدات، لا سيما التي تدين بها الدولة المستعمرة، أو حفظ حقوق الأقليات، أو تطبيق النظم الإنسانية والبشرية، فإذا عجزت في كل ذلك عن تحقيق هدفها الاستعماري لجأت إلى الوسيلة الأخرى، وهي التدخل في الأمور الداخلية للبلاد المجاورة محافظة على النظام أو لحماية الحدود، أو للسهر على مصالح الدولة، أو لحفظ كرامة الدولة. والبلاد العربية طبقت عليها كل هذه الطرق وانتحل لاستعمارها كل هذه الأساليب المضحكة، فقد استعملت انكلترا وفرنسا وبقية الدول المستعمرة الأخرى ذلك وفقاً لخططها وظروفها الخاصة أثناء قيامها بالغزو لوطننا العربي.

والاستعمار الأوروبي اختلف في أشكاله وألوانه بالنسبة لطباع وخلق الدولة المستعمرة، أو بالنسبة للمقاومة المحلية التي ترغم الاستعمار في كثير من الأحيان على تغيير خططه أو تبديل وسائله، وأحياناً بالنسبة للظروف الدولية التي تحيط به.

فمقاومة الأمة العربية للاستعمار كانت شديدة في بعض المناطق، رخوة في المناطق الأخرى، ثائرة في بعض الظروف، هادئة في الظروف الأخرى، ولكن أهم لوم يوجه إلى هذه المقاومة العربية هو عدم توحيد جبهة موحدة ضد الاستعمار، فكما أنه لم تستطع الأمة العربية أن توحد الجبهة الموحدة لمقاومة الصليبيين أو المغول أو الاسبان أو الأتراك، فكذلك لم يسع العرب بقوة إلى توحيد الجبهة لمقاومة هذه الاستعمارات المختلفة، مع أني لا أنكر أن الاستعمار يملك من الوسائل المادية والأدبية ما يمكنه من الضغط الكبير على الجبهة العربية، إلا أن ذلك لا ينفي عن قيادة الأمة العربية أنها تسير على ضلال في كفاحها القومي وخطواتها السياسية، وأعني بالقيادة مجموع الطبقة المثقفة الواعية في الأمة، تلك الطبقة التي تعد المسؤول الأول عن سير الأمة العربية وإعطائها الاتجاه الصحيح.

فأهم دعامة يرتكز عليها الاستعمار هي تمزيق البلاد ووضع الحواجز المختلفة فيما بينها حتى ولو كانت كلها تابعة لدول واحدة من دول الاستعمار. فهذا ما فعلته فرنسا

في شمالي افريقيا. فبعد أن تهيأ لها إخضاع كافة المغرب العربي لسلطانها وضعت الحواجز الجمركية بين تونس والجزائر ومراكش، واتخذت جوازات السفر والتأشيرات بحيث لا يمكن عبور الحدود بدونها، كما أنها سنت نظماً متباينة شكلياً لتبرير وجود الحواجز والتأشيرات، فالجزائر محتلة وتابعة لفرنسا رأساً، وتونس محمية تحت الانتداب، ومراكش سلطنة مرتبطة بمعاهدة، لذلك لا يجوز المزج بين هذه الأقسام حرمة للقوانين!..

ومثل هذا صنعته انكلترا في الشرق العربي بين الأقسام العربية الخاضعة لسلطانها، فقد وضعت الحواجز أيضاً وعززتها بقوانين ونظم خاصة، وبقيت قائمة حتى الآن رغم استقلال بعض الدول ووجود الجامعة العربية!

وقد يلاقي هذا النظام قبولاً في البلاد التي لم يبلغ فيها الوعي القومي الصحيح الدرجة المرضية، كما نشاهد ذلك في بلادنا العربية، فكثير من الناس من يتمتع بفضل هذه الحواجز بمركز الإمارة والوزارة والإدارة، وقد خلقت هذه التدابير طبقة من الناس ترى حياتها الخاصة قائمة على وجود هذه الحواجز التي وضعها المستعمر وغذاها، ولا يزال ساهراً على بقائها. والخطة ليس وضع الحواجز وإنما تكوين عقلية محلية ترى أن وجود هذه الحواجز ضروري لكيان الدولة التي تعيش في ظلها، ولذلك فهي لا تجرؤ على رفعها رغم ضعف سلطة الأجنبي فيها.

فهذه الحواجز عطلت وتعطل نمو الفكرة القومية، إذ كيف يستطيع العرب أن يعرفوا بلادهم – إذ ذلك كشرط أول لتكوين قوميتهم – إذا كان لا يفسح لهم مجال التعرف على أقسامها المهمة وفي مقدمتها المغرب العربي.

أود أن أذكر لكم قبل وصفي لزيارتي شمال افريقيا ما كنت أتصوره عن هذا القسم العربي، مع أننا نشأنا في مدارس وطنية وتحت ظل حكم وطني، وكنا ندرس التاريخ العربي والجغرافية العربية بصورة مرضية، كما أني تعرفت منذ الصغر على بعض اخواننا من المغرب العربي، فكنت أتصور افريقيا الشمالية أشبه بالصحاري والقفار، ليس فيها ماء كاف ولا مدنية ولا عمران، كما أن حرها شديد لا يطاق، وأهلها خليط من عناصر مختلفة، وهم أشبه بالأقوام المسلمة منهم إلى العربية، أي ان رابطة الدم بيننا وبينهم ضعيفة. ولكن هذه التصورات زالت منذ اليوم الأول الذي وصلنا فيه هذه البقعة العربية كما أشرت إليه لأن معلوماتنا عن هذا القسم العربي مستمدة مما ينشره المستعمر عنها، فهو يعطينا الصورة التي يرغبها عن هذا المغرب العربي، وأخذت أخجل من ذكرها وسر ذلك معلوم.

ولم نكن نرغب في النزهة والسياحة عندما عزمنا على زيارة المغرب العربي عام ١٩٣٨، إذ إن هذه التصورات عن افريقيا الشمالية لا تثير الرغبة في زيارتها لا سيما في فصل الصيف حيث فيه الفرصة الكبيرة للمدارس، لكن الحس القومي هو الذي ساقنا إلى ذلك، فقد كنا في أوروبا نخجل الدخول في البحث عن شمال افريقيا بينما نرى الأوروبيين يعرفون عنها أكثر منا، إذ كيف يليق بالقومي العربي أن لا يعرف عن بلاده

التي يريد وحدتها بقدر ما يعرف عنها الأوروبي البعيد عنها.

وبعد أن عزمنا السفر صادفنا أول عقبة في هذه الطريق، ومن قبل حكومتنا، لأننا كنا آنذاك طلاب بعثة حكومية، فلم تساعدنا المعارف بتحويل راتبنا لخارج المانيا إلا بعد جهود كبيرة بذلتها وزارة المعارف الألمانية لذلك لأنها كانت تقوم بأمر الطلاب الرسميين بدلاً من المفوضية العراقية في برلين.

وما كدنا نذلل هذه العقبة الصعبة حتى اصطدمنا بالعقبة الثانية، وهي رفض ايطاليا السماح لنا بدخول طرابلس. فقد كانت الحكومة الايطالية تماطلنا وتحاول اقناعنا بالعدول عن السفر إلى طرابلس الغرب والاكتفاء بإيطاليا فقط، ولم نكن نفهم سر هذه المماطلة والممانعة حتى وطئت أقدامنا أرض طرابلس العربية.

وجدنا البلاد مزرعة للطليان فكل شيء فيها ملك للطليان، فالأرض الخصبة تؤخذ من العربي وتعطى للعائلات الايطالية، والتجارة نهب بين الطليان واليهود ولا يسمح لعربي أن يقوم بعملية تصدير أو استيراد، بل عليه أن يكون فقط مستهلكاً صغيراً، وتحرم عليه بيع كثير من الحاجيات كالتبغ والطوابع وبعض المصنوعات الأوروبية.

ولا يسمح للعربي أن يدخل الدرجة الأولى، سواء كان في المقهى أو المسبح أو القطار أو السينما أو سيارة النقل، أو ما أشبه ذلك باللباس العربي. إن الطليان يجبرون حتى المحكمة الشرعية لأن تضع إشارة الصليب على أختامها، أما الوظائف الإدارية فهي بعيدة عن العرب، وما يشاع عن المدرسة الإسلامية العليا في طرابلس، هو أن جميع الطلاب من الطليان المستشرقين، أما معلمو العربية والدين فقط فهم من العرب.

وخطة سياسة الإفناء بادية في طرابلس في كل شيء، فالطليان يتحرشون بالعرب ويهينونهم ليقابلوهم بالمثل، فيكون نصيب العرب السجن والنفي والتشريد وأحياناً القتل. ولهذا فلا يعجب الإنسان إذا ما رأى أن نفوس طرابلس قد هبطت من مليون ونصف قبل احتلال ايطاليا لها إلى ثلاثة أرباع المليون حتى عام ١٩٣٨، أي إلى النصف. ولا يوجد في طرابلس أي حزب سياسي عربي، وقد تكون أقوى جمعية فيها هي جمعية صباغي الأحذية.. لأن الحاجة دفعتهم للدفاع عن كرامتهم العربية لأنهم أكثر تلامساً بالطليان من غيرهم، لا سيما الضباط الذين يصبغون أحذيتهم ويتقصدون الاساءة إليهم.

لقد حدثنا مفتي طرابلس عندما خلا الجو معتذراً عن عمله الذي قام به عندما سلم السيف لموسوليني وتسميته له بحامي الإسلام من أنه لا يمكن لأحد في طرابلس أن يعاكس أصغر ضابط ايطالي في ما يريد، فكيف إذن بموسوليني؟.. وقال كيف نستطيع نحن الطرابلسيين أن نظهر رأينا ونحن هنا سجناء لا يخرج منا أحد ولا يأتينا أحد، فإخواننا العرب في المشرق قد أهملونا، فلا صحافي يزور بلادنا، ولا بعثة تحاول الاقتراب منا، ولا كاتب يريد أن يعرف ما نقاسيه وما يجري عندنا، وكل ما يفعلونه هو لومنا وتأنيبنا ولكن عن بعد.

فبدون تقديم أية مساعدة سياسية واقتصادية أو اجتماعية من القسم العربي في الشرق لا يمكن لطرابلس أن تحافظ على نفسها أمام هذه الوسائل الجهنمية التي تستعملها الحكومة الايطالية للقضاء علينا وإفناء كافة السكان العرب ليحولوا هذا القطر العربي إلى أرض ايطالية.

فإيطاليا قد سارت على خطة استعمارية جديدة، وقد وجهت همها لا لحكم هذه الأرض واستثمار خيراتها، بل لدمجها أرضاً وشعباً في الدولة الايطالية. والدول الأوروبية وافقت على ذلك واستحسنت عمل الحكومة الايطالية، فعلى العرب أن يسرعوا بإنقاذنا، وإذا تأخر الزمن فسوف نكون ضحية القرن العشرين، وستكون نتيجة حكم ايطاليا لطرابلس هي تحويل طرابلس إلى أندلس ثانية، وسوف يندم العرب على إهمالهم، ولات ساعة مندم.

وكنا نكاد لا نصدق أنه يمكن لدولة في القرن العشرين أن تقدم على ما قامت به ايطاليا في طرابلس، وعلى مسمع من العرب، وفي وسط الوطن العربي، بينما مجموع الأمة العربية يفوق عدد الطليان. فبعد أن ودعنا طرابلس بقلوبنا وهي مملوءة المًا لما شاهدنا فيها وما سمعناه من إخواننا أبناء هذا القطر الشهيد، استقبلنا تونس في يوم حدادها الأخير حيث إن حركة نيسان/ابريل (أي الثورة الشعبية التي قام بها الحزب الحر الدستوري) ساقت الألوف من شباب تونس ورجالها إلى السجون، وضرب الحصار على المدينة.

وقد شاهدنا لوناً آخر من الاستعمار، وهو الاستعمار الأحمر إن استطعنا أن نصف الاستعمار الايطالي بالأسود، وقد حاولنا زيارة السجن لنتعرف على بعض رجالات تونس، فلم ننجح في مسعانا، وقد جبنا أكثر مدن تونس، فرأينا وجهاً عربياً غير وجه طرابلس، وجهاً مملوءاً بالقوة والنشاط، وقلباً ينبض، وعقلاً يفكر. فتونس هي أسبق الأقطار المغربية في الثقافة وأكثرها وعياً قومياً، ورغم قلة عدد نفوسها بالنسبة للجزائر ومراكش، فهي تتمتع بمركز الزعامة الفكرية والقومية مع أن إمكانيات تونس محدودة، فهي سورية المغرب من أكثر الوجوه لا سيما من وجهة النفوس والثقافة والثروة الاقتصادية، ففيها ظهر الصراع العربي عنيفاً وطبع بطابع عربي نقي.

ولتونس حكومة محلية ورئيس دولة، هو الباي الذي لا يملك من السلطة المحلية إلا جزءاً مما يمن به عليه المستشار الافرنسي. أما دوائر الحكومة فهي تابعة في عملها الجوهري للافرنسيين وأكثر موظفيها الرئيسيين منهم.

وفرنسا تحاول عزل تونس عن بقية المغرب العربي حتى تحد من تأثيرها الثقافي والقومي، إلا أن الروح العربية تظهر جلية في تونس وتخترق الحصار الافرنسي العنيف. ولجامع الزيتونة الذي يشبه الأزهر في غايته وطريقته فضل كبير على الثقافة الإسلامية العربية في تونس، فهذه المدرسة تلقح الأجيال بالفكرة الإسلامية وتثبت اللغة العربية الضرورية لبقاء الوعي القومي والطابع الإسلامي، كما أن كثيراً من الطلاب العرب من

بقية أنحاء المغرب العربي يؤمون الزيتونة للعلم والثقافة.

ولم تكتف تونس بمدرسة الزيتونة الإسلامية، بل أسست مدارس أهلية حديثة على نمط المدارس الأوروبية، أهمها مدرسة (الصادقية) لتزويد الطلاب بالمعلومات الحديثة الضرورية لدخول الجامعات، فهي بذلك تعاون الزيتونة وترسل كثيراً من خريجيها إلى أوروبا، وخاصة باريس لإتمام الدراسة الجامعية فيها. والروح العربية الإسلامية هي التي تطغى حتى على الشباب الذين قضوا ردحاً من زمنهم في أوروبا واتقنوا العلم واللغات الأوروبية، فهم لا يودون فقدان طابعهم العربي كي لا يضيعوا وتمحى شخصيتهم، وقد بقوا بهذه المحافظة أقوياء صامدين في وجه فرنسا رغم كل طرق استعمارها القديمة والحديثة. وفي تونس حركة سياسية مبنية على تنظيم حزبي، والحزب الذي يقود الحركة الوطنية هو الحزب الدستوري. فهذا الذي عرّف تونس إلى البلاد العربية بهجرة رئيسه وبعض أعضائه، كما ان فروعه الجديدة هي التي قادت حركة المقاومة ضد مشاريع فرنسا الاستعمارية الجديدة، وقد دخل المعركة القوية التي أدت إلى سقوط كثير من الشهداء واعتقال رؤساء الحزب من قبل السلطة الافرنسية وفرض حالة الحصار على العاصمة.

وقبل مغادرة تونس تعرفنا على أحد رجالات الجزائر الوطنيين، وهو الأستاذ بن باديس رئيس جمعية العلماء في الجزائر، وقد امتازت شخصيته بالطابع الإسلامي العربي، وبالجرأة النادرة، فكانت لنا فرصة سعيدة أخذنا فيها بعض المعلومات عن الجزائر قبل سفرنا إليها، وكم كانت دهشتنا عندما أخبرنا أن الاستعمار الافرنسي في تونس يعد رحمة بالنسبة للاستعمار الفرنسي في الجزائر، فعلاقة فرنسا بالجزائر تختلف عن علاقة فرنسا بأي قطر عربي آخر في شمال افريقيا، وحالة الجزائر السياسية، تختلف عن كل الاصطلاحات السياسية، فلا هي منتدبة أو مرتبطة بمعاهدة، ولا ممثلة ولا تحت الحماية أو الاستعمار، وإنما هي أكثر من هذا كله. ففرنسا تريد دمج الجزائر بها وجعلها قطعة أرض فرنسية، وكل القوانين المحلية التي سنت وتسن في الجزائر تهدف إلى هذه الغاية، ولذلك فالجزائر ملحقه بوزارة الداخلية الافرنسية كأنها مقاطعة فرنسية بحتة، كمنطقة مرسيليا وبوردو وغيرها.

بعد هذا الوصف المؤلم أصبحت الرغبة شديدة في الاسراع بالسفر إلى الجزائر لنرى ما يقاسيه إخواننا العرب فيها.

وبعد صعوبات رسمية ومالية وصلنا الجزائر ودخلنا منطقة قسنطينة حيث يقيم أكثر زعماء الجزائر، ومنهم الشيخ ابن باديس، فاستقبلنا ورحب بنا ولم نكن نعلم أنه محاط في كل حركاته بالجواسيس والشرطة السرية، لأن فرنسا كانت تخشى كل حركة عربية إسلامية في الجزائر، فهي تريد أن تعزل الجزائر عن جسم الأمة العربية، ولذلك فلا تتساهل في العقاب، ولا ترحم في الجزاء، والحكام الفرنسيون يفقدون صوابهم إذا ما شعروا أن أحد رجال الجزائر حاول الاتصال بالعرب الآخرين، حتى لو كانوا في تونس أو مراكش، وهم لا يتورعون من أن ينزلوا أقسى العقاب الشديد بمن يقوم بمثل هذه المحاولة. وهذا

ما حدا ببن جلول أحد زعماء الجزائر والذي ذاع صيته في الأقطار العربية بعد ثورة ١٩٣٤ ضد اليهود، أن يرفض مقابلتنا خوفاً من جزاء الحكام الافرنسيين، كما علل ذلك بعض أنصاره وأتباعه. أما بن باديس فقد قابلنا وأوضح لنا كل شيء في قسنطينة، وهو عالم من أن الافرنسيين سوف لا يسكتون على عمله هذا.

وبعد زيارة بعض المدن المهمة في الجزائر مثل قسنطينة والجزائر نفسها، ووهران وتلمسان، رأينا بأم أعيننا ما يعانيه سكان البلاد من الجور والاضطهاد والفقر والجهل. ففرنسا تحارب كل شيء عربي وإسلامي في الجزائر، فكثير من الجوامع التي بنيت بأموال المسلمين اتخذت كنائس بعد اتمامها وإبدال الصليب فيها بالهلال. وكثير من المدارس الدينية وحتى الابتدائية أقفلت بأمر السلطات المحلية أو اتخذت مقراً لبعض الدوائر الحكومية.

واللغة العربية لا تدرس في المدارس لأن خطة فرنسا هي القضاء عليها، وقد كتب لها التوفيق إلى حد كبير حتى إننا شاهدنا بعض العمال في المحطة لا يستطيعون نطق جملة عربية صحيحة دون أن تكون ممزوجة بكلمات فرنسية. فالقلوب التي تنبض عربية، ولكن الألسنة التي تنطق رطناء مرتبكة، وكم يتألم العربي عندما يشاهد البسطاء من الناس من الجزائريين يبكون أحياناً لأنهم لا يستطيعون التعبير بالعربية. والسر في ذلك معلوم فالمدارس العربية ممنوعة أو محاربة بقسوة. أما اللغة العربية فليس لها محل في برنامج المدارس، في حين أن المدارس الأجنبية منتشرة بكثرة في الجزائر لأن الجزائر قطعة من فرنسا. أما الحياة العامة فعليها الطابع الأوروبي، فقد تجد مثلاً في وهران أهم الشوارع العامرة تموج بالمتجولين من الافرنسيين والافرنسيات، ومن النادر أن تجد بينهم نفراً من العرب، فإذا ما تجولت مساء في هذه الشوارع شعرت كأنك تتجول في باريس في الشوارع الكبيرة، فلا تسمع إلا اللغة الافرنسية ولا ترى إلا الوجوه الافرنسية والزي الافرنسي.

وفرنسا لها خطة محكمة في الجزائر، فهي ترسل إليها موجات من الافرنسيين للسكنى والاستيطان، وكذلك تشجع بعض العناصر الأوروبية، لا سيما الاسبانية، للهجرة إليها. والاحصاء الآتي يظهر لنا بجلاء تقدم الهجرة الافرنسية إلى هذه القطعة العربية ذات التاريخ الحافل والكفاح القومي العنيف.

عندما دخلت فرنسا الجزائر كان فيها (٣٠٠٠) أوروبي، منهم (٦٠٠) فرنسي، ولم تمض عليها ثلاثون عاماً حتى بلغ عدد الأوروبيين (١٩٢) ألفاً، منهم (١١٢) ألف فرنسي.

أما اليوم فيقدر عدد الأوروبيين في الجزائر بمليون أو بما يزيد. وقوانين الجزائر تسهل الهجرة والاستيطان. فكل أوروبي مثلاً يقيم ثلاث سنوات في الجزائر يحق له أخذ الجنسية الفرنسية ويعتبر كأنه فرنسي، فيستطيع امتلاك الأرض وتعاطي الأعمال التجارية والصناعية بحرية وبضرائب قليلة حتى ان سجل الاحصاء الأخير يظهر أن الذين يملكون

أرضاً الآن من العرب لا يزيد عددهم عن مليون نسمة في تسعة ملايين، أما الآخرون فيشتغل أكثرهم عند أصحاب الأملاك الأوروبيين، ومعظمهم من الفرنسيين واليهود المتجنسين بالجنسية الافرنسية، كفلاحين صغار، والباقون من العمال الذين يضطرون للهجرة إلى جنوب فرنسا ليشتغلوا عمالاً أو خدماً في المدن الافرنسية، لا سيما في الموانئ. ومن زار مرسيليا ورأى حالة أبناء الجزائر فيها يستطيع أن يتصور ما يعانيه سكان الجزائر من الفقر والآلام. وكل هذا الضغط لم يستطع قتل الشعور الإسلامي العربي في الجزائر، كما ان أبناء الجزائر استطاعوا تنظيم صفوفهم، فقد كونوا جمعية العلماء التي أخذت على عاتقها إحياء اللغة العربية ونشر تعاليم الدين الإسلامي، إما بواسطة الجوامع وإما بواسطة المدارس الليلية. فهم يأخذون طلاب وطالبات المدارس خارج الدوام الرسمي ويدرسونهم اللغة العربية وبعض الأناشيد الوطنية وأصول الدين.

واستطاع مصالي الحاج أن ينظم حركة العمال ويوجد منهم جبهة شعبية تطالب بحقوق العامل العربي (الجزائري). وقد قاسى الاضطهاد والسجن والتعذيب ولكنه ما زال سائراً على خطته متحملاً كل التبعات بصبر وحزم، ومهما حاولت فرنسا فصل الجزائر عن بقية أقسام المغرب العربي فلن تستطيع، فهي فلسطين المغرب العربي وستبقى عربية كأختها فلسطين المشرق ما دامت محاطة بتونس ومراكش وما دام الشعور العربي قوياً في نفوس أبنائها، وروح الثورة الجزائرية هي السائدة رغم تماثيل جان دارك والقواد الفرنسيين الكثيرة التي أقامتها فرنسا في بلاد الجزائر.

يعجب المرء عندما يلاحظ فرنسا التي قست في حكمها في تونس وطغت في تصرفها في الجزائر أن تظهر بمظهر الدولة السياسية ذات الهدوء النسبي بمراكش. والسر في هذا العجب هو وجود عاملين مهيمنين في مراكش، **الأول** هو أن فرنسا لم تستطع اخضاع هذا القطر العربي الذي اشتهر بعنفه في القتال وصبره على الشدائد إلا بالحيلة السياسية، وهي عقد معاهدة معه واعترافها بالاستقلال الذاتي له، أما العامل **الثاني** فهو تدخل الدول، لا سيما الكبيرة منها، في قضية مراكش، فهذه القضية كانت موضع اهتمام السياسة العالمية وكادت تكون قضية مراكش سبباً مباشراً في اعلان الحرب العالمية الأولى. وفرنسا صرفت جهوداً سياسية كبيرة لربح معركة مراكش السياسية، فقد أقنعت المانيا قبل الحرب الماضية بالتنازل عن مراكش، وبالأحرى باطلاق يدها فيها بأن أعطتها بعض الأراضي بافريقيا ومقادير من المال. وقد أرضت انكلترا بأن تنازلت فرنسا عن كل مطمع أو تدخل في مصر لقاء اعتراف انكلترا لها بهذه السيطرة في مراكش. واضطرت أخيراً لإرضاء اسبانيا، وذلك باحتلالها جزءاً مهماً لها في مراكش، وهو القسم المقابل لإسبانيا (الريف) لقاء سكوتها، أما الدول الأخرى التي ليست لها علاقة مباشرة بمراكش وليس لها من القوة ما تهدد به فرنسا أو تساوم به على احتلال هذه الأرض الغنية، فقد اكتفت بأن جعلت مدينة طنجة منطقة دولية تشترك أكثر الدول الكبرى في إدارتها وتكون ميناء مفتوحة للجميع. وبهذه الجهود السياسية والدبلوماسية استطاعت فرنسا أن تثبت أقدامها في مراكش وأن تستثمر أرضها وتستغل كل قواها، لا سيما البشرية منها.

فمراكش مهمة لفرنسا لأنها تحد بالجزائر ولأنها تقع على بحرين عالميين مهمين، كما أنها غنية بأرضها، فتعد مراكش لها كالهند لانكلترا. زد على ذلك أن مراكش غنية بالرجال الذين اشتهروا بالشجاعة والإقدام حتى أصبحوا مضرب الأمثال، ولهم الفضل الكبير في تسجيل الانتصارات للجيوش الفرنسية في كافة الحروب، ففرنسا كانت ترسل الفرق المراكشية في الحروب العالمية إلى أخطر المواقع الحربية، وهم وحدهم الذين كانوا يرهبون الأعداء حتى أصبح الالمان يصفونهم بأنهم (أي المراكشيين) لا يفهمون الموت ولا يرهبونه.

ورغم تودد فرنسا لسلطان مراكش وإظهار العطف عليه وعلى بعض العناصر الموالية في بلاده بقيت غير مطمئنة من العرب في مراكش وجربت طريقتها الاستعمارية المعلومة، ولكن بخطوات، فهي قد قضت تدريجياً على كل أثر للاستقلال في مراكش، واستطاعت أن تفصل بينها وبين اخواتها الأقطار العربية الأخرى في شمال افريقيا، لا سيما في الجزائر وتونس، كما انها كانت قاسية جداً في معاملة الوطنيين من العرب، ولا تتوانى في إنزال أشد العقوبات بكلّ عربي تحدثه نفسه بالمطالبة بالاستقلال أو الوحدة، سواء كانت الوحدة الصغيرة، أي وحدة القطر المراكشي أو الوحدة الثانية، أي وحدة شمال افريقيا. حتى إن الحكام الفرنسيين نفوا كثيراً من أبناء العرب الأبرار إلى الصحراء دون أن يراعوا حرمة بشرية أو يخشوا تدخلاً سياسياً. ولكن كل هذه القسوة لم ترغم العرب على الخضوع للسلطة الفرنسية. فأبناء مراكش يعتزون بعروبتهم وإسلامهم، ويفخرون بأنهم استطاعوا تحت ظل الراية العربية اخضاع اسبانيا واحتلال قسم من فرنسا نفسها، واستطاعوا حتى في أيام ضعفهم أن يوقفوا توغل الاسبان ويصدوا حملاتهم العنيفة عندما استطاع الاسبان طرد العرب من الأندلس، ولم يخضعوا حتى للدولة العثمانية التي أخضعت أكثر أقسام الوطن العربي. فهذه البطولة والتاريخ الحافل هو الذي يدفع أبناء مراكش رغم تساهل فرنسا النسبي معهم للمطالبة بالاستقلال التام ومديد المساعدة لبقية أقسام المغرب العربي. ومراكش لا تعتز بقوتها العسكرية وشجاعة أبنائها فقط، بل تفخر بخصب أرضها وثروة جبالها وسهولها وبمعالم العمران القديم والحديث الذي ساهمت في إيجاده وطبعه بالطابع المغربي الجميل. أما النهضة العلمية فهي بدرجة مرضية رغم مقاومة فرنسا لها. وكل هذه الصفات تشجع العربي في مراكش لأن يثابر على المطالبة بالاستقلال ويستطيع تحمل مسؤولية الوحدة المغربية.

أما نصيب الريف، أي القسم الذي احتلته اسبانيا واقتطعته عن جسم الوطن المراكشي، فلم يكن بأحسن من نصيب الأقسام الأخرى، لأن الدولتين المستعمرتين تنتميان إلى أصل لاتيني واحد. ولهذا فهما تشتركان في أكثر الصفات الخلقية، لا سيما الحقد الديني ضد المسلمين. زد على ذلك فإن مصلحة الاستعمار المشتركة ترغمهما رغم التزاحم والتنافس بينهما إلى التعاون التام ضد كل حركة تحررية في البلاد العربية، وهذا ما حدا بفرنسا لأن تقدم كل مساعدة لاسبانيا للقضاء على حركة عبد الكريم الريفي التي كادت أن تقضي على نفوذ وسلطة اسبانيا في الريف. وتراجع الإسبان إلى ما وراء جبل طارق، ولكن فرنسا هي التي أنقذت اسبانيا وشلت حركة عبد الكريم، وأخيراً نفته إلى

إحدى جزرها في المحيط الأطلسي.

ومقدار ضغط اسبانيا على الريف يختلف باختلاف قوتها وضعفها. ففي الوقت الذي تكون قوية تظهر حقدها الشديد الذي أكل قلبها منذ أيام فتح الأندلس. فبدأت كنيستها تشن حرباً صليبية ثانية، ولكن بصورة انتقام على أبناء العرب المسلمين. أما في وقت الضعف فتظهر أنها لا تزال تعترف للعرب بفضلهم العلمي والعمراني على بلادها، وأن الكثيرين من رجالها ينتمون إلى أصل عربي، وما شابه ذلك من الأقوال التي لا يقصد منها إلا كسب الود والوقت والمرور بالعاصفة العالمية بسلام واطمئنان. والعرب في الريف يعرفون ذلك ولكن امكانياتهم قليلة، فأرضهم قاحلة والصلة بينهم وبين أقسام المغرب العربي ضعيفة أو مقطوعة، وفرنسا لا تشجعهم، بل لا تسمح بذلك، وقد خانتهم عندما أوشكوا أن يخلصوا بلادهم من الاستعمار.

أما مساعدات الدول العربية، لا سيما الشرقية منها، فهي معدومة. فلم تقم هذه الدول من قبل، لا سيما بعد الحرب العامة الأولى بأية محاولة للاتصال الرسمي بالأقطار العربية، كما تفعل الدول الصغيرة مع بني جنسها في الأقسام الخاضعة لدول أخرى. ولذا فإن عرب المغرب يلومون عرب المشرق، فإن أبناء عرب المشرق، رغم استطاعتهم ايجاد الصلة في ما بينهم وتكوينهم دولاً لها صفة عالمية محترمة، لا يبذلون جهداً يذكر من أجل عرب المغرب. فإذا بقيت الدول العربية في الشرق العربي لا تعتني بعرب المغرب، فسوف لا تسجل أي نصر محسوس في سياسة الأمة العربية، وحتى في سياستها المحلية الضيقة. وكل ما يطلبه عرب المغرب هو كثرة زيارة اخوانهم لهم ليروا بعينهم قوة المغرب وتأثيره على سير الأمة العربية، وأن لا ينسوا في كفاحهم السياسي المغرب العربي الذي يعد الجناح الأيسر للأمة العربية. فالأمة لا تستطيع أن تقوم بواجبها القومي وتساعد أجزاءها على النهوض والتخلص من نير الاستعمار ما لم تخطُ الخطوة الأولى، وهي التعرف التام على حالة الأقسام العربية. فهذا التعرف هو الذي يوجد الوعي القومي ويدفع الشعب العربي إلى الاهتمام بقضاياه الحيوية. وهذا ما يطلبه عرب المغرب من اخوانهم عرب المشرق الذين أصبحوا بحالة سياسية تمكنهم من أداء هذا الواجب. فالقومي لا يستطيع أن يحمل هذا اللقب ما لم يعرف كافة أجزاء وخصائص الأمة التي ينتمي إليها، والحكومة القومية مسؤولة عن هذه الخطوة الأولى في بناء الكيان القومي، وهذا الاهمال هو السر في ضعف عقيدتنا القومية الآن.

الإنسان غاية ووسيلة(*)

بديع الكسم

رسالتنا تحقيق الإنسان، بجوهره السماوي وأصالته الخالقة، في كل فرد عربي. وهي، بذلك، دعوة العرب جميعاً لأن يعيشوا النموذج الإنساني الأمثل كيما يردوا إلى العالم ثقته بنفسه وإيمانه بالخير.

فالإنسان إذن ـ أي كل إنسان ـ هو غاية الغايات. وبهذا نطرح الفردية الجامحة، لأنها في الحق فردية منهزمة تخشى «الآخر» ـ المجتمع ـ وتعجز عن أن تشاركه الحياة، والحب.

الفردية عدوة الإنسان. إنها لا تربح الحرية، حرية التراخي والخور، إلا لتخسر القيمة، تلك التي تبرر كل وجود. وأما حق الفرد فليس إلا ثمرة عطائه. إنه هبة المجتمع الذي ينتظم على العدل لأنه يتغذى بالواجب والتضحية والوعي.

نريد أن يتحقق الإنسان. ولكننا ما أردنا أن يكون ذلك في مجموعة من المثل أو جهاز من المبادئ. إنا ما أردنا أن نعتصم بالذهن لنُسقط الأماني على الفراغ. وإنما عرفنا أننا نعمل ضمن شروط عينية راهنة، وأن علينا أن نرسم بأهدافنا أطر الحياة العربية على الأرض، في الشعب العربي، في كل فرد عربي. لذلك آمنا أن غاية الإنسان لا يحققها إلا الإنسان نفسه. إنه الهدف والأداة؛ الغاية والوسيلة.

وهنا تبرز المشكلة الكبرى. هل نملك في الفرد العزل، تلك الأداة الطيبة التي لا يتم بدونها شيء؟ إن الآلة المنتجة فعلاً لا تستطيع أن تكون من ورق...

لا حرج علينا هنا أن نعترف، لأن الوعي نقطة الانطلاق الصحيح.

إن الفرد العربي عامة ـ ما عدا قلة نعقد الأمل على إمكانياتها ـ قد أدرك أن

(*) نُشر في: البعث، ١١/٨/١٩٥١.

الإنسان هو الغاية، ولكنه لم يدرك بعد أنه الوسيلة أيضاً. فهو ينتظر «المعجزة» كيما يتحرر ويتحسس معنى الحياة. إنه يطلب من غيره أن يعيد إليه حقه وكرامته. والمصيبة أن غيره يطلب منه، هو، مثل ذلك. إنه مريض يتوق إلى الصحة، ولكنه يلح على أن يكون الدواء مستلطفاً حلواً، وأن يكون العلاج رفيقاً هيناً فلا يُلزمه بقلب أسلوب حياته. وذلك عرض خطير يكشف عن فقدان الحيوية، أو بكلمة أصدق شلل إرادة الحياة.

ونحن نلمس كل ذلك في خور الحياة الروحية التي يحياها شعبنا المريض. ففي مجال الفكر نجده يخاف الجهد العقلي، ويستسلم إلى التسلية الذهنية... الفارغة. إنه يفضل أن يتفرج.. من بعيد إذا لم يجد في ذلك ما يتطلب منه استمرار التوتر. وهو فوق ذلك يخشى مجابهة الواقع وجهاً لوجه ليصرف جهوده في الفرار منه والتعامي عن خطره، وفي مجال الحياة الخلقية نجده مستصعباً مشاق الجرأة والبطولة والتضحية. فهو لا يريد أن يقول للظالم إنك ظالم لأنه لا يريد أن يثير المشاكل التي تسبب له الصداع.. لقد ارتاح إلى الحياة الهادئة هدوء الشلل السهلة سهولة الانهزام.

ومن هنا كانت الخطوة الأولى للعمل المنتج، هي خلق الأداة الصالحة للعمل. نريد أن يدرك كل عربي أنه هو نفسه الوسيلة الوحيدة لخلاصه. نريد أن يؤمن بأن كل فرد مسؤول عن كل فرد. ذلك أن هذا المبدأ هو المحك الذي يميز الرجال من أشباه الرجال.

نحو مجتمع عربي أفضل:

التجزيئية في المجتمع العربي(*)

نازك الملائكة

«إننا نريد مجتمعاً تتنفس فيه الطاقة الإنسانية المبدعة وتخصب وتمرع، مجتمعاً يرتبط فيه القانون والأخلاق والعمل جميعاً بالحاجة البشرية، فهذا هو المجتمع الأفضل الذي ينبغي أن نتطلع إليه».

ـ ١ ـ

لو سئلنا أن نَصِف المجتمع العربي المعاصر بكلمة جامعة تعبر في إيجاز ووضوح عن حالته الحاضرة، لوصفناه بأنه مجتمع «قلق»، ولأمدتنا الكلمة بمعان واسعة تشمل مختلف الجهات العملية والانفعالية والذهنية لهذا المجتمع. والقلق من وجهة النظر الاجتماعية نذير عاطفي يرفع صوته ليدلنا على أن جهة من حياتنا قد فقدت نقطة ارتكازها وبدأت تنهار. فهو أشبه بجرس خطر ترسله أعماقنا الصامتة وترمي به إلى إنذارنا. إننا نقلق، لأننا قد بدأنا نملك وعياً بحياة أسمى من الحياة التي نحياها، وكأننا قد بدأنا نتجزأ إلى كيانين أحدهما يدرك الحاضر والآخر يدرك مستقبلاً حياً يجعله يقارن وينفعل ويبدأ بالاحتجاج. فالقلق ليس إلا رد فعل صحّي نواجه به نقص حياتنا. إنه أشبه بالحمّى التي يقابل بها الجسم الصحيح طلائع المرض المهاجم.

وهذا القلق يتخذ أشكالاً مختلفة، منها الشكل البسيط الذي يعانيه الأفراد على صورة توتر نفسي مستمر، ومنها أشكال معقدة أبرزها ما سنسميه هنا بقلق المقاييس ونعني به تأرجح نظمنا وعدم ارتكازها إلى مستند نظري ثابت. فنحن اجمالاً قوم حائرون

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٢، العدد ٥ (أيار/مايو ١٩٥٤)، ص ١ ـ ٦ و٧٦ ـ ٧٨. وهو في الأصل محاضرة ألقيت في بيروت، مساء السبت الواقع في ١٠ نيسان/ابريل ١٩٥٤ بدعوة من هيئة المحاضرات العامة التابعة لجمعية المقاصد الإسلامية في بيروت، من سلسلة «نحو عالم عربي أفضل».

لا نملك آراء مستقرة ولا نثبت على خطط، وحتى إذا أتيح لنا أن نختار خطة عامة فسرعان ما نتركها قبل أن نبلغ النتيجة. وما هذا إلا لأننا ننظر إلى الموضوعات من مستويات متعددة تتجاذبنا فتتداخل أحكامنا وتتعدد ارتكازاتها. وليس أكثر ضياعاً من مجتمع يسمح لوجهات النظر المتعددة أن تنفذ إلى حياته. فالحياة ملأى بالمفاهيم المتناقضة وما من فكرة نؤمن بها، إلا وهناك فكرة معاكسة تعارضها. إن سلوكنا، في هذه الحالة، يفقد النقطة التي يمكن أن نقيسه وفقها، ولهذا لا يمكن أن نقيسه. وهو في هذا يشبه «السرعة» التي يستحيل أن نقيسها ما لم نملك نقطة ثابتة في مكان ما، فإذا لم يكن ثمة ثبات لم يمكن لنا قياس سرعة. وهذا الثبات المفقود في حياتنا يحرمنا من أن نتمسك بأي حكم، فلكل قضية فيما يلوح لنا وجهان متعاكسان. ومن هذا التقلقل الفكري العام تنشأ الظاهرة الكبرى التي تتغلغل في حياتنا كلها. وهي الظاهرة التي نختار أن نسميها بالتجزيئية، ونقصد بها جنوحنا إلى عزل الظواهر عن بعضها ودراستها مفصولة، وكأننا نفترض أن حياتنا تتكون من مجموعة من المجالات المتضاربة التي اجتمعت مصادفة في خليط. فنحن قد اعتدنا أن نلتقط من كل مستوى من مستويات الفكر نقطة نسلط عليها الضوء وندرسها معزولة عن سائر النقاط، فبدلاً من أن ندرس مشاكلنا باعتبارها محصلة لمختلف القوى، نعمل على عزل هذه القوى عزلاً قاطعاً، فنتناول اللغة، وكأنها عنصر مفصول عن الدين، ونرى للسياسة كياناً منفصلاً عن قضايا الفن، ويخيل إلينا أن العلوم دائرة معارضة لدائرة الآداب، وتلوح لنا الشؤون الاقتصادية بعيدة عن شؤون الجمال والعواطف. وهكذا تنتهي بنا كل دراسة إلى زاوية ضيقة نصدر منها أحكاماً مصطنعة تزيدنا حيرة وارتباكاً.

والحق أننا نكاد ننسى أن حياتنا ليست في حقيقتها غير ترابط متين يشد هذه العناصر كلها في وحدة وثيقة، حتى تكاد كل ظاهرة أن تحتوي في عالمها الأصغر على صورة كاملة للظواهر الأخرى. إن بين مختلف العناصر التي تتألف منها حياة المجتمع علاقة تشبه قانون السبب والنتيجة، فكل عنصر إنما هو نتيجة للعناصر الأخرى وسبب لها أيضاً.

إن تشبيه المجتمع البشري بالكائن العضوي ليس تشبيهاً عاطلاً. وأحد أوجه الشبه أن أي نمو في وظيفة من وظائف الجسم الاجتماعي لا بد أن يكون مصحوباً أو متبوعاً بنمو مماثل في الوظائف الأخرى. كما أن درجة التعقد في الوظيفة الواحدة يمكن أن تُعَد مظهراً دالاً على تعقد الوظائف الأخرى. وينشأ هذا عن تداخل الوظائف التي توشك أن تشبه الأواني المستطرقة التي تستوي فيها سطوح السوائل، فما تكاد إحدى الجهات تعلو حتى يتسرب العلو ويتوزع على الجهات الأخرى. وهكذا فإننا لا نبعد كثيراً عن الحقيقة عندما نحكم بأن ثورة في أساليب العمل يحدثها مصنع صغير للكراسي، لا بد أن تصحبها على وجه ما ثورة في نواحي الحياة الأخرى. وهذا لأن الثورة في مصنع الكراسي لا يمكن أن تكون قد نبتت نباتاً سحرياً في لحظة من الزمن، وإنما هي نتيجة اجتماعية معقدة لعشرات من الأسباب التي لا بد أن تكون قد مست في تطورها جهات

المجتمع الأخرى. هذا فضلاً عن تأثير هذه الثورة في مختلف المجالات التي تمسّها. وإذا ضربنا لهذه النقطة مثلاً نختاره من الفن، استطعنا أن نقول إن الفنان الذي يثور على القيم الباهتة في دائرة فنه ويحل محلها قيماً أخرى جديدة إنما هو في آن واحد مظهر لثورة تتهيأ في جهات أخرى من المجتمع، وعامل مؤثر لا بد أن يؤدي إلى ارتفاع المستوى في سائر النواحي. وذلك لأن من طبيعة المجتمع أن تتوازن فيه القوى كما تتوازن سطوح السوائل، فما تكاد جهة معيّنة فيه تتطور وتصعد في نموها حتى تتوتر الجهات الأخرى وتتصدع أسسها وتبدأ بالانفجار.

والنتيجة المباشرة لهذا الاتجاه التجزيئي هي ظاهرة (التضخيم) التي نلمسها في مختلف نواحي حياتنا. فنحن نمنح بعض الظواهر قيمة أعظم مما تستأهله إلى جانب الظواهر الأخرى، فنضخم أحد عناصر المجال تضخيماً شديداً لا نفطن إليه لأننا قد عزلنا هذا العنصر عن سائر العناصر. وخير مثال لهذا ما نراه اليوم من حدة الاتجاه إلى اعتبار السياسة هي الموضوع الوحيد الذي ينبغي أن يشغل ذهن المواطن العربي، حتى يكاد الفرد الاعتيادي يؤمن إيماناً قاطعاً بأن كل نشاط آخر غيرها إنما هو ترف بالنسبة إليها، خاصة ما تعلق بشؤون اللغة والفن والجمال.

إن هذا الأسلوب في التقييم ينمّ عن إيماننا بإمكان قيام المجتمع على ظاهرة واحدة فيه، بحيث تصبح هذه الظاهرة مقياساً نحكمه في الظواهر الأخرى. ونحن كلنا قد قابلنا نموذج الرجال الذين يرفضون الفن في احتقار لأنه لا يطعم خبزاً. وهم في الحق يذكروننا بالأسلوب الذي ناقش فيه (فولستاف) قيمة الشرف في بعض مسرحيات شكسبير. فقد وقف يفلسف الشرف على الأسلوب التالي: «أفي وسع الشرف أن يداوي ساقاً؟ كلا. أو يداً؟ كلا. أيشفي ألم جرح؟ كلا. الشرف إذن لا يفيد في الجراحة؟ كلا. إذن فما حاجتي إليه؟». وهذا مطابق تماماً للحجج التي يوردها معاصرونا رداً على كل نشاط لا يتعلق بشؤون الحياة المعاشية. فكما أن الشرف من وجهة نظر الجراحة عاطل من المعنى، كذلك يبدو الفن الذي لا يستطيع أن يساهم في الانتخابات ولا أن يعدل معاهدة. وإنما ينبع الخطأ في حالة (فولستاف) وحالتنا من التضخيم الذي نختار أن نصبه على جهة واحدة من جهات مجال واسع، بحيث تستحيل هذه الجهة مقياساً نحكمه في سائر الجهات، بدلاً من أن نعثر على المقياس الكبير الذي يتحكم في الجهات كلها. فالشرف والجراحة والشعر والسياسة كلها أشياء ضرورية في حياة المجتمع، ومن السذاجة أن نتخذ واحداً منها مقياساً لفائدة الآخر. وذلك لأن هناك مقياساً واحداً يتحكم فيها كلها وهذا المقياس هو الإنسان.

ـ ٢ ـ

إن المظهر الأول للتجزيئية في المجتمع العربي هو أنه ما زال في صميمه مجتمعاً محافظاً، على الرغم من كل ما اعتراه من تطور في المظاهر. فإن التطورات قد دهمته كما

تدهم موجة جارفة، فانغمس فيها دون أن يغير اتجاهه الداخلي. ومن ثم فإن النواة ما زالت تحتفظ بشكلها على صورة نظم وقوانين. أو بكلمة أخرى، إن الذي تغير هو الظروف فحسب، أما الأسس فما زالت هي الأسس التي عرفها أجدادنا منذ قرون طويلة.

والمحافظة مرتبتان، مرتبة يكون فيها الإنسان المحافظ مختاراً يحكّم حاجاته في موقفين فيختار أحدهما، ومرتبة أخرى واطئة تصبح فيها المحافظة إجبارية. فالمرتبة الأولى إيجابية وهي قد تكون صفة المجتمعات الفتية العاملة. أما المرتبة الثانية فهي ملازمة للمجتمع الهرم، وهي أشبه بالتكلس الذي يعتري شرايين رجل شيخ. أو لنقل إن المحافظة في هذه الحالة ضرب من الشيخوخة، وامتدادها عبر القرون يتضمن فصلاً تاماً بين ظروف أمة وقوانينها. وهو فعل لا يستند إلى حجة فكل وجهات النظر تدحضه.

فمن وجهة النظر البايولوجية يبدو أن المحافظة مخالفة لخط النمو الذي تفضله الحياة الكاملة لأنها في حقيقتها نوع من السكون يعتري العقل الإنساني. إننا حين نقدس المقاييس التي انحدرت إلينا جاهزة، إنما نقر برغبتنا في ألا نعكر الراحة التي يتيحها لنا هذا التقديس. والحق أن التقديس يمثل بالاعتبار البايولوجي النقطة المنخفضة في موجة الحياة. لقد خُلق الذهن الإنساني ليتجدد بالآراء الجديدة تجدداً أبدياً، وهذا التجدد ضروري لأنه ينميه ويمنحه المرونة وقابلية البقاء، ومن ثم فإن سكون المحافظة لا بد أن يكون مضراً به. إن السكون ينبغي أن يكون فاصلاً بين حركتين، وهذا هو المقياس البايولوجي. إنه كالنقطة المنخفضة في الموجة فائدتها أنها تهيئ لقمة جديدة. والموجة عندما تتريث في نقطة منخفضة إنما تجمع طاقتها للحركة التالية. وكذلك المحافظة فهي في الحقيقة فترة تجمّع يهدأ خلالها الذهن الإنساني ليقفز القفزة التالية. فإذا طالت هذه المحافظة قروناً دل الأمر على أن المجتمع قد هرم. إن الموجة التي تبقى في نقطتها السفلى لم تعد موجة على الاطلاق.

وهكذا تصبح المحافظة تحدياً للحياة وإلحاداً بها، لأنها عندما تفرض فكرة جامدة على حياة إنسانية متطورة تعمل قبل كل شيء على أن تشل العقل وتسلمه إلى السكون. وهي لا تتوصل إلى هذا إلا بأن تفصل الإنسان الواحد إلى جزءين في أحدهما الاندفاعة الاجتماعية العمياء، وفي الآخر العقل المتقاعد الذي تراكم عليه الغبار فوق رفّ مهجور. وهكذا ينتهي بنا التقديس إلى أن يتجزأ الإنسان مع أنه في الأصل كلٌ متماسك ينمو صاعداً في اتجاه قواه الفطرية كلها. وليس خافياً أن هذه التجزئة التي يسببها المجتمع تدل على أن هذا المجتمع لم يعد كفؤاً لحماية الجماعة. فالمجتمع الذي لا يضمن تطبيق قوانينه العامة إلا باللجوء إلى تقسيم الإنسان الواحد إلى أجزاء مختلفة، هو حتماً مجتمع مختل.

والاعتراضات التي نحصل عليها من وجهة نظر التاريخ لا تقل صلابة. فالمحافظة في نظر التاريخ تتضمن الفصل بين النظم والزمن. وهذا مخالف للمفهوم التاريخي للقانون وهو مفهوم تطوري ينشأ عن الانسجام التام بين العوامل البيئية والقوانين المفترضة لسير

الحضارة، فلكل ظرف زماني قوانينه الخاصة. إن القوانين التي تناسب الظروف كلها لا بد أن تكون قوانين يتغلب عليها عنصر العمومية وتتعالى عن التفاصيل، كتلك الأقفال التي تفتحها المفاتيح كلها. إنها قوانين غير تاريخية تتعلق في الفراغ بلا زمان ولا مكان. يضاف إلى هذا أن استمرار نظمنا القديمة على ملاءمة حاجاتنا يدل في وقت واحد على عموميتها وعلى سذاجة حاجاتنا.

والحق أن القوانين من وجهة النظر التاريخية إنما هي أفكار ذات ثلاثة أبعاد: بمعنى أنها تلائم مكاناً ما في زمان ما فحسب. ولا ينشأ التاريخ القومي إلا من تطور هذه الأفكار ونموها الدائم مع العصور، بحيث يمكن أن نقول على وجه ما إن التاريخ هو البعد الرابع للقانون. وهذا يجعل جمود القوانين على شكل معين استمراراً لوضع ذي ثلاثة أبعاد، وهو ما لا يمكن قبوله تاريخياً.

أما وجهة النظر القانونية فهي تضع أيدينا على مكان الجرح، وتدلنا على سر الأزمة النفسية التي يعانيها الفرد العربي في هذه الفترة من حياته. إن هناك تعارضاً مستمراً وتصادماً لا ينتهي بين المجال المفترض لسلوك الأفراد وحقيقة هذا السلوك. والسبب في هذا التعارض أن الجهة النظرية من السلوك قد اكتملت واكتسبت عقوباتها في زمن، بينما يكتسب السلوك الواقع شكله من متطلبات زمن آخر لا علاقة له بالزمن النظري. أو لنقل إن العقوبات تنتمي إلى دائرة أخرى غير تلك التي تحدد السلوك.

إن دراسة موضوع العقوبات الاجتماعية لا بد أن تنتهي بنا إلى تلك المنطقة الحساسة التي تعارفنا على تسميتها بالضمير. ونقصد بها مجموعة النواهي والزواجر المقبولة في مجتمع ما. والمجتمع يتناول أفراده منذ مولدهم فيغرس فيهم مبادئ ضميره بتفاصيلها، حتى إذا ارتكب الفرد عملاً مخلاً وأخطأته العقوبة القانونية تناولته عقوبة أعماقه. فالضمير على هذا منطقة اجتماعية تكمن في أعماقنا، وهي منطقة مسوّرة لا تستطيع اقتحامها. إن المجتمع يقفلها بنفسه.

وهذه الحصانة التي يملكها الضمير تجعله قوة مخيفة في وسعها أن تهدم الحياة وتبنيها. والأمر يتوقف على نوع محتوياته. ففي المجتمع الفتي الذي يستمد عقوباته من إمكانيات الظروف القائمة يصبح الضمير قوة خير خصبة تدفع بالأفراد إلى الحيوية والحماسة وغنى الروح. أما في المجتمع المتحلل فهو يصبح طاغية مستبداً يصب العذاب على الأفراد لأنه يستند إلى تفاصيل تعارض ظروف الحياة التي تتاح للأفراد. وهذه هي حالة مجتمعنا العربي المعاصر، فهو يمر بمرحلة يتعارض فيها الضمير مع الظروف القائمة. والفرد الذي يعيش في مثل هذا المجتمع يحتمل بالضرورة وخز ضميره دون ذنب، لأن الظروف التي تسوقه إلى ارتكاب العمل هي نفسها التي تحرض عليه ضميره. وهذه الحالة لا تُقبل من وجهة نظر القانون، فالأصل في كل عقوبة أن تكون مستمدة من الظروف البيئية والطبيعة الإنسانية.

والحالة تثير اعتراضات مماثلة من وجهة نظر الاجتماع. وذلك لأن الغرض

الأساسي من وجود المجتمع هو حماية الأفراد، وهذا الغرض يبدو مفقوداً في حالتنا هذه. إن المجتمع الذي يسلط على أفراده ضميراً أحمق مستبداً، إنما هو عدو للفرد بدلاً من أن يكون صديقاً له يعينه على إبراز مواهبه ويؤدي به إلى طريق الغبطة والعمل. فهو يتطلب منه أشياء لا يبيحها مندوبه السري: الضمير، ويحيط الأفراد بظروف تضطرهم إلى الاخلال بواجباتهم المفروضة، ثم يعاقبهم على هذا الاخلال وفق القواعد القديمة، فكأنه في هذه الحالة يخونهم، كذلك الملك الطاغية الذي كان يسقي رجال حاشيته الخمر ثم يجلدهم لأنهم يترنحون.

إن المجتمع في هذه الحالة يستحيل إلى اثنين: واحد يملي الأعمال على الأفراد، والثاني يصدر الأحكام والعقوبات. أو إنه ينقسم إلى أعمال تقف في جهة، وأحكام تصدر من جهة أخرى. ومعنى هذا أن شطراً منه هو الذي يرتكب الاخلال والشطر الثاني هو الذي يتلقى العقوبة. وكل هذا ينتهي حتماً إلى أن المجتمع قد تفكك وتخلى عن وظيفته الأساسية، فلم يعد كياناً موحداً تنمو عناصره كلها في اتجاه واحد، وإنما بات كل عنصر فيه يتجه إلى جهة خاصة في فوضى وارتباك.

ولا يقف عجز المجتمع عن حماية أفراده عند حدوده السلبية وإنما يتعداها إلى عرقلة نموهم بالضجيج الذي يحدثه ضميره الهرم، ولذلك ينبغي ألا يتحول الضمير إلى قطعة جامدة عمياء تقبع في أعماقنا معتصمة بالظلام. إن الضمير ينبغي ألا يكون عنكبوتاً. وعلى المجتمع أن يعمل على تطوير محتوياته تحاشياً لثرثرته وإلا فهو يظل يصرخ في أعماقنا ويخلق لنا عشرات من المشاكل. فهو على أثرنا أبداً، لأنه ينبع من أعماقنا الاجتماعية. وهذه الأعماق ليست ملكاً لنا.

ـ ٣ ـ

وإذا انتقلنا إلى ميدان الأخلاق صادفنا الاختلال نفسه، والأخلاق هي في الحق الجانب الفردي من القانون، ولذلك فنحن نجد هنا السمات العامة التي وجدناها هناك، من تجزيئية وتضخيم لظواهر معينة.

وأول ما نلحظه أن الأخلاق العربية تقيم هاوية سحيقة بين العقل والعاطفة. فالمجتمع العربي ما زال محتفظاً بالميل القديم إلى اعتبار العواطف شيئاً مناقضاً للتفكير والتعقل، ولم يزل يعدّ كبت المشاعر مظهراً ملازماً للحكمة. إنه يعتقد أن بين العقل والاحساس حرباً لا نهاية لها، وأن الإنسان الذي يستحق الاعجاب هو الذي يسيطر على أحاسيسه ويخلو من العواطف. والمثل الأخلاقي العربي الذي يجعل من الرقة ضعفاً ما زال ملموساً في حياتنا العاطفية، حيث نجد الرجل المعاصر لم يزل يحتقر أن يذرف الدموع حتى في أدق الحالات. كما أنه على العموم يترفع عن الجهر بالحب ويعتبر هذا جانباً ليناً في حياته ينبغي أن يطوى. وتبلغ هذه العقيدة درجتها القصوى كلما انحدرنا نحو الطبقات الشعبية العامة، فهناك سنجد النموذج المفضل للرجل نموذجاً قاسياً، حتى يكاد

أغلب الرجال يفخرون بمقدرتهم على تعذيب قطة أو انتزاع عنق عصفور. وما هذا إلا لأن العامي يعد الرقة والحساسية والشفقة مظاهر نسائية... وهو يجب أن يكون رجلاً.

إن هذا الفصل بين العاطفة والتفكير يرتكز في أساسه إلى النظرة القديمة التي كانت تزعم أن الإنسان مقسّم إلى أجزاء بعضها خيّر وبعضها شرير. وهذه النظرة لا تملك معنى من وجهة نظر علم الحياة، فالإنسان متماسك، وتقسيمه أمر مستحيل علمياً. والحق أن للعواطف قيمة بايولوجية عظيمة في حياة الإنسان، ومن دونها تتوقف الحياة. وقد وجدت مشاعر الفرح والحزن والحب والمقت والقلق والشوق والطموح والغيرة لا لتكون قيوداً للإنسان، وإنما لتؤدي وظيفة فيزيولوجية رئيسية. وهذا يجعل مبدأ العقل المجرد مستحيلاً. إننا عاطفيون لأننا نحتاج إلى أن نكون عاطفيين. أما أن نحاول قتل عواطفنا فهو يؤدي حتماً إلى أن نضيق إمكانياتنا الإنسانية.

هذا فضلاً عن أن الحكم بالشر والنقص على جهات معينة من الإنسان، يفترض مقياساً خارجياً لا تعرفه البشرية. فحياتنا لا تقدم لنا ولو نموذجاً صغيراً لهذا العقل المثالي المجرد الذي تتجه بنا أخلاقنا الوضعية إلى تقليده، لأننا في الحقيقة لا نعرف أية صورة أخرى غير صورة إنساننا الأرضي هذا. فهو الحقيقة الوحيدة التي نملكها، ولذلك ينبغي أن نتخذه نقطة نبدأ منها كل مقياس أخلاقي ندين به. فالإنسان قد وجد في الطبيعة قبل أن توجد آراؤنا الصغيرة فيه وفلسفتنا، وإنه لتطاول منا أن نجلس على كراسيّنا المريحة في أيام الصحو والرخاء فنصدر عليه أحكاماً تبتر فيه هذه الجهة وتقص تلك وفق رغباتنا.

إن هذا المجتمع الذي يجزئ الإنسان الواحد إلى شر وخير إنما يعلن عجزه عن حماية أفراده، ومثله في هذا كمثل خياط مبتدئ يصنع قفازاً ذا أربعة أصابع لكفّ إنسانية طبيعية، ثم يطلب بتر الاصبع الخامس بدعوى أنه شرير لا فائدة له. ذلك أن هذا الخياط يصنع ظروفاً مبتذلة تجعل شيئاً رائعاً كالاصبع يبدو شراً ينبغي بتره. وهذا ما يصنع المجتمع العربي بالإنسان. فهو بدلاً من أن يتناوله ويصوغ له مقاييس تقدر ميوله وإمكانياته الفطرية وتعينها على الانطلاق والحيوية... يصوغ مُثُلاً ضيقة تخنق طاقته وتشلها.

إننا نعتقد أن الإنسان هو معجزة الطبيعة الكبرى التي لم يكشف عنها الغطاء بعد، وأن أية شريعة تؤدي بالطبيعة الإنسانية إلى الانكماش والضمور وتجعل القوى الروحية تتبدد وتضيع لا بد أن تكون شريعة صبيانية تلحد بالطبيعة المبدعة الحكيمة، وليس الشر والنقص إلا في قوانيننا التي نريد أن نصحح بها أخطاء الطبيعة الكاملة.

أما المظهر الثاني للتجزيئية في ميدان الأخلاق، فهو أسلوبنا في النظر إلى قضايا الأخلاق، وهو أسلوب يستند إلى الاعتقاد بأن للأخلاق مقياساً ثابتاً لا تغيره العصور ولا البيئات، لأنه نهائي ولأنه غاية نفسه، وكأن مبدأنا هو: «الأخلاق من أجل الأخلاق». بدلاً من: «الأخلاق من أجل الإنسان».

إن الحقيقة التي ينساها الأخلاقيون عندنا هي أن الإنسان ليس موضوعاً مجرداً، وإنما هو حادث بايولوجي، أو أنه ليس كتلة وإنما هو عملية. ومن ثم فإن كل ما يتعلق بهذا الإنسان ينبغي أن يكون متصفاً بالحركة وقابلية التطور. فالسكون نقطة لا تمر بها حياتنا، وإنما تنتهي إليها. إننا نسكن عندما نموت. وعلى هذا فإن مفهوم الأخلاق الإنسانية لا يمكن أن ينطوي على سكون وإنما يجدر به أن يكون تحركاً دائماً في مجال الحياة الواسع. والحركة الفاعلة يجب أن تكون هي الأساس في كل نظام أخلاقي بشري، لأن الحركة هي حاجة الحياة القصوى. ونحن إذ أقررنا بهذا، فسنرى فوراً أن الأخلاق التي يدين بها المجتمع العربي أخلاق سكونية سالبة تتخذ نقطة ارتكازها في المظهر لا في الفعل.

وخير دليل على السكونية في أخلاقنا احترامنا التقديسي لفضائل مثل العفة والنزاهة والإباء والصدق. فهي كلها لو دققنا فضائل سالبة لا تنطوي على فعل وإنما تستند إلى امتناع. فالعفة مثلاً ليست فعلاً وإنما هي امتناع عن فعل، وكذلك النزاهة والصدق والصبر والإباء والأنفة وغيرها. إننا لا نحاول إطلاقاً أن ننكر المضمون الجميل لبعض هذه الصفات، إلا أننا ننكر أن تكون لها فائدة إيجابية للحياة. والمضمون الفلسفي الخير يجب أن يشمل أداء عمل يفيد الإنسانية ويضيف إلى جمال الحياة وخصوبة الأرض ويشق للنوع البشري طرقاً جديدة إلى الأمام. أما الامتناع فهو خلق سكوني، لا تنبع فائدته إلا من اعتبارات موضوعة لا تعترف بها الحياة.

إن إلحاحنا على الفائدة البايولوجية التي يجب أن تتوخاها كل أخلاق إنسانية يجعل النظرة العربية إلى الأخلاق نظرة غائية هدفها الأخلاق لا الإنسان. والمجتمع العربي يحتاج اليوم إلى أن يوسّع دائرة اعتباراته، فيدخل الأخلاق الايجابية في دائرة الضرورات وينحي الأخلاق السكونية عن المركز. إن المودة والكرم والرحمة والإقدام والعمل والثبات واللطف صفات أجدر بالعناية والاحترام من الصفات السلبية التي ذكرناها. ومن المؤسف أن يمضي المجتمع في اعتبارها ضروباً من الترف الخلقي لا تدخل في المقاييس الأساسية. فإن في هذا تجزيئية تعزل الأخلاق عن الحياة، فتقيّم الفضائل والرذائل تقييماً يجعل الفرد يعتاض عن تحقيق الخير تحقيقاً إيجابياً ويقنع نفسه بخيال الشرف السلبي الذي يظنه يغني عن كل صفة أخرى. ذلك أنه لا يسرق ومن ثم فهو نزيه، وهو لا يكذب فهو إذن صادق، وهو لا يشكو فهو صبور، وهكذا يحصل الفرد العربي على التخلق دون أن يكلفه هذا جهداً. وهذا هو النقد الأكبر الذي نوجهه إلى نظامنا الأخلاقي، فهو نظام يفصل بين الأخلاق وموضوعها.

ـ ٤ ـ

وإذا انتقلنا إلى موضوع المرأة صادفنا التجزيئية في مظاهر أكثر تنوعاً وتعدداً. فالموضوع كله قائم على تجزئة للمجتمع تقسمه إلى نساء ورجال. وقد جرت العادة على أن نتحدث عن مشاكلنا الأدبية والسياسية والاجتماعية مصنفة ونعزل من بينها مشكلة خاصة

نسميها مشكلة المرأة، وكأن المشاكل الأخرى هي مشاكل الرجال فحسب. وهكذا نرى الصحف والاذاعات تخصص زوايا مبتذلة صغيرة تتناول فيها الأشياء التي تفترض ألا شيء سواها يهم النساء، كالأزياء وتسلية الضيوف والمجاملة وشؤون المنزل، وغير ذلك مما لا تخلو منه حياة الإنسان دون أن يكون عنصراً تقوم عليه الحياة.

وقد أدت هذه التجزيئية إلى مشكلة تقسيم العمل بين الرجل والمرأة. فإنه تقسيم استندنا فيه إلى الجنس لا إلى الكفايات الطبيعية والميول، فما دامت المرأة امرأة، فهي ملزمة بأن تَقصِر نشاطها على العمل المنزلي مهما كانت ملكاتها الفطرية واتجاهاتها. ولقد كان لهذا التقسيم نتائج عاطفية واجتماعية عميقة في سلوك المرأة وأخلاقها، وذلك لسبب بسيط هو أن الأعمال المنزلية لا تستنفد من القوى العقلية والنفسية التي يملكها الإنسان إلا جزءاً يسيراً محدوداً، فهي تكاد لا تزيد على أن تكون نشاطاً يدوياً محضاً يمرّن جهات قليلة من وظائف الجسم الكثيرة المعقدة. ومن ثم فهو لا يستفيد من كل ما ركب في المرأة من طاقة إنسانية محتشدة. وهذا ليس تبذيراً لا يبرره شيء فحسب، وإنما هو أيضاً مصدر خطر على كيان المرأة بما يسببه لها من تفاوت في مستوياتها الوظيفية.

وتنتج عن هذه التجزئة الوظيفية ثلاث نتائج نلمسها واضحة في حياة المرأة العربية. وأول نتيجة أن جهة خاصة من المرأة تنمو بينما تتوقف الجهات الأخرى. ويبرز هذا على شكل ركود ملحوظ في القوى الذهنية والعاطفية... أما النشاط الذهني فنحن نتفق على أنه نادر بين نسائنا المعاصرات حتى يكاد الرجل المتوسط يعدّه شذوذاً حين يظهر. وأما النشاط العاطفي فلعلنا لن نتفق حوله. فالرأي الشائع هو أن المرأة تملك عواطف غريزية مكتملة، إلا أنها لا تملك أفكاراً، وهذه العواطف في نظرهم تغني غناء كاملاً عن الذهن الذي لا تستعمله المرأة. وقد ساعد الفنانون على انتشار هذه الفكرة عندما صوروا الأمومة وحنانها وغير ذلك.

على أننا لو رجعنا إلى قواعد النمو العضوي لوجدنا أن من غير المقبول منطقياً أن تنمو جهة معينة في حياتنا الإنسانية دون الجهات الأخرى. والعاطفة ليست منفصلة عن الفكر لتنمو منعزلة عنه، وذلك لأنه يديرها كما يدير الجسم كله. ومعنى هذا أن المرأة إن كانت لا تملك ذهناً مرناً نامياً فلا مجال لأن تملك مشاعر متكاملة، فالتفكير والشعور كلاهما محصول اجتماعي فيزيولوجي، ومن ثم فهما ينموان معاً، وحين يتوقف أحدهما ويشل يتعرض الآخر إلى التجربة نفسها.

والحق أن المرأة في حالتها الحاضرة لا تملك عواطف ناضجة، فهي مفلسة في الجهة الشعورية إفلاسها في الجهة العقلية. إن العاطفة ليست كمية ثابتة تمنحها الطبيعة للفرد، وإنما هي كتلة تنتظر النمو والاتساع والنضج. إنها تكبر مع الإنسان وتخضع لنوع من التربية الدقيقة المتصلة. ولهذا نجد أن الإنسان المثقف يملك من العواطف أضعاف ما يملك الجاهل، لا بل إن رجل الشارع ليس مكتمل العواطف على الاطلاق، وإنما هو رجل عاطفي فحسب. ونقصد بالعاطفية هنا أنه يملك ما يملكه كل مخلوق حي من استجابات شعورية لمواقف معينة. وهو كثيراً ما يلوح عاطفياً بحكم العادة الجارية التي

تحتم نوعاً من الاستجابة لنوع من المواقف. وهذا شيء غير العاطفة المكتملة بالمعنى الاجتماعي الواسع. فالاكتمال العاطفي حالة عالية معقدة من الانفعال يعرفها الناضجون فحسب. إنها نمو روحي يجعل الإنسان يحس بعواطف غنية تجاه الأشياء فينفعل للجمال، ويتذوق الحب الرفيع، ويحس بالنفور من القبح والجور والتناقض، ويضحك من أعماق قلبه وقت الضحك، كما يبكي في حرارة في حالات الحزن، وتعتريه الحماسة والشوق والقلق المبهم وغير ذلك من الانفعالات التي هي مزية إنسانية تميز المثقف الناضج عن الجاهل الفج. فأين هذا الاكتمال الشعوري في حياة المرأة؟ كل ما هناك أنها شعورية بالمعنى الفظ الذي شرحناه، وهذا هو الموقف الذي تمليه عليها ظروفها الاجتماعية.

ألا ينتهي بنا هذا إلى أننا ونحن نقصد أن نقصر المرأة على حياة الشعور قد جعلناها دون قصد تتوقف عن النمو الشعوري؟ وهكذا باتت ضيقة حتى في نطاق الأمومة التي نعلم كلنا أنها عند المرأة الشرقية تستحيل إلى عائق يعرقل استقلال الأطفال العاطفي ويصيبهم باختلال نفسي مزمن، بدلاً من أن تكون ينبوع توجيه حنون وإرشاد مبدع.

إن هذا النقص في تربية المرأة النفسية ملموس في بعض المظاهر الأخلاقية التي تتصف بها ويظنها أكثر الناس طبيعة فيها. من ذلك مثلاً الشعور بالحسد، وهو ينشأ عن ضحالة عاطفية تشل قابلية الحماسة والاعجاب في الإنسان. وهذا لأن القدرة على الحماسة مزية يملكها الناضجون عاطفياً، وهي تحميهم من أن يحسدوا الآخرين. إن اعجابنا بالصفات الجميلة في الآخرين هو الذي يعصمنا من أن نحسدهم، فإذا كنا لا نملك عواطف نصرفها في الاعجاب كان لا بد أن نشعر بالحسد. والمعروف أن المرأة تتصف بالغرور، وربما كان هذا صحيحاً، فإن فجاجتها العاطفية تبرره. فالمغرور هو كذلك إنسان لا يتحمس، ومن ثم فهو لا يستطيع ادراك مظاهر الجمال والاكتمال في الآخرين، فيظن أنه أكمل الناس. والحق أن الغرور كالحسد في أنه مظهر من مظاهر النقص العاطفي.

ونحن نستطيع أن نعلل سائر الأخلاق التي تنسب إلى المرأة بمثل هذا. فالعناد والتردد والخوف وسوء الظن ليست كلها إلا نتائج لتوقف النمو النفسي. إن ادراكنا لهذه الفكرة ضروري إذا نحن أردنا أن نحل تأزم حياتنا الاجتماعية، وذلك لأنها تجعل الأخلاق محصولاً اجتماعياً تعمل فيه أسباب من الواقع، دون أن نلجأ إلى فكرة الطبيعة. ولن يبدأ الإصلاح إلا إذا نزعنا هذه (الجبرية) الأخلاقية وانتظرنا من المرأة أن تسلك السلوك الذي يليق بها.

والنتيجة الثانية لتوزيع العمل هي ما سنسميه بظاهرة التعويض. إن الينبوع المتدفق حين يوضع في وجه تياره سد مانع يغير اتجاهه وينسرب إلى أرض جديدة. وهذا ما يحدث للمرأة، فإننا عندما نقسرها على أن تبدد طاقتها العقلية والنفسية نقسرها أيضاً على أن تبحث عن منفذ جديد يستوعب هذه التيارات المحبوسة التي لا بد أن تتدفق.

لقد وجدت الطاقة في الجسم البشري لتنبجس لا لتحبس، ومن ثم فهي حين تجد

الباب مغلقاً تضطر الجسم إلى إحداث نشاط آخر يعوض عن الطاقة المشلولة، فيخلق اتجاهاً جديداً يبذل فيه جانباً من حيويته التي يضر خزنها بالجسم. ويبدو هذا التعويض في حياة المرأة على صور كثيرة أبرزها الأناقة المسرفة. إن هذه الجهة المتضخمة من حياة المرأة لا يمكن أن تبرر في قوانين الحياة، لأنها تستند إلى تضخيم مصطنع لزاوية واحدة من زوايا الجسم الإنساني. فالملابس لا تتصل بالمنابع الرئيسية للحياة لأنها لا تزيد عن أن تكون نشاطاً صغيراً يستدعي مقداراً قليلاً من الجهد العضلي والعقلي والعاطفي.

إننا لا نجهل أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الطبيعة الأنثوية تحتم على المرأة أن تعتني بملابسها هذه العناية المفرطة، لأن اللباس في رأيهم وسيلة جذب للجنس الثاني، وهذا رأي يجعل التأنق مظهراً جنسياً محضاً. إلا أننا لو تأملنا قليلاً لتوصلنا إلى أن الطبيعة أحكم من أن تترك أمر الجذب الجنسي للملابس الخارجية. فهي تجهز الإنسان بكل الجاذبية التي يحتاج إليها في حياته. إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يلبس ملابس... والقطة ليست محرومة من الجاذبية مع أنها لا تجعد شعرها ولا تحمل حقيبة ولا تذهب إلى الخياطة. ونحن نستنتج من هذا أن علاقة الأناقة بالجاذبية علاقة غير مباشرة، ومن ثم فالمرأة لا تستفيد كثيراً من أناقتها المسرفة إلا إذا استثنينا العامل التعويضي.

أما ثالث النتائج التي نشأت عن تقسيم العمل فهو أن المرأة قد فقدت ثقتها بقدراتها العقلية والنفسية نتيجة لاستمرارها على أداء الأعمال اليدوية البسيطة. ونحن لا ننسى أن هذه الأعمال التي خُصت بها المرأة ما زالت أعمالاً يحتقرها الرجل الشرقي ويأنف من تأديتها، ولو أردنا أن نكون نزيهين لاتفقنا على أنها أعمال تافهة، ومن ثم فإن اقتصار المرأة عليها قد أدى تدريجياً إلى أن تهبط قيمتها في عيني الرجل. ثم تعقد الموقف ففقدت ثقتها بنفسها.

والتاريخ يمدنا بأدلة تكفي لأن تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن احتقار المرأة ليس أصيلاً في المجتمعات العاملة، وإنما هو مظهر انحلال في المجتمعات المتدهورة. وذلك لأن المجتمع الفتي الذي يعمل على بناء كيانه يضطر المرأة إلى أن تشتغل في الميادين كلها: في الحقل وفي المنزل والسوق وحتى في ساحة الحرب. وهذا يمنحها قيمتها الطبيعية. ومما نلاحظه أن الشعوب البدائية كانت تصل حتى إلى تأليه الإناث، وقد حفظ التاريخ أسماء كثير من الآلهة المؤنثة التي عبدتها هذه الشعوب. وهذه نقطة تلفت النظر وتؤيد فكرتنا، فالإله في ما يلوح لم يكتسب صفته المذكرة إلا حينما تمدن الإنسان وكون المجتمعات.

وهكذا ينتهي اختصاص المرأة بالعمل المنزلي إلى قصورها العاطفي وإسرافها في الأناقة وسلبيتها. ومن ثم فنحن إذا أردنا نساء مواطنات أكمل عواطف وأقل سلبية فلا بد لنا أن ندرس موضوع العمل دراسة جدية لا يمازجها الهزل ولا السخرية. إن التوزيع الحالي يحدث تأزماً اجتماعياً مستمراً، هذا فضلاً عن أن هناك أسباباً علمية تجعل التوزيع الحالي غير مقبول نظرياً.

فمن الوجهة البايولوجية يتضح لنا أن قسر المرأة على العمل المنزلي يضر بقواها الفيزيولوجية ضرراً مباشراً. وهذا لأن هذه الأعمال تستند إجمالاً إلى اليدين وحاسة التذوق دون سائر الحواس والأعضاء، فهي لا تنمي ذهناً تركيبياً ولا تتطلب مرونة عاطفية أو تكيفاً نفسياً. ومن ثم فهي، بهذا الاعتبار، ليست خير ما يمكن للجسم الإنساني. ونحن نلح على التنبيه إلى أن هذا ليس خسارة فحسب وإنما هو مضر. فالطبيعة لا تخلق إمكانيات يسهل على المجتمع أن يعطلها وفق حاجاته الشكلية. وكل طاقة ركبت فينا تتضمن حاجتها إلى أن تعمل وتنمو وإلا أضرت بالجسم. يضاف إلى هذا أن تنوع الحاجات الإنسانية يتضمن تنوع القدرات على العمل، وما دامت الطبيعة قد منحت قدرات فهي تحتاج إلى تمرين هذه القدرات. وليس أبغض إلى الحياة من التخصص الكامل الذي يخالف خط النمو لأنه يضخم قيمة طاقة خاصة ويحدث عزلاً في الوظائف الجسمية. والحق أن مرض التجزيئية يتغلغل إلى أعماق أنفسنا فيصيبنا في صميم حياتنا العضوية.

أما من وجهة علم الاجتماع فإن الاعتراض يتخذ شكلاً آخر. فإذا كان المجتمع قد وجد لحماية الأفراد، فكيف يصح أن تُقسَر ملايين من النساء اللواتي يرغبن في العمل خارج المنزل على العمل في داخله؟ إننا نكرر القول بأن المجتمع في هذه الحالة يخون أفراده ويتخلى عنهم. فإذا قال رجل الاجتماع المتوسط مجيباً على هذا الاعتراض بأن المجتمع يعدّ قبول المرأة لهذا الوضع المزري تضحية نبيلة منها تحقق بها حفظ الأسرة من الانهيار، قلنا إن هذا الجواب الطيب يذكرنا بحكاية ذلك الرجل الذي عاد ذات ليلة إلى منزله وانهمك في البحث تحت المناضد ووراء الأبواب في جهد شديد. ثم ظهر أنه يبحث عن مفتاحه، وأنه أضاع هذا المفتاح في الطريق، وكان السبب في بحثه عنه في المنزل أن الطريق مظلم ولا سبيل إلى البحث فيه.

إن نقطة الارتكاز التي يستند إليها رجل الاجتماع المتوسط هي عين النقطة التي يرتكز إليها هذا الرجل، فالعلاقة واحدة بين إمكانيات المرأة وشكل الأسرة من جهة، وبين المفتاح الضائع ووجود الضياء من جهة أخرى. وليس يخفى أن البحث عن المفتاح ينبغي أن يرتكز إلى عامل المكان دون أن يعتبر الضياء، كما أن توزيع العمل في المجتمع ينبغي أن يرتكز إلى سعادة الأفراد دون أن يعتبر عوامل خارجية كشكل الأسرة.

والحل المعقول أن نعمل على ايجاد الضياء في المكان الذي ضاع فيه المفتاح لا أن نبحث عن المفتاح في المكان الذي يحتوي على ضياء، أي أن نعمل على إيجاد مجتمع لا تنهار فيه الأسرة إذا كانت المرأة محققة لطبيعتها، لا أن نقسر المرأة على قتل طبيعتها حرصاً على ألا تنهار الأسرة.

إن البحث عن المفتاح في الضياء أمر يتجاهل أن للبحث غاية، كما أن التضحية بالمرأة حرصاً على شكل الأسرة يتجاهل الغرض من الأسرة. وهذا لأن صاحب المفتاح الضائع وهو يبحث عنه في الضياء لن يعثر عليه على الاطلاق، كما أن المجتمع الذي يضحي بالمرأة من أجل راحة الأسرة لن يصل إلى راحة الأسرة.

- ٥ -

رأينا في الفصول السابقة ما أدت إليه التجزيئية من متاعب ومشاكل للفرد العربي. فقد أحدثت فصلاً قاطعاً بين الرجال الذين يملكون أفكاراً بلا عواطف، والنساء اللواتي يملكن عواطف بلا أفكار. وقد رأينا أيضاً مدى نسياننا لغاية المجتمع الأساسية التي هي (الإنسان) حتى بتنا لا نبني المجتمع من أجل الإنسان، وإنما نضحي بالإنسان من أجل شكل قائم من أشكال هذا المجتمع.

ومن ثم فإن أول حل نقترحه أن ننظر إلى الموضوع نظرة موحدة فلا نعتبر الأخلاق موضوعاً مثالياً وإنما نربطها ربطاً مباشراً بحاجاتنا الإنسانية ووظائف أجسامنا. ولا نجعل للشكل القائم للمجتمع قيمة مقدسة بحيث نضحي بالإنسان من أجله، فالإنسان هو القانون الذي ينبغي أن نلاحظه في بناء المجتمع والأخلاق. وبالتالي فإن علمي الأخلاق والاجتماع ليسا علمين نظريين يستمدان أسسهما من مصادر مثالية، وإنما ينبغي أن يمتزجا بعلم الحياة امتزاجاً تاماً.

إن المضمون الحرفي لحكمنا هذا يتضمن الدعوة إلى شكل جديد من أشكال المجتمع ينظم الأخلاق تنظيماً عملياً واقعياً مستمداً من إمكانياتنا الطبيعية. وقد تضعنا هذه الدعوة إزاء مشاكل محرجة، غير أن هذا الاحراج إنما ينشأ في ظل نظامنا الحالي فحسب، وهو نظام يستند في أساسه إلى اختلال كما يمكن أن يستند كرسي يصنعه نجار رديء إلى اعوجاج فادح في إحدى قوائمه، بحيث لو أردنا إقامة ساق مستقيمة مكانها لانهار الكرسي كله. وهذا ناشئ عن أن تصميم الكرسي قد أخذ الاعوجاج بعين الاعتبار وعدل بقية القوائم بالنسبة إليه. إن هذه الحالة لا تجعلنا نحكم بأن الاعوجاج شرط أساسي في تصميم كل كرسي، فإن من الممكن أن نصنع كرسياً آخر تكون قوائمه كلها مستقيمة. ومن ثم فإن الانهيار إنما يقع في حالة الكرسي المغلوط التصميم فحسب، وهذه حالة تصبح فيها الاستقامة خطرة. إن الاستقامة لا تكون خطرة إلا في وضع غير مستقيم، شأنها في هذا شأن الخير الذي يلوح مخيفاً في وضعنا الحالي.

إننا نود في ختام هذا البحث أن نرفع ولو صوتاً واحداً يطالب بنظام اجتماعي مستقيم، لا ينشأ فيه الانهيار عن غير عوامل الانحراف والشذوذ، نريد مجتمعاً تتنفس فيه الطاقة الإنسانية المبدعة وتخصب وتمرع، مجتمعاً يرتبط فيه القانون والأخلاق والعمل جميعاً بالحاجة البشرية، فهذا هو المجتمع الأفضل الذي ينبغي أن نتطلع إليه. وإذا كنا لا نأمل أن نبلغه سريعاً، فيكفي أن تشتعل في أعماقنا هذه الثقة العريضة الراسخة بأننا سائرون إليه...

... ولن يطول الانتظار...

معركة الوعي العربي(*)

قدري قلعجي

شبه فيكتور بوشيه حياة البشر بنهر عاصف التيار تقف على ضفته قوارب لا عداد لها وفي كل قارب منها ملاح، فإما أن ينتظر هذا الملاح رحمة القدر فيظل واقفاً في مكانه ينظر إلى الضفة الثانية نظر الجبان اليائس، أو أن يستسلم للأمواج الصاخبة تحمله على غاربها وتقذف به أنى شاءت، وإما أن يقاوم التيار ويصارعه بقوة وعزيمة وبصيرة فيتغلب عليه ويشق عبابه، فيمضي إلى غرضه ويفوز بمطلبه ويظفر بالمجد لنفسه وللإنسانية على السواء.

تلك حياة البشر، وهي أيضاً حياة الأمم. ومن نعم الحياة أن تنجب الأمة العربية في نهضتها الحديثة ملاحين جبابرة لا يبالون باقتحام الأنواء وركوب الأخطار للوصول بأمتهم إلى شاطئ الرفعة والكرامة والمجد.

هذا ما تبادر إلى خاطري وأنا أطالع النقد العاصف الذي أثاره مقال العلامة الأستاذ عبد الله القصيمي: «اقتباسات من إنجيل لم تعرفه المجامع» في العدد الأخير من مجلة **الآداب**.

ولم يكن ذلك جديداً بالنسبة لهذا الملاح العملاق الذي جبلته الطبيعة من شرر ونور. فما أكثر ما أثارت أبحاثه من نقد الناقدين وتحامل المتحاملين، منذ أصدر كتابه **هذي هي الأغلال** فأحدث في الأوساط الرجعية زلزالاً لا تبرح ترتعد له وترتجف منه، وأوجد مدرسة فكرية كان نتاج الكاتب المصري الأستاذ خالد محمد خالد بعض ثمرها المرتجى.

ولست أعتقد بأن ثمة كتاباً عربياً قد استقبل من المفكرين الأحرار بمثل الحماسة التي استقبل بها كتاب الاستاذ القصيمي، وكان من بين الفصول التي عقدها عنه الأستاذ

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٣، العدد ٩ (١٩٥٥)، ص٥٧ ـ ٥٩.

اسماعيل مظهر مقال رائع استهل به عدد تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٤٦ من مجلة **المقتطف** التي كان يتولى رئاسة تحريرها في ذلك الحين، قال فيه:

«هذه أول مرة يفرد **المقتطف** افتتاحيته للكلام في كتاب يصدر في الشرق أو الغرب. ولا شك أن ذلك إنما يرجع إلى أن هذا الكتاب هو في تقديرنا يستحق هذه المنزلة وله أن يحتل هذه المكانة.

«ليس لنا بصاحب هذا الكتاب معرفة من قبل، ولم يدر بخلدنا أن أستاذاً نابهاً كالأستاذ عبد الله القصيمي يمكن أن يخرج على أهل هذا الزمن بمثل هذه الأفكار من بيئة بعيدة عن الاحتكاك بأفكار العصر الذي نعيش فيه، ويذهب في تحليل العقلية الجامدة التي وقفت بأهل الإسلام القرون تلو القرون، ذلك المذهب الحر المستند إلى حقائق مقتطعة من صميم الحالة الاجتماعية والعلمية التي تكتنف أهل الشرق والمسلمين منهم خاصة.

«ونحن فوق هذا لا ننتصر للكتاب ولا لصاحب الكتاب، وإنما ننتصر لاعتقادنا الجازم بأن الكتاب وصاحب الكتاب هما إلى جانب الحق في تصوير عقلية المسلمين في هذا الزمن الذي دارت عجلته وظلت عجلة المسلمين واقفة، ولأن هذا العصر لا يواتي أهل النزعة الأخروية التي دسها على الإسلام مسلمون أو غير مسلمين، ساءت نيتهم أم حسنت، أولئك الذين أدخلوا في الإسلام من نزعات الخنوع والتأخر والانحلال ما صبغه بتلك الصبغة التي لا يرضاها لنفسه مسلم، ويأباها الإسلام على كل المسلمين.

«أنتصر لهذا الكتاب لأني أشتم فيه روح القوة والجبروت والعزة التي هي من صفات الإسلام، وليست الآن من صفات المسلمين، وأتنسم فيه عبير حرية الفكر وحرية الضمير، وأرى فيه هزة نفسية تصدر من أعماق الضمير الإسلامي على حقيقته الأصيلة، لا على ظاهر تلك الأقوال التي دسها على الإسلام ونبي الإسلام، مغفلون من أصحاب التقوى الزائفة، أو مدلسون من أصحاب المذاهب المريضة، أو مزورون من أهل السياسة، أو شعوبيون يودون لو أن العرب والعربية والعروبة تطوى صفحاتهم جميعاً من هذا الوجود، أو دخلاء في الإسلام نقلوا إليه من مذاهب الزهد والنسك والباطنية، هنوداً كانوا أو روماً أو فُرساً أو أغارقة، ما كان سبباً في ضياع ملكهم وزوال سلطانهم، أمام تلك القوة الكاسحة وأمام الخلق الثابت والنفس المتأججة التي ضرب بها الإسلام في أصول تلك الممالك، فهشمها وحطم ملكها وأباد سلطانها، بعد أن نخر منها الزهد والنسك والباطنية العظم، وعرق اللحم، وخلفها حطاماً، وجعلها أحاديث».

وبينما كانت الأوساط التقدمية ترحب بكتاب **هذي هي الأغلال** هذا الترحيب الحار، كانت الأوساط الرجعية تشن عليه حملة شعواء بلغ من عنفها وشدتها أن أباح بعض المتعصبين في المملكة العربية السعودية دمه ودعوا المؤمنين للتقرب إلى الله بقتله! ثم عمدوا فعلاً إلى أحد الشبان المتحمسين فسلحوه بمسدس وزودوه بعض المال وأرسلوه إلى مصر لقتل الشيخ الثائر. غير أن الشاب المتحمس رأى أن يتعرف بالقصيمي قبل الإقدام

على جريمته، وما كاد يستمع إلى حديثه ويصغي إلى حجته، حتى غدا من مريديه والمؤمنين برسالته.

لقد كان في وسع القصيمي أن يهادن الخرافة، ويغض طرفه عن الاستبداد، فيبلغ في بلاده المنزلة الرفيعة التي يطمح إليها الكثيرون ويتنافس من أجلها المتملقون، ولكنه آثر أن يخوض المعركة، وأن يعيش مشرداً مضطهداً، مضحياً بنفسه في سبيل الفكر العربي، مقدماً حياته لإحياء الأمة العربية.

وبدلاً من أن ينافق مع المنافقين، وينعم مع المتنعمين، انطلق يقرع الآذان بصيحاته الحرة الكريمة في بيئة ألفت العبودية والخنوع.

أليس من المؤلم بعد هذا أن يتهم القصيمي بأنه مخرب ومتآمر وخطر: وغير ذلك من النعوت التي ذاع استعمالها في هذه الأيام دون حيطة ولا روية؟!

أليس من الخفة أن نسمح لأنفسنا بإطلاق هذه النعوت على مفكر عظيم ورائد مبدع كالأستاذ عبد الله القصيمي، لأنه في أبحاثه القيمة لا يدغدغ غرورنا القومي وكبرياءنا العربية بل يمر بمبضعه على الفاسد من كياننا فيبتره بغية أن نشفى ونحيا؟!

إن مقال الأستاذ القصيمي حافل بالأفكار القومية التي تهدم وتبني في آن واحد، غير أن الأستاذ سامي عطفه والدكتور عبد القادر القط قد توقفا عند بعض هذه الأفكار، وفسراها كما يريدان، وانتقداها بعنف...

من ذلك أن القصيمي فرق بين التفكير والاعتقاد «فالذين يأخذون الأمور بالاعتقاد لا يفكرون والذين يأخذونها بالتفكير لا يعتقدون والتفكير صورة من صور الخلق والعطاء. أما الاعتقاد فأسلوب من أساليب الاستسلام والعبودية، فالفكر خالق والمعتقد مخلوق»... الخ.

انتقد الأستاذ عطفه ذلك وعرّف التفكير والعقيدة تعريفاً انسكلوبيدياً فساوى بين العقيدة بمعناها الخاص الذي هو تلقين وتسليم بأمور لم نُعمل فيها تفكيرنا ولم نخضعها لمحاكمتنا وتجربتنا، بالعقيدة بمعناها العام كالعقيدة السياسية التي نعتنقها عن اقتناع والعقيدة العلمية القائمة على المشاهدة والتجربة.

لا شك في أن العقيدة الدينية نفسها كانت نوعاً من التفكير يوم اعتنقها أصحابها الأولون، ثم تغيرت حين شرعنا نعتنقها ونؤمن بها بحكم العادة والوراثة والتلقين، بدليل أن أبناء المسلمين ينشأون مسلمين وأبناء المسيحيين يعتنقون عقيدة آبائهم، وكذلك أبناء الطوائف في كل مذهب ودين. وليس بين هؤلاء من يعتقدون بمذاهبهم وأديانهم بعد تفكير. والذي يريده الأستاذ القصيمي «أن نصبح معتقدين ومفكرين، أو أن نعتقد لأننا نفكر إذ نحن الآن لا نفكر لأننا نعتقد».

ويستغرب الأستاذ عطفه أن يصف القصيمي المعتقد بأنه جبان وقاف يخشى الاقتحام

ويرضى بما كان خوفاً مما قد يكون، والمفكر بأنه إنسان جريء مقتحم يمضي في المجاهل ويناضل ضد الخوف. ولا يلبث الأستاذ عطفه حتى يقول: «ولكن ربما كان الكاتب يعني أن جبن المعتقد هو ركونه الأبدي إلى عقيدته، وأن شجاعة المفكر هي في هدمه العقيدة السائدة. ولكن ما الذي يفعله المفكر بعد هذا؟ الجواب هو أنه يقيم عقيدة جديدة تغدو هي الأخرى سائدة، ويكون المفكرون بهذا إذن كالأطفال يبنون بيوتهم من الحصى ثم يهدمونها لإعادة بنائها، هذا إلى أن على الناس بالنسبة لهذا الرأي أن يعرضوا عن العقائد الدينية والسياسية، وأن على ركب البشرية أن يقف، لأنه ما من سير إلا وراء غاية، والغاية هي العقيدة».

والواقع أن الأفكار ليست حقائق خالدة وإن بدت كذلك في عهد من العهود، وإنما هي وليدة ظروف متقلبة وملابسات لا تني تتغير وتتطور وتولد أفكاراً جديدة تنسخ ما سبقها، لأن الأفكار التي كانت جديدة في عهد ما لم تعد تلائم الظروف والنوازع التي استجدت في العهد الذي تلاه، فتحولت بذلك إلى عقائد جامدة وحروف متحجرة، وبات من الواجب الثورة عليها وتغييرها. . . وبقدر ما تأخذ الأمة بهذا التجدد الفكري المستمر وتفتح صدرها له، تقيم الدليل على أنها أمة فاعلة خالقة.

ومن يدرس التاريخ يدرك بوضوح أن الأفكار الجديدة التي نهاجمها اليوم هي التي ستنتصر غداً، فالتاريخ بجميع مراحله وفصوله شاهد قوي على أن الانطلاقة الإنسانية لا يمكن أن تقف أبداً، لأنها انطلاقة الحياة نفسها.

وعلى الرغم من أن القصيمي لم يتعرض في مقاله إلى الدين إطلاقاً، فقد شاء الناقد أن يفهم من دعوته لنا إلى أن نكون أمة مفكرة لا أمة معتقدة، حملة على الدين، فمضى يدافع عنه، ولكن قلمه خانه في مواضع كثيرة فسجل دون أن يشعر ما يستنتج منه أن الدين هو اكتشاف إنساني لا وحي إلهي وذلك في قوله: «لقد أمضى الإنسان في التأمل آلاف السنين قبل أن يكتشف الدين» وقوله: «أما العقيدة فهي نتيجة اختمار طويل للفكر الإنساني» وقوله: «إن من الخطأ أن نفصل بين الفكر والعقيدة لحساب غاية ما، أو أن نهبط بمستوى العقيدة، ذلك أن أوهام الإنسان(كذا) نتاج حضارات طويلة الأمد كأفكاره وهذه الأوهام هي التجلي الثاني لنشاطية العقل» وقوله: «الإسلام لا يتحمل وحده(كذا) تبعة الانحطاط في العصر الحاضر».

بيد أنه لا معنى للتهيب حتى من مهاجمة العقيدة وانتقادها ومناقشة أحكامها وتعاليمها، إذ المفروض أن لها من ذاتها قوة ترد بها هجمات المعارضين، فيكون الهجوم عليها معززاً لها مبرهناً صلاحها، أما الخوف من كل نقد يوجه إليها فهو يوحي العكس ويحمل على التوهم بأنها أوهى من أن تصمد لنقد الناقدين. وقد أعطى القرآن خير مثل على ذلك حين نقل المطاعن التي وجهها المخالفون للعقائد إلى الأديان والأنبياء، ولم يخشَ على المسلمين أن يسمعوها، إيماناً بأن حجته هي الأقوى.

ونحن كما يقول الأستاذ القصيمي لا نشكو أزمة العقيدة بل تضخمها، وما أبلغ

قوله: «إذا كان العرب سيظلون يأبون إلا أن يطاردوا تجمع الطبيعة وتفوقها فيهم، بأن يذهبوا يخمدون كل خصائص الامتياز بينهم كيف كان نوع هذا الامتياز، فلن يظفروا من الحياة إلا بشر احتمالاتها.

«علامَ يخشون من الحرية والتفكير؟ هل يخشون على عقائدهم وتقاليدهم؟ لقد أثبتت التجارب الكاملة أنهم صبر جداً على ملكياتهم الروحية أوفياء لها، وأن وراءهم من الأرصدة الاعتقادية ما لا يخشى عليه من النفاد.

«إن علينا أن نطلق مارد الفكر ليلتحم بملاك الاعتقاد، ومن التحامهما ستبرز الحقيقة الكبيرة التي لا تزال تبحث عن غيرها».

وقد بلغ من غلو الأستاذ عطفه أنه أنكر أن يكون الطغيان ورجال الدين من عوامل الهدم في المجتمع العربي، وقال أن لا طغاة في تاريخنا، وإن العرب لم يسيئوا تطبيق أحكام الشرع الإسلامي.

والحق أن في تاريخنا العربي عدداً غير قليل من الطغاة، بل إنك لتكاد تسمع وأنت تقرأ بعض فصوله صليل السيوف، وأكتفي بالإشارة إلى وقائع الصراع الدامي بين الأمويين والعباسيين والفاطميين. ولست أتصور أن أحكام الشرع الإسلامي تتفق مثلاً وأعمال عبد الملك بن مروان والسفاح ويزيد والحجاج!

وقد كان القسم الأعظم من رجال الدين مشايعين للطغيان مناصرين له، يمثلون دور المحللين لشهوات الحكم والمسبحين بحمد الحاكمين. وكان الشيوخ الخرافيون، ولا يزالون، مصدر السحابة السوداء التي أطبقت على الشعوب العربية خلال قرون طويلة وعششت في ظلها الخرافات وأعمال السحر وقصص الجن وليالي الذكر والأحجبة والرقى والتمائم والتعاويذ وزيارة القبور والتبرك بالأولياء والمعتوهين، وغير ذلك من الصور المظلمة التي روت طفولتنا بالسم، وملأتها بالرعب، وزرعتها بالعقد النفسية والجنسية فنشأنا ضعفاء جبناء، حائرين ذاهلين، نخشى النور، ونعجز عن الخلق والإبداع، ونكل أمورنا إلى قوى غيبية ننسب إليها سلوكنا ونبرر بها هربنا من واقع الحياة.

وفي مقال الأستاذ القصيمي ومقال الأستاذ عطفه تتجلى عقليتان مختلفتان ونظرتان إلى الحياة، فالأستاذ القصيمي ككل مصلح كبير يبحث عن عوامل الضعف في المجتمع العربي ويكشف عنها لمعالجتها والنهوض بالأمة العربية إلى مستوى الحضارة العلمية الصناعية الإنسانية، وهو من أجل ذلك لا يشفق على القارئ ولا يداريه بل يواجهه بالحقائق العارية، محاولاً أن يثير فيه نوازع الإقدام وحوافز التطور والتجدد، موجهاً أنظاره إلى المستقبل، داعياً إياه إلى اقتحامه للبحث عن حياة أفضل.

أما الأستاذ عطفه فهو كاتب يعيش الماضي، وهو من أجل ذلك حريص على قداسته وصفاته، يبرئه من العيوب وينزهه من الأخطاء، وإن فعل ذلك على حساب الحاضر والمستقبل، حاضر العرب ومستقبلهم.

لقد غضب الأستاذ عطفه لأن القصيمي قد انتقد بعض نواحي النقص والفساد في ماضي العرب، أما هو فقد قال: «إن العرب في حالهم الحاضرة ضعفاء جاهلون وفاقدون لكل ما تتمتع به الأمم الناهضة من حياة ومثل وتضحية»، وقال: «مهما قلنا عن العرب في الحال الحاضرة فإننا نكون قد صورنا الواقع تقريباً(كذا)»، وقال إن«عوامل التكوين القومي» في الأمة العربية«ما تزال ضعيفة لينة الساعد» وإنها أمام الآراء العربية الهدامة«لا تملك أي جهاز فعلي للمقاومة» وقال مدافعاً عن رجال الدين: «إنهم أفراد يتصفون بما يتصف به شعبنا جميعه (كذا) من تأخر وجهل وعدم إدراك للمرحلة الحاضرة من حياة الأمة العربية».

فهل وصفت أمة بأشنع مما وصف به الكاتب أمته؟

إن الكاتب يبرر لنفسه ذلك بأنه ينتقد حاضر الأمة لا ماضيها، وقد قال بهذا المعنى إن العلة في القصيمي«أنه يتكلم دائماً عندما يشتم العرب بصيغة الماضي ولو أنه تكلم بصيغة المضارع لقلنا«حقاً إنه رجل شجاع» ولقلنا عنه إنه مناضل يسعى لتخليص شعبه من ورطته الحاضرة».

والذي نعلمه أن حديث القصيمي عن العرب لا يتناول إلا حاضرهم، ولا يرمي إلا إلى إخراجهم من وهدتهم، وهو حين يتحدث عن التاريخ العربي فإنما يستشهد به لإقامة الدليل وتعزيز الرأي واستنهاض الهمة، اشفاقاً منه على قومه أن يظلوا حيث تركهم التاريخ منذ قرون!!

على أني لا أستطيع أن أفهم كيف يكون من واجبنا أن نقدس الميت من التاريخ، ولا تثريب علينا إذا ازدرينا بالحاضر الحي! فهل يكون المرء قومياً عربياً شريفاً إذا هاجم حكام العرب المعاصرين فوصفهم بالانحلال والفسق والفساد، ويغدو مخرباً متآمراً إذا قال إن بين حكام العرب القدماء من اتصف بالطغيان وإن هذا الطغيان كان أحد العوامل الرئيسية التي أضرت بالمجتمع العربي؟

لقد أشار السيد عطفه إلى استغلال إسرائيل لأمثال هذه الأبحاث في سعيها لتهديم الكيان العربي، والجميع يعلمون أن اليهود لا يتطرقون في كتبهم وصحفهم للتاريخ العربي وماضي العرب، بل ينتقدون حاضرهم زاعمين أنهم «ضعفاء جاهلون وفاقدون لكل ما تتمتع به الأمم الناهضة من حياة ومثل وتضحية» محتجين على أنهم أحق بالحياة من قوم لا يزالون يعيشون على هامش التاريخ وفي عقلية القرون الأولى.

ويدهشني أن يشير الأستاذ عطفه باستهانة إلى الكلمات الرائعة التي اختتم بها القصيمي مقاله منددأ بالاستبداد مشيداً بالحرية والديمقراطية، فيقول: «هذه أشياء لمعهودة وحتى العامي يرددها بنفس الحماس» وأن يجاريه الدكتور القط فيحاول الهبوط بهذه الكلمات بقوله: «حسبك أن تقرأ كتاباً واحداً في الأدب الأوروبي عن تلك الموضوعات لتظفر بكثير من مثل تلك الأقوال».

إن هذه الأقوال التي قد تجد كثيراً منها في كتاب أوروبي واحد، والتي يرددها العامي في بلادنا بحماسة، هي من جوامع الكلم التي تمتاز بالقوة والروعة والبلاغة المعجزة، وهي لا تقل عن مثيلاتها من كلمات مونتسكيو وروسو وديدرو وغيرهم من أعلام الفكر.

وقد أرجع الدكتور القط تأخرنا إلى الاستعمار، والراجح أنه يعني الاستعمار الغربي لأن الاستعمار التركي كان استعماراً شكلياً، وكان في الوسع التحرر منه بمقاومة يسيرة، ولم تشتد قبضته إلا في مرحلته الأخيرة. والواقع أن تأخرنا أسبق في التاريخ من استعمارنا، ولعله سبب هذا الاستعمار. وما رأي الدكتور في أن الأقطار التي لم يدخلها الاستعمار هي أشد الأقطار العربية تأخراً!

والمتتبعون لاتجاهات الاستعمار وأساليبه في السيطرة الباغية، يعلمون أنه يسعى أول ما يسعى لبعث التاريخ الروحي وتعزيز الخرافة ونشر المعتقدات الرجعية لأنها سبيله إلى إضعاف البلاد التي يسيطر عليها وتمكين أقدامه فيها.

لقد ابتلي العرب بالاستعمار، ثم نكبوا في فلسطين، لأن في مقدمة الأخلاق التي ورثناها عن أجدادنا ذلك الخلق الرجعي الذي يسلخنا عن حاضرنا ويتجه بتفكيرنا إلى ما وراء القبور وما وراء الواقع الحي. ولن ننهض من عثرتنا ونتحرر من نكبتنا إلا إذا جعلنا من حاجتنا التاريخية الحاضرة ومن شعورنا بمسؤوليتنا القومية، الباعث المباشر لحل مشاكلنا ووضع نظمنا وإقامة مناهج الإصلاح المبدع الذي يجدد الحياة وينشئ العقول والنفوس!

في معركة الحياة وحدها، لا في الفرار منها، نستطيع أن نستعيد حقنا وننهض بأمتنا، ونبني تاريخنا بناء حراً واعياً.

والأستاذ عبد الله القصيمي، هذا العربي الأصيل الذي هو مثل من الأمثلة العليا في الثورة والابداع وعمق الثقافة وعزة النفس وسمو الروح هو نفسه دليل حي على أن العروبة لن يطول وقوفها، وأنه لا بد لها من أن تحيا وتتقدم وتنتصر.

معركة الوعي العربي(*)

سامي عطفه

مما قاله الدكتور كمال يوسف الحاج في باب «قرأت العدد الماضي من الآداب» تعليقاً على مقالي «شريعة الهدم في الإنجيل الضائع» ما يلي: «إن التاريخ لم يصبح علماً كمياً غير قابل للجدل، هو كسيف ذي حدين يمكن اعتباره إلى فوق كما يمكن اعتباره إلى تحت وفق ما يختلج به المؤرخ من نزوغ أو نزوع.» ثم أشار أيضاً إلى أن «التطور لا يحصل إلا بحركة جدلية».

هذا هو القول الذي انتقيته من كل ما كتبه الناقد الكريم حول مقالي وتركت ما ورد قبله وما أتى بعده لأؤكد للأستاذ قدري قلعجي حسن نيتي، في أي نقاش كنت فيه طرفاً، ثم لأنه قد كشف عن حقيقة مهمة بالنسبة لدراسة التاريخ كما هو بالنسبة للفكر التأملي والفكر الموضوعي، وهذه الحقيقة هي الجدل (الديالكتيك) العلمي، فما هو هذا الجدل؟ ليس الجدل مشادة ولا خصومة في القول همها إقامة الحجة على الخصم كيفما اتفق باستخدام المنطق الصوري تارة والبراعة الأدبية تارة أخرى.

إن الجدل هو الانطلاق من الجديد بالمشكلة، وتنظيمها على أساس جوانبها المتعارضة تعارضاً يسير بالمشكلة قدماً في طريق الكشف، والحادثة التاريخية المركبة من جملة من الدوافع وتصارع القوى في حاجة قصوى إلى الجدل ليكشف عنها، فإذا ما أثيرت الحادثة التاريخية، في ثوبها الكلامي بدت منسجمة في السطح، إلا أن عمقها يكشف عن جوانب متناقضة، يفضح بعضها بعضاً، ويكمل بعضها بعضاً، فتبدو عندئذ الحادثة التاريخية ملتهبة بالحياة والنماء.

هذا بالنسبة إلى دراسة التاريخ، لكن الدكتور الحاج قصد في كلمته الأولى أن البعض يطيب لهم أن يناقضوا الحقيقة التاريخية بإبراز نقيضها، ليس من أجل حقيقة تاريخية ولكن لأن النية الخبيثة تدفعهم إلى ذلك. وأما كلمته الثانية «التطور لا يحصل إلا بحركة جدلية» فقد قصد بها إلى أن التاريخ لا يتقدم ولا يتطور إلا بحدوث جملة من

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٣، العدد ١٠ (١٩٥٥)، ص ٦٨ - ٧٢.

التناقضات التاريخية التي يدعو بعضها بعضاً، فيتناوب التقدم والتأخر والرقي والانحطاط والعدل والظلم. . . الخ. من المتناقضات. وكأني بالدكتور الحاج يعني بذلك أن حوادث العنف والطغيان في التاريخ العربي لم تكن شاذة أبداً، بل هي طبيعية تماماً، حيث إن تحقق العدل في فترة من فترات التاريخ يدعو بكل بساطة إلى حلول فترة من الظلم والجور، كما يدعو حلول المساوئ والفساد إلى الإصلاح والثورة.

وعلى كل حال فإن الجدل يهدف إلى غاية رغم الصعوبات والمشاكل التي يثيرها في حركته الغريبة، وهذه الغاية هي الوعي الكامل غير المنقوص. وعندما نسقط هذه الغاية الرفيعة نكون قد أسقطنا المذهب الجدلي بكامله، ولذلك فإن أية دراسة للتاريخ العربي يجب أن تحمل معها غايتها الرفيعة وهي تحقيق الوعي القومي في نفوس العرب.

وتاريخنا العربي، الذي بقي مستوراً بحجب قاتمة كثيفة، في حاجة إلى الكشف عنه، كشفاً تاماً لا مواربة فيه، فنحن العرب نقف اليوم في ظرف خاص جداً، إننا نريد أن ننطلق إلى المستقبل ولكننا نقف حائرين مضطربين لا نملك الثقة الذاتية على اقتحامه. فإذا كانت عوامل فقدان الثقة متعددة فلا شك في أن أهمها هو جهلنا جهلاً مطبقاً هويتنا التاريخية، وما ذلك إلا لأن تاريخنا عالم مغلق أمام أعيننا فلا ندركه ولا نتحسسه.

وسبب هذه العلة هو في أن الدراسات التي حاولت الكشف عن التاريخ العربي كانت تتسم بالسطحية ومسايرة القواعد القديمة التي تناولت التاريخ أو اتباع السنة التي سار عليها المستشرقون، يضاف إلى ذلك فقدان المؤرخين المتخصصين لهذا العلم بين العرب، ولقد ترتب على ذلك كله، السطحية بكل أخطارها وبشاعتها وتفاهتها في إعطاء قيم يُسار عليها في المستقبل. ولقد كانت الدراسات التاريخية تتناول الحادثة التاريخية بكل كثافتها المادية فتقيم سلسلة مترابطة ظاهراً، من الحوادث تسمى تاريخ أمة.

إن المذهب السائد في دراسة التاريخ العربي الذي يعنى ببغداد والخلفاء والغزوات ويشيد بأعمال البطولة ويهمل جوانب الحادثة، هو مذهب يغمر التاريخ بدل أن يرفعه، ويظلله بدل أن ينيره. والجدير بالذكر هو أن الانقلابات الخطيرة التي كان لها الأثر العميق في التاريخ، أغفلت أهميتها فلا يمكنك تمييزها إلا بالفاصلة الزمنية فحسب، كما أُغفلت القضايا التي سببت هذه الانقلابات؛ فمثلاً يقال إن النفوذ الأعجمي هو الذي تسبب في سقوط الدولة العباسية، ولكن أحداً من الخلفاء العباسيين غير مسؤول عن إدخال هذا النفوذ.

حتى لكأن التاريخ ما زال يحمل الطابع الشخصي. فنرى المؤرخين يخافون أن يحللوا حادثة من الحوادث، فيهملوها عمداً. فتبقى أسماء كعبد الرحمن الداخل وأبي عبد الله الصغير والمنصور والمعتصم والرشيد والمستعصم أصواتاً عابرة لا تترك في النفس أي صدى مع أنهم هم الذين رسموا خط التاريخ العربي. كما أن جملة من الاعتبارات القديمة ما زالت قائمة في الأذهان رغم ثبوت فسادها، فيُعرّف الحجاج مثلاً بأنه طاغية فاسق.

وعلى كل فإن القصد من دراسة التاريخ دراسة جدية سوية، هو أن نخلق الوعي القومي في الشباب العربي، وليس مجرد التغني بما كان، كما اتهمني بعضهم بذلك، فقال بأنني أعيش للماضي وأريده مذهباً خالياً من العيوب، أو بالأحرى أكره أن ينبش امرؤ عيوب هذا التاريخ أمام عيني، ومن هذا البعض الأستاذ قدري قلعجي الذي قال في رده علي بأنني أعيش للماضي وأنني «من أجل ذلك حريص على قداسته وصفائه، يبرئه من العيوب وينزهه عن الأخطاء. وإن فعل ذلك على حساب الحاضر والمستقبل، حاضر العرب ومستقبلهم».

إنني في الحقيقة قد دهشت لهذا القول، لأنه يعني أحد أمرين، فإما أن يكون حضرة الناقد قد أساء فهم ما كتبته عن التاريخ العربي في مقالي المذكور آنفاً، وإما أن يكون قد قصد إلى إحداث مغالطة ضخمة في دفاعه، لن تكون أبداً في صالحه.

الحقيقة هي أنني لم أطلب الأسطورة البراقة من التاريخ، ولا أن يكون مصدراً لسعادة كاذبة، ولا ملجأ للهرب. بل كل ما أبتغيه هو أن أدافع عن التاريخ العربي أمام رجل يدعي أن العرب عبيد تاريخ، وإذا كنت أقيم للماضي أهمية بمعزل عن المشاحنة فذلك لأنني أريد أن أتزود بشيء من الماضي، بروحه وشخصيته في سيري نحو المستقبل وفي عملي الحاضر الراهن، وإنني لأؤكد ذلك رغم ادعاءات حضرة الناقد.

لقد كان التاريخ العربي انعكاساً لنشاط الشخصية العربية، وكان بعنوانه وآدابه وعمرانه تعبيراً عن الروح العربية، فإذا كنت أقصد إلى خلق نهضة جديدة للعرب، فممّا لا شك فيه أن هذا العمل يقتضي مني أن أنهل من الماضي الغني. إنني أؤمن بالتاريخ العربي لأني أؤمن بالشعب العربي، وأميل إلى تقييم التاريخ العربي لأضع في يمين الشعب العربي إمكانيات تدفعه إلى العمل والنشاط، ولقد ذكرت في مقالي «شريعة الهدم في الإنجيل الضائع» أن الشعب كالهرم قاعدته في تاريخه الماضي وذروته في تاريخه المستقبل، فإذا نسفت قاعدة الهرم تقوضت ذروته، وإذا أهملنا ماضي الشعب فإننا نهمل أيضاً مستقبله. وهذا يوضح أنني لم أدع القصيمي في مقالي ذاك إلى ترك النضال في الحاضر. وإنما دعوته إلى العمل على أساس سليم!

وأعتقد أن القارئ الكريم سيجد بعض الغرابة، على الأقل، في قول الناقد الحصيف: «على أنني لا أستطيع أن أفهم كيف يكون من واجبنا أن نقدس الميت من التاريخ، ولا تثريب علينا إذا ازدرينا الحاضر الحي؟» الحقيقة هي أنني لم أقل شيئاً من هذا القبيل، فأنا لم أدع إلى احتقار الحاضر. ولم أقرر الأمر على هذا النحو. لكن لنتأمل قليلاً هذا التعبير «الميت من التاريخ» ويجدر بي هنا أن أسأل الأستاذ قلعجي هذا السؤال العادي المنسجم مع رأيه في الماضي والتاريخ. لو عُرض على الأستاذ قلعجي أن يتخلى عن جنسيته العربية وأن يتجنس بالجنسية الأمريكية أو التركية، فما تُرى يكون موقفه من ذلك؟ والإجابة بسيطة وهي أن الكاتب الذي يحتقر ماضي أمته وتاريخها لا يجد بأساً في

اتخاذ هوية أخرى. خاصة وأنه يستطيع أيضاً أن ينشط في الحاضر والمستقبل عن أساس هويته الجديدة!

ولقد أساء الاستاذ قلعجي أيضاً فهم غايتي في الحديث عن حاضر الأمة العربية، بل لأقل إنه قد فهم أقوالي رأساً على عقب. فأنا لم أشتم حاضر الأمة، وإنما ألمحت في مقالي ذاك إلى عوامل الضعف التي تشبثت بحاضرنا، وما أحسب أن هناك رجلاً آخر يدعي أننا الآن في عصرنا الذهبي إلا إذا كان قانعاً بهذا الحاضر، وإنني أعود إلى التأكيد مرة أخرى أن واقعنا الآن واقع سيّئ، وليس أبلغ في الدلالة على انحطاط حاضرنا من الإشارة إلى فقدان العرب السيادة في فلسطين، حيث طردوا منها ليحل في أرضها شعب غريب، وإلى أنه بينما يتمزق المغرب العربي بنيران الاستعمار الفرنسي وأساليبه القاسية نجد سفراء فرنسا يتصدرون موائد الحفلات الرسمية في دمشق وبغداد وبيروت والقاهرة.

وعلى كل حال فإنني لم أشر على الأستاذ قلعجي أن يمنح الحكام العرب ثقته أو أن يحجب عنهم هذه الثقة كي يصبح قومياً عربياً شريفاً، فقد تركت لذكائه الخيار في هذا الشأن وإن أبسط وعي سياسي يجعلنا ننتقد الحكام عندما يخطئون أو يسيئون، ونصفق لهم عندما يحسنون.

وإن من أطرف ما ورد في مقال الأستاذ قلعجي، حديثه عن الاستعمار، ورغم أن هذا الحديث موجه إلى الدكتور عبد القادر القط، فإنه لمما يسعدني أن أجيب الأستاذ قلعجي بالسؤال التالي: «اعتبرتَ أن التأخر سابق تاريخياً على الاستعمار، فلماذا لم تحدد في قولك زمان التأخر وبدايته؟! وما هو التأخر وما هو الاستعمار، في التاريخ العربي؟».

لقد قال الناقد إن التأخر يمتد تاريخياً إلى ما قبل العهد التركي بزمن طويل، وهذا حق، وإني أقرّه على هذا القول، غير أن الاستعمار يمتد أيضاً إلى ما قبل العهد التركي بزمن طويل أي أنه يرافق التأخر، وهذا ما لم يقرره حضرة الناقد بل إنه ليزعم أن التأخر هو سبب هذا الاستعمار، وبذلك لا يكون قد أفسد فكرته الأولى فحسب، بل إنه ليشير بذلك ويؤكد بأن التأخر شيء طبيعي في النفس العربية، وصفة أصلية من صفات الشخصية العربية، وفي هذا تجاوز لم يبلغه الأستاذ عبد الله القصيمي وما بلغه أيضاً السيد هنري مارتن الذي جرد الشخصية العربية من حوافز النشاط الإنساني.

ذلك أننا لو قلنا بأن التأخر أو عوامل الانحطاط، صفة طبيعية للشخصية العربية، لكان ذلك يعني، أن العصر الوسيط العربي كان طبيعياً، ولم يكن شاذاً أن نقع في قبضة الاحتلال التركي، ثم أن لا يكون لنا أي أمل بالمستقبل، إذا كان عامل التأخر طبيعياً فينا.

إن الاستعمار، هو أن يفقد شعب سيادته بتسلط شعب آخر عليه، والاستعمار قد

يكون سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، وقد يكون جامعاً لهذه المجالات جميعها. ومن ناحية أخرى نجد أن الاستعمار قد تطور كثيراً وفي صور شتى عبر التاريخ، وصورة الاستعمار في التاريخ العربي هي الحركة الشعوبية، التي جمعت ميول الأعاجم إلى استغلال السيادة العربية.

ولقد استغلت الحركة الشعوبية كل مظاهر الحياة العربية فتسربت إلى الفكر والفن والأدب، كما تسربت إلى الدين والسياسة، وعملت بصورة خاصة على تبني عناصر اليسار في الدولة العربية من الطامعين بالخلافة، إلى الناقمين على السيادة العربية، فتبنت الدعوة العباسية ومن بعدها الدعوة العلوية، وعملت على انتشار الدعوة العباسية، أيام الامبراطورية الأموية العربية، حيث بلغت السيادة العربية ذروتها، واستقطبت الأعاجم في الأطراف الشرقية، وحدثت موقعة الزاب الشهيرة التي كان فيها انتصار الشعوبية على العربية، مبطناً بانتصار الأسرة العباسية على الأسرة الأموية، غير أن الخلفاء المشاهير في الحقبة العباسية، رأوا خطر الحركة، فقلموا أظافرها. فقتل المنصور أبا مسلم، وقتل الرشيد البرامكة. غير أن الشعوبية عادت بسرعة فانتصرت انتصاراً كاسحاً على يد المأمون الذي زحف بجيش فارسي ليدمر العاصمة العربية. لقد كان المأمون ابناً لفارسية، كما كان المعتصم من بعده ابناً لتركية فألف الجيش التركي، بينما تفرق الجند العرب ليمارسوا الزراعة في الأقاليم.

ولقد كان أحرى بالناقد أن يدرس الأمر ولو قليلاً، فالاستعمار الحقيقي بدأ منذ انحلال السيادة العربية، وليس التأخر هو سبب الاستعمار كما زعم، بل إن الاستعمار هو سبب التأخر.

ويتبسط الأستاذ قلعجي في حديثه عن الاستعمار فيسأل الدكتور عبد القادر القط ببراعة:

ـ «وما رأي الدكتور في أن الأقطار التي لم يدخلها الاستعمار هي أشد الأقطار العربية تأخراً؟».

ويحمل تساؤل الناقد المتحدّي هذا معنيين، أولهما، أن يكون الاستعمار قد أوجد التقدم والرقي في الأقطار المستعمرة، فيكون الاستعمار بذلك مفيداً (!) في علاج التأخر والانحطاط، وفي نقل مدنية الغرب وحضارته! وثانيهما، أن يكون الاستعمار بوسائله البربرية، قد أثار الوعي الوطني وحفز هذه الأقطار على التحرر.

ولكننا لو أهملنا الاحتمال الأول، لرأينا أن الاحتمال الثاني أقل موضوعية من الاحتمال الأول، وإن كان يدل على الذكاء. إذ إن أي مراقب للأحوال التي سادت في الوطن العربي يدرك ولا شك أن درجة الانغمار واحدة في جميع الأقطار العربية، فعندما أصاب الانحطاط سوريا أصاب مصر والحجاز واليمن والمغرب العربي. وإذا نهضت مصر مثلاً لم نجد باقي الأقطار إلا ناهضة معها. وهذا التوازي في حالة الأقطار الذي يشبه

القدر التاريخي، لم يخطئ إلا قليلاً في جميع أزمنة التاريخ.

ونجيب الناقد على تساؤله، بتساؤل آخر «أين هي الأقطار التي لم يمسها الاستعمار، ولم يدخلها. أهي اليمن؟ لقد سميت اليمن مقبرة الأتراك.. والحقيقة كما قلت أن السؤال غير موضوعي لأننا لا نستطيع أن نسمي قطراً عربياً واحداً لم يدخله الاستعمار.

والواقع أن الناقد قد أخطأ أيضاً، فالمواطنون العرب على درجة واحدة من الوعي، فالمثقف في جنوبي الجزيرة العربية لا يختلف عن مثقفي سوريا ولبنان والمغرب العربي، كما أن الرأي العام العربي ينفعل بدرجة واحدة ويهتز بمجموعه لنفس الأحداث.

إن العودة إلى التاريخ العربي وإحياءه، ليست هرباً كما يزعم الناقد بل هي انكباب على الماضي العربي لدرسه بصورة وافية، وهذا التاريخ عدا كونه يقدم لنا العبر والعظات من أجل تفادي الأخطاء في المستقبل، فإنه يمتاز أيضاً بأنه كان انعكاساً لما تتضمنه الذات العربية من وجدان عميق وعقلية حضارية راقية وخلق رائع قويم. هذه هي الدعوة إلى الماضي. حركة فاعلة ومنفعلة، لا كما ادعى الناقد بأنها حركة رجعية هاربة من واقعها... الخ.! ومن المؤكد أن بين دعوتي إلى الماضي، وهي دعوة مقتبسة عن قادة الأجيال العربية الناهضة، وبين دعوة الأوروبيين إلى ماضيهم، في العصر الرومانسي، فرقاً عظيماً. فأما ماضيهم فهو تلك العصور الوسطى الغوطية المظلمة. ودعوتهم تلك تتسم بالهروب من الاتجاه المادي الذي طغى على أوروبا منذ بداية العصر الآلي. وأما ماضينا الذي ندعو إليه فهو تلك القرون التي شعت فيها الحضارة العربية الزاهرة، بعلومها وفلسفاتها وفنونها وآدابها، فليس الماضي الذي أدعو إليه عصراً وسيطاً، وإنما هو ذروة في التاريخ الإنساني. غير أن هذه الحقيقة، حقيقة الفرق بين عصر الحضارة العربية والعصر الأوروبي الوسيط، قد غابت عن ذهن الناقد وفي ذلك تجاوز أكيد للحقائق التاريخية.

ولقد تسربت في الحقبة الطويلة التي امتد فيها نفوذ الأعاجم والأتراك أخلاق دخيلة هجينة، عزلت الشعب عن أخلاقه الأصلية التاريخية، ولا تزال هذه الأخلاق الدخيلة التي تربي التعصب الديني وتقضي على الدور المخصص للمرأة في المجتمع العربي، وتقطع صلة الإنسان بالحياة، قلت إنها لا تزال تنخر جسم حياتنا الاجتماعية، وإن عمل هذه «الأخلاق» المستمر، ليدل بصراحة على أن الانغمار ما يزال آخذاً برقابنا، وأوافق الأستاذ قدري قلعجي على أن هذا النوع من «الأخلاق» لا يسير بنا نحو الانحطاط فحسب، بل يقتل فينا كل إحساس بالكرامة والإباء ويصلنا بالخرافة والعزيمة وأوهام الشعوذة، وأول ميزة لهذه الأخلاق أنها تقلب مفاهيم الشيم العربية، فالإيمان ينقلب تزمتاً، والحلم ضعفاً والدّعة تقاعساً، وهذه الأخلاق التي تواكب التعصب الديني هي ما يقطع صلتنا بهذه الأرض، وما يلغي الشعور الوطني ويقوي الشعور الطائفي. غير أن الحملة على هذه الأخلاق لا تعني أن نرفض أخلاقنا القومية. ويخطئ الناقد عندما يدعي أننا ما زلنا نحمل

هذه السجايا. وكما أن على الإحياء الخلقي أن يحارب تلك الأخلاق المزيفة فإن عليه أن يواجه أيضاً الميوعة الخلقية التي امتدت تحت ظل المستعمر، لأن هذا التحلل الخلقي الأوروبي، هو أول ما يقوض روح المسؤولية في الفرد العربي، ويضعف إرادة المواطن.

إن لنا طابعنا التاريخي المميز، ونحن أقدم من أوروبا وأقدر منها على الاستمرار في التاريخ. إن الكائن الأوروبي يتربع بكل كثافته المادية على صدر العالم، والعالم تبعاً لذلك يتنفس في ثقل ينذر بالموت والانقراض للجنس البشري. وإن نداء «لسنا أوروبيين» ليدل على أن الحلول الأوروبية لا يمكن أن تجدي شيئاً في وضعنا، بل إن الحلول الأوروبية كالكابوس الذي يرهق كياننا العربي. فنحن في حاجة إلى حل عربي صادر عن حاجتنا. ومما يؤسف له أن الناقد كان أوروبياً تماماً، وكذلك كان الأستاذ عبد الله القصيمي، وقد لاحظ الدكتور عبد القادر القط ذلك في نقده مقال الأستاذ القصيمي: «حسبك أن تقرأ كتاباً واحداً في الأدب الأوروبي عن تلك الموضوعات لتظفر بكثير من مثل تلك الأقوال». ولم يعترض الأستاذ قلعجي على هذا النقد إلا بالقول: «إن هذه الأقوال التي قد تجد كثيراً منها في كتاب أوروبي واحد، والتي يرددها العامي في بلادنا بحماسة، هي من جوامع الكلم التي تمتاز بالقوة والروعة والبلاغة المعجزة، وهي لا تقل عن مثيلاتها من كلمات مونتسكيو وروسو وديدرو وغيرهم من أعلام الفكر.» والأستاذ قلعجي فيما يبدو لم يشأ أن يتعرض إلى هذا الجانب من الفكرة، وكل ما أثاره هو الانتقاص من روعة كلمات الأستاذ القصيمي، غير أنني أذكّره بأنني لم أكن أنتقد قصة ولا قصيدة، وأعتقد أن هذا هو موقف الدكتور عبد القادر القط.

ومما يثبت عدم صلاحية الحلول الأوروبية فشل الأنظمة الأوروبية المطبقة في الأقطار العربية، فلا الشعب استطاع تذوقها ولا هي استطاعت أن تتمثل حاجات الشعب. فقصرت تبعاً لذلك عن النهوض بالشعب، وإذا هي سارت به فهي تسير باتجاه غير اتجاهه الأصيل أي أنها تفرض عليه مصيراً غريباً عنه. وإن فشل النظام البرلماني قد ظهر صريحاً من الانقلابات المتكررة في جميع الأقطار العربية، لجعل هذه الأنظمة أقرب إلى طبيعة الشعب. فمن أتى بهذه الأنظمة أتى بها جاهزة كالثياب التي لا تراعي شكل الجسم الصحيح، وتراعي بدلاً منه الطول والعرض والاستدارة.

ولكن أرجو ألا يفسر هذا النقد بأنني أرفض الأنظمة الديمقراطية فكل ما أريده هو أن يجري تعديل على هذه الأنظمة المنطقية حتى تصبح موافقة لواقعنا ولانطلاقنا نحو مستقبل أفضل إذ ما تزال هذه الأنظمة أوروبية الروح والطابع. ولذلك فإنني أرى أن تدخل الروح العربية على هذه الهياكل الأوروبية، علينا في الحقيقة أن نقف من أوروبا موقف شعب له شخصيته، وله تاريخه، فلا نغرق بروحها لنتلف روحنا. كما أن علينا ألا نقف منها موقفاً سلبياً، إن في وسعنا أن نأخذ عنها كما أخذت هي عنا وعن اليونان.

وبهذه الجوانب الفسيحة تنشأ نهضتنا القومية، فتحتفظ أولاً بطابعنا التاريخي

ومقوماتنا الخلقية والوجدانية، وننشأ مع ذلك كشعب حديث مؤمن بمستقبله متمكن من حاضره.

* * *

لقد بقيت ناحية جديرة بالعناية، وهي أن الأستاذ قدري قلعجي قد سخر من تحذيري إخواني العرب من إمكان استغلال اليهود لأخطائنا، ولقد زور قصدي في ذلك. غير أنني أنبه الأستاذ قلعجي إلى أن اليهود يحاولون محاولة جديدة تهديم كياننا الخلقي، وهذا ما ذكرته في مقالي «شريعة الهدم في الإنجيل الضائع» تعليقاً على آراء الأستاذ القصيمي وأعيد ذكره هنا، ذلك أن شعبنا إذا غرق في الميوعة الخلقية، فإنه سيصبح في قبضة اليهود. ولقد كانت توصيات زعماء الصهيونية هي «تهديم أخلاق الشعوب ونشر الدعارة والترف، وهدم التقاليد القومية...» وهذا ما يجب أن نعمل لتلافيه.

* * *

هذا، وفي ختام هذا المقال أؤكد للأستاذ قدري قلعجي أنني ما ناقشته ولا ناقشت من قبل الأستاذ القصيمي، عن أمور شخصية، كما أنني لم أناقشهما على القوة البلاغية أو الشعرية في أسلوبهما الرشيق. ذلك أن ما كتبه كل منهما لم يكن قصيدة شعرية ولا قصة، بل كان عرضاً لأمور تهم كل إنسان عربي، ولذلك فإنني أحيل الغمزات وكل ما ورد من هذا القبيل على القارئ الكريم ليحكم بنفسه عليها.

أزمة القيم في المجتمع العربي(*)

عبد الجليل حسن

ليس هذا نقداً لقيمنا وحياتنا، فقد أكثر الكاتبون من النقد، ولكن النقد في حد ذاته ليس إلا عرضاً من أعراض الأزمة، ودليلاً على وجودها. وإنما هدفنا أن نعرض للأزمة الراهنة ـ أزمة القيم في المجتمع العربي ـ محاولين أن نشخصها ونتعرف على أعراضها، حتى يمكننا أن نقدم صورة متسقة لها تنتظم مختلف جوانبها، فالقصد أن نتبين مسارات الأزمة العربية ونتعرف على البواعث والأسباب التي خلقت تلك الأزمة، دون أن نشير إلى القيم الصحيحة السليمة التي نحتاج إليها حتى نتحرر من أزمتنا لأن هذه المرحلة، مرحلة العلاج والبناء، لا بد أن تسبقها مرحلة التشخيص والتصوير. وأعتقد أننا إن استطعنا أن نصور ونشخص واقعنا، نكون قد كسبنا كثيراً، لأن التعرف على الخط الأساسي لتطور الأزمة وسيرها في بلادنا، يعيننا على إظهار الترابط بين المشاكل، ويحذرنا من معالجة قضايانا العربية أجزاء وتفاريق مستقل بعضها عن بعض، فنعالج الرشوة والمحسوبية بالقانون وحده، ولا نعرف إن كانت نتيجة للروح الفردية، أو نعالج الفساد من ناحية الحكم بمجرد سن تشريعات نيابية راقية مثلاً.

بذلك يمكن أن تقوم الناحية البنائية في مجتمعنا على نظرة تحليلية أولاً حتى نستطيع أن نقدم لمجتمعنا ثانياً ما يحتاج إليه فعلاً، فيقبله ويعتنقه لأنه محتاج إليه، ولا تقوم على ما يتراءى لنا من حلول تقترح نتيجة لإحساسنا غير الواعي بأوضاعنا القائمة، فلا يستجيب لها المجتمع، لأنها ليست حلولاً حقيقية لمشاكله، فنحن إذ نقوم بذلك التصوير والتشخيص إنما نعمل من أجل أن تكون نواحي العلاج عندنا متكاملة ومرتكزة على أصل من التحليل والتشخيص بحيث نواجه واقعنا متكاملين بخطة منظمة شاملة هادفة، فلا نصلح طفح الداء ونطمئن إلى الشفاء.

* * *

نتساءل أولاً: ما هي القيم؟ إن القيم جزء من هذا العالم الذي نعيشه ونتحرك فيه

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٤، العدد ٣ (١٩٥٦)، ص ٢٦ ـ ٣٢.

وليست ماهيات أو حقائق أزلية أبدية، وليست تأليفات منطقية أو أشياء هي موضوع للتأمل، بل هي جزء من حياتنا الواقعية وسلوكنا اليومي، هي كل ما نحس أننا بحاجة إليه لكي نصل إلى ما نبغي من رفاهية وأهداف نعدها سامية، وهي وليدة الشعور المتأصل فينا بأنه يمكن جعل الحياة أحسن مما هي دائماً، وأننا يمكن أن نعيش أغنى وأكمل باستمرار مما نحن عليه، وهي وليدة اتجاهنا بعواطفنا وانفعالاتنا نحو ما يحقق لنا هذه الأهداف، الأهداف التي تجعل حياتنا ــ فيما نرى ــ أنمى وأخصب وأكثر سعادة، وهي وليدة نفرتنا من كل ما يعوقنا عن أهدافنا المنشودة. وهي تمثل الأشياء التي نتجه برغباتنا واهتماماتنا نحوها. ولكل مجتمع قيمه واهتماماته التي يقدسها والتي يعمل على تثبيتها وتحقيقها ويحتقر من لا يأخذ بها أو يحاربه إن أحس أنه يهددها، وما كل أنواع الحروب والتعصب إلا وليدة الاختلاف الجوهري بين قيم المجتمعات، فالقيم هي التي تحدد سلوك الناس وتوجهه. ولكن هذا التعبير يحتاج إلى إيضاح، فنحن لا نشاهد القيم التي توجهنا، وإنما ما نشاهده هو التفاعل بين الناس، ولكن على أساس القيم الموجودة في المجتمع يتلون تفاعل الناس ويفسر سلوكهم ويفهم. فالقيم في حياة المجتمع أشبه بالجاذبية التي تشد إلى الأرض، فكما أن الجاذبية تفسر الانتظام في سلوك الحوادث الطبيعية، فكذلك القيم تفسر الانتظام أو عدم الانتظام في سلوك المجتمع.

* * *

والآن بعد أن عرفنا ما هي القيم وأنها هي الجهاز الإنساني الذي نجابه به الواقع، نتساءل: هل نحن، هل المجتمع العربي، يواجه واقعه؟ ومجرد هذا السؤال يبرز أمامنا أزمة ضخمة من أزمات مجتمعنا العربي، وهي أزمة الكيان في العالم العربي، إذ إن المجتمع العربي لا يواجه مشاكله موحداً بل يواجهها مفرقاً، ولذا فهو لم يخط خطوات حاسمة نحو حل هذه المشاكل. وهذه المواجهة المفرقة الضعيفة غير الطبيعية وليدة الضغط الاستعماري الأوروبي من قديم والأمريكي الأوروبي الآن. وأكبر خطة نجح المستعمر في اتخاذها لإضعاف المجتمع العربي هي تفرقته وخلق دول مصطنعة وقوميات متعددة في داخله، مما فتت من القومية العربية التي كان يمكن أن تنمو. وتقف فلسطين موقفاً بارزاً حين النظر في أزمة الكيان هذه، إذ إنها كانت ولا تزال من أهم العوامل الكاشفة التي تدل على أن الكيان العربي الرسمي الحكومي ليس بكيان مجتمع موحد، بل هو كيان مصطنع، فقد كانت صفعة دلتنا على خطأ اعتقادنا في سلامة الكيان العربي الحكومي الراهن، فهي تشير إلى فساد هذا اللون من التكيّن الرسمي.

ولأهمية أزمة الكيان هذه سنفرد لها مقالاً وحدها، وحسبنا الآن أن ننتقل إلى العالم العربي أو المجتمع المأزوم في كيانه، لنعرف ما هي قيمه وما مظاهر أزمة القيم فيه.

إذا أردنا أن نعرف مجموعة القيم في مجتمع ما، فمن اللازم علينا أن ننظر إلى الغرض الذي يهدف هذا المجتمع إلى تحقيقه، وبذا يصبح هذا الغرض هو النقطة التي ترجع إليها مجموعة القيم في هذا المجتمع. فنظام القيم في مجتمع ما يتحدد بفكرة هذا

المجتمع عن الحياة وغرضه منها، فيصبح كل ما يخدم هذا الغرض خيراً يجب أن يسعى إليه، وكل ما يعارضه شراً يجب أن ينهى عنه.

كانت مجموعة القيم في المجتمع العربي قيماً مناسبة للواقع التركي، واقع الاستعباد والقيود، وكان الهدف منها تيسير الحياة في هذا الجو الذي يحرص على أن يبقى العبيد عبيداً والسادة سادة. فكانت قيماً لتبرير هذا الواقع الاجتماعي، فهي قيم سلبية تعزل الناس عن المشاركة في مجتمعهم، قيم غير فعالة، فليس للناس أن يهتموا بمشاكل السياسة، وليس للناس أن يناقشوا مسائل حياتهم التي يعيشونها، بل هم يشجعون على أن يناقشوا مسائل الحياة الأخرى حتى أصبح البحث في مشاكل العالم الآخر قيمة ضخمة يطلق على أصحابها لقب العلماء. وقد بدت ظاهرة الانعزال عن السياسة ـ في العصر الحديث جداً ـ في تلك الهيئات والطوائف والنوادي المتعددة التي تنص في برامجها على الابتعاد عن العمل السياسي، وفي الدعوات القائلة بعدم إشراك الشعب في العمل السياسي، وفي قصر ذلك على طائفة خاصة منه، وأيضاً في هؤلاء الذين يدعون إلى فردية العمل السياسي ويخرجون للناس على أنهم مستقلون، كأن عدم الانضواء تحت فكرة، والتزام مبدأ معين، شرف يتقدمون إلى الناس به. وكانت الغاية من هذه القيم كذلك أن تخدم الوضع الاقتصادي، وتعين على ثباته واستقراره وتبرر وجوده، فانقسام الناس إلى طبقات كان شيئاً مسلماً به، وقد استمدت هذه القيم ـ التي يصح أن نطلق عليها القيم التبريرية ـ أساس وجودها من مجموعة من الأفكار الدينية، فالفقراء يجب عليهم أن يقنعوا بنصيبهم من الحياة، وأن يعرفوا أن هذا النظام الطبقي قد وضعه وقدره المولى من قبل، ووجود كل فرد في طبقته قد حدده الله له، وأن عدم المساواة في الأرض سيعوضها عدل الله في السماء.

إن مجموعة الأفكار التي كنا نبرر بها وجودنا وواقعنا السيئ، أفكار تستند إلى أساس ديني، فقد كنا نواجه مشاكلنا مواجهة غيبية، غير واقعية، ميتافيزيقية. أما الآن فقد تغير الوضع وأصبحنا نؤمن بالشخصية الإنسانية واحترام الفرد الإنساني. فلكل مواطن، أي مواطن، حقوقه كإنسان، وأصبحنا نرفض كل القيم والنظم التي تؤدي إلى إخراج حشود الناس من المضمار الإنساني، فلم تعد هناك قمة تنتظر السادة الحاكمين، وسفح يستقبل بين ذراعيه طوائف المستعبَدين. لقد انتهى عهد الرقيق وأصبحنا ننادي بالمساواة، ليس فقط أمام الله بل هنا فوق هذه الأرض وأمام المجتمع. انتهى زمن المجتمع المغلق والطبقات المغلقة التي لا تسمح أبوابها المحكمة لأحد السادة أن يهبط ولا لأحد العبيد أن يرتفع. انتهى كل ذلك وأصبحنا نرنو إلى المجتمع المفتوح الذي يتحرك الناس صعوداً وهبوطاً داخل طبقاته، حتى تتقارب المستويات. ونتيجة لذلك أخذت النزعة الشعبية ـ عندنا كما في الغرب ـ تنتشر، فالشعب هو القاعدة في الحكم، وهو الأساس في التوزيع الاقتصادي وفي الحقوق الاجتماعية. ولم تعد النظرة المثالية الدينية هي التي تمثل القيمة الكبرى لدينا في فهم الكون، بل تغيرت نظرتنا من المجال الغيبي القدري إلى المجال الفعلي العلمي.

تلك هي مجموعة القيم الجديدة التي أصبحنا نرنو إليها. وسأوضح هذا بالحديث عن موقفين من المواقف التي تكشف لنا عن نظام القيم في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات، وهما موقفنا من الطبيعة وموقفنا من الزمن.

فأما موقفنا من الطبيعة، فلم يعد موقف الخاضع المستكين لحكمها؛ لم نعد ننظر إلى كوارث الفيضانات والمحاصيل نظرة سلبية تكتفي بتبرير هذا بأنه قدر لا مفر منه ولا مهرب، ويجب أن نرضى به كما نرضى بالموت، ما دامت مشيئة الله وراء ذلك كله، كما تعبّر عن ذلك الأمثال التي من قبيل «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين»... لا، لم يعد موقفنا كذلك، بل أصبح موقف كفاح وتغلب، وأصبحت محاولة السيطرة على عناصر الطبيعة وإخضاعها لمصلحتنا بإنشاء الخزانات والكباري وشق الترع والأنفاق وتجفيف البحيرات هدف العلم الأول. وهكذا نرى الاتجاه الاتكالي القدري المستسلم كان هو السائد، أما الآن فهو مرفوض، ونحن نطمع في أن نحل مكانه اتجاهاً كفاحياً مناضلاً، ولهذا أصبحت القيم المتعلقة بهذا الاتجاه هي المرغوب فيها والمنادى بها.

هذا هو موقفنا من الطبيعة. فأما موقفنا من الزمن وشعورنا به ودلالة الأبعاد الزمنية الثلاثة في حياتنا ـ فما هو؟ هل الحاضر أو الماضي أو المستقبل هو المهم عندنا، وأي الأبعاد الزمنية الثلاثة يسود حياتنا؟ وليس معنى هذا أننا نغفل بعدين من الزمن ونأخذ بالثالث فقط، بل معناه أننا نضغط عليه ونعيش فيه ويسود حياتنا.

كان البعد الزمني الذي يسيطر علينا هو الماضي. فلم نكن نحفل بالمستقبل وكنا نعده مجهولاً غامضاً، وقد وكلنا أمره إلى الله، فلم نكن نضع الخطط والمشاريع والتصميمات، إذ إن وضع الخطط والمشاريع من سمات الشعوب التي تحفل بالمستقبل. لم نكن نؤمن بأن غداً سيكون أحسن من اليوم ولم نكن نعمل دائماً ونغير فيما نعمل حتى يكون «أكبر وأحسن». ولم نكن نحسّ بضغط الزمن علينا ومروره، ولذا كان، وما زال من سماتنا المواعيد غير الدقيقة، ولم نكن نحسب اليوم في الحقيقة أربعاً وعشرين ساعة، بل كنا نعتبر خمسة أوقات هي مواقيت الصلاة. ومما هو ذو دلالة اننا في المجتمع العربي، وخاصة في الريف، ما زلنا نعطي المواعيد بحسب مواقيت الصلاة، فنقول مثلاً «قابلني الظهر أو العصر».

فالساعة لا تضبط حياتنا، ونحن لا نحس بالزمن وضغطه ولا «نستخدم» الوقت بل «نمضيه» و«نخبر» عنه. أما الماضي فهو الذي يسود حياتنا فنقدس الأسلاف، والروابط العائلية عندنا قوية، ولا شيء جديد، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وكل ما يحدث فقد حدث من الماضي، فلو قال غربي متحذلق «ان الغرب عرف الذرّة» لرددنا عليه متعجبين من جهله «وإن قدماء المصريين قد عرفوها من آلاف السنين أو أنها وردت في القرآن»!! فنحن نعيش في الماضي وإن اهتممنا بالحاضر فلحظتنا فقط هي موضع اهتمامنا، وقد كان الاهتمام بالماضي بمثابة عملية دفاع عن وجودنا، فنحن نلجأ لمذخورنا القديم نستنجده في الدفاع عن كياننا أمام التيار الغربي الساحق. ولكننا نحس الآن أن

لدى الكثيرين اتجاهاً نحو المستقبل ورغبة في «استعمال» الوقت لا مجرد «تمضيته». ـ إننا في صراع، إننا في أزمة!

هذا التعارض الأساسي بين القيم التقليدية الآسنة التي لم تعد مناسبة للوضع الجديد، وبين القيم الجديدة، هذا التعارض خلق أزمتين رئيسيتين، يتبع كل أزمة منهما عدد من المشاكل والأزمات الجانبية. أما الأزمة الأولى، فهي أزمة تتعلق بتلقي القيم الجديدة وأخذها، وأما الأزمة الثانية، فهي: لماذا فشلت قيمنا التقليدية؟ والآن نتحدث عن علة فشل قيمنا التقليدية هذه. ويمكن أن نرد أزمة القيم عندنا وما تبع هذه الأزمات من مشاكل إلى سببين متصلين:

أما السبب الأول، فقد ذكرنا من قبل أن أساس القيم في مجتمع ما يمكن التعرف عليه بمعرفة الهدف الأساسي الذي يسعى هذا المجتمع إلى تحقيقه، فإذا عرفنا أننا لم نعد نرضى عن الوضع الاستعبادي القديم، كان نتيجة ذلك أننا أصبحنا نعزف عن الإيمان بالقيم وقواعد السلوك التقليدية الموروثة. غير أنه لم يكن من اليسير التخلي عنها، لأن هذه القيم كانت تؤلف جزءاً من كياننا، وكانت العامل الأكبر الذي يوحد بين أفراد مجتمعنا، فكانت جزءاً من ذاتنا الاجتماعية، وكانت تؤلف وحدتنا السيكولوجية ووجودنا النفسي. كانت تكون الأنا الأعلى لدى مجتمعنا القديم؛ كانت الذات المثالية التي ينشدها مجتمعنا آنئذ. وإذن، فليس بيسير علينا أن نخلعها عنا كما نخلع ثوباً بالياً لأنه رثّ وتمزّق ولم يعد يستر وجودنا، فهذه القيم لم نعد نرضى أن تكوّن «ذاتنا المثالية» المنشودة، وبالتالي لم تصبح اليوم قيماً فعالة في حياتنا، فلم نعد نرضى بالقيم التي تقول بالزهد في الحياة والقناعة والاستسلام وإن طاعة الحاكم واجبة وضربة شرف.

لقد فقدت القيم التقليدية في مجتمعنا معناها ودفة التوجيه في حياتنا لهذا الصراع، وإن كان الكثير منها لم ينبذ بعد، إلا أنها على أي حال لم تعد قيماً فعّالة في حياتنا، محركة لنا، ملونة لسلوكنا، بل أصبحت قيماً شكلية، نأخذ بها حتى يبدو كياننا موحداً في الظاهر، موحداً من الناحية الشكلية، بينما هو كالبناء المنخور اللبنات، أو كالبيت المتداعي الذي نقيمه بجهد حتى ننتقل إلى البيت الجديد. ونستطيع أن نمثل على ذلك بالدين. فنحن نأخذ بالدين ونؤمن به، وندافع عنه ونجادل في أنه أصلح شيء لنا، ولكننا لا نعمل به، وهذا هو معنى قولنا إن أكثر القيم التقليدية فقدت معناها وروحها ودفّة التوجيه في حياتنا.

إن القيم القديمة لم تعد تتناسب وأهدافنا الجديدة في الحياة، بل إنها لم تتطور حتى تواجه حاجاتنا في المجتمع الجديد، هذا المجتمع المتغير في كل وقت في جميع نواحيه الطبيعية والسياسية والاقتصادية. ولم يكن في مقدور النظم القديمة والقيم التي ارتبطت بها أن تفي بتحقيق المسلمات الإنسانية الغربية، تلك المسلمات المتمثلة في الحرية، وفي التفكير الحر غير المقيد بالنظم المغلقة الجامدة، وفي المساواة، والشكل الديمقراطي من الحكم لا الاستبدادي، والاشتراكي لا الإقطاعي ولا الرأسمالي في الإنتاج والتوزيع، ولذا

أخذت نظمنا الاجتماعية والقيم المرتبطة بها في التغير مثل النظام العائلي والسياسي واللغوي والفني، فأصبح الزواج واحدياً في معظمه، والإقطاع بسبيل الزوال، والقاعدة في الحكم ستكون الدستور النابع من الشعب، واختفى السجع والمحسنات البديعية من الكتابة، وظهرت أشكال فنية جديدة كالقصة والمسرحية وتغير البناء الشعري. . . وقد تغيرت هذه النظم جميعاً لأنها لم تعد تشبع مطامح الناس وآمالهم، أي لم تعد بكافية للتعبير عن قيمهم الجديدة.

وقد تمثلت هذه الأزمة للقيم القديمة وفشلها الحتمي في تلك النتيجة الدراماتيكية العنيفة التي أصابت المجتمع في صميم كيانه، فلم نعد نؤمن بمجتمعنا حقيقة، ولم يعد يجمعنا غرض مشترك على صعيد واحد، وتجلت هذه الأزمة في شكل عدم إيمان بالمجتمع العربي وفقدان الولاء الاجتماعي والإخلاص نحوه.

وعن هذه الأزمة، أزمة الولاء نحو المجتمع العربي، نتجت عدة مشاكل:

أولها: إننا أصبحنا نرفض الماضي الآسن العطن، وقد تصل هذه الحالة، حالة الرفض وعدم الولاء نحو المجتمع العربي، إلى الإحساس بعدم المسؤولية نحو المجتمع والتخلي عنه، عن المجتمع العربي، وقد تمثل ذلك الهرب من قدرنا الاجتماعي في صورتين: هرب إيجابي وهرب سلبي.

أما الهرب السلبي، فهو مشاهد لدى جموع الشعب العربي، الجموع التي تترك كل شيء يعمل لها، شاعرة بعدم جدوى العمل في مجتمعها، لأنها يائسة من أن يوجه هذا العمل لمصلحتها، فلا تنشط بالاشتراك الفعلي في التوجيه السياسي. وهكذا نقدر أن نفسر الموقف السلبي لدى الجمهور العربي تجاه قضاياه.

وأما الهرب الإيجابي فهو رفض بعض الأفراد أن يوحدوا أنفسهم بمجتمعهم، فهم يشعرون بأنه ليس هناك أمامهم غاية اجتماعية يجب عليهم أن يكرسوا حياتهم في سبيلها. ومن هنا يستبيحون لأنفسهم حرية العمل الفردي. العمل لمنفعتهم ومنفعة زمرهم، فهم يسلكون كما لو لم يكن لهم مجتمع يجب أن يعملوا لأجله. ويتمثل هربهم الإيجابي هذا في عملهم الفردي، إذ ما هو الدافع إلى العمل الجماعي العربي؟ وكثيراً ما تزداد إيجابيتهم الفردية هذه، فينهمكون في توجيه النظم الاجتماعية، سياسية واقتصادية، لخدمة مصالحهم الشخصية. وفي هذا تفسير وتعليل للاتجاهات الاقطاعية والرأسمالية وما يواكبها من تفش للوساطات والرشاوى وللصورية الملموسة في تطبيق النظم الديمقراطية، وعدم القيام بإصلاحات جوهرية متكاملة منظمة، لأنهم غارقون في إصلاحات شكلية مجزأة موقوتة.

وليست هذه هي المشكلة الوحيدة لهؤلاء الأفراد الهاربين، فإنهم قد ينفصلون فعلاً عن قدرهم العربي، ويرتبطون بمجتمع آخر، ويضعون أنفسهم عن طواعية حرة في خدمة المجتمع الآخر حتى يلبوا ما عندهم من نقص، ولو أدى ذلك إلى أن يتسببوا

لمجتمعهم العربي بأفدح الأخطار. وهذا النوع من الأشخاص يؤلف لوناً من الشخصيات هي «الشخصيات الهامشية» ويتمثل هذا اللون عندنا في هؤلاء الأشخاص العرب الذين ينتمون أصلاً إلى الحضارة العربية، ويلتصقون ثقافة وشكلاً بالحضارة الغربية. فهم يعيشون على هامش الحضارتين ولا يشغلون أياً من مركز الحضارتين، فلا يُقبلون في واحدة منهما، فهم عرب حقيقة إلا أنهم غربيون حضارة وثقافة.

ولسنا نعني «بالشخصية الهامشية» كل من تثقف بالثقافة الغربية، بل كل من انفصل عن مجتمعه العربي وخدع نفسه بالتغرب عن بيئته. فهو يعاني من مركب النقص إزاء الغربيين ومن الشخصية المزدوجة في ذات الوقت.

وفي هذا الذي نقوله عن «الشخصية الهامشية» تعليل لما نشأ من نزعات الولاء والإخلاص لدى بعض الشخصيات عندنا نحو مجتمعات أجنبية، وتنكرهم لمجتمعهم العربي، فبيننا من يخلص للانكليز في مصر والعراق، وللفرنسيين في سوريا ولبنان وللإيطاليين في ليبيا، وللأمريكيين أخيراً. وأخطر الشخصيات الهامشية حديثاً هم هؤلاء الذين يرنون دائماً إلى مكة الجديدة، إلى موسكو، يستلهمونها لوناً من الحياة هو أكمل الألوان فيما يعتقدون. وتكمن هذه الخطورة في الحماس العقيدي الذي يأخذون به هذه الأفكار على أنها المخلص الجديد، مما يجعلهم يرفضون كل شيء غيرها بعنف، ويتلقونها جميعاً بلا وعي ولا استبصار بواقعنا، وهذه خطورة الحماس العقيدي دائماً.

فهامشية هؤلاء وأولئك ومركب النقص عندهم تدفعهم إلى الانتماء إلى مجتمع يعتقدون أنه راق وتقدمي، متنكرين لمجتمعهم الأصيل.

* * *

وقد كان من أهم النتائج لشيوع هذه الروح، روح عدم الولاء للمجتمع وفقدان الحس الجماعي سيادة الروح الفردية في مجتمعنا العربي. ولعل الاتجاهات الفردية في الجانب الاقتصادي تتمثل في النزوع نحو الإقطاع والرأسمالية واقتصار المصالح على خدمة أفراد أو فئة من الأقارب، وما يستتبع ذلك من ألوان المحسوبية والرشوة، وتتمثل في الجانب السياسي في النزوع إلى الحكم الفردي الاستبدادي. ولكن هناك مظهراً آخر للفردية تجلى في الأدب والفن عندنا، فلم تكن القصيدة تعبيراً عن إحساس الأمة دائماً، وإنما كانت في أغلب أحوالها تعبيراً عن إحساس فردي لإنسان لا يحس بواقع وطنه ولا يشعر بحاجة هذا الوطن إلى الخبز بقدر ما يشعر هو بحاجته إلى نظرة من امرأة تشعره بوجوده التافه المريض.. ولم تكن المقالة إلا خواطر انعزالية لا تلمس حياة الناس، يعالج فيها الكاتب قضايا ميتة لا تعيش إلا في رأسه، فماذا يهمنا نحن من آثار قدامة بن جعفر وسيبويه وابن خلكان والباطنية وغيرهم إذا لم يوصل بينها وبين واقعنا. حتى أغانينا كانت أغاني مائعة فردية لا تحس فيها شعور الأمة نحو شيء مشترك، وإنما تتعلق بما هو غريب عنا، ومع ذلك يحاول أصحابها إذاعتها بيننا. ومن هنا نستطيع بسهولة أن نعلل «أزمة الكتاب العربي»، المكتوب باللغة العربية، وليس الكتاب العربي الذي يمكن أن يضاف إلينا

نحن العرب. وليس معنى هذا أن الكتب التي تعبر في صدق عن قضايانا ومشاكلنا أي عن «النا» عند العربي الصاعد لا تعاني هي الأخرى أزمة، بل هي أيضاً تعاني أزمة تتمثل في الضغط السياسي الداخلي والاستعماري معاً، الذي يحارب جاهداً الروح العربية الصاعدة حتى لا تظهر وتنبثق.

* * *

هذه هي الأزمة الأولى بمشاكلها الجانبية التي تتفرع عنها؛ وأما الأزمة الثانية فناجمة عن الجانب المقابل في مجتمعنا العربي المنشود.

فالمجتمع العربي قد شرع في رفض قيمه الآسنة التي لم تعد تصلح له، وأخذ يستبدل بها قيماً إنسانية جديدة، فأصبح المجال مجال صراع وتغير، وحلول قيم جديدة محل قيم قديمة. وارتبط بهذا الوضع عدة مشاكل، ولن يستقر الوضع في البلاد العربية حتى تحل.

فقد أدهشنا تقدم الغرب الآلي في جوانب المواصلات والطب والآلات الحربية وجميع مظاهر التقدم التكنولوجي، فأعجبنا بنظمه، وارتبطت آليته ونزعاته العملية لدينا بمجموع من القيم. ولما كنا ضعافاً، شعرنا أمام هذه القيم بالإجلال والتقديس، بل تعصب فريق منا لها واندفع ينادي بعدم الارتباط بحياتنا الماضية وقيمنا الموروثة. وبجانب هذا، تعصب آخرون لقيمنا الماضية التقليدية، فأخذوا يدعون لنبذ الحياة الغربية واحتقارها وأخذوا ينادون بمحاولة الرجوع إلى رصيدنا المذخور نلجأ إليه للدفاع عن كياننا، وجعلوا يتفاخرون بماضينا الوضاء، ويقللون من شأن الحضارة والتقدم الغربي، وزعموا بأن ليس لدى الغربيين شيء لم نعرفه، فلو زعم مفتون بالحضارة الغربية أن الغرب عرف الذرة مثلاً، لقالوا إنها في القرآن، ولو قال عندهم نيوتن لقالوا عندنا الحسن بن الهيثم، ولو قال عندهم النظام النيابي والاشتراكية لادعينا أن أجدادنا عرفوهما ورحنا نتحدث عن الشورى وعن أبي ذر الغفاري!

ومثل هذا الاتجاه يدل في الحقيقة على الانسحاق أمام تيار الغرب الحضاري.

والأزمة الناجمة عن هذا الصراع بين القوى الراجعة إلى الخلف والزاحفة المتطلعة إلى الأمام، تتمثل في أخذنا السريع المبتسر للقيم الجديدة أخذاً سطحياً قد يتعارض مع روح مجتمعنا وإمكانياته وقابلياته، لأنها لم تنبع منه، من داخل المجتمع، حيث لم نحفل بمراعاة مدى اتفاقها وصلاحيتها لمجتمعنا ذي القيم المغايرة. وهنا تبرز تلك الأزمة المتمثلة في هذا الاضطراب المشاهد في عجزنا عن تطبيق النظم الجديدة، لأننا لم نفهمها بعمق حيث إننا نتلقاها تلقياً ظاهرياً، فنحن حتى نرضي تطلعنا، ترانا نسرع في أخذ مظاهر النظم الغربية في الحكم.

فالديمقراطية عندنا شكل لا روح، والحياة الاجتماعية غربية مظهراً، فنحن مثلاً نحسب أن تحرر المرأة يكمن في الأزياء والسلوك الخارجي، وفي الرقص والسكر وإباحة

العري، وقد يكون ذلك في مجمله حقاً مظهراً من مظاهر التحرر، ولكنه على كل حال، ليس تحررها الحقيقي من عبوديتها.

إننا نأخذ بالمظاهر الغربية، دون أن تتأصل فينا الروح التي خلقتها: إذ لم يتمكن بعد المنهج العلمي في حياتنا، ولم يصبح الشعب حقيقة هو القاعدة في الحكم.

وهذه الأزمة هي أزمة أخذ وتلقٍ تقليدي غير واع، وتتمثل في حديث كتابنا عن ذاتيتنا وعن تراثنا ومجدنا وشخصيتنا العربية التي يجب ألا تضيع، ويجب ألا تكون نسخة أخرى عن الغرب، إذ لنا كياننا ولنا تاريخنا ومصيرنا.

وهذه الأزمة التي تمثل مرحلة التوتر المحموم في مسار القيم عندنا، لا يمكن أن تحل، إلا على أساس من التشخيص المتكامل لمظاهر الأزمة في مجتمعنا العربي. ففشلنا في نظمنا السياسية والاقتصادية والتعليمية، وعدم قدرتنا على الإبداع في الحقل العلمي، وشيوع المذاهب والدعوات الغربية التي ليس لها صدى حقيقي عميق في مجتمعنا. كل هذا من مظاهر هذه الأزمة، وإشارة إلى الاتجاهات التي سوف يكون لها أثر في حياة المجتمع العربي.

فستستمر الاتجاهات الجديدة في عالمنا العربي متصارعة حتى تتضح الغايات التي نريد، وبالتالي القيم التي نستقر على الأخذ بها. ونستطيع القول بأن هذه الأزمة تتركز في الإجابة الواعية عن هذا السؤال: ماذا نريد؟.. ما هو غرضنا وهدفنا في الحياة؟

ولذا فيمكن التنبؤ بأن الدعوات المتعارضة الكثيرة ستجتاح عالمنا العربي هذه الحقبة، وسوف تفلح الاتجاهات الفعالة في خلق نظام من القيم يساعد على تحقيق هذه الاتجاهات والغايات، فأزمة المجتمع العربي في هذا الطور، أزمة قيم لم تتحدد، وغاية وهدف لم يتضحا... أي إن الصفات والسمات التي نريدها ونرغب في وجودها، لم تتحدد بعد بجلاء ووضوح، لأن هذه الاتجاهات الحديثة المتصارعة لم تعمق بعد في كياننا، أو تتخذ لها أصولاً وجذوراً في وجودنا.

وفي هذا تعليل لمشكلات الأحزاب وتعددها وكثرة التكتلات التي لا معنى لها في المجتمع العربي. فمعظم هذه الأحزاب، واحدة الأهداف والغايات، والعلة في أنها تقوم على الزعامات الاستهلاكية، أي الزعامات التي تكتسب صفة الشعبية في استهلاكها العملة السهلة، أعني الألفاظ الطنانة والوعود الفضفاضة الخلابة غير المحددة، فهي تقوم على الإرضاء الكاذب للقيم وإشباع الطموح إلى القيم الجديدة إشباعاً متوهماً ومشوهاً. والذي مكّن لمثل هذه الزعامات من الظهور هو عدم وضوح ما نريد وعدم الاستقرار في المجتمع العربي على ما ينشد من أهداف. وحسبك دليلاً على ذلك هو أنه حين كان الهدف واحداً في معظم البلاد العربية، وهو طرد الاستعمار، لم يكن في كل قطر منها ــ وخاصة مصر ــ إلا حزب واحد قوي يلتف الشعب حوله. ولكن الذي حدث أن أصيب الشعب بالخيبة من هذه الزعامات، لأنها كانت زعامات فردية إقطاعية ورأسمالية تتبنى القضية

لتحافظ على مصلحتها هي، لا على مصلحة الشعب، وقد أدت خيبة الأمل هذه إلى فقدان الثقة بالحكام وإلى الانكماش الفردي «يا عمي سيبك ما أسخم من ستي إلا سيدي!».

❋ ❋ ❋

وقد كانت التغيرات التي مرت بالعالم العربي تغيرات غير تطورية، لأنها لو كانت تطورية، لما كانت تكفي في صعيد السباق والتقدم، ولذا فمن الجلي أن تكون هذه التغيرات انقلابية وثورية، ومن هنا نستطيع أن نعلل هذه الثورات التي سادت العالم العربي في العشرين سنة الماضية: في سوريا ولبنان ومصر... إذ إن التطور الطبيعي المنتظم لا يكفي لإشباع وتلبية الأماني والأهداف والقيم الجديدة، فكان من الضروري حين يفشل التطور، أن تظهر الثورة التي تحاول أن تحقق هذه القيم الجديدة. وما دامت الاصلاحات التي تقدمها هذه الانتفاضات والارتعاشات المفاجئة، ليست كافية لإشباع حاجاتنا إلى القيم والحياة الجديدة، فيمكن أن تستمر هذه الثورات في العالم العربي مدة أكثر، وسوف نحس بالحاجة إلى روح ثورية، أي أن نعتقد في أهداف وقيم نتحمس لها ونؤمن بها.

ولذا فيمكن التنبؤ كذلك بأن تظهر في هذه التربة العربية، وقد ظهرت فعلاً، بذور لها نزعات نازية تقوم على الإيمان المطلق بفكرة ما، والتحمس لها والتركز حولها، والإحساس بأن الانتماء إليها شيء يستحق الفخر، فيظهر زعماء من لون جديد يثق بهم المجتمع اليائس من الإصلاح، الراغب في التغير، فيسلم الشعب لهم القياد، وينتج لون من الحكم الفردي وتظهر أسطورة العادل المستبد، والمخلص الجديد.

❋ ❋ ❋

والآن... أخيراً، ستبقى هذه الاتجاهات تتصارع وقيمنا التقليدية، وسوف يستمر هذا الصراع حتى تتأصل بعض الاتجاهات، وقد تأصل بعضها فعلاً، وحين تتأصل هذه القيم والاتجاهات، لن تصبح هي ذاتها قيماً مستوردة، لأنها ستصبح ملونة ومشبعة بروحنا العربية وتراثنا... وإن ذلك سيكون بشير فجر يطل على العالم العربي وعلى الإنسانية. إنه سيكون دفق الإصباح، مع إشراقة الشمس من شرقنا العربي.

الانبعاث(*)

سهيل ادريس

منذ كارثة فلسطين، ظل الشعور القومي العربي طاقة سلبية مخنوقة، محرومة من التعبير عن نفسها.

وهذا العجز الظاهري، طرح قضية القومية العربية برمتها على بساط البحث وجعل الكثيرين يتشككون في جدوى الشعور القومي وفعاليته أصلاً.

وحتى الذين كانوا يؤمنون بالقومية العربية إيماناً قوياً ثابتاً، أخذوا يستشعرون من هذا العجز ضيقاً شديداً في صدورهم، وقلقاً متزايداً على هذه الطاقة التي تضطرم في كيانهم ولا تجد لها متنفساً تعبر فيه عن إمكانياتها. ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن خلاص العرب الوحيد من مأساة وجودهم التي يتخبطون فيها، إنما يكمن في وحدة الإحساس القومي بالواقع ومن ثم بالمصير. وقد كان الواقع لا يوحي إلا بشعور الفرقة والتمزق، في ضمير الجماعة وضمير الفرد، ومن هنا منشأ ذلك القلق على المصير، أن يكون امتداداً وانتهاء لذلك الشعور، أي إفلاساً للوحدة المرجوة.

ولم تكن الأحداث التي توالت على الوطن العربي، منذ كارثة فلسطين، إلا لتعمّق هذا الإحساس. وحتى قيامُ عهد الثورة في مصر، لم يزرع الثقة في الضمير العربي الذي كان قد عانى طويلاً من الاستبداد، والذي كان يخشى أن ينتشر فوق أرض مصر شبح الدكتاتورية العسكرية، هذا الشبح الذي كان ينتصب عقب كل ثورة وكل انقلاب في بعض أجزاء الوطن.

ولكن ما يحدث اليوم في مصر، على يد الرئيس جمال عبد الناصر، كافٍ لأن يبعد ذلك القلق، ويمحو هذا الشك، ويرد للضمير العربي الثقة التي زعزعتها الأحداث، الثقة بالقومية العربية وطاقتها العظيمة وقدرتها على توفير جميع أسباب الانبعاث العربي المنتظر.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٤، العدد ٩ (أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦)، ص ١ ـ ٢.

لقد كان تأميم قناة السويس محكاً لفعالية الشعور القومي في صدور أبناء الأمة العربية. لقد تجلى هذا الشعور في أروع مظهر، وأقام الدليل القاطع على أن العرب إنما ينشدون الوحدة الكبرى، لأنهم يستجيبون أعمق الاستجابة لكل هم من الهموم التي تشغل أي جزء من أجزاء وطنهم الكبير. ولقد أتاح لهم التأميم أن يطلقوا للعمل طاقتهم الحبيسة، وأن يستعيدوا حس العزة القومية الذي كادت تقتله الهزائم في مختلف الميادين.

إن خطوة الرئيس العربي في مصر أنقذت كبرياء الوجدان العربي من أن تقضي عليها سياسة المحترفين وروتين المتنفذين. وليس أصدق في مجال الحاجة العربية الراهنة، من أنه، كما قال، رجل ثورة، لا رجل احتراف سياسي. ذلك أن هذه الصفة مكنت له من أن ينهج سياسة مستقلة حرة لا تحفل إلا بصالح مصر العربية، ولا تخشى ثورة الدول الغربية.

ثم إننا، نحن القوميين العرب، الذين ظللنا متحفظين متريثين تجاه سياسة الرئيس عبد الناصر العربية، نتخلى الآن عن تحفظنا وتريثنا كله، لنبارك هذه السياسة التي تعمل على نصرة القومية العربية ومؤازرتها والمضي بها إلى تحقيق الرسالة التي أخذتها على عاتقها من بعث الأمة العربية وتوحيدها. ولسنا في ذلك إلا كأي فرد من أفراد هذا الشعب العربي ـ الذي يعلق أمله كله على انتصار سياسة هذا الرجل العظيم ـ فيما هو يعد نفسه للعمل على أن يكون في مستوى القدر الذي رسمه لنفسه.

لقد بعث جمال عبد الناصر في ضمائر الشعب العربي، في شتى الأقطار، الإيمان الذي كان في سبات. والعمل على جعل هذا الإيمان قوة كاسحة يضحي من أجلها بكل شيء. ولم يعرف التاريخ العربي الحديث، منذ أكثر من قرن، حماسة وإخلاصاً واستعداداً للبذل والعطاء، كهذا الذي يسجله الآن بين صفوف الأمة العربية. ونحن نعتقد أن طريق الانتصار قد شقت، وأن سلوكها أمر محتوم، مهما كانت النتائج التي سيؤول إليها تأميم قناة السويس، وأياً كان الحل الذي سيترتب عليه. لقد وُجّه التيار وجهته الصالحة التي سيبلغ فيها غاية تدفقه، ويعطي منتهى فعاليته، ولا بد أن يحطم العقبات التي تعترض سبيله.

لقد تم الانبعاث العربي.

أجل، لقد تم الانبعاث، ولكن لا بد من أن يستكمل لنفسه أسباب النهضة في مختلف مرافق حياتنا الراهنة.

ولا شك في أن للأدب دوراً هاماً يلعبه في هذا الميدان. وإننا لنخدع أنفسنا إذا ذهبنا إلى القول بأن الأدب قد اضطلع حتى الآن بمسؤوليته الكاملة في تحقيق هذا الانبعاث. فالواقع أنه لم يشارك إلا مشاركة ضئيلة في التمهيد لهذه اليقظة، بل يبدو جلياً أن الأحداث كانت غالباً ما تفاجئه وتتجاوزه، كأنه لم يؤثر فيها حتى يتأثر بها. إننا أبعد

ما نكون عن الاعتقاد بأن على الأدب أن يخلق ثورات سياسية أو اجتماعية، ولكننا نؤمن بأنه، لانعكاس الأحداث عليه وتأثره بها، يملك بطبيعته أن يرد لها هذا التأثر تأثيراً في حدود طاقة الخلق الفني، فيكون بذلك عاملاً من عوامل التمهيد والتطور والتغير.

ونحن على يقين أنه إذا فات أدبنا المعاصر أن يلعب الدور الذي كان يرجى منه في المشاركة بالتمهيد لهذا الانبعاث، فإنه لا يملك الآن إلا أن ينخرط في هذه المعركة القائمة التي تتناول جميع نواحي الحياة، أي ينابيع المادة التي يستلهمها الأدب، فيواكب هذه الحركة الانبعاثية، ويغذيها فيما هو يتغذى بها، وبذلك يحقق لنفسه، في تيار الانبعاث الكبير، انبعاثه الخاص.

وهذه هي الغاية التي لا بد أن يعمل من أجلها أدباؤنا الواعون.

المعركة(*)

سهيل ادريس

اليوم تبدأ معركتنا، معركة القومية العربية، لأننا اليوم فقط حملنا لها السلاح، وكنا من قبل نخوض ميدانها شبه عُزَّل. ولسنا نعني بالسلاح الطائرة والدبابة والبندقية والمسدس والخنجر، وإنما نعني تلك الطاقة الروحية الهادرة التي تواجه بالتحدي الطائرة والدبابة والبندقية والمسدس والخنجر.

لقد كنا ندرك من قبل أن الاستعمار يريد بنا الشر والهوان، ولكن الغزو المثلث أثبت لنا أن هذا الاستعمار إنما هو يريد القضاء علينا في أرضنا بخنق كل إحساس بشعورنا القومي، يريد كبت هذا المارد العظيم الذي يتطاول كل يوم قوة جديدة تهدده في مصيره ووجوده.

ونهضت فينا غريزة الدفاع عن النفس والكيان، فألقينا خلفنا كل ما أورثنا إياه الاستعمار، خلال قرون طويلة، من الخوف والحذر والتردد والإحساس بالنقص، لنخوض المعركة وفي صدورنا الإيمان بأن هذا هو حظنا الأخير من الحياة، وأنه لا مناص من أن نطلب الموت لتوهب لنا الحياة.

وكانت كل بقعة من أرضنا العربية بورسعيد. وستظل، منذ الآن، ملطخة بالدماء، حتى يجلو عنها كل أثر للاستعمار.

وسواء أبقي الغزاة في أرضنا العربية بمصر أم ذهبوا، فإننا أبداً قائمون في وسط الميدان، في المعركة. إن أمامنا بعد جهاداً طويلاً، مريراً، لنحقق غاية قوميتنا، لنحقق وحدتنا العربية.

ولكن المعركة قد بدأت، ولا بد من أن ننجزها، ليحافظ بدؤها على معناه العميق، لتكون المعركة معركة في أوسع حدودها وامتدادها. وفيما نحن في الميدان، سنفكر ملياً

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٤، العدد ١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦)، ص ١ - ٢.

بأساليب هذا الاستعمار، تلك الأساليب التي انكشفت في مطلق عُريها، ففجّرت فينا كل طاقات الحقد والثورة والنضال، فإذا معركتنا، فيما هي معركة قوميتنا العربية، معركة إنسانية عظمى، نخوضها لنردّ للقيم اعتبارها، ولننقذ المثل البشرية من أن تدنّسها حفنة من ذوي الضمائر المزيفة المدخولة. إن معركتنا العربية هي معركة الإنسان الجديد الذي يستيقظ على أنقاض حضارات شاخت وتحللت، ليبني حضارة فتية صريحة المبادئ، صادقة الأسس.

* * *

لقد كشف لنا الغزو المثلث عن كوامن القوة في نفوسنا، فإذا نحن لأول مرة في تاريخنا الحديث نتّحد ونتضامن، ونثبت للاستعمار أنه أعجز من أن يفرّق بيننا بالدس والوقيعة. ولئن أضمر بعضنا، أو أظهر، الحذر والتردد ولم يؤمن بأن الأمر يقتضيه قذف كل طاقاته في معركة هي معركة الحياة والموت، فلا بد أن يكتشف عما قليل خطأ موقفه. على أن هذا البعض هو من ضآلة الشأن بحيث يعجز كل العجز عن تغيير مجرى التيار، بله وقفه. إن حجراً صغيراً هو أضعف من أن يقاوم أمواج نهر متدفق، ولا شك في أن هذه الأمواج ستستطيع سريعاً اقتلاع هذا الحجر من أرضه، وستتمكن من دحرجته كرهاً وقسراً، إن لم يساوق التيار طوعاً ورضى.

ولقد سبق أن قلنا[1]: «لقد بعث جمال عبد الناصر في ضمائر الشعب العربي، في شتى الأقطار، الإيمان الذي كان في سبات، والعمل على جعل هذا الإيمان قوة كاسحة يضحي من أجلها بكل شيء. ولم يعرف التاريخ العربي الحديث، منذ أكثر من قرن، حماسة وإخلاصاً واستعداداً للبذل والعطاء، كهذا الذي يسجله الآن بين صفوف الأمة العربية. ونحن نعتقد أن طريق الانتصار قد شقت، وإن سلوكها أمر محتوم، مهما كانت النتائج التي سيؤول إليها تأميم قناة السويس، وأياً كان الحل الذي سيترتب عليه. لقد وُجّه التيار وجهته الصالحة التي سيبلغ فيها غاية تدفقه، ويعطي منتهى فعاليته، ولا بد أن يحطم العقبات التي تعترض سبيله. لقد تم الانبعاث العربي».

ولقد كانت معركة مصر الباسلة امتحاناً لهذا الانبعاث؛ ولقد توّج هذا الانبعاث بانتصار القومية العربية، ولكنه انتصار مهدد كل لحظة إن لم نرعه بمواصلة النضال، ومتابعة المعركة. ولن يكفينا تأييد معظم الأمم لنا، لأن الانبعاث الذي لا يتم من الداخل، معرّض كل ساعة لتقلبات الخارج وظروف المصالح الخاصة.

وكم هو عظيم خطير دور أدبنا في معركة البقاء هذه!

إننا نتنبأ بأن هذه المعركة العظيمة ستحتل مدى كبيراً من إنتاجنا الأدبي الحديث،

---

(١) انظر: سهيل ادريس، «الانبعاث،» الآداب، السنة ٤، العدد ٩ (أيلول/سبتمبر ١٩٥٦)، ص ١ ـ ٢. (وهو المقال المنشور ضمن هذا المجلد ص ١٦٤ ـ ١٦٦).

فسوف يجد أديبنا العربي نفسه جندياً في هذه المعركة، لا يقل شأناً عن المناضل في ميدان السلاح، لأن آثاره لن تكون ذات قيمة، في هذه المرحلة من تاريخنا، إلا إذا أسهمت في دفع النضال حتى يبلغ النصر المحقق.

وأديب العروبة اليوم هو خير من يستطيع أن يبرز من الكفاح أعمق معانيه، ويثير في النفوس القلقة أصدق أحاسيس الإيمان بشرف المقاومة، ويلهب الأرواح اليقظة، العطشى إلى التعبير عن أشواقها للحرية.

إن الأديب العربي لن يستطيع اليوم إلا أن يغمس ريشته في دماء أولئك الشهداء الأبطال الذين يتساقطون في كل مكان من أرض العروبة، حتى إذا رفع هذه الريشة، كانت تقطر بمعاني الثورة على الاستعمار، والتمرد على الظلم، والعمل على سحق الباطل.

والحق أن أديبنا العربي سيشعر اليوم شعوراً عميقاً بشرف رسالته، هذه الرسالة التي تحمله إلى الصف الأول من صفوف المناضلين في سبيل القومية العربية التي يسعى الاستعمار إلى خنقها. ولقد بدأ هذا الأديب العربي يرتفع صوتاً مدوياً، مناشداً جميع زملائه، أدباء العالم الأحرار، أن يضطلعوا بمسؤوليتهم في الدفاع عن القيم الحقة والمثل العليا التي يعيشون من أجل تحقيقها.

ولا بد أن يسجل تاريخنا الأدبي أن إنتاج هذه المرحلة من وجودنا، كان أدب ثورة ومقاومة، وأن هذا الأدب شارك أعظم المشاركة في تحرير الأمة العربية من قيود الظلم والاستعمار.

إن الأديب العربي، إذ يحشد اليوم كل قواه ليخوض المعركة العظيمة، إلى جانب الجندي الباسل في الميدان، والمعلم المناضل في المدرسة، والعامل الكادح في المصنع، إنما يتمم مهمته ويقوم برسالته خير قيام.

فطوبى لهذه المعركة المقدسة التي أتاحت للأديب العربي أن يجد نفسه.

معركتنا معركة القومية الجديدة(*)

عبد الله عبد الدائم

«إن الأمة العربية مسؤولة قبل غيرها عن متابعة المعركة، معركة القومية الإنسانية الحرة. إنها بنضالها تريد أن تثبت للعالم أن معاني جديدة بدأت تخلق، قوامها نظرة قومية لا تتخذ العدوان مقصداً، وإنما تنشد الحياة المتآخية مع شتى القوميات المستقلة الحرة».

عصرنا هذا، لا القرن التاسع عشر، هو عصر نشوء القوميات الحقة. وأيامنا هذه التي نحياها، لا الأيام التي ظهر فيها «بسمارك» وأترابه من حملة النزعة القومية، هي التي تحمل المعنى العميق لنشوء القوميات الصحيحة.

كل ما في الحياة العالمية يفصح عن هذه الحقيقة، وكل ما في الأحداث الجسيمة التي تمر بها بلادنا العربية يشير إلى هذا الواقع.

والمعركة العالمية اليوم، التي جرّت إليها الحوادث في مصر العربية، محملة قبل كل شيء بهذا المعنى الجديد للحياة القومية ولحركات البعث القومي في العالم. إنها في أعماقها مرحلة تصفية لمفاهيم مضطربة ما زالت قائمة في بعض الأذهان عن معنى القومية والإنسانية، وهذه التصفية تلبس اليوم لبوساً واضحاً لا برقع فيه ولا زيف، لأنها خرجت من نطاق الأفكار والأنظار إلى نطاق الحديد والنار.

هذا المعنى القومي نجده الآن في الاعتداء الدنيء على مصر وعلى العروبة من ورائها. فالذي أخاف الاستعمار قبل كل شيء حتى أذهله وأفقده صوابه، ذلك الوميض القومي السخي الثاوي وراء الحركات التحررية التي يقودها البطل جمال عبد الناصر. ذلك أن الاستعمار ما كان يخشى إلى أمد قريب تلك الصيحات التي كانت تظهر في البلاد العربية بين حين وحين. فمعظم تلك الصيحات التي كانت تتحدث عن العروبة وتنادي بها كانت صيحات ميتة غير قادرة على تحطيم العقبات التي تحول دون الوحدة العربية

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٤، العدد ١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦)، ص ٥ ـ ٨.

المنشودة، لأنها كانت تنطلق غالباً من حكام لم يهبوا لها مضمونها الإيجابي، وكانت عندهم ضرباً من الحداء الذي يخدر الشعوب، بل كانت صيحات خاوية لأنها تقترن عندهم في أكثر الأحيان، بأعمال أخرى تنافيها وتعمل على تعطيلها. وحسبها ضعفاً أن الشعب كان يشعر بزيفها ويدرك أنها لا تتجاوز الحناجر، ويعي بالتالي ما بينه وبين القائلين بها من انفصام وتباعد.

أما عندما تحققت وحدة الشعور بين الشعب والقواد، وعندما بدأ القواد أنفسهم يستبقون أحاسيس الشعب وتطلعاته، فلقد شعر المستعمرون إذ ذاك أن الأمر غدا حرجاً جداً، وأن تلك العواطف القومية الصادقة التي عرفوها عند الشعب العربي وجدت أخيراً من ينظمها ويحسن صياغتها في عمل فعال جوّاب. وعند ذلك هالهم الأمر وحزموا أمرهم على القضاء، في زعمهم، على ذلك البطل الذي عرف أن كبار الرجال هم الذين يُخرجون من الإمكان إلى الفعل قوى الشعب المشتعلة تحت الرماد وتطلعاته الثاوية وسط الضباب.

ولهذا وجدنا الحجة الوحيدة الواقعية التي تذرع بها مستعمرو فرنسا وبريطانيا لتبرير اعتدائهم المبيت، خوفهم من جمال عبد الناصر، أي خوفهم من القومية العربية الحرّة ممثلة في ذلك القائد العظيم.

لقد صرح المعتدون في شتى المحافل وفي غير خجل واستحياء أن الغاية الأولى من اعتدائهم القضاء على نظام الحكم الناصري – إن صح التعبير – وها هي ذي جريدة لوموند الفرنسية تقول في غير غمغمة في افتتاحية لها صدرت صباح الاعتداء:

«إن العمل الذي قامت به باريس ولوندره لن نستطيع الحكم عليه إلا من خلال عواقبه. فإما أن ينهار حكم عبد الناصر خلال أمد قصير وتحرم العصبية العربية من البطل الذي كان يذكيها، وعند ذلك تتداعى الانتقادات التي توجه اليوم إلى هذا العمل، لأن من عادة الناس دوماً أن يقبلوا المغامرات الناجحة، وإما أن تقوم في الشرق الأوسط حرب عصابات رغم النجاح الحربي المنتظر (!)، وعند ذلك قد تتدخل الولايات المتحدة وروسيا في الأمر وتفرضان معاً حلاً مشتركاً».

وفي العدد نفسه نقرأ لمراسل الجريدة في لندن، وهو المحرر جان ويتز (Jean Witz) التصريح البين التالي: «إن كثيراً من المطلعين في الأوساط الدبلوماسية الانكليزية يدركون أن التدخل العسكري الذي تم في مصر يبتغي سحق عبد الناصر قبل أن يبتغي تحقيق الصلح مع اسرائيل».

بل إن البيان الذي ألقاه موليه أمام المجلس النيابي الفرنسي يوم إعلان الإنذار الفرنسي البريطاني إلى مصر لا يشتمل على أكثر من هذا المبرر الوحيد لهذا الإنذار العجيب، نعني الرغبة في القضاء على رمز الحركة القومية العربية التي بدأت تخيف الاستعمار. فمما قاله في بيانه هذا: «إننا نعرف نظام الحكم الذي يأخذ به عبد الناصر.

ونعرف فوق هذا أنه لا يتردد في استخدام القوة وفي انتهاك الحقوق (؟) وإن ننسَ لا ننسى رفضه المتكرر للسماح للسفن الاسرائيلية بعبور قناة السويس رغم توسلات هيئة الأمم».

ويضيف إلى ذلك: «إننا في الوقت الذي تصرف فيه سفارتنا من عمان وتحرق قنصليتنا في القدس ومعاهدنا الثقافية في حلب، لا نستطيع أن ننكر حاجتنا إلى ضمانات مادية لتحقيق كل اتفاق».

ومولیه يدرك دون شك أن وراء هذه الحركات التحررية في شتى البلدان العربية الروح التي أملتها مصر على الوطن العربي، روح الاستقلال القومي والكرامة الإنسانية.

بل إن المتتبع للأمور يدرك فوق هذا أن المحاولة الفاشلة التي قام بها الاستعماريون الفرنسيون والبريطانيون كانت تستهدف بعد القضاء على الوثبة في مصر، وبعد ضرب القلب النابض من الحركة العربية الحرة، القضاء على مثل هذا التوثب القومي الكريم في بلدان عربية أخرى تجاوبت مع مصر وتناغمت أوتار حياتها الروحية معها. وإليك ما يكتبه أيضاً جان ويتز بهذا الصدد:

«إن بعض الخبراء في لندن يمدون أنظارهم إلى المستقبل وإلى ما وراء هذا العمل العسكري الموجه إلى مصر الآن، ويتنبأون بمرحلة ثانية تلي هذه المرحلة. فهم يتوقعون بعد إعادة احتلال منطقة القناة خطوة ثانية هدفها ابتلاع الأردن... وإذا ما حاولت بعض بلدان الشرق الأوسط إذ ذاك مقاومة الغرب مقاومة عنيفة، فإن المصالح الأميركية إذ ذاك ستكون مهددة أكثر من المصالح البريطانية».

فهل من شك بعد هذا في أن المعركة في نظر المستعمرين هي معركة القضاء على حركة قومية سليمة تهدد مصالحهم المباشرة وتخرج البلدان العربية من عهد العبودية لهم؟ وهل يمتري اثنان في أن الأهداف البعيدة للعمل الاستعماري تتلخص في محاولة الإبقاء على وصاية لهم على البلاد العربية بعد أن بدأوا يرون رؤيا العين أن هذه البلاد تسير في طريق الوصاية على نفسها؟

ثم إن تطور هذه المعركة في الميدان الدولي وفي ميدان هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن يفصح خير إفصاح عن المعاني القومية التي تحملها هذه المرحلة من تاريخ العالم. أفلا ندرك أن الصراع الحقيقي لا يقوم بين دول تهزأ بالقيم الإنسانية وأخرى تؤمن بها، وإنما يقوم عميقاً حاداً بين دول تخشى انبعاث الحركات القومية الجريئة في بعض البلدان، وبين أخرى تجد في هذا الانبعاث فجر حياة جديدة للعالم كله، قوامه التفاهم الإنساني بين قوميات حرة والتعايش السلمي بين شعوب مستقلة؟

وإلا فما الذي يفسر لجوء فرنسا وبريطانيا إلى محاولة احتلال جزء من الأراضي المصرية بعد أن كانتا منذ أيام تثوران لوجود القوات الأجنبية في المجر؟ إن من حق المراسل الصحفي هنري بيير أن يكتب من نيويورك مقرراً أن أبطال الأخلاق الدولية

يتخلون عن هذه الأخلاق، وأن مندوبي فرنسا وانكلترا في الأمم المتحدة يضطران إلى أن يدافعا عما لا يمكن الدفاع عنه وإلى أن يلعبا دور «الأشخاص الحقيرين».

إن المسألة إذن ليست مسألة إيمان بمبادئ إنسانية أو عدم إيمان بها، إنها في الواقع مسألة اضطراب في قبول الحركات القومية الجديدة، وبالتالي في فهم المعاني التي بدأت تحملها القوميات في العصر الحاضر.

إن موليه يهزأ اليوم من مجلس الأمن ومن هيئة الأمم، لا لأنهما لا يحميان حقوق الإنسان، ولكن لأنهما لا يقرانه على مخاوفه من الحركة القومية العربية الناشئة. ولهذا يسخر من الأخلاق الدولية أمام المجلس النيابي الفرنسي وينادي: «يالها من أخلاق دولية رائعة! إن من نتائجها أن يغدو الذي يقبل بالحكم الدولي خاسراً إذا كان ديمقراطياً ورابحاً إذا كان دكتاتوراً».

إن العالم اليوم مشطور بوضوح شطرين. وليس هذان الشطران شطر المؤمنين بالقيم الإنسانية وشطر المنكرين لها. فكلمة «قيم إنسانية»، كلمة عامة قد تحمل شتى الأوجه المتناقضة، وهي لا تحمل مضموناً واضحاً إلا عندما تنصب على حياة قومية معينة. إن شطري العالم إذن هما شطر المؤمنين بحق كل شعب في الحرية القومية والاستقلال القومي، وشطر الخائفين من هذا الحق، لأن في إقراره زوالاً لامتيازاتهم.

وهكذا ترى أن العصر الحالي هو عصر الصراع القومي الحق. فالقرن التاسع عشر لم يكن في الواقع عصر الحريات القومية، وإنما كان عصر العصبيات القومية الضيقة المعتدية. لقد فات الزمن الذي رغبت فيه بعض الأمم بالغلبة والاعتداء وآمنت بتفوقها وصفاء عنصرها، واعتقدت أن من حق هذا الصفاء العنصري أن يُخضع له شعوب الأرض.

أما اليوم فنحن أمام الحركات القومية الحقة، أمام القومية الإنسانية التي تبتغي الحرية لكل شعب وتبتغي التضامن بين الشعوب في سبيل سعادة الإنسان.

ومعنى هذا أن في وسعنا أن نجاوز ما قلناه حتى الآن فنعتبر العراك الحالي عراكاً بين مفهومين للقومية: **أولهما** المفهوم الذي خلفه القرن التاسع عشر وأورثه بعض الدول الهرمة، ونعني به مفهوم الغلبة والسيطرة وادعاء التفوق. **وثانيهما** المفهوم الذي بدأت توكده الشعوب الناشئة قبل الشعوب القوية، ونعني به مفهوم القومية الحرة التي تعمل على وفاق واتساق مع الإنسانية جمعاء ولا تدعي الغلبة أو التفوق العنصري أو العسكري.

ولا شك أن البلاد العربية اليوم تسهم أقوى إسهام في توكيد هذا المفهوم الجديد وتوطيد أركانه. إنها بطبيعة صراعها ونضالها من أجل حريتها القومية تمثل هذا الاتحاد العميق بين الغايات القومية والغايات الإنسانية. وإن في طراز تكوينها الحالي ما يجعلها خير رمز لهذا المفهوم الجديد، مفهوم القومية الإنسانية الحرة. فهي أولاً بلاد ما زالت مجزأة مما يهب لنضالها طابع الوحدة القومية قبل كل شيء. وهي ما تزال تناضل ضد

الاستعمار الذي لم يتخل بعد عن فكرة الغلبة والسيطرة، مما يخلع على معركتها طابع الحرية الإنسانية، طابع إنقاذ الإنسانية من العبودية. وهي في الوقت نفسه ما تزال فريسة التأخر الاجتماعي الذي خلفه الاستعمار، مما يجعل معركتها معركة تهدف إلى رفع مستوى الإنسانية المادي للبلوغ به إلى المستوى الروحي المنشود.

ولهذا كانت هذه البلدان العربية مسؤولة قبل غيرها عن متابعة المعركة، معركة القومية الإنسانية الحرة. إنها بنضالها تريد أن تثبت للعالم أن معاني جديدة بدأت تخلق قوامها نظرة قومية لا تتخذ العدوان مقصداً، وإنما تنشد الحياة المتآخية مع شتى القوميات المستقلة الحرة. إنها بصمودها العنيد تقدم أمام المرجفين شاهداً على أن الحياة القومية الحرة حين تنبثق في شعب تأتي بالمعجزات. إن بطولة بورسعيد خير حجة تقدم للدفاع عن المفهوم الجديد للقومية، مفهوم قومية تأبى أن تعتدي كما تأبى أن يعتدى عليها. وان الطاقة التي فجرها إيمان شعب بمستقبله الحر لخير دليل على ما في الانتماء إلى الحياة القومية السليمة من قوة ونماء وفيض.

ومن هنا كانت معركة الشعب العربي عميقة الجذور وشيجة الصلة بالحياة، بالحياة الحقة الثرة. ومن هنا جاءت قوتها، واستقر النصر لها. وما التفاف العالم الحر حول هذه المعركة ذلك الالتفاف الصادق الصارم، إلا نتيجة لما تحمله من معانٍ عميقة الكيان في نفس الإنسان، ما دامت تحمل معها كرامة الإنسان في قومه وروح المحبة لمن يشاطره هذه الكرامة.

وليس من قبيل الصدفة أن ترث المفهوم البالي للقومية، مفهوم العنصرية والتفوق والاستعمار، الدول التي شاخت قيمها وغدت تعيش على فتات الماضي، والتي لم تحمل بعد الجرأة على طرح أثقالها وأسمالها، ولم تستطع التحرر من إرث ماضيها. وليس من قبيل الصدفة أن تحمل المفهوم الجديد للقومية الدول الحية الناشئة، وعلى رأسها الأمة العربية التي كانت في تاريخها تعبر عن إيمانها العميق بالوحدة الحقة بين قومية المرء وإنسانيته.

إن النسغ الجاف، النسغ الهرم، لن يستطيع التغلب على البراعم المحملة بالرجاء والعطاء، براعم النفوس الحارة التواقة إلى إنقاذ كرامتها القومية والارتفاع بوجودها إلى مستوى الوجود الإنساني العزيز.

زحف التحرر العربي(*)

محمد مندور

إنه لمن الظواهر التي تدعو إلى الغبطة والتفاؤل أن نلاحظ أن القومية العربية يطّرد نموها مع تقدم الزحف الظافر نحو التحرر من بقايا الاستعمار.

وهذا التوازي في سير الحركتين لا يفسر بأن دسائس الاستعمار كانت تعمل على إضعاف روح القومية العربية فحسب، بل ويفسر أيضاً بأن كل نجاح يصيبه شعب ضد الاستعمار يزيد القومية العربية قوة، وذلك لأنه يحطم ركناً من مركب النقص غرسه طول العسف والاستبداد والاستعمار في الأمة العربية. وقد أتى زمن على الكثيرين من سكان البلاد العربية كان الواحد منهم يتلمس أو يتوهم له نسباً أو صلة قريبة أو بعيدة بأي جنس آخر قديم أو حديث غير الجنس العربي، حتى استفحلت الشعوبية في العالم العربي استفحالاً مدمراً، فكنت ترى من يفخر بأن أصله فرعوني أو فينيقي أو آشوري أو بابلي أو أوروبي من بقايا الصليبيين أو تركي أو أي جنس شئت ما عدا الجنس العربي. حتى رأينا بعض الأوروبيين يحسون بشعور المهانة عند العرب نحو أنفسهم فيتخذون من كلمة «عربي» لفظاً للسباب على نحو ما يسب الانكليزي زميله بقوله: «Street Arab» أي «عربي متسكع».

واستمرت تلك الحالة المحزنة إلى أن أخذ العرب يستيقظون لاسترداد حريتهم وسيادتهم في أوطانهم في نهاية الحرب العالمية الأولى التي تحرروا في أعقابها من كابوس الاستعمار التركي البغيض. وإذا كان المستعمرون الغربيون قد استطاعوا لسوء الحظ أن يحلوا في الاستعمار محل الأتراك الغاشمين الأجلاف، فإن هذه النكسة لم تطفئ شعلة الحرية التي ظلت متقدة تذكي القلوب وتحفز الهمم في غير كلال ولا يأس، إلى أن أخذ صبرهم وجهادهم يؤتي ثماره، فرأينا البلاد العربية تتحرر تباعاً شيئاً فشيئاً أو دفعة واحدة بعضها في إثر بعض.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٥، العدد ٢ (شباط/فبراير ١٩٥٧)، ص ٢ - ٣.

لقد تحررت سوريا وتحرر لبنان من الفرنسيين تحرراً تاماً، وكان الانكليز يظنون أنهم بإخراج الفرنسيين سيستطيعون أن يحلوا محلهم، على نحو ما يظن اليوم آخرون أن باستطاعتهم أن يحلوا محل الانكليز والفرنسيين على السواء غير متعظين بأمل الانكليز الذي خاب خيبة ذريعة. فالشعب الذي يحصل على حريته بدماء شهدائه لا يمكن أن يعود فيقبل مستعمراً جديداً بدل مستعمر قديم ودماء أبنائه لم تكد تجف. . . بل لقد بلغ بالانكليز حد الغفلة والتخلف عن فهم تطور الشعوب أن ظنوا أن باستطاعتهم أن يحتالوا للأمر. فلم تكد سوريا ولبنان تحصلان على استقلالهما وتتخلصان من الفرنسيين، حتى أخذ الانكليز يتحمسون لفكرة الجامعة العربية على أمل أن يجمعوا فيها العالم العربي كله تحت سيطرتهم بفضل المعاهدات والمحالفات الصورية التي نجحوا في إملائها على بعض الشعوب العربية كمصر والعراق والأردن. ولكن احتيالهم خاب ومكرهم رد إلى نحورهم. وأظهر العرب أنهم أوسع حيلة وأذكى مكراً من أولئك الاستعماريين العتاة. فلم يرفضوا فكرة الجامعة العربية رغم ما وراءها من قصد مبيت، بل رحبوا بها وخفوا إليها على أن يجعلوها جامعة تحرر لا جامعة استعمار. وبالرغم من أن هذه الجامعة الناشئة تعرضت للكثير من الدسائس والمحن بمجرد أن أسفر العرب عن قصدهم منها، إلا أنها مع ذلك استطاعت أن تصمد على الأيام وأن تتساند وتتعاون في الزحف المقدس نحو التحرير الكامل للأمة العربية.

وقيض الله لمصر التي تكون كتلة عربية في الشرق الأوسط، هذه الثورة القوية التي لم تنجح في إجلاء جنود الاحتلال عن أرض الوطن فحسب، بل وأجلت أيضاً كل نفوذ للاستعمار عن أرض الكنانة. فرفضت كل سيطرة مقنعة تحت أي اسم مزيف كالدفاع المشترك، بل وألقت بآخر وكر للاستعمار وهو شركة قناة السويس إلى عرض البحر بتأميم القناة ذاتها. وثار الاستعمار، وكان هذا التأميم القشة التي قصمت ظهر البعير. ولكن ثورته لم تلبث أن خمدت وعدوانه لم يلبث أن ارتد إلى صدره. ولرب ضارة نافعة. فإن هذا العدوان قد أتاح لمصر أعظم فرصة مشروعة للتخلص مما ورد في اتفاقية الجلاء المبرمة في ١٩ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٥٤ من حقوق أو اغتصابات تمسك بها الانكليز تمسك المستميت، كحق العودة إلى منطقة القناة وإعادة استخدامها في حالة وقوع اعتداء خارجي على مصر أو على أي بلد عربي، بل وإذا حصل اعتداء على تركيا، وتلك كانت ثالثة الأثافي، وذلك خلال الخمس السنوات التي تلي الجلاء، أي حتى سنة ١٩٦١.

وهكذا يستطيع كل مصري أن يقول اليوم إن بلاده قد تحررت تحرراً كاملاً مطلقاً من كل استعمار أو ظل لاستعمار، فلا احتلال ولا شركة تكون دولة داخل الدولة أو فوق الدولة، ولا سيطرة أو حماية تحت اسم «الدفاع المشترك» ولا مسمار جحا يتحايل بواسطته الاستعمار ليعود إلى أرضنا، بل تحرر مطلق كامل داخل بلادنا وفي سياستنا الخارجية وعلاقاتنا الدولية.

واستطاعت ثورتنا الحصيفة أن تمد للاستعمار حبل التضليل إلى النهاية حتى شنق به

نفسه في السودان. فطالبت بتحرير السودان على أن يترك لشعبه الحق المطلق في تقرير مصيره. وظن الانكليز أنهم سيجدون سبيلاً للاحتفاظ بسيطرتهم على هذا القطر الشقيق. ولكن تكاتف مصر مع السودان في سبيل التحرر قطع على الاستعمار كافة السبل واضطره إلى أن يرحل عن جنوب الوادي حتى قبل أن يرحل عن شماله.

وواصلت شعوب عربية أخرى كفاحها فتحررت مراكش وتحررت تونس، وها هي الجزائر الباسلة في سبيلها إلى التحرر بفضل جهاد أبنائها الأبطال ومؤازرة الأمة العربية كلها في هذا الجهاد.

وإذا كان الانكليز قد غدروا بفلسطين وسلموها للصهيونيين ثم عادوا فآزروا المرحوم الملك عبدالله في ضمه للجزء الأكبر مما تبقى للعرب في فلسطين إلى شرق الأردن على أمل أن تظل المملكة الأردنية الهاشمية كلها تحت سيطرتهم، فها هو الملك عبدالله يعقبه حفيده الوطني الشهم الملك حسين الذي أعلن الأردن في عهده الغاء المعاهدة الاستعمارية التي كان الانكليز قد نجحوا في إملائها على القطر الشقيق.

وهكذا يتضح كيف أن زحف العرب المقدس نحو التحرير آخذ في التقدم المستمر نحو نهايته المحتومة من تحرير الأمة العربية قاطبة. وفي موازاة هذا الزحف المقدس تسير القومية العربية الصاعدة التي تتعادل دائماً مع التحرر كما يتعادل الماء في الأواني المستطرقة.

والشيء المؤكد هو أن القومية العربية لا تسير في خط متواز مع حركة التحرير فحسب، بل وكل منهما يقوي الآخر ويذكيه. وإذا كانت الأغلبية الساحقة من الأمة العربية قد تحررت فعلاً فإن هذه الأغلبية كفيلة بأن تذكي الروح القومية حتى تقتلع كل ما تبقى للاستعمار من أثر في عالمنا العربي كله.

مرض السيادة القومية(*)

علي بدور

يهمني بادئ ذي بدء، أن أحدد مضمون الحديث عن مرض السيادة القومية ـ وهو الاستعمار ـ من الزاويا التالية:

١ ـ المؤثرات المختلفة التي انطبعت بها العروبة ـ كشعب وقضية ـ من جراء تسلط الاستعمار عليها.

٢ ـ والعناصر الأخرى التي تحول دون نهضة العروبة من القيود التي قيدها الاستعمار بها.

٣ ـ وكذلك النتائج التي تمخضت عن هذا القيد الاستعماري حتى أضحت جزءاً من وجوده البغيض بالذات.

٤ ـ بالإضافة إلى مظاهر هذا الاستعمار الذي يخل بسيادتنا القومية.

٥ ـ والطرق العملية الكفيلة بالتخلص منه للحاق بركب البشرية المتطورة نحو عالم أفضل.

ـ ١ ـ

لا أحسب قصة الاستعمار قصة جديدة جاءت بفصولها ومآسيها مع مطلع الحضارة الحديثة يوم تم اكتشاف أمريكا... وفتح الهند، والسيطرة على البحار باكتشاف رأس الرجاء الصالح، بل هي قصة قديمة... قدم الحياة نفسها، وهي تحدثنا بأن الاستعمار ـ من الناحية النظرية ـ يكمن في هذه الفتوحات التي عملت لها الأمم قديماً وحديثاً... وفي التسلط والقهر وحب الفتوح، الذي أورث البشرية منذ بداية تاريخها ولا يزال، صنوفاً من الارهاق والظلم، تكبدها الإنسان بروح سامية وعزيمة ومراس، ولا يزال

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٦، العدد ٥ (أيار/مايو ١٩٥٨)، ص ٣٨ ـ ٤٤.

يتكبدها حتى الآن في أكثر بقاع المعمور. ولا أكون مغالياً إذا قلت إن العروبة ـ كشعب وقضية ـ قد ذاقت من صنوف الاستعمار، خلال الألف سنة الماضية، ما لم تذقه قومية أخرى في التاريخ. فالتتر والمغول الذين جاؤوا من الشرق، والأتراك من الشمال، والصليبيون من الغرب، ولا يزالون، إنما أورثوا الشعب العربي عقدة العقد تلك التي سببت له الضعف وهزال الروح، وانسحاق القيم، مما ليس له نظير في الحياة قاطبة.

إن هولاكو عندما أحرق بغداد... والصليبيين عندما احتلوا بيت المقدس... والعثمانيين عندما شملوا بفتوحاتهم الوطن العربي كله... والحرب العالمية الأولى التي خلعت عن العروبة، غل الأتراك، وألبستهم أغلال السادة الحلفاء، هذه التطورات كلها، والحوادث كلها، تحكي قصة الأهوال التي عانتها العروبة، ولا تزال في ذاكرتها، صورة بغداد المحترقة، وخزائن الكتب تلقى في دجلة، وألوف السفن تملأ الشواطئ العربية، والجحافل التركية التي كانت تطرق بعنف وقسوة أبواب القرى والمدن في الشرق العربي، من بغداد إلى دمشق... إلى القاهرة... وحتى المغرب، والجزيرة العربية، واشتراك العرب في الحرب الأولى، كثائرين، ومجازاتهم جزاء سنمار بعد الحرب... ومآسي القضية العربية منذ الحرب الأولى وحتى الآن، هذه الصور الرهيبة من التطور المرير والحياة القاسية، هي الملاحم النضالية... البطولية حتى حد الأسطورة، تلك الأسطورة المتفاعلة حوادثها بالحياة حتى الأعماق، الثابتة رغم الخطوب، المتفائلة رغم حريق بغداد، وألوف السفن الصليبية، وجحافل الغزو التركية وضيافة الحلفاء (!) وبقاء تسلط الدول المستعمرة كالعلق على الجرح النازف.

يكاد الاستعمار في حقيقته الماثلة اليوم لا يعبر إلا عن صورة من صور اختناق الحضارة الفرنسية. هذه الحضارة التي انبعثت منذ عصر النهضة ولا تزال حتى الآن تتطور، وتتطور معها شتى فعالياتها الخيرة وفعالياتها الشريرة. فهي إن استطاعت أن تصنع الإنسان السوبرمان، في العاطفة والشعور والفكر، إلا أنها جعلت من مجموع البشر، عصابات، همها، التعدي وخرق القانون وسلب الآمنين أموالهم وأرزاقهم. وإذا كان لنا الآن أن نستعرض المؤثرات المختلفة التي انطبعت بها العروبة ـ كشعب وقضية ـ من جراء تسلط الاستعمار عليها، فإننا نود أن نحدد ما نقصد بالمؤثرات المختلفة أولاً.

ليس ممكناً أن تعيش الشعوب في عزلة. هكذا شأنها قديماً، وحديثاً، وفي المستقبل، بل هي تعمد إلى الاستفادة دائماً، من جهود بعضها بعضاً. فهذا العامل الياباني الذي يعمل في اعداد الصحون، والآخر الهولندي الذي يصنع لنا مصابيح فيليبس، والعربي الكادح في آبار النفط، إنهم جميعاً نماذج لها طابع التعميم الذي يتخذ صفة الشمول الدائم، عن التعاون بين الشعوب، وتطور هذا التعاون على مدى الأيام. أما النتاج الفكري، فإنه قوة دافعة نحو التطور وذخيرة من ذخائر البعث الحي، ذلك الذي يبعث دفء الحياة في أوصال الحضارات فلا تتجمد أو تتحجر. وخير الحضارات ما ماشت فروع الإنتاج ـ الصناعية والزراعية والتجارية ـ جنباً إلى جنب مع نتاج الفكر.

عندئذ تجد الحضارات ما يبرر وجودها ـ لعطائها التطوري ونزوعها الإنساني السليم ـ فتتأصل جذورها في حياة المجتمع والناس، ويكون لها الغلبة السلمية في مضمار المباراة القائمة على الأخذ بالأجود واجتناب الرديء.

ضمن هذا الإطار الخلاب لرقي الحضارات يصح القول بأن هذه حضارة إنسان مثالي، وحضارة مجموع متحضر، ابتداء من إنسان الغابة وحتى إنسان العصر الحديث. ولكن أكثر الحضارات لم يكن شأنها وهي تتطور، شأن هذه الحضارات التي يزدهر فيها الفكر إلى جانب العمل، وحيث يزدهر الفرد، خلقاً وخلقاً، إلى جانب ازدهار المجموع خلقاً وخلقاً أيضاً. إذ إن هذه الحضارات ـ والحضارة الغربية بوجه خاص ـ كانت على الرغم من ازدهار الحياة العامة، فإنها كانت أشبه ببناء شامخ يقام على دعامات رخوة، سرعان ما ينهار على رؤوس مشيديه. وهي إن استطاعت الانعتاق من أغلال العصور الوسطى، ودك قصور الاقطاع، واطلاق الألسنة بالتعبير عن الحرية والعدالة والمساواة وفتح الأشرعة لارتياد مجاهل البحار والقارات في العلماء والخبراء والمبشرين والجيوش، وصقلها الإنسان الأوروبي ـ وليد هذه الحضارة الجبارة ـ وجعله أقرب ما يكون إلى آلهة اليونان الأولين، شبيهاً في فكره وعاطفته وطموحه وخياله ونضارة حسه، إلا أنها وقد أيقظت فيه غريزة الصراع، جعلت منه ذرة في صحراء المجموع، تلك التي يقتلها الظمأ إلى العدل وإلى الحق وإلى الخير وإلى الجمال. وباتت هذه الحضارة، والفرد في كنفها ملاك، إنما الملائكة في حال اجتماعهم، يؤلفون عصابة من الشياطين قد استيقظوا على صياح الديكة، فاستأنفوا مسيرهم في مختلف الاتجاهات، من ثغور ايطاليا وانكلترا وفرنسا، وهولندا متجهين نحو الشرق قريبه وبعيده عند مطلع الشمس، معتقدين أن هذه البحار كلها والأراضي كلها وما عليها من شعوب وما فيها من خيرات وأرزاق، إنما هي مسخرة لخدمتهم وطاعتهم وأضحت أوروبا بفضل حضارتها أشبه بالإله الأسطوري الباحث عن رعية تعبده، وتؤمن به... وتسبح بحمده بكرة وعشيا.

يقف عامل تقدير الإنسان لأخيه الإنسان على قدميه، إذا انهارت كل العوامل الحضارية الأخرى. فالحضارة خلق وإبداع وصقل لغريزة الإنسان الأولى وتهذيبه، والسمو بمداركه وحسه إلى سوية البشر السوي. وقد تقف العلوم والفنون والاختراعات ومواكب المعرفة، وعظمة الفتوح في مضمار الكشف العلمي كأدلة بارزة على النهضة الراسخة، ولكن هذه المقومات الحضارية اللماعة، يجب أن تهدف إلى ارشاد الإنسان وتزويده بالروح التي لا تجعل منه تجاه أخيه الإنسان ـ سواء أكان من بني قومه أو من الأبعدين ـ مجرد قطعة تتحرك، يحترق في جوفها الغذاء، وتنتشر في الشرايين والأوردة، دماء حارة فتية، فتنطلق الحواس الخمس من عقالها ولا شيء بعد هذا كله. ذلك أن الحضارة جناحا طائر، أحدهما مفتوح على العش الذي يأوي إليه ـ صغر أم كبر ـ والآخر، إنما هو مفتوح على العالم أجمع. ولا قوام لحياة نبيلة بدون هذين الاتجاهين. وكما ينظر المواطن إلى زميله المواطن فيساعده ويحترمه ويشاركه أفراحه وهمومه، كذلك تفعل الأمم الأغنى نحو الأفقر منها، والأكثر علماً نحو الأقل علماً منها... والمتحضرة مع المتأخرة في سلم

الرقي أو المدنية، مدفوعة بأهداف سامية، لأن الإنسان كفرد يجب أن يكون هو الإنسان كمجموع: في نظرته إلى الحضارة وإلى استخدامه هذه الحضارة لبناء مضمون حي لحياة إنسانية فاضلة.

فماذا فعلت أوروبا... بالعرب كشعب... وبالعروبة كقضية... بعد هذا كله؟!!

إنها فعلت الكثير: حاولت حضارتها أن تجعل من الإنسان العربي شبه إله، بتثقيفه، والرقي بعواطفه وحسه إلى مرتبة القديسين. ولكنها عزلته عن مجموع شعبه الذي نبت منه. وما هذه العزلة الفكرية التي يحياها الجمهور المثقف من شعبنا العربي، سوى رجع الصدى لتلك الأساليب الحضارية التي تؤمن بإمكان عزل الإنسان عن واقعه وبيئته وقضايا شعبه، بالمزيد من العلم والمزيد من التحضر، والمزيد من الابتسام في حفلات الكوكتيل. وأماتت في هذا الإنسان المثقف روح الجماعة، وبعثت فيه غريزة البقاء المفردة. وعاد تفكير المثقفين ومنحى الثقافة بعامة، تعزيزاً لكرامة الفرد، مع قهر لكرامة الأمة التي ينتمي إليها، وبعثاً لصفحات السمو الإنساني مع تسجيل وقح لإعدام البشر غير المتحضرين بوسائل ليست مشروعة. وإذا كان قرن ونصف قد مضيا على هدير مدافع نابليون حول الأهرام أو سبعة قرون ونيف، على الحملة الصليبية على بيت المقدس، فإن مدافع نابليون لا تزال تهدر.. والسفن لا تزال تحمل السموم من جديد لتدمير قوميتنا الناشئة وعرقلة تطورنا نحو حياة أفضل، وعزة مرهوبة الكيان. ولعل العروبة كقضية لم يضعفها شيء قدر ما أضعفها الحرب والغزو... وعشرات الأعلام الأجنبية تخفق في سمائها الزرقاء الصافية من المحيط إلى الخليج.

ومع توالي الغزو، وإعادة المذابح، بين الآن والآخر، تولدت في الذات العربية، عقدة الخوف من الغد، وعقدة الركون إلى جانب القوي للحماية، والإيمان المريض بأن ركب العروبة قد فات، وما حيلتنا وعدتنا مع معركة البعث معروفة، إلى جانب قنابل الذرة والهيدروجين والصواريخ عابرة القارات، والأقمار الاصطناعية.. وهذه المعاهدات التي تعقد مع الدول الكبرى هي خير دلالة على عقدة الخوف من الغد والركون إلى جانب الدول القوية للشعور بفضيلة الحماية من أخطار موهومة أولها الغزو الشيوعي.. وآخرها الغزو الشيوعي. ولم تقتصر العقد على عقدة الخوف، وعقدة فقدان الثقة بالنفس، بل أضيفت إلى القائمة الحقيرة، أسماء أخرى، بعضها التآمر على الشعب وعلى حقوقه الأساسية في الحرية والسيادة والتعبير عن الرأي. ونشأ بين ظهرانينا حبل طويل شد به مئات العبيد الذين تربعوا على كراسي الحكم.. وكانوا عوناً للأجنبي على بني وطنهم... بالرصاص تارة، والسجون تارة... والنفي والابعاد إذا نفد الرصاص، واكتظت السجون بالأحرار!

وكان أن انتهى العرب بعد قرن ونصف منذ هدرت مدافع نابليون حول الأهرام، إلى أن تخوض العروبة كقضية، ثورة الجزائر العارمة، فضلاً عن عدة ثورات تحريرية

تخوضها العروبة في عمان والمحميات، وأكثر الأقطار العربية الأخرى، حيث الحرب سجال بين الاستعمار ـ وقد وقف في صفه العبيد والخونة ـ وبين الشعب العربي الذي يهدف من حربه الصريحة هذه إلى طرد الاستعمار... وفي اثره طغمة العبيد، أولئك الذين يريدون أن يقدموا الوطن العربي والشعب العربي، هدية لسادتهم، جزاء حماية هؤلاء السادة إياهم وتمكينهم من الحكم بشتى الأساليب والمغريات.

حيال ذلك الإلحاح في الضعف... والإلحاح في بث بذور الثقافة الحديثة، مجردة من حياة الأمة وواقعها، وتصوير هذا الواقع، تصويراً صادقاً، لدراسة علله وأمراضه، ووصف الدواء الناجع لهذه الأمراض والعلل، حتى أنجبت هذه الثقافة الحديثة، جمهرة من المثقفين، يقودون خلفهم بعض السذج البسطاء، والذين لا حول لهم ولا طول، في اتجاهات مختلفة: بعضهم يؤمن أن العروبة يجب أن تنحو نحو الغرب وإقامة مجتمع عربي على النمط الغربي، ديمقراطية... وأحزاب... وشركات... وصحافة حرة... وتكافؤ الفرص بين المواطنين. وفئة أخرى تدعو العروبة لأن تتجه نحو الشرق، للإيمان بالشيوعية كمنقذ، وبالاتحاد السوفياتي كنصير، مدعين لذلك بأن العالم يتطور ككل... والحضارة تتطور ككل... ولا معدى للعروبة عن اللحاق بركب التطور، وهناك اليوم عالم قديم ينهار هو عالم الرأسمالية، وعالم جديد يشرق فجره، هو عالم الاشتراكية. وهناك فئة ثالثة، أنشأ روادها أحزاباً تدعو إلى العروبة بمعزل عن الشرق والغرب، ولكن هذه الأحزاب التي تدعو إلى العروبة الصرفة، لا تستطيع في الواقع أن تكتسح أولئك الذين يدعون إلى ربط العروبة بالغرب... أو أولئك الذين يدعون إلى ربطها بالشرق... وكذلك لا تستطيع أن تقدم للشعب العربي، مادة حية للنضال ضد هذين الاتجاهين المتطرفين بالذات.

تجاه مثل هذه الفوضى القيادية، كان الحلفاء ييسرون لأنفسهم أنصاراً من العرب في حربين عالميتين وإن كان من المشكوك فيه أن يتيسر لهم في أية حرب مقبلة، مثل ما يتيسر لهم منذ مطلع هذا القرن... وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم، ما دمنا نرى حولنا على الأرض العربية، قواعد تشاد... ومطارات تمهد... وجيوشاً أجنبية تعسكر وتنتظر... وحكومات رجعية تصلي للاستعمار كل يوم خمس مرات... وتكفر بنعمة أمتها وقوميتها، إرضاء لشيطان المال والجاه، ما أمرها الاستعمار بالكفر... وأوصاها بالإلحاد!!

ـ ٢ ـ

التطور في حياة الأمم، أشبه بالملح الذي لا بد منه لكل طعام. وأمة لا تتطور، أمة تموت لا محالة. والتطور قد يأخذ منازع مختلفة. ذلك أن المشارب التي يستقي منها الشعب العربي مادة تطوره، إنما هي ذات صلة بالكيفية التي يوفر بها الشعب وسائل معيشته اليومية ونمط النظام الذي ييسر له هذا الهواء الجديد الذي يهب وسط زحام

التيارات في حياة أضحى كل ما فيها نذيراً بغبار جديد من تيارات التطور. ذلك أن التطور في الأساس متصل بالملاحظة إذا خلت ذاكرة الشعب من صور العلم المقروءة. وقد تقترن الملاحظة بالاكتساب المباشر إذا كانت الملاحظة تستطيع أن تتوزع بين حاضر ماثل، ومستقبل مشرق منير. وتطور الشعب العربي ـ بغض النظر عن عوامل التجزئة وتفاوت التطور من قطر إلى آخر ـ إنما يتم بصورة عفوية، وأحياناً ما يتم بصورة معكوسة يقصد منها خدمة مصالح استعمارية. فلا يتطلع هذا الشعب الراغب في التطور إلا على قشور الحضارة الغربية أو على سمومها بوجه خاص. هب أن شاباً يدعي الاطلاع على الحضارة الغربية ـ كما أدخل في روعه ـ لأنه زار أوروبا، وأمضى أكثر أيامه ولياليه، في مونمارتر بباريس، أو ساحة البيكاديللي في لندن وما تزخر به منعطفاتها، حتى إذا زار نيويورك استقر في الشارع الخامس!! ولكن أن نرى هؤلاء الأقوياء كيف يعيشون في بلادهم... كيف يحيا العامل؟ ما هي حقوقه وما هي واجباته؟ كيف ينظم الشعب شؤونه ويصر على المطالبة بحقوقه؟.. وما هي المسؤوليات التي يتحملها رجال المال والأعمال تجاه الامتيازات الممنوحة لهم؟.. حتى إذا انعكست كل هذه الصور في خيال إنسان يريد التطور بحق... وجد نفسه مسوقاً رغماً عنه للانخراط في جمعية منعزلة عن واقع الحياة وواقع المجتمع بسبب ثقافتها المنعزلة عن الحياة والمجتمع، دون أن يقسر نفسه كشاب مثقف، كإنسان، لأن يغادر مدينته ذات يوم، إلى الريف المحيط بمدينته، يرى محراث حمورابي دون أن يرى تشريعه!! والحضارة الغربية ـ بغض النظر عما فيها من أشياء مفيدة شرط تجريدها من جنسية مصدرها ـ تعتبر أجوبة استعمارية ربطت خيوط الدمى التي تتحرك في الشرق العربي بمراكزها الأصيلة في لندن وباريس ونيويورك وغيرها من العواصم الكبيرة ـ وأضحى المواطن العربي إذا حلم بحياة رافهة، تمنى لو عاش في باريس أو لندن أو نيويورك أو غيرها من العواصم الكبيرة... وإذا عز عليه إتيان المثال الطيب عن قوم شرفاء صادقين وعن شعب مرفه، قوي، ذكر الانكليز أو الألمان أو الروس أو الأمريكان. أما وطنه، أما شعبه، أما تاريخه، أما واجبه حيال هذه الحياة التي يحياها هو مع بني قومه، إذ تشده إليهم مئات الأواصر، فهذه جوانب لا يتطلبها إلا كل مخبول أو طامح في خيال ما دام يعتقد أننا ضعفاء لأن غيرنا قوي، وأننا فقراء لأنهم أغنياء، وأننا جهلة لأنهم متعلمون، وأنهم يحيون ويواصلون الحياة، ونحن نموت ثم نعيد الموت من جديد، وإن هذه الحياة الدنيا لهم... ولكن الحياة الثانية مضمونة لنا وحدنا!!

على أن الفوضى لم تقف عند هذا الحد: حد الاكتساب الحضاري الحر... وحد وضع الأمثولة في نفوسنا لعالم سعيد قوي لا يمكن أن يتراجع قط، يعيش في أوروبا... في الوقت الذي تكاد حياتنا لا تساوي فيه شيئاً... بل إننا انسقنا في هذا الخضم من جديد وبحماسة، إذ بعد أن كنا نساق فرادى في هذه الطريق المميتة، وكان الاكتساب المباشر فردياً أيضاً، أضحينا اليوم نعيش وسط محاولات ناجحة إلى حد ما، تبذل لإدخال جزء كبير من العالم العربي في نطاق الاستعمار الغربي، باسم وحدة المصير

وواجب الدفاع عن الحضارة، وقد ألقي على عاتق الأحرار في العالم أجمع (!!). يجري ذلك كله والفرد العربي لا يزال يعاني مركب النقص تجاه الفرد الأوروبي، وكذلك يتعرض للاحتقار الضمني منه في بعض الأحيان. ولا أدري أي مصير ينتظر العروبة كقضية والعرب كشعب إذا حاولوا أن يرفعوا مع العالم الغربي ـ والحضارة الغربية بالذات ـ راية الصمود حتى النهاية، تجاه ريح التطور والمزاحمة التي تهب عليها من المعسكر الشرقي، دون أن يشعر العربي في أعماقه أنه حر... وكامل الحرية. فهو مستعبد في الداخل، اقتصادياً وفكرياً، وفي الخارج مستبعد سياسياً في الوقت الذي يعطى فيه بندقية مع ذخيرتها ليقتل بها في بعض الأحيان بني قومه إن تظاهروا مطالبين بمزيد من التطور، وبمزيد من الصدق العروبي فيه. وقد يحمل الفرد العربي هذه البندقية ذات يوم، ضد أعداء مستعمريه، أولئك الذين يسخرونه لخدمة أغراضهم في الدفاع عن الحضارة، تلك التي لم يعرف منها سوى وجهها الكالح في وطنه، وسمومها القاتلة التي يتعاطاها أبناء شعبه في غفلة حيناً، وفي يقظة من أمرهم حيناً آخر، بالإضافة إلى تحكم الأقلية العددية في الأكثرية، والثروة في جمهرة الفقراء، وزمرة من العبيد، في ملايين الأحرار. هؤلاء العبيد بالذات ـ وهم سادة أحياناً وحكام مبجلون أحياناً أخرى ـ لم يعرفوا من الحضارة الغربية سوى التنعم بمباهج الحياة داخل بيوتهم: براد وغسالة ومراوح كهربائية وراديو وتلفون وأقداح شفافة تزيد مفعول الويسكي في القلوب والأرواح... دون أن نقطع إذا كانوا لم ينعموا بمباهج الحضارة في مقاهي مونمارتر، ومنعطفات ساحة البيكادللي، وفضيلة الزحام الحر في الشارع الخامس!!

ـ ٣ ـ

شملت الحضارة الغربية التي انتقلت إلى العالم العربي، فيما شملت، الطريقة التي يحياها الغرب في بلاده. هذا الشكل الذي نتخذه في القمة، أساساً للحكم لدينا، يخلو من عنصر الإفادة ما دام يفتقر إلى مضمونه، إذ تربط هذه الحضارة جوهر الشخصية العربية بمؤثرات ومنبهات لا تمت إلى واقع العروبة كقضية، أو العرب كشعب، مدفوعة، بعوامل عديدة، منها إدامة أشكالها ومضامينها الهادفة إلى الاستمرار في الرفاه... والسيطرة... على حساب قضايانا العربية، ومقومات شخصيتنا العربية الأصيلة البناءة.

واليوم، نحصد، انقلاباً في المفاهيم، وما تولده هذه المفاهيم المقلوبة من مثبطات لروحية الأجيال العربية الصاعدة. فقد صرفتنا الحضارة عن جوهر الحياة ـ وهو الإنسان ـ ومعدن فضائله وسمت خلقه الأصيل وتصرفه الحر، إلى العناية بالمظاهر والقشور. فخالد بن الوليد البطل ليس شيئاً ما دام يحارب على ظهر الحصان ويقاتل بالسيف. وطارق بن زياد ليس شيئاً ما دام أسطوله قد خلا من السفن المسيرة بالذرة والصواريخ عابرة القارات. والسمر العربي ليس شيئاً تجاه حفلات الروك أند رول الصاخبة. حتى أولئك الذين لا يزالون بالزي الشعبي ما برحوا يلاحقون بالاحتقار من بعض من دخلوا البنطال في هذه الأيام. وباتت الحضارة: بنايات ضخمة وسيارات فخمة، ولكنة تدور في اللسان

مع اللبان، ومعدة يجب أن تملأ ثروة، وجاها، ودسائس القصور، ضد القصور، ولا شيء بعد ذلك. أما أن تكون لنا وسيلتنا الخاصة في فهم الحياة مجردة من هدير المحركات وأزير الرصاص وعويل عربات المترو، أما أن يكون لنا نظرة تجاه الإنسان الذي يحيا هذه الحياة مناضلاً ذائداً عن وجوده، مبرهناً عن جدارته بهذه الحياة، وبالصدارة فيها، أما أن يكون لنا في ماضينا نبراس خالد نعتز به، فنذكر خالد بن الوليد لا نابليون، والغزالي لا كانت، والمعري، لا شكسبير، وصلاح الدين لا فريدريك... فهذا من الخيال الذي نحلم به ونعيد، دون أن نحصل على مزيد.

إننا لسنا ضد الثقافة ولا ضد الاكتساب ولا ضد فتح النوافذ العريضة لتدخل الحضارات مجردة من ثيابها... لأننا نؤمن بالحقيقة المجردة، ونحترمها، وندافع عن وجودها، بوجودنا كله، ونؤمن بطلب العلم للعلم. أما أن يكون الأمر أن الحضارات تدخل بثيابها فحسب، أن يكون التعصب ـ والعلم والمعرفة لا يعرفان التعصب ـ لإنسان بعينه مجرداً، من خاصية هذا التعصب، لأبناء هذه الحضارة أو تلك، وأن يكون الوقوف على فضائل هذا العبقري، والتعصب لها، هو الغاية من الثقافة وهو المبرر الوحيد لنهل مواردها، فهذا ما نحاربه، وما لا نقبل به، لأننا نؤمن أننا شعب له تاريخه وحاضره، وله مستقبله على هدى هذا الحاضر وذاك الماضي، دون أن نقف عن الاكتساب من الحضارات كلها... والثقافات كلها، فلا نفقد بذلك، جوهر شخصيتنا، فنفقد مبررات وجودنا.

ولقد تعرض العرب فيما تعرضوا له، منذ مطلع هذا القرن، وبعد الحرب العالمية الأولى بخاصة، لبعث حضارات من قبورها، نتيجة لحمى البحث عن حضارات الإنسان التاريخ في هذه البقعة من العالم. فإذا مصر فرعونية، ولبنان فينيقي والعراق آشوري. وإذا المغرب العربي كله، فرنسي بعضه ـ كما يُدعى اليوم بفرنسة الجزائر ـ وبربري بعضه وما تبقى فإسلام ينطقون العربية دون أن يكتبوا بها. وتأصلت هذه الخطوط التي أسميت حدوداً، كما تتأصل السلسلة إذا قيدت بها الأقدام، مما أقام في داخلها دولاً وحكومات... وأقام خارجها، نظرات الطمع والاستيلاء يؤججها الاستعمار ضد هذه الأقطار العربية وفيما بين بعضها بعضاً. وإذا الدول الاستعمارية التي توزعت العالم العربي فيما بينها، ممثلة في الجيوش والشركات، تسعى جاهدة لتؤصل هذه الحدود، فلا تنهار، وتقيم تلك الحضارات المحنطة، فإذا هي تسعى، وإذا بها تلقى منها التشجيع والمدد، سراً وعلانية، حتى إذا أتت الحرب العالمية الثانية وخرج العالم منها منتصراً على الشر، تبين العالم العربي أنه مسوق إلى حتفه إن لم ينزع هذه القيود، فسيكون النير جزءاً من الرقبة، والقيد جزءاً من الأقدام. فحاول أن يقر هذه الحضارات التي تشبه تماثيل الشموع الخالية من الروح... وباتت العروبة بين نارين: نار الاستعمار وزبانيته... ونار الذين آمنوا بالحضارة الغربية ـ والاستعمار عصارتها الحتمية ـ وقيمها، وأنكروا كل صلة لهم بشعبهم وبتاريخ هذا الشعب، فانهزموا من ساحة المعركة النضالية التي يتأجج اليوم نارها، متطلبة منا جميعاً، كل عون مادي أو أدبي.

والاستعمار لا يأتي من الخارج فحسب، بل إنه ينبع من الداخل أيضاً، لأننا لا نستطيع أن نقنع بتحرر وسيادة أي قطر عربي، إذا لم تتفتح حياة الشعب فيه على أوسع نطاق، ولم يوجه شعبه لاكتساب المزيد من أسباب التطور التي تهب ريحها من أربعة أطراف المعمور. وعندما تقتصر وسائط المواصلات على الحمير والبغال والجمال، وتقتصر الثقافة على قراءة بعض الكتب الدينية، وتقتصر التجارة والصناعة والزراعة على وسائل قديمة، بل لعلها نماذج أولى لنشوء الحضارة البدائية... وعندما يقتصر سلاح الشعب على سيوف من خشب، تقوده وتوجهه وتحكمه، وعندما يخلو البلد كله من مدرسة... ومن مستشفى، وتحول المدارس التي كانت فيه إلى قصور، والمستشفيات إلى سجون، فإننا نقف ـ بسبب ذلك كله ـ حيال أعلى أنواع الاستعمار: استعمار يغل العقول والأفكار والنفوس، فلا تنطلق لتؤدي واجبها حيال العروبة في هذا الجزء المعزول عن العالم كافة. ذلك أن التفريط في الخوف من الاستعمار يؤدي إلى استعمار مماثل. وإلا أتكون الحياة هكذا، بحيث تعاش بلا هواء جديد، وبلا تجربة جديدة، لتصاب الشعوب بالعقم الذي لا تبرأ منه إلا بمرور عدة أجيال تكون هي الضحية الصامتة؟

والعروبة، وقد أصيبت من الاستعمار الغازي، بالكثير، قد أصيبت أيضاً من الاستعمار المنبعث من داخلها من فوضى القيادات، وفوضى السلطان، وتآزر هذه القيادات فيما بينها، فلا تنهار القصور المشيدة على الرمال، لتنهار معها الرؤوس الفارغة التي تحكم الملايين، بالأدعية والتعاويذ، غير مصغية إلى نصيحة أو مشورة، جاعلة من النفوس النبيلة والجباه السمراء، محطاً لأقسى أنواع العذاب والتشريد والنفي والإبعاد عن الأوطان.

على أن المنطق السليم، لا يلهينا دائماً عن الشذوذ الذي تحفل به القاعدة. فكما أن الاستعمار الخارجي، عدو للقومية العربية، للشعب العربي، فكذلك الاستعمار الداخلي ينبغي اعتباره كالاستعمار الخارجي سواء بسواء، بل إن الجريمة تغدو أكثر خطراً، تجاه تعطيل الملايين من أبناء الشعب العربي، فلا تكون ملاذاً ونصيراً لمن ابتلوا بالاستعمار الحقيقي في فلسطين والجزائر وعُمان، وكل أرض عربية لا تزال تشكو من رجس الغاصبين.

ـ ٤ ـ

إن الاستعمار في العالم العربي يتجلى في مظهرين: **الأول**، اسرائيل، والثاني، الأحلاف التي تفرضها الدول الاستعمارية على العالم العربي، والرجعية التي تقبل هذه الأحلاف آملة أن تزيد من أمد بقائها في الحكم... وإبقاء الرجعية في كل شيء كمظهر للاستعمار الداخلي.

فإسرائيل تمثل في الحقيقة كل الأخطار التي يمكن أن يتصورها المرء عندما يريد أن يدقق في هذا الكيان الذي خلقه الاستعمار وسط عالمنا العربي. إن إسرائيل ليست نزعة

دينية بقدر ما هي فكرة اقتصادية، وليست أداة للعدوان بقدر ما هي خطر محدق بكافة دول المنطقة في كل آن. وهي أداة طيعة في يد جماعة الأحلاف يؤدبون بها من لم يتأدب بعد، ويشهرونها سيفاً مجرداً من قرابه في معركة تطويع الشعب العربي لخدمة الحضارة المنهارة، والدول التي لا تزال تحلم ببعث امبراطوريات القرون الوسطى، وتوطيد الامبراطورية الاقتصادية الأولى، في القرن العشرين: امبراطورية المال وأسهم الشركات ومناجم الذهب والفضة وآبار البترول، وتسخر ملايين العبيد في برامجها الهادفة إلى الاستيلاء على العالم أجمع، وإسرائيل ممثلة هذه الامبراطورية في الشرق العربي.

وإذا كانت ضحايا إقامة إسرائيل حتى الآن لا تتعدى مليون لاجئ مشرد، عدا ألوف الملايين من الليرات، قيمة أملاكهم وأرزاقهم وما ترصده الدول العربية على التسلح احتساباً لعدوان اسرائيل عليها، فإن الخطر لا يزال في بدايته، وإذا لم تسد هذه الثغرة، فإن ثغرات أخرى سوف تفتح، ولا يسد هذه الثغرة شيء مثل الإصلاح في الداخل مع التسلح والاستعداد للحرب في الخارج. وها هو الاستعمار اليوم ـ وقد هالته الانتفاضة بعد النكبة ـ يسعى جاهداً لكبح جماح هذه الانتفاضة، وكذلك لإدخال أكبر عدد من الدول العربية في أحلافه بحجة الخطر الشيوعي، في الوقت الذي لا يزال يحاربنا فيه، في عُمان وفي المحميات، وفي فلسطين وفي الجزائر، فكيف ستغدو حالنا إذا انخرطنا جميعاً في أحلافه... وتسلم زمام أمرنا، نفر من عبيده الأذلين؟ أيبقى أمل في انتصار ثورة الجزائر وفي عودة اللاجئين إلى ديارهم بعد طرد العصابات منها وتحرر العرب من ربقة النير الثقيل، وتخلص العروبة من تيارات المذاهب المتجلية اليوم؟ أم اننا سنغدو أشلاء، قد نسلم على ما تحتنا من أرض وما فوقنا من سماء وقد لا نسلم؟

والمعركة مع الاستعمار تبدو مزدوجة. وهي في الحقيقة كذلك. ذلك أن وجهها الأول عربي بحت، يتجلى في بعث القوى الدفينة وتنظيمها وإطلاقها من جديد للوقوف في وجه اسرائيل كخطر مباشر. والوجه الثاني وجه الاستعمار البغيض الذي تضافرت جهوده مع جهود أذنابه في الداخل، لتشتيت هذه الجهود وبعثرتها والحيلولة دونها ودون إتيانها بأي بادرة تدل على سير في الطريق المستقيمة المؤدية إلى تجاوب فيما بين العناصر المشتركة في عملية الخلق الجديد التي تمر بها العروبة للقضاء على إسرائيل وسد الثغرة التي إن بقيت هكذا، مفتوحة كما هي اليوم، فإن الخرق سوف يتسع، وسوف تغمر سياسة الأحلاف، هذا العالم العربي كله، ما دام عدوان إسرائيل على كل دولة عربية متحررة من أبسط الأمور، وما عدوان اسرائيل على سوريا، لأكثر من مرة، وكذلك عدوانها لأكثر من مرة، على مصر، عن الأذهان ببعيد.

وقصة اسرائيل، ليست القصة الوحيدة التي يكتبها الاستعمار على صفحة أرضنا الطيبة. ذلك أنه في داخله، يكتب القصص المفزعة الأخرى، حتى إنه انساق وراء أحلامه في الفتح والغلبة إبان الحرب الأولى، فحارب ألمانيا ـ وهي أيضاً دولة استعمارية ـ وحليفتها في المشرق، وهي أيضاً استعمارية لأنها تقوم على العنصرية،

وتشجيع الاستعمار الداخلي الممثل في إحياء الرجعية ومدها بالقوة لتبقى على نفوذها وهيكل بقائها المتداعي. فالحرب الأولى ـ وكان من أسبابها ولادة إسرائيل ـ بوحي وعد بلفور ـ إنما كانت مظهراً من مظاهر تخبط الحضارة الغربية التي تختنق اليوم بأوسع معاني الاختناق، أكان اقتصادياً أو روحياً، أو فكرياً. ذلك أن حضارة تعتبر الحرب وسيلة من وسائل بقائها، كالحرب الداخلية ـ بين ممثلي هذه الحضارة ـ والحرب الخارجية ضد بقية العالم، لهي حضارة سوف تنهار من داخلها بحروبها الداخلية، أو من خارجها بانتفاضة الشعوب المغلوبة على أمرها، عليها، وهذا ما نشهده الآن، حيث نرى انتفاضات الشعوب في قارتي آسيا وافريقيا، وفي أمريكا الجنوبية، على هذه الحضارة الغربية، من حيث تنظيمها للعلاقات بين الأفراد، والشعوب، وهي كلما تحاربت فيما بينها، استطاعت بعض الشعوب أن تتخلص من القبضة الاستعمارية. ولعل الشعوب التي لم تتحرر بعد، برغم مضي حربين عالميتين، فإن الأمل جد قوي، بانتصار هذه الشعوب المغلوبة على أمرها ـ والشعب العربي في طليعتها ـ دون حرب ثالثة، نظراً لتساند قوى السلم في العالم أجمع مع الشعوب الراغبة في الحرية والاستقلال.

فالحرب والفتح، عنصر ملازم لبقاء هذه الحضارة. هذه الحضارة التي لا تجد حرجاً في إفناء الهنود الحمر بأمريكا، والقبائل الاسترالية، والشعب العربي في الجزائر، وفي أكثر البقاع التي وطئتها قدم الإنسان الأبيض في آسيا وافريقيا، طاردة منها سكانها الأصليين إلى داخل الغابات تفترس الوحوش مرة، وتفترسها الوحوش مرة، فتنقرض هي والوحوش معاً، ذات يوم.

هذه هي قوام النظرة إلى الآخرين، والغرباء منهم بصورة خاصة، التي تدعو إليها الحضارة الغربية لتبرر بقاءها مدفوعة بعوامل استعمارية بحتة. هذا ما جعل مأساة مليون لاجئ عربي، مأساة مفتعلة في نظر الرأي العام الأوروبي، فهضمها ضميره اللاأخلاقي، ولم تهزه حتى أعماقه، لينتصر للمشردين العرب، وكذلك لم تهزه حرب السويس البشعة، وكانت قد ألهبته مبادرة روسيا لإخماد ثورة المجر، جاعلاً من أولئك شهداء... ومن ملايين العرب الثائرين ضد الظلم والاستعمار الأوروبي، جماعة من العصاة الثائرين على الحضارة التي رفعتهم إلى مصاف البشر السوي!!

أما الأحلاف ومن يساندها في العالم العربي، فهي المظهر الثاني من المظاهر المخلة بسيادتنا القومية بالذات. ذلك أن الأحلاف والذين يدعون إليها، هي جزء من كل، شامل متكامل، لخطة رهيبة من خطط الاستعمار الجهنمية. ولا أدري إذا كان من حسن حظ العرب كشعب، والعروبة كقضية، أن تنتصر الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ أم أنه من سوء حظهما على التحقيق؟ ويبدو حسن الحظ في أن العرب اليوم يستفيدون من التوازن القائم بين المعسكرين فيتأرجحون على حبل الاستعمار ما وسعهم التأرجح، إلى أن يقطعوه، لا ليصبحوا غربيين من جديد، أو شرقيين ففي ذلك هلاكهم المحقق، ولكن ليبرزوا من خلال الأنقاض والملايين المشردة، وقسوة المظالم، شعباً طموحاً، وقضية

عادلة نبيلة المقاصد، سامية الأهداف. ويبدو سوء حظ العروبة، أن الغرب وجد في الشيوعية مادة دسمة للدعاية ضدها وسط الأمم الراغبة في الحياد، وأمتنا العربية من بينها ـ وهذا من شأن الاستعمار وحده ـ ولكن الخطر كل الخطر أن يقع بعض بسطاء الحكام فريسة سهلة لهذه الدعاية وأن ينقادوا بشعوبهم إلى صف الاستعمار، فهذا الذي لنا به الشأن... بل كل الشأن، لأن الأمر قد تعدى حده المألوف، وبدأت العروبة تتهم بالشيوعية ـ وهي من الشيوعية براء ـ ولا أدري ماذا يكون موقف الاستعمار اليوم لو لم تكن الشيوعية، ولو لم يكن ماركس على الإطلاق؟ أتراها تعدم ضجة أخرى ـ أدهى من التهمة بالشيوعية وأمر ـ لإلصاقها بكل عربي حر، يريد لوطنه أن يتحرر من الاستعمار، ولبلده أن يخلو من العبيد المرتزقة، ولمواطنيه المزيد من الحرية والكرامة وراحة الضمير.

على أن الأمر في الواقع، ليس تخميناً. فالتطور لا بد منه، والبشرية سائرة إلى الأمام، وليس من عقبة تستطيع أن توقف سيرها الملح. وكل ما هنالك أن الشعوب تريد أن تتحرر... وتريد أن تتطور، والاستعمار وقد هيأ إسرائيل خارج حدود الدول العربية، قد هيأ أيضاً أحلافه المنظورة وغير المنظورة، فأشعل النار داخل العالم العربي، وسلط العربي على العربي، وسلط الحاكم على المحكوم، وسلط السادة العبيد على الأحرار المستعبَدين. وجلس يرقب نتيجة المعركة التي يخوضها الشعب العربي من المحيط إلى الخليج ضد الاستعمار... ضد اسرائيل كدولة قائمة في قلب العالم العربي... وضد ما يمكن أن تستطيعه اسرائيل في المستقبل... وضد الأحلاف الرامية إلى السيطرة على منبع القوة والصفاء والخلق القويم في الشخصية العربية ليحول دونها ودون ما يمكن أن تعده ضد اسرائيل كمظهر من مظاهر الاستعمار الخارجي الجاثم على صدر العالم العربي... وضد ما تعده هذه الأحلاف الاستعمارية بحجة محاربة الشيوعية في داخل العالم العربي... وفي خارجه لمحاربة الاتحاد السوفياتي، بوقيد من العالم العربي، مستعينة باستجابة بعض المغرمين بالحكم... وأعداء التطور... وحماية الرجعية وتزويدها بأكثر عناصر البقاء.

والشعب العربي إذا كان يقاوم اليوم الاستعمار بمظاهره المتعددة الخارجية والداخلية منها، فإنه مدعو لإثبات وجوده الحي في معركة البعث الخالدة التي يخوضها ضد كافة ما تركه الاستعمار على أرضنا الطيبة من عقد النقص والخوف من الغد، كأمة وكحضارة... وكاتجاه حضاري، وسط هذا الصخب الذي يعلو ولا يزال... وضد العناية بقشور الحضارات وترك لبابها... وضد إذابتنا في بوتقة الامبراطورية الاقتصادية الجديدة، كخدم وعبيد... وضد حرب الإبادة التي نتعرض لها في فلسطين، والجزائر وعُمان، وعلى كل أرض عربية... ضد الامتيازات التي سرقها الاستعمار في غفلة عن عين الشعب التي استيقظت اليوم ولن تنام أبداً... وضد كل المعاهدات التي توطد للاستعمار قدماً، وللخونة قدماً، وضد كل ما تعده طبقة العبيد والرجعية لإيقاف عجلة التطور عن السير مهما اعترضها من صعاب.

تقف العروبة اليوم على قدميها: ثورة في الجزائر. ثورة في عُمان. إرهاص بالثورة في كل أرض عربية يقيدها الاستعمار بغل وضع مفتاحه في أيدي حفنة من عبيده وخدمة الأذلين. وتبدو معركة الشعب العربي معركة مستمرة لا نهاية لها بالنصر المؤزر الذي يضع حداً لعبث الاستعمار بسيادته القومية، وعزته الوطنية، وأمجاد تاريخه النبيل.

ولعل البارز في معركة العروبة مع الاستعمار أنها حركة واضحة. فالمحاربون في صف العروبة معروفون، حيث الشعب العربي من المحيط إلى الخليج وقيادة عربية تحررية تؤمن بالحياد بين المعسكرين، وتسعى للسلام في العالم أجمع. والمحاربون ضد العروبة معروفون أيضاً، حيث الاستعمار كفكرة استغلال واستعباد، وإسرائيل كسيف مسلط على الرؤوس، وطبقة رجعية من الخونة والأذناب وتجار السياسة وبعض أصنام الحكم. وتبدو وسيلة الحرب بارزة صورة ومضموناً. أما الصورة فتتجلى في هذه الأساليب من الديمقراطية الكاذبة التي تمرس بها كثير من الخونة والأذناب ولصوص الحكم ومن خلفهم الاستعمار. أما المضمون، فوجود هذه الطبقة بالذات من الخونة التي ربطت مصلحتها بمصلحة الاستعمار، ضد الشيوعية ـ والعروبة، كقضية، من الشيوعية براء، لأن طريق تحرر العروبة إلى الآن لم يصطدم لا بالشيوعية ولا بالاتحاد السوفياتي. وكذلك وجود هذا الاستعمار المتمثل في شركاته النهمة النهابة، وجيوشه المعسكرة على الأرض العربية، والمعاهدات التي يحترمها جانب واحد، وكل الحلقات الاستعمارية المسماة أحلافاً تبغي الحفاظ على الحضارة والعالم الحر وإسرائيل!! وأيضاً، وجود إسرائيل كفكرة عملية من جانب الاستعمار، تجسدت في شعب طريد، وجرح لا يزال ينزف حتى الآن وعلق لا يزال يرتوي من هذا الجرح النازف. وأيضاً ثم أيضاً، وجود كل من يدعو إلى محاربة الاستعمار بمزيد من الديمقراطية علاوة على مظاهر الديمقراطية المريضة التي يتخبط الشعب العربي من جرائها في البؤس والاستغلال حتى الآن ولا يزال.

أما وقد وضح المعسكران: معسكر العروبة، ومعسكر الاستعمار، فإن طريق الخلاص أضحت هي أيضاً معروفة وليس لنا الآن إلا أن نسردها ببساطة وهدوء.

قامت في مصر عام ١٩٥٢ ثورة. ونحن اليوم في عام ١٩٥٨. وفي هذه السنوات القليلة استطاعت الثورة أن تحرر مصر داخلياً من الرجعية ومن أذناب وعملاء الاستعمار، واستطاعت الانتصار على الاستعمار وعلى أحلاف الاستعمار، واستطاعت أن تخوض معركة التحرر والوحدة بعزم وحزم لا سبيل إلى وصفهما. وحطمت على جدار بورسعيد الفولاذي أعتى عدوان تعرض له شعب حر في التاريخ. فمن أين جاءت الثورة بكل هذه الفضائل؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من سرد الحكاية من أولها.

قامت في مصر عام ١٩٥٢ ثورة. نحن اليوم في عام ١٩٥٨. ولعل الصدق لم يتجل كما هو في تاريخ هذه الثورة منها في تاريخ أية ثورة مماثلة. كانت ثورة مصر

تؤمن بالواقع كما هو إيماناً مجرداً من العاطفة. وتؤمن بالفكرة التي تحملها لإصلاح هذا الواقع إيماناً مجرداً من العاطفة أيضاً. وتؤمن بوسيلتها التي انتهجتها في تطبيق هذا الإصلاح تطبيقاً مجرداً من العاطفة أيضاً، وأيضاً.

وجدت الثورة أن مصر تزخر بالأحزاب، وأكثر الأحزاب ظاهرة مرضية في المجتمع العربي. هذه الأحزاب لا تمثل اتجاهات جذرية ولا تعبر عن محتويات اجتماعية لجمهور الشعب العربي في مصر، بل هي تتكون من طينة واحدة، طينة الطبقة التي تمتلك الأرض وتمتلك الصناعة وتحتكر التجارة، وتمتلك الشركات والمشاريع ومن يحف بها من عبيد وخدم. هذه الطبقة قد تملك كل الثروة في مصر... ولكنها من حيث العدد لا تمثل خمسة في المئة من مجموع الشعب العربي في مصر. طبقة ليس لها من رصيد شعبي سوى رصيدها في بنك مصر... وبنوك العالم الحر قاطبة!!

هذه الأحزاب ـ كما وجدتها الثورة ـ أشبه بشركات تصنع الغزل في معاملها العديدة. من مصلحة كبار المساهمين، أن يتزاحموا على السوق ـ الحكم ـ وأن يغروا بالمستهلك ـ المواطن ـ فإذا كونوا فيما بينهم كارتل أو تروست ـ ائتلاف قومي أو دمج حزبي ـ فمعنى ذلك أن كبار المساهمين زعماء الأحزاب ـ قد اتحدوا ضد صغار المساهمين ـ جمهور الأحزاب ـ وضد المستهلكين ـ الشعب بأسره ـ. وإن شركة ـ حزباً ـ أو شركات ـ أحزاباً ـ هذا شأنها لجديرة بأن تحل كما فعلت الثورة في مصر... لإعادة تركيب العناصر الإيجابية والقيادية للمجتمع من جديد.

في مثل هذا الجو الفاسد، الطافح بالخيانة والرشوة، وشراء الضمائر، والتزلف لذوي السلطان، كانت القضية المصرية ـ كجزء من القضية العربية مع الاستعمار ـ تخسر الشوط في كل مرة كان الرأي العام العربي يصفق لها إيذاناً بفوزها... وكان الخسران بسبب بسيط هو أن الوكيل كان يتفق مع الخصم ضد الموكل، فلما أغلقت الثورة الباب إلى الأبد على هذه الأحزاب، أو تلك الشركات إن أردنا الدقة في التعبير، تحرر المستهلك، ونشط المساهم الصغير، وحفظت الثورة، الثروة القومية، فلا تطير في مضاربات البورصة أو مضاربات الحكم.

ولقد فقد الاستعمار بحل الأحزاب في مصر معيناً نشيطاً، وهذا ما سيفقده في كل قطر عربي آخر ـ كفى المستعمر مؤونة الكشف عن وجهه طيلة أمد الاحتلال ـ إلا في ثورة ١٩١٩ يوم خرج قياد الثورة من يد القادة إلى يد الشعب ـ ووقفت مصر حكومة وشعباً يداً واحدة ضد المستعمر... ضد جنود الاحتلال في القناة... فاضطر أخيراً ـ كما قال الرئيس جمال عبد الناصر ـ أن يحمل عصاه ويرحل... لأنه ليس من مصلحة له عاجلة أو آجلة لا في مصر ولا في العالم العربي كافة، في أن يشهر سلاحه ويحارب دفاعاً عن بقائه. إنه ذكي نوعاً ما، لقد خسر معركة، فلينسحب إذن... وليعاود الهجوم مرة ثانية على مصر... بواسطة عملائه المنبثين في أكثر الأحزاب القائمة في العالم العربي... وبواسطة نفوذه وسلاحه واسرائيل إذا لزم الأمر... فلما نفدت ذخيرته من

الدس والاستغلال، وفقد أمله في أعوانه داخل مصر وخارجها، جرب الحرب الصريحة... فكان أمرها أن زوي بطلها في جاميكا... وأضحى عبد الناصر زعيم العرب كشعب... وأضحت فلسفة الثورة ـ كطريقة في الإصلاح والحكم ـ فلسفة العروبة كقضية.

ونظرة فاحصة نلقيها على أكثر البلاد العربية... لندرس أحزابها وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، نخرج بها بنتائج واضحة، تؤكد أن وضع مصر مشابه للأوضاع في أكثر البلاد العربية، وأحزاب مصر كأحزاب أكثر البلاد العربية... والشركات التي كانت قائمة في مصر، هي ذات الشركات القائمة اليوم في أكثر البلاد العربية... لها نفس الأهداف والمطامع في السيطرة على السوق واستعباد المستهلك!!

إن مصر الثورة قد ضربت المثل الصالح ـ والمثل الصالح قدوة ـ في تحرير نفسها من ربقة هذه الشركات ـ الأحزاب ـ وتخليص الوطن من أنصار الاستعمار المنبثين في مجالس إدارتها، وطردت الاستعمار إلى غير رجعة، وهي تخوض اليوم، معركة التحرير الكبرى على أوسع جبهة ضد الاستعمار عرفها تاريخه، لتعيد الثقة إلى نفوس المواطنين من أبناء الشعب العربي، بقضية وطنهم العربي الكبير، وحقه في السيادة الكاملة والحرية الصحيحة، بعيداً عن تيارات المذاهب المختلفة، وعن أساليب هذه المذاهب في السياسة والحكم، لإقامة كيان عربي أصيل، في ظل راية القومية العربية، كنزوع إنساني، نحو عالم فاضل، حر، سعيد.

عيوب الحياة العربية الراهنة(*)

عبد اللطيف شرارة

كان من شأن الأحداث السياسية الخطيرة التي مر بها العالم العربي مؤخراً، ولا سيما في لبنان والعراق والأردن، أن فتحت العقول والقلوب والعيون على أمور ثلاثة: (١) السياسة الغربية (٢) أخلاق الزعماء والساسة (٣) فساد التنظيمات الإدارية العامة، داخل تلك الأقطار.

هذه الأمور التي انكشفت لكل ذي فكر ونظر، أطلعت الأجانب أيضاً في الوقت نفسه، على مسالك سياستهم وزعمائهم في ديارنا العربية، وأتاحت الفرصة للناس، أن يلتقطوا العلاقات الخفية التي كانت قائمة، في نجوة من النقد والملاحظة، بين السياسة الغربية، وأخلاق الزعماء من جهة، ثم بين هاتين مجتمعتين، وفساد التنظيمات الداخلية، من جهة ثانية.

وإنه ليكفي أن نعيد إلى الأذهان ما أفشت محاكمات العراق من أسرار مذهلة، مدهشة، عن تصرفات أكثر الرجال في مختلف الأقطار العربية، وفي العراق ولبنان على الأخص، ليجد القارئ أن التاريخ الذي كنا نحيا في أجوائه، قبل الانقلاب العراقي الأخير، إنما كان أحجية من الأحاجي التي يصعب فهمها على أدق الناس ذكاء، في داخل العراق، ناهيك عن خارجه!

يمكن القول إذن، إن كل ما خفي على الناس من أسرار التاريخ العربي في هذه المرحلة من سيره، أصبح اليوم شبه ظاهر، وإن ما ظهر منه حتى الآن يعيننا على إدراك الواقع الذي نعيش فيه، وأسباب نقائصه وعيوبه الكثيرة.

وأول هذه النقائص في الحياة العربية الراهنة التي تبرز لكل ذي عينين، فقر الجماهير العربية، المتمثل في كثرة العراة والحفاة والمتسولين، ثم في كثرة العاطلين عن العمل والمتسكعين على أبواب الزعماء ورجال الحكومة، وأخيراً في كثرة الساعين إلى الوظيفة، والعازفين عن الأعمال الحرة والهاربين من القرية إلى المدينة.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٦، العدد ١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٨)، ص ١ ـ ٥.

هذه الفاقة التي لا تجد ما يبررها في حياة أي بلد عربي، ظهرت أسبابها الآن، وتبين أن أمرها مفتعل من أساسه، وليس لها أدنى صلة بما كان يقرره فلاسفة الاستعمار الغربي من الكسل الرائن على طبيعة الناس في هذه المنطقة، إلى عتو المناخ وقسوته على الجسم البشري، إلى فساد الأفكار والعقائد التي يحملها أبناء هذه البلدان وتحول دون اجتهادهم، وهم في تحصيل الرزق، إلى ما أشبه... من نظريات سخيفة، عتيقة، لئيمة اخترعها العقل الغربي.

تَبين أن ثروة البلاد العربية تنفق على التآمر، وتذهب إلى جيوب أفراد لا همّ لهم غير تخريب الأخلاق، وإفساد الضمائر، ويبذرها الحاكمون في سبل تعود على البلاد بالأضرار الفادحة، ولا يفيد منها أحد. فلو أن الأموال التي أنفقها رجال العهد البائد في العراق، على الأشخاص والملذات والمؤامرات، وظفت في مؤسسات وشركات ومشروعات عامة، لما وجد في العراق بل في أقطار العرب كلها، أسرة تشكو الفاقة، ولا فرد ينتحر لضيق ذات يده!

وإذا كانت أسباب الفقر ـ وهو العلة الأولى لكل ما يعتور الحياة العربية الراهنة من آفات ونقائص ـ تكمن في سيرة الساسة والزعماء والقادة، في طريقة إنفاقهم للأموال، في أسلوب معاملتهم للشعب، فإن العلل الأخرى الناجمة عن الفقر، كالجهل، وانتشار الأمراض، وتدني المستوى المدني، وضعف الجانب الثقافي، وضآلة العناية بالفنون والآداب والعلوم، وسقم الذوق الاجتماعي، تجد أسبابها بصورة أوتوماتية، في التشكيلات الإدارية العامة، في التنظيمات الداخلية، في سن القوانين ومراقبة تطبيقها، وأخيراً في رعاية الشؤون الحيوية العليا التي وضعت في أيدي رجال يكفرون بالشعب، ولا يؤمنون بشيء.

والرجال في حيز التاريخ ظواهر!

معنى ذلك أن الحاكم، أو الأديب، أو الفنان، أو العالم المخترع، يعبّر بمسالكه، وآرائه ومناهجه وخططه وأعماله، عن العصر الذي ظهر فيه، والبيئة التي أنبتته، والمجتمع الذي عاش فيه وأخذ منه وأعطاه، فلا يمكن أن يتحلل امرؤ تحللاً كاملاً شاملاً عن جميع ظروفه، ولا يتاح له أن يكون ما كان، إلا محصلة عوامل ودوافع وجواذب، أفضت إلى بناء شخصيته، وتلوينها، وصوغها في القالب الذي تظهر به على مسرح الحياة العامة، في أي حقل من حقول النشاط الإنساني.

والرجل السياسي على الأخص «ظاهرة» تحمل من التعبيرات الواضحة عن المجتمع، في بيئة ما وعصر ما وأمة ما، أشياء لا يحملها الفنان، ولا المفكر، ولا العالم، ولا الأديب، لأن هؤلاء يسبقون عادة مجتمعهم، ويفيضون عليه من مواهبهم وجهودهم وتطلعاتهم ما يحفزه إلى التقدم ويستثيره لإجراء تبديل ولو طفيف، في طراز معيشته، وأساليب تفكيره، وقواعد اجتماعه، بينما يظل السياسي مكانه، لا يتحرك لتغيير واقع، إلا تحت ضغط من الضرورة أو إملاءات يتلقاها من فوق، في وضع استعماري، ومن تحت، في وضعٍ متحرر طليق.

نستطيع على أساس من هذه الحقيقة التي ترى في الحاكم السياسي، ظاهرة معبرة عن وضع وتاريخ، أن نتلمس مضامين السياسة الغربية، وأخلاق الساسة، وفساد التنظيم الداخلي في البلاد العربية، عبر الحقبة التي تمتد من الحرب العالمية الأولى حتى الانقلاب العراقي الأخير - نتلمس ذلك كله، في سيرة نوري السعيد، وهو الظاهرة الكبرى في التاريخ العربي المعاصر، إذ لم يكن لنوري السعيد وأمثاله أن ينشأوا في البلاد العربية، إلا في هذا العصر، وعليهم تقع تبعة النقائص والعيوب التي تعتور الحياة العربية في مرحلتها الراهنة.

ثم إن نوري السعيد وأعوانه وأنداده وأتباعه، إنما ظهروا ومارسوا الشؤون العامة على قاعدة من تربية أجنبية خالصة، وعملوا ما عملوا بمبررات أجنبية خالصة أيضاً، وحكموا ما حكموا بتأييد من الأجنبي، فهم بذلك، لا يمثلون فترة من التاريخ العربي وحسب، وإنما يمثلون «الحالة» التي انتهت إليها حضارة الغرب، في علاقاتها بمن هو خارج عنها، ويعبرون عن السياسة التي اتبعها الغرب في ديار العرب، لأنهم كانوا ـ وفيهم من لا يزال ـ لسان الغرب، ومظهر حضارته، وعبارة أفكاره، وسبيل وجوده في هذه الأرض.

ولقد كان نوري السعيد ـ ومن إليه ـ يصارح الناس بولائه للغرب، ويعتبر أنه بمجرد تترّسه بذلك الولاء، يؤدي رسالته في الحياة، ويحسب أن كل من يخالفه في الرأي، أو يعارضه في الاتجاه، إنما يخالفه ويعارضه، انحيازاً للشيوعية، وانتصاراً لمذهبها.

هكذا كان يحسب، ولم يخطر له قط أن يفكر يوماً من الأيام، بعواقب أعماله، ولا سبق له أن أقام وزناً إلا لما يمليه عليه الغرب من حركات واتجاهات، ولا استطاع أن يحترم حركة وطنية قامت في طول آسيا وعرضها، ودعك من افريقيا وانتفاضاتها، فهذه لم يكن يطيق لها ذكراً.

أما طريقته في الحكم، فإننا نطلع عليها في الانتخابات النيابية التي أجراها أكثر من مرة، وكان عدد المرشحين الذين يربحون بالتزكية أضعاف أضعاف الذين ينتخبهم الشعب، ثم في إسقاط الجنسية عن المواطنين، وهو السلاح الذي لم يعتمده حاكم في الدنيا بمقدار ما اعتمده نوري السعيد، ثم في زج المعارضين في السجون، وأخيراً في النفاق العميق الذي لا يبلغ الناس قرارته، كأن يحارب فرنسا من أجل الجزائر، على صعيد التصاريح، وفي حدود الداخل العراقي، ثم يقف من حملة السويس إلى جانب فرنسا في غزوها لمصر.

هذا هو نوري السعيد الذي وصفت مجلة **لايف** الأمريكية مصرعه، على أنه «استشهاد»، وكتبت صحيفة **الديلي ميل** البريطانية، تقول عن يوم ١٤ تموز/يوليو الذي أطاح فيه أحرار العراق بعهد نوري السعيد: «هذا اليوم أسود لبريطانيا».

وذلك التعاطف بين ظاهرة سياسية اسمها نوري السعيد، وصحف الغرب، يؤكد أن نوري لا يعطي صورة عن مجتمعه وأمته وحياته وبيئته، بمقدار ما هو صورة للغرب

وسياسته واتجاهاته، في علاقاته مع العرب والأقطار العربية.

وأما أخلاق الزعماء والساسة في الديار العربية، خلال هذه الفترة، فليست في تفاصيلها غير اقتداءات وسعدنات وتمثيليات، نجد نسختها الأصلية في أخلاق نوري السعيد وتصرفاته الشخصية والعامة، من تعلق بالحكم، ونشدان لمظاهر الفخفخة، واحتقار للشعب، واستثمار لأحط الغرائز البشرية في نفوس الضعاف من الناس، وتظاهر باللطف أمام السذج، وتنكر لكل ما هو فكر، وعلم، وإنسانية، وفن، وأدب، ثم هزء بالمثالية، ومقاومة للتحرر العقلي، تحت ستار واهٍ شفاف من إكبار لعبقرية الغرب وحضارته، وازدراء للشرق وتاريخه وأفكاره.

* * *

نعود الآن إلى تلك «الموالاة» للغرب، على نحو ما تمثلت في سيرة السعيد وأمثاله وأتباعه، نستقرئ أسرارها، ونبحث أعراضها، فهي جديرة بالاهتمام، حرية بأن تلقي النور على تاريخنا المعاصر، ولا سيما في الجانب السياسي منه:

أول ما يطالعنا في تلك الموالاة للغرب، من قبل الساسة والحكام والزعماء والقادة في أقطار العرب، أنها ليست خالصة لوجه الحق، ولا قائمة على أساس من اقتناع وجداني، وتفهم عميق للحضارة الغربية، وإدراك شامل لمنابعها وأصولها، فأكثر هؤلاء الموالين المستغربين ممن يجهلون الحقائق التاريخية، ولا يهتمون بالقضايا الفكرية، ولا يدركون شيئاً من تطور الفكر البشري ونشوء الحضارات، ولو كانوا على شيء من المعرفة والإدراك في هذه الأمور، لوقفوا على أقل تقدير، موقف المنصفين من فلاسفة الغرب وعلمائه وباحثيه، ولم ينجرفوا مع أضل التيارات الغربية وأشدها ظلامية وتعصباً في النظر إلى قضايا العرب، ومشاكل التاريخ العربي!

وليس هذا كل ما تنطوي عليه «موالاتهم» من سخف وحقارة نفسية، وإنما هي تلتزم جانب النفعية، بمعنى أن مناصبهم وبقاءهم فيها رهن بما يبدون من التصاق بالغرب ودفاع عن مصالحه الآنية المباشرة، ثم بما يظهرون من غلظة على الشعب وقسوة في معاملته ومقاومة لكل متحرر. وبهذا، تكون موالاتهم غير صادرة عن إيمان بشيء، بمقدار ما هي طمع بالمنفعة الشخصية، بالمنصب، بالوظيفة أول الأمر، ثم تتطور بعد الفوز وتحقق المنفعة، إلى خوف من الشعب، من الناس، من الضمير، ومن الغرب نفسه، في آخر مرحلة.

والصفة الثالثة التي تتميز بها موالاة الموالين للغرب، أنها تتحول مع الزمن إلى «مرتكز» لسلوكهم العام والخاص، وتصبح أداة يبررون بها كل ما يرتكبون من حماقات وما يستعلن في شأنهم من قباحات، وهذا يفيد أنهم يتخذون منها حصناً لاتقاء الهجمات من أي نوع، ودرعاً يتقون بواسطتها الانتقادات التي توجه إلى تصرفاتهم، بحيث ينسون معها أو يتناسون كل ما تواضع عليه مجتمعهم من شمائل نبيلة، ومزايا كريمة، وأخلاق عالية، ويوغلون بعد ذلك ما شاء لهم ضلالهم العميق، في تصور الظروف والأوضاع العامة، وتصويرها. . .

وتأتي أخيراً الصفة الرابعة لموالاة الغرب، هي أنها محض اصطناع وزلفى، فلا تمثل شيئاً من عبقرية الشعب، ولا تعبر في شيء عن أمانيه وحياته ومشاغله وهمومه واتجاهاته وتطلعاته الأساسية.

ذلك بأن حياة الشعب، أي شعب، لم تكن يوماً من الأيام، وقفاً على موالاة لأناس، ومعاداة لأناس آخرين. والذين يمثلون الشعب، إنما يمثلون رغباته وأمانيه وآماله وآلامه، ولا يمثلون منه جانباً نظرياً خالصاً مصطنعاً كالتعلق بحضارة، والانصراف عن حضارة، فالمهم في نظر الشعب هو حياته ككل بجميع ما يمثل من قيم ومعانٍ إنسانية. وهذا يردنا إلى القول، في التحليل الأخير، إن الموالين للغرب، لا يمثلون بصفتهم هذه أحداً، حتى أنفسهم التي اضطربت بين الطموح والخوف، وأقامت في وسط هاتين النقيصتين فلا تبرح مكانها بعد أبداً..

* * *

لنأخذ الآن الجانب العملي من سياسة الغرب، من تمثلات حضارته، في كيان الشعب العربي وحياته، فهذا الجانب نفسه يلقي المزيد من الضوء على حقيقة الموالين للغرب، ويوضح معنى تلك الموالاة، في جوهره:

الأكيد الذي لا يرقى إليه شك، هو أن الغرب سعى بكل ما لديه من إمكانات ووسائل، إلى نزع فلسطين من أيدي أهلها، وتسليمها بعد ذلك لليهود، وهم يصنعون بها ما يشاؤون.

وكان أن تحققت مساعي الغرب في أعقاب الحرب العالمية الأولى يوم وكلت عصبة الأمم إلى الانكليز أمر الانتداب على فلسطين، وراح الانكليز يستغلون ذلك الانتداب لما هو في مصلحة اليهود، إلى أن تمكنوا أخيراً من إرهاق الشعب العربي هناك، وتحطيم قواه، وتشريده في آخر مرحلة، وتسليم البلاد للصهاينة الذين أقاموا فيها دولة موالية للغرب وسياسته. وبهذا، تكون دولة إسرائيل، امتداداً للانتداب البريطاني في فلسطين. ومعنى ذلك أنها لا تمثل حقيقة، ولا تعبر عن أصالة، وما هي بعد كل حساب، سوى حادث سياسي أوله الغرب، وآخره الغرب. أوله بريطانيا وآخره أمريكا وبينهما تأييد فرنسا، وسائر الدول التي تخضع لهذا الثالوث الغربي.

هذا أول مظهر من مظاهر السياسة الغربية في البلاد العربية. والمظهر الثاني نجده اليوم في الجزائر، ففرنسا الملكية التي احتلت الجزائر أو بدأت في احتلالها عام ١٨٣٠، لا تختلف من وجهة النظر الشرقية في شيء عن فرنسا الجمهورية التي يذهب بها الطمع إلى اعتبار الجزائر فرنسية. أين هو التقدم الحضاري الذي حققته فرنسا الغربية حين انتقلت من النظام الملكي إلى الديمقراطية؟ وكيف لها أن تفاخر، على صعيد الدعاية، بما حققت للإنسانية من معانٍ كريمة، في الوقت الذي نجد به عهد لويس فيليب، لا يختلف أبداً في شيء، عن عهد الجنرال دي غول؟

إن مأساة الجزائر وحدها تكشف غور الهمجية في أعماق الحضارة الغربية، وتنهض

وحدها بالبرهان على أن الغرب لا يمثل في حياة العرب سوى الدور الذي يمثله أكلة لحوم البشر مع إخوانهم في أدغال المجاهل، وظلام الغابات الكثيفة النائية عن العمران والتاريخ والثقافة.

أما المظهر الثالث والأخير الذي يكمل الصورة الغربية في دنيا العرب، فهو هذه المقاومة التي لا تمل، ولا تكل، ولا تنقطع، لتوحد العرب وجمع كلمتهم، ولم شتاتهم، ففي كل يوم مؤامرة، وفي كل لحظة دسيسة، بحيث لا يهدأ الغرب طرفة عين ليلاحظ بها نفسه وأعماله، ويراجع بها وجدانه، ويتفهم على الأقل، بعض ما يجب عليه عمله في اكتساب الصداقة، لا إثارة العداوة.

ذلك ما ينم عنه مسلكه الأخير في سوريا، في مصر، في البريمي، في العراق، في عُمان، وأخيراً في عدن، ولا تذكر ما قام به في شمال أفريقيا، ففي حاضره ما يغني عن ماضيه.

إذا كانت هذه هي سياسة الغرب، فما يكون معنى موالاته؟ لقد عرف القارئ الجواب، ولا حاجة إلى تكراره.

* * *

هذه الطريقة في التفكير بين موالاة عالم، ومعاداة عالم ـ وهي خاطئة من أساسها ـ أساءت إلى الحياة العربية الحديثة، وحشتها حشواً بالعيوب الاجتماعية، والنقائص الأخلاقية.

وكان أول هذه العيوب ذلك الولع الطافر الطاغي بالحكم، والوجاهة، والزعامة، والتسلطن على الناس، وما رادف ذلك وأشبهه من حالات تتكون وتختلف وتتباين في الدرجات، ولكن أساسها يظل واحداً، هو استشراف وضع في الحياة يكون به المرء طفيلياً على جهود غيره، متمتعاً بنتائج العلم والفن والفكر على حساب الآخرين، دون أن يشارك الناس لا في الفكر ولا في العمل.

تلك هنة لا علاقة لها بالطموح، وليس لها به أدنى قرابة، وإنما هي انبثاق عن أوضاع سياسية كاذبة، تستعمل الألفاظ وتهدر المعاني كأن تتغنى مثلاً بالديمقراطية، وتنادي بالحرية، وتتبجح بالعدالة الاجتماعية وهي في قراراتها تتنكر فعلاً لجوهر الديمقراطية والحرية والعدالة.

في مثل هذه الأوضاع التي لا يكلف بها الكلام شيئاً، ويرتفع بها الفرد إلى المنصب الذي تؤمنه له موالاته أو معاداته ـ لا فرق! ـ يصبح الغرور شيئاً عادياً، منتشراً، في جميع الأوساط، وتظهر رغبة السخفاء بالحكم عنيفة قوية، تلبية لذلك الغرور الذي يسود الأفراد والأسر والفئات، وتتوارى الكفاءات الصحيحة ضناً بكرامتها أن تمس، وتأبى أن تكون على قدم المساواة مع الطفيليين والمغرورين والتافهين من كل جنس ولون.

والعيب الثاني هو سريان الروح الرومانطيقي إلى الحياة الاجتماعية، والسياسية، والثقافية.

ذلك العيب يتمثل أكثر ما يتمثل في لبنان اليوم، وإن كانت لا تخلو منه العراق، ولا الجمهورية العربية المتحدة، ولا شمال أفريقيا.

الرومانطيقية إذ تضع العاطفة فوق العقل، تُضعف في كيان صاحبها كل قدرة على التمييز، وتشل جانب التنظيم في عيشه، وتحول الناس إلى «هائمين» في أودية التحسر والتأوه والنواح، أو إلى «طائرين» في سماوات الفرح والأمل والجمال، وبهذا، ينقطعون عن الواقع، في جميع مواقفهم، وتصبح محاكماتهم للقضايا العامة مصبوغة بصبغة شخصية، يستلها كل فرد من حزبه، أو طائفته، أو إقليمه، أو من أشياء تاريخية لا أثر لها اليوم ولا قيمة.

هكذا استغرق اللبنانيون مثلاً في مدح أنفسهم، والتغني بجمالات مناخهم، و«داخوا» بما قاله لامرتين عن أرز لبنان، وما تحدث به عنهم السياح من كل قطر وبلد، وحسبوا أنه لم يبقَ من واجب للناس إلا أن يتابعوا هذا المديح، وليس عليهم إلا أن ينشروا تلك المدائح على أوسع مدى. أما تنظيم حياتهم، أما التفكير في نقدها، أما التمييز بين طريقة وطريقة في العيش، والإفادة من التجارب التي تمر بها الشعوب في شتى بلاد الله الواسعة، فهذا ما لا يخطر لهم ببال!!

والعيب الثالث في حياة العرب الراهنة، هو عدم الاعتماد على حقائق الأشياء في إصدار الأحكام على الأفراد والجماعات، وهذا أفضى إلى «النفاق» في تركيز العلاقات.

لقد سرى إلى أذهان الكثيرين من تلامذة المدرسة السياسية القديمة أن «السياسة» مكر ودهاء وتحايل ونفاق. ومذ كان الولع بالسياسة أظهر الصفات في الشرق العربي، فقد ساد النفاق عن هذا الطريق.

* * *

تلك هي مساوئ الحياة في التاريخ العربي المعاصر، ولكن الجهود الجديدة الجبارة التي تقوم بها جمهرة الشعب العربي للتخلص من هذه العيوب والقضاء على مخلفات العهود السابقة التي ران عليها الإعجاب بالغرب وحضارته، أخذت تؤتي ثمارها بشكل واضح في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية الجديدة.

ولن يمضي ـ على ما أحسب ـ زمن طويل، حتى تذوب هذه النقائص ويتحرر العرب منها.

مراحل اليقظة العربية الأخيرة(*)

عبد اللطيف شرارة

حاولت في البحث السابق[1]، أن أكشف العيوب التي تقع عليها العين في حياة العرب الراهنة، وأن أرد تلك العيوب إلى أصولها وأسبابها الحقيقية المباشرة. ولكن هذه الحياة ليست «عيوباً» كلها كما يتصور المتشائمون، ويصورها المغرضون!! وواقعها الراهن لا يعطي، في ظاهره، صورتها الكاملة، فهي كأي حياة، قابلة للتغير والتبدل مع الزمن، وفيها من الإمكانات والطاقات المادية والمعنوية ما لا نجده في حيوات كثير من الشعوب والأمم. وذلك هو بالضبط، ما تتميز به هذه الحقيقة من تاريخنا، بل هو ما يتميز به تاريخ الوطن العربي في شتى بقاعه وأقطاره، من أقدم العصور إلى يومنا هذا.

ولقد كانت غفلة العرب عميقة مدمرة، عن إمكاناتهم وطاقاتهم، منذ تدخل الأتراك في شؤونهم، وتمكنوا من التحكم في إداراتهم العامة على يد المتوكل، ذلك الخليفة الذي قاوم حرية الفكر، وقضى على سلطان العقل، وسمح بتغلغل الشعوبيين الذين لم يدركوا شيئاً من أصالة العروبة، ولا تفهموا روح الدين الإسلامي الذي اعتنقوه، وكانوا من بعد، أداة رجعية وانحطاط وتقهقر، في آسيا كلها وأفريقيا، إذ تأخر العالم بجملته، حين احتلوا هذه المنطقة الحساسة منه، عن ركب الحضارة، ووقف نموه الثقافي والاقتصادي، وتوترت العلاقات بين الشعوب والمجتمعات، واستمرت تتوتر وتضطرب، إلى أن وقعت أكبر نكسة حضارية شهدها تاريخ الإنسانية، ونعني بها الحروب الصليبية.

غفل العرب إذن طيلة امتداد الظل التركي ـ وهو الذي كان ظلاً عسكرياً خالصاً، لا يد فيه لنسمة روحية، ولا لنغمة ثقافية ـ عن حقوقهم السياسية في أول درجة، ثم عن تاريخهم وحضارتهم وإمكاناتهم، ثم عن كرامتهم، ثم أخيراً عن قيمتهم في الحياة الدولية من جميع الوجوه والجهات.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٧، العدد ٢ (شباط/فبراير ١٩٥٩)، ص ٣ ـ ٨.

(١) انظر: عبد اللطيف شرارة، «عيوب الحياة العربية الراهنة،» الآداب، السنة ٦، العدد ١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٨)، ص ١ ـ ٥. (وهو المقال المنشور ضمن هذا المجلد ص ١٩٣ ـ ١٩٩).

وكانت تلك الغفلة الطويلة، العميقة، المدمرة، الثغرة الكبرى التي نفذت منها العيوب التي فصلنا أمرها سابقاً، إلى الحياة العربية.

في هذه الأثناء، أثناء الطغيان العسكري العثماني وسبات الروح العربية، أخذت أوروبا تجيش وتتوثب وتؤاتيها الفرص للاندفاع في طرق الاكتشاف والاختراع والفتح والسيطرة. فقد أفادت من الحروب الصليبية التي خاضتها في هذه المنطقة، أكثر من فكرة، واستشرفت أكثر من أفق حضاري، وطفقت تقتدي بالعرب في نبش كنوز أثينا الفكرية ودرس حكمة فارس والهند والصين، وتقتدي بالترك في اعتماد البطش والقوة العسكرية أساساً للدول، واقتدت أخيراً بروما في عهودها الوثنية، فراحت تستقي من تراثها الواسع العريض في تجييش الجيوش وإخضاع الشعوب وتأسيس الامبراطوريات.

وكان من الطبيعي أن يتشوف الاوروبيون إلى احتلال هذه المنطقة التي أطلقوا عليها اسم «الشرق الأدنى» تأميناً لمواصلاتهم، وإشباعاً لرغباتهم في الفتح والسيطرة والاستثمار، فنشأت عن ذلك «المسألة الشرقية» التي تفيض التواريخ في ذكرها، وتسرد ما نجم عنها من معارك وأحداث وأفكار.

وكان أكبر ما نجم عن المسألة الشرقية من اتجاهات سياسية اختلاف القوميات الاوروبية فيما بينها، وتنازعها على استعمار الشرق الأدنى، فكان الانكليز والفرنسيون يمانعون روسيا القيصرية في النفاذ إلى البحر المتوسط، ويقفون مع تركيا ضد الحركات التحررية أو الانفصالية التي كانت تظهر هنا وهناك في بعض الأقطار العربية. وعلى هذا النحو من سياسة التوازن بين الدول الاستعمارية في أوروبا، استطاعت السلطنة العثمانية أن تحتفظ بوجودها وإن كان مريضاً.

وعندما وقعت الحرب الأولى انحازت تركيا إلى ألمانيا ضد الروس والفرنسيين والانكليز، فأطبقت عليها الدول الاوروبية، واختل التوازن الدولي الذي كان قائماً من قَبل ولكن هذه المرة على حسابها.

وحسب العرب، خلال تلك الحرب، أن الدول الغربية صادقة فيما تدعي من عمل على نشر الديمقراطية، وفية لتعهداتها، مؤمنة بحق الشعوب في تقرير مصيرها، وجاءت بنود وودرو ويلسون الامريكي تؤيد هذا الحسبان، وتدعمه بالبرهان القاطع، حتى إذا ألقت الحرب أوزارها، وانتهت بانتصار الغرب وخذلان تركيا وألمانيا، انكشفت المخبآت، وفشت أوروبا أسرارها فإذا فيها معاهدة سايكس - بيكو، ووعد بلفور! وكانت الصدمة من العنف والقسوة بمنزلة استيقظ معها العرب على واقعهم الأليم، وتفتحت عيونهم وعقولهم على أوروبا التي كانوا يجدون فيها رمز المدنية، وزهرة الحضارة الإنسانية، وارتفعت الأصوات مدوية تجأر بالاحتجاج والشكوى والغضب الذي لا يُحد ولا يعد. وسمع الناس آنذاك الأمير شكيب أرسلان ينشد:

ليس في الغرب بنو آدم بل فيه ذئاب!

كما سمعوا الشاعر القروي ينادي:

ما في أوروبة مخلص لبلادكم ... الكل أعداء الشآم فكنسوا

تلك هي اليقظة العربية الأولى.

* * *

أفاقت البلاد العربية، في أعقاب الحرب الأولى، على نفاق الأوروبيين وغدرهم، فوعد بلفور يشير إلى انحلال أساسي في الخلق الأوروبي، وإذا أنت استعدت بذاكرتك الظروف التي أحاطت به لحظة إعطائه، والملابسات التي رافقته من تحالف مع العرب، إلى تصريحات مدوية في شأن حرية الأمم والشعوب، إلى استنفار لجميع القوى الخيّرة في العالم للقضاء على قوات البغي والعدوان، أدركت غور اللعبة الشائنة التي ذهبت فلسطين ضحيتها، وبالتالي آمال الأقطار العربية كلها في التحرر والتوحد.

أما معاهدة سايكس ـ بيكو فلم يكن المراد منها سوى تراضي الدول الغربية فيما بينها، وتجزئة القوى العربية بحيث لا تقوى يوماً ما على مقاومة النفوذ الأوروبي في أرضها. ولذلك يصح اعتبارها كاشفة ما أمامها، موضحة للنيات التي انطوى عليها الأوروبيون تجاه مستقبل العرب.

وعد بلفور ألقى النور على أخلاق الغرب، ومعاهدة سايكس ـ بيكو كشفت سياسة الغرب في هذه المنطقة، ولم يبقَ من سبيل إلى إخفاء هذه السياسة ولا من وسيلة إلى تمويه تلك الأخلاق.

بيد أن اتضاح ما يخفى من سياسة وخلق لا يرفع درجة الوعي لدى الجماهير، ولا يجعلها في سعة من حياتها المضطربة، المعذبة، المرهقة، ولا يضع في يدها من الإمكانات ما يتيح لها أن تتقي أضرار تلك السياسة التي رأتها بعد فوات الأوان، ولا ما تدفع به مساوئ تلك الأخلاق التي عرفتها ولات حين معرفة!

لذلك ظلت اليقظة العربية الأولى مشوبة بكثير من الكسل الروحي، والنعاس الاجتماعي، والبلبلة الفكرية، فكانت معزوفة الناس في فترة ما بين الحربين لدى الشعوب التي غلبتها أوروبا على أمرها، القول الشائع: «العين بصيرة، واليد قصيرة»، والمثل الآخر «العين لا تقاوم مخرزاً».

ومرد ذلك الكسل الروحي إلى توزع النفوس بين الترقب والتشاؤم، وانتقال المجتمعات العربية من التفكير الديني الصرف إلى التحسس بالوطنية والقومية، ثم إلى جهل السواد الأعظم بالتاريخ الحديث، وضآلة موارده الاقتصادية والثقافية، فلم يكن ينشط لمراس الحياة السياسية غير فئة من الإقطاعيين والوجهاء وذوي الثراء، وهم طبقة «الافندية» الذين ورثوا هذا اللقب وما فوقه من ألقاب عند تركيا العثمانية.

أما النعاس الاجتماعي فقد نشأ عن احتجاز المرأة في منزلها، والحيلولة دون تقدمها، وأخذها عنوة واقتساراً بالحشمة المصطنعة، فلم يكن للأندية الأدبية أن تزدهر،

ولا للحفلات الشعبية أن تتنور، ولا لمرابع الأنس أن تثمر وتتنوع، ولا للصحف أن تزداد وتنتشر، فظلت المجتمعات العربية إلا أقلها، غافلة عن الحياة وما يصطخب فيها، وعن الفن والأدب والعلم.

وأما البلبلة الفكرية فهذه قصد إليها الغربيون، وجهدوا كثيراً في بثها، وعمدوا في مصر والعراق وليبيا والسودان، إلى إنشاء الأحزاب والإيقاع فيما بينها، وراحوا يبثون من الأفكار والنظريات ما يوهن العزائم، ويشق المواطنين، ويجعل البلاد كلها فريسة التطاحن الحزبي، والتضارب العقائدي، فخلقوا الفرعونية في مصر، والفينيقية في لبنان، والعنصرية في العراق، ولم يتركوا وسيلة من وسائل التفرقة في لبنان وسوريا إلا تذرعوا بها وجربوها، حتى تحولت البلاد العربية إلى ميدان عراك تقتتل فيه النزعات المتباينة، والمذاهب المتغايرة.

هذه الشوائب التي رافقت يقظة العرب الأولى، كانت تتلاشى تدريجياً، لما تحلت به اليقظة من زخم سياسي هائل تمثَّل في انتفاضات الشعب الفلسطيني المتكررة وثورات سوريا على الانتداب الفرنسي، وتمردات العراق الجائحة، وأخيراً في نهضة مصر الاجتماعية والوطنية، عهد سعد زغلول.

كانت مصر قد حققت ضرباً من التقدم الثقافي والاجتماعي سبقت به سائر الأقطار العربية، إذ لم تكن حديثة العهد بأوروبا وألاعيبها السياسية ونشاطها المدني، كما كان شأن أخواتها العربيات، ولذا استطاعت ـ وهي التي مرت بالتجربة ـ أن تفهم الغرب قبل غيرها، وأن تعي اتجاهاته وآراءه وعياً كيانياً. فكان أن تخلصت إلى حد غير بعيد من الكسل الروحي، والنعاس الاجتماعي، بيد أن البلبلة الفكرية ظلت تظهر عليها بأعراض واضحة إلى أن قضت على النظام الملكي في ثورتها الأخيرة.

وسرى الوعي في النواحي الاجتماعية والثقافية والوطنية من مصر إلى غيرها من بلاد العرب، وبدأت التيارات الفكرية العالمية تهب على الدنيا العربية من الجهات الأربع، وأخذت أوروبا تضطرب في داخلها، وتشعر بالأرض تميد تحت أقدامها بعد استيلاء هتلر على السلطة في ألمانيا، وزحف موسوليني إلى الحبشة يعيد فيها سيرة روما في قرطاجة، ودخول إسبانيا عهداً جديداً يناقض الديمقراطية ويهزأ بأتباعها. في تلك الفترة كانت سوريا كالعراق تغتلي بثورة لا هوادة فيها، على الانتداب والسلطة المنتدبة، وكانت مصر ترقب رد الفعل لدى بريطانيا وفرنسا على غزوة إيطاليا للحبشة وقد وجدت فيه منفذاً إلى التخلص من الاحتلال، وكانت فلسطين قد حملت السلاح ضد الانكليز والصهاينة معاً.

وما أوشكت سوريا أن تستقل، وتظفر بحقها في الحرية حتى وقفت تركيا حاملة صنارتها متأهبة للصيد في الماء الدولي العكر، وراحت تطالب بلواء إسكندرونة، مهددة فرنسا بالانضمام إلى محور روما ـ برلين، متواطئة مع بريطانيا على مساندتها في خططها بفلسطين، وحينذاك وضعت القضية في يد عصبة الأمم، وهذه سلمت اللواء لقمة سائغة للأتراك، رغماً عن تقرير اللجنة الدولية، ورغماً عن الاستفتاء الذي نال فيه العرب

الأكثرية الساحقة، ورغماً عن القانون الدولي. وكان ذلك إخفاقاً ذريعاً، استيقظ به العرب ثانية على ضعف المنظمات الدولية، وعجزها عن إحقاق حق وإزهاق باطل.

كانت هذه اليقظة حافز العرب إلى السعي وراء القوة العسكرية.

تلك فترة من حياة العالم (١٩٣٠ ـ ١٩٣٩) سادها تفكير نيتشه، ولكن على تباين في الدرجات، وتفاوت في الأهداف والاتجاهات، وأصبحت القوة هي المثل الأعلى الأوحد للأفراد والجماعات، لدى جميع الشعوب المتأثرة بالمدنية الأوروبية، والخاضعة لنفوذها، وتحول حب القوة إلى عبادة، وانصرف الناس عن كل ما هو خير وشريف ونبيل وإنساني، باعتبار هذه المعاني آثار ضعف في الطبيعة البشرية، ودلالات مسكنة عميقة تتلبس بالأوهام، وتحتجب خلف زخارف المثالية، فهوى الحس الديمقراطي على أريكته، وأصبحت الصرامة، ومضاء العزيمة، والخشونة والتعالي، وما إلى ذلك من خصال وشمائل، هي التي تستهوي الجماهير وتثير الإعجاب.

ولكن القوة، على هذه الأشكال الجافة الصارمة، لم تكن متيسرة إلا لفئة قليلة من الشعوب والأفراد، مما خلق شعوراً بالنقص لدى أبناء الأقطار الخاضعة للسيطرة الأوروبية، وغض من قيمتها حتى في نظرها إلى نفسها. ولا غرابة في أن يهيمن على العالم ذلك الجو، في تلك الفترة، ما دام نيتشه هو الفيلسوف، وهتلر هو الحاكم الذي يطبق آراءه، وما دام الناس من الجهل بمنزلة يصدقون معها حكاية انقسام البشر إلى ساميين، وآريين، وحاميين!!

غير أن العرب ـ والعراق خاصة ـ كانوا هم الشعب الوحيد الذي لم يشعر بعقدة نقص تجاه أوروبا وحضارتها. وكل ما سرهم في مسلك ألمانيا الهتلرية أنها تعادي الانكليز والفرنسيين الذين خدعوا العرب في الحرب الأولى، وتقاوم اليهود الذين طمعوا بفلسطين، وساعدهم الانكليز على اغتصابها. بيد أن ذلك السرور لم يتجاوز حده إلى التعاطف والتحالف، كما أذاع اليهود في طول العالم الغربي وعرضه، ولا جعل من العرب فئة نازية تأخذ ما يقوله هتلر أخذ المسلمات.

وقد أوضحت الآنسة فريا ستارك الكاتبة الانكليزية، هذا المعنى بكثير من الإنصاف والدقة إذ كتبت في كتابها **الجزيرة العربية** تقول:

«قليلاً ما يعرف الناس أن العراق رفض، منذ البدء، أن يوافق على وضع انتدابي، باعتبار هذا الوضع مخالفاً لمطالبه في الحرية. والواقع الصريح أن العراق يقوم بعيداً عن اوروبا، ولذا كان أقل تأثراً من غيره، بالحضارة الأوروبية، وهذا هو الذي صانه إلى حد بعيد، من الشعور بالنقص، وهو الشعور الذي يفسد بقية الأمم المشوبة إفساداً محزناً»(٢).

---

(٢) Freya Stark, *The Arab Island: The Middle East, 1939-1943* (New York: Knopf, 1945), p. 226.

لم تكن يقظة العرب على الجانب العسكري، من بنائهم القومي إذن، اقتداء بالنازية، ولا تمثلاً بالفاشستية، وإنما هي حركة أخذت جذورها من الصدمة التي تلقاها العرب في خسارة لواء الاسكندرون.

وعندما اندلعت نيران الحرب الثانية، وراحت تلتهم أقطار أوروبا الوسطى والغربية واحداً تلو الآخر، أصرت انكلترا حامية اليهود، ومقسمة البلاد العربية، والمستبدة بمصر والمحميات، أصرت على استخدام الأراضي العراقية ومرافقها كافة لتنقلات جيوشها مما يتنافى مع المعاهدة العراقية ـ البريطانية نصاً وروحاً، فلم يكن أمام سلطات بغداد في ذلك الزمن سوى الاحتكام إلى السلاح، ونشبت الثورة التي قادها رشيد عالي الكيلاني يومذاك ضد التعسف البريطاني، وسماها ونستون تشرشل «فتنة». والحقيقة أن اعتبار المعاهدات قصاصات ورق، من قبل انكلترا التي كانت تحارب ألمانيا من أجل هذا الاعتبار نفسه، هو الذي دفع بالعراق إلى الثورة مباشرة، عدا عن السوابق الانكليزية المعروفة في كل بلد عربي، بل في كل بلد شرقي.

أخفقت ثورة ١٩٤١، وهي التي لقيت تأييداً عارماً من العرب أجمع، لأن عملاء بريطانيا أرادوا لها أن تخفق، ثم لأن القوة العسكرية العراقية لم تستطع أن تجابه القوات البريطانية ومواردها بالسلاح والذخيرة إلى النهاية.

وكان بعد ذلك أن وقعت المفاجأة الكبرى في مجرى الحرب الثانية، وهي انقضاض النازيين على روسيا السوفياتية.

هذا التحول في مجرى الحرب أنعش آمال الدول الغربية الاستعمارية، وتركها تتنفس بشيء من الراحة، وسط دوي القنابل، وهدير الطائرات، وزمجرة الدبابات، وأخذت الحوادث تمد وتجزر، إلى أن انجلت آخر الأمر، عن ظهور دولتين كبيرتين هما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وانكساف كلي لألمانيا وإيطاليا، وانكساف جزئي لبريطانيا وفرنسا.

* * *

عندما نزلت كل من بريطانيا وفرنسا إلى الدرجة الثانية أو الثالثة في سلم الحياة الدولية، عمدتا إلى انتهاج الخطة التي سلكتها كل من هولندا وبلجيكا والبرتغال للإبقاء على المستعمرات، والاحتفاظ بالمصالح الاقتصادية التي حصلت عليها يوم كانتا تحتلان المنزلة الأولى في شؤون العالم وسياسته. وخطة تلك الدول الصغرى الاستعمارية كانت أن تؤمن للدول الكبرى مصالحها وطرق مواصلاتها وأن تتحالف معها ضد كل حركة تحررية في آسيا وأفريقيا شرط أن تظل هي صاحبة السيطرة والسلطان في البقاع التي تحتلها.

هكذا، وبهذه الطريقة شرعت هولندا تحكم إندونيسيا، والبرتغال تحكم أضعاف سكانها في الهند (غوا) وغير الهند، وبلجيكا تحكم أجزاء من أفريقيا.

رأت بريطانيا أن تقف من الولايات المتحدة، بعد نزولها إلى المرتبة الثانية، ذلك الموقف الذي اتخذته منها هولندا، شرط أن تقدم لها أمريكا العون والمساعدة ضد الشعوب التي تجاهد للتخلص من نيرها.

وحملت فرنسا على اتخاذ موقف بلجيكا أو البرتغال على أن تتفاهما، ومن يلوذ بهما من الدول، مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي.

كانت هذه العروض والمساومات على جانب كبير من الإغراء لدولة قضت عمرها في عزلة عن الدنيا ومشاكلها الاستعمارية، مثل الولايات المتحدة، فلم تستطع أن تقاوم، إذ ألقى اليهود بثقلهم كله أيضاً لإخراج تلك الدولة عن عزلتها وجذبها إلى جانبهم فيما يرسمون ويخططون، وترامت إليها أيضاً وأيضاً نداءات الرجعيين والخائفين على عروشهم، والضالعين مع الأجانب ضد أوطانهم، من كل فج وواد، تهيب بها إلى احتلال المكانة التي فقدتها بريطانيا، وحماية المبادئ والأفكار القديمة التي تعارض التطور، وتقاوم التحرر.

واستجابت أمريكا، بشيء من التردد أول الأمر، لتلك الإغراءات والنداءات والطلاوات، ثم انساحت معها انسياحاً تاماً، فتابعت أعمال الانكليز في فلسطين، وزادت عليها بما يسرت لليهود من وسائل العدوان، وأعانتهم على الاستمرار في الاغتصاب، إلى أن مكنتهم من البقاء بعد أن حولت وجودهم في تلك الأرض إلى «دولة» وإن كانت غير واضحة الحدود، غير ثابتة الأساس!

وكانت نكبة فلسطين قد أعدت بمهارة اكتسبها الغربيون من تجربتهم الأولى في لواء إسكندرونة، فقد أنهت إليهم تلك التجربة معلومات وملاحظات استثمروها على أوسع مدى، وأفادوا من معطياتها الشيء الكثير. وأهم معطيات تلك التجربة أن العرب ضعفاء على الصعيد الدولي، وأنهم يصخبون ويتظاهرون ويرسلون برقيات الاحتجاج إلى الهيئات الدولية، ويعتمدون على القانون والأخلاق، ثم لا يحركون لدى الأمر الواقع حين يجبههم، ساكناً. ثم لا يلبثون أن يهدأوا، ويخضعوا عندما تنقطع بهم الحيلة، ويخيب الفأل!

تلك هي العقلية التي كانت تسود العالم الغربي في نظرته إلى العرب حين أقدم على أبشع ما عرف التاريخ من جرائم وشرد عرب فلسطين، وسلم زمامها للصهيونية، دون أن يوخزه ضميره، أو يلتفت إلى أمامه.

ولكن نكبة فلسطين كانت سبباً في زلزال فكري، بعيد الغور، اهتزت معه جميع الأسس القديمة التي كانت تقوم عليها المجتمعات العربية منذ قرون وقرون، ومادت به العروش، واضطربت النفوس، وهلعت القلوب في أرجاء الدنيا العربية جمعاء. وجاءت في أعقابها اليقظة العربية الكبرى والأخيرة.

* * *

وأطل الصباح على الغرب في هذه الديار، وفجر اليقظة يوجه أنواره في كل زاوية، وإذا به «سجين» ماضيه، رهين أعماله، وتبين للعرب أنه سجين عدائه لروسيا السوفياتية، وللصين الشعبية، ولكل أمة تريد أن تتحرر، فلا يملك بعد اليوم أن يتابع ما بدأ به، لا في فلسطين، ولا في غير فلسطين. والتتمة المنطقية لتلك البدايات أن يظل فاروق أو شبه فاروق سيد مصر، وأن تظل سوريا مكبلة بقيود الانتداب، وأن يظل العراق نهباً للعملاء، وأن يفرض الصلح على العرب فرضاً مع إسرائيل، وما أشبه..

في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ هذا الشرق انطلق جندي من جنود مصر، شهد بأم عينه ما جرى في واقعة فلسطين الأخيرة، من حيل وخدع وأكاذيب وأباطيل، وقضى أول ما قضى على فاروق وعهده، ثم لم يكد يستقر، حتى يمم وجهه شطر الشرق، نحو باندونغ، ومنها عاد إلى عرينه، فكان أول ما سعى إليه أن يضع السلاح في أيدي الجنود، وحين أعياه نيله من الغرب كسر الطوق، واشتراه من الشرق.

وكانت هذه الصفقة فاتحة سلسلة من الأعمال، لا الأقوال، أظهرت للغرب أنه مخطئ في نظرته السابقة للعرب.

هنا، وجد الغربيون أنفسهم في مأزق حرج، وشاهدوا من تأييد الجماهير العربية لسياسة الثورة المصرية، ما قض مضجعهم، فقد انبعث المغرب العربي في شمال أفريقيا، ومشى يحج إلى استقلاله جنباً إلى جنب مع المشرق، غربي آسيا. وكانت خيبة أوروبا الغربية أقسى وأمرّ ما شهدت في تاريخ علاقاتها ببلدان الشرق الأوسط عامة، وأقطار العرب خاصة. فما العمل؟

ـ جواب الإنسان عن الحوادث المؤلمة، حين يتحداه القدر، ينبع دائماً من ذكريات انتصاراته الماضية. ولذا، كان جواب الغربيين عن يقظة العرب الأخيرة، في التفريق بين مصر والبلدان العربية الأخرى، ثم في التفريق بين الشعب المصري والرئيس جمال عبد الناصر. وهذا ما فعلوه في صراعهم مع النازية، إذ كانوا يضعون خطاً فاصلاً بين هتلر كشخص، أو شخصيته والشعب الألماني!

إلا أن هذا الجواب خاطئ من أساسه، خارج عن الموضوع في تكوينه واتجاهه، وكانت الحوادث تترى ولا تزال، تقدم البرهان تلو البرهان على سقم الفهم الغربي، وضلاله عن الصواب، إذ بنى سياسته على «تشبيه» تنقصه وجوه الشبه. وراح العرب في شتى ديارهم وأصقاعهم يزدادون ائتلافاً مع مصر كلما زادت تحرراً، ويتعلقون بالرئيس عبد الناصر كلما أمعن الغربيون في النقمة عليه وتوجيه دعاياتهم ضده، وحبك المؤامرات على حكمه، إلى أن كان تأميم القناة رداً من الرئيس العربي على سحب العروض بتمويل السد العالي.

هنا، انفجرت أوروبا بحركة عصبية رعناء، واستخدمت «الدولة» التي أنشأتها في فلسطين أداة لتفجير غضبها. وكانت واقعة السويس التي وقفت بها أمريكا موقف

«المترقب»: تستغلها إذا نجح الانكليز والفرنسيون والاسرائيليون لحسابها الخاص، وتضمد الجراح وتتلافى الأخطار وتهدئ الخواطر إذا أخفقوا، كي تستغل من بعد، ثمار التهدئة وحصاد التضميد.

وكان أن قاوم العرب، وظاهرهم الاتحاد السوفياتي في صد العدوان، ووقفت الأمم، في معظمها بجانبهم، واضطرت بريطانيا إلى التراجع هي وفرنسا، وأخيراً إسرائيل التي أظهرت للدنيا أنها ليست سوى أداة، لغاية غير شريفة.

وأفاق العرب هذه المرة من جهادهم على انتصار بعد أن كانوا يستفيقون من قبل على هزائم، وخسائر في الميدانين: الدولي والداخلي.

* * *

لم تكد العاصفة تهدأ، حتى عاد الغرب إلى معزوفاته القديمة، وأوغل في تفكيره التشبيهي يتحدث عن ناصر والناصرية كما كان يتحدث من قبل عن هتلر والهتلرية، ويبذل أقصى طاقته في تفريق العرب وضرب بعضهم ببعض واجتذاب طرف منهم ليدفع به الطرف الآخر.

ولكن عبد الناصر يحتل، في الحقيقة، نقطة المركز من دائرة الكرامة العربية، هذه الكرامة التي عسر أمر فهمها على الأوروبيين والأمريكيين، فهؤلاء لشدة اشتغالهم بعظمتهم، بعداواتهم، بمصالحهم، بأمجادهم السابقة والحاضرة، بالأخطار التي تهدد سيطرتهم، والتي أشار إليها أزفلد شبنغلر وأرنولد توينبي، أصبحوا لا يتصلون بحقائق الأوضاع في العالم إلا من زاوية اضطرابهم وقلقهم، فانقطعوا بذلك عما عداهم من الناس، انقطاعاً روحياً، أفسد عليهم كل نظرة، وشوه في ذهنهم كل فكرة، وعطل من قلوبهم كل تعاطف وانبساط.

والكرامة العربية التي يمثلها الرئيس عبد الناصر لها منطقها الرياضي الدقيق، كما أن لها جذورها العميقة في اليقظات التي أوجزنا حديثها في هذا البحث، فهي التي أملت عليه، ولا تزال تملي له، أكثر خططه السياسية، ومناهجه الإصلاحية، واتجاهاته الفكرية والاجتماعية.

لهذا لم يتخذ عبد الناصر في مسالكه وأساليبه السياسية موقف الحاكم، على ما يفهم الأتراك من الحاكم، ولا موقف الزعيم على ما يفهم الغربيون من الزعيم، ولا موقف المصلح على ما يفهم العرب والهنود من الأفغاني مثلاً أو غاندي. فجميع هذه المفاهيم لا تنطبق على الرئيس عبد الناصر.

إنما الذي يصح في شأنه أنه مربٍّ للشعب، وهو يملك مواهب المربي الشعبي، على أبلغ ما يملكها إنسان في عصر معين، لدى شعب معين. والأساس الذي يصدر عنه، في أكثر ما يقول ويعمل، هو حسه المرهف العظيم بكرامة أمته، ورفعة شعبه،

وصفاء ذهنه في تحقيق الأفكار التي ينهيها إليه حسه.

ذلك هو عبد الناصر، في الموقف التاريخي الراهن من حياة الأمة العربية وحياة العالم.

ولا أدل على صحة ما نقرر، من الذين يقاومون عبد الناصر في داخل الأقطار العربية، ثم من الحكايات والأشياء التي يتذرع بها الأجانب الذين يقاومون عبد الناصر.

الذين يقاومونه في الداخل، داخل الأقطار العربية، أضعف الناس حساً بالكرامة على وجه عام، وبالكرامة العربية على وجه خاص. ويستطيع القارئ أن يتأكد بنفسه من صواب هذا الأمر حين يتصل بأشخاص يعرف أنهم ممن «يزعجهم» عبد الناصر بما حقق وأبدع.

وأما الأجانب فأكثرهم مضلل، يقاومون عبد الناصر لأنه يريد إنشاء امبراطورية على طريقة الإسكندر أو نابليون، أو لأنه يكره اليهود ويعمل بوحي اللاسامية، أو لأنه شيوعي يناصر روسيا السوفياتية ويكفر بعظمة الغرب، أو... إلى ما أشبه من أساطير وخرافات وحكايات تافهة تشير إلى قصور عقلي، وجهل مطبق، وانسياق جامح مع الأغراض الشخصية!

* * *

... وكان من نتائج استيقاظ الكرامة العربية، على يد الرئيس عبد الناصر، أن دبت الحماسة في النفوس، ورجع إليها الأمل بالتحرر، ثم بالوحدة أو التضامن، فامتزج القطران: المصري والسوري في جمهورية واحدة.

وما هي إلا أشهر معدودة، حتى ثار العراق معقل الكرامة العربية على الأذلاء الحاكمين من أبنائه. وتبعه السودان بعد ذلك بقليل.

وليس لهذه الأحداث الأخيرة من تفسير، سوى يقظة الكرامة الصحيحة، البناءة، الناشطة، في نفوس العرب.

في قضايانا القومية(*)

سهيل ادريس

عبر الرئيس جمال عبد الناصر، في الخطب التي ألقاها في الشهر الماضي بمناسبة أعياد الثورة، عن أصدق أماني الشعب العربي، حين أنذر اسرائيل بالزوال. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها الشعب العربي بأن الكلمة تحمل كل تجسيدها من الفعل، وأن اسرائيل دولة زائلة، مهما امتد بها الأجل، لأنها قامت على الظلم والاضطهاد اللذين يجند العرب اليوم كل طاقاتهم لرفعهما عن كاهله في مختلف أجزاء الوطن العربي.

لقد شك الشعب العربي بقوة جيوشه السبعة حين دخلت فلسطين لطرد اليهود، لأنهم كانوا يشكون بإخلاص القيادات التي كانت توجه هذه الجيوش. ولكنهم لا يشكون اليوم بكلمة الرئيس عبد الناصر الذي قامت ثورته في الأساس كرجع لتلك الخيانة في القيادة. وكان الهدف البعيد الذي يكمن وراء كل تعزيز للجمهورية المصرية أولاً، وللجمهورية العربية المتحدة الآن، حشد القوى المختلفة للارتفاع إلى مستوى معركة الحياة والموت مع الدولة الغاصبة التي يؤيدها الاستعمار أعظم تأييد من أجل القضاء على القومية العربية. ولم يكن الاعتداء الثلاثي على قناة السويس إلا حلقة من حلقات الارهاب الذي يمارسه الاستعمار من أجل تحقيق غايته تلك.

على أن ذلك كله لم يزد الشعب العربي وقائده المخلص إلا إيماناً بحقه في استعادة الأرض السليب وإزالة الظلم الذي فرض على العرب. ويوم نهض قائد الحرب الاسرائيلي يتبجح ويهدد، حمّل الرئيس عبد الناصر رده عليه كل ما يكمن في صدور الملايين السبعين من تحفز وثورة واستعداد للتضحية والفداء من أجل إزالة هذه اللطخة التي تلوث الأرض العربية وتمكن الاستعمار من تمزيق العرب وتفريقهم.

وصدور تصريحات رئيس الجمهورية العربية المتحدة مع نشر مشروع همرشولد للإسكان ذو مغزى خاص: فإننا لا نطالب بعودة العرب إلى فلسطين فحسب، بل بعودة فلسطين إلى العرب أيضاً. إن ذلك المشروع يحسب أن حل القضية يمكن أن يتم عن

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٧، العدد ٩ (أيلول/سبتمبر ١٩٥٩)، ص ١ ـ ٢.

طريق المادة، بينما القضية في نظر العرب عامة، وعرب فلسطين خاصة، هي قضية روح وكرامة. وحس الكرامة هذا هو الذي ما فتئ يقي الأمة العربية غوائل الزمن ويحفظ عليها حياتها عبر القرون، ويقاوم كل الأخطار التي تتعرض لها، فتنتصر عليها في آخر المطاف، مهما تألبت عليها المصائب.

أولاً: جزائرنا المناضلة

لم يعرف تاريخ الاستعمار وجهاً أبشع من الوجه الذي يتلبسه الاستعمار الفرنسي في الجزائر اليوم. فإن المستعمرين يفيدون على العموم من أخطائهم وينتهزون الفرص المناسبة لتعديل خططهم أو التراجع عنها كلياً، أما الاستعمار الفرنسي فما انفك يراكم الأخطاء فوق بعضها ويمعن في الضلال، حتى جعل من فرنسا دولة من دول الصف الثالث أو الرابع؛ وقادها إلى أزمات يأخذ بعضها برقاب بعض، ويغرقها في دوامة ستؤدي إلى هلاكها بلا ريب. وعنجهية الاستعمار الفرنسي أصبحت اليوم أضحوكة في العالم كله، كما أضحى ديغول نفسه سخرية الناس والفرنسيين بالذات، إذ أثبت منذ توليه الحكم حتى الآن أنه أعجز من أن ينقذ فرنسا من الهاوية التي تترصدها، بل هو يدفعها إلى التردي سريعاً في هذه الهاوية.

وإذا حاول أحدنا أن يجد تعليلاً لهذا الإمعان في الضلال، فلن يعجزه ذلك: إن فرنسا تعتمد على قنبلتها الذرية من جهة، وعلى بترول الصحراء الجزائرية من جهة أخرى. فهي تعتقد أنها ستعود إلى الصف الأول من الدول الكبرى يوم تنتج قنبلتها الذرية، وتتناسى أن ما بلغته الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد تجاوز في تجاربهما النووية مرحلة القنبلة الذرية بمسافات شاسعة، كما تتجاهل أن احتيازها للقنبلة الذرية لن يضع حداً للثورة الجزائرية، ولن يزيد في إرهاب الشعب العربي في الجزائر.

وأما بترول الصحراء الجزائرية، فلن يكون ملكاً لها، إلا يوم تصبح الجزائر جزءاً من فرنسا!

ولعل الحملة الفرنسية الجديدة في جبال القبائل ترمز خير رمز إلى حماقة الاستعمار الفرنسي الذي يرمي، على حد زعمه، إلى تحقيق انتصار عسكري حاسم يمكّنه من فرض سيطرته على الجزائر، ومن ثم ضمها إلى «المتروبول». وتشير كل الدلائل إلى فشل هذا الهجوم وإخفاق هدف القيادة الفرنسية. وإننا لنتساءل: حتى ولو نجح هذا الهجوم، فهل هو كاف لخنق روح النضال والكفاح والمقاومة في صدور الجزائريين؟ إن البطولة التي تتكشف عنها أرواح الجزائريين تنم عن استعداد بشري نادر لمقاومة طويلة الأمد، ولثبات يكاد التاريخ لا يعرف له مثيلاً. وإن أولئك الأبطال الشهداء الذين يتساقطون بالعشرات، ليدركون وهم يرون دماءهم تنزف، أنها ستروي أرضاً تتعطش للبطولات الجديدة التي ستخلق الجزائر دولة عربية فتية، تنضم إلى سائر الدول العربية المتحررة التي تسعى لإنشاء حضارة عربية جديدة يكون فيها إنقاذ للبشرية جديد.

ثانياً: نحن والشيوعية

لم يبق ثمة شك في أن الشيوعية قد باءت في الوطن العربي كله بالاخفاق والخسران. وأنصع دليل على ذلك انقلاب عدد كبير من القادة الشيوعيين على الحزب ومبادئه واتهامهم إياه بالخيانة للقضية الوطنية والسير في خط الاستعمار.

وليس من همنا هنا أن نعلل أسباب ذلك الاخفاق، ولكننا نسجل أن إحساس العربي بقداسة قضية القومية يبلغ الآن ذروته، وأنه يرفض كل الرفض أن يتبنى شعارات لا تنبع من صميم ذاته، وإنما تنتصب نفسها لخدمة دولة أجنبية قد تتعارض مصالحها مع المصلحة الوطنية. والبيانات التي أصدرها عدد من الشيوعيين تدين الحزب بالتضليل وتزييف الشعارات وتشويه الحقائق ومحاربة فكرة الوحدة العربية التي زعم الشيوعيون في البدء أنهم يؤيدونها، ثم ظهر أن تأييدهم ليس إلا تكتيكاً موقتاً ما لبثوا أن تخلوا عنه عندما سنحت لهم الفرصة. والحق أن العربي هو بطبعه شديد الحساسية تجاه هذه الأساليب الملتوية، وسرعان ما يفقد ثقته حين يداخله الشك في موقف من المواقف. وقد كان هذا شأن الجماهير العربية بالاجمال تجاه الشيوعية. وها هم بعض قادة الحزب وأعضائه البارزين يتثبتون من هذه الحقيقة، فيؤثرون الاعتراف بأنهم كانوا مضللين، ويعودون عن غيهم محاولين أن يخدموا القضية العربية مع المخلصين من أبنائها.

ثالثاً: محكمة المهداوي

أجمعت الأوساط القضائية والحقوقية على أن محكمة المهداوي هي أعجب محكمة في التاريخ، وأن الأساليب التي تلجأ إليها في المحاكمات، فيما يخص المتهمين والشهود، تتناقض مع كل عرف في المحاكم المحترمة، حتى ان الذين وصفوا هذه المحكمة بأنها «سيرك» لم يجانبوا الخطأ ولم يتعدوا الصواب.

وقد صرحت لنا صحفية عراقية زارت لبنان أخيراً بأن الشعب العراقي إنما يصغي إلى محاكمات المهداوي على سبيل التسلية وازجاء الفراغ، من غير أن يكنّ لها أي احترام... والجدير بالذكر أن هذه الصحفية تؤيد قاسم كل تأييد، بل هي قد أُوفدت إلى لبنان لتبث الدعاية لرئيس الوزارة العراقية!

ولعل المهداوي نفسه ومن وراءه قد فطنوا إلى صفة التسلية هذه التي تقترن بالمحكمة التي دعت نفسها محكمة الشعب، فرأوا من الخير المضي في هذا السبيل، لإلهاء الشعب العراقي عن قضاياه الأساسية وصرفه عن العمل لصالح القضية العربية.

على أن ما يؤذي في هذه «التسلية» ذلك التبجح المغرور الذي ينفضه المهداوي كل ساعة على المستمعين. فنحن حين نستمع إليه يردد في غير ملل قوله «إننا مثقفون» ويحاول أن يعرض ألوان ثقافته بمناسبة وغير مناسبة، حين نستمع إليه يفعل ذلك نشعر ـ كما لم نشعر من قبل قط ـ بخجل من ثقافتنا ومن الثقافة إجمالاً!

العروبة وآلام المخاض(*)

عبد الله عبد الدائم

لا شك أن المرحلة التي نحياها اليوم هي نقطة الانعطاف بين أمس الأقطار العربية وغدها، والجيل الذي يعيش على مفترقات طرق التاريخ جيل سعيد سعادة حية عميقة، إنه يعيش مخاضاً روحياً وحقيقياً، فيه ينفصل عن ماض قريب جديب ما يزال يحمل أوزاره ليتجه إلى مستقبل خصيب ما يزال يتشوف إليه ويلمحه في الأفق دون أن يقبض عليه.

وفي هذه المنزلة، منزلة استشراف الجديد، والصراع مع رواسب القديم، تجد النفوس الفتية كامل تفتحها، وتلتمس مجال نشاطها الخلاق.

إنها حقاً «تعيش في خطر» على حد تعبير نيتشه، شاكية السلاح دوماً تترقب وتتوفز وتحمل أمانة الأجيال.

والجيل العربي اليوم، واحد من تلك الأجيال التي تعيش مرحلة تاريخية متفجرة بالقلق المبدع والتوفز الخلاق، إنه جيل يعيش حقاً مع التاريخ، حين يعزم ويصمم على أن يهب للتاريخ معنى، ويضع فيه ميسماً، وفيه تتحقق «التاريخية» ويتحقق القلق التاريخي، إذا أردنا أن نستخدم رطانة الفلاسفة ونذكّر بمصطلحات الفيلسوف الألماني هيدغر.

أوَليس الشعور الحق بالحرية، الحرية الخلاقة المحققة للوجود في أعمق أعماقه، هو أولاً وقبل كل شيء وليد «التزام» نلتزمه، وعزم نعزم عليه، به نقطع مجرى الأشياء الرتيب السادر لنخط فيه مجرانا ونشق اتجاهنا؟ أفلا يعني العمل الحر عزماً قاطعاً ننفصل فيه عن الرتابة والحياة التي تحملنا في تيارها، بل ننفصل فيه عن ذواتنا، عن رواسب الاستمرار والركود في ذواتنا، لنقرر في نهاية الأمر فعلاً جديداً، فعلاً مبتكراً؟

إن الشعور بالحياة، بالحياة المتفجرة لا يكون إلا في لحظات الخلق الحر والعزم

(*) نُشر في: **العربي**، العدد ١٥ (شباط/فبراير ١٩٦٠)، ص ١١٣ ـ ١١٨.

المبدع، والحياة لا تعطي نفسها ولا تمنح الشعور بحرارتها ودفئها، إلا لمن حاول أن يجبهها، أن يقف حقاً في تيارها وأن يقطع انسيابها المستسلم مع الصفحة الظاهرة الراكدة منها.

والجيل العربي اليوم، جيل عزم على أن يصنع التاريخ، على أن يهب لتاريخه معنى، وقرر أن يمنح وجوده مداه، وهو لهذا جيل سعيد كأعمق ما تكون السعادة، إنه يحس حقاً بدفقة الحياة ويعالجها في أعماقه.

غير أن لكل مخاض آلامه، آلامه السعيدة، والجيل العربي الذي يحيا اليوم معركة الانفصال عن ركود أَلِفه سنوات طويلة، والذي يتجه شطر مستقبل لم تستبن سائر معالمه بعد، جيل يلقى من آلام المخاض ما يلقى، ويعاني من التأزم ما يعاني، فالآلام في نظرنا آلام خصيبة محملة بالعطاء، إن هي وعت ذاتها، وأدركت مسؤولياتها، وهي على العكس معرضة لأن تنقلب إلى إجهاض فاشل إن هي لم ترتفع فوق الألم لتخلق منه الأمل.

ومن هنا كان واجبنا أن نقف في معركة الولادة الجديدة هذه، يقظين حذرين نسدد الخطى ونبين لجيل المعركة حقيقة وجوده، وواجب هذا الوجود.

المرء الذي يعيش في قلب المعركة، قلما يستطيع أن يتبين جميع أوجهها، ومن هو غارق في التيار لا يقوى على أن يرى جنباته.

ولهذا كان جيلنا العربي، الذي ألقى نفسه في يمّ معركة قومية تاريخية كبرى، معرضاً للانزلاق بحكم انغماسه في لجّة اليم، وانجرافه في تياره.

ومن هنا أتى واجب الحديث عن واقعنا الذي نحياه ومستقبلنا الذي ننشده، لنزداد وعياً لأنفسنا ولئلا يغادرنا هذا الوعي في أي لحظة من لحظات المعركة.

إن تساؤلنا كرة بعد كرة: من نحن اليوم، وإلى أين نسير؟ ما هو بالتساؤل المكرور الذي فقد قيمته.

إن حاجتنا إليه ماسة دوماً وهو الذي يجعل نضالنا نضالاً مدركاً لخطواته مصححاً لأخطائه واثقاً من نتائجه.

وما نزعم لأنفسنا أننا نستطيع في مثل هذه العجالة أن نفي هذا الموضوع الضخم حقه أو بعض حقه، فهو موضوع حياتنا كلها، وهو عملنا الدائب المتصل الذي لا ينقطع، وحسبنا أن نقف عابرين عند بعض الصور التي قد تساعد في جلاء الطريق.

أولاً: معركة وصراع

المجتمع العربي اليوم هو أولاً وقبل كل شيء مجتمع ينهض فيه الصراع العنيف بين العادة والنزوع، بين ما ألفه وبين رغبته في أن يجاوز ما ألف.

لقد مرت على المجتمع العربي عهود من الركود والانحطاط كاد ينسى فيها حضارته وأصالته، وتآمرت على هذا المجتمع جملة من القوى التي أرادت أن تُفقده معالمه وأن تطمس كيانه القوي كاملاً، وتألب الاستعمار التركي عليه، ومن بعده الاستعمار الغربي محاولاً أن يقطع صلته بتراثه وأن يمحو خصائصه.

ولا شك أن أصالة العربي وقوة تراثه الحضاري كانتا أقوى من محاولات الطمس هذه وأمنع من حملات الإبادة كلها، على عنفها وشدتها، فاستطاع أن يصمد لهذه الغزوات واستطاع أن يحفظ شعوره بذاته، شعوره بحضارته وأصالته.

وإن مما يؤكد للعربي ثقته بنفسه ورفيع نجاره ومَحْتِده هذا التحدي الجبار الذي قام به تجاه كل العوامل التي استهدفت إبادته والقضاء على كل صفة من صفات تراثه.

وهكذا خرج العربي من المعركة القاسية، معركة القرون الطويلة، ظافراً قوياً، جاوز مرحلة الثبات والصبر إلى مرحلة الدفاع عن الذات إلى مرحلة التحدي، فتحدى الاستعمار وما يزال يتحداه، وانتصر على قُوىً تفوقه، في معركة الجزائر وفي معركة عمان، وفي معركة القناة، وفي سائر المعارك النضالية التحررية التي تقوم على أرض عربية، وإن لم يسمع فيها دوماً ضجيج السلاح.

غير أن هذا الاحساس بالعزة القومية ـ وهو إحساس حق ـ ينبغي ألا يطمس أمام أعيننا بعض الحقائق، والذي علينا ألا ننساه هو أن النزوع القومي الذي ثبت وانتصر، لا بد أن يجاهد مخالفات المعركة التي قامت بينه وبين أعدائه، فلكل معركة بقاياها المزعجة التي ينبغي ألا نتجاهلها، والمعركة التي قامت بين العرب وبين العوامل التي تألبت على كيانهم ووجودهم، معركة انتهت دون شك بثبات المنازع العربية وصمود الروح القومية، ولكنها خلفت وراءها مع ذلك مجموعة من العادات، تعشش في قلب هذه المنازع وتصل إلى الصميم من تلك الروح.

ولا نأتي بجديد من الأمر إذا قلنا إن السنوات الطويلة التي أقام فيها الغرباء في بلادنا، عاثوا فيها تخريباً وتهديماً قد أورثتنا مثالب مما أرادها هؤلاء الغرباء، وجعلت في حنايا وثبتنا العربية نفسها بذوراً فاسدة، ولا نغلو إذا قلنا إن وثبتنا العربية تحمل في ثناياها بذور تهديمها وإننا إذا لم نلتقط هذه البذور ونجتث أصولها شيئاً بعد شيء عرَّضْنا وثبتنا للخطر الكبير.

وهل نحن بحاجة إلى أن نستعير تعبيراً من ميدان علم النفس فنقول إن ثمة عوامل هدامة عميقة لاشعورية تقوى في أعماقنا، وتحاول أن تخرب في الخفاء وأن تعمل في الظلمة، وسبيل العلاج منها أن نعيها وأن ننقلها من اللاشعور إلى الشعور؟

وهكذا يقوم الصراع عميقاً بين النوازع والعادات، فالنوازع في كل قلب عربي وفي كل أرض عربية، نوازع البعث القومي والوحدة العربية المنشودة، أما العادات العقلية وأما التقاليد النفسية الموروثة، فما تزال تغالب تلك النوازع.

ثانياً: مصطلح من علم النفس

وهي إذ تغالبها لا تقوى على أن تفعل ذلك جهاراً وعلى شكل سافر، وفعلتها في هذا المجال فعلة العوامل اللاشعورية المكبوتة، وما دمنا قد أوردنا المصطلح المقتبس من علم النفس، فالعوامل اللاشعورية المكبوتة كما نعلم لا تقوى على أن تظهر سافرة خوفاً من رقابة الشعور وهرباً من القيم التي يجري عليها المجتمع، ولهذا تتفتح وتظهر في غير زيّها، وتتسللُ خفية، على نحو ما نرى في الأحلام أو زلات القلم واللسان، أو الأمراض النفسية، أو النكتة أو غيرها.

كذلك العادات العقلية المألوفة التي ورثناها نتيجة عهود الانحطاط، والتي هي بقايا المعركة بيننا وبين العناصر الدخيلة على كياننا، فهي لا تظهر سافرة وإنما تلبس لبوساً غير لبوسها، بل إنها تلبس لبوس المنازع العربية التي تغالبها وتحاول أن تصطنع زيها وأن تزيفه.

هكذا نجد الآن مجموعة من الأفكار في البلاد العربية، تحاول أن تقاوم الفكرة العربية عن طريق اصطناع زائف لها وادعاء مؤمن بها في الظاهر، كافر في الباطن مدعية الحرص الخاص عليها، بينما هي تحاول هدمها.

وهناك وبعد أولئك وهؤلاء، من قرّت في أذهانهم عادات حرص المستعمر على بثها وإشاعتها، وجعل لها الصدارة في أعماله وفي محاولات التهديم التي قام بها، ونعني بذلك الروح الطائفية أو العنصرية، وأصحابها أيضاً يحاولون أن يفرضوا بقايا العنصرية أو الطائفية التي ورثوها وأن يظهروها كعناصر لازمة للفكرة العربية وأن يتخذوها عقيدة ومبدأ، زاعمين أن بينها وبين القول بالعروبة نسباً أو صلة.

وهناك أيضاً أولئك الذين ألفوا النظم الاجتماعية البالية التي أقامها الغرباء في بلادنا خلال سنوات طويلة، فأرادوا أن يفلسفوا هذه النظم وأن يسيروا في سياسة تعمية تجعل من مسايرة هذه النظم ضرورة تستلزمها طبيعة الكيان العربي.

إن المرحلة التي يعيش فيها جيلنا العربي هي مرحلة هذا الصراع بين النزوع العربي القوي وبين العادات الموروثة التي تعيش في قلب هذا النزوع وتهدده، ولعل الأنوار تسلّط على معالجة هذا التناقض الباطني العميق بين المنازع والعادات، فنتجنب بذلك مخاطر المخاض المجهض، ويزيد وعينا لنضالنا القومي وتعميقنا له.

ثالثاً: خطر داخلي وآخر خارجي

إن أكبر خطر يمكن أن يهدد هذا النضال العربي الفتي هو أن نطمئن إلى قوة الفكرة العربية، وإلى عزيمة المنازع العربية، فننسى ما يناقضها من عاداتنا السابقة وأفكارنا الموروثة الشوهاء، والشيء الذي ينبغي أن يقر في ذهننا أولاً وآخراً هو أن هذه المنازع معرضة لأخطار في قلبها وداخلها قبل أن تكون معرضة لأخطار تأتيها من خارجها، وأن الوسيلة

المثلى لتحقيق هذه المنازع هي عن طريق جهاد أنفسنا جهاد ذواتنا.

إن أخطار الفكرة العربية لا تأتيها من خارجها، بمقدار ما تأتيها من داخلها، من الأفكار التي تتزيّا بزيها وتصطنع لباسها وهي نقيضها في الواقع.

إن الفكرة القومية على غناها في النفوس وشدة حرارتها في العروق، لا تتحقق طائعة من تلقاء ذاتها، وهي كأي فكرة تتحقق بمقدار وعينا لها ونضالنا في سبيلها، إنها تستلزم منا نضالاً يومياً متصلاً نتغلب به قبل كل شيء على أنفسنا، على عاداتنا.

إن التاريخ، تاريخ أمتنا، ما هو بالشيء الذي يفرض ذاته، إنه يكتسب معالمه وصفاته كلما وعيناه وعرفناه، وتاريخ الأمة اكتشاف وبناء، ويكون حياً بمقدار حياته في النفوس.

ومن هنا كان الواجب الأول والأخير على الجيل العربي الحاضر أن يعي المرحلة التاريخية التي يجتازها وأن يدرك صفاتها وألا يحجبه انسياقه في غمرتها عن تبين مقوماتها ومتطلباتها الحقيقية، وعند ذلك وحده تتحقق له السعادة الحقة، سعادة الوعي، سعادة الادراك الحر، سعادة النضال المتجاوز لذاته دوماً، المتسائل عن قيمته بلا انقطاع.

إن محاولة تجاوز الذات محاولة شاقة لا تقوى عليها إلا الأجيال الفذة، ومحاولة تجاوز العربي لعاداته التي عاشت في أعماقه وتقاليده ومنشآته فترة طويلة من الزمن هي البطولة الحقة، وهي النداء الذي ينبغي أن يغري النفوس الكبيرة في مرحلتنا العربية الكبرى.

ثورة الجماهير الشعبية العربية

في ثورة العراق(*)

عبد الله عبد الدائم

يقدم الواقع العربي الدليل تلو الدليل على حيوية القوى التي تحركه، وتصميمها على الاغتناء والتكامل والنصر. وأمام تشكيك المشككين، وتساؤلات المتسائلين يجأر الوجود العربي حياً قوياً مريداً. وأمام السموم التي يحاول أن يزرعها ضعاف النفوس أو الغرباء عن كيان الأمة أو أعداؤها، والتي تريد أن تتنكر لصفحة الحياة العربية فلا ترى فيها وجهها الحقيقي ولا تدرك معناها الأصيل وتفرض عليها من الأوصاف المقتسرة والتحليلات المصطنعة ما ليس منها في قليل أو كثير، تنهض الحقيقة العربية، وتنهض الأدلة الموضوعية المشخصة، لتقول بلسان لا لبس فيه إن في الوطن العربي اتجاهات أصيلة وطاقات روحية واعية ناضجة، تسير كالسيل في طريق تجميع كل شيء من أجل تحقيق الحضارة العربية الموحدة والانبعاث العربي الكبير.

ترين على هذا الوجود بين الفينة والفينة سُحب وظلال سوداء وتغشاه الغواشي، شأن كل وجود يتشقق ليقوى، ويتفجر لترسخ أوتاده. ويخضع هذا الوجود لجزر بعد المد ولإعصار بعد الاشراق، يخرج منهما بمزيد من مد وفضل من نور، فإذا الحاقدون الشامتون يرون في العرض جوهراً وفي الهامش أصلاً وفي عثرات الطريق عجزاً وقعوداً. غير أن الواقع، الواقع الحي النابض، ما يلبث حتى يصفع التخرصات، ويهزأ بعشاق المآسي وغربان الجنائز، فيشرئب من قلب الموج الهادر شامخاً ويطلع من لج الأزمة ظافراً.

هكذا يحاول القاعدون العاجزون من أبناء الأمة العربية أو الغريبون عن روحها وتيارها أن يصبوا عجزهم مذهباً ويجعلوا من غربتهم نظرية وفلسفة، فيضفوا على الواقع العربي ما ليس فيه وما هو قائم في خور نفوسهم وهجانة تفكيرهم. وهكذا يحاول الحاقدون والأعداء أن يصفوا الحياة العربية، كلما أصابها ضر أو عراها غم، بما يريدون

(*) نُشر في: الآداب، السنة ١١، العدد ٣ (آذار/مارس ١٩٦٣)، ص ٣ ـ ٥.

أن تكون عليه وبما يريدون لها من ضياع وانهيار.

ثم تأتي الكلمة، الكلمة الصادقة الحاسمة، كلمة الحياة العربية التي استمرت منذ سنوات طوال تصارع الأدواء والمفاسد والمكائد كلها وتشق من خلالها جميعها طريق القوة وسبيل المصير العربي.

بالأمس، بعد قرن ونيف من العسف والتشويه يقوم بلد عربي كاد الاذلال يضنيه وكاد الاستعمار يبيد قواه، فيشرئب كالنمر، من خلال القيود والوهن، وينتفض من خلال المرض والإعياء، ويبني في سنوات معدودات، ثورة شعب غدت علماً على ثورات الشعوب، ونضال أمة إليه ينتسب النضال، ويحقق ما بدا حلماً لأعدائه وما بدا وهماً وخيالاً للمشككين الخائرين، يحقق الجزائر العربية المستقلة ويجعل منها صرحاً للثورة العربية الشاملة.

وبالأمس القريب، في أقاصي الجزيرة العربية، في بلد القرون الوسطى، وفي قلب حكم الجهالة والوحشية والتخلف، تشب اليمن وتمسح كرى السنين وتمزق عفن الأجيال، لتقيم في ذلك المجتمع الذي ما عرف طعم النور ولا ذاق مرأى الإنسانية نواة نامية قوية لحرية الإنسان العربي، ولتطلق قوى الجماهير الغفيرة التي ترزح تحت أثقال العبودية، مفجرة لديها طاقات الإبداع الحقة من أجل الغد العربي الناهض.

وفيما هو أقرب من الأمس، فيما لا يزال أمام كل عين وعبر كل جارحة، يأتي العراق فيمحو سنوات الاضطهاد والشعوبية بكل قسوتها وثقلها، ويخرج صافياً عربياً أصيلاً، يقهقه حتى الأعماق هازئاً من كل من تسول له نفسه التنكر لخط التاريخ العربي ومعاكسة الركب الزاحف، يأتي العراق المنظم الثوري مبيناً أن لا مساومة على مصير الأمة وأن لا هوادة في حكم التاريخ على أعدائها.

ويبلغ هذا العراق الثوري مرحلة جديدة في النضال العربي، ويعبر عن طاقة مستحدثة من طاقات هذا النضال. إنها طاقة العمل المنظم، العمل الشعبي، العمل الجماعي. إنها طاقة الحركة التي تنبثق وسط الجماهير لتكون وهذه الجماهير شيئاً واحداً وروحاً واحدة. إنها الثورة التي لا ترضى أن تكون مجرد معبّر عن إرادة الجماهير، بل تريد أن تكون هي الجماهير. إنها الثورة التي تتصل اتصالاً مباشراً حياً بمصلحة الجماهير الكبرى من أبناء الوطن وبأهدافها وصبوات نضالها، لتتخذ من هذا كله شعار عملها وأداة نضالها. إنها وسط هذه الجماهير وفي قلبها، وليست على السطح منها أو فوقها.

وبفضل هذا الموقف الجديد، يدخل النضال العربي مرحلة عامرة بالعطاء غنية بالامكانيات. لم يعد هذا النضال شرارة تطلق الشعلة ليتلقفها بعد ذلك من يتلقفها، وليستضيء بها من يريد أن يستضيء، وليستغل نورها أحياناً من يحلو له الاستغلال. بل غدا عملاً مكتمل البنية، هو المحرض وهو المنفذ، هو المحرك وهو المتحرك.

لقد شهد الوطن العربي في فترات كثيرة مواقف نضالية نستطيع أن نسميها مجهضة،

تعطي نفسها مهمة شق الطريق وإثارة الثورة، ثم تقف عند هذا الحد تاركة للظروف والمناسبات مهمة إنجازها، بل مخلية ذلك، بضرب من التفكير السحري، لمعجزات لا بد أن تقع. أما اليوم فنستطيع أن نقول إن النضال العربي دخل مرحلة النضال العلمي المنهجي المنظم، الذي يأبى أن يدفع الأمور للصدف والمناسبات، والذي يعتمد على قوى منظمة واعية تنجز المهمة وتتولى تحقيق الهدف. وعند ذلك يأخذ النضال كامل معناه ويصل إلى مستقره الحقيقي ما دام الشعب هو رائده وهو أداته، وما دام من أجل الشعب وبالشعب.

إن أبرز مميزات الثورة العراقية الجديدة هذا الأساس الشعبي الذي تستند إليه، والذي هو غذاؤها الدائم وموقدها الخصيب. إنها ثورة شعب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، يلتئم فيها عمل الطليعة بعمل الجماهير وتوجه فيها إرادة الجماهير نضال الطليعة، ويلتقي عندها المدني بالعسكري، فيحمل المدني السلاح ويخوض المعركة جنباً إلى جنب مع العسكري، ويلتقي هذا وذاك في توجيه سياسة الحكم، على قدم المساواة وضمن جو من المشاركة والتفاعل في الرأي. ويستمد الجميع معاييرهم ومقاييسهم من الأصول الشعبية التي يرتبطون بها ومن مقاييس النضال الجماهيري الشعبي الشامل.

وعندما تكون الثورة شعبية، وعندما تكون جذورها عميقة الاتصال بحياة الجماهير وإراداتهم وحاجاتهم، بل عندما تكون هي الجماهير، يغدو العمل الجماعي نتيجة طبيعية، وتغدو الإرادة الديمقراطية المشتركة، هي الإرادة الطبيعية. والثورة التي قامت على سواعد الشعب، متمثلة بقواه المنظمة وما وراءها من إرادة والتفاف شعبي، لا بد أن يظل هذا الشعب أداة تطويرها ونمائها، وأن تكون إرادته الجماعية هي الموجهة الحاكمة. وعند ذلك تأخذ المشكلة التقليدية الأزلية، نعني مشكلة تحقيق ديمقراطية شعبية لا تنسى مطالب الديمقراطية السياسية والاجتماعية معاً، طريقها إلى الحل، ما دامت الثورة في أصلها وانطلاقتها ثورة شعبية قامت على أساس إرادة الجماهير الحرة في حياة اجتماعية اشتراكية حرة.

وهكذا تغدو المؤسسات الديمقراطية، من منظمات نقابية وطلابية إلى تعاونيات وجمعيات فلاحية، إلى منظمات حزبية، هي الأساس الذي تنعقد حوله مثل هذه الديمقراطية الشعبية ونقطة الانطلاق الفعالة المجدية نحو الديمقراطية التي يتحقق فيها التوازن والتفاعل بين الحرية السياسية والتحرير الاجتماعي والاقتصادي. وبذلك يقتحم المجتمع العربي تجربة جديدة حقة، فيها جهد ايجابي من أجل الخروج من بين قرني الاحراج في مسألة الديمقراطية: أي بين الديمقراطية البرجوازية الليبرالية وبين الديمقراطية الاجتماعية الدكتاتورية. ولا نقول إن مثل هذه المهمة، مهمة الجمع الحي بين مطالب الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية دون أن تنقلب أولاهما إلى ديمقراطية برجوازية ودون أن تغدو الثانية دكتاتورية، مهمة سهلة ميسورة. غير أننا نجد فيها المشكلة الجديرة بأن تنصب عليها الجهود، لأنها قمينة وحدها بأن تُخرج الوضع

العربي من كثير من الصعوبات التي يواجهها منذ سنوات، والتي سيواجهها دوماً إن لم يقم مثل هذا الجهد الذي غدونا نجد نظائر له في كثير من بلدان العالم، والذي هو أمل الإنسانية أنى كانت.

وطبيعي أن يأخذ هذا الجمع بين روح الديمقراطية السياسية وروح الديمقراطية الاجتماعية شكلاً يأتلف مع ظروف الواقع ومع تطور الأحداث، وطبيعي أن لا تكون له صيغة مطلقة محددة المعالم سلفاً. غير أن الهام فيه هو الإرادة الجادة لبلوغه، والانطلاق من موقف الجمع هذا، على ما فيه من عسر، بدلاً من التماس الحلول السهلة الحادة، التماس أحد الطرفين المسرفين للديمقراطية. الهام فيه أن تكون الظروف والصعوبات العملية فرصة لتذليل أكبر قدر منها من أجل الانطلاق في الطريق السليم، لا حجة وذريعة لركوب مركب التطرف الدكتاتوري أو التناقض البرجوازي.

وتيسر هذه المهمة في العراق، كما سبق أن قلنا، نقطة الانطلاق السليمة التي انطلقت منها الثورة، نعني نقطة الانطلاق الشعبية التي ائتلفت فيها إرادة الجماهير والتي عبرت عن اندماج بديء بين التنظيم الديمقراطي الحر وبين الإرادة الثورية الجادة في طريق التحرير الاجتماعي والاقتصادي.

على أن الذي يضع هذه الثورة الشعبية في مكانها الصحيح فيما يتصل بمسألة الديمقراطية ارتباطها الأصيل، لا بالجماهير الشعبية والمنظمات الشعبية في العراق وحده، بل بالجماهير الشعبية والمنظمات والحركات الثورية في الوطن العربي كله. فالإرادة الشعبية هي في حد ذاتها وأنى وجدت، في العراق أو غيره من البلدان العربية، إرادة عربية مشتركة موحدة، تعبر عن عمق الاتصال بين الثورة الاجتماعية التي تريدها الجماهير وبين النضال العربي الموحد من أجل أهداف هذه الثورة، التي هي أهداف قومية لا أهداف محلية وإقليمية فحسب. وفي الظروف التي تجتازها البلاد العربية، وفي التكوين الأصلي لبنيتها، لا مجال إلى الحديث عن ثورة اشتراكية اجتماعية ناجعة كاملة ضمن إطار الانفصال والتجزئة. ومن مقومات الاشتراكية في البلدان العربية أن تعتمد على إرادة الجماهير العربية الموحدة ضد إرادة أعدائها أولاً. وأن تعتمد ثانياً على القوة الكبرى الاجتماعية والاقتصادية والتحررية الثاوية في تكامل أجزاء الأمة العربية وتفاعل ثرواتها وإمكانياتها. والعمل للكيان العربي الموحد، أياً كان التنظيم القانوني والدستوري لهذا الكيان، يبدو يوماً بعد يوم الشرط الأساسي لتحقيق نظام اجتماعي اشتراكي ناجح، ولحماية هذا النظام من أعدائه في داخل البلاد وخارجها. ويبدو ذلك بدهياً أكثر، في الظروف التي نرى فيها الدول المتباعدة فيما بينها تلجأ إلى وحدات اقتصادية وغير اقتصادية من أجل حماية إنتاجها وزيادة طاقاتها الاقتصادية. أو نحن في حاجة في هذا المجال إلى أن نذكّر بالنظريات الاقتصادية التي تقول إن كل تفاعل بين نظامين اقتصاديين، لا سيما عندما يكونان في دولتين متقاربتين، يؤدي إلى ارتفاع في الإنتاج والثروة في مصلحة كلا البلدين معاً؟ من هنا ندرك عابرين سقم الأقوال التي تحاول أن تثير المصالح

الاقتصادية الخاصة بكل دولة عربية جاعلة من كل وحدة أو اتحاد زوالاً لهذه المصالح أو استغلالاً تقوم به الدولة الكبيرة أو الفقيرة للدولة الصغيرة أو الغنية. ولنقل مرة أخرى إن الوحدة أو الاتحاد بين البلدان العربية تفاعل منتج وليس ضماً عددياً، ومن شأن التفاعل أن يولد طاقة وثروة جديدة تفوق ما ينتج عن مجرد تجمع الأجزاء، وينقلب خصبها لفائدة جميع الأجزاء.

وهكذا تستبين لنا المعاني القوية الثاوية في ذلك الاتجاه الذي عبرت عنه تصريحات المسؤولين في العراق، نعني الاتجاه نحو الانفتاح على النضال العربي المشترك، ونحو وحدة النضال الشعبي وتأييد آمال الشعب العربي في جميع أقطاره، ونحو التضامن مع الحكومات العربية المتحررة. إنه يعني الالتقاء الحميم بين إرادة الجماهير الشعبية في العراق وإرادة الجماهير الشعبية في كل بلد عربي، والوحدة الكاملة بين أهداف هذه الجماهير، وضرورة تنظيم نضالها الموحد في سبيل هذه الأهداف. ويزيد في ضرورات هذا الانفتاح على النضال المشترك أن ثورات شعبية تحررية قامت في العديد من أجزاء الوطن العربي، وأن هذه الثورات ترجمة لمطالب شعبية واحدة ولإرادة جماهيرية واحدة، وتعبير عن تجربة نضالية مشتركة، ولذا فمن الطبيعي لها أن تلتقي وأن تتفاعل مع سائر الحركات والمنظمات التحررية في البلدان العربية من أجل وضع نتائج التجربة التي قام بها كل بلد في خدمة سائر التجارب التحررية في الوطن العربي، ومن أجل الوصول إلى توحيد الدروس التي تقدمها هذه التجارب والخروج منها بنتائج واقعية تأتلف مع المطالب والأهداف المشتركة للأمة العربية جمعاء من جهة، ومع الأوضاع الخاصة بكل بلد عربي من جهة ثانية.

وهذا الأساس الشعبي للديمقراطية، الذي يجعل منها ديمقراطية شعبية تؤمن بالحرية من أجل التحرر الاجتماعي والاقتصادي وبالتحرر من أجل الحرية، والذي يجعل منها بالتالي ديمقراطية اشتراكية وأداة من أدوات النضال العربي المشترك من أجل الكيان العربي الموحد الذي تأخذ فيه الحياة الاشتراكية الديمقراطية أكمل صورها، يحدد من تلقاء ذاته حدود الديمقراطية وقيودها: فالديمقراطية العربية ما دامت ديمقراطية شعبية اشتراكية عربية، لا بد أن تكون حدودها حدود العمل لهذه الأهداف، ولا بد أن تنفي كل حرية لأعداء الاتجاه القومي العربي أو لأعداء الاشتراكية أو لأعداء الشعب. والحرية السليمة بهذا المعنى، التي تسقى من هذا الأساس الشعبي، هي الحرية ضمن إطار الأهداف القومية الكبرى، وعلى رأسها هدف الوحدة وهدف الاشتراكية. وفي قلب هذا الإطار يمكن أن تأخذ الحرية منطلقها ويمكن أن يقوم التعدد والتنوع والخلاف في الاجتهاد وفي الرأي على أوسع نطاق. فمثل هذا التعدد والتنوع شرط من شروط التجدد والتقدم وتجاوز الذات، وأداة من أدوات الحوار المنتج الخصيب.

* * *

وبعد، هنالك أشياء وأشياء تثيرها ثورة العراق في الأذهان، وهنالك مسائل

ومسائل تطرحها على الأقلام. غير أنها جميعها تتحلق في نظرنا حول هذه البذرة الخصيب التي انطلقت منها ثورة العراق، حين انطلقت انطلاقاً شعبياً جماعياً تثوي فيه إرادة الجماهير الديمقراطية الوحدوية. ولهذا يتطلع إليها العرب في كل مكان، ويرون فيها قوة جبارة لا بد أن تحمل وتتئم. فمقياس الثورية في أي ثورة عربية أن تعبر عن إرادة الجماهير وأن تقوم على يد الجماهير. إذ إن هذه الإرادة وحدها هي الإرادة الاشتراكية العميقة الحية التي لا تقبل الزيف، وهي الإرادة العربية التي تكون الوحدة أساس وجودها وازدهارها، وهي الإرادة الديمقراطية التي تعبر بعمق عن ارتباط الحرية بالتحرر الاجتماعي، لأنها إرادة الكثرة الغالبة من المواطنين وإرادة القوى الأساسية في بناء أي مجتمع. إن طبيعة الصراع القائم اليوم في البلدان العربية يرتد في النهاية إلى صراع بين مطالب الكثرة الغالبة من الجماهير الشعبية في الوطن العربي التي ترتبط بها حياة الأمة وتقدمها والتي يرتبط وجودها المتفتح الفعال بقيام الاشتراكية والوحدة والديمقراطية، وبين مصالح القلة من المتنفعين بأوضاع التجزئة والاستغلال الاقتصادي ودكتاتورية رأس المال والفساد الاجتماعي، نعني طبقة الفئات الحاكمة الرجعية، وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة الذين ترتبط مصالحهم بمصالح التجزئة وبمصالح الاستعمار، والمستغلين للتخلف الاجتماعي والصراع الطبقي أو العنصري أو الطائفي أو الديني أو غيره من أمائر الفساد.

وهذا يعني شيئاً واحداً وهو أن سبيل الأمة العربية هو سبيل الشعب، بقواه المنظمة وبنضاله الموحد في جميع أجزاء الوطن العربي. ومن هنا بدأت ثورة العراق، وعنده ستلتقي سائر الحركات الثورية التحررية في البلدان العربية في زحف كبير هادر نحو أهداف الشعب العربي.

بالماء تحيا إسرائيل(*)

عبد الله عبد الدائم

إن المعركة المائية معركة حربية في حقيقتها.
إن استراق «المياه» العربية لا يقل خطراً عن
استراق «الأرض» العربية... بل يفوقها.

يشهد العرب ـ وهم في قلب إحدى معاركهم الكبرى الحاسمة ضد مؤامرات اسرائيل ـ أقتل السهام توجه إلى أسمى القيم الإنسانية، وأخطر كبوة تتعرض لها هذه القيم، في فترة خُيل للإنسان فيها أن شعاعاً من الأمل الجديد أخذ يشرق في الفجر، مبشراً بانطلاق جدّي نحو عالم يستطيع فيه الإنسان أن يحقق الحضارة الجديرة بالإنسان.

وأخطر ما في هذه المعركة، أن منتهكي القيم الإنسانية فيها، يفعلون ذلك باسم القيم الإنسانية، وأن صارعي آمال الإنسان يلبسون لبوس حواريي الدعوة الإنسانية.

لقد قلنا أكثر من مرة ـ مع جمهور أصحاب الفكر الحر في العالم ـ إن الإيمان بالقيم الإنسانية لدى أمة من الأمم، لا يقاس عن طريق «القيم ـ الأصنام» المنقوشة في الدساتير أو المسطورة في الأقوال، وإنما يقاس بمقدار ما للإنسان فعلاً في داخل هذه الأمة وخارجها من قيمة واحترام. وأخطر ما تصاب به المبادئ الإنسانية والديمقراطية أن تصبح «حجة وتبريراً» وأن تغدو «تتويجاً رائعاً للوحشية» على حد تعبير ماركس.

ومثل هذا الاصطناع للمبادئ من أجل تهديم المبادئ، ومثل هذا التحليق الزائف في عالم القيم على حساب القيم، هو ما يراه العالم اليوم، وسط هذا الضجيج الذي تبثه الدول الكبرى والذي يهدف إلى الانتصار لإسرائيل في محاولتها الجديدة للتمكين لوجودها على حساب العرب.

فالدعوة إلى السلام وإلى التعايش السلمي، تغادر العالم الدامي في الكثير من أطرافه بما اجترحت أيدي الكبار، وتغادر المعنيين الحقيقيين بهذه الدعوة وبذلك التعايش، وتتجه إلى العرب وإلى العرب وحدهم! فهم المدعوون ـ قبل سواهم ـ إلى السلم والحياة المطمئنة

(*) نُشر في: **المعرفة** (دمشق)، السنة ٣، العدد ٢٧ (أيار/مايو ١٩٦٤)، ص ٦ ـ ١٤.

الآمنة مع جيرانهم! وهم الذين يتوجب عليهم ــ على حساب تعاسة مئات الألوف من اللاجئين وعلى حساب بؤس أمتهم بأسرها ــ أن يعملوا لخلاص الإنسانية من مشكلة الحرب عن طريق انتجاع الأساليب السلمية، تلك الأساليب التي يؤمن الكبار ــ في مثل هذه المناسبة وحدها ــ أنها أفضل الحلول وأعقلها! والأمل الكبير ــ الأمل المسطور في كلام الأنبياء وعلى مباني الأمم المتحدة ــ الأمل في يوم تمتنع فيه دولة عن أن تستل السيف في وجه دولة أخرى ــ يتخلى عن حمله القادرون على تحقيقه، ويحملونه العرب، والعرب وحدهم في هذه الآونة: فعليهم تعقد الآمال في تحقيقه، وإياهم يرجون أن يديروا خدهم الأيسر لمن صفعهم على خدهم الأيمن، وهم الذين يتوجب عليهم أن يقابلوا بالعناق جيرانهم الذين اغتصبوا دارهم وشردوا رجالهم! وعند ذلك، عندما تسلك الدول الصغيرة سلوك الأغبياء هذا، وعندما تقابل آلات الفتوح بمسوح الأتقياء، تغدو السبيل ممهدة أمام الدول الكبرى، «سبيل مقاومة الفقر والجهل والتعاسة والمرض وأعداء الإنسانية الذين يشنون منذ سنوات حرباً على الإنسان وآماله».

أما الماء فينبغي أن يكون ترياقاً يجمع بين الأمم ولا يفرق، وأن يكون نميراً وسلسبيلاً ييسر سبل السلم ويبعد عن سبل الحرب! وماذا لو اقتسم العرب مياههم مع اسرائيل، ليوفروا لها أسباب الحياة والقوة وهي الجارة العطشى الغرثى! بل، لماذا لا يتعاون الجميع من أجل التغلب على مشكلة المياه في اسرائيل ــ اسرائيل في كل مكان ــ ولماذا لا نضع العلم والبحث العلمي والتقدم الفني في خدمة هذه القضية الإنسانية، فنقلب الملح الأجاج إلى عذب فرات، ونقدم تجربة تفيد منها إسرائيل وجارات اسرائيل أيضاً؟ وهل من الإنسانية في شيء أن نمنع الري عن الأرض البوار، وأن ندع الصحراء ــ صحراء النقب فهي وحدها الصحراء ــ تئن وتتلوى حنيناً إلى قطرات الماء؟

هذا هو صوت الإنسانية الذي نسمعه اليوم، وهذا هو اللحن المبتكر الذي يقدمه لنا كبار المنادين بالمبادئ الإنسانية العاملين لها في زعمهم. إنه الدعوة إلى سلم يحققه الأقوياء على حساب الضعفاء وإلى تعايش ومساكنة يفرضها الغاصبون على الأبرياء، وإلى محبة تملأ قلب المظلومين لتيسر طعنة الظالمين. إنه صوت الآمال الكبار، آمال الإنسانية في عالم أفضل يكون العرب أول بناته عندما يطأطئون هاماتهم أمام من استل سيفه ليخرجهم من ديارهم. إنه صوت القوي يقهقه وهو يدعو إلى الاحتفال بمقتل الضعيف ويعده بأكاليل الغار تتراشق على قبره، قبر من مات ليحيا غيره، ليحيا عدوه ولتحيا الإنسانية ممثله بهذا العدو. ولماذا لا يكون العرب شهداء الإنسانية وقربانها؟ أوَليست الإنسانية في أشد الحاجة إلى شهداء أبطال؟

* * *

وبعد، وراء هذا الواقع الضاحك الباكي، تنهض الوقائع صارخة جلية، لتقول كلمتها في غير استحياء. إنها تصرخ بملء فيها لتقول شيئاً واحداً لا ثاني له: لقد أوجد الاستعمار اسرائيل على حساب العرب، ولكن اسرائيل ومعها الاستعمار يدركان اليوم أن

العرب لم يدفعوا بعد الثمن الكافي لبقاء إسرائيل، وأن لا سبيل لهذا البقاء إلا على حساب تضحيات جديدة يقدمها العرب. إن عليهم ـ بعد أن استلبت اسرائيل جزءاً من ديارهم ـ ألا يدعوا هذا الجزء نهباً للصعوبات والعقبات التي يواجهها ـ وعلى رأسها مسألة ندرة المياه وعليهم بالتالي ـ بعد أن قدموا فلسطين هدية لبني اسرائيل أن يقدموا لإسرائيل أسباب البقاء. والدول الكبرى التي أوجدت اسرائيل، لا يجوز أن تبقى عند حدود هذا الشوط، فوجود اسرائيل الحقيقي يعني قدرتها على التغلب على ما تعانيه من صعوبات ويعني أن تكسر الطوق المضروب حولها، لتنتهي يوماً بعد يوم إلى ابتلاع الأرض العربية. إذ هل يعقل أن تستمر اسرائيل وتبقى ما دامت هنالك دول مجاورة معادية، لا تتخلى عن حصارها لإسرائيل ولا تيسر لها سبيل البقاء! إن هذه الدول عقبة في طريق اسرائيل، وإنها تجعل حياتها صعبة وبقاءها عسيراً، وتثير بذلك المشكلات، مشكلات السلم في المنطقة، وتظلم اسرائيل وتحول دون أبسط حقوقها المشروعة، حقها في الحياة، في تعمير أرضها، في رفع مستواها الاقتصادي، في توفير الدخل اللائق للميلونين ونيّف، في إعداد العدة لاستقبال أعداد جديدة من المهاجرين ينبغي أن تتزايد يوماً بعد يوم!

ولكي نفهم معنى هذه الحقيقة، لنحاول أن نبحث بحثاً موضوعياً علمياً في كيان اسرائيل وأن نتبين في خاتمة المطاف أن هذا الكيان في حاجة إلى الماء كي يبقى، وفي حاجة إلى صلح قسري أو طوعي مع الدول العربية ليحيا ولتكون له جولته الثانية مع هذه الدول.

إن هذا البحث الموضوعي هو الذي سيرينا أن اسرائيل ـ التي خلقها واصطنعها الاستعمار ـ لم توجد بعد وجوداً باقياً مكيناً على نحو ما ترجو، ولن توجد كما ينبغي أن توجد وتستقر إلا بالماء **أولاً**، وبفك الطوق العربي من حولها **ثانياً**، وبالاتساع على حساب العرب **ثالثاً** نتيجة لهذا كله. إنه يرينا رؤية العين أن جولتها الحقيقية التي تثبت وجودها وتمكن لكيانها لم تكن جولة عام ١٩٤٨، وإنما هي الجولة التي تجند لها اليوم كل قواها وقوى المنتصرين لها، جولة الماء، جولة الحياة الثاوية وراء الماء، جولة القوة التي يأتي بها الماء. إنه يقدم الدليل على تلك الحقيقة التي أصبحت ذائعة لدى جميع الذين درسوا أوضاع اسرائيل، وهي أن نقص المياه هو العائق الحاسم في وجه التطور السكاني والاقتصادي والعسكري لإسرائيل، وأن اسرائيل لن توجد حقاً إلا عندما يوجد الماء. فالجهود الفنية المبذولة، والمساعدات المالية السخية التي تتلقاها اسرائيل وسائر أنواع الدعم التي تتمتع بها، سوف تقف عند حد لا تتجاوزه إذا لم تجد الماء اللازم لري أراضيها واستغلال ثرواتها.

١ ـ مساحة فلسطين المحتلة مساحة صغيرة: ٢٠٧٠٠كم.[٢] وما هو قابل للزراعة من هذه المساحة مع ذلك لا يفوق ربعها، أي حوالى ٥ آلاف كيلومتر مربع. ونصف مساحتها تقريباً، أي حوالى ١٠ آلاف كيلومتر مربع، تشغله الصحراء.

وبالإضافة إلى صغر المساحة وصغر ما يزرع منها، تقوم مشكلة الري، فلا تكفي

المياه الموجودة في اسرائيل للإفادة من جميع الأراضي الصالحة للزراعة. ورغم كل الجهود التي بذلت في السنوات الأخيرة، لا تتجاوز الأرض المروية ١٤٠٠ كم٢ فقط. وعندما تستنفد سائر الجهود لن تزيد مساحة الأرض المروية ـ كما يقدر الخبراء ـ على ضعف هذه المساحة.

٢ ـ وفي مقابل ذلك يتزايد عدد سكان فلسطين المحتلة تزايداً كبيراً. فبعد أن كانوا عند خلق دولة اسرائيل في الخامس عشر من أيار/مايو عام ١٩٤٨ يقلون عن ٨٠٠ ألف نسمة، أصبحوا يطوفون الآن حول المليونين ونصف المليون. والمقدر حسب الخطط الموضوعة أن يبلغوا أربعة ملايين على الأقل في عام ١٩٧٠.

٣ ـ ثروات اسرائيل الطبيعية الأخرى ثروات محدودة، فالثروات المعدنية قليلة (البوتاس وبعض المعادن الأخرى من البحر الميت، والفوسفات من النقب، وبضعة آلاف من الطونات من النحاس في السنة من مناجم «تيمنا» والقليل القليل من البترول). والطاقة الكهربائية خاصة معدومة، بسبب انعدام المياه الكافية.

٤ ـ ونتيجة هذا كله أن الجانب الكبير من الدخل القومي مصدره القطاع الاقتصادي الثالث، أي قطاع التجارة والخدمات، بدلاً من أن يكون مصدره خاصة القطاع الاقتصادي الأول، نعني الزراعة، ثم القطاع الاقتصادي الثاني، نعني الصناعة. ومن هنا نجد أن ثمة كثيراً من الأعمال الطفيلية والزائفة في اسرائيل، وأن ثمة فيضاً في عدد التجار خاصة. ومن هنا نرى أيضاً أن القوة العاملة في فلسطين المحتلة موزعة توزيعاً شاذاً: فأقل من ٢/ ١٠ من هذه القوة العاملة يعملون في الزراعة، و٣/ ١٠ منها يعملون في الصناعة، و٥/ ١٠ في الخدمات. وهذا يعني تضخم قطاع الخدمات تضخماً فاضحاً، على حساب قطاع الزراعة خاصة، فهو قطاع ضامر رغم أن الأرض هي الثروة الأساسية في اسرائيل. ومرد ذلك خاصة إلى نقص المياه اللازمة لاستثمار الأرض.

٥ ـ يجمع الباحثون على أن اسرائيل مدينة ببقائها خلال السنوات الماضية للمساعدات الخارجية بالدرجة الأولى. فلقد تلقت خلال السنوات العشر الماضية عوناً خارجياً متوسطه مئة دولار لكل شخص في السنة. ولولا هذا العون لما تمكن الاقتصاد الاسرائيلي أن ينهض على قدميه. على أن هذا العون لا يمكن أن يستمر ـ أو لا يمكن أن يستمر بالمقدار نفسه على أقل تقدير. (فالتعويضات الألمانية مثلاً تتوقف) ـ وإن هو استمر فلن يستطيع حل المشكلات الرئيسية التي لا يقوى على حلها. نعني مشكلة القيود الصارمة التي يفرضها نقص الماء على مشروعات التنمية.

مشكلة المياه إذن عقبة حاسمة في طريق تقدم اسرائيل وفي طريق بقائها. فلنحاول تبين هذه المشكلة بتفصيل أكبر:

١ ـ مياه الأمطار في اسرائيل كما نعلم قليلة. وهي لا تتجاوز في المتوسط ٣٠٠ مم في العام، يضيع ثلثاها في التبخر عن طريق حرارة الشمس.

٢ ـ تقوم جهود كبيرة لزيادة كمية المياه. ومع ذلك فكمية المياه المستخدمة في

اسرائيل لم تجاوز ١,٢٧٥ مليار متر مكعب عام ١٩٦٠. ويأمل الباحثون أن تؤدي المشروعات المستمرة إلى أن تبلغ المياه عام ١٩٧٠ كمية قدرها ١,٨ مليار متر مكعب، لا تمكن الاستفادة إلا من ١,٥ مليار متر مكعب منها. وهذه الكمية الأخيرة ستكون موزعة على النحو التالي (فيما إذا قامت اسرائيل بتحويل مجرى نهر الأردن حسب خطتها):

من مياه الآبار	٨٠٠ مليون متر مكعب
من نهر الأردن والأنهار والينابيع الأخرى	٥٠٠ مليون متر مكعب
من مياه الوديان	١٠٠ مليون متر مكعب
من تكرار استخدام المياه	١٠٠ مليون متر مكعب

هذا مع العلم أن نهر الأردن لا يقدم الآن سوى ١٥٠ مليون متر مكعب.

وهذه الكميات كلها كميات ضئيلة، وإذا لم تتمكن اسرائيل من تحويل مجرى نهر الأردن فمعنى هذا أن اقتصادها سوف يواجه في المستقبل القريب سداً لا يستطيع تجاوزه.

٣ ـ وإن كمية المياه المستخدمة حالياً، وقدرها ١٢٧٥ مليون متر مكعب كما ذكرنا، موزعة (حسب احصاءات عام ١٩٦٢)، على النحو التالي:

للزراعة	١٠٤٠ مليوناً
للصناعة	٦٠ مليوناً
للاستهلاك المنزلي	١٧٥ مليوناً

ومعنى هذا أن معظم المياه الحالية مستخدمة في الزراعة، ولكنها مع ذلك لا تفي بجزء من حاجاتها. فلقد ذكرنا أن فلسطين المحتلة تشمل ٥٠٠ ألف هكتار تقريباً من الأراضي الصالحة للزراعة، بينما لا يروى منها حالياً إلا حوالى ١٤٠ ألف هكتار. أي أن كل هكتار يستهلك حوالى ٧ آلاف متر مكعب من الماء. وعلى هذا القياس يحتاج ري القسم الباقي من الأراضي الصالحة للزراعة إلى ٣ مليارات متر مكعب. ومن هنا نرى ضخامة المشكلة، ومن هنا نرى بوضوح أن الماء ـ لا التربة ـ هو العامل المضيق للإنتاج وللاقتصاد القومي هنالك.

٤ ـ ثمن التكلفة للمتر المكعب من الماء يبلغ حوالى عشرين قرشاً سورياً. على أنه سوف يبلغ ـ بعد المشروعات الجديدة المرتقبة ـ قدراً أكبر (حوالى ٢٥ قرشاً سورياً). والثمن مرتفع كما نرى. أما ثمن البيع في الزراعة فيبلغ الآن حوالى ١١ قرشاً سورياً لكل متر مكعب من الماء. ولا يعوض هذه الخسارة الناجمة عن سعر البيع بالقياس إلى سعر التكلفة، ارتفاع سعر مبيع المياه في الخدمات المنزلية، ولا بد من مساعدة تقدمها الحكومة تبلغ حالياً حوالى القرشين في كل متر مربع.

٥ ـ في مقابل هذا كله، يزداد عدد سكان اسرائيل كما ذكرنا زيادة كبيرة عن طريق التكاثر الطبيعي وعن طريق الهجرة. وفي حين تبقى الموارد المالية ثابتة تقريباً، وفي حين لا يقدر أن يتوافر للزراعة في اسرائيل عام ١٩٨٠ أكثر من ١,١ مليار متر مكعب، من المتوقع أن يتضاعف عدد السكان وأن تصبح أعباء إطعامهم وتعهدهم متعذرة.

٦ ـ من أجل هذا جهدت إسرائيل وتجهد من أجل إيجاد مخرج لمشكلة المياه هذه، عن طريق العديد من المشروعات:

فهي تقوم بتجارب لإحداث مطر صناعي، لن تكون نتائجها واضحة قاطعة قبل حوالى عشرين عاماً، كما يقدر الخبراء.

والمشروع الذي أشار إليه الرئيس جونسون في خطابه، ليس بالمشروع الجديد كما نعلم. فالجهود تبذل منذ سنوات في اسرائيل من أجل إزالة الملوحة من المياه المالحة ومن مياه البحر. والأبحاث قائمة منذ أمد، لهذه الغاية، بالتعاون بين اسرائيل وبين الولايات المتحدة. على أن العلماء ما يزالون يشككون في إمكان نجاح مثل هذه التجارب. ذلك أن ثمن تكلفة المتر المكعب من المياه التي يتم الحصول عليها عن هذا الطريق سوف يبلغ، في تقدير الخبراء، حوالى ١٢٥ قرشاً سورياً؛ وأشد الباحثين تفاؤلاً يقدرون الثمن بما لا يقل عن ثمانين قرشاً سورياً. ومثل هذا الثمن يمكن أن يقبل إلى حد ما في الاستخدام المنزلي، ولا تصح الفائدة منه في الزراعة. ومع ذلك فالجهود التي تبذل في هذا الميدان واسعة، وكثير من الباحثين يعقدون الآمال الجسام على التقدم العلمي الذي يفوق في سرعته في كثير من الأحيان أكثر النبوءات تفاؤلاً. والرجاء معقود، عند بعضهم، على أن يتمكن العلم وتقدمه من جعل ثمن تكلفة المتر المكعب من ماء البحر الذي أزيلت ملوحته حوالى أربعين قرشاً سورياً، وعند ذلك ـ فيما يقول هؤلاء ـ تحل مشكلة المياه نهائياً. وقد أشار الرئيس الأمريكي في خطابه الأخير إلى المساعدات المالية الضخمة التي ستقدم لهذه الغاية، كما أشار إلى استخدام الطاقة النووية في هذا السبيل.

وفي هذه الإشارة الأخيرة تثوي معانٍ هامة، غير المعاني الظاهرة. فهي تعني أن الولايات المتحدة سوف تعير اهتمامها بعد اليوم للأعمال السرية التي تقوم منذ سنوات في مركز الطاقة الذرية في «ديمونا» (في صحراء النقب). ويزيد من أهمية هذا الموقف الجديد أن الولايات المتحدة لم ترحب من قبل الترحيب الكافي بالاتفاق الفرنسي الاسرائيلي الذي أدى منذ سنوات إلى إنشاء مركز «ديمونا» هذا والذي يستهدف صنع قنبلة ذرية اسرائيلية. وكلنا يذكر أن بن غوريون صرح في عام ١٩٦٠، رغبة منه في التخفيف من امتعاض الولايات المتحدة وانكلترا تجاه هذا الاتفاق، أن مركز ديمونا سوف يقتصر على الأبحاث الذرية ذات الأغراض السلمية الخالصة. ومع ذلك فمثل تلك التصريحات لم تقنع أمريكا فيما يبدو، ولهذا جاء تصريح جونسون الآن وجاءت معه تصريحات المسؤولين والصحف تشير إلى أن اقتراح جونسون يمكن أن يؤدي إلى مراقبة الولايات المتحدة المباشرة لأبحاث مركز ديمونا. لا سيما أن هذا المركز لا يملك القوة اللازمة لتحقيق الأبحاث التي أشار إليها خطاب الرئيس جونسون الخاصة بإزالة ملوحة مياه البحر.

من هنا نرى أن الموضوع معقد، وأن وجهه الفني يخفي وجهه السياسي والحربي، وأن المساعدات الأمريكية لن تقف عند حدود المساعدات الفنية والمالية في هذا المجال، بل ستمتد يوماً بعد يوم لتشمل المساعدات الخاصة بإنتاج الطاقة الذرية من أجل الأغراض

الحربية، لتظل اسرائيل في هذا الميدان تحت وصاية الولايات المتحدة، وتخرج من الوصاية الفرنسية.

على أن أخطر هذه الجهود التي تبذلها اسرائيل في سبيل التغلب على مشكلة المياه هي المحاولات الدائبة لتحويل مجرى نهر الأردن، فالآمال الكبرى هناك معقودة في الواقع على هذا التحويل، وهو الذي يقوى في نهاية الأمر على حل مشكلة المياه في اسرائيل حلاً واسع النطاق كما رأينا. ولهذا تعمل اسرائيل جاهدة في هذا السبيل منذ سنوات. وقد أنجزت المراحل الأولى اللازمة للمشروع ومدت الأنابيب الضرورية، وتحاول الآن الإقدام على المرحلة التالية، مرحلة التحويل. ولن ندخل في تفصيلات المشروع الذي يعرفه الرأي العام العربي ويعرفه الخبراء. والذي أردنا أن نبيّنه هو الأهمية الخاصة التي لهذا المشروع، وما يلعبه من دور حاسم في حياة اسرائيل. فهو الذي ترتجي اسرائيل منه أن يقدم لها حوالى ٥٠٠ مليون متر مكعب من المياه (قد تبلغ فيما بعد حوالى ٨٠٠ مليون متر مكعب). أي أن يقدم الحل الأساسي لمشكلة المياه وما وراءها.

وهكذا نرى بوضوح ـ بعد هذا العرض للواقع الاسرائيلي ـ أن قضية تحويل مجرى نهر الأردن قضية يتوقف عليها اقتصاد اسرائيل وإمكانيات نمائه، وترتبط بها حياة اسرائيل الحقيقية. ومنها تريد أن تنطلق اسرائيل لتجد مخرجاً نهائياً لكيانها الاقتصادي والسياسي، وحلها هو الذي يقدم لإسرائيل الأوتاد اللازمة لتمكين بقائها ولمد هذا البقاء بحيث يطغى على الكيان العربي المجاور.

ومن هنا كانت معركة تحويل مجرى نهر الأردن في نظر العرب معركة تفوق في قيمتها وشأنها معركة عام ١٩٤٨. ذلك أن وجود اسرائيل الحقيقي سوف يتقرر بالدرجة الأولى في هذه المعركة. لقد كانت معركة عام ١٩٤٨ معركة استلاب النبتة، أما معركة اليوم فمعركة الحصول على النسغ اللازم لتبقى النبتة.

وبعد، أين صوت الإنسانية من هذا كله؟ وأين لحن السلام من هذا كله؟ وهل يعني السلم ـ في نظر دعاته ـ أن يحفر العرب حتفهم بظلفهم، وأن يُقبلوا على الموت صاغرين طائعين؟ هل يعني السلام أن يقدموا الهدايا لإسرائيل، من مائهم واقتصادهم وتربتهم، وأن يحملوا إليها، على طبق من ذهب، الخنجر المسموم الذي ستطعنهم به؟

لقد خلق الاستعمار اسرائيل، خلقاً مصطنعاً، وكان طبيعياً أن يكون قوامها زائفاً ووجودها نابياً وسط كيان عربي قامت على جراحه وفي القلب منه. والآن يطلب الاستعمار من هذا الكيان العربي أن يلجأ باسم السلام إلى المنطق التالي: لا وجود لإسرائيل إلا على حساب العرب، وإلا إذا سبحت ضمن الجو العربي واغتذت من مياهه واقتصاده بل وأرضه، وعلى العرب إذن أن ييسروا هذه المهمة لإسرائيل، لأن اسرائيل وجدت، ولأن اسرائيل ينبغي أن تبقى، ولأن وجودها الزائف ينبغي أن يصبح وجوداً حقيقياً. عليهم أن يضموا اسرائيل إلى جسدهم وأن يغذوا سرطانها من أعصابهم ودمائهم!

والاستعمار يعلم، واسرائيل تعلم، أن وراء كل خطوة خطوات، وأن خاتمة المطاف القضاء على الوجود العربي، إن لم يُبطل هذا الوجود ما يأتمرون عليه. إن هذا الاستعمار يعلم أن هنالك وجودين متناقضين لا بقاء لأحدهما مع الآخر، ولا بد أن يزول أحدهما. ومع ذلك فهو يدعو باسم التعايش والسلم إلى زوال الوجود العربي بكل بساطة. فاسرائيل لا تستطيع أن تبقى إلا إذا سرقت مياه العرب وفتحت أسواق العرب وامتدت على حساب العرب، وفرضت في النهاية وجودها على وجود العرب. إنها تريد أن تقلب وجودها المصطنع إلى وجود راسخ طبيعي، ولن يكون ذلك إلا إذا استسلم لها الوطن العربي ودانت لها ثرواته وامكاناته. أما العرب، فمن واجبهم ـ باسم السلام وحق الجوار وحفظ الأمن والطمأنينة في العالم الجريح ـ أن يمكنوا لوجود اسرائيل وأن يفتحوا أمامها السبل والآفاق، وأن يموتوا شهداء الإنسانية والعدل!

وأمام حملات التزييف هذه، وأمام الخديعة الكبرى التي يحاول الاستعمار واسرائيل أن ينسجا خيوطها، لا بد أن تقف البلاد العربية الوقفة التي يمليها الحفاظ على وجودها وشرفها: إنها تعتبر المعركة القائمة معركتها الحقيقية الحاسمة مع اسرائيل، ولا تبيح أن يعيد عام ١٩٦٤ مأساة عام ١٩٤٨ على شكل أعمق وأدهى، وتدرك أولاً وآخراً أن المعركة المائية معركة حربية في حقيقتها، وأن استراق المياه العربية لا يقل خطراً عن استراق الأرض العربية، بل يفوقها. وإذا كانت المعركة غير مستبينة المعالم في ظاهرها وإذا كان بعض جوانبها خداعاً، فإن العرب لا يؤخذون بهذا الظاهر، وهم يعرّون المسألة ويضعونها موضعها الصحيح: إنهم ليدركون أن هذه المعركة التي تسوقها اسرائيل والتي لا تحمل معنى الحرب في ظاهرها، هي المعركة الحربية الكبرى والحقيقية، وهي الجديرة بأن تجند من أجلها جميع القوى. إن موقفهم في هذا موقف لا يتزعزع، موقف من يأبى أن يقاد إلى ساحة القتل خداعاً وتضليلاً، موقف من لا يجادل في أمر فيه حياته أو مماته. إنهم يدافعون عن الإنسان العربي ـ وعن قيم الإنسانية من خلاله ـ ويخاطبون العالم بمثل قول الشاعر القروي:

أما السلام فإننا أعداؤه ... حتى يدين بحبه أقوانا

إنهم أعداء سلام المأساة، سلام تشريد الشعوب، سلام موت اللاجئين، سلام شقاوة الأجيال العربية. إنهم مع الحرب، إذا لم يوجد مركب سوى الأسنة، وإن طريقهم إلى سلامهم الحقيقي هو طريق فرض حقهم المشروع.

إن اسرائيل تريد المياه العربية لتحيا وليموت غيرها، وتريد سرقة ثروات العرب وأرض العرب لتبقى ويزول سواها. إنها وُجدت على حساب العرب، وقوام بقائها التطفل على هذا الوجود وامتصاص مائه وغذائه. ولا بد أن يلفظها هذا الوجود قبل أن تورق من دمائه وترقص على أشلائه. ولن يجرّعها ماءه لتجرعه السم، ولن يغفو أمام السيف المصلت على قدره ومصيره.

وحدة الدم العربي في مصر(*)

أحمد محمد الحوفي

تلك الدماء العربية التي سرت في العراق والشام منذ زمن بعيد قبل الإسلام، ثم كانت أعظم سرياناً بعد الإسلام، طبعت الاقليمين بطابع العروبة الذي لا طابع لهما سواه.

فهل كان الحال كذلك في مصر؟

نعم: وإذا كان هذا الطابع الذي تميز به العراق والشام لم يظهر واضحاً في مصر قبل الإسلام كما ظهر في العراق والشام، فليس السبب انقطاع العلاقة بين جزيرة العرب ووادي النيل، بل مرجعه إلى بعد الوادي عن الجزيرة، لأن علاقة العرب بوادي النيل قديمة جداً، إذ كانت موجات الهجرة تفد إلى مصر عن طريق سيناء وبرزخ السويس، وتفد إلى السودان عن طريق باب المندب.

وقد كان بعض الهجرات إلى مصر سلمياً، لا يتم إلا بإذن حاكم مصر ورضاه، حينما كان حكامها أقوياء، وفي الكتابات القديمة إشارات إلى هذه الهجرات وتلاحقها.

وكان بعضها ممثلاً في جموع كثيرة مغيرة، مثل الهكسوس، وهم الذين سماهم المصريون (شاسو) أي البدو، وكانوا ينتقلون في بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، كما ينتقل بدو العصر الحاضر، وكانت لهم في سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم أزمنة التاريخ. ثم سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر وامتلكوها، وعرفت دولتهم بدولة الشاسو أو البدو، واليونان سموهم هكسوس، والعرب سموهم العمالقة أو العرب البائدة، وهم الذين أخرجهم أحمس من مصر حوالى سنة ١٥٨٠ق.م. بعد أن حكموها نحو قرن ونصف قرن. وقيل إنهم قدموا إلى مصر في أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وما زالوا بها إلى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فقضوا في مصر نحو خمسة قرون.

(*) نُشر في: **الرسالة**، السنة ٢٢، العدد ١٠٩٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤)، ص ٢٠ ـ ٢٢.

ولقد يقرب مسافة الخلاف أن الهكسوس لم يغزوا مصر دفعة واحدة، بل كان غزوهم تدريجياً، واكتسبوا قوتهم بمرور الزمن، حتى حكموا مصر سنة ١٧٣٠ق.م. ولما طردهم أحمس الأول لم يزل نفوذهم الثقافي من مصر، بل استمرت ثقافتهم تطبع الحياة المصرية بطابعها الخاص إلى مدة من عهد الأسرة الثامنة عشرة.

والراجح أنهم عرب، كما قرر ذلك يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلي المتوفى أواخر القرن الأول للميلاد، نقلاً عن مانيثون المؤرخ الاسكندري المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد.

ودليل آخر أن العرب يسمونهم في كتبهم العمالقة.

ثم إن لفظ هكسوس أصله (هيك شاسو)، وكان يظن أن معناه ملوك الرعاة، حتى تبين أن معناه ملوك البدو أو البادية، وهم العرب.

وقد جاء في الآثار المصرية القديمة أن الهكسوس وفدوا من بلاد العرب قديماً.

ولقد كانت علاقة مصر بالفينيقيين ـ وهم عرب كما سيجيء ـ قديمة جداً، ترجع إلى الأسرة الثالثة ـ حوالى ثلاثين قرناً قبل الميلاد ـ إذ كانوا ينقلون إلى مصر خشب الأرز من جبال لبنان، ويعودون إلى بلادهم بحاصلات مصر ومصنوعاتها.

ثم فتح بلادهم تحتمس الثالث (١٤٧٩ ـ ١٤٤٧ق.م.) فصارت جزءاً من الامبراطورية المصرية إلى أن خرجت عليها مع سورية وفلسطين في عهد اخناتون (١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ق.م).

ومع ذلك فإن علاقة الفينيقيين بقيت موصولة بمصر، وكثر وفودهم إليها، واستقروا في كثير من مدنها وقراها، وبخاصة في مدينة منف.

ويذكر هيرودوت وبلينيوس أن الأقسام الشرقية من مصر وخصوصاً المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية قبل زمنهما. ويذكر ديودور أن العرب كانوا يسكنون في المنطقة التي بين سورية ومصر، وفي الأرض الشرقية من مصر المطلة على البحر الأحمر، وأنها كانت آهلة بهم في أيامه ومن قبله. وقد أشار استرابون إلى هذه الحقيقة.

وتفند الكتابات العربية المعينية التي عثر عليها. وأقوال المؤرخين القدماء أن صلات العرب بمصر لا ترجع إلى الفتح الإسلامي، بل ترجع إلى ما قبله بزمن سحيق. على أن العرب كانوا يتجرون مع مصر، وكان رعمسيس الثالث (١٢٠٠ق.م.) ورعمسيس الرابع قد سهلا طرق القوافل بين بلاد العرب ومصر.

ولهذا كثر العرب في قفط، وذكر استرابون أن نصف سكانها كانوا في زمنه (القرن الأول قبل الميلاد) من العرب، لأن مصر ضعفت بعد دولة الرعامسة. وطمع فيها جيرانها. وتوافد إليها العرب بأنعامهم، وسطوا على مدنها كما فعلوا من قبل، ونزلوا قفط وملكوها قروناً.

ولم تكن قفط وحدها هي المعمورة بالعرب، بل كانت مدن كثيرة في صعيد مصر حافلة بهم منذ زمن استرابون إلى القرن الأول بعد الميلاد.

ولم ينقطع هذا الاتصال، حتى إن قبيلة حوتكة نزلت بمصر في العصر الجاهلي بعد نزاع بينها وبين غيرها.

لذلك كله عثر الباحثون في اللغة المصرية القديمة على ألوف من الكلمات العربية، وألف المرحوم أحمد كمال معجماً كبيراً في ذلك، ما زال مخطوطاً.

كذلك تبين من الآثار والنقوش التي عثر عليها حديثاً أن الأنباط كانوا على صلات وثيقة بمصر.

ولما تم فتح الشام تفرق كثير من عرب غسان وعاملة وجذام، وكانوا قد تنصروا، ونزل بعضهم بشمالي سيناء بين مصر وفلسطين، وأقطعهم حاكم مصر الروماني ولاية تنيس (صان الحجر)، وهم الذين انضموا إلى الروم والقبط في مقاومة فتح دمياط.

وحينما افتتح المسلمون مصر أقام بها جنودهم، وتكاثر الوافدون إليها من العرب، وتتابعت هجراتهم، واشتد اختلاطهم وامتزاجهم بمن أسلموا من أهل البلاد.

ويكفي أن نذكر من هذه الهجرات الجماعية ـ غير الجنود الذين أقاموا بمصر، واستوطنوها ـ عدة نماذج:

١ ـ جموع الأمويين وأنصارهم الذين فروا إلى مصر خوفاً من تنكيل العباسيين بهم، ومنهم دحية بن مصعب الأموي الذي ادعى الخلافة سنة ١٦٦هـ. وانضم إليه أكثر سكان الصعيد، وهزموا جيش الحكومة.

٢ ـ عرب الحوف، وهم جموع من قبيلة قيس، كان سبب قدومهم إلى مصر، أن عبيد الله بن الحبحاب عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر، كان من موالي قبيلة سلول القيسية، فكتب إلى الخليفة أن القيسية قلة بمصر، مع أن الخليفة شرفهم، ورفع من ذكرهم، واستأذنه في أن ينقل إلى مصر جموعاً منهم، ليساعدوا على نشر الإسلام، فأذن له الخليفة. فبعث إلى نجد يستحث أفواجاً منهم إلى الهجرة، فقدم أول الأمر ثلاثة آلاف ما بين سنة ١٠٤هـ و١٠٩ هـ (٧٢٧ ـ ٧٣٢م)، وأنزلهم عبيد الله بالحوف الشرقي، ولهذا سموا عرب الحوف.

ولما علم إخوانهم بطيب مقامهم وتحسن حالهم وفدوا إليهم من البادية على دفعات، حتى إن عددهم في آخر عهد هشام بن عبد الملك، بلغ ألفاً وخمس مئة، وصار في آخر العصر الأموي ثلاثة آلاف.

ثم قدم عليهم كثير من قومهم حتى بلغ عددهم في سنة ١٥٣هـ (٧٧٠م) خمسة آلاف ومئتين.

وما زالوا يتكاثرون بالولادة وبالقدوم عليهم، حتى صاروا خطراً على ولاة مصر.

وليس أدلّ على كثرة عددهم من أنهم ثاروا على الولاة مرات فيما بين سنة ١٧٨ و٢١٧هـ (٧٩٤ و٨٣٢م)، ثم أخلدوا إلى السكينة وانتشروا بالدلتا، وامتزجوا بالأهلين امتزاجاً تاماً.

٣ ـ جموع من بني هلال ومن بني سليم، استقدمهم إلى مصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ (٩٧٥ ـ ٩٩٦م) وأنزلهم بالصعيد شرقي النيل، ثم استنفرهم الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م للحملة على المعز بن باديس، وبقي بعضهم في مصر مثل بني عقبة بإسنا وأسوان، ثم عادت هجرات منهم إلى مصر، منها الهنادي والبراغيث الذين وفدوا على مصر في القرن الثامن عشر.

وكذلك استقدم الفاطميون قبيلة سنبس، وهم من طيىء، كانوا ينزلون بفلسطين وكثروا هناك، واشتدت وطأتهم على الولاة، فاستقدمهم اليازوري وزير الخليفة المستنصر، فجاؤوا إلى مصر سنة ٤٤٢هـ (١٠٥٠م)، وأقطعهم البحيرة التي كانت بأيدي قبائل عربية أخرى، وصار لهم شأن أيام الفاطميين بالجيزة حول سقارة، والإمرة فيهم الآن (عصر القلقشندي ٧٥٦ ـ ٨٢١هـ) للخزاعلة في بني سويف. ومقرهم في مدينة سخا بالغربية.

وقد أقامت هذه القبائل في مصر واندمجت بالسكان في الصعيد والدلتا، واحترفت الزراعة والرعي والتجارة.

فلما قطع الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) مرتبات الجنود التي كانوا يتقاضونها من خزانة الدولة اضطر الجنود الذين كانوا بمصر أن يكسبوا أرزاقهم من الزراعة والتجارة، فنشأ عن هذا تفرقهم في أصقاع مصر، وازدياد امتزاجهم بالأهلين، كما امتزج القيسيون وغيرهم من قبلهم.

ولا تزال ذراري هذه القبائل العربية منتشرة بمصر إلى اليوم، مثل أولاد علي بمحافظة البحيرة، والمعازة بالصحراء الشرقية، والحرابي بمحافظة الفيوم، والحويطات بالمطرية، وجهينة بالصعيد، والحوفية بمحافظة البحيرة، وكثير من أمثالها تحتفظ بأصولها وأنسابها العربية.

القومية العربية.. ومؤامرات التخريب(*)

محمد جلال كشك

في عشية الحرب العالمية الأولى، وبالذات خلال العدوان الايطالي على طرابلس الغرب، أيقن العرب أنه لا أمل في الترك، بل إن استمرار ارتباطهم بـ «الاتحاديين» (حكومة وجماعة الاتحاد والترقي الحاكمة في الآستانة) يعني تسليم آسيا العربية للاحتلال الأوروبي.

وهكذا تحقق العرب من أن هؤلاء الحكام الجدد، الذين استقبلوا بأعظم الآمال وأصدق الإخلاص، والذين خلعوا عبد الحميد، وبدأوا لعبة البرلمان الممسوخة والمشوهة، إما عملاء صرحاء للاستعمار الغربي، وإما مرضى بهذا الاستعمار، قد وصل سمّه إلى نخاعهم فشوّه تكوينهم، وأفسد تفكيرهم، حتى أصبحوا يرون الترياق في سمه، والدواء في ما يرميهم به من داء وبيل. وتمزقتهم العمالة أو التبعية الروحية، ما بين محور ألمانيا ـ النمسا أو بريطانيا ـ فرنسا ـ روسيا، وبين الجماعات المعادية للإسلام مثل الماسونية والصهيونية ويهود «الدونمة».

لقد كانت سلطنة عبد الحميد، على تخلفه وظلمه واستبداده ـ الذي فاقه استبداد الاتحاديين ثم الكماليين ـ رغم ذلك كانت سلطنة عبد الحميد تقاوم، ولو بالنية، الغزو الاستعماري وترفض التفرقة بين عناصر الأمة، وخاصة بين الترك والعرب، بل إن السلطان عبد الحميد قد نفى دعاة العصبية التركية وحرص على أن تضم حاشيته عدداً كبيراً من العرب.. فلما جاء الدستوريون وضعوا في وزارتهم ثلاثة من اليهود ووزيراً عربياً واحداً، ثم أبعدوا الوزير العربي.. وثاروا لأنه عين أربعة موظفين في وزارة الأوقاف من بين ٥٠٠ موظف.. وأنقصوا عدد الموظفين العرب في وزارة الخارجية عما كان عليه الحال أيام عبد الحميد، ولأول مرة بدأ تقسيم الناس وفقاً لجنسياتهم ووضع رمز (ع) أمام العرب الذين اختصوا بكراهية عصابة «الاتحاد والترقي».

(*) نُشر في: **الرسالة**، السنة ٢٢، العدد ١١٠٤ (آذار/مارس ١٩٦٥)، ص ٢٤ ـ ٢٩.

وقد رفض عبد الحميد أن يبيع فلسطين لليهود، ربما بسبب العصبية الدينية، أو لمصلحة سياسية جعلته يفهم أن ذلك يفقده تأييد العرب والمسلمين. فلما خلعه الدستوريون، عاقبوه بأن أرسلوا له نفس اليهودي الذي فاوضه في بيع فلسطين وطرده السلطان.. وهو اليهودي عمانوئيل قره صوافندي؛ أرسلوه ليُبلغ الخليفة قرار الخلع. لم يجدوا سواه[1]، ولكي يبدو المرء مثقفاً عصرياً يجب أن يرى في ذلك مجرد مصادفة وليس مخططاً صهيونياً عريقاً!

وفتح الحكام الجدد أبواب فلسطين لليهود حتى ثار الممثلون العرب في مجلس المبعوثان.

وفتحوا أبواب الدولة للنفوذ الأوروبي. وفرحت بهم أوروبا وعملاء أوروبا.. حتى قيصر روسيا سر جداً لسقوط الحكم الاستبدادي في تركيا وقيام حكم الشورى!.. وكان الترجمان الأول في السفارة الروسية في الآستانة مسيو آندري ماندلستام هو الناصح والمشير الرئيسي لرؤساء جمعية «الاتحاد والترقي» (العرب والترك.. توفيق برو).

ولا ندري ما دام هذا هو شعور القيصر نحو الحكم الدستوري، فلماذا لم ينقذ عرشه وعنقه بإقامته في بلاده؟!

وإن كان القيصر قد عزز سروره هذا بالتآمر على اقتسام الدولة في عهد «تركيا الفتاة»، فقد أورد سفير ألمانيا في لندن أنه قد تم الاتفاق على أن تكون حصة روسيا هي الولايات الشرقية وحصة فرنسا: الولايات السورية، وحصة بريطانيا العظمى العراق والمنطقة التي تجتازها سكة حديد ازمير ـ آبدين، وحصة ألمانيا آسيا الصغرى.

وقام الحكم الدستوري في تركيا بكل ما يمكنه لاستفزاز العرب، ودفعهم إلى الانفصال أو اليأس والارتماء في أحضان الحماية الأوروبية.

وكانت هذه الحماية في الانتظار.. كما تلقفوا الحركة الاصلاحية على نطاق الدولة العثمانية، فشوهوها وأجهضوها، وسمموها بأفكارهم، ودسوا فيها بعملائهم.. فقضوا على التطور الممكن، الذي آمن به زعماء الإصلاح منذ الأفغاني.. وهو قيام دولة عظمى عصرية إسلامية تضم العرب والترك تصد عن الشرق الزحف الاستعماري، وتحرر ما وقع منه في شباكه.. فلما تحطم هذا الأمل على يد الاتحاديين، وبدا أن التطور الطبيعي هو خروج العرب بثورة عربية إسلامية تنقل الخلافة إلى العرب وتوحد عرب آسيا في دولة مستقلة مرتبطة تمام الارتباط بعرب افريقيا تحت الاحتلال ومن أجل تحريرهم يسندهم ويشد أزرهم المسلمون في العالم أجمع.. كان المخطط الاستعماري لإفساد الثورة العربية وإجهاضها ثم تشويه معنى القومية العربية يقوم على عدة أسس أهمها في بحثنا هذا:

أولاً: الفصل بين العروبة والإسلامية، مستغلين تخريب الأتراك، وتحويل الثورة ضد الاتحاديين إلى ثورة ضد الدولة العثمانية ثم ضد الخلافة.. بل الانفصال عن

---

(١) انظر: عبد الله التل، **المجاهد الإسلامي**.

الإسلام.. والزعم بأن هذه الثورة تطور طبيعي حتمه نمو القومية العربية وثورتها الوطنية ضد الاستعمار التركي.. مع العلم بأن أية محاولة لتطبيق تعريفات القومية أو الثورة الوطنية على العرب لا تفضي إلى شيء.. ولكن قبل أن نناقش هذا أنقل هنا حديثاً نشر في **روز اليوسف** اليومية سنة ١٩٣٠... جاء فيه:

«نشرت جريدة **الطان** الفرنسية حديثاً لمكاتبها البيروتي عام ١٩١٣ مع أحمد مختار بك عميد شباب بيروت المثقف جاء فيه:

المكاتب: لا شك أنكم تحتاجون في صراعكم بطلب الحقوق العربية المهضومة إلى تأييد الدول الأوروبية سياسياً لحركتكم والعطف عليها.

أحمد بك: كلا، إننا إنما نطالب بحقوقنا الدولة العثمانية، التي هي منا ونحن منها لنتقي هذا العطف الأوروبي، الذي نعلم كل العلم ماذا تقصد به الدول الأوروبية. لأننا نعتقد أن أوروبا ولا سيما فرنسا منذ الفتنة الماضية المعروفة بفتنة الستين تسعى جهدها للرجوع نهائياً إلى سوريا.

المكاتب: يلوح لي أنكم معاشر المسلمين ولا سيما من تعرفت إليهم حديثاً في بيروت والآستانة تكرهون فرنسا لأسباب دينية، وكنت أظن الثقافة الحديثة عندكم تنبو عن مزالق التعصب الديني ولا سيما في هذا القرن.

أوروبا كانت تريد أن تغمر بعطفها الحركة العربية، أما إذا تنبه العرب لما يدبر لهم فهم متعصبون دينياً.. ولا يليق أن يتعصب المثقف وخاصة في هذا القرن!.. الأليق به هو التسامح في دينه ووطنه وعرضه!!..

ثانياً، والخدمة أولاً: حصر الحركة العربية في آسيا العربية، لسببين: **أولهما** أن افريقيا العربية لم يكن من السهل أبداً فصل العروبة فيها عن الإسلام، لا في مصر قلعة الإسلام ولا في المغرب العربي حيث الاستعمار الصليبي المفضوح لا يستطيع أن يخفي طبيعته أو أن يبشر بقومية علمانية مزعومة وهو يمارس الأهداف الصليبية بتعصب يفوق أحلام لويس القديس صاحب الحروب الصليبية.

والسبب **الثاني** أن هدف هذا النشاط الاستعماري كان تقويض الدولة العثمانية في آسيا العربية وتسليمها بالاحتلال الغربي، أما افريقيا العربية فكان قد تم احتلالها بالفعل، فلم تكن ثمة حاجة لتنظيم ثورة عربية بها.. وقد ورثت الحركات القومية منذ انطون سعادة هذا المخطط، فنراها تقصر نشاطها في ما يعرف بدائرة الهلال الخصيب.. أو قد تتجاوزه، ولكنها لا تتخطى قناة السويس إلى أن قامت ثورتا ناصر والجزائر، فإلى ما قبلهما لا نجد نشاطاً لهذه الحركات في افريقيا العربية مع شديد حاجتها إلى حركة عربية وحدوية.. وبعد قيام الثورتين كان وجود هذه المنظمات في افريقيا.. هو غالباً لمعارضتهما وتخريب اتجاهاتهما الإسلامية والوحدوية الصادقة.

ولتحقيق هذا المخطط نشط الاستعمار الزاحف لتجنيد العملاء، وإفساد العقول،

في الداخل عن طريق القناصل والمبشرين والإرساليات والمدارس، والجرائد التي مولها أو أصدرها، بواسطة حملة جوازات السفارات أو الحماية، وبالمستشرقين الذين اندسوا يعدّون التقارير باسم الدراسات عن كل شيء لتعبيد الطريق أمام الأساطيل، وينبشون كل حجر باحثين عن بذور التفرقة فيثبتون أن البربر ليسوا من العرب، وأن اللهجة البربرية لا تنتمي للعربية.. ومن ثم فإن تنصير البربر ممكن وواجب، وأن الإسلام لا يصعد الجبال فهو دين السهول، ومن ثم فإن جبل لبنان يجب أن ينفصل عن عرب الصحراء!.. وأن الأذان عند الشيعة غيره عند السنة، ومن ثم فإن البصرة يجب أن تلحق بحكومة الهند! وأن اللغة العامية في مصر جذورها فرعونية، وجنازة الأربعين عادة فرعونية، لأن التحنيط كان يستغرق أربعين يوماً... (بالرغم من أن هذه العادة موجودة في العراق!!) ومن ثم فمصر ليست عربية، ويجب ألا تشغل بالها بالعرب أو فلسطين... الخ.، الخ.

هذا عن تخريب الداخل، وفي الخارج بتكوين الجمعيات المشبوهة، وبصفة خاصة في باريس التي كانت تعمل منذ سنوات لاحتلال سوريا.. وفي القاهرة حيث رأس الأفعى.. الاستعمار البريطاني، الذي تمرس في التخريب، وعرف من أين يصاب القلب.

على أنه قبل أن نستعرض هذا النشاط المشبوه، يجب أن نقول، إن حركة ثورية سليمة كانت تتجمع فعلاً.. وإن الثورة العربية لو قدر لها أن تتجنب تخريب وتشويه الاستعمار لكانت قد غيرت وجه المنطقة.. ولأن حركة ثورية كانت تتجمع فإن عدداً هائلاً من ذوي النوايا الطيبة، انضموا إليها بل استجابوا وانخدعوا بتغرير المغررين والعملاء.. فبقي لهم حسن النية وإن أخطأهم التوفيق.

ولأن الظرف الذي تجمعت فيه هذه الثورة كان تعساً، فقد تحالف عليهم جهل وإرهاب واستفزاز الحكومة التركية، ثم فاجأتهم الحرب العالمية الأولى، التي قلبت كل الخطط وقضت على أناة العقلاء.. لذا فإن عدداً كبيراً قد استفزه سلوك الترك إلى حد مجافاة الإسلام، وآخرون، وقد أسقط في أيديهم وكان عليهم أن يقامروا قبل أن تنتهي الحرب، وقد خيم عليهم اليأس إزاء التفوق الساحق للحلفاء. ثم إصرار الترك على رفض حتى مجرد إصدار وعد ولو مجرد وعد.. لذلك قبل هذا الفريق المقامرة على جواد الحلفاء رغم معرفتهم بنياته الشريرة، ولكن ما حيلتهم؟! والمقامر اليائس يخسر دائماً..

كل هذا لا يمنعنا من أن ندين العملاء الذين خرجوا بوعي وبقصد، لتسليم آسيا العربية للاستعمار وتخليده في افريقيا العربية.. ولا يمنعنا أيضاً من أن نقوّم الحركات التي قامت خلال الحرب العالمية الأولى، والتي يسميها البعض الثورة العربية.

على أنه يجب أن نعرف، أنه إلى ما قبيل اندفاع العرب إلى الانفصال، وبالذات في الأيام الأولى للحكم الدستوري، كان العرب من المسلمين والمسيحيين يؤمنون بالوحدة العثمانية، بل كان المسيحيون لا يخفون حماسهم لهذه الوحدة.. إلا أن السياسة التركية والخبث الاستعماري قد استطاعا أن يتسللا عن طريق الدين بهدف التخريب.. ويقول

الأستاذ ادوارد عطية في كتابه عربي يحكي قصته: «كان ميل الروم الكاثوليك والموارنة إلى الافرنسيين، وميل الروم الأرثوذكس متجهاً إلى روسيا، والبروتستنت الانجيلكان نحو انجلترا».

ويقول الأستاذ ادوارد في كتابه: «كان السوريون المسيحيون يكرهون السيادة التركية، ويتطلعون نحو التحرر منها، لا بقصد تأليف دولة سورية مستقلة، لأنهم يكونون في مثل هذه الحالة مضطرين لأن يخضعوا لحكم يشكل فيه المسلمون أكثرية ساحقة، وعندئذ يتعرضون حسب اعتقادهم إلى الاضطهاد والظلم. وعليه كانوا يتطلعون نحو التحرر من السيادة الإسلامية بمساعدة دولة أوروبية تطرد الترك من البلاد وتحكم سوريا بدلاً منهم. إن ذلك لم يكن يعد خضوعاً لسيادة أجنبية، ولم يكن الأمر كذلك ما دامت الدولة الأوروبية المسيحية هي من نفس الديانة التي يعتنقونها؟ أليس أهلها اخوة لهم في المسيحية؟».

وهكذا كان الاستعمار يخدع المسلمين باسم القومية العلمانية والثقافة التي ترفض العصبية الدينية، ويخدع المسيحيين باسم الأخوة الدينية وهو عدو الجميع.

ويقول ادوارد عطية إنه «لما زارت المدرعة الفرنسية «جول فيري» مرفأي بيروت وجونيه في أواخر عام ١٩١٢ وعزف البحارة الافرنسيون نشيد المارسيلييز، أخذ الحماس بمجامع القلوب، وانطلقت الهتافات مدوية بحياة فرنسا حامية المسيحيين». وفي عام ١٩٠٥ ألف نجيب عازوري كتاباً باسم **يقظة الأمة العربية في آسيا التركية** دعا فيه لتوحيد الكنائس الكاثوليكية العربية، وحدد الدولة العربية في سوريا والعراق ولبنان ونجد واليمن والحجاز، أي أنه استبعد افريقيا العربية». وقد قالت عنه مجلة **المنار**: «إن دعوته لم تلق صداها في البلاد العربية، لأن نشاطها ومقرها في باريس ولأن صاحبها كان داعية للدول الغربية فرنسا وانجلترا، ولم يخل كتابه من تمجيد لهما، فكان لذلك مجلبة للشك والشبهة».

وظهرت في باريس دعوة لاستقلال سوريا وحدها ممن سموا أنفسهم الجمعية السورية بزعامة نخلة ورشيد مطران.

وعندما أرسل بوانكاره رئيس وزراء فرنسا المدرعة «جول فيري» إلى الشاطئ السوري، وأعلن في مجلس الشيوخ الفرنسي: «لا أرى لزوماً لأن أذكّر مجلس الشيوخ أن لنا في لبنان وسوريا حقوقاً تاريخية تقليدية، ونحن نريد دائماً أن تراعى منافعنا وحقوقنا... [أصوات استحسان]».

وصرح السير ادوارد غراي أمام مجلس العموم البريطاني بأن حكومته «تعترف بمصالح فرنسا في سورية».

وأصدرت الجمعية الفرنسية لدراسات شؤون البحرية والمستعمرات في باريس في نهاية عام ١٩١٢ قراراً حذرت فيه من «المطامع المصرية في سوريا!» وأكدت أنه في حالة

زوال ارتباط سوريا بالدولة العثمانية تؤكد الحكومة الافرنسية رغبتها بعدم السماح لأي سيادة أو حماية، عدا سيادة وحماية فرنسا، أن تحل في هذه المنطقة محل السيادة العثمانية.

فاجتمع في باريس ما يسمى بـ «اللجنة اللبنانية»، وقررت باسمها واسم لجان نيويورك وسان باولو ومصر.. وجوب توجيه كتاب إلى مسيو بوانكاره تشكره فيه على التصريحات التي أدلى بها لدى مجلس الشيوخ الافرنسي!

وعندما بدأ العملاء الترك يسبون العرب لاستفزازهم انبرى للرد عليهم العملاء العرب في باريس ولندن فتزداد الهوة اتساعاً والجرح تقيحاً.

وعندما انعقدت «الجمعية العمومية الاصلاحية» في النادي الاصلاحي في بيروت وضعت مشروعاً لإدارة البلاد العربية، واستطاع بعضهم أن يضعوا فيه بنداً يطالب بخبراء ومستشارين أجانب لهم سلطات كاملة في إدارة البلاد «يتصرفون بها تصرف الحاكم بأمره، ولا مثيل لذلك إلا ما أصبح يتمتع به المستشارون الأجانب في أزمة الانتداب» (توفيق برو).. وينقل توفيق برو عن أحمد عزة الأعظمي أن هذه النصوص لم توضع في اللائحة عبثاً، بل إن بعض العناصر الموالية لفرنسا في بيروت أرادت استغلال الحركة الاصلاحية لخدمة هذه الحكومة، لكي يضمنوا للدول الأوروبية مبدأ مراقبتها لكل فروع الإدارة، وكي يبرهنوا أن السكان بأجمعهم لا يرون إمكان الإصلاح إلا بمساعدة أوروبا.

وفي المؤتمر العربي الأول بباريس استطاعت نفس العناصر أن تقرر «ليس للمؤتمر علاقة بولايات العرب غير العثمانية»، أي الولايات الواقعة تحت نير الاستعمار الأوروبي!! «وإن الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية»، «وهم يودون إسماع مطالبهم وإفهام رأيهم لأوروبا التي تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم»، «وإن الذين ينكرون فضل أوروبا إنما هم مدفوعون إلى ذلك بالأنانية العمياء»، «وإن الذين لا سياسة لهم سيعلمون أن أوروبا ليست هي الغول، وأن الغول هو سوء الإدارة وفساد السياسة».

بعد ست سنوات كان الغول قد التهم الدول العربية كلها.

وقد رفض المؤتمر السماح لممثل مصر بالاشتراك في المناقشات وذهب وفد المؤتمر يبلغ وزير خارجية فرنسا قرارات المؤتمر، فرحب بهم وقال: «إن فرنسا تقبل بكل رضى وسرور أن تكون محامية سورية لدى أوروبا».

ولكن كما قلنا كانت فرنسا تدرك أن هذا التجمع الثوري له جذوره الحقيقية التي يمكن أن تقاوم الطفيليات السامة، لذلك كتب وزير الخارجية الفرنسي إلى قناصله يطالبهم: «يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدة الحركة الإصلاحية العربية لكي تكسبوا قلوب الأهلين على أن تسعوا في الخفاء للقضاء عليها». ويقول الأستاذ توفيق برو: «إنه كان ثمة جماعة من المتفرنسين يحاولون أن يلعبوا في المؤتمر دوراً لمصلحة فرنسا، وإن فرنسا كانت تعلق آمالاً جساماً عليه».

إلا أن تخريب العملاء ما كان ليثمر لولا المناخ السياسي الذي هيأه له الترك.. وكانت الحرب الطرابلسية هي التي فتحت أعين العرب.. فقد وقف المندوبون العرب في مجلس المبعوثان يطالبون بتحصين الولاية ضد الغزو الإيطالي المنتظر حتى أبكوا المجلس!.. وكانت إيطاليا بكل وقاحة وفجور الحضارة الغربية تستعد علناً لاحتلال الولاية العربية، ورغم ذلك رفض الاتحاديون حكام تركيا تكوين فرق حرس وطني من أهالي طرابلس حتى لا تنفصل الولاية! في نفس الوقت الذي قرروا فيه أنها لا تستحق القتال لأنها لا تفيد الخزينة، بل خفضوا عدد قواتهم هناك من أربعين ألفاً إلى أربعة آلاف، وسحبوا سلاح الأهالي قبل الاحتلال.. وسلموا الولاية للنفوذ الإيطالي، فكانوا يعينون الولاة ويعزلونهم طبقاً لطلبات ايطاليا قبل أن تحتلها جيوشها، وكان الصدر الأعظم مقامراً عميلاً لإيطاليا متزوجاً إيطالية.

ومع ذلك فإنه عندما بدأ الغزو الإيطالي، هب العرب جميعاً ومن خلفهم الوطن الإسلامي، وانهالت التبرعات من كل بلد إسلامي، وجاء المتطوّعون من كل مكان، وكانت مصر هي أكثر البلدان تحمساً وإحساساً بخطر الغزو الإيطالي، واندفاعاً في مقاومته، ولم تغرمهم حكمة الفيلسوف لطفي السيد الذي دعاهم إلى الحياد بين قنابل إيطاليا وصدور الليبيين العرب!

لقد كانت أول وأوضح صيحة بالثورة على تركيا أو بالذات على السلطة التركية التي يمثلها حكم الاتحاديين في مواجهة تبعيتها وعمالتها للغزو الغربي.. في محاولتها تسليم الوطن العربي لأوروبا.. عندما أعلن النائب العربي خالد البرازي ممثل حماة في مجلس المبعوثان: «أيها الاخوان شاع في المحافل بأن الصلح سيعقد، ومع أنني واثق بالحكومة وأمين من وجدان رجالها... فلنفرض أنها استحصلت على فرمان بالاعتراف بإلحاق طرابلس الغرب بإيطاليا.. فإنني أقول باسم الأمة العربية، إننا نمسح هذا الفرمان بدمنا ولا نرضى بذلك، ولو لم يبق عربي على وجه الأرض».

«أيها الإخوان إن طرابلس الغرب قد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٣هـ وقد مر عليها نيف و١٣٠٠ سنة في يد الأمة الإسلامية، فهي إذاً لنا بمثابة الروح من الجسد، وعلى ذلك أختم قولي بأن طرابلس باقية وستبقى بيد الأمة العثمانية إلى الأبد».

وخطاب النائب العربي يلخص ما نريد أن نقوله بأن «الأمة العربية» هي «الأمة الإسلامية» والتفرقة دخيلة عليها، وهي قد ارتفعت شعاراتها في مقاومة الغزو الأوروبي الصليبي الاستعماري، وليس ضد الاستعمار التركي المزعوم بحماية أوروبا كما يقول البعض.. وهي إذ اصطدمت بتركيا، فبسبب عمالة حكام تركيا لأوروبا، وليس منافسة هؤلاء لأوروبا في استعمارنا.

وهكذا كان العرب يسعون إلى إنقاذ العروبة والإسلام من الاحتلال الأوروبي.. أولاً بالوحدة مع الأتراك في الجامعة الإسلامية العثمانية، وأخيراً بالثورة على الترك ورفع شعار القومية العربية.

ولكن «الغول الأوروبي» كان يدبر أهدافاً أخرى، أهدافاً عمرها ألف عام، وحقداً دفيناً منذ أن ارتفع صوت بلال بالأذان، فتردد من التركستان لشواطئ الأطلسي ومن أسوار فينا إلى أعماق القارة الأفريقية.

يتحدث لورنس الباحث الانكليزي عن اللحظة التي رفع فيها فيصل راية الثورة فيقول: «ولذلك انهارت الدولة الإسلامية التي طالما عمل على تدعيمها السلطان».. «كنت أرى في الشعوب العربية القوى المستترة ما يفي بغايتنا».

وهو يؤمن بالحركة العربية: «لقد كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر».

ويتحدث عن الوحدة العربية وإعادة أمجاد العرب فيقول: «نحن نعلم أن هذا من عالم الإسلام»، «بل حتى فكرة قيام حكومة عربية في سوريا يرفضه»، وحكومة عربية في سورية أياً كانت الدوافع العربية الكامنة وراءها ستكون مفروضة فرضاً تاماً كأية حكومة تركية أو حماية أجنبية. ويرى السيد لورنس كلمة «سورية» لا وجود لها في اللغة العربية.

وإمعاناً في إذلالنا يكتب لورنس مذكراته ويعترف بتأنيب ضميره لأنه خدع العرب وغرر بهم!.. يقول لورنس ليذل أمتنا: «هذه المتاعب ما كانت لتعني شيئاً نظراً لعدم اكتراثي بما هو جسدي. وإنما هناك الخداع المرهق الذي اضطررت أن أحمل نفسي وزره، وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر مع يقيني التام بأن الوعود التي أطلقناها للعرب لن تكون لها أية قيمة».

«كنت أستغل أثمن ما عند العرب.. حبهم للحرية كأداة من أجل نصرة انكلترا».. «وبالرغم من أن العرب كانوا مخدوعين فقد كانوا يحاربون العدو بكل جوارحهم»، «إن قصة الثورة العربية من أولها لآخرها ليست سوى قصة حياة أو موت بالنسبة للعرب، أما نحن فقد تبنيناها حباً بأنفسنا».

فليهدأ ضميرك الدنس يا لورنس. فأنت لم تخدعنا إلا بالمعنى الذي قاله معاوية رضي الله عنه: «من تخادع لك حتى بلغت منه حاجتك فقد خدعته».

لقد كانت الثورة العربية تتجمع حقاً ولكنها أجهضت، ولم يكن أمام العرب خيار.. منهم من قامر على ألمانيا، ومنهم من قامر على بريطانيا وفرنسا، وخسر الجميع.

لم تخدعنا يا لورنس، ولكن خدعنا أنفسنا عندما أحسنا الظن بالحضارة الغربية.. عندما نسينا أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله.. ونحن نعاهد الله ورسوله أن لا نخدع مرة أخرى، ولن يزيغ أبصارنا بريق يأتي من الغرب.. عدونا الألد مهما تخفى وتنكر..

بقي سؤال.. لماذا القومية؟.. ولماذا الإسلام؟.. لماذا لا نندمج في وحدة إنسانية شاملة؟.. وهل توجد هذه الوحدة؟!.. وإلى حديث آخر.

لقاء الثورات(*)

سهيل ادريس

بالرغم مما تلاقيه الثورة من مصاعب وعقبات، فهي ما تزال تحقق في عدد من أقطار العروبة مكاسب وإنجازات لا بد من مضاعفتها خشية فقدانها.

ذلك أن الرجعية والإقطاعية والرأسمالية تحشد حشودها وتبذل كل طاقاتها للوقوف في وجه المد الثوري الذي اجتاح الوطن العربي منذ أن فجرته الثورة الأم، ثورة ٢٣ تموز/يوليو. وصحيح أنها لن تستطيع أن توقف هذا المد الذي يمضي في اتجاه التاريخ، ولكنها قد تستطيع أن تعيقه وتؤخر تدفقه، فتؤخر بذلك تحقق المجتمع العربي الثوري الذي ننشده. ولا ريب في أن من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها الثورة العربية في مسيرتها الظافرة مهادنة الرجعية والتوهم بأنها قد ترتد تلقائياً عن مواقعها وتترك للتيار الثوري أن يسير طريقه المرسوم.

ولا تزال بعض الثورات العربية مترددة في هذا السبيل، وهي تلتمس بعض المعاذير للتلكؤ والمراوحة، فترتكب بذلك أخطاء أخرى توشك أن تتحول إلى كوارث إذا استشرت وتطاولت. ويرتكب هذه الأخطاء الآن دخلاء على الثورة استطاعوا أن يتسربوا من بعض الثغرات في غفلة عن القيمين الحقيقيين على الثورة. وهم يتبنون من جديد، ولكن بأسلوب مختلف، روح المهادنة مع الرجعية والإقطاعية والرأسمالية، بحجة أن هذه هي الطريقة المثلى للسير المتبصر الرشيد.

ولا شك في أن الروح التي أملت تأييد مؤتمرات القمة العربية كانت روحاً طيبة نبيلة، ولكنها كانت تتغاضى عن حقيقة الصراع المفروض بين الثورية والرجعية. وحين تتراجع الجمهورية العربية المتحدة الآن عن حضور هذا المؤتمر، فإنما تعود إلى إدراك حقيقة هذا الصراع، وتسترد الروح الثورية الحقيقية التي تملي مقاطعة الرجعية، بل العمل للقضاء عليها أو إضعافها ـ على الأقل ـ لكف أذاها وتعطيل نزعاتها التخريبية.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ١٤، العدد ٨ (آب/اغسطس ١٩٦٦)، ص ١ ـ ٢.

وكما أن الثورية تؤمن الآن من جديد بأن سياسة المهادنة تجلب أكبر الضرر على القضية، لأنها «ترد الاعتبار» للقوى التي ينبغي محاربتها وتمنحها مجال العمل الواسع للدس والتآمر والوقيعة، فعليها أن تؤمن بأن لقاء الثورات هو البديل الوحيد القادر على الصمود والمقاومة.

وصحيح أن الخلافات بين الأنظمة الثورية العربية تبلغ أحياناً حدود التناقض، ولكن الروح التي تحرك هذه الأنظمة جميعاً تبقى متشابهة في أنها تهدف إلى التغيير الجذري الذي يريد خلق مجتمع عربي جديد يقوم على الحرية والاشتراكية والوحدة. وهذا القاسم المشترك جدير به أن يرسي قاعدة تفاهم كبرى بين هذه الأنظمة، تذيب الخلافات وتصهر الفروق وتوجه خطاها في درب واحدة.

إن الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية العراقية والجمهورية الجزائرية والجمهورية اليمنية مدعوة اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى اللقاء على الروح الثورية التي تحركها وترسم اتجاهاتها. وليس طريقها إلى النصر أن تعمل فحسب على تحقيق أهدافها الثورية وغاياتها التقدمية، بل إن تصف الطريق إلى النصر أن تسعى للقضاء على الأنظمة الرجعية والإقطاعية والاستبدادية التي تعطل المسيرة العربية كلها. إن المجتمع العربي الجديد كل لا يتجزأ، فأي تخلف يصيب أي جزء من أجزائه يخلف أثراً عميقاً على سائر الأجزاء قد يشل كل شوق له إلى التقدم والتطور. وما فتئت الأحداث والتجارب تزيدنا اقتناعاً بأن بلوغ الغاية من الثورة لن يتم إلا بالقضاء على معوقات الثورة، لا في الجزء الواحد الذي شهد مولد هذه الثورة، بل في الأجزاء الأخرى التي تقاوم المد الثوري وتعمل على إحباطه.

ولقد أثبتت الوقائع، من جهة أخرى، أن سياسة «التعايش» بين الأنظمة المختلفة في الوطن العربي تؤدي في آخر المطاف، إلى عكس ما وضعت له. فإن الأنظمة الرجعية تنتهز هذه الفرصة لتدعم مواقعها وتعزز استحكاماتها بتأييد من القوى الأجنبية الاستعمارية التي يهمها أن يبقى هذا الخلاف قائماً، فينتج عن ذلك أن الأنظمة التقدمية تخسر بمقدار ما تربح الرجعية. ولن تكون حجة كافية تلك التي تتخذ ضرورة العمل الموحد من أجل فلسطين مبرراً للتعايش والمهادنة، لأن العمل من أجل فلسطين يتطلب قبل كل شيء روح الثورة التي تفتقدها الأنظمة الرجعية.

ومعنى هذا كله أن روح «القمة» قد أخفق في بلوغ ما يصبو إليه، لأنه تناسى أو تجاهل روح «القاعدة» الشعبية، هذه القاعدة التي أصبحت الآن، منذ كارثة فلسطين، قاعدة ثورية واعية تفرض الاتجاه على الحكام، ولا تنتظر أن يملي الحكام عليها اتجاههم.

إن لقاء الثورات هو الذي يستجيب لروح القاعدة الشعبية، لأنه فيما هو يحقق أهدافه الخاصة، يعمل على عزل قوى الرجعية والإقطاع، ومن ثم على تفتيتها بحيث يسهل الانقلاب عليها وإخضاعها. فلتتناسَ الثورات العربية خلافاتها الجانبية، ولتلتقِ في الوطن العربي [كله] على روح الثورة الصاعدة، محررة الشعب العربي من جميع أنواع تخلفه!

بين الخرافة والحقيقة(*)

عبد الله عبد الدائم

خرافة الصهيونية وحقيقة العروبة: هاتان هما حلبتا المعركة قبل ولادة إسرائيل وبعد ولادة اسرائيل.

فهل تنتصر الخرافة على الحقيقة، وهل تلبس الخرافة ثوب الحقيقة وتتردى الحقيقة فتلامس الزيف؟

المسألة كل المسألة أن تستطيع الحقيقة تعرية الزيف، وأن يقوى الحق على أن يكون حقاً.

فالزيف لا يتراجع طائعاً أمام الحقيقة، لأنه زيف. والمزيف ماض في لعبته عازم على جريمته، سعيد بباطله، ضاحك ملء فيه، ما دام سحره قد فتك، وما دام كيده قد أفلح، وما دام الحق قد أكدى.

والحق أضعف من الزيف، ما دام مطمئناً إلى حقه اطمئنانه إلى عصا سحرية تغير الأمور سهواً رهواً، مؤمناً بنصره إيمانه بما في المثل الأعلى من إعجاز.

للباطل الغلبة على الحق، ما دام الحق يظن أنه قوة تعمل بنفسها، وأنه أمر مستبين بذاته، نور يضيء الظلمات.

الباطل عنيد مثابر، لأنه يحيا من إمعانه في باطله، ويقوم وجوده على الجهد والعناء في سبيل توكيد الزيف وإطالة اللعبة، وطمس الجريمة.

والحق قد يستكين، وقد تأخذه العزة، وينال منه الغرور، فيكتفي بحقه من أجل توكيد حقه ويرى أن نور الشمس لا يحتاج إلى برهان وأن النصر مكتوب له لا محالة.

أجل، تلك هي المعركة: صهيونية زائفة، توسلت بكل وسائل الخداع، وأيدت

(*) نُشر في: المعرفة، السنة ٥، العدد ٤٩ (آذار/مارس ١٩٦٦)، ص ١ ـ ١٩.

خداعها بالعلم والعمل والدأب، في سبيل خلق أمة وخلق كيان لتلك الأمة.

وقومية عربية عميقة الأصول والجذور، لها جميع مقومات الوجود المشترك وعناصر الوحدة المتينة وخصائص الشعب العريق التليد، تعجز حقيقتها الواحدة العميقة عن أن تنقلب إلى واقع حي، ويقصر وجودها عن مداه، ولا تدرك قواها غايتها فتلفي نفسها ضعيفة أمام باطل غيرها، وتجد قوميتها الصادقة متخاذلة أمام أسطورة الصهيونية.

ولنعد قليلاً إلى الوراء: حركة صهيونية منقوصة، مختلفة الأصول، أرادت بالدأب على ممارسة الكذب وتسليحه بالفكر والذكاء، أن تخلق قومية موهومة، «أسطورة» قومية، على غرار ما أراد المفكر النازي روزنبرغ. زيفت كل شيء: حقائق التاريخ، وأقوال التوراة، وأهداف الديانة اليهودية، لتخلق في عقول اليهود وهماً يشتد ويتزايد ويصدّق نفسه، وهم الشعب اليهودي الموحد، المنتسب إلى أصل واحد ودين واحد، الجدير بتكوين أمة واحدة، وكيان سياسي واحد.

لجأت إلى التاريخ، لتحميله ما لا يحتمل، ولتتقول عليه، زاعمةً أن لها حقوقاً تاريخية في فلسطين، مدعية أن يهود العالم المبثوثين في أرجاء الأرض هم من سلالة أبناء داود وسليمان ومن نسل بني اسرائيل القدماء.

لم تأبه لحقائق التاريخ تحدثنا عن أن بني اسرائيل القدماء طرأوا على فلسطين وهي مأهولة بسكانها الكنعانيين العرب والسوريين والفلسطينيين، وأنهم خرجوا منها قبل ألفي سنة. وأن فلسطين لم تخلص لهم سكناً ولا حكماً قط حتى في أزهر أيامهم، وأنهم كانوا لها غازين، يحتلون بعض أجزائها ردحاً من الزمن ثم يطردون منها خاسرين. تجاهلت أن فلسطين ظلت كنعانية عربية حتى عام ١٠٠٠ق.م.، وأن دولة اليهود التي أرادت أن تحتل فلسطين لم تعمر إلا أربعة قرون (١٠٠٠ ـ ٥٨٦ق.م.) حافلة بالاضطرابات والحروب الداخلية والخارجية، وأن غزوات أخرى غير غزوات اليهود مرت بفلسطين، إذ غزاها الفرس الإيرانيون (عام ٥٣٩ق.م.) وألحقوها بدولتهم خلال قرنين، وغزاها الاسكندر المقدوني (عام ٣٣٢ق.م.) وأتبعها لدولة الإغريق، وغزاها العرب الأنباط (عام ٩٠ق.م.) وظلت تابعة لعاصمتهم البتراء حتى احتلها الرومان. وتجاهلت فوق هذا وقبل هذا أن العرب المسلمين حرروها من حكم الرومان (عام ٦٣٦م)، وطبعوها نهائياً بالطابع العربي الخالص لغة وديانة، فتعرب سكانها الأصليون، وهم من سلالات الكنعانيين العرب أو من غزاة المهاجرين والغزاة المندمجين فيهم، ودانوا بالإسلام، وظلت فلسطين عربية خالصة شعباً ولغة وديانة، حتى عام ١٩١٨ حين احتلها الانكليز.

وأضافت إلى تحريف التاريخ وخرافة التاريخ، خرافة العنصر اليهودي، فلجأ هرتسل ووايزمن وغيرهما من مؤسسي الصهيونية إلى إقناع اليهود بالعنصرية اليهودية، رغم إيمانهم الكامل ببطلانها في نظر العلم والتاريخ. لقد زينوا لليهود أن يهودي اليوم ينحدر من أولئك اليهود الأقدمين الذين سكنوا الأرض المقدسة يوماً من الأيام، وتناسوا أن النظرية العرقية العنصرية نظرية باطلة من أساسها، وأن معظم الفئة القليلة المستضعفة التي بقيت

من اليهود بعد ضربة الرومان، في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد اعتنقت المسيحية واندمجت مع السكان الآخرين، ثم اندمجت في الإسلام والعروبة، وأن معظم الذين تشتتوا في أنحاء سورية ومصر وشمال افريقية واستطاعوا أن ينجوا من المذابح في عهد الرومان اعتنقوا الإسلام واندمجوا في الإسلام والعروبة، وأن الذين بقوا على يهوديتهم بين الأقوام الأخرى في آسيا وافريقيا وأوروبا اختلطت دماؤهم بدماء هذه الأقوام، بل تناسوا فوق هذا أن كتلاً كبيرة من أصل آري في آسيا وأوروبا اتخذت اليهودية ديناً، سواء قبل ميلاد المسيح أو في حقب التاريخ المختلفة[1].

لقد زيفت الصهيونية هذه الحقائق كلها، وأغمضت عينيها عن اختلاط دم اليهود بدماء الأقوام التي عاشوا بينها، وتجاهلت أن الدم الاسرائيلي القديم قد باد أو كاد، وأن يهود اليوم شتات من أجناس ولغات ودماء متباينة، وأن الدين اليهودي، وهو الرابطة الوهمية التي تجمعهم، أعجز من أن يلمهم حول هدف واحد، وأضعف من أن يؤمن به جميعهم.

لقد كانت مهمة الصهيونية مهمة خلق تاريخ على غرار أغراضها، وقومية على شاكلة أهدافها، ودين يخدم مآربها اللادينية، لتجعل من هذا كله أداة لتحقيق كيان سياسي لها.

ويأتي الواقع قبل خلق اسرائيل وبعد خلق اسرائيل، ليكذب المزاعم، وليفضح الزيف، ولكن الزيف يمضي في جولته ويتسلح لها بزيف أكبر فأكبر: لقد أعلن هرتسل نفسه عام ١٩٠٣، وهو الصهيوني الأول، وصاحب كتاب **الدولة اليهودية** أنه يؤيد الاقتراح البريطاني الذي تقدم به وزير المستعمرات جوزيف تشمبرلن والقاضي بإنشاء وطن قومي لليهود في مقاطعة أوغندة الافريقية. وعارضه في ذلك يومها وايزمن وصهيونيو روسيا خاصة، وانقسم أعضاء المنظمة الصهيونية أمامه شيعتين، شيعة مؤيدة وشيعة معارضة. أفلا يقوم هذا دليلاً قاطعاً على أن مسألة الصهيونية مسألة خلق أيّ كيان سياسي لليهود، وأنها في حقيقة أغراضها لا تمت بصلة إلى حق تاريخي في فلسطين، وأن تخير فلسطين كان من قبيل توكيد الزيف، وتسهيل الأغراض السياسية عن طريق مزاعم تاريخية ودينية؟

غير أن الزيف تابع جولته، وأراد أن يوهم اليهود والرأي العام العالمي أن القضية قضية تاريخ ودين وشعب وعودة.

وتتحقق العودة، وتخلق الصهيونية العالمية والدول الاستعمارية دولة اسرائيل، فيأتي الواقع من جديد مكذباً مزاعم الصهيونية.

---

(١) انظر بصورة خاصة: محمد عزة دروزة، **تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم وأحوال وأخلاق ومواقف اليهود وفي عصر النبي ﷺ وبيئته من القرآن الكريم**، طبعة جديدة (بيروت؛ صيدا: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٩).

اسرائيل التي حاولت الصهيونية خلقها باسم يهود العالم وبمساعدة يهود العالم، تلقى عنتاً وأي عنت في تهجير يهود العالم إليها! لقد جاء الواقع الصارم ليكذب الأسطورة. لقد كانت الأسطورة سهلة ما دامت تعيش في الأذهان، حتى إذا انتقلت إلى الأعيان، بدأ زيفها يتضح. يهود الولايات المتحدة الذين أيدوا اسرائيل وقدموا من أجل خلقها جهوداً جبارة ولعبوا بالسياسة الأمريكية في سبيلها، وضغطوا على رؤساء الجمهوريات من أجلها، لا يهاجر منهم إلى اسرائيل أكثر من ثلاثة آلاف! واليهود الشرقيون يؤلفون حوالى ٤٥ بالمئة من مجموع السكان في اسرائيل، وجميعهم تدفقوا من العراق واليمن وشمالي افريقية وسورية ولبنان، حيث كانوا يعيشون آمنين مطمئنين قبل خلق دولة اسرائيل، ثم اضطروا بعد ذلك، بسبب سياسة اسرائيل إلى مغادرة بلادهم. ويهود العراق وحدهم الذين هاجروا إلى اسرائيل نتيجة السياسة الصهيونية يؤلفون حوالى عشر سكان اسرائيل. ولا يفوقهم في العدد إلا يهود بولونيا ورومانيا! وهؤلاء اليهود الشرقيون جميعهم يلقون خسفاً في المعاملة وتمارس الدولة ضدهم تدابير عنصرية، حتى انهم اضطروا في تموز/ يوليو عام ١٩٥١ إلى القيام بتظاهرة كبرى في تل أبيب احتجاجاً على سياسة التمييز والتفرقة!

فأين هي القومية اليهودية إذن؟ وأين هم أولئك اليهود، ورثة بني اسرائيل وخلفاء يهود فلسطين القدامى، الذين زعمت الصهيونية أنها تنشئ كيان اسرائيل من أجلهم وحفاظاً على حقوقهم؟ إن أكثر من عشرة ملايين يهودي ما يزالون خارج اسرائيل، وسيظلون خارجها. وان نداءات زعماء الصهيونية، من بن غوريون إلى غيره، واستصراخهم ضمائر اليهود ليعودوا إلى اسرائيل، تذهب أدراج الرياح، وتذهب معها الأسطورة الكبرى، أسطورة الشعب العريق، الشعب الموحّد، الشعب الحافظ لقوميته، الحريص على حقه التاريخي كما زعمته الصهيونية.

إن اليهود المشردين أنفسهم، ضحايا الاضطهاد النازي، اليهود الذين كانوا يعيشون في مخيمات بالمنطقة الأمريكية من ألمانيا، عام ١٩٤٨، وعددهم مئة ألف مشرد، لم يطلب العودة منهم إلى فلسطين إلا نصفهم وآثر الباقون الهجرة إلى بلاد أخرى غير فلسطين، بل إن بن غوريون يضطر في تموز/يوليو عام ١٩٤٨ أن يخاطب بني جلدته قائلاً: «إن أجيالنا السالفة لم تتحمل الاضطهاد والآلام لكي ترى ثمرة جهادها منحصرة في جمع ٨٠٠ ألف يهودي فقط في إسرائيل!».

ويستمر الزيف مع ذلك، وتستمر الأسطورة، ويجلو حوالى مليون عربي عن ديارهم ويهيمون في الآفاق، من أجل عدد من اليهود لا يربو عليهم كثيراً (إذا طرحنا اليهود الشرقيين الذين اضطروا إلى مغادرة بلادهم اضطراراً بسبب السياسة الصهيونية). ويريد هذا العدد القليل النازح أن يمثل روح اليهودية وتاريخها وأمجادها ومصيرها، يريد أن يتحدث باسم يهود العالم، يريد أن يسخر سياسة العالم لمصلحته، يريد أن يقيم الدنيا ويقعدها من أجل حفنة من المهاجرين، من أجل موطئ قدم لصهيونيي العالم، يأنسون إليه

حينما يشاؤون، وتلذ أعينهم رؤيته!

والزيف مع ذلك ماض في غيه، يخلق الأسطورة تلو الأسطورة، ويذكي الأوهام والتخرصات، ويحدث يهود العالم والرأي العام العالمي عن أمجاد طريفة لإسرائيل تضاف إلى أمجادها التليدة. يحدثها عن انتصاراته المزعومة، يحدثها عن معجزة خلقه لإسرائيل، عن بلائه في معركته مع العرب عام ١٩٤٨، عن السحر الأكبر في زعمه، سحر الانتصار في معركة سيناء عام ١٩٥٦، عن بطولاته الكبرى الدائبة في السلم والحرب! ويحدثها فوق هذا وقبل هذا عما يلقاه من عنت العرب، من عدائهم، من هجماتهم الظالمة، من نكرانهم لروح اسرائيل الطيبة، روح السلم والإخاء والمحبة، روح الاسهام في تنمية الشعوب عامة والشعوب الصغيرة والمتخلفة خاصة، روح العمل المشترك في سبيل بني الإنسان!

تعج كتب اليهود وأسفارهم بالعداء الصارخ لغير اليهود. ويمتلئ تراثهم الفكري بالدعوة إلى الانعزال والتميز والكره والحقد للشعوب. وجميع الشعوب التي عرفت اليهود وأسكنتهم بلادها خلال قرون طويلة، عانت ما عانت من روح اليهود الحاقدة الكارهة المستعلية ومن استغلالهم البشع الجشع. ومع ذلك يتقبل الرأي العام العالمي ـ ما دام هذا على حساب العرب ـ أسطورة الشعب اليهودي المحب للسلم، المتعاون مع الشعوب الأخرى، العامل في سبيل الإنسانية جمعاء، الحريص على التعايش مع جاراته العربيات!

أما ما يقوله التلمود، وهو شريعة اسرائيل الكاملة وسجل تعاليمها وآدابها، وما يحفل به من تأكيد لمبادئ اليهودية في الاستعلاء والانعزالية والعدوان، فلا تصيخ له آذان الرأي العام العالمي:

«الأجانب ـ أي غير اليهود ـ كلاب».

«الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير».

«سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم».

«إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر».

إن التوراة نفسها، كتاب اليهود المقدس، رسمت لليهود طريق الخلاص، فأوصتهم بالغزو والقتل وسفك الدماء دون تمييز بين محارب وغير محارب، بين رجل وامرأة، بين شيخ وطفل، وجعلت مثل هذا المصير مصير البشر من غير اليهود، وجعلت الاستعباد والإبادة نصيب البلاد التي أهداها رب اسرائيل لشعبه المختار، من مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات...

ورغم هذا كله، تحاول الصهيونية، التي أرادت أن تبعث تعاليم اليهودية وتربط بين اليهودية كدين واليهودية كقومية، أن تظهر بمظهر الحمل الوديع الذي تتكاثر عليه الذئاب.

رغم هذا كله تسري الأسطورة، وتمتد وتشتد، ويستمر الزيف، ويتذرع كل يوم بزيف جديد.

من قلب هذا الزيف كله خلقت الصهيونية قوة. لقد استخدمت في سبيل توطيد أركان الخرافة عبقرية العلم الحديث فجندت كل ما يمكن تجنيده في سبيل الوصول إلى أهدافها، وفي سبيل خلق دولة اسرائيل. وبعد خلق الدولة عبأت القوى من أجل بنائها وتدعيم كيانها، فامتاحت من العلم والتكنيك خير نتائجهما، وسخرتهما في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وعنيت خاصة بثرواتها البشرية، فنظمتها من أجل الهدف المشترك، وأفادت من خبرتها وفنها من أجل التغلب على الصعوبات العديدة التي تلقاها، وجعلت رائدها الأول تفجير الكفاءات والخبرات، بحيث تقوى على مواجهة الظروف الصعبة التي وجدت فيها دولة اسرائيل، وبحيث تذلل العقبات تذليلاً ذكياً مسلحاً بكل ما في العلم من قدرة على الابداع والعطاء. لقد انطلقت من تلك الحقيقة وهي أن أقوى أداة يملكها الإنسان في معركته ضد الطبيعة وضد الظروف المحيطة به، هي الإنسان، نعني قواه الذاتية المبدعة، وطاقاته الخلاقة. وأدركت منذ البداية أن تكوين «رأس المال» البشري الخبير المزود بالمهارة والمعرفة، هو نقطة الانطلاق الأساسية لكل بلد يريد أن يسير في طريق النمو. وقر في يقينها أن «العقل الرائد»، العقل المبادر إلى غزو الطبيعة والأشياء، المزود بجرأة المعرفة وقوة العلم والفن، هو أثمن ما يمكن أن تمتلكه أمة.

وهكذا رسمت دولة اسرائيل الزائفة طريقها، خطوة خطوة، وحددت أهدافها مرحلة مرحلة، وعزمت على مواجهة العقبات بسلاح الإيمان بالهدف والإيمان بقدرة العلم والفن الحديث. لقد أدركت فيما أدركت أن نقطتي الارتطام الكبيرتين في حياتها هما الماء والطاقة الكهربائية، وأنهما يعوزانها بالدرجة، فأعدت الخطط للتغلب على هاتين المشكلتين، وانطلقت في طريق استغلال المياه أوسع استغلال ممكن، وسارت في مشروع تحويل نهر الأردن، وعقدت البحوث ـ بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية ـ في سبيل إزالة الملوحة من مياه البحر. وتصدت لمسألة الطاقة الكهربائية وغيرها فقدرت حاجاتها منها ـ لا سيما من أجل الصناعة ـ ورسمت الخطط في سبيل تجنيد العلم تجنيداً عنيداً للافادة من الطاقة الذرية، بل راودها التفكير جاداً في استغلال أكبر مصدر للطاقة، نعني الطاقة الشمسية.

وأدركت في ما أدركت أن مسألة الصحراء ـ صحراء النقب ـ تتحدى اسرائيل، وأن اسرائيل بين أمرين، على حد قول بن غوريون: إما أن تمحو الصحراء، وإما تمحوها الصحراء. ولهذا عبأت كل قواها وإرادتها في سبيل التغلب على جفاف النقب، وفي سبيل الافادة من الثروات المعدنية في صحراء النقب وفي البحر الأحمر الواقع في جنوبها، وفي سبيل تيسير المواصلات فيها لتكون همزة الوصل بين خليج العقبة (قناة السويس الاسرائيلية) وبين اسرائيل.

وبوجيز العبارة، استطاعت الأسطورة، أسطورة اسرائيل، أن تخلق الدولة وأن

تقوي بنيتها، حين جعلت هدفاً لها أن تمسك السلاح بيد تغزو به جيرانها، وأن تمسك المعول باليد الأخرى، وأن تسخر العلم والعقل الرائد المنقب في سبيل استخراج ثرواتها عامة، واستغلال ثروات النقب الدفينة خاصة.

ولم تقف الأسطورة عند هذا الحد، بل جندت مهارتها السياسية في سبيل تعميق الزيف الذي انطلقت منه، فلعبت ألاعيبها في المجالات الدولية ولدى الدول الكبرى، وانطلقت تعدو نحو زيف جديد براق: انطلقت صوب الدول الآسيوية الافريقية خاصة تزين لها سلامة أهدافها، وتزعم أنها المؤهلة لأن تقدم لها من الخدمات الاقتصادية والعلمية والفنية ما لا يقوى غيرها على فعله. فهي دولة صغيرة مثلها عانت وتعاني من مشكلات الدول الصغرى وتستطيع أن تضع تجاربها وخدماتها والنتائج التي توصلت إليها في خدمة تلك الدول. وهي بعد هذا ـ في ما تزعم لتلك الدول الافريقية ـ دولة لا مطامع لها، وما هي بالدولة الكبرى التي تخشى مساعداتها. وجل همها ـ كما تقول بلغة الحمل الوديع ـ أن تقدم الخدمات الإنسانية للدول الصغيرة المستقلة حديثاً وأن تفعل لها بوجيز العبارة ما فعلته لنفسها. وهكذا نجد اسرائيل ـ عن طريق هذا التزييف الجديد الذي تلجأ إليه ـ تضع بين أهدافها الكبرى خلق صلات بينها وبين شعوب آسيا وافريقيا، تمكنها من الخروج من عزلتها وتفتح لها أسواقاً اقتصادية، بعد أن أقفلت من دونها الأسواق الاقتصادية العربية. إنها تريد أن تغدو مثالاً وقدوة ـ على حد تعبير بن غوريون ـ لتلك الدول الآسيوية والافريقية، من أجل السيطرة عليها والإفادة منها سياسياً واقتصادياً، وكسب أصوات دولها والحصول على المواد الخام الرخيصة، وتسويق البضائع الاسرائيلية. وقد بلغت في علاقاتها مع تلك الدول حد إقامة علاقات عسكرية، عن طريق إنشاء صلات مع قيادات الجيوش، وعن طريق ارسال مستشارين للإشراف على التدريب، وعن طريق إنشاء منظمات عسكرية في أربع عشرة دولة على غرار المنظمات العسكرية الاسرائيلية، وهي تفعل فعلتها الخطيرة هذه، وهي تعلم حق العلم ـ بل لأنها تعلم حق العلم ـ أن في افريقيا وآسيا ٢٩ دولة إسلامية تضم ما يزيد على ٣٣٦ مليون نسمة، ٧٤ مليوناً منها في افريقيا و٢٦٢ مليوناً في آسيا، وأن في البلدان الافريقية خاصة عدداً كبيراً من أبناء سورية ولبنان يمسكون بزمام التجارة والاقتصاد فيها.

تلك هي الأسطورة، وذلك هو الزيف. إنه قوي بزيفه، قوي بإصراره على الزيف وعزمه على تثبيت أركانه. إن اسرائيل مطوقة بالزيف من كل جانب، ومع ذلك تجند كل ما تستطيع من قوى لتقلب الزيف إلى حقيقة: فالزيف يلفها في نشأتها والزيف يطعنها في قلبها لقيامها وسط وطن عربي متسع يضيق عليها الخناق ويعمل لإزالتها. والزيف يصيبها في بنية سكانها المكونين من شتات غير متجانس في اللغة والأصل والمستوى، بل في المعتقد. والزيف ينال حياتها الاقتصادية المضطرة إلى أن تعتمد على مليارات الدولارات من المساعدات التي تتلقاها من الصهيونية العالمية ومن الولايات المتحدة ومن المانيا الغربية ومن الكثير من الدول. وبوجيز العبارة، إنها عملية تزييف واضحة فاضحة من بدايتها حتى نهايتها: إنها في واقع الأمر لا تكوّن دولة وإنما تكوّن ملجأ مصطنعاً، تلجأ إليه

الصهيونية العالمية، وتحاول أن تمده بالحياة وأن تختلق له الروح وأسباب البقاء. إنها كائن صنعي لا يتنفس هواءً طبيعياً ولا يغتذي غذاءً طبيعياً، وإنما يحتاج دوماً إلى جرع مجلوبة من الهواء والماء والغذاء. إنها كائن طفيلي لا تقوى أركانه إلا بامتصاص مساعدات الدول الأجنبية، وبمحاولة امتصاص ثروات جيرانه العرب أو ثروات البلدان الآسيوية والافريقية.

ومع ذلك تقوم الأسطورة، وتستمر، وتزأر، وتزمجر، وتتقن اللعبة، وتتقن إخراج الدور، وتجذب من تجذب من الرأي العام العالمي.

وأمام هذه الأسطورة تنهض الحقيقة، الحقيقة القوية الضعيفة، الحقيقة الجريئة الخجلى، الحقيقة الواضحة الغائمة، حقيقة العرب، حقيقة الوجود العربي.

لقد تحدت الخرافة هذا الوجود، فمزقته من قلبه، وحققت هدفاً غالياً من أهداف الاستعمار، هدف فصل شمالي العالم العربي عن جنوبه وغربه، وغرس شوكة في قلب البلاد العربية تحول دون اكتمال وحدتها وقوتها.

واهتز الجسم المريض لهول الكارثة وحرضته الجرثومة، فتفجر ثورة ووعياً وعزيمة. ولا نغلو إذا قلنا إن التحدي الاسرائيلي هو العامل الأساسي الراجح في كل ما شهدناه في الوطن العربي من حركات ثورية ومن عزم على بناء كيان جديد منيع، ومع ذلك ما تزال الحقيقة مقصرة عن مداها، وما تزال خطواتها خجولة متأنية متعثرة، وما يزال اطمئنانها إلى حتها أعمق من عملها في سبيل توكيد ذلك الحق، بل ما تزال ثورتها ضد واقعها وضد نكبتها أكبر من عملها المنظم في سبيل بناء الثورة وتعمير الواقع.

فالوحدة العربية التي هي الرد الطبيعي على تحدي اسرائيل والجواب الحاسم على كل أهدافها ومآربها، لا تقوم تهيئة منظمة لها، ولا يقوم عمل يومي من أجلها، وخطو تدريجي نحوها، ولا يلعب التفكير والتدبير والتخطيط دوراً رئيسياً في بنائها، بل كثيراً ما تهبط إلى سوق المساومة، وتتردى إلى شعارات ديماغوجية بالية. وما تزال ألاعيب الاستعمار وإسرائيل تعمل عملها في تشويهها والتشكيك فيها، والحيلولة دون رسوخ أقدامها.

وبدهي أن البلاد العربية جاوزت في الواقع طور الدعاوة إلى الوحدة والتبشير بها والحماسة لها، ولا بد أن تنطلق في الطريق الذي يلبي أهداف المرحلة التي توجد فيها: نعني طريق البحث والدراسة والتخطيط من أجل بناء الكيان العربي الواحد. وغدا من الواضح أن تعميق الإيمان بالوحدة وتعبئة العزائم في سبيلها أمور تحتاج اليوم أولاً وقبل كل شيء إلى توضيح الطريق ورسم السبيل المؤدية إلى الوحدة ووضع الصيغة الواقعية العملية اللازمة. وإذا كانت البلاد العربية في حاجة إلى الخطط العلمية الواضحة في شتى مجالات حياتها الاقتصادية والاجتماعية، فهي أحوج ما تكون إلى مثل هذا التخطيط العلمي في المجال الأكبر، مجال الوحدة العربية.

من هنا كان من الواجب ألا يظل العمل من أجل الوحدة العربية في أيدي السياسيين وحدهم، ولا بد أن يغدو هذا العمل قضية الشعب العربي كله، وعلى رأسه مفكروه وقادة الرأي فيه وخبراؤه. ولا بد أن يطرح هذا الموضوع الهام طرحاً علمياً واضحاً صريحاً جريئاً، في معزل عن الارهاب الفكري الذي تفرضه السياسة. ولا يجوز بحال من الأحوال أن تكون نتيجة اهتمام القادة السياسيين بشعار الوحدة وتبنيهم له تعطيل القوى الحقيقية التي تبني هذا الشعار وتهب له مضمونه وترسم طريقه، قوى الفكر الحر والبحث العلمي الدائب والعمل الشعبي الجاد.

والعجز الذي يقعد هدف الوحدة، يكاد يعمم سائر جنبات الحياة في الوطن العربي، نعني به ضعف روح البحث والدراسة والتنقيب، وضعف الاعتماد على ريادة العقل الحديث.

ومهما تكن العوامل العديدة التي تلعب دورها في تأخير حركة التطور والتنمية في شتى جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي، يظل من الصحيح أن هنالك عاملاً كبيراً يلفها جميعها تصدر عنه وتتفرع، هو عامل التخلف العلمي والتقني. فالبلاد العربية ــ التي أصيبت بتخلف القرون الطوال بعد حكم عثماني مظلم وبعد حكم استعماري مفقر ــ مدعوة إلى أن تلحق بالركب خلال فترة قصيرة من عمرها، ومدعوة إلى التعجيل في تطورها وتنميتها بسبب التحدي الاسرائيلي خاصة، ذلك التحدي الذي أفاد من ضعف بنيتها، فدق في قلبها وتداً. لقد انقطع حبل الحضارة العربية، وانفصل ماضيها عن حاضرها منذ سقوط بغداد على يد هولاكو ودخول أخلاط المغول والتتر والأعاجم وسيطرة الدولة العثمانية المريضة. ولا بد للعرب من معاودة حضارتهم وعطائهم، لا بد من وصل ما انقطع من أمر تلك الحضارة، لا بد من عود جديد إلى روح الحضارة العربية، وأهم ما في تلك الروح الانطلاق نحو البحث العلمي التجريبي الذي كان خير ما أعطته الحضارة العربية للعالم، والذي خلق ما دعاه فانتاغو بالمعجزة العربية. لا بد من عود إلى روح الاستقراء والبحث والتجربة، التي سادت أبحاث «دار الحكمة» ببغداد وخرّجت كبار العلماء في المشرق العربي والمغرب الأندلسي، وكانت العامل الأول في قلب أسلوب البحث المنطقي الصوري الذي كان سائداً في أوروبا، وتكوين أسلوب البحث الجديد الذي ولدت منه الحضارة الحديثة، أسلوب البحث العلمي التجريبي الاستقرائي، الذي يدعوه الغربيون باسم أسلوب «بيكون» والذي يرجع الفضل فيه إلى العلماء العرب، كما يبين راندال وغيره من المؤرخين المحدثين.

ولئن كانت اسرائيل تستخدم عطاء العقل الحديث والعلم الحديث والفن الحديث في سبيل تثبيت كيانها الزائف وفي سبيل التغلب على المشكلات التي خلقها تزييف ذلك الكيان، فالوطن العربي مدعو إلى أن يسخر العقل والبحث والتجربة في سبيل استخراج ثرواته المبذولة والافادة من إمكانيات موفورة قلما تتاح لبلد آخر.

إن نقطة الانطلاق الأساسية في البلاد العربية هي العناية بالثروة البشرية عناية

تجعلها قادرة على استغلال خيرات الوطن العربي استغلالاً علمياً ذكياً. والعائق الأكبر في طريق النمو وفي طريق القوة بالتالي، في هذه البلدان العربية، هو ضعف العنصر الإنساني، ضعف خبرته وكفاءته وعلمه. ولقد غدا من البدهي اليوم أن العامل الأساسي الذي يلعب الدور الأكبر في ثراء شعب من الشعوب وفي زيادة إنتاجه، هو العامل الإنساني الذي يفوق دوره في الواقع دور المال ودور الموارد الطبيعية. فرائد التقدم في العالم، يومنا هذا، هو التقدم التقني الفني، ومحرك الثروة والتنمية هو الطاقة الفكرية للسكان، نعني القدرة على تطبيق نتائج البحث العلمي المنظم على مشكلات الإنتاج وعلى مشكلات الاقتصاد. وإذا كان هذا صحيحاً في كل عصر ومصر، فهو أوضح وأقوى في بلادنا العربية التي تشكو تخلف القرون والتي تحتاج إلى تطور يفوق المألوف في سرعته، والتي تواجه تحدياً اسرائيلياً سلاحه الأكبر هو هذا التقدم العلمي والتقني.

لقد يسر لإسرائيل ما لم ييسر لغيرها من الدول، إذ وجدت نفسها عشية وجودها أمام طاقة بشرية خبيرة مدربة، وفدت إليها من البلدان المتقدمة ووضعت خبرات تلك البلدان وحصاد تجاربها بين يديها. ولا يمكن البلاد العربية أن تواجه مثل هذا التحدي إلا بتعبئة سريعة منظمة للطاقات البشرية وتكوين متعجل واسع لليد العاملة الخبيرة الفنية. ولدى هذه البلدان العربية من الاعداد السكانية الكبيرة ومن الاستعدادات العديدة الموفورة ما يجعل هذه المهمة يسيرة إن جندت لها القوى وسلطت عليها الأضواء.

وإذا كان تكوين العقل الحديث الرائد، والعناية بالعنصر الإنساني وبإعداده وتكوينه، واستخدام نتائج البحث العلمي في مشكلات الإنتاج والتنمية، هي العوامل الحاسمة في تطوير بنية الوطن العربي واستخراج ثرواته وتزويده بالقوة والمناعة، فمعنى ذلك أن المطلب الأكبر الذي ينبغي أن يحتل مقام الصدارة بين سائر المطالب هو مطلب التعليم والتربية. فالتربية هي الأداة اللازمة لتكوين رأس المال البشري، وهي وسيلة الإعداد والتدريب وخلق الخبراء والاخصائيين والفنيين. وقد غدا من البدهي اليوم أن العامل الأساسي في التنمية هو التربية، وما يثوي وراءها من إعداد سليم للطاقة العاملة الخبيرة المدربة، وما يثوي وراء ذلك كله من تقدم تقني وعلمي.

وإسرائيل – رغم ما توافر لديها من اخصائيين وخبراء وفدوا من البلدان المتقدمة – جعلت على رأس مطالبها العناية بالمدرسة، وأدركت أن خير مجال لاستثمار رؤوس الأموال هو ميدان التربية، وأن الأموال التي توظف في التعليم هي التي تعطي ثمراتها أضعافاً مضاعفة في مجال زيادة الدخل القومي وزيادة الثروة القومية. لقد أدركت كما أدركت سائر بلدان العالم اليوم أن إعداد الإنسان إعداداً ملائماً لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية هو العامل الأساسي في التنمية والثروة والقوة، وأن المساعدات المالية لا يمكن أن تكفي البلدان السائرة في طريق النمو، وأن النجاح لا يتم إلا إذا امتلك الرجال الإرادة والعزيمة من جهة، والمعرفة والخبرة من جهة ثانية. لقد أدركت أن استخراج الحد الأقصى من الثروة الزراعية والحيوانية في اسرائيل يحتاج إلى استغلال حصاد العلم وتجاربه

إلى أكبر حد ممكن (كما فعلت في تربية الأبقار وزراعة القطن والحمضيات والفواكه، وزراعة الشمندر، وكما فعلت حين لجأت إلى نظام «الكيبوتز» (Kibboutz) في الإنتاج الزراعي، أو إلى نظام «الموشاف عوفيديم» (Mochav Ovedim) ونظام «الموشاف شيتوفي» (Mochav Chitouffi) أو غيرها من الأنظمة التعاونية). وأدركت أن توفير مياه الري وتوفير الطاقة اللازمة للصناعة وغيرها والإفادة من الثروات المعدنية وإرواء صحراء النقب واستغلالها أمور تحتاج إلى الخبرة والرجال أكثر من حاجتها إلى المال، وتحتاج إلى العزيمة والإرادة كما تحتاج إلى الكفاءة والخبرة.

والدول العربية التي أهمل فيها العنصر البشري ردحاً طويلاً من الزمن وأهملت فيها طاقات الإنسان وقدراته الخلاقة، وأهملت فيها خاصة تلك الثروات الفكرية المبدعة الثاوية في الجمهرة الكبرى من المواطنين الفقراء المحرومين، لا بد أن تجعل مقام الصدارة للعناية بالخدمات التربوية وتوفيرها لجميع المواطنين، وتوفيرها للطبقات الشعبية المحرومة التي تثوي فيها قوى الابداع والعطاء الكبرى. ولا بد أن تدرك خاصة أن هذه الخدمات التربوية ينبغي أن تكون متكاملة مع أهداف التنمية الاقتصادية، وأن بنية التربية لا بد أن تخدم بنية الاقتصاد وبنية المجتمع. فالتربية ـ أي تربية ـ ليست المفتاح الذهبي للنمو دوماً وأبداً، وليست العصا السحرية التي تغير الأمور من تلقاء ذاتها، وهي لا تكون حقاً أداة من أدوات التنمية إلا إذا توافرت لها الشروط اللازمة، وعلى رأسها الصلة الوثيقة بين أهدافها وأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية العامة. وتتوافر هذه الصلة خاصة عن طريق عناية التربية بتكوين الطاقة العاملة الخبيرة الفنية اللازمة لتسيير عجلة الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ومن هنا يبرز إعداد الطاقة العاملة إعداداً متلائماً مع متطلبات الخطة الاقتصادية والاجتماعية. ويتجلى مطلباً أكبر من مطالب التقدم والمناعة في بلادنا العربية. ولا شك أن مثل هذا الإعداد يستلزم جملة من الشروط، منها توافر الدراسات الاحصائية والاستقصائية عن وضع الطاقة العاملة وعددها ووضعها التعليمي وتوزعها على قطاعات النشاط الاقتصادي الكبرى وعلى المهن المختلفة، ومنها العناية بالتعليم الفني والمهني مع كل ما يشمله هذا القول من تغيير أساسي لنظام التعليم ومناهجه وطرائقه، ومنها تغيير موقف الناس من العمل المهني والعمل اليدوي وخلق المواقف الجديدة المدركة لما في العمل المهني من عطاء وخدمة للأهداف العامة، وما في العمل اليدوي من ابداع وتحقيق لوجود الفرد ووجود المجتمع، ومنها تنويع التعليم وتفريعه ولا سيما في مرحلة التعليم الثانوي ومرحلة التعليم العالي، وإقامة هذا التنويع والتفريع على أسس ملائمة لحاجات المجتمع وحاجات الاقتصاد من جهة، ولحاجات الفرد وقابلياته من جهة ثانية، ومنها إشراف وزارة التربية وإشراف الخطة التربوية على كل ما له علاقة بإعداد الطاقة العاملة، سواء كان يجري ذلك في المعاهد والمدارس أو في المهنة نفسها أو في مجالات أخرى، ومنها، بل فوقها، وضع خطة كاملة دقيقة للبعثات العلمية، وتوجيهها التوجيه اللازم، وجعل هذه الخطة جزءاً لا يتجزأ من خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وقد يقال الشيء الكثير في هذا المجال، مجال إعداد الإنسان العربي إعداداً حديثاً

وتكوينه تكويناً ملائماً لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. غير أننا أردنا أن نضع إصبعنا على أهم مفاصل هذا الموضوع، وأن نشير أولاً وآخراً إلى أن رأس مطالب النمو والقوة في الوطن العربي، ورأس أدوات التغلب على اسرائيل، تكوين الطاقة العاملة الخبيرة، تكوين رأس المال البشري، والعناية بالثروة البشرية، مصدر سائر الثروات ومحركها.

إن تعبئة هذه الثروة البشرية من أجل الهدف المشترك، هدف بناء كيان عربي موحد قوي قادر على الخلاص من الجرثومة الزائفة التي حلت في القلب منه، وإعداد تلك الثروة البشرية إعداداً يجعلها قادرة على استخراج ثروات بلدها، مزودة بقوى العلم الحديث والتكنيك الحديث محملة بالعقل الرائد، العقل الجوال، العقل الذي يزول أمامه الصعب ويذلل المستحيل، هما الوسيلتان الأساسيتان من وسائل قوة البلاد العربية، وهما سلاحها الأكبر في وجه عدوها الأكبر. إن تلك التعبئة وذلك الاعداد هما سلاح الحقيقة التي تملكها البلاد العربية أمام الزيف المسلح الذي تملكه اسرائيل. إنهما القادران على قلب الحقيقة الصامتة إلى حقيقة ناطقة حية، وعلى نقل الحقيقة من طور الامكان إلى طور الفعل، من الاذهان إلى الأعيان. إن الحقيقة العزلاء لا تقوى على إثبات حقها، والحقيقة الناجحة اليوم هي الحقيقة المزودة بسلاح العلم والتكنيك، بسلاح العقل المؤمن بالهدف، المدرك للوسيلة، الخبير بالأداة.

وإذا كان تسلح الحقيقة بالعلم والفن والمقدرة خير مفصح وخير داعية لها، فإن من عناصر هذا التسلح دون شك، ومن عناصره الهامة، تعبير الحقيقة عن نفسها وتعريفها بذاتها، والدعوة لها ولأهدافها، لا سيما عندما تكون تلك الحقيقة أمام باطل يريد أن يطمسها وأمام زيف يحاول اخفاءها، ومن هنا تبدو أهمية التعريف بالقضية الفلسطينية، وأهمية الدعاوة لها دعاوة منظمة، منطلقة أيضاً من تجارب العقل الحديث والعلم الحديث.

إن أهم ما مكن لإسرائيل وساعدها على خلق كيانها الزائف، قوة الدعاوة الصهيونية وبلوغ هذه الدعاوة المستوى الفني والعلمي. وما تزال هذه الدعاوة تفتك في عقول الملايين من بني الإنسان، في العالم المتقدم وفي البلدان المتخلفة والنامية، بل في البلدان العربية نفسها. وهي تستخدم من أجل أغراضها خير الأساليب النفسية وخير نتائج العلم الحديث. وهي مضطرة إلى أن تولي هذا الجانب حظاً كبيراً من عنايتها، لأنها مضطرة إلى تغطية الزيف، إلى تعميق الخرافة، إلى تثبيت الأسطورة.

وإذا كانت الدول العربية في غير ما حاجة إلى دعاوة من أجل التزييف، وإذا كان حقها الصريح الواضح خير داعية لها، فهذا لا يعني أن تركن إلى الأحلام وأن تكتفي بحقيقتها وتحتفظ بها لنفسها دون أن تعرّف بها العالم ودون أن تقنع بها العالم. وليس صحيحاً أن حقيقتنا بينة واضحة لدى معظم الرأي العام العالمي، بل الصحيح هو العكس تماماً. فما تزال الكثرة الكاثرة من أبناء الأرض مأخوذة بالدعاوة الصهيونية، لأنها لم تعثر على غيرها في معظم الأحيان، وما تزال جمهرة سكان الأرض تجهل أبسط الأمور عن

القضية الفلسطينية، بل يجهل بعضها أن سكاناً عرباً كانوا في فلسطين وطردوا منها.

وما تزال الكثير من الدول الصغيرة والناشئة في آسيا وافريقيا تجهل الأهداف الاستعمارية لإسرائيل، وتجهل مآرب الصهيونية العالمية وأهدافها، ولا تقدر التضامن القائم بين الاستعمار في العالم وبين اسرائيل، ولا تعي الغايات التوسعية البعيدة لهذه الدولة الزائفة. ولم يتضح أمر السياسة الاسرائيلية لتلك الدول الافريقية بعد، رغم بعض المواقف الواضحة التي تكشف دورها الاستعماري، من مثل تزويد البرتغال بالأسلحة ومن مثل دعم حكومة العميل تشومبي.

وأهم من هذا وذاك، ما تزال الكثرة الغالبة من الدول في العالم مأخوذة بالدعايات الصهيونية حول ما أبلته «الهاغانا» في معركة فلسطين مع الدول العربية عام ١٩٤٨، وما يزال بعضها يصدق أن معركة قد قامت بالفعل وأن دولاً عربية خمساً قد انهزمت فيها! بل ما يزال هنالك من يعتقد مع الدعاية الصهيونية أن جيش مصر قد هزم في معركة سيناء عام ١٩٥٦ وأن قلة من اليهود استطاعوا ـ بإيمانهم وتنظيمهم كما تزعم الدعاوة الصهيونية ـ أن ترد جيش مصر على أعقابه. وقليل من هذه الدول يدرك حقيقة معركة سيناء، ويدرك الترابط بين الهجوم الاسرائيلي وإنزال الجيوش الانكليزية والفرنسية في بور سعيد.

حتى ان مشكلة اللاجئين نفسها ما يزال يجهلها الرأي العام العالمي، وما يزال يجهل ضخامتها كماً وكيفاً. وبعضه ما يزال يعتقد ـ كما تريد الدعاوة الصهيونية أن تقول ـ أن مشكلة بقاء اللاجئين في وضعهم الصعب بعد (١٧) عاماً، ترجع إلى عجز البنية العربية عن امتصاص هؤلاء اللاجئين وعن تقصير اقتصاديات البلاد العربية عن استيعابهم.

ومشكلة مياه الأردن ـ المشكلة الكبرى التي تواجه الدول العربية ـ من يعرفها في أوساط الرأي العام العالمي حق معرفتها؟ ومن يقدر أهداف اسرائيل من وراء جر مياه الأردن؟ ومن يدرك عدوان اسرائيل الصريح في هذا المجال؟

وهجمات اسرائيل المتكررة على حدود البلدان العربية المجاورة، كم من الرأي العام العالمي يدرك تجني اسرائيل فيها، وكم منه لا يؤخذ بالدعاية الصهيونية التي توهم الناس أنها لا تعدو أن ترد الاعتداءات على حدودها وأن الدول العربية هي الظالمة، وأنها حين قامت بالهجوم على مصر في سيناء فإنما فعلت ذلك رداً على هجمات مصر المتكررة وعلى أعمال الفدائيين؟

وعشرات المسائل، ومئات الحقائق، من يعرفها من الرأي العام العالمي حق معرفتها، ومن لا يتأثر بالصورة المقلوبة التي تكونها الصهيونية حولها؟

إن الدعاوة الصهيونية تغزو بأساليبها الملتوية البارعة، معظم بلدان العالم، ولا ينجو من تزييفها حتى أكبر الدول وعياً لأهدافها الاستعمارية، نعني الدول الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي، فالدعاوة الصهيونية قائمة هناك أيضاً على قدم وساق، في

المجالات العلمية والفنية والفكرية عامة، في المؤتمرات والمهرجانات وغيرها، وتشويه حقيقة القضية الفلسطينية في نظر أبناء الاتحاد السوفياتي ينطلق نقداً إلى حد يثير الدهشة، حتى بلغ الأمر أن صور تحويل مجرى نهر الأردن من قبل اسرائيل علقها اليهود في موسكو، على واجهات مقهى «ماروجنيه» حيث كتبت عليها بحروف كبيرة بارزة «ليكن الماء أبداً، ليتدفق دائماً»، وكتب تحتها: «فلتذكر»، بل إن نصوصاً أخر علقت في موسكو حاولت أن تغطي اغتصاب اسرائيل لمياه الأردن فورد فيها أن العرب هم الذين يحجبون الماء عن اسرائيل!

إن الصهيونية العالمية تلجأ إلى ألف أسلوب وأسلوب في سبيل الدعوة إلى أغراضها وتشويه أغراض العرب وتقديم صورة مشوهة عنهم تصمهم بالتخلف والوحشية. وهي لا توفر لهذه الغاية شرقاً أو غرباً، بلداناً رأسمالية أو بلداناً شيوعية، بلداناً استعمارية أو بلداناً معادية للاستعمار، بل تتوغل فيها جميعها وتلبس لكل حال لبوسها وتوفق حسب مقتضى الحال شكل دعايتها مع أهداف البلد الذي تقدم فيه، فنجدها في البلدان الافريقية مثلاً تحمل وجهين، فتلبس لبوس الاشتراكية في الدول التي تأخذ بهذا النظام، وتلبس لبوس الرأسمالية في سواها، وتتقرب لحركات التحرر الافريقية حيناً، وتعمل مع الامبريالية وضدها حيناً آخر (شأنها حين تزود البرتغال بالأسلحة وتتعاون معها ضد أنغولا).

إن دعم العالم ودعم الحكومات لحق البلاد العربية لا بد أن يكون متناسباً مع مدى تعريف العالم بذلك الحق، ومهما تكن أغراض بعض الدول ـ وعلى رأسها الولايات المتحدة ـ ومهما يكن تجنيها وتحيزها لاسرائيل، يظل من الصحيح أن حكومات هذه الدول لا تستطيع إلا أن تخضع ـ ولو بمقدار ـ لضغط الرأي العام الشعبي عندها، ولضغط الرأي العام العالمي. ولا بد بالتالي من تعبئة الرأي العام هذا تعبئة علمية وتعريفه بالحقيقة في شتى أبعادها.

وإذا كانت الصهيونية العالمية تجند في خدمتها وخدمة دعاوتها حوالى ١٢ مليوناً من اليهود، مبثوثين في معظم بلاد العالم وفي الدول الكبرى خاصة، فيجب ألا ننسى أن الدول العربية تضم حوالى مائة مليون عربي، إلى جانبهم عرب مبثوثون في كثير من بلدان العالم ومسلمون يعدون مئات الملايين، وإلى جانبهم بعد هذا وفوق هذا البلدان المتحررة حديثاً في آسيا وافريقيا ـ إن توثقت الصلات اللازمة معها ـ وسائر الحركات التحررية في العالم وسائر القوى المعادية للاستعمار، ثم الرأي العام العالمي الحر في سائر أرجاء العالم ـ حين تذاع له الحقيقة ويوضع أمام الصورة الواضحة للأمور.

ولا شك أن المصالح المادية والرأسمالية لعبت وتلعب دوراً كبيراً في التمكين لدولة اسرائيل المزيفة. ولا شك أن الرأسمالية اليهودية كانت وما تزال من العوامل الكبرى في خلق الخرافة واستمرارها.

ومن هنا يبدو أمام العرب سلاح خطير كبير، يمكن أن يقف في وجه هذا السلاح

الصهيوني وأن يبزّه ويفلّ قاطعه، نعني سلاح البترول العربي.

فإذا كانت الحقيقة وحدها لا تكفي، ولو تسلحت بالعلم والفن ووسائل الدعاوة الحديثة، وإذا كانت المصالح المادية والسياسية لبعض الدول الكبرى ما تزال عاملاً كبيراً من عوامل الحرص على كيان اسرائيل، وإذا كانت المطامع الاستعمارية في البلدان العربية وفي الشرق قد لعبت دوراً حاسماً في تأييد الدول الكبرى لإسرائيل، منذ أيام وعد بلفور حتى قيام كيانها الزائف، إذا كان هذا كله صحيحاً، فمن الصحيح قبله وفوقه أن الدول العربية ليست أضعف سلاحاً في هذا الميدان من الصهيونية، إن هي أحكمت أمرها وأحسنت استخدام هذا السلاح. إن بترول البلاد العربية الذي يقدم أكثر من ٥٥ بالمئة من بترول العالم، والذي يملك مزايا في الاستخراج والتكاليف والتسويق لا تتوافر لأي بترول في العالم، هو السلاح الحاسم الذي يستطيع أن يقف في وجه الدعم المادي والمعنوي لإسرائيل من قبل بعض الدول الخاضعة للصهيونية أو المتعاونة معها في سبيل مصالحها وأهدافها الاستعمارية.

ولا شك أن تحقيق هذا المطلب، نعني تحرير البترول العربي من السيطرة الاستعمارية وجعله سلاحاً ضد الدول المؤيدة لإسرائيل، وقوة اقتصادية واجتماعية وعسكرية في يد الدول العربية، يتطلب تغييراً جذرياً في حياة البلاد العربية، ويتطلب تحقيق كثير من المطالب الأخرى التي أتينا على ذكر بعضها، من مثل العمل المنظم المخطط للوحدة العربية، ومن مثل تكوين الطاقة العاملة الخبيرة القادرة على استخراج ثروات الوطن العربي، ومن مثل قلب المجتمع العربي من مجتمع ما يزال يحمل تخلف القرون إلى مجتمع حضاري حديث.

ولعلنا ههنا أمام ضرب من الدور الفاسد: فتحرير البنية الاقتصادية والاجتماعية الفاسدة في البلاد العربية عامل أساسي في تحرير البترول العربي، وتحرير البترول العربي بدوره عامل أساسي من عوامل تحرير تلك البنية. غير أننا لسنا في الواقع أمام دور فاسد، بقدر ما نحن أمام صلة دائرية، أمام تأثر وتأثير متبادلين، أمام مهمة ينبغي أن تسير في الميدانين جنباً إلى جنب.

إن ضرب أنابيب في سورية أيام معركة قناة السويس كاد يشل شرايين الحياة في أوروبا وكاد يردها إلى عصر الظلمات. وإن جزءاً ضئيلاً من عائدات البترول في البلاد العربية قادر على تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية ضخمة وقادر على تسليح أقوى الجيوش وأمنعها.

وبدهي أن مسؤولية عدم تحرير البترول العربي لا تقع على الدول العربية المنتجة للبترول، وإنما تقع على الدول العربية كلها. فالمسألة ليست فقط مسألة الدول العربية الغنية بالبترول التي يقع عليها عبء كبير دون شك، وإنما هي مسألة البلاد العربية كلها، مسألة بحث البلاد العربية جمعاء عن صيغة عملية مدروسة تقودها نحو توحيد أهدافها وتوحيد كيانها خطوة بعد خطوة، وتصل بها إلى التكامل بين أوضاعها الاقتصادية، وتصل

بها أخيراً إلى الوحدة العربية الكاملة.

إن الدول الكبرى، الدول الاستعمارية، يمكن أن تتخلى عن اسرائيل. فهي تدعمها ما دامت مصالحها مرتبطة بهذا الدعم وما دام هذا الدعم لا يحقق لها خسارة كبرى من جانب الدول العربية تفوق الفوائد التي تجنيها من وراء اسرائيل، وما دامت تلك الدول قادرة على أن تعطل تحرر هذه البلدان وتقدمها عن طريق اسرائيل. غير أن هذه الدول الاستعمارية لا بد أن تتخلى عن اسرائيل حين يكلفها دعمها غالياً، وحين تجد أن مصالحها الكبرى، الاقتصادية والسياسية، أصبحت مهددة تهديداً حقيقياً عملياً لا لفظياً، وحين تجد في دعم هذا الكيان المزيف، وفي دعم شرذمة قليلة جاءت إلى هذا الكيان، خسارة مادية ومعنوية كبرى.

إن اللغة البليغة التي يمكن أن تطهر أذهان المكابرين من مؤيدي اسرائيل، والتي تستطيع أن تجري انقلاباً حقيقياً في تفكيرهم، هي اللغة التي يطلقها كيان عربي قوي متين، يفرض وجوده، ويملك ثرواته، ويمنع تلك الثروات عن أولئك الذين يقدمونها لقمة سائغة لنمو اسرائيل ودعم اسرائيل. إن لغة التقدم العلمي والفني والاقتصادي، ولغة البترول الحر ولغة الجيش القوي الحديث، ولغة الوحدة العربية المكينة، هي عناصر المعركة الكبرى مع اسرائيل ومع من وراء اسرائيل.

وقد تبدو هذه الأهداف أهدافاً للمدى البعيد، وقد تبدو المسألة الفلسطينية مسألة لا تحتمل التأجيل. غير أن علينا أن ندرك أن بلوغ هذه الأهداف الكبرى ــ في شكلها الكامل ــ لا يعني ترك الأمور الراهنة، وأن الهدف البعيد لا ينبغي أن يعطل الأهداف القريبة. والواجب أن يقوم في آن واحد جهد يومي مرحلي متصل ــ هو جزء من الجهد الطويل البعيد ــ إلى جانب التخطيط البعيد والأهداف الكاملة. والخطأ كل الخطأ أن نأخذ في هذا الميدان بالمبدأ القائل «كل شيء، أو لا شيء»، بل اللازم أن نجعل من عملنا اليومي وعملنا المرحلي جزءاً من البناء الأعم والهدف الأشمل، وأن نشتق خططنا القريبة من خططنا البعيدة وعملنا الطارئ من جهدنا الباقي الطويل.

على أن أصدق الطرق وأكثرها واقعية هي أقصرها في الوقت نفسه. وإن سلوك الطريق الصحيح ــ ولو طالت ــ خير من تنكبها والحيد عنها. لقد انقضى من عمر القضية الفلسطينية عشرون عاماً تقريباً، وانقضت قبلها أعوام في محاولة اجتناب النكبة. وجدير أن نسائل: أي شوط قطعنا عبر الطريق خلال هذه الحقبة الطويلة، وما هو مقدار اقترابنا من الغاية. إن خطوات قد تحققت دون شك، وإن مكاسب قد تمت في بنية البلاد العربية وقوتها المعنوية والعسكرية. غير أن من الصحيح مع ذلك أن مكاسب أكبر كانت ممكنة لو قام التخطيط للمسألة منذ بدايتها، ولو كان الجهد المبذول من أجل القضية الفلسطينية حلقة متتالية من خطة متكاملة مدروسة.

إن تجنب العمل المرتجل، العمل الذي يحيا كفافاً يوماً بيوم، مطلب أساسي من مطالب أي مجتمع حديث، وهو شرط أساسي من شروط عملنا لمعركتنا الكبرى، ورسم

الخطة وبيان أهدافها ومراحلها ووسائلها، وتجزئة هذه الخطة إلى أجزائها، وربط العمل الطويل المدى بالعمل القصير المدى، والآجل بالعاجل، هي سمات العقل الحديث، سمات المجتمع الذي ينزع إلى مغادرة التخلف والانطلاق نحو التنظيم العلمي الفعال. ولا بد أن تصبح هذه السمات مقومات أساسية لعملنا من أجل القضية الفلسطينية.

إن القضية الفلسطينية قضية سهلة وصعبة حقاً. إنها قضية سهلة، إذا نظرنا إلى امكانيات الدول العربية وطاقاتها الكبرى السكانية والاقتصادية والبترولية وغيرها. غير أنها صعبة إذا لم نعرف كيف نستخرج هذه الامكانيات ونضع الخطة اللازمة لتعبئتها تعبئة ذكية عليمة. وإن ما يعوز البلاد العربية ـ قبل أي شيء آخر ـ وضع الامكانيات والجهود ضمن إطار خطة حكيمة تعرف المصير وترسم السبيل وتجزئ الصعوبات وتعمل بوحي العقل الرائد الخبير.

* * *

وبعد، هذه هي الخرافة وتلك هي الحقيقة، خرافة مزودة بسلاح العلم والعقل الحديث، وحقيقة ما تزال تجرها إلى ماضيها المتخلف أثقال كثيرة، غير أنها بدأت تستيقظ وتعي ذاتها وتدرك متطلبات وجودها. ولن تقوى الحقيقة على الخرافة بمجرد كونها حقيقة، ولن تزول الخرافة أمام الحقيقة لمجرد كونها خرافة، والمسألة صراع عنيد وسباق جاد، والعلم والتقدم أهم عناصر الصراع والسباق.

إن الحقيقة العربية حقيقة عميقة الأصول ثابتة الجذور، قوامها وجود قومي لم ييسر لغيره من مقومات الوحدة والتضامن والتكامل ما يسر له، وطاقاته بشرية سكانية هائلة، وثروات طبيعية ضخمة، ومكان جغرافي واستراتيجي مرموق، وتراث عريق يزود أبناءها بالدفء والإيمان. والمسألة كل المسألة أن تستخرج طاقات الوطن العربي هذه وألا تبقى في مرحلة الامكان. وسبيل ذلك أولاً وقبل كل شيء تكوين الأداة البشرية الخبيرة المزودة بسلاح العلم المؤمنة بالهدف.

إن الحقيقة العربية مارد جبار حين تستيقظ وتعي ذاتها حق الوعي. ويقظتها من يقظة العقل، من يقظة الروح، من يقظة الإنسان العربي. إن رعشة الابداع والخلق التي تسري في أعصاب هذا الإنسان، بفضل التربية والثقافة، بفضل الإيمان بالهدف والإيمان بالعلم، هي القمينة بأن تجلو الحقيقة العربية وتحيلها وجوداً فعالاً هادراً، وان تكوين العقل الرائد، العقل الثائر لأنه رائد، المتمرد لأنه واع، هو سلاح الحقيقة العربية ضد خرافة الخرافات.

درس الهزيمة الأكبر![*]

استفتاء «الآداب»

ما هو، في رأيكم، الدرس الأكبر الذي تعلمنا إياه الهزيمة؟

١ ـ جواب الأستاذ ميخائيل نعيمه

في رأيي أن الدرس الأكبر والأهم الذي يحسن بالعرب أن يتعلموه من هزيمتهم النكراء هو أن الدنيا لا تساس بالدين. فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد. والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد.

ثم إن الدين يأبى أن يطرأ عليه أي تغيير أو تبديل من جيل إلى جيل. في حين أن الدنيا تتغير وتتبدل في كل رفة جفن. فنبضها في تسارع مستمر. وقد بلغ في الزمان الأخير حد الجنون. فكأنه نبض المحموم تشويه الحمى شيّاً. بينما نبض الدين في تباطؤ مستمر. فكأنه نبض السلحفاة عضها الجليد.

وهذه السرعة في نبض دنيانا مردها، في الدرجة الأولى، إلى العلم الذي جاءنا بالماكينة. وهو ماضٍ في تطويرها بسرعة تخطف العقول وتبهر الأبصار. وهكذا باتت الماكينة سيدة الميدان والمفتاح الذي به تفتح خزانات الدنيا. وبات من لا يملك ذلك المفتاح وكأن نصيبه من متاع الدنيا هو نصيب المتطفل والمستجدي.

لعل أكبر الخزي في دنيانا هو أنها لا تزال دنيا نزاعات وحروب. فإذا كان العرب ممن يعتقدون أن حقوقهم لا تسترد ولا تصان إلا بالحرب، وأن الحرب لا يكسبها إلا السلاح، وأن السلاح لا يخلقه إلا العلم والمال، فما عليهم إلا أن يتعبدوا للعلم والمال. لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ١٥، العددان ٧ ـ ٨ (تموز/يوليو ـ آب/اغسطس ١٩٦٧)، ص ٤ ـ ٥.

٢ ـ جواب الدكتور قسطنطين زريق

الدرس الأكبر الذي تعلمنا إياه الهزيمة هو، في رأيي، أنه لا بديل لأية أمة تريد السلام والفوز، وبخاصة في هذا العصر المتأزم، عن طلب الحقيقة والتقيد بها والسير على هداها. فلقد برهنت الهزيمة على أن قادتنا وشعوبنا كانوا جاهلين للحقيقة وأبعادها، وغير متقيدين بها. وأعني بالحقيقة هنا واقع القوة الصهيونية: من حيث التجهز العسكري بالأدوات والرجال والتنظيم والتخطيط، والسند السياسي الخارجي، وتعبئة الرأي العام العالمي، وما إلى ذلك من عناصر التهيؤ وإعداد القوى.

فلو أن القادة والحكام كانوا متملكين لهذه الحقيقة، واضعين إياها نصب أعينهم، حاسبين لها حسابها من كل طرف وزاوية، لكنا أقدر على مجابهة العدوان ودرء أخطاره. لو كنا مدركين ذلك وملتزمين به، لعرفنا أين هو موضع الخطر الأكبر، ولقدمنا واجبات هذه المعركة وفروضها على أية فروض أخرى، ولما خضنا معارك داخلية تبلبل صفوفنا وتضيع وحدتنا وتستنزف مواردنا وتقسمنا إلى جبهات، في حين أننا أحوج ما نكون إلى التعبئة الشاملة، وإلى حشد الجهود، وتوفير الموارد وادخارها.

المصيبة هي أننا لا نعرف، ولا نريد أن نعرف. لا نعرف لأننا لم ندرك بعد أبسط مبادئ العيش في هذا العصر، وهو أن هذا العصر هو عصر علم واختصاص، وأن القدرة فيه هي، قبل كل شيء، قدرة العقل المتفتح القاهر، وقدرة الكفاءة المدربة المنماة.

ولا نريد أن نعرف لتغلب الشهوات والأطماع على تصرفاتنا الخاصة والعامة، ولوضعنا المصلحة الشخصية أو الحزبية أو القطرية قبل المصلحة الشاملة، ولعدم استعدادنا لدفع الثمن الذي تتطلبه هذه المعرفة جهداً وتضحية، وإنكار ذات، وتكاتف أيد، وتلاحم عقول وقلوب.

ينتج عن هذا أننا إذا أردنا أن نمحو آثار هذه الهزيمة وأن نعود فنقلبها إلى ظفر وانتصار، فلا بد لنا من أن نبدأ حيث يجب أن نبدأ: أي بمعرفة حقيقة هذه الهزيمة: أسبابها المباشرة وغير المباشرة، وأبعادها، ونتائجها في الحاضر وفي المستقبل. الحقيقة قبل كل شيء، وعن كل شيء. الحقيقة كما هي، لا كما نريدها أن تكون. الحقيقة الموضوعية الصريحة، مهما تكن، لا كما نتصورها أو نريد الناس أن يتصوروها.

من هنا يجب أن نبدأ. أما بقية الطريق فهي تدريب وتدرب على تحمل الحقيقة، واستخراج متضمناتها، والالتزام بها في ما نخطط من حلول، وما نجهز للمستقبل. إن المعرفة الصحيحة للأسباب الحقيقية لهزيمتنا هي الشرط الأول لإزالة هذه الأسباب، ولتخفيف وطأة نتائجها، وللإعداد المطلوب في سبيل غد أفضل. أما إذا خدعنا أنفسنا عن هذه الأسباب وجهلناها أو تجاهلناها، أو إذا عرفناها ووجلنا عن مجابهة تحدياتها، فإننا نكون قد عجزنا عن وعي الدرس الأكبر، بل الدرس الأول، الذي تعلمنا إياه الهزيمة.

٣ ـ جواب الأستاذ منير البعلبكي

إن الدرس الأكبر الذي تعلمنا إياه النكسة ـ ولا أقول الهزيمة. فنحن لم نهزم بالفعل ـ هو أن الاستهانة بالعدو أول الطريق إلى الفشل والضياع.

ولا يستغربن أحد أن نجعل من هذه الحقيقة البدهية أمثولة النكسة الرئيسية التي تتضاءل أمامها سائر الأمثولات. فالحق أنها تحتل مقام الصدارة بين كل ما نص عليه الكتاب والمفكرون من أخطائنا وعيوبنا، بل لسنا نعدو جادة الصواب إذا قلنا إن جميع تلك الأخطاء والعيوب هي ـ في التحليل الأخير ـ حصيلة الاستهانة بالعدو ونتيجة طبيعية له.

ولأفصل الآن بعض هذا الذي أجملت:

لقد تصرمت منذ نكبة ١٩٤٨ إلى نكسة ١٩٦٧ تسعة عشر عاماً كاملة قضاها العدو في الاستعداد لمعركة جديدة حاسمة يمكّن بها لنفسه في الأرض المحتلة ويوسع من خلالها رقعة تلك الأرض في اتجاه الشرق والشمال والجنوب وقضيناها نحن في الاستهانة به والتقليل من شأنه...

فهو حيناً مجتمع متفسخ يعاني صنوفاً من التناقضات تجعله غير مؤهل للبقاء...

وهو حيناً عصابات جبانة عاجزة عن أن تصمد، إذا جد الجد، في وجه تصميمنا على تطهير الأرض العربية منها والانتقام لشهدائنا من جرائمها...

وهو في أحسن الأحوال «دويلة» تعيش على الإحسان والشحاذة، والإحسان والشحاذة لم يكونا في يوم من الأيام أساساً تقوم عليه الدول...

من هذا الوهم انطلقنا في تفكيرنا الفلسطيني والعربي، بعد النكبة، فكان إعدادنا للجولة الثانية التي رشحناها للقضاء على إسرائيل واستعادة الوطن السليب متناسباً تناسباً طردياً مع ذلك الوهم الكبير. وباستثناء دولة أو دولتين أو ثلاث دول على الأكثر، من دولنا العربية الكثيرة، أدركت في مراحل مختلفة وبنسب مختلفة حقيقة إسرائيل فعملت على ضوء هذا الإدراك، نستطيع الزعم أن العرب واجهوا المأساة بروح اتسمت قبل كل شيء بالهزل واللامبالاة والقعود والاسترخاء...

فلا هم غيروا وجه مجتمعهم الحضاري بحيث يستطيع أن يثبت في وجه العدو ولا نقول بحيث يستطيع أن يتغلب عليه...

ولا هم طوروا اقتصادهم من اقتصاد سلم إلى اقتصاد حرب مع أن حالة الحرب بيننا وبين إسرائيل لم تسقط يوماً واحداً طوال آلاف مؤلفة من الأيام حبلت بها السنوات التسع عشرة المنصرمة...

ولا هم سعوا سعياً جدياً إلى إنشاء وحدة عربية شاملة تعبئ كامل طاقات الأمة

البشرية والمادية للمعركة المرتقبة. وحتى الوحدة الثنائية التي تمت بين مصر والشام وجدت في داخل القطر السوري نفسه خصوماً ائتمروا بها فتركوها أثراً بعد عين.

ولا... ولا...

مع أن نظرة بسيطة إلى تاريخ الصهيونية وأهدافها ووسائلها وإلى ماجريات الأحداث في المنطقة منذ قيام إسرائيل كان خليقاً بها أن تفتح أعيننا على الحقيقة الرهيبة، الحقيقة التي تتلخص بأن التاريخ لم يعرف في أحقابه المتطاولة حركة أكثر إجراماً من الحركة الصهيونية، وبأن صفحاته لم تسجل أن أمة من أمم الأرض كلها منيت ببلاء أشد من بلائها.

فما الاستعمار، وما الاحتلال العسكري، وما الاحتكارات الاقتصادية العالمية، وما القواعد العسكرية الأجنبية، وما تجزئة الأوطان إذا قيست بالبلاء الاسرائيلي الذي نكبت به الأمة العربية...؟!

إنها كلها ضروب من الزكام العارض... أما الصهيونية فهي سرطان ليس منه برء وليس معه بقاء.

فالاستعمار ممكن إنزال الهزيمة به. والاحتلال العسكري يجلى جنده عن البلد بعد حين، طال الزمن أو قصر. والاحتكارات الاقتصادية العالمية قابلة للكسر. والقواعد العسكرية الأجنبية عرضة للتصفية. والأوطان المجزأة لا يتعذر على الأمم المناضلة توحيدها... أما الصهيونية فرأس الحكمة عندها إبادة الجنس العربي لكي تستولي على أرضه التي هي، في زعمها، أرضها.

تلك هي مأساتنا. لقد قدر الله على الأمة العربية أن تبتلى، من دون أمم الأرض جميعاً، بهذا الطاعون المهلك، وإنه لبلاء لو حل بأعرق الشعوب المتمدنة، حتى في دنيا الغرب نفسه، لقوض بنيانها، وشرد سكانها، ومزق أوطانها، أي لفعل بها ما فعله بالأمة العربية... أقول ذلك على سبيل الترجيح لا على سبيل القطع. ولكن الشيء الذي أستطيع أن أقطع به، وأنا مطمئن، هو أن تلك الأمم لو ابتليت بالصهيونية أو بإسرائيل لاتخذت منها موقفاً غير موقفنا نحن طوال هذه التسع عشرة سنة الماضية.

إنها على الأقل ما كانت لتستهين بها، وبالتالي ما كانت لتلدغ من جحرها مرتين...

ومن أجل ذلك قلت: إن الدرس الأكبر الذي تعلمنا إياه النكسة هو أن الاستهانة بالعدو أول الطريق إلى الفشل والضياع.

طريقنا... إلى «تغيير الإنسان العربي»![*]

حسين مروة

التجربة العربية الجديدة في مواجهة التحالف العدواني الطبيعي للامبريالية والصهيونية العالمية ووليدهما إسرائيل، كانت تجربة عنيفة عميقة قاسية لم تقتصر آثارها في حياتنا القومية على كونها فتحت جراح المأساة التي أثخنت بها الأمة العربية عام ١٩٤٨، أو كونها زادت هذه الجراح نزفاً وإيلاماً وعمقاً، بل جاوزت ذلك إلى كونها أحدثت بعض الاهتزاز في كثير من القيم والمفهومات والمناهج الفكرية وغير الفكرية التي كانت، قبل الخامس من حزيران الماضي، تؤلف عدداً من المنطلقات الشائعة عند الكثيرين منا في فهم قضايانا العربية الراهنة، وفي تحليل الأحداث المتصلة بها، وفي تحديد المواقف الإيجابية أو السلبية حيالها.

لقد فتحت هذه التجربة الدامية أبواباً عريضة للشك أو التشكيك بتلك القيم والمفهومات والمناهج، ولإعادة النظر بها في ضوء ما سمي بالنكسة أو الهزيمة التي انحسرت عنها التجربة، أو في ضوء ما خُيل لهذا وذاك من الكتاب والمثقفين ولهذه الفئة وتلك من سائر المواطنين أنه السبب الظاهر أو الخفي وراء النكسة أو الهزيمة.

وقد نال قيم الثقافة العربية قديمها وحديثها، وقيم الأدب العربي ماضيه وحاضره، ومواقف المثقفين والأدباء العرب حيال المعركة المصيرية كلها، وحيال الجولة الأخيرة منها بالخصوص، نصيب وافر من الشك والتشكيك معاً.

ثم نال الإنسان العربي، بنوعيته، مثل هذا النصيب من الشك والتشكيك، فقالوا إنه إنسان يعيش خارج الزمان، متخلف، مملوك، وقالوا إن خسارة العرب الحرب التي واجهوا بها العدوان الاستعماري الاسرائيلي الأخير نشأت عن كونهم متخلفين حضارياً، مع قولهم إن التخلف الحضاري هو «تأخر العقل والروح والخيال والنفس والجسد».

(*) نُشر في: **الآداب**، السنة ١٥، العددان ٧ ـ ٨ (تموز/يوليو ـ آب/اغسطس ١٩٦٧)، ص ٣٤ ـ ٣٧.

ومعنى ذلك أن الإنسان العربي متأخر عقلاً وروحاً وخيالاً ونفساً وجسداً، وبناء على هذا الرأي بالإنسان العربي فسروا النكسة الحربية بعد الخامس من حزيران/يونيو الماضي بأنها «هزيمة حضارية لا عسكرية».

لقد قيل وكتب الشيء الكثير من أمثال هذا الكلام أثناء الغمرة الانفعالية الغامرة التي أعقبت النكسة، ولا يزال هذا يتردد على الألسنة والأقلام، دون التفكير بالحلول العملية الإيجابية، ودون النظر إلى أن الإمعان في مثل هذا الموقف السلبي المطلق هو بذاته موقف غير حضاري، وهو بذاته ارتماء في «الهزيمة الحضارية» التي يرمون بها الإنسان العربي.

وفي هذه الموجة الطاغية من الشك والتشكيك بالقيم العربية وبالإنسان العربي يتحدثون عن التغيير الجذري لهذه القيم ولهذا الإنسان.

إن الحديث عن ضرورة التغيير في القيم العربية أو في الإنسان العربي، بعد تجربة المواجهة الأخيرة للعدوان، حديث سليم بذاته يدفعنا إليه عنف التجربة دفعاً قوياً يوقظ فينا من الأعماق جملة من الحوافز الوطنية والثورية لرؤية كل شيء في حياتنا العربية رؤية جديدة ذات أضواء جديدة.

فليس من خلاف، إذن، على ضرورة التغيير، لأنه لا خلاف على أن كثيراً من القيم التي كانت مرتكزاً للعرب في معركتهم الدائرة منذ حقب عدة بينهم وبين أعداء قضاياهم المصيرية، لم يكن معظمها بالقيم الصالحة لهذا الارتكاز إما لنقص في الرؤية إليها، وإما لميوعة في حدودها ومقوماتها، وإما لاعتمادها مفاهيم ومنطلقات غريبة عن حقائق قضاياهم تلك وعن أهداف نضالهم الموصول في طلب الحلول العملية الإيجابية لهذه القضايا، وفي صلبها قضية فلسطين.

وليس من خلاف كذلك على أن حركة التغيير يجب أن تتناول الإنسان العربي بقدر ما تتناول قيم حياته ومعركته، لأنه ليس من خلاف هنا أيضاً على أن الإنسان العربي كان يواجه قضايا مصيره الكبرى، أحياناً، بنوع من المواقف لا يرقى إلى مستوى التحديات الملتهبة أمامه في كل جبهة من جبهات المعركة، معركة المصير..

ولكن الخلاف قائم على تحديد طريقنا الجديدة إلى هذا التغيير المطلوب. فلماذا الخلاف هنا؟ ما مصدره؟

إن الخلاف مع أمثال هؤلاء المشككين، يصدر عن الأمور الآتية:

أولاً ـ إن الشك أو التشكيك عندهم يقع، إما عن قصد أو غير قصد، في سلبية تبلغ، باتباعها الطرق المسدودة، حدود الهدم إلى غير قرار يصلح ـ بعد ـ للبناء. وهذا، فضلاً عن كونه مناقضاً كل المناقضة للروح الحضارية التي يدعونها لأنفسهم، يلقي بالإنسان العربي ـ وهم يزعمون الإشفاق على مصيره ـ في مهاوي اليأس القاتل

والانهزامية المميتة. ويبدو أن بعضهم يرى في ذلك طريقاً إلى النجاة من المأساة، بدليل قوله إن المطلوب للعرب إنما «نطلبه من اليائسين الغاضبين المشمئزين الهاربين التائهين المصلوبين». وهذا رأي يبقى معلقاً في الهواء لأنه لا يجد الأرض التي يستطيع الوقوف عليها.

ثانياً ـ إن الغضب الذي يطلبونه للعرب من العرب أنفسهم موجود بالفعل. فإن غضب الشبان والجماهير العربية إشفاقاً من النكسة التي حدثت ومن عواملها وآثارها السلبية، بلغ حد الغليان والتوتر الروحي الشديدين، ولكنه الغضب المنبعث من روح الكفاحية التي لا تحتاج إلا إلى رسم الطريق الواضح أمامها للخروج من السلبية إلى الإيجابية في سبيل معركة التغيير، ثم لا تحتاج ـ بعد ـ إلا إلى تنظيم طاقاتها الغضبية الثورية المكبوتة، وإلى اعتماد القيادات الموجهة المنظمة على هذه الطاقات وثقتها بها في حمل أعباء المعركة.

إن غضب الجماهير العربية من النوع البناء الذي لا يعني اليأس ولا الهروب ولا التيهان والضياع حتى الصلب. فهو غضب ليس بالهدام، وهو بجوهره يحمل مضموناً إيجابياً وإن كان سلبياً في ظاهره.

ثالثاً ـ إن تغيير الإنسان العربي، أو تغيير قيم الفكر العربي والثقافة العربية، له طريقان: طريق **أول** يعتمد المنهج المثالي الذي يعني أن نترك المعركة القائمة الملتهبة أمامنا، الشديدة الإلحاح علينا بأن نخوضها دون تردد ولا انتظار ولا تسويف، نتركها لنفرغ إلى معالجة النفس العربية في عالمها الداخلي وحده، انطلاقاً من المفهوم الميتافيزيقي بأن العالم الداخلي هذا هو الأصل والمنبع. والطريق **الثاني**، هو الطريق الواقعي الذي يعني أن نضع أقدامنا في أرض المعركة، وأن ندخل في لهب الكفاح المشتعل بالفعل دون انتظار، لأن هذا الموقف هو الذي يصهر النفس العربية ويمتحن طاقاتها ويضعها في قلب التجربة حتى يستخرج أصلب معادنها ويبلور أفضل عناصرها. وبهذا الطريق يحدث التغيير المطلوب بالممارسة الواقعية العملية، أي ان الممارسة هذه تؤدي بطبيعتها إلى تغيير جذري في القيم ذاتها وفي الكينونة الروحية والفكرية للإنسان العربي، انطلاقاً من أن كينونة العالم الداخلي نتيجة لا سبب، فهي نتيجة لأنواع العلاقات التي يمارسها الإنسان عملياً في مختلف مجالات النشاط الإنساني ضمن المجتمع.

والذين يدعون للتغيير في القيم وفي الإنسان ذاته، أثناء ظروف التوتر الانفعالي بعد انتكاسة المواجهة العربية العسكرية للعدوان الأخير، يبدو أنهم يختارون الطريق الأول للتغيير، لأنهم يفسرون الانتكاسة هذه بالتخلف الحضاري، ويفسرون هذا التخلف بأنه «تأخر العقل والروح والخيال والنفس والجسد». فعلينا، إذن، أن نترك المعركة الآن حتى نحقق المطلوب من «تغيير الإنسان العربي»، أي حتى نقضي على تخلفه الحضاري، أي حتى نربي منه العقل والروح والخيال والنفس والجسد تربية جديدة تقتلع من داخله جذور التأخر. ولكن، كيف تكون هذه التربية لكي يحدث التغيير المطلوب، وما منهجها، ما

وسائلها، ما أساليبها؟ ليس عندهم من جواب عن هذه الأسئلة إطلاقاً، لأنهم لا يعرفون الجواب، أو لأنهم ـ وأعني بعضهم فقط ـ لا يقصدون من طلب التغيير إلا إثارة الشك بالإنسان العربي والحكم عليه، اعتباطاً، بأنه فاقد ميزة الحضور الإنساني في كونه وعصره وتاريخه وآفاق مستقبله. وهم يعنون بهذا الفقدان تخلفه الحضاري.

رابعاً ـ إننا نجادل في أصل هذا الشك ومنبعه. فمن أين ينطلقون به حقيقة؟

هناك من يقول إن العرب لو كانوا متقدمين حضارياً وخسروا الحرب، لما كانوا خسروها بهذا الشكل. وهناك من يقول إن «تاريخنا مليء بالكوارث. كانت الواحدة تأتي إثر الثانية، منذ سقوط الخلافة العباسية، مروراً بالعهد العثماني، وبالاستعمار الذي يستمر أو يتجدد حتى اليوم. لكن هذه الكوارث لم توقظنا، لم تغير في عقليتنا ونفسيتنا شيئاً».

إننا نجادل في هذه المنطلقات ذاتها. وينبغي أن أوضح، قبل الدخول في المجادلة، أنني أضع المسألة، هنا، على صعيد الحوار الفكري بدافع البحث عن الحقيقة والإخلاص لها ولهدف معرفة الطريق الصحيح الموصل إلى تغيير الإنسان العربي، دون أي قصد إلى التجريح أو ما يشبه التجريح بأصحاب هذه المنطلقات، في حين أنني على يقين بأن بعضهم إنما يصدر في أحكامه عن إخلاص عميق وعن مرارة روحية وتمزق نفسي نبيل جداً.

* * *

وبعد، فإن أمامنا دعويين: دعوى تقول بأن الشكل الذي خسر به العرب الحرب الأخيرة هو الذي يكشف أن الخسارة ناشئة عن فقدانهم للتقدم الحضاري، ودعوى تقول بأن كوارثنا التاريخية منذ سقوط الخلافة العباسية إلى اليوم لم توقظ ولم تغير في عقليتنا ونفسيتنا شيئاً.

يبدو لي أن مضمون كل من الدعويين ينتهي إلى مضمون الأخرى.

فإن عدم قدرة الكوارث المتلاحقة، في المدى التاريخي، على إحداث تغيير ما في عقلية شعب ونفسيته، هو بذاته فقدان هذا الشعب قدرة التقدم الحضاري. لذلك يحسن وضع المسألة، في هذا الحوار، كاملة دون تجزيء.

ولكن لا بد من دخول المسألة، أولاً، بهذا السؤال:

ـ ما طبيعة الشكل الذي كانت به خسارة العرب لهذه الحرب، وكانت به الدلالة على نفي تقدمهم حضارياً؟

لعل المقصود تلك الهزيمة التي أصابت الجيوش العربية أو بعضها بسرعة، عند التصدي للعدوان، دون أن تطول المعركة وقتاً يصح فيه أن تسمى معركة حقاً.

لا خلاف في أن العنصر البشري كان العامل الأظهر في هذه الهزيمة. ولكن

العنصر البشري في الحرب ليس هو الجندي وحده، ولا هو الضابط الصغير الذي يقود الجندي مباشرة ويشارك في القتال مباشرة. فهناك، فوق هذا وذاك، القائد الآمر والمخطط بمستوياتهما الهرمية المعروفة، وهناك فوق هذين كليهما ووراءهما العنصر السياسي، فليست الحرب، مهما كان نوعها، عملية عسكرية خالصة.

يوم يتاح لنا أن نقرأ تاريخ هذه التجربة القاسية بتفاصيلها وأخطائها سنعرف أن هذه الجيوش لم تنهزم لنقص في شجاعة جنودها وضباطها، أو في روحهم المعنوية، أو في حرارة حماستهم للقضية التي يدافعون عنها، أو في رسوخ روح المسؤولية فيهم أمام معركة المصير التي يخوضونها. سنعرف أن شيئاً آخر غير كل ذلك يكمن وراء الهزيمة بالشكل الذي حدثت به الهزيمة. ومن العسير أن يتضح لنا هذا «الشيء الآخر» إذا لم نرجع إلى طبيعة القضية نفسها التي تدور عليها معركتنا العربية في الأساس، وليست قضية فلسطين ذاتها جزءاً منها.

* * *

إن القضية بأساسها وجوهرها قضية صراع كان لا بد من حدوثه في ظروف نمو الحركة العربية التحررية التي نشأت بذورها الأولى منذ أواسط القرن التاسع عشر، ثم أخذت طريقها إلى التجذر في الأرض العربية قبيل الحرب الكونية الأولى وبعدها، ثم بدأ تخرج طلائعها إلى النور بشكل انتفاضات جماهيرية شعبية أو ثورات مسلحة منذ العشرينيات في هذا القرن لمكافحة الأشكال القائمة في هذا البلد العربي وذاك من التسلط الاستعماري، احتلالاً كان بقوة الفتح والغزو، أم انتداباً من عصبة الأمم يستر وجه الاحتلال. وفي الأربعينيات استفحل نمو الحركة العربية التحررية في ظروف نشوء حركة التحرر الافريقية الآسيوية بعد الحرب الكونية الثانية وانتصار الحلف الديمقراطي الدولي ضد الحلف النازي الفاشي المندحر، وكان استقلال لبنان وسوريا إحدى الثمرات الأولى لحركة التحرر العربية في تلك الظروف نفسها التي ظهر فيها المعسكر الاشتراكي كنظام عالمي. واستمرت الحركة العربية التحررية في نموها وتأصلها منذ بداءة الخمسينيات، إذ ظهرت فيها أولى العوامل الممهدة لتحولها إلى حركة ثورية تتداخل فيها مرحلتا التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي، أو الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية التقدمية. ومن هذه العوامل التمهيدية قيام ثورة ٢٣ تموز/ يوليو عام ١٩٥٢ في مصر، ثم تأميم قناة السويس، ثم انحسار آثار العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ الذي تحقق به الجلاء العسكري الأجنبي التام عن الأرض المصرية بكاملها واستكمال حقيقة الاستقلال الوطني لمصر، ثم قيام الوحدة المصرية ـ السورية كنواة للوحدة العربية ١٩٥٨، مع قيام ثورة ١٤ تموز/ يوليو العراقية في العام نفسه.

إن كل هذه العوامل، بالإضافة إلى عوامل أخرى من نضالات القوى الوطنية والتقدمية والشعبية في كثير من الأقطار العربية، ومن بروز التلاحم بين قوى الثورة الاشتراكية والثورة التحررية الافرو ـ آسيوية في الكفاح المشترك ضد الامبريالية العالمية ـ

نقول: إن كل هذه العوامل قد عبدت الطريق بالفعل لتحول الثورة العربية إلى ثورة اجتماعية تقدمية حققت مضموناً جديداً للقومية العربية ذاتها وهيأت الظروف المؤاتية لاستقرار هذا المضمون في مفهوم الوحدة العربية التي كانت تنضج، خلال ذلك كله، ظروف تحقيقها كهدف كبير لشعوب الأمة العربية. وقد ظهرت بين طلائع هذا التحول تدابير التأميم التي أحدثها حكم الوحدة المصرية ـ السورية عام ١٩٦١. ثم توالت هذه الطلائع في الجمهورية العربية المتحدة، ثم في سوريا بعد ثورة ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٣، وفي الجزائر بعد انتصار ثورتها الوطنية، وفي اليمن بعد نجاح الثورة التي نفضت عن صدر الشعب اليمني كابوس الحكم الملكي الإقطاعي المتخلف، وحتى في ثورة عدن وجنوب اليمن المحتل القائمة الآن، لأنها ثورة تحمل مضموني الثورة الوطنية والاجتماعية معاً.

* * *

قصدتُ من هذا العرض الإجمالي أن أصف الحدود البارزة لأرض المعركة العربية التي يدور عليها الصراع البالغ في هذه الأيام أقصى مدى التوتر والاحتدام.

يبقى أن نحدد طرفي هذا الصراع حتى نصل إلى جوهر القضية.

إنه الصراع بين قوى الثورة العربية للتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي الحضاري وبين قوى الثورة المضادة لها. وهذه الأخيرة تستوعب، في معسكرها المناهض للثورة العربية، قوى الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية ووليدها إسرائيل، وقوى الرجعية المحلية المرتبطة مصالحها، عضوياً، بمصالح الاستعمار والصهيونية، ولا تجزيء في الواقع بين الاستعمار والصهيونية وقاعدتهما، بل الترسانة العسكرية لهما: اسرائيل.

إذا رجعنا إلى الثورة العربية هذه نستعرض مراحل نموها وتطورها وتحولاتها، بدهتنا حقيقة ذات شأن كبير في جلاء موضوعنا. هذه الحقيقة هي انه كلما بدا لمعسكر الثورة المضادة أن الثورة العربية، خلال مسيرتها الطويلة، توشك أن يشتد ساعدها، أو أن ترسخ جذورها أكثر فأكثر في أرض العرب، أو أن تتعمق مفاهيمها التحررية والتقدمية في نفسية الجماهير العربية، اشتد هذا المعسكر الاستعماري الصهيوني الرجعي في مقاومتها والتآمر عليها وتأليب مختلف وسائل المقاومة والتآمر لسحقها من الأصول. حتى إذا وجدها، في مرحلتها الحاضرة، قد ازدادت تأصلاً ورسوخاً وامتداداً، ووجدها ازدادت تلاحماً مع قوى الثورة العالمية بمختلف فصائلها الاشتراكية والتحررية والعمالية، رفع يديه عليها شاهراً خنجره الأثيم الذي اسمه اسرائيل ليسدده إلى مكان المقتل من صدرها. وكان المقتل الذي قصد إليه، أول ما قصد، نظام الحكم التقدمي في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية، والبقية تأتي!...

* * *

هنا ينهض أمامنا سؤال يلد عدة أسئلة:

هل من شعب متقدم حضارياً خلت صفوفه من أمثال ذوي «الأقنعة» هؤلاء؟ وهل من شعب مني بأمثال هؤلاء قد استطاع تجنب نكسة أو هزيمة كمثل النكسة أو الهزيمة التي أصابت العرب أخيراً؟ بل نقول للمشككين بالإنسان العربي في بلادنا: إن شعوباً أوروبية يثقون هم كل الثقة بتقدمها حضارياً إلى مدى بعيد في التقدم، قد أصيبت بأفدح وأفجع مما أصاب العرب من هذه الهزيمة، وكان «للطابور الخامس» من أبنائها يد طولى في هزيمتها. فهل خطر لهم أن يتخذوا ذلك شاهداً ودليلاً على تخلف هذه الشعوب الأوروبية التي يعرفونها جيداً، وربما يحبونها جيداً، في المجال الحضاري؟ فلماذا ـ إذن ـ يمعنون تشكيكاً بالإنسان العربي إلى هذا الحد، لأن هزيمة عسكرية نزلت به لأسباب لا يتحمل تبعاتها سوى أفراد قلة لا تربطهم بالإنسان العربي النوع غير رابطة النسب وحدها؟

هذا أولاً . . . وأما ثانياً فإن الهزيمة تقاس بمدى الهدف الذي قصد إليه العدو حين دبر عدوانه ونفذه. وهل كان الهدف الأول والأهم للعدوان الاستعماري الاسرائيلي الأخير غير إسقاط نظام الحكم التقدمي في الجمهورية العربية المتحدة وسوريا؟ فهل حقق العدوان هدفه هذا، وهل حصلت الهزيمة العربية فعلاً بالنسبة لهذا الهدف؟

وأما ثالثاً فإن الهزيمة العسكرية هذه نفسها قد أثبتت حضارية الإنسان العربي على وجه كان ينبغي أن يراه بعض هؤلاء المشككين، وأن يكبَروا شأنه، ونحن نعلم إخلاص هذا البعض ونعلم قدرته على الرؤية. وذلك أن الإنسان العربي ـ أعني الشعوب العربية كلها وفي مقدمتها شعب الجمهورية العربية المتحدة بالذات ـ سرعان ما وضع يده على جراح الهزيمة في نفسه يكبت نزفها ليثب وثبته العظيمة ليل ٩ حزيران/يونيو الماضي واليوم التالي له، كي يمنع الكيد الخفي الذي أحس، بصدق فراسته الحضارية، أنه يكاد يحقق الهدف الأول للعدوان، وهو إسقاط عبد الناصر عن مكان القيادة للثورة التقدمية، تمهيداً لإسقاط الثورة نفسها. وقد استطاع الإنسان العربي منع هذا الكيد بالفعل، فحقق بذلك ثورة جديدة نبعت من قلب الشعب وضميره، ومن القيمة الحضارية التي يأخذ بها قلبه وضميره، أعني قيمة الحرية: حرية الإنسان.

* * *

إن شعبنا يؤمن بقيم الحرية، ويجعل أرضه كلها ميداناً لمعركة طويلة تمتد أكثر من مئة عام من تاريخه الحديث للكفاح في سبيل هذه القيم، وفي سبيل أن تتجسد هذه القيم في حياته مجتمعاً حراً متحرراً من قيود العبوديات والتبعيات وأنواع التسلط الخارجي والداخلي ـ نقول: إن شعباً بهذه المنزلة من الاستمساك بقيم الحرية والدأب الطويل الصامد الصابر في الكفاح من أجلها، ليس إلا من باب الظلم والتجني الغريب عليه أن يُتهم بأنه متخلف حضارياً، وليس يصح لمفكر وشاعر كبير مخلص من أبنائه أن يدعي عليه بأن الكوارث المتلاحقة في تاريخه لم تغير من عقليته ونفسيته شيئاً، في حين أنه يخوض معركة الحرية منذ عشرات السنين، ويقدم التضحيات لها بسخاء، ويموت في ميادينها الألوف

من أبنائه، ولا يزال الذين يرغبون في الموت من أجل قضية الحرية أكثر من أن يحصيهم العد.

أليست الحرية قيمة عظيمة من القيم الحضارية؟

ألم يخرج الإنسان العربي من ظلمات القرون الغابرة ومن كهوف الاستبداد السحيقة، فجأة، وهو مثقل بتراث هائل من الكوارث التاريخية الرهيبة، فإذا هو يُحدث الانتفاضة تلو الانتفاضة والثورة بعد الثورة، في هذا البلد العربي وذاك، وفي هذه الحقبة وتلك، كفاحاً متواصلاً لكي يدفع هذا الاحتلال وذاك عن وطنه، ولكي يُجلي هذا المستعمر وذاك عن أرضه وتراثه وخيرات بلاده، ولكي يحقق الحرية لجماهير شعبه؟

لقد استطاعت المعركة، معركة الحرية والمصير، في بلاد العرب، ولقي فيها الإنسان العربي الهزائم بعد الهزائم، وما يئس واستسلم، ولا نفذ صبره وأخلى ميدان المعركة، حتى بدأ يذوق طعم الانتصار منذ نحو ربع قرن تخللته بعض الهزائم. وإلا فمن أين نبعت هذه الثورة العربية التي يحقد عليها الاستعمار هذا الحقد الهائج ويتآمر عليها هذا التآمر اللئيم؟ وإلا فلماذا يحقد الاستعمار هذا الحقد ويتآمر هذا التآمر؟ وإلا فكيف بقيت هذه الثورة تزداد عمقاً واتساعاً واشتعالاً مع الزمن لولا أنها ليست من صنع أفراد نخبة، بل من معدن الشعب الأصيل ذاته؟

هل يصح القول في الإنسان العربي إن الكوارث لم تغير من عقليته ونفسيته شيئاً وهذه عقليته ونفسيته تتململان هذه الأيام على جمرات الألم من عمق ما حفرت المأساة الطارئة في قرارة ذاته؟

أليس الألم بذاته لمثل هذه المأساة علامة الحياة المستوفزة في قلب المأساة، ودليل الحضور الإنساني المتوهج في الكون الحضاري وفي طريق المستقبل؟

* * *

إن طريقنا إلى تغيير الإنسان العربي طريق معبّد وواضح، هو الطريق الذي شقّه هذا الإنسان نفسه بيده منذ بدأ معركته، معركة الحرية والمصير.

وما دام الإنسان العربي صامداً في معركته هذه، وهو صامد بالفعل، فإن المعركة ذاتها، بتحولاتها المتلاحقة، كفيلة بإبداع أسباب التغيير الدائم في كينونته الحضارية.

إن تغيير الإنسان، وتغيير قيمه الإنسانية والاجتماعية والفكرية إنما يأتيان من ممارسته الحياة، ومن تعميقه الصلات ما بينه وبين الحركة الجوهرية للحياة.

أما التشكيك اليائس الهارب التائه فهو وحده الطريق المسدود الذي ينتهي بصاحبه وبمن يتأثر خطاه إلى شيء آخر ليس هو التغيير الحضاري على كل حال.

وأما الإنسان العربي، فهو واضع قدميه على طريق التغيير التقدمي ما دام لهب المعركة، معركة الحرية والمصير الحر، يتأجج في وعيه وضميره ووجدانه، وهو متأجج حقاً وواقعاً وإن لم يره الشاكون والمشككون، المخلصون منهم وغير المخلصين.

اليقظة الشعبية الشاملة(*)

عبد الله عبد الدائم

السؤال الأكبر: لماذا يمسخ مئة مليون عربي آذاناً تلتصق بموجات الأثير أيام الخامس من حزيران؟ وذلك التحرق والتمزق اللذان يحفران في نفس كل مواطن قبل المحنة وبعدها، كيف نحيلهما، طاقة معبأة منظمة، كيف نفجر منهما العمل والجهد والعطاء؟

أولئك الأطفال الذين يشبون مع العار ويترعرعون على حديث الذل، كيف نقلب هوانهم تحدياً لا يعرف الحدود ومرارة ينبجس منها العمل القادر العميق، واستشهاداً ينتصر على الموت؟

والشبان الذين ضاقت بهم نفوسهم، بعد الذي رأوا من تخاذل آبائهم والذين شهدوا عنفوان شبابهم وشموخ سنهم وكبرياء الحياة المشرئبة في عروقهم تصفعها جميعاً يد فتاة صهيونية تصوب إلى أترابهم في الديار المحتلة خنجر المذلة والخسف، هؤلاء الشبان من لهم بتعبئة حرقتهم المهدورة وثورتهم الضائعة وألمهم التائه؟

وفي زوايا الكنائس والمساجد، أكف ترتفع مبتهلة إلى الله أن يكشف الغمة ويرفع الكرب والمقت، من عساه يستخرج من نداءاتها شوكة سلاح ويحيل دعاءها القاعد المطمئن دعوة إلى الجهاد وصيحة للنضال؟

وتلك الجموع الشعبية التي خشيت يوم الخامس من حزيران/يونيو أفول النجم الذي عبدته، فوقفت من أجل الحاكم متضرعة باكية، هل لها بأن تقف في السلوى والبلوى مع الحاكم لا من أجله، تدفعه إلى المعركة ويدفعها، وتصوب خطواته ويوجه خطواتها، وتصدقه ويصدقها؟

والنفوس الخائفة اليائسة التي لم تعرف ما الذي جرى يوم المعركة، فنسبته إلى المعجزات والخوارق والسحر، أليست جديرة بأن تعرف فلا تهرف ولا تسرف؟

(*) في الأصل محاضرة ألقيت في دار الندوة اللبنانية في بيروت بتاريخ ١٩ شباط/فبراير ١٩٦٨.

وأخرى ذهب بها الغرور كل مذهب، فاستهترت قبل المعركة بقوة عدوها، وظلت تنكرها بعد المعركة، ونسبتها كلها إلى سواها، أليست قمينة بأن تبصر فلا تحلم؟

أسئلة تتداعى وتثور في الخاطر، لا بد أن تلقى أجوبة صريحة إن نحن أردنا أن نبدأ الطريق ونخرج من الدور الفاسد والدوار المعطل؟ ومنطلقنا في هذا بيِّن سليم:

نحن أمام قضية القضايا في وجودنا وكياننا، نحن أمام مسألة بينة بذاتها لا يختلف فيها اثنان، نحن جميعاً بلا استثناء ثورة ضد جسم دخيل وانتفاضة في وجه سرطان خبيث. لسنا في القضية الفلسطينية في حاجة إلى مزيد من الإيمان والثورة والألم.

ومع ذلك فثورتنا سلبية، وإيماننا انفعال، وألمنا خدر. منذ نيف ونصف قرن، جيلاً بعد جيل، ونظاماً تلو نظام، نواجه المعضلة حائرين ونحمل الأسى يائسين، ونتأبط الهزائم ضائعين. لسنا قلة ليغفر لنا عديدنا، لسنا فقراء لنتأسى بفقرنا، ولا نحن أغبياء لنجد السلوى حتى في غباوتنا؟!

فما لنا؟ وما بنا؟ ذلكم هو السؤال الحائر الكبير، ووراءه ألف جواب وجواب، وراءه عللنا وآفاتنا، ودونه الكشف الصادق عن حقيقتنا. قد نقول كل شيء في الجواب على عجزنا: التخلف والاستعمار والفرقة وما نشاء.

غير أن صارخاً من أعماق الفييتنام سيقول لنا: هذا كله لا يكفي. ومكمن الداء وراء ذلك.

أجل مكمن الداء في هدرنا لطاقات الملايين، في ضعف سعينا لتعبئة الجماهير بشتى وسائل التعبئة، في تخلفنا عن تحريك العقول والنفوس وتنظيمها.

والدواء إذن ليس عصياً. والطريق ليس مسدوداً. ومفتاح الأمر بيدنا، بيد الواعين منا، بيد القادرين على التوعية والتعبئة.

الطريق بيِّن، والعلاج ممكن، على أنه ليس سهلاً بل دونه عرق ونصب، دونه خرق القتاد. ولكن لا بد من اقتحامه، ولا اختيار سواه، ولا مخرج إلاه.

نحن لا نقول قولة من حسب العرض جوهراً والزائل عريقاً، فنسب ما بنا إلى عجز أصيل وخصال مغروسة مفطورة. فلقد تجاوز العلم وتجاوز تاريخ الشعوب تلك المزاعم العرقية. ولقد رفض تراث أمتنا وماضيها أيام ازدهارها مركبات النقص ومبرراتها، وما يزال حاضرنا يجأر برفض يومئ إلى قدرتنا على التجاوز وامتطاء الصعود.

نحن نقول مطمئنين عكس ما تريده هذه المزاعم التي تحسب الداء العارض بنية أصيلة والتردي الطارئ عجزاً أزلياً. نحن نقول:

لو لم تكن البنية الأصيلة في شعبنا قوية عميقة، لما صمدت أمام هذه الهزات كلها، ولما أنكرت ورفضت وانتفضت رغم ما أصابها من إهمال وتشويه وقسر. ليس عجباً بعد

الذي لقيه شعبنا من محن، وبعد ما لقيه خاصة من إهمال قادته وتفريطهم، ومن تقصير قياداته الواعية وسدرها، أن نجد هذا الشعب معطل القوى مشتت الإرادة. بل العجب كل العجب، والقوة كل القوة، والدليل الذي لا يخطئ على الأصالة، أن نجده مع ذلك متنمراً متحفزاً، يطلب من قادته أن يتجاوزوا ضعفهم وعجزهم، ويتأهب لمدهم بدم جديد بل لإبدالهم بجيل أقدر.

أجل ليس الداء في جماهيرنا الشعبية، بل في قياداتها في مختلف مراتبها وأشكالها. صحيح أن القيادات وليدة الجماهير إلى حد كبير، غير أن الصحيح كذلك أن دور القيادات في الشعوب المتخلفة يظل كبيراً، ويظل غالباً، ويظل الأداة الكبرى لخلق الاتجاهات والمواقف وتكوين الروح المعنوية وتنظيمها. وليس من اليسير على الشعوب المتخلفة، مهما تمتلك من روح التمرد والثورة والأصالة، أن تجتنب العطالة والجمود والتحجر التي تخلقها جميعها قيادات لم تعمل على توعية شعبها، واستخدمت وسائل السلطة المخيفة في عصرنا، لتعمل على تضليله أو تعميته أو اضطهاده، بدلاً من توعيته وتحريره. وليس من السهل على شعب يفيق من رقاد طويل، أن يزيح العصائب عن عينيه، والحجارة عن كاهله، والزيف عن عقله، إذا أسهمت في تضليله واستغلال جهله وعجزه والرقص على أشلائه، قيادات متسلسلة متتالية، تبدأ بالقيادات المثقفة الواعية وتنتهي بالقيادات السياسية الحاكمة. وهل نطلب من الشعب الأعزل من كل سلاح، ومن سلاح الثقافة البارع خاصة، أن يبلي خيراً من بلاء المثقفين أنفسهم، حملة القيم وسدنة الحقيقة، فيرتفع صوته يوم تخمد أصواتهم، ويرفض ويأبى يوم يستخذون ويركعون، ويخلص للحقيقة يوم يمتهنونها وهم حماتها؟

ورغم هذا، ومع هذا، نجد الشعب يتحرك ويتململ تحت ثقل أحماله، يتحرك في عنف ووعي معاً، لا يحمِّل القيادات أكثر مما تحتمل ولكنه يطالبها بأن يكون معها إن هي أحكمت تعبئته، ويعدها بأن يشد أزرها إن لم تغفله وتهمله، وينذرها بأن يتجاوزها إذا هي تجاوزته.

أجل نحن نتهم. نحن نتهم القادة أولاً ولا نتهم الشعب إلا في المنزلة الثانية. نتهم القيادات على اختلاف مراتبها وأشكالها، وعلى رأسها قيادات الفكر. نقول للعلماء: إنهم إذا وقفوا على أبواب الملوك ذلوا وأذلوا. ونقول للملوك: إنهم إذا أهانوا العلم ومرغوه، افتقدوه يوم المحنة فلم يجدوه، وافتقدوا الشعب ساعة الكرب، فلم يستطع أن يجيب، وافتقدوا الإنسان، القوة الحقة القادرة على الصمود بقيمها وإرادتها وإيمانها ومهاراتها، فوجدوه حطاماً ومزقاً من جني أيديهم.

نقولها، ونقولها للمفكرين والمثقفين خاصة: إنهم القوة الفاعلة في المجتمع، وإنهم مسؤولون عن الشعب والساسة معاً، فكلاهما في حاجة إليهم ولو أنكراهم أحياناً. الساسة في حاجة دوماً إلى صوت القيم ومعايير الحقيقة، وإن هزئوا منها في ساعات سكرهم بالسلطان! قد لا يجترعونها بيسر، وقد يجرعون قائلها المر والصاب، ولكنهم لا

وجدوها يوم الجد، ولا بدّ عائدون إليها وقت المحنة، ولا بد أن تفعل فعلها في نفوسهم، حين تخرج نقية صادقة من فم الحقيقة. إنهم بشر، فيهم ما في سائر البشر، وأكثر مما في سائر البشر، من صلف ومكابرة وعدوان، ولكن فيهم ما في سائر البشر، وأحياناً أكثر مما في سائر البشر، من إذعان لصوت الحق، حين يكون صادقاً، ومن خضوع لأنين الواقع، حين يعرف هذا الواقع أن يسمعهم أنينه. فيهم ككل الناس، الحيوان والإنسان، الشيطان والملاك. وسدنة الفكر هم الذين يقودونهم، كما يقودون الإنسانية كلها، نحو معارج الإنسان، نحو مصاعد السماء، نحو ذرى الألوهية.

والآن بعد أن عاد القادة إلى مراجعة أعمالهم ونقد ذاتهم، وأخذت ترن في ذاكرتهم أصداء أقوال، طالما سمعوها من قلة من المفكرين الصادقين، وطالما كانوا عنها مدبرين، وبعد أن بدأت القيادات المثقفة تتفحص دورها وتحاسب نفسها وتتلمس طريقها، ما عسى أولئك وهؤلاء فاعلين؟ وما هي معالم الطريق التي توصلهم إلى تعبئة الشعب بعد طول إهمال، وإلى تنظيم طاقاته بعد طول تفريط؟

قليل من كثير نستطيع أن نقوله في هذه الجلسة القصيرة. لن نقول كل شيء، ولعلنا نقول ما هو أولى بأن يقال:

ميدانان كبيران ينفتحان أمام القيادات السياسية والفكرية في إطار هذه الغاية الكبرى: تعبئة الشعب وتنظيم قواه المعنوية. أولهما يتصل بأهم الاتجاهات الفكرية التي ينبغي أن تأخذ بها هذه القيادات، إذا أرادت أن تخلق وعياً شعبياً منظماً، قادراً على الخروج من المحنة. وثانيهما يتصل بجوهر الصلة بين هذه القيادات وبين الشعب الذي تقوده. نعني خاصة بين الحكام والمحكومين، بين الحكم والشعب.

ولنبدأ بالميدان الأول: لنسائل عن مقومات الاتجاهات التي ينبغي أن تنظم عمل القادة ـ ساسة ومفكرين ـ في محاولتهم لبناء روح معنوية شعبية فعالة ومنظمة، قادرة على الصمود في وجه الخصم، متأهبة للخروج من المحنة.

وههنا أيضاً نقول القليل من كثير:

١ ـ نقول أولاً لا بد في كل بداية من الانطلاق من الواقع، لنبني على أساسه الواجب. لا بد أن نبحث فيما هو كائن إذا أردنا أن نعرف ما ينبغي أن يكون. لا بد أن نجعل أهدافنا ومثلنا مطمئنة إلى الأرض وهي تشرئب إلى السماء.

ولن نتحدث عن أهمية الانطلاق من معرفة واقعنا العربي وتحليله، ليكون ذلك رائدنا في تغييره. وحسبنا أن نتحدث عن أمر قد لا يقل عنه بل قد يفوقه، نعني معرفتنا بعدونا. لقد قيل الكثير عن أهمية معرفتنا بعدونا، وإن كنا في مجال هذه المعرفة متخلفين. وما أظننا رغم كل ما قيل وكتب عن العدو نعرف الشيء الكثير عن حقيقة وجوده وعن حقيقة الصهيونية. ما أظننا نعرف ما ينبغي أن يعرف عن نشأة هذه الحركة وأهدافها المرسومة منذ حوالى قرن من الزمان، وعن قرارات مؤتمراتها التي نيفت على السبعين،

وعن مذكرات أربابها المليئة بالمعلومات الخطيرة، وعن الصهيونية كتنظيم عالمي، بل كحكومة غير منظورة لها مواردها المالية، ولها جعلها الذي تفرضه على كل يهودي، ولها قادتها الظاهرون والمستترون في أنحاء العالم جميعها، بل ما نظننا نعرف الشيء الكثير عن توزع اليهود في العالم وقواعد تجمعهم ومراكز السلطة التي يشغلونها. وإسرائيل نفسها لا نعرف عنها إلا النزر اليسير، بل لا نعرف عنها إلا أفكاراً مغلوطة، تغالي في شأنها حيناً وتحط من شأنها حيناً آخر.

إن المعرفة، كما قال أوغست كونت، منذ القديم هي القوة. ونحن لا نستطيع أن نغالب الأشياء ما لم نخضع لها أولاً، أي ما لم نعرف قوانينها، على حد قول بيكون. والمعرفة الصحيحة، هي التي تجنبنا الإفراط والتفريط: فلا نحن نجعل من العدو أسطورة الأساطير ومعجزة المعجزات، ولا نحن نهمل شأنه ونستهتر بخطره، ونرى فيه مسخاً وقزماً. إن وضع الأمور في نصابها سمة العلم وسمة المعرفة العلمية الواعية. والغلو والروح الأسطورية، ووجهها الآخر نعني الروح المستهترة بالخصم، كلاهما من نتاج الجهل. لطالما حسبنا، قبل خلق دولة الصهاينة وبعد خلقها، أن عدم اعترافنا بإسرائيل يبرر عدم معرفتنا لها، وأن عدم الاعتراف وعدم المعرفة صنوان، وأن إنكارنا لإسرائيل يكفي ليقف حائلاً دون وجودها ونموها. ومن هنا هان علينا أن نتحدث عن قدرتنا على قذف اسرائيل في البحر خلال أيام معدودات، ودفعنا ثمن ذلك أن قذفتنا اسرائيل إلى البر خلال أيام معدودات. ومن سخرية القدر أن نكون قد أثبتنا بذلك أن اللانهايتين تلتقيان، وأن «الزائد أخو الناقص» كما يقول المثل الشعبي. من سخرية القدر أن ما حدث في الخامس من حزيران/يونيو كان مسطوراً في كثير من الوثائق والكتب قبل المعركة، أو كان من الممكن أن نقرأه بين السطور، وأن نقرأه حتى من خلال العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦.

من السهل أن نبحث عن الأسباب وأن نلتمس لنفسنا الأعذار، ولكن الواقع يبقى أقسى من تعليله. لم نعرف عدونا حق المعرفة، ولا جانباً من المعرفة.

٢ ـ وإلى جانب هذا الدور الذي ينبغي أن تضطلع به القيادات في تعرية الصهيونية ومعرفة اسرائيل وتكوين الموقف الموضوعي العلمي منها بالتالي، ينهض دور متصل به، صادر عنه إلى حد كبير، نعني العمل على تحرير الشعب ـ نتيجة للمعرفة ولإشاعة الروح العلمية ـ من التفكير السحري والتواكل السحري. إن الكثير من شعبنا ما يزالون ينتظرون المعجزة، معجزة القضاء على اسرائيل، ينتظرونها سهواً رهواً، تأتي إليهم هينة طائعة، وينسون أنهم وحدهم المعجزة، أن علمهم ودرايتهم وتعبئتهم وتنظيمهم هي أدوات المعجزة الوحيدة. إن الذي لا يعرف القوانين التي تسير وفقها الأشياء لا بد أن يفكر تفكيراً سحرياً. والذي لا يعرف مقومات الصهيونية ومقومات الطريق الموصل إلى التغلب عليها، يظل ينتظر المن والسلوى تساقط عليه النصر، ويظل ينتظر الفارس الأسود الملثم الذي يستطيع بسيفه وحده ـ سيف عنترة ـ أن يقضي على منتجات عصر الصواريخ والذرة.

إنه يحلم أحياناً بصاروخ من صنع سوفياتي يستفيق الناس على أنباء تدميره لإسرائيل عن بكرة أبيها. ويحلم أحياناً أخرى بيد إلهية ترسل على اسرائيل ريحاً صرصراً عاتية فلا تذر فيها من باقية.

وقد تراود خياله حملة مضرية على اسرائيل يتنادى إلى صيحتها كل عربي، ولو كان مسلحاً بالحجارة. أوَ لم تنتشر الشائعات السخية في خاتمة حزيران/يونيو يوم زيارة بودغورني للقاهرة، متحدثة عن وصول «أسلحة سرية» تضمها صناديق عملاقة حطت في مطار القاهرة أو في ميناء الاسكندرية قادرة على أن ترد اسرائيل إلى حدودها خلال أقل من ٤٨ ساعة؟

أوَ لَم ترتق الصواريخ التي أغرقت الباخرة إيلات أخيلة الكثيرين فكبرت وكبرت وامتدت رؤوسها النووية حتى كادت تطل على تل أبيب؟

إن العقل السحري ــ وهو وليد عدم المعرفة أولاً وقبل كل شيء ــ خدين كما نرى للاتكالية السحرية بشتى صورها وأشكالها. ولا بد أن يعلن قادة الرأي العام الحرب عليه. لا بد من القضاء على روح التواكل، وتحرير الشعب من الأوهام التي تعفيه من الجهد وتجعله يفر من الحرية ومسؤولياتها، لا بد من إخراجه من إطار هذا الحلم الكسول الذي يقوم بوظيفة كل حلم، نعني الحيلولة دون اليقظة. أليس الحلم حارساً للنوم مانعاً لليقظة كما يقول فرويد؟ أليس ملجأ لمن يريد أن يهرب من مرارة الواقع؟ ألا يشفي رغبات وأماني لا يجد المرء سبيلاً إلى شفائها وهو يقظان؟

إن من مهمات قادة الرأي العام أن يحرروا الشعب من هذا التواكل المريع، أن يعلموه أن يحيا دون هرب، أن يتكئ على سعيه وجهده، أن يكون سيد مصيره وخالق مستقبله. إن من واجبهم أن يعلموه أن الجائع لا يشبع من موائد الخيال، وأن الظمآن في حمارة القيظ لا ترويه ذكرى الأنهار، ولا رؤى السراب، وان المشلول لا يستطيع أن يعتمد على رجلين غير رجليه. إن ما لم ينهض بجهد الشعب وتعبه لن ينهض بجهد غيره، وما لم يصدر عن الذات لن يصدر عن السوى، على حد قول الفلاسفة، وما لم تبنه الأمة العربية نفسها لن تبنيه لها أمة على وجه الأرض.

إن من حق هذا الشعب على قادته أن يدحضوا، أمام بصره وبصيرته، كل تفسير للحوادث يردها إلى صدف أو معجزات أو ظروف استثنائية، وأن يبينوا له أن الصدف نفسها ــ إن كانت هنالك صدف ــ لا تأتي في الحياة إلا للذين يستحقونها على حد قول باسكال، أي للذين يجهدون ويتعبون في سبيلها. الاكتشاف العلمي لا يأتي صدفة ــ إن صح أصلاً أن نستخدم هذه الكلمة ــ إلا بعد أن يجهد الباحثون طويلاً في سبيله. ومثله كل نصر وظفر.

ولعل من أبرز عوامل تحرير الشعب من روح الاتكال هذه، تحريره من الاتكال على صورة أبطاله أنفسهم. إن دور الأبطال لا ينكر، ولكن هؤلاء الأبطال لا يعملون إلا من

خلال شعب متحرر غير متكل حتى عليهم. والشعب الذي تعطله صورة البطل أو صورة الأب (Pater Imago) كما يقول علماء النفس، بدلاً من أن تلهبه وتحركه وتدفعه إلى مزيد من التضحية والعطاء والمشاركة، شعب ما يلبث حتى يغدو عبئاً على البطل والبطولة.

ومن عناصر الاتكالية الذميمة كذلك الاتكالية الدينية المشوهة. فالأدعية لا تسقط الطائرات إلا إذا كان معناها الاستشهاد في سبيل القيم الدينية التي تصدر عنها. والدين ـ أي دين ـ يطلب من ديّانيه أن يعقلوا الناقة أولاً ثم يتوكلوا. يطلب إليهم أن يعدوا لعدوهم ما يستطيعون، وبعد ذلك يقرنون قوة العدد بقوة الإيمان. يقول لهم قولة عمر ابن الخطاب: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

٣ ـ ومن هنا نلمس جانباً ثالثاً في الدور الذي ينبغي أن يضطلع به قادة الرأي العام في سبيل تعبئته وتنظيمه. ونعني بهذا الدور دور الدين.

إن هذا الدور ما يزال مهملاً. نحن نجتنبه في كثير من الأحيان ونتهيب الخوض فيه، أو نهمله في أحيان أخرى منكرين شأنه. وكلا الموقفين لا يغير من الواقع شيئاً: فالدين قائم هناك في نفوس الجمهرة الكبرى من أبناء الشعب، ولن يقلل من أثره هروبنا من الخوض في شأنه، أو إنكارنا لأهميته. وحين نتحدث عن تعبئة الجماهير، لا بد أن نجعل الدين أحد عناصر هذه التعبئة. لا سيما إذا ذكرنا أن الدين في حياة الشعب في البلاد العربية تراث وثقافة وقيم ترتبط بجوهر وجودها القومي.

غير أن الدين حركة إلى أمام، ولم يكن في أعماقه يوماً من الأيام ارتداداً إلى خلف. والدين أولاً وآخراً ما يصنعه الديّانون. فهم الذين يحيلونه طقوساً جامدة وخرافات ليست منه وتواكلاً لا يمت إليه بصلة، وهم الذين يستطيعون أن يجعلوا منه ثورة على الظلم والاستعباد واضطهاد الإنسان، وصيحة للجهاد في سبيل الحق. هم الذين يردونه إلى قيم سلبية، قوامها الامتناع عن اجتراح السوء وكف الأذى والرضا بالواقع والاستسلام للزهد، وهم الذين يحيونه قيماً إيجابية نشيطة متحدية. على يد الديّانين ينقلب الدين «أفيوناً للشعوب» وعلى يدهم أيضاً يتحول إلى قوى فكرية وإنسانية جبارة تنشد العدالة وتثور للإنسان، وتظل تدافع عنه، ولو لم يبق على وجه البسيطة أحد يدافع. إنه في أعماقه صورة المثل الأعلى ونموذج الخير الذي يطمح إليه الإنسان. إنه صورة الإنسان الذي يريد أن يرقى إلى مستوى الخالق. وهذه الصورة حية أبداً متغيرة أبداً مع تغير الأزمان، لا تعرف التحجر في قالب معين.

وليس هدفنا الإسهاب في هذا الميدان، ميدان الدين وشأنه في تجنيد الرأي العام، إذا هو تحول ـ كما ينبغي أن يكون ـ قوة للعطاء والبذل والتضحية والجهاد في سبيل المبدأ، في سبيل الصدق، في سبيل كل ما يندرج تحت هذا العنوان الكبير: المستقبل الأفضل للإنسان. وحسبنا أن ذكرنا عابرين أهمية الموقف السليم الذي ينبغي أن يقفه

القادة من الدين إذا هم أرادوا أن يجعلوا منه أداة التعبئة الشعبية: انه لن يكون عندئذ استغلالاً للنفوس المؤمنة الطيبة، ولا حماية لاستغلال المستغلين، ولا قناعة ورضاً وزهداً، فضلاً عن أن يكون تجارة رابحة، بل سيكون دعوة صادقة إلى خلق مجتمع تطور فيه الروح المادة وتقويها وتعمل على نمائها السليم، كما تحد من انحرافها وطغيانها. سيكون خاصة متهماً للقاعدين عن الجهاد في سبيل القيم الدينية الحقة، قيم الانتصار للإنسان والدعوة إلى الحق والكفاح في سبيل رفع الظلم.

٤ ـ وإذا كانت معرفة أسباب انتصار العدو ـ كما سبق أن ذكرنا ـ واجبة، فمعرفة أسباب النكبة لدينا أوجب. ههنا أيضاً وههنا خاصة، تلزم المكاشفة الجريئة، وتتوجب التعرية وتحرّم التعمية. أجل حرام أن يخيل إلينا أن مما يحمي الروح المعنوية للناس أن نهون عليهم ما حدث، وأن نلتمس أمامهم التفسيرات المجانية والسهلة، أو أن نقذف لهم بالأسباب الظاهرة يصبون عليها نقمتهم ويصرفون على حسابها مرارة ثورتهم. فالذي يحمي الروح المعنوية حقاً ويقوى على تعبئتها من جديد ويبقيها متقدة رفيعة، هو الكشف الصادق عن الحقائق، هو الرجولة التي ترفض أن تتعلل بالأعذار أو أن تحتمي بالتأويلات الرخيصة. إن عمق المأساة يفرض علينا عمق المكاشفة وعمق التحليل. إنه يفرض النفاذ إلى ما هو أبعد من الظاهر، وتجاوز القشرة السطحية في تعليلنا للأحداث. وهل بعد المحنة حجاب يبقى، أو ستار يجوز أن يسدل؟ إن كل حجاب نخفي به جانباً من النور، يفتح للشعب سراديب من التيه العميق، من الضلال النفسي المحطم. إن الحياة السردابية لن تحمينا، وإن الركون إلى عيش الخفافيش لن يجعل الشمس غير موجودة. «اعرف نفسك» حكمة كانت منقوشة على باب معبد دلف في اليونان، اتخذها سقراط شعاراً، وينبغي أن تكون لنا هادياً. وكم وراء معرفة النفس من جرأة وبطولة وجهد. كم وراء الكشف عن رؤى «العالم الأصغر» من بصيرة برؤى «العالم الأكبر».

ما أحوجنا إلى أن ندرك أبعاد معركتنا وعوامل غلبتنا وانتصارنا. لن يجدينا الدوران حول الحمى. لا بد أن نمضي تواً إلى الأسباب الحقيقية، الأسباب العميقة، لا بد أن نحلل مجتمعنا، أن نعري سياستنا، أن نشرح نهجنا. لن نلف الناس حولنا إذا نحن أعطيناهم جانباً من الحقيقة أو أعطيناهم الحقيقة مقلوبة. هل نرفع الروح المعنوية للشعب، وهل نزيد في إشراكه في النضال والكفاح ضد عدوه، إذا قلنا له إن هدف اسرائيل هو الإطاحة بنظم الحكم القائمة أولاً وقبل كل شيء؟ ألا يعني ذلك أن نقول له بلغة أخرى: إنك لست هدفاً لإسرائيل، بل لعل اسرائيل حليفة لك ضد أنظمة من الحكم قد لا تكون معها على وفاق؟ ألا يعني هذا أن نخلق لديه وهماً وأي وهم، حين نقول له إن اسرائيل لا تريد الأرض والوطن؟ أفلا نيسر بذلك لعبة خطرة تريد أن تلعبها اسرائيل نفسها حين تحاول أن توهم أن عداوتها للحكام لا تمتد إلى عداوتها للشعب، وأنها مع الشعب في سلم وأمان لولا غلواء الحكام وتحدياتهم؟ أفلا نمهد لمؤامرة جهنمية تريد أن تزيد في عزل الشعب عن الحكام، فتيسر القضاء على كليهما؟ إن من الطمس لحقيقة الصهيونية التي ولدت قبل أن يولد أي نظام للحكم في البلدان العربية أن نقول إنها

حركة ضد الأنظمة أولاً. في هذا نكران للثورات العربية التي قامت في فلسطين واحدة تلو الأخرى منذ حوالى نصف قرن، فيه نكران لجهاد الشعب العربي كله خلال سنوات طويلة.

إن الصهيونية حركة تريد الأرض والوطن، ولا سبيل إلى حربها إلا بتمسكنا بالأرض والوطن أولاً. نحن لا ننكر دور النظم ونجاحها في ربط الناس بالأرض واستشهادهم في سبيلها. ولكننا لا ننسى أيضاً أن مقاومة الصهيونية عمل قومي شامل، لا بد أن يرتبط به كل عربي، ولا بد أن يجري على صعيد الجبهة العربية الشعبية الموحدة.

إن الكشف عن الحقائق وإدراك أبعاد المسؤولية المشتركة التي دفعت بنا إلى الهوة، هو وحده الذي يحول دون ولادة الاتجاهات النفسية المخربة، ودون تغلغل الدسائس الدخيلة التي تريد أن تخرب قوانا الروحية وتعطل إرادة النضال لدى شعبنا. ليس الإعلام الخاطئ بما حدث هو الذي يقي الناس من اليأس والضياع. إنهم حين تحجب عنهم الأسباب الحقيقية، لا بد باحثون عن أسباب أخطر وتفسيرات أمعن في القنوط. وحين لا تملأ نفوسهم الحقيقة الوضاءة ـ مهما تكن مرة ـ يحتلها الظلام والأكاذيب والضلالات والسموم الغريبة. لا، لن يستغل المستغلون الحقائق إن هي أعلنت! إن مرتعهم الخصيب أرض الإبهام والغموض والمخادعة.

٥ ـ والحق (وههنا نصل إلى دور آخر ينبغي أن يضطلع به قادة الرأي العام) أن وراء الكثير من الضلال الذي توقع فيه القيادات الشعب، فكرة صحيحة يساء تفسيرها. إنها الفكرة القائلة إن تحرير فلسطين محصلة وثمرة للنضال العربي كله، في جميع صوره وأبعاده، ونتيجة طبيعية للكيان العربي المنشود يوم يستقيم بنيانه ويشتد عوده. إنها الاعتقاد بأن حل القضية الفلسطينية لا بد أن يأتي في خاتمة المطاف، مطاف الكفاح العربي في سبيل بناء مجتمع عربي اشتراكي حر.

لن ينكر منكر أن مأساتنا الفلسطينية تعبر عن ضعف بنياننا، وترجمة لأدوائنا وعللنا العميقة. وليس من جديد القول، أن نقول إن التخلف بشتى صوره وأبعاده، هو المسؤول الأول عن تلك المأساة، وإن مجاوزة ذلك التخلف شرط الخلاص منها.

غير أن هذا شيء، وإرجاء العمل للقضية الفلسطينية حتى يأتي ذلك اليوم الموعود شيء آخر. إن عملنا للمدى البعيد ـ وهو العمل الأصيل الجذري الذي لا ينكره أحد ـ لا يجوز أن ينفي عملنا للمدى القريب.

إن كل عمل للحاضر والمستقبل القريب لا تهديه نظرة إلى الغد وخطة بعيدة المرمى والقصد، عمل ارتجالي، وارتجافات عصبية مؤقتة، ونار كنار الهشيم تذروها الرياح. ولكن كل عمل لما هو آت، وكل تخطيط لمقبلات الأيام، لا تنبثق عنه خطة للعمل الناجز السريع، يغدو حلماً بعيد المنال ويفتقد أدوات إنفاذه ومراحل صيرورته وانقلابه إلى واقع. فالقريب يمتاح من البعيد بصيرة وهدى ومعرفة بالمصير، والبعيد يكتسب بالقريب حدوده

وأبعاده، ويستقي منه إمكانه. البعيد بدون القريب بحث عن المستحيل، عما سيصبح مستحيلاً ما دمنا لم نرسم له المراحل والخطى. وإذا كنا في حاجة ماسة إلى أن نعمل بالنفس الطويل، بالنظرة البعيدة، فنحن في حاجة ماسة أيضاً إلى أن نتقن أسلوب العمل على مراحل ومراتب ومستويات.

وما هي ترجمة هذا كله إلى لغة فلسطين؟ أمر بسيط هام:

لا بد أن يكون العمل من أجل القضية الفلسطينية عملاً يومياً وجهداً متصلاً ينطلق من الظروف القائمة لتعبئتها وتطويرها. لا يمكن أن ننتظر كل شيء حتى نربح الجولة. الخطأ كل الخطأ أن نقعد عن العمل والجهد ـ مهما يكن صغيراً ـ في انتظار الحل الأكبر، في انتظار خلاص البلاد العربية من تخلفها، في انتظار وصولها إلى كيانها الحر المنشود، في انتظار تحقيقها لثورتها الشاملة على أوضاعها. الثورة الشاملة نتيجة لجهد متراكم، وينبغي أن نتعلم كيف نصنع من الجهود الصغيرة ثورة حين تعوزنا الجهود الكبيرة. والثورة الشاملة لا تكون إذا نحن غفونا كالأرنب دهراً، ثم قفزنا على حين غرة، فإذا بنا لا نلحق حتى بالسلحفاة. الثورة تغيير جذري، ولكن هذا لا يعني أنها لا تكون إلا إذا أهملنا كل علاج زمناً، وانتظرنا استشراء الداء حتى نقوم بعملية جراحية.

إن المبدأ القائل: «كل شيء أو لا شيء» مبدأ خطير في كل مجال، وخطير في مجال القضية الفلسطينية. نريد أن نصنع اليوم كل شيء، ونريد أن نغير الأمور بعصا سحرية ونريد أن نبيد اسرائيل بين عشية وضحاها. فإن لم نفعل، أرجأنا كل شيء أيضاً إلى غد بعيد، لا نعد له ولا نبنيه بناء موصولاً، بل نتقابل وإياه من جديد ونحن في مكاننا من التخلف لم نبرحه، ونحاول فيه كرة أخرى أن نفعل كل شيء، فلا نفلح.

بالجهد الموصول، بالعمل الدائب، بالنضال المتراكم، يبنى التقدم وتبنى الثورات. والعمل للهدف الكبير لا يحول دون العمل لهدف أصغر بل يشترطه. والسياسة ليست فن المستحيل، بل فن الممكن. إنها التعامل مع الواقع لاستخراج أحسن ما فيه وتغييره وتوجيهه شطر هدف يزداد ابتعاداً عنا كلما اقتربنا منه.

إن علينا أن نعرف كيف نعمل من أجل القضية الفلسطينية عملاً يومياً ومن خلال صيغ متعددة الأشكال ومتطورة، وضمن الظروف القائمة ومن خلالها. مثل هذا العمل هو شرط الثورة العلمية. ومثل هذه النظرة هي التي تحررنا من أوهام وأوهام، من بينها ذلك الوهم الذي أشرنا إليه منذ حين، وهم القول إن هدف العدو ليس الأرض والوطن أولاً. بالعمل الدائب وبسياسة المراحل، وصل عدونا إلى هدفه البعيد الذي رسمه منذ حوالى قرن. وبالعمل الدائب وبسياسة المراحل ينبغي أن نعرف كيف نتغلب عليه.

إن القول بأن القضية الفلسطينية مرتبطة بنجاح الثورة العربية الشاملة قول من لا يريد أن يفلح على حد قول الجاحظ، قول من يريد أن يجعل من المبادئ تتويجاً للعجز والعطالة. إن الصلة بين القضية الفلسطينية وبين الثورة الشاملة ـ كالصلة بين أي علة

ومعلول في الحياة الإنسانية ـ ليست صلة أفقية خطية بل صلة دائرية. نعني أن العمل الدائب والمتصل من أجل القضية الفلسطينية ومن خلال الظروف القائمة، يحدد نجاح الثورة العربية الشاملة، كما أن نجاح الثورة العربية الشاملة يحدد نجاح القضية الفلسطينية. وإذا كان الأمر كذلك، فالسبيل أن يسير العمل لهما جنباً إلى جنب متوازياً، وعلى مراحل. وليس السبيل أن ننتظر الأولى لنحقق الثانية أو ننتظر الثانية لنحقق الأولى. كلتاهما لن تتحقق ـ الثورة والقضية الفلسطينية ـ إن نحن عزلناهما الواحدة عن الأخرى، وإن جعلنا إحداهما علة والأخرى معلولة. كلتاهما علة ومعلول. من خلال هذه الحقيقة ينبغي أن نعمل لهما.

هذا طرف من المسائل التي لا بد أن يواجهها قادة الرأي العام إن هم أرادوا تعبئة القوى الشعبية وتنظيمها. ما أشرنا إليه هو أمهات الاتجاهات في نظرنا، وقد أغفلنا عن قصد مسائل عديدة لا يتسع لها المقام.

فلنمض إذن إلى الميدان الثاني الكبير الذي أشرنا إليه منذ البداية حين تساءلنا عن وسائل هذه التعبئة الشعبية الواعية المنظمة. ونعني به ميدان الصلة بين القادة والمقودين، بين الحكم والشعب.

وههنا نلج ميداناً شائكاً صعباً، لا بد من ولوجه واقتحامه. فكل تصد لموضوع الإسهام الشعبي والمشاركة الشعبية الواعية، يظل منقوصاً بل مضللاً إن هو لم يقف الوقفة الجريئة الصريحة عند الأثر الكبير الذي تخلفه في هذه المشاركة الصلة بين الحكم والشعب. وليس بالمحدث أن نقول إن للقيادة عامة وللقيادة السياسية خاصة دوراً وأي دور في تحديد مستوى الروح المعنوية لدى أفراد أي مجتمع. ويزداد هذا الدور حدة ووضوحاً في البلدان المتخلفة والسائرة في طريق النمو، حيث يضطلع الحكم السياسي بالنصيب الأوفى من قيادة الناس، وحيث تتضاءل القيادات الأخرى والتنظيمات الأخرى. وفي بلداننا العربية يكاد يطغى موضوع هذه الصلة بين الحكم والشعب على أي شيء سواه، ويكاد يحدد سلوك المواطنين ومواقفهم حتى من القضايا المصيرية الكبرى كقضية فلسطين. ولا نغلو إذا قلنا إن الدرس القاسي الذي نستخرجه من المحنة هو أننا لا نستطيع أن نعبئ شعباً يقوم انفصال كبير بينه وبين حكامه. وإذا كان من الصحيح أن الجوع يكاد يكون كفراً، فمن الصحيح ـ فيما نشهد ونعاني ـ أن الظلم لدى الشعوب يكاد يكون أشد من الكفر ويكاد يدفع إلى ما هو أشد من الكفر. ولا يجدي أن نتهم، فاتهامنا لا يغير من الواقع شيئاً، وما هو أجدى أن نزيل أسباب الاتهام المتبادل بين الشعب والحاكم.

١ ـ المسألة أننا نريد تعبئة الشعب كله أو معظمه، والإفادة من طاقات كل مواطن وتجنب الهدر والضياع ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وإذا نحن آمنا أن هذا المطلب يقدم على سواه وأن الطريق طريق تجنيد القوى الشعبية ولفها حول المعركة وتنظيم طاقاتها، فلزام علينا أن نؤمن أن مثل هذه الغاية لا تبلغ إلا باتهام الحكم قبل الشعب.

جوهر القضية أننا بلدان متخلفة تسعى إلى تجاوز تخلفها، وأن تجاوز هذا التخلف

يستلزم غالباً حكومة ذات سلطان وأيد وقوة. غير أن هذه الحكومة القوية وهذه اليد القديرة الممسكة بزمام الأمور التي تحتاج إليها مثل بلداننا السائرة في طريق النمو السريع، كثيراً ما تنزلق في المنزلق السهل الخطر، فتنقلب عندها السلطة إلى فوضى واستعباد وفساد. ويقوي من خطر هذا المنزلق أن طبيعة مثل هذه البلدان تجعل الرقابة الديمقراطية غير ممكنة إلى حد بعيد. ويزيد في الأمر ضغثاً على إيبالة أن الدولة الحديثة في عصرنا ــ ولا سيما في البلدان المتخلفة ــ ما تزال وريثة الأشكال البدائية للسلطة، نعني السلطة التي عرفتها الأقوام القديمة والمستندة إلى السحر والدين إلى حد بعيد. فلقد كان الحكام في المجتمعات القديمة كما نعلم رسل القوى الغيبية التي تحكم العالم أو لسنة الآلهة التي تسيِّر الكون. ومن هنا كان الخضوع لهم ولأوامرهم الصادرة عن هذه القوى العليا هو النظام الاجتماعي.

هذه الطبيعة السحرية والقدسية التي كانت للحكام القدماء، ما تزال ترافق الحكام المحدثين، وما تزال مفاهيم الشرعية والحق مرتبطة بقرارات السلطة، بل بالصيغة الشكلية لهذه القرارات. بل ما يزال الحق والقانون إلى حد بعيد ــ ولا سيما في البلدان المتخلفة ــ إحدى الوسائل الكبرى التي تختبئ فيها السلطة والقوة وتلبس لبوسها.

ويزيد في هذه الطبيعة التسلطية لدى الحكام المحدثين ما تخلفه وسائل الحكم الحديثة من قدرة هائلة، تسهم في منحهم وجوداً سحرياً وقدسياً محدثاً، قوامه قوى خفية مستسرّة أيضاً، ولكنها قوى النار والحديد والسلطان، بدلاً من قوى الآلهة والأرواح والسحرة في المجتمعات القديمة. إن وسائل الاتصال الحديثة، ووسائل الدعاوة الحديثة، ووسائل القوة الحديثة، تعطي الحكام المتسلطين سلطة على الشعوب لا مجال لمقارنتها بسلطة الطغاة القدماء. زد على ذلك أن عدد الحكام الذين يحكمون شعباً من الشعوب يتسع في عصرنا، ومعنى هذا أن عدد الأشخاص الذين ينبغي أن يخضع لهم المواطن يزداد، فإذا به أمام مجموعة من الطغاة الصغار بدلاً من طاغية واحد.

من هنا تقع كثير من البلدان السائرة في طريق النمو في طريق مسدود: تقوم فيها الحكومات القوية في سبيل دفعها إلى التقدم السريع، غير أن هذه الحكومات ما تلبث حتى تجد نفسها أمام المنزلق الخطير، منزلق الاستبداد والتسلط، أمام عنف يدفع إلى عنف أقوى منه، ويزيد في ابتعاد الشعب عن الحكم شيئاً بعد شيء. وإذا بالحكم في نهاية الأمر عاجز، لأنه لا يستطيع أن يحقق شيئاً دون مشاركة الجماهير، الجماهير التي عزفت عنه وصدت.

تلكم هي بلغة مبسطة، وقد تكون مخلة، قصة الشعب والحكم في مثل بلداننا. الحاكم الغائب عاجز عن تطوير المجتمع، والحاكم ذو السلطان معرّض لأن ينزلق في مهاوي الاستبداد فينعزل عنه الشعب ويعجز. الحاكم غير الموجود والحاكم الموجود جداً، كلاهما يعطل نمو الإرادة الشعبية، ويحول دون تعبئتها وتنظيمها.

فما هي سبيل النجاة من بين قرني الإحراج كما يقول المناطقة؟

لن نعاود حديثاً مكروراً، حديث الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية، حديث الموازنة أو التأليف بينهما.

كما أننا لا نبتغي عقد مقارنة بين أنظمة الحكم المختلفة في موقفها من الديمقراطية، ولا سيما النظامين الكبيرين في العالم، نظام الحكم الغربي ونظام الحكم الماركسي.

وحسبنا، تمهيداً لما نريد الوصول إليه، أن نقول موجزين إن الفصل بين الديمقراطيتين ـ السياسية والاجتماعية ـ وبالتالي بين النظامين الصادرين عنهما ـ النظام الغربي والنظام الماركسي ـ لا يخلو من خطأ وتعميم سريع واستقراء ناقص لتطور الأنظمة في العالم.

ولا نعني بذلك فقط ان الديمقراطية السياسية لا تأخذ كامل معناها ومداها وتظل ديمقراطية زائفة إذا لم ترتبط بالديمقراطية الاجتماعية، وأن الديمقراطية الاجتماعية بدورها إذا هي لم تأتلف بالديمقراطية السياسية لا تستطيع أن تحقق أغراضها، وتنقلب إلى تسلط على الإنسان الذي تريد أن تنقذه من عبودية أوضاعه الاقتصادية السيئة. لا نعني بذلك هذا المعنى فحسب، وهو معنى مستمد من لغة الواجب، من لغة ما ينبغي أن يكون، بل نعني شيئاً آخر مستمداً من لغة الواقع نفسه، من لغة ما هو كائن. نعني أن تطور أنظمة الحكم في العالم يحدثنا عن تقارب طبيعي تدريجي يزداد وثوقاً، يوماً بعد يوم، بين الأنظمة الغربية، التي تأخذ فيما يقال بالديمقراطية السياسية في الجملة، وبين الأنظمة الماركسية التي تأخذ بالديمقراطية الاجتماعية. فعلى الرغم من الفوارق الكبيرة القائمة بين هاتين المجموعتين من الأنظمة في كثير من مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، يظل من الصحيح أنهما في مجال المفهوم السياسي أقرب مما تتصوران. ذلك أن كلاً من النظام الغربي والنظام الماركسي يسير نحو اشتراكية ديمقراطية، إن صح التعبير ـ لعلها هي الصيغة السليمة الصحيحة التي تنتظر سائر الدول في مقبلات الأيام. وهما يسيران صوب هذه الاشتراكية الديمقراطية عبر اتجاهين متلاقيين في النهاية: اتجاه إلى مزيد من الحرية والديمقراطية في الشرق، واتجاه إلى مزيد من التحرير الاجتماعي والاقتصادي، أي إلى مزيد من الاشتراكية في الغرب. كلاهما يبحث عن قطبي الديمقراطية الصحيحين، نعني الحرية والتحرير. كلاهما يريد أن يمنح للديمقراطية معناها ومضمونها عن طريق ملئها بمحتواها الحق. وما عسى أن يكون محتواها، إن لم يكن تحرير الإنسان من أنواع العبودية كلها، سواء كانت عبودية الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أو عبودية الساسة والحكام، عبودية المال أو عبودية الرجال؟ أنصار النظام الغربي يدركون يوماً بعد يوم أن الديمقراطية الخلوة من المحتوى الاجتماعي والاقتصادي، تجعل الحرية احتكاراً لمن يملكون وسائل التصرف بها، نعني لمن يملكون المال ووسائل الإنتاج، وتجعلها بالتالي شكلاً لا جوهر له. إنهم يدركون إدراكاً متزايداً أن الديمقراطية الحقة ليست شعاراً مكتوباً ولا فكرة مجردة معلقة بين السماء والأرض، وإنما هي ديمقراطية لا بد أن تبدأ من النضال ضد العوامل الموضوعية التي تؤدي إلى عبودية الفرد، نعني العوامل الاقتصادية والاجتماعية. إن

التجربة تكشف لهم كرة بعد كرة أن العمل للحرية لا يكون إلا عن طريق النظر في القوى الاجتماعية الواقعية الفعلية، وفي علائقها المتبادلة، وفيما بينها من صراع وتضارب، بغية تنظيمها التنظيم الذي يكفل للإنسان وجوده الكريم. وأنصار النظام الماركسي بدورهم، في بحثهم الشائك عن الصيغة الملائمة للديمقراطية الاشتراكية، يدركون إدراكاً متزايداً أيضاً أن كل انحراف عن الديمقراطية والحرية، ضمن المجتمع الاشتراكي، لا بد أن يؤدي إلى انحراف في الاشتراكية نفسها. إنهم يرون أن الأخطار الحقيقية التي تواجه الاشتراكية لم تعد تأتيها من خارجها، من الأنظمة المعادية لها، بقدر ما تتهددها من داخلها، من عجزها عن إيجاد اللحمة العضوية العميقة التي تربطها بالحرية، حرية الإنسان في أوسع معانيها. إنهم يؤكدون مرة بعد مرة أن قيمة الديمقراطية في أي نظام، هي بمقدار ما للإنسان داخل هذا النظام من قيمة. وتحرير الفرد الذي تهدف إليه هذه الأنظمة الماركسية يتبدى يوماً بعد يوم تحريراً شاملاً لا جزئياً، تحريراً من جميع أشكال الضغط والظلم. أنه لا يرضى بأن يحرر الناس من عبودية المال ليوقعهم في خطر عبودية الرجال. إن المسألة تتراءى لهذه الأنظمة، مع تقدم الزمن، مسألة خبز وكرامة معاً، لا مسألة معدة. فمن الصحيح دوماً وأبداً أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

يضاف إلى هذا، بل قبل هذا، أن تفوق الاشتراكية على الرأسمالية هو في أعماقه، وفي خاتمة المطاف تفوق التنظيم على عدم التنظيم. فإذا ما فقدت الاشتراكية ــ بسبب إمعانها في مجانبة المناخ الديمقراطي اللازم لكل تنظيم فعال ولكل مشاركة خصيب منتجة ــ صفة التنظيم هذه، فقدت الدين والدنيا، وضلت الحسنيين.

ولا حاجة بنا إلى تعداد الأمثلة الكثيرة التي تشهد على هذا التغير في كل من نظام الحكم الغربي ونظام الحكم الماركسي، سواء عن طريق التجارب الفعلية التي تقوم في بعض الدول، أو عن طريق الأبحاث والدراسات الايديولوجية الآخذة في تطوير مفاهيم الديمقراطية بكلا معنييها. وأولى بنا أن نقف عند بلدان العالم الثالث، البلدان السائرة في طريق النمو، بلداننا:

ليس جديداً أن نقول إن من المسلمات الاقتصادية اليوم أن العالم الثالث لا يستطيع أن يغدو حديثاً متقدماً ويتجاوز الهوة بينه وبين البلدان المتقدمة، عن طريق الرأسمالية. ولسنا متجنين إذا قلنا إن من المستحيل بناء مجتمع إنساني حقيقي ــ في بلدان العالم الثالث وسواها ــ على أساس مبادئ الرأسمالية. فهذه المبادئ تسير نحو الزوال والهبوط، وتفقد قيمها يوماً بعد يوم. ذلك ان الرأسمالية، بطبيعتها وطبعها، ضد ما هو اجتماعي. إنها تجعل نشاط كل فرد مركزاً حول ذاته، وتجعل كل إنسان يعيش في قوقعة أنانيته. ومن هنا قام ويقوم بين الرأسمالية وبين الديانات العالمية الكبرى، تناقض أساسي، وبرز هذا التناقض واضحاً حاداً في تاريخ الرأسمالية الغربية في صلتها بالمسيحية. وإذا كانت للرأسمالية حتى اليوم بقية باقية من شرعية، فهي شرعية سلبية لا ايجابية، لا تستقي من

صحة مبادئها وقوة قيمها، بل تستمد مبررات بقائها من تفضيلها على نقيض آخر لها قد يفوقها سوءاً، هو الستالينية في شتى صورها وأشكالها.

وهكذا يسلك كثير من بلدان العالم الثالث ـ انطلاقاً من التجربة العالمية ومن متطلبات التنمية السريعة عندها ـ طريق الاشتراكية. غير أن هذه الاشتراكية في مثل هذه البلدان لا بد أن تكون ـ كما سبق أن قلنا ـ معتمدة على قدر من السلطة والقوة، ما دامت بنية هذه البلدان في مراحل تطورها الأولى تجعل الديمقراطية متعذرة. وكثيراً ما تنزلق هذه السلطة في المنزلق الميسر لها، والخطر المفتوح أمامها دوماً، نعني الاستبداد في شتى صوره.

ومن هنا قد يكون من غير الممكن، في بلدان العالم الثالث، أن تقوم مباشرة اشتراكية ديمقراطية، تربط ربطاً وثيقاً من البداية بين قطبي الديمقراطية، نعني الحرية والتحرير. ولا بد لها في معظم الحالات أن تتعرض في المرحلة الأولى من حياتها، مرحلة دخول الطريق الاشتراكي، إلى شيء من فقدان التوازن بين الأهداف الاقتصادية والاجتماعية، وبين الأهداف الإنسانية الكاملة، على حساب هذه الأخيرة. وإذا كان قدر من فقدان التوازن قدراً يصعب الهروب منه، فهو يختلف اختلافاً جذرياً عن موقف آخر هو الخطير: إنه موقف من يريد أن يستغل هذه الظروف المرحلية في نشأة هذه البلدان ليبرر عن طريقها كل أنواع التسلط والعنف، بل ليجعل من التسلط والعنف أصلاً ومبدأ. إنه موقف من ينحدر في طريق العنف شيئاً بعد شيء، حتى يحسبه أنجع طريق وأفضل طريق، إن لم يفلسفه ويجعل منه خير مرب للشعوب.

وآية هذا كله، أن الطريق الذي يومئ إليه مستقبل التطور في بلدان العالم الثالث ـ كما تومئ إليه التجربة العالمية كلها ـ هو طريق الاشتراكية الديمقراطية، التي تسعى جاهدة للتغلب على مصاعب التحول الاشتراكي ومخاطره اللاديمقراطية. إنه الطريق الذي يعمل بوعي ودأب وجهد على تطوير نظام اشتراكي، فيه من العنف أقله، يفسح المجال لأقصى حد ممكن من الحريات السياسية، كمرحلة أولى نحو اشتراكية ديمقراطية أكثر تكاملاً وتعانقاً. ولعل استقراء تجارب كثير من الدول النامية في افريقيا وآسيا، يشير إشارات واضحة إلى هذا الطريق، ويشهد على أنه طريق المستقبل.

إن ما يسهل على كثير من أنظمة الحكم في البلدان الناشئة وسواها، أمران كلاهما مر: الأول سلوك طريق الديمقراطية الليبرالية السائبة إلى حد كبير، تلك الديمقراطية الوديعة في ظاهرها، المحملة في أعماقها بكل احتمالات الانفجار والثورة، الحاملة في داخلها بذور انقضاضها على ذاتها. والثاني سلوك طريق الدكتاتورية السافرة، التي توحي بظاهر من النجع والنظام والنتاج، غير أنها تحمل أيضاً في ذاتها بذور عطالتها وموتها، حين تعزل الشعب عن تقدم لا يكون بدونه. كلا الطريقين سهل، سهل في بدايته صعب في خواتيمه. أما الطريق الشاق والمثمر معاً، فهو الطريق الذي يبحث دائباً عن الصيغة التي تحقق الربط بين قطبي الديمقراطية الأصيلين، الذي يسلط كل ذكائه وعبقريته في

الحكم على تجنب أشواك المسير، على الحيلولة دون انقلاب السلطة إلى عنف، على الخروج في أسرع وقت ممكن من مرحلة العنف النسبي الذي لا يمكن اجتنابه أحياناً. إنه الطريق الذي يضع في بداية الطريق نهايته، نعني الديمقراطية الاشتراكية، ولا تنسيه تعقيدات الطريق ومراحل الوصول، الهدف النهائي الذي يعمل له، والذي ينبغي أن يغذي كل خطوة من خطواته.

إن بلدان العالم الثالث في موقف ممتاز بعض الشيء: إن أمامها تجارب الدول الأخرى، تلك التجارب التي تبين لها كيف يسير التطور نحو تقارب طبيعي بين قطبي الديمقراطية، كيف ينصب الجهد على تحقيق اللحمة بين هذين الميدانين، كيف انبثقت المآسي من الفصل بينهما. غير أن المعضلة هي في موقف غريب تقفه بعض هذه البلدان، حين تعيد ـ على حسابها ـ التجارب العالمية إعادة حرفية، كأنها ترى في تكرار ما حدث لبعض الدول عبر تطورها، وما تجاوزته بعد ذلك، قدراً لا يمكن اجتنابه. ومن هنا كان المنطلق في نظرنا هو في استنطاق التجربة العالمية واستخراج معناها واتجاهها: هو في الخروج بهذه النتيجة التي كادت تصبح أوضح من الوضوح، نعني اتجاه التجربة العالمية نحو التقارب الطبيعي بين قطبي الحرية، نحو الاشتراكية الديمقراطية. إن كل شيء في التجربة العالمية، وفي واقع البلدان السائرة في طريق النمو، يشير إلى أن هذه البلدان لا بد أن يؤدي بها المسير يوماً إلى طريق الاشتراكية الديمقراطية، والمسألة كل المسألة أن تدرك اتجاه التطور هذا فتيسره، بدلاً من أن تدور حول الطريق، فلا تبلغه إلا بعد تخبط وتعثر، والتفاف وانعراج، مارة بالشيوعية أو الرأسمالية ومآسيهما، كغيرها من بلدان العالم فيما مضى.

عن هذه النظرة ينبغي أن تصدر أنظمة الحكم في بلادنا إن هي أرادت أن تكون ضمن التاريخ لا خارجه. وهذه النظرة هي التي تجنب بلادنا كثيراً من الكوارث وضروب التخبط. ولا يعني هذا أن تطبيق هذه النظرة يمكن أن يكون واحداً فيها جميعها. فمثل هذا التطبيق لا بد أن يختلف باختلاف مستوى النمو، وطبيعة الحياة، ومستوى الثقافة، وتكوين المجتمع، في كل بلد من هذه البلدان. غير أن من الصحيح دوماً أن في وسع هذه البلدان جميعها أن تستهدي هذه النظرة، أن تضع درس التاريخ نصب عينيها. فلا أخطر ولا أحمق من مغالبة دروس التاريخ.

وهذه النظرة حين تجنب بلادنا ما تجنبها، تعمل على تحقيق مطلب أساسي هو قصدنا في هذه الكلمة، نعني مطلب الالتفاف الشعبي حول أنظمة الحكم، وإمكان قيام تعبئة شعبية منظمة، يقودها الحكم والجماهير معاً. الحرية الفعالة، الحرية الحافظة لكرامة الإنسان، المانعة لاستغلاله، هي القادرة على تحقيق وحدة الشعب وربطه بوطنه ويقيم وطنه، وهي القادرة على جعل كل مواطن مستعداً للاستشهاد في سبيل الحفاظ على تلك الثورة المشتركة التي منها لا بد أن نبدأ، إذا أردنا أن نتقن تعبئة الشعب في سبيل قضيته الكبرى. وإذا كان من الجائز جدلاً أن نهمل هذه الحرية وذلك التحرير في المراحل العادية

من حياة أي مجتمع، فإهمالها في مثل هذه المرحلة الاستثنائية التي نمر بها، أكثر من جريمة قومية.

لا بد لنا أن نواجه الداء في أصله وجذره: عسير بل مستحيل، كما قلنا ونقول، أن نحقق تعبئة شعبية في بلد يقوم فيه انفصال بين الحاكم والمحكوم. عسير أن نقف في وجه عدو شرس متقدم موحد، ونحن شتات وشيع، ملل ونحل، حكام ومحكومون، شعب وسلطة، جيش وشعب، ظالمون ومظلومون، حاقدون وشامتون. والقيادة، والقيادة السياسية خاصة، أهم عامل في وحدتنا، في استقطاب إرادتنا. إن التفاف الشعب حول الحكم أصدق ترجمة لالتفافه حول نفسه.

وبعد، كان بودنا أن نتم بعض نقائص هذا الحديث ـ وهي كثيرة ـ بالوقوف عند جانب مكمل لكل ما طرقناه، هو البحث في الصيغة التنظيمية لهذه الإرادة الشعبية، التي أردناها واعية، معبأة، مدركة للهدف، مؤمنة به، عاملة له عملاً يومياً متصلاً. كان بودنا أن نتحدث عن الروح التعاونية والعمل التعاوني ـ ولا سيما في مجال الزراعة ـ كوسيلة من وسائل تعميق الإرادة الشعبية وتنظيمها، ووسيلة من الربط الوثيق بين الأرض والدفاع عنها، ووسيلة لمقاومة ما شرعته الدولة العدوة في مزارعها التعاونية، وما لجأت إليه من ربط للمهاجرين الجدد بأرضهم ووطنهم، ومن جعل التعاونيات نفسها مراكز ومنظمات دفاعية. كان بودنا أن نتحدث عن أهمية إقامة منظمات مختلفة الأشكال، يرتبط بها العمل الجماعي ويزكو وينمو، وتتضاءل فيها الروح الفردية الطاغية في مجتمعاتنا، كما تتكون خلالها الإرادة المشتركة، والتعبئة المشتركة ضد العدو. كان بودنا أن نبين أهمية المنظمات التي تعنى بدراسة الرأي العام في بلادنا دراسة اجتماعية علمية منظمة، لتستخرج اتجاهاته، وتحسن توجيهه، وتحول دون توجيه العدو له. كان بودنا أن نتحدث عن التنظيم العسكري للشعب، وعن تدريبه على القتال كوسيلة مثلى من وسائل تعبئته ورفع روح النضال لديه. كان حتماً علينا أن نشير إلى الوسائل التربوية ـ في تعليم الصغار والكبار ـ اللازمة لخلق الاتجاهات النفسية القادرة على تعبئة المواطنين وتوحيدهم.

كان لزاماً علينا أن نتحدث عن هذا كله وعن كثير سواه، لو لم يكن موضوع بحثنا شتيت الجوانب عريض الأرجاء. ولعل لنا إلى هذا الجانب التنظيمي عوداً في مجال آخر.

* * *

وقد تقولون: **أين لبنان من هذا كله؟ ونقول إنه منه في القلب.** إن له الدور الذي تمنيت لأي بلد عربي، ويزيد. يزيد، لأن ثقافته لا بد أن تكون موقداً للقيم التي رجوت، وللاتجاهات الفكرية التي آثرت. يزيد، لأن مناخه الديمقراطي ـ ولا سيما حين يوغل في استنباط النتائج التي تلزم عنه، والشروط القمينة بكمال تفتيحه ـ أصل لبناء المجتمع الذي ننشد، والصوى الروحية التي نستهدي. يزيد، لأن عروبته ـ عروبته التي نريد أن تكون واعية علمية تقدمية ـ غذاء للعروبة كلها ووقاء. رسالته أن يكون بين البلاد العربية أفضل مختبر لتوليد الفكر وتصحيح التجارب. وقدره أن يخف لأن يجعل من

الإنسان العربي أنى كان، الإنسان الذي يريد، إنسان التليد والطريف، إنسان الثورة والنظام، إنسان الفرد والمجتمع. هو بين تخوم الشرق والغرب، ليحقق التفاعل الأصيل الخلاق بينهما، ليجد ذاته ويجد العروبة من خلال سواه، ليكون هو مَن هو حين يتحداه الوجود الغربي الدخيل عليه. لينمو أصالة وتربة وقومية، حين ينفتح على الإنسان والإنسانية. ليجد العروبة ويجددها ويقومها، حين يجد ذاته ويدرك أبعاد مصيره. ليصبح قرارة التحدي للصهيونية، حين يقرع في وجهها تقدماً بتقدم، وعلماً بعلم، ووجوداً بوجود.

أجل من شواطئ لبنان، ومن غير لبنان، نرتجي أن تقوم القيادة الفكرية والسياسية التي تبني سفينة النجاة. من كل بلد عربي نطمح إلى القيادة التي تقود الشعب وتعبئه وتنظمه. نهيب بالقيادة القادرة على تحريك المليون المئة، المبدعة للأفكار، القوى الخالقة للاتجاهات الروحية المتفجرة عطاءً وعملاً. نريد القيادة الفكرية والسياسية التي تستطيع أن تعيد النظر في ذاتها دوماً وأبداً، وتعيد بناء نفسها أولاً لتستطيع أن تعيد بناء شعبها. نريد الفكر الذي يتجاوز ذاته، والسياسة التي تعرف أن ترفض نهجها قبل أن ترفض غيرها. نريد الإنسان الذي يخلق بتواضعه للإنسان، وركوعه أمامه، كبرياء الإنسان وإشراقته. نطمح إلى الأفكار التي ألهبتها نار المأساة فركعت في محراب الحقيقة لترى، لتضيء، لينقلب ضياؤها وهجاً، طاقة جبارة، براكين تغلي في النفوس.

دور القيادة والقيادة الفكرية خاصة، في مثل بلداننا، كبير، ومسؤوليتها أكبر. هي التي نرجو لنخلق لدى الجماهير الروح العلمية والموقف الموضوعي، لنقضي على العقل السحري والتفسيرات المجانية، لنكشف الأسباب الحقيقية للمحنة دون ما تعمية أو تضليل، لنقيم صلة عضوية بين الحكم والشعب.

ولكن القيادة، والقيادة الفكرية خاصة، وعي وبطولة. وعي قمته ومنتهى نضجه أن يرقى إلى البطولة. وبطولة لا تكون ولا تعمق إلا إذا كانت وعياً دائماً لذاتها. إنساننا القائد الذي إليه نحن، كالنهر يسقي وهو مقبل منحدر، وكالشجرة تشمخ وجذورها في التراب، وأوراقها على الأرض ظلال، وثمارها من الأرض وإلى الأرض. كالشجرة، من تواضعه للإنسان، من غوصه في وحله، يخلق الإنسان الباسق الأشم، وكالنهر، من حنينه إلى الشاطئ وحدبه عليه، يفجر الينابيع.

نحو تخطيط شامل للعمل العربي(*)

اسماعيل سراج الدين

مقدمة

من الجلي أن الدول العربية ما زالت تتخبط في سياسات متضاربة تجاه مشكلة اسرائيل، وكل ما تفرضه هذه المشكلة من إعادة تقييم لنظمنا وعلاقاتنا بعضنا بالبعض وبالعالم الخارجي. ويبدو أن حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ والهزيمة الفادحة التي أنزلتها الجيوش الصهيونية بالجيوش العربية النظامية قد ولدت طاقات بناءة، وإن كانت بعد محدودة، تجسدت في أمرين:

١ ـ تصعيد الكفاح الفلسطيني المسلح.

٢ ـ الحديث المستفيض عن حرب التحرير الشعبية، وإن كان الأمر لم يتجاوز مرحلة الحديث.

وتجاه الموقف الراهن، يتعين على الدول العربية ـ شعباً وحكومات ـ أن تبلور سياسة موحدة شاملة، خالية من التناقضات الجذرية التي وصمت كل المحاولات السابقة، تأخذ الأمر الواقع بعين الاعتبار، وتنطلق نحو آفاق جديدة.

وإنني رغم تقديري التام لقصوري ـ وقصور أي فرد بمفرده ـ عن توضيح مثل هذا المخطط، إلا أنني أود أن أطرح بعض الأفكار التي عنت لي في هذا الموضوع، آملاً أن تكون منطلق حوار جاد بيننا يمكّننا من أن نصل إلى رأي جماعي أو شبه جماعي في هذا الصدد.

وفي مستهل الحديث، يحسن أن نردّ على القائلين إن الثورية لا تسمح بمثل هذا التمهل الفكري، وإن اليسارية تستدعي ممن يتبناها أن يكون حركياً قبل أن يكون مفكراً،

(*) نشر في: دراسات عربية، السنة ٥، العدد ٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨)، ص ٥ ـ ٢٣.

يحسن أن نرد على هؤلاء بأن الجذرية الحقيقية إنما هي الصبر في وجه المشاق إلى أن نتفهم حقيقة جذور موقفنا، لا الضجر بهذه الدراسة وقيمتها. وقد كتب ماركس تحذيراً لمن يتبعونه «ان العمل دون نظرية إنما هو عمل أعمى!»[١].

١ ـ أهمية تطوير نظرية عربية

قد ورد في كثير من الآراء أن حرب التحرير الشعبية نموذج مدروس، وما علينا سوى تنفيذ المخطط الذي اتبعته الصين أو الجزائر أو يوغسلافيا أو كوبا أو غيرها من الدول التي خاضت حرباً للتحرير[٢]، ويشيرون إلى التشابه السطحي بين هذه النماذج والواقع العربي، فكل من هذه النماذج ينطوي على:

أ ـ **الشعب**: وهو كبير عدداً، وذو موارد كامنة ضخمة، ولكنه متأخر تكنولوجياً وحضارياً، فقير لا يملك العتاد الكافي ولا التدريب اللازم للمواجهة.

ب ـ **عدو الشعب**: الذي يتكون من فئة صغيرة ـ جيش أجنبي أو فئة اجتماعية معينة تعتمد على جيش نظامي قوي ـ متقدمة حضارياً وتكنولوجياً وتنظيمياً، يمكنها قمع تحركات الشعب بسرعة خاطفة، ولا تسمح له بمجابهتها بسيطرتها المستمرة على ساحة القتال.

ولكن اسرائيل ليست استعماراً تقليدياً بالمعنى المفهوم، بل إن هذا الكائن الغريب أشبه ما يكون بنظام «الأبارثيد» في جنوب افريقيا وفي روديسيا، فاليهود الاسرائيليون ليسوا جيشاً محتلاً من أبناء بلد غريب وإنما هم مستوطنون، الكثير منهم ولدوا على أرض فلسطين المحتلة، ولا يعتبرون لأنفسهم وطناً آخر. لذا فجدير بنا أن ندرس لماذا فشلت حرب التحرير في روديسيا، ولماذا لم تتمكن من القيام في جنوب افريقيا حتى نتمكن من تفادي هذه الأخطاء. إن ذلك أجدر بنا من أن نسكر أنفسنا بقصص الانتصارات الهائلة التي أحرزتها جيوش المقاتلين في الصين وفيتنام.

ولننظر بشيء من التأني إلى النموذج المبسط المذكور أعلاه. يمكننا إذن أن نسرد الاختلافات الآتية بينه وبين الواقع العربي:

أ ـ الشعب

(١) إذا أردنا أن نكون واقعيين في تقييم موقفنا فلا يمكننا أن نتجاهل الحدود

---

(١) ويصح أن نذكر هنا أن الهجوم الأكبر على ادوارد برنشتين كان أساساً لهذا السبب، أنه نصح بالحركية المطلقة. وقد ردد هذا النقد حتى من اتبع تراثه من الاشتراكيين الديمقراطيين في الدول الغربية.

(٢) يمكن الرجوع إلى مقال سعد الدين ابراهيم لندوة منظمة الطلبة العرب في آن آرجو، متشغن، والذي نشر تباعاً في مجلة الشباب العربي. وقد تناول هذا المقال أغلب هذه التجارب ورسم فيها نموذجاً ممتازاً لحرب التحرير الشعبية.

السياسية بين الدول العربية ونتحدث عن «الشعب العربي». إن هذه الحدود تزداد ضراوة إذا نظرنا إلى أي حد تختلف النظم الداخلية للدول العربية، ولا شك أن ذلك يكوّن عائقاً كبيراً لتنسيق المساعدة بينها، فما بال توحيد العمل؟

(٢) الجماهير العربية نفسها تختلف من بلد إلى آخر، بل داخل البلد الواحد[٣]. وما زالت قطاعات عريضة منها تشعر بإقليمية موحشة تجعل من أبناء مصر مصريين وأبناء العراق عراقيين وأبناء الجزائر جزائريين وهلم جرا، دون أن يوضع هذا الشعور بالفخر القطري ــ وهو وارد ويمكن أن يكون له فاعلية ممتازة كما سنبين فيما بعد ــ في إطار قومي سليم يجعل الشعور بالعروبة رابطة أقوى وأمتن من الرابطة الإقليمية المجردة التي تنبثق في أساسها من حدود مصطنعة رسمها نظام المستعمر على الخريطة العربية.

(٣) الواقع الاجتماعي العربي، وما يحوي من تناقضات وتفاوتات يجعل من النظرة الشمولية الجامعة للعالم العربي في تعقيده مجرد تبسيط صبياني يفقد الكثير من قيمته التحليلية إذا لم يوضع في إطاره الصحيح. إن الإطار المنطقي الصحيح لمثل هذا التحليل يستدعي أن نحتفظ بهذه النظرة الشمولية لرسم التناقضات الأساسية للقضية، بين اسرائيل وفلسطين والدول العربية ومن ثم بين الوجود الاسرائيلي والوجود العربي. وسنرجع لهذه المشكلة في مناقشة قضية الدولة الثنائية القومية.

ب ـ عدو الشعب

(١) إن وجود كيان اسرائيلي مستقل، مكون من المستوطنين، يجعل أية مقارنة بالوضع في فيتنام ــ مثلاً ــ مقارنة محدودة على أحسن الفروض. وإن وضع «الكولون» في الجزائر، يختلف عن وضع الاسرائيليين في فلسطين المحتلة. فالكولون كانوا ــ وما زالوا ــ يعتبرون أنفسهم فرنسيين، وقضيتهم مؤداها الاحتفاظ بـ «الجزائر الفرنسية»، أي الاحتفاظ بالجزائر جزءاً من فرنسا. ومن ثم، يكون أدق تشبيه للوضع الفلسطيني هو اتحاد جنوب افريقيا، وسياسة «الأبارثيد» فيها.

(٢) يختلف التهيؤ الذهني للشعب الاسرائيلي عنه في باقي النظم الاستعمارية التقليدية. فرغم أنه يقوم، إلى حد كبير، على أساس الفكرة العنصرية في صورتها التقليدية، ورغم أن الشعور بالرسالة التبشيرية[٤] يتفشى في نظرة أبناء اسرائيل لأنفسهم، نجد أيضاً عنصراً لم يوجد في التفكير الاستعماري التقليدي من قبل، هو عنصر الخوف

---

(٣) هناك أمثلة صارخة لهذا الوضع في كل من السودان والعراق، كما أن هذه الفروق تبدو واضحة في علاقة أبناء الوجه البحري بأبناء الصعيد في مصر، وتوجد مع بعض التفاوتات في جميع الدول العربية، وبصورة مختلفة في لبنان.

(٤) لقد اتسم الاستعمار التقليدي بالكثير من الشعارات «المبررة» لفظائعه مثل «الرسالة الحضارية» (Mission Civilisatrice) و«عبء الرجل الأبيض» (White man's burden).

والفزع. فإن الأدلة تشهد بصورة قاطعة أن الاسرائيليين عامة مقتنعون بأن هدف العرب هو إقامة مذبحة هتلرية لإبادتهم عن آخرهم. وقد تمكن القادة الاسرائيليون من استخدام هذا التصور ـ الخاطئ ـ في تعبئة جماهير اسرائيل لخوض المعركة بعد الأخرى، في تهجم أعمى يصورونه دفاعاً عن النفس. وتبدو أعراض هذه الخديعة في شعار «الحرب الوقائية» وتسمية الجيش الاسرائيلي بـ «القوات الدفاعية» على سبيل المثال.

ج ـ أهمية الإطار الجغرافي

إذا نظرنا للمعركة الأساسية باعتبار أنها تقع داخل حدود الأراضي المحتلة، حتى التي احتلت بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، لوجدنا أنه لأول مرة في تاريخ حرب التحرير الشعبية، ينقلب مفهوم الأغلبية العددية التي يتفوق بها الشعب على عدوه! فنجد الشعب مكوناً من نحو مليون وثلاثمائة ألف عربي، وعدو الشعب يبلغ مليونين ونصف أو يزيد. ولكننا إذا نظرنا إلى ساحة المعركة على كونها ممتدة إلى الدول العربية المجاورة، عادت الصورة إلى نوع من الاتزان «النموذجي». ويصعب علينا أن نعتبر الوضع هكذا إذا انحصر القتال داخل الأراضي المحتلة...

وليس المقصود بهذا القول أن حرب التحرير الشعبية لا يمكن أن تقوم في ظروف واقع عددي مقلوب، ولكن المقصود هو إيضاح أنه إذا كان هذا هو الإطار الواقعي للمعركة، فعلينا أن نطور نموذجاً جديداً لحرب التحرير الشعبية يلائم هذه الظروف. ومن ثم، علينا أن نحذر التقليد الأعمى للنموذج التقليدي لحرب التحرير الشعبية.

كما أن من الواضح أن توريط العدو في صراع بعيد المدى على رقعة متسعة تحقق الغلبة العددية للشعب، يستدعي تخطيطاً وتكتيكاً خاصاً. والعدو لن ينقل الصراع على هذا الصعيد إلا إذا أجبر على ذلك.

د ـ العوامل الخارجية

تزداد المؤثرات الخارجية أهمية إذا حاولنا تقييم ذلك السند الأساسي لمنطق حرب التحرير الشعبية الذي يهدف إلى استهلاك موارد العدو في حرب طويلة المدى. فبينما يشير البعض إلى ضعف الاقتصاد الاسرائيلي ـ نسبياً ـ ومن ثم إلى سهولة استنفاد موارد العدو، نجد أن واقع العلاقات السياسية العالمية، والدعم الغربي عامة والأمريكي خاصة الذي تتمتع به اسرائيل، أمر يوفر للعدو موارد مقنَّعة ليست بضئيلة. كما أن الدور المحدود الذي يلعبه الاتحاد السوفياتي في هذا الصراع، يثقل كفة العدو فيما يختص بالموارد المقنعة. والضآلة النسبية لوزن العالم الثالث والصين الشعبية، حالياً على الأقل، تشدد من ضراوة الصورة التي رسمناها.

ولكن في حالة الصراع العربي ـ الاسرائيلي على الصعيد الدولي، تحددت ملامح نوعين من الاستقطاب جاءت في مصلحة العرب. أولها الاستقطاب الايديولوجي الذي

وضع الدول الاشتراكية عامة في جانب العرب(٥)، والثاني هو الاستقطاب الديني الذي جعل كل الدول الإسلامية تساند العرب، معنوياً على الأقل(٦). إن كل هذه العوامل تعتبر مجالاً خصباً للدبلوماسية العربية، التي يمكنها، إذا عملت بمرونة كافية، أن تحرز مكاسب ليست بضئيلة. وسنعود إلى هذا عند حديثنا عن العمل الدبلوماسي.

وبعد هذه الملاحظات الأولية علينا أن نبدأ في تطوير برنامج لهذا العمل المطلوب. ويمكننا أن نحدد الملامح الأولية لهذا المخطط الشامل للعمل العربي.

٢ ـ الملامح الأولية للمخطط

إن أي مخطط يحظى بنوع من النجاح يجب أن يقام على أسس واقعية متينة. ويبدأ من منطلقات رئيسية واضحة. وبالتالي فهناك ثلاثة منطلقات أساسية يجب تحديدها بوضوح:

أ ـ نوعية القضية

إن القضية العربية التي نحارب ونجاهد من أجلها قضية متعددة الجوانب، فمنها:

(١) القضية السياسية: تنطوي قضية الصراع السياسي بين القوى الصهيونية والقوى العربية، على مضمون تاريخي يحدد إطارها وتطورها، وعلى مضمون اقتصادي تحدده موارد منطقة الشرق الأوسط، والعلاقات التجارية الدولية، وبالتالي فتظهر عوامل معينة ترسمها المحركات السياسية الدولية. ومن جهة أخرى، فالقضية السياسية تفرض بذاتها ضرورة حل الصراع السياسي بين العرب في الإطار الدولي وليس بعيداً عنه.

(٢) القضية الاجتماعية الاقتصادية (Socio-Economic): وتفرضها النظرة الشمولية للمنطقة ككل فتتجسد في قضية التحديث والتحدي الحضاري، وتفرضها النظرة القومية، فتتجسد في قضية توزيع الدخل العربي، والصراع القطري، كما تفرضها النظرة القطرية فتتجسد في العلاقات الاجتماعية الاقتصادية داخل البلد العربي الواحد، وبالتالي علاقة الفرد بأقرانه.

(٣) القضية الإنسانية: ومحورها الأساسي قضية اللاجئين العرب، ولكن القضية الإنسانية كثيراً ما تختلط بالعاطفة المجردة، ولا تفسَّر (Articulated) في إطار الاحتفاظ بالكيان الذاتي، ومن ثم يستغل ـ خطأ ـ العطف بدلاً من الشعور بالكرامة والذاتية كمحرك رئيسي لمعالجتها.

---

(٥) رغم المواقف المتخاذلة التي أبدتها بعض الأحزاب الشيوعية، ولا سيما في رومانيا وفي الدول الغربية عامة، إلا أن المعسكر الاشتراكي رغم اختلاف مذاهبه (مثل موسكو وبكين) قد وقف في صف العرب.

(٦) تبدو قوة هذا الاستقطاب الديني واضحة في تصويت الدول الإسلامية في الأمم المتحدة. حتى الدول التي بينها وبين العرب خلاف، مثل ايران وتركيا، قد ساندت الموقف العربي في الأمم المتحدة.

وليس المقصود بهذا أن الاستعطاف كوسيلة دعائية على مستوى الرأي العام العالمي ليس وارداً، ولكنه يجب أن يرتبط بسياسة مزدوجة تهدف إلى إعادة بناء الكيان الفلسطيني وتدعيمه وإبرازه فوق الكيان العربي حالياً. وجدير بنا أن ندرس السياسة الصهيونية المزدوجة التي تمكنت من استعطاف الرأي العام العالمي على ضحايا النازية، وفي نفس الوقت، أن تؤكد وتبرز الشخصية اليهودية دون هوان.

(٤) القضية القانونية: ولها أوجه متعددة تشمل:

(أ) وضع قضية اللاجئين بعد قرارات الأمم المتحدة العديدة التي صدرت بشأنهم وآخرها ما جاء في قرار ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧.

(ب) الكيان الفلسطيني والاعتراف الفعلي أو القانوني به.

(ج) مشكلة الحدود.

(د) مسألة المرور في المضايق والممرات المائية.

(هـ) شكل الدولة في طورها الجديد بعد انحسار الصهيونية عن أرض فلسطين.

ب ـ تحديد الأهداف بوضوح

بعد تفهم واع لنوعية قضيتنا علينا أن نحدد أهداف العمل العربي، وأقترح أن تتناول ثلاثة مستويات:

(١) الوضع المرجو في الأراضي المحتلة

لا بد لنا أن نتصور بشيء من التمهل نوعية الدولة التي نرجو إقامتها في فلسطين. إن الحديث عن «الحل» السياسي و«الحل» العسكري تعبير خانه التوفيق، لأن كليهما وسيلة، وليس حلاً. فإذا فرضنا أن الجيوش العربية انتصرت في مجابهتها الحاسمة مع القوات الاسرائيلية، فماذا سنفعل بمليونين ونصف من اليهود الاسرائيليين الذين يقطنون فلسطين المحتلة؟ لا شك أننا لن نفكر في مذابح حمراء، أو حتى في تشريد جماعي، لأن هذا الحل يتنافى والقيم الإنسانية عامة، وتراثنا العربي الإسلامي[٧] خاصة. بل علينا أن نبلور صورة واضحة لدولة يعيش فيها العرب، مسلمين ومسيحيين، مع هذا العدد الضخم من اليهود في إطار واحد وتحت نظام واحد.

يبدو لي أن الحل المنطقي الوحيد لمثل هذه المشكلة هو ما يسمى بالدولة الثنائية القومية (Bi-National State) في إطار علماني (Secular) تام. وقد تحدث بعض الكتاب

---

(٧) لقد نادى الإسلام دائماً بالرحمة منهجاً للحياة. وقد ضرب الرسول المثل الأعظم لمدى هذا التسامح بموقفه يوم فتح مكة. كما أن تراثنا الإنساني كله يتنافى وأعمالاً من هذا النوع. انظر مثلاً: خالد محمد خالد، انسانيات محمد (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٦٠).

عن هذا الموضوع من قبل[٨]، ولا يتسع بنا الحديث هنا إلى رسم تفاصيل هذه الدولة الثنائية، ويكفي أن ننقل عن دراسات سالفة أنها قادرة على الحياة دون تناقضات أساسية.

ومن ثم، ننتقل إلى الصعيد القومي، لرسم الإطار الإقليمي العام الذي تتفاعل فيه هذه الدولة مع الدول العربية الأخرى.

(٢) الإطار العربي

متابعة للنظرة الواقعية التي اتبعناها خلال هذا الحديث، علينا مجابهة الوضع العربي كما هو، محددين هدفاً يتفق وأملنا، آخذين بعين الاعتبار:

(أ) وسائل تحقيق هذا الهدف.

(ب) دور الدولة الثنائية الفلسطينية.

ومن الواضح أن الهدف الأول للعرب جميعاً على هذا الصعيد هو الوحدة. ولكن تحقيق هذه الوحدة يحتاج إلى تنسيق دقيق بين الدول العربية المختلفة لعبور الهوة الكبيرة[٩] التي تفصل بين المجتمعات العربية القاطنة في الحدود العفوية التي تقسم الجسر العربي الكبير. هذا إذا أردنا وسيلة سلمية إلى الوحدة. وهناك من يدعون إلى وحدة بحد السيف إذا احتاج الأمر. وهي نظرة لها قيمتها[١٠]، ولكن لا يجوز أن نتجاهل مدى المشكلات التي يفرضها طريق كهذا. والخلاصة أن موضوع وسيلة تحقيق الوحدة ما زال مطروحاً للنقاش، وما زال في أطواره الأولى ولم يتجسد في مفاضلة واضحة بين حل وآخر.

وبالإضافة إلى ذلك، فنوعية الوحدة المرموقة (فدرالية، كاملة، . . . الخ) سيحدد بالتالي دور فلسطين الثنائية في هذا الإطار الجديد، وليس غرضي حالياً أن أحدد ماذا يجب أن يكون هدفنا، ولكن مجرد التنبيه إلى ضرورة الوصول إلى مواقف محددة تجاه هذه الموضوعات.

(٣) الإطار العالمي

إذا ما حددنا نوعية العلاقات في المنطقة العربية، علينا أن نحدد علاقاتنا بالعالم الخارجي: فعلينا ـ مثلاً ـ أن نضع تحت مجهر الفحص مبدأ الحياد الإيجابي، والمبادئ التي تحكم علاقاتنا التجارية والسياسية الخارجية. ومن ثم يمكن الحديث عن عمل دبلوماسي موحد، هادف، جاد خالٍ من المتناقضات.

---

(٨) بالأخص مقال أسامة الباز في: *Viewpoints*, vol. 1, no. 1 (January 1968).

(٩) الهوة هنا هي تلك التي تتجسد في اختلافات اجتماعية واقتصادية وسياسية كبيرة من بلد عربي إلى آخر.

(١٠) فجدير بالليبراليين الذين يعتبرون هذه الفكرة خرافة أن يتذكروا الحرب الأهلية في الولايات المتحدة (١٨٦٥) وحروب الإنكليز لتوحيد بريطانيا (وآخرها معركة كلودن عام ١٧٤٩ باستثناء المعارك الإيرلندية) وحروب بيسمارك لتوحيد ألمانيا وحروب توحيد إيطاليا.

وإذا ما تمكنا من الوصول إلى بلورة واضحة لأهدافنا، تمكنا من تحديد مطالبنا، وتحديد أولويات هذه المطالب. وتعتبر هذه المرحلة نقطة الانطلاق لأي برنامج تنفيذي كتب له النجاح.

إلا أن عملية تحديد الأهداف ومنها المطالب والأولويات عملية لا يمكن أن يقوم بها أي شخص بمفرده، مهما بلغ من النفوذ السياسي أو العبقرية والمقدرة الذهنية. إن أي عمل لا يشرك الجماهير العربية في هذه المرحلة الأساسية سيبقى بالضرورة غريباً عنها، ومن ثم يصعب أن يوفّق أي برنامج تنفيذي مبني على هذه الأسس الناقصة(١١).

وقبل أن ننتقل إلى رسم الخطوط العريضة لبرنامج تنفيذي، علينا أن نتناول بشيء من الفحص، نوعية العمل الذي يمكننا أن نقوم به لتنفيذ أي مخطط شامل للعمل العربي الموحد في مجابهة التحدي الاسرائيلي.

ومع أن التحليل الذي سيتبع لن يتغير كثيراً في أساسياته مهما كان الهدف المختار، إلا أنني أفترض أننا قبلنا جميعاً مبدأ حرب التحرير الشعبية وسيلة أساسية لمجابهة اسرائيل، وما يكمن وراء اسرائيل. وإن ذلك يتمشى مع انتقاداتي في بداية هذا الحديث، حيث إنني قصدت أساساً التنبيه إلى أخطار التقليد الأعمى الذي ظهر على صفحات الكثير من صحفنا.

ج ـ نوعية العمل

انقاد الكثير من شبابنا إلى اعتبار أن أي عمل غير عسكري ما هو إلا تمويه ومضيعة للوقت والجهد، وعلينا أن نراجع هذه الفكرة الرومانتيكية الفجة. فالعمل الثوري الحقيقي لا ينبني إلا على قاعدة واسعة تستغل كل الطاقات الممكنة، وتحشدها من أجل المعركة. إن حرب التحرير الشعبية نضال سياسي واجتماعي له جانبه العسكري، ولا يصح أن نرفع من شأن النضال العسكري للمغاورين حتى يعمينا عن الجانب السياسي والاجتماعي(١٢). وتمشياً مع هذا المنطق الواعي، يمكننا أن نحدد عدة أوجه للعمل العربي، منها:

---

(١١) إن البلورة النهائية للفكر الجماعي تقع بالضرورة على عاتق أقلية صغيرة، ولكن الحوار على مستوى القاعدة الجماهيرية العريضة هو الذي يرسم أبعاد هذه البلورة.

(١٢) لقد أكد كبار زعماء حروب التحرير الشعبية، مثل ماوتسي تونغ وتشي غيفارا، ذلك مراراً وتكراراً، ونشير بالذات إلى: Ernesto Che Guevara, *Guerilla Warfare* (New York: Vintage, 1968), وقد سبق نشره في: *Monthly Review Press* (1961). انظر أيضاً: «Guerilla Warfare and Method,» in: *Che Guevara Speaks (Selected Speeches and Writings)* (New York: Merit, 1967), pp. 74-91, and كتابات ماوتسي تونغ ومنها A. Freemautle, ed., *Mao-Tse-Tung: An Anthology of His Writings* (New York: Mentor, 1962), specially vol. 1.

(١) العمل الدبلوماسي: كان للدبلوماسية الأميركية دور كبير في خلق اسرائيل عن طريق الأمم المتحدة[١٣]، وتمكنت الدبلوماسية الاسرائيلية من إحراز انتصارات محددة، منها موقفها في السوق الأوروبية المشتركة[١٤]، ولذا على العرب أن يقدروا أهمية هذا النوع من العمل، ويتضمن:

ـ تحقيق المساندة الفعلية لقضيتنا على الصعيد الدولي بإبرام المعاهدات والاتفاقيات وخلافه.

ـ الاهتمام بالرأي العام العالمي، والعمل على تجنيده لخدمتنا، وخدمة قضيتنا، كما فعل رواد الحركة الصهيونية منذ حوالى خمسين عاماً. ويتطلب ذلك عملاً دعائياً واعياً، لا ينقاد للديماغوجية الجوفاء، ولا يستهدف الحصول على موافقة الطبقات الحاكمة المختلفة، بل عمل هادف، يصمم على أساس الجمهور العالمي الذي نهدف الوصول إليه.

ـ استغلال الاستقطاب الايديولوجي الذي ذكرناه من قبل، للتمكن من توطيد العلاقات مع الدول الشرقية فيما يختص بقضية فلسطين. ويجب مراعاة أن أي عمل من هذا النوع له خطورته، دون شك، ولذا يجب أن يقام بحذر حتى لا تقفل الأبواب في وجه اكتساب الغرب. وهنا يمكن للعرب استغلال الفوارق الشاسعة بين النظم والاتجاهات التي طالما باتت عنصراً حائلاً واتخاذ خطوات هادفة نحو الوحدة العربية. ويجب أن أؤكد هنا، أنني لا أعني بهذا أنه يصح تأكيد أو تدعيم هذه الفروقات، ولكن طالما أنها قائمة حالياً، فلا خسارة في استغلالها، طالما لم يكن هذا الاستغلال سبباً لاستمرارها أو ترسيخها.

ـ تدعيم الاستقطاب الديني بتأكيد الدور الجوهري الذي تلعبه الأمة العربية في إطار الأمة الإسلامية الكبرى. كما أن مجرد وجود المعركة على الأراضي المقدسة يتنج آفاقاً هائلة

---

(١٣) وقد أشار فايز صايغ إلى ذلك في: Fayez Sayegh, *The Arab-Israeli Conflict*, Information Papers; no. 22, 2nd ed. (New York: Arab Information Center, 1964);

وأهم المراجع الأولية: Harry S. Truman, *Memoirs*, 2 vols. (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1955-56), vol. 2: *Years of Trial and Hope*, chaps. 10-12, pp. 132-169; Walter Millis, ed., *Forrestal Diaries* (New York: Viking Press, 1951), chap. 9, pp. 336-381; Alfred M. Lilienthal, *What Price Israel?* (Chicago, Ill.: Henry Regnery, 1953), chap. 3, pp. 48-73; Chesly Manly, *The UN Record; Ten Faithful Years for America* (Chicago, Ill.: Henry Regnery, 1955), pp. 49-53; Kermit Roosevelt, «The Partition of Palestine: A Lesson in Pressure Politics,» *Middle East Journal*, vol. 2, no. 1 (January 1948), pp. 3-16, and Richard P. Stevens, *American Zionism and U.S. Foreign Policy, 1942-1947* (New York: Pageant Press, 1962).

(١٤) لتحليل ممتاز انظر: انطوان بطرس، «اسرائيل والسوق الأوروبية المشتركة،» **دراسات عربية**، السنة ٣، العدد ٣ (كانون الثاني/يناير ١٩٦٧)، ص ٤٨ ـ ٦٦.

للعمل الدبلوماسي على الصعيد الديني، الإسلامي والمسيحي واليهودي[١٥].

ـ الأمم المتحدة: ولها دور هام، وإن كان محدوداً، فهي ساحة القتال الدبلوماسي التي أحرزنا فيها انتصارات عديدة[١٦] علينا أن ندعمها ونبني عليها.

كما أن أعضاء الهيئة الدولية وقفوا في أغلب الأحيان في جانب الحق، والحق معنا، كما أن موقف اسرائيل المستهتر بالأمم المتحدة سلاح هائل في مضمار معركة الأمم من أجل كسب الرأي العام العالمي.

(٢) العمل السياسي والتنفيذي: ويتضمن أساساً القيام بتعبئة جماهيرية شاملة استعداداً للقيام بحرب تحرير شعبية[١٧]. كما أنه يتضمن عملية تنسيق الجهود بين الحركات العربية التقدمية التي تتسم بأهداف واحدة. ولا يخفى علينا أن نوعية التحدي الحضاري الذي نجابهه تتطلب اتخاذ خطوات إيجابية وسريعة نحو تحقيق الدولة العصرية، وفي إطار هذه الدولة العصرية، حشد شامل للموارد العربية، المالية والطبيعية والبشرية، من أجل معركة المصير.

(٣) العمل العسكري: ويتطلب في هذه المرحلة ثلاث خطوات أساسية:

(أ) إعادة بناء الجيوش النظامية العربية مع عدم التركيز على دورها في المعركة الآنية، وتفهم هذا الدور في إطار مخطط حقيقي لحرب التحرير الشعبية[١٨] الذي يعتبرها أساساً لإحراز النصر النهائي على العدو في المرحلة الأخيرة للحرب، ويعتبرها الدرع الذي يحمي المغاورين ـ إلى حد ما ـ من بطش الحملات العقابية التي سيشنها العدو.

(ب) توحيد القيادة العربية.

(ج) بناء ميليشيا شعبية ضخمة باعتبارها السلاح الأمضى في المجابهة الشاملة التي ستأتي عاجلاً أم آجلاً طالما أننا اتخذنا خطوتنا الأولى في طريق حرب التحرير الشعبية.

---

(١٥) وذلك بتدعيم صلاتنا بالفاتيكان وبعض الهيئات اليهودية المضادة للصهيونية مثل المجلس الأمريكي لليهودية (American Council for Judaism).

(١٦) بالإضافة إلى سجلات الأمم المتحدة ذاتها، انظر: Fayez Sayegh, *The Record of Israel at the United Nations*, Information Papers; no. 3 (New York: Arab Information Center, 1957), ويتضمن هذا السجل إلى عام ١٩٥٧، و Sami Hadawi, *Palestine in the United Nations*, Information Papers; no. 24 (New York: Arab Information Center, 1964).

(١٧) يمكن الرجوع إلى: سعد الدين ابراهيم، «الحرب الشعبية... والتعبئة العامة،» ورقة قدّمت إلى: ندوة الشباب الاشتراكي العربي، بتسبرغ، حزيران/يونيو ١٩٦٨ والذي نشر فيما بعد في مجلة: الشباب العربي (١٥ ـ ٢٢ تموز/يوليو ١٩٦٨).

(١٨) لقد تناول كبار الكتاب عن حرب التحرير الشعبية، مثل غيفارا وماوتسي تونغ، هذا الموضوع بالكثير من التفصيل Guevara, *Guerilla Warfare; Che Guevara Speaks (Selected Speeches and Writings)*, and Freemautle, ed., *Mao-Tse-Tung: An Anthology of His Writings.*

(٤) العمل الفدائي: وهو الذي عليه العبء الأكبر في عمليتين أساسيتين:

(أ) هو المحرك الأساسي الذي سيعبئ الطاقات العربية لخوض معركة التحرير، وهو موحد لشمل العرب الذي باتت الفروقات والخصومات التقليدية تهدده.

(ب) هو أداة إضافية مكملة للعمل العسكري (بالقيام بالعمليات شبه الانتحارية) وللعمل السياسي (وله دوره في التعبئة الشعبية كما بينا أعلاه) وللعمل الدبلوماسي (وله دوره في أي مجابهات دبلوماسية)[١٩].

ومن ثم يمكننا أن نرى أن العمل العربي يجب أن يكون متعدد الجوانب، متكامل المداخل (Approach)، يجابه المشكلة من كل نواحيها وعلى جميع المستويات وفي جميع الميادين. ومن الخطأ التركيز على ناحية واحدة، أو نوع واحد من العمل إذ إن ذلك يفتح مجالاً واسعاً للعدو لمداورة الحملة العربية وإحباطها.

وبعد تحديد نوعية العمل تكتمل المنطلقات الأساسية للمخطط الشامل، ويمكننا أن ننتقل إلى:

(١) تنسيق الحركة الاستراتيجية ـ التكتيكية لأوجهه المختلفة.

(٢) تحديد مسؤوليات التنفيذ على المستويات المختلفة.

وهذا هو بداية البرنامج التنفيذي.

د ـ الخطوط العريضة للبرنامج التنفيذي

بعد هذا العرض المبدئي، الذي بينا فيه أهمية تطوير مخطط عربي شامل في إطار موضوعي للقضية العربية، وحددنا نوعية هذه القضية، وماهية الأهداف التي يجب أن نعمل من أجلها ونوعية العمل الذي يمكننا أن نحقق به هذه الأهداف، علينا الآن أن ننظر إلى قضية التنفيذ، وتحديد مسؤوليات التنفيذ يجوز تقسيمها إلى خمسة مستويات، تعمل كل منها على جزء محدد من هذا المخطط الشامل، بحيث إنها تكمل بعضها البعض ويصبح عملها خالياً من التناقضات المضيعة.

(١) الحكومات العربية

وعليها القيام بـ:

(أ) الحملة الدعائية العالمية.

(ب) الحملة الدبلوماسية.

---

(١٩) مثال رائع لهذا التكامل مفاوضات الفيت مينه في جنيف عام ١٩٥٤ بينما حاربوا ـ وانتصروا ـ في ديان بيان فو في الوقت نفسه. ويستعمل الفيتناميون الأسلوب نفسه في مفاوضاتهم مع أمريكا في باريس حالياً.

(ج) توحيد القيادات العسكرية.

(د) تنسيق الجهود بين الدول العربية.

(هـ) المساندة المعنوية والمادية لجميع أوجه البرنامج، مع مراعاة أنه كثيراً ما يصعب على هذه الحكومات المساندة العلنية لبعض هذه الأوجه ولا سيما إذا تعارض ذلك وحملتها الدعائية أو الدبلوماسية.

(و) التكتيك السياسي المزدوج: وهذا يستدعي شيئاً من التحليل: إن المجابهة الشاملة المسلحة للعدو الاسرائيلي ومن وراءه، تؤدي إلى استقطاب مزدوج: استقطاب العرب كوحدة والعدو الاسرائيلي ومسانديه على المستوى الدولي، واستقطاب داخل الصف العربي بين «التقدميين» و«الرجعيين» الذين ترتبط مصالحهم ومساندي اسرائيل. وقد يبدو لأول وهلة أن هذا تناقض لا يمكن الخروج منه، ولكن شباب حركة «الفتح» قد طرحوا مبدأ النضال القطري حلاً لهذا المأزق[٢٠]. وباختصار، فمبدأ النضال القطري هذا يؤكد أن الإنسان تزداد فاعليته خلال النضال القطري بدلاً من النضال القومي المجرد. ويطبق ذلك بأن تتحمل القوى الثورية داخل القطر المسؤولية الكبرى في النضال لأن صلتها بالجماهير المحلية أوثق من أي قوى ثورية أخرى، ولا يمكن الاستهانة بأهمية الاشتراك الجماهيري في جميع مراحل التخطيط والتنفيذ لأي عملية هادفة. كما أن هذا التخصص يسمح بازدياد (Optimization) فاعلية هذه القوى، ويضمن عدم تشتيتها إلى أن ينعدم تأثيرها. ولا يخفى علينا أن هناك مخاطر لهذا المبدأ، فهو قد ينزلق بسهولة إلى إقليمية مجردة. وضمان عدم الانحراف إلى الإقليمية يتأتى بالاحتفاظ بالأهداف القومية داخل إطار تحرري. والإطار التحرري يتضمن التحرر من العوائق التي تحول بين لقاء القطر العربي بالأقطار الأخرى. والمثال الأفضل لتطبيق ناجح لمبدأ النضال القطري الذي يدعم الروابط القومية هو ثورة الجزائر ونضالها الطويل من أجل التحرر من الاستعمار الفرنسي.

(٢) الكيان الفلسطيني

(أ) أهميته على الصعيد الدولي[٢١]: قد تمكنت الدعاية الصهيونية من طمس أحد المعالم الأساسية لقضيتنا وهو القضاء على الدولة الفلسطينية العربية ككيان يتمتع بذاتيته. وكان لهذا تأثير كبير في عملنا الدبلوماسي بالإضافة إلى عملنا الدعائي. فلو تمكنا من تثبيت هذا الكيان دولياً لظهرت التحركات الاسرائيلية كلها على حقيقتها: عملية سلب ونهب بدلاً من صورتها الحالية التي تتسم بالعمل الرائد الذي يخلق من الصحراء جنة وما

(٢٠) انظر: حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»، من منطلقات العمل الفدائي، حركة التحرير الوطني الفلسطيني، دراسات وتجارب ثورية؛ ١ ([عمان]: الحركة، ١٩٦٦).

(٢١) وقد تحدث الكثير من الخبراء بالقضية الفلسطينية عن أهمية تدعيم وإبراز الكيان الفلسطيني، ونذكر منهم على سبيل المثال فقط، أحمد بهاء الدين، تحسين بشير، وفايز صايغ.

إلى ذلك من التصورات الخاطئة.

(ب) أهميته لنجاح أي حركة تحررية فلسطينية: فلا شك أن من العوائق الكبرى لقيام حركة تحررية هو عدم شعور الشباب الفلسطيني بذاتيته. وقد تحدثنا عن ذلك عرضاً في حديثنا عن مبدأ النضال القطري فيما سلف.

(ج) أهميته كمحرك للثورة العربية الكبرى: مما سبق نرى أنه عن طريق مبدأ النضال القطري يمكن تحقيق هدف الثورة العربية الكبرى، فيكتب شباب الفتح[٢٢]:

«أيها الاخوة الأحرار: إن اعتقاد البعض أن تطوير الأوضاع العربية المجاورة للأرض المحتلة شرط أساسي لقيام الثورة الفلسطينية المسلحة اعتقاد خاطئ، وليس لهذا الاعتقاد من مبررات واقعية وقد أثبتت تجربة الانقلابات العسكرية خطأه. إن انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة هو الكفيل بنقل وتطوير هذه الأوضاع جميعها بطرق سلمية أو عنيفة إلى المستوى المطلوب للثورة العربية الكبرى. إن انطلاق الثورة هو الذي يطرح طرحاً جدياً مسؤولاً أمام الجماهير العربية سلامة هذه الأوضاع العربية أو عدم سلامتها ـ بالقدر الذي تقف فيه هذه الأوضاع العربية المجاورة موقفاً مسانداً للثورة المسلحة أو مقاوماً لها. وعلى ضوء ذلك يتقرر حتماً مصير هذه الأوضاع.

علينا أيها الاخوة الأحرار جميعاً أن ندرك أن محور القضية القومية في هذه المرحلة هو تحرير فلسطين، وأن شعار الوحدة العربية شعار ثوري لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال معركة مصيرية عربية يخوض فيها قطر معين ثورته التحررية فتهرع القوى الثورية العربية إلى مساندته ودعمه مادياً ومعنوياً. ساعتها يصبح شعار الوحدة العربية شعاراً ثورياً ذا مضمون تحرري.

إن شعار تحرير فلسطين الطريق إلى الوحدة هو البديل الثوري السليم لشعار الوحدة الطريق إلى تحرير فلسطين، لأن الوحدة لا تتم إلا بالتحام القوى الثورية الواعية في معركة قومية مصيرية. والوحدة بمعناها الثوري ليست تنسيق جهد عسكري أو قيادة موحدة، الوحدة تفاعل وتمازج شعبي كامل يصيب مختلف أوجه النشاط الإنساني، ولا يمكن أن يتحقق إلا بمعركة مصيرية مسلحة تستنفر وتعبئ كل طاقات الجماهير العربية بشرية كانت أم مادية ومعنوية»[٢٣].

كما يستطرد شباب الفتح فيقولون: «العامل الأساسي لقيام الثورة المسلحة هو نمو البذور الثورية في رحم الشعب الفلسطيني» ولمن يظنون أن الطريق طويل وشاق، والبداية

---

(٢٢) «بيان من القيادة العامة لقوات العاصفة إلى الصحفيين العرب،» في: المصدر نفسه.

(٢٣) لقد شغلت قضية الوحدة والحرب الكثير من المفكرين العرب، ونشير في هذا المجال إلى: «الوحدة طريقنا لمواجهة النكسة،» دراسات عربية، السنة ٤، العدد ١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧)، وفيها بعض الآراء الطيبة.

صغيرة ومتواضعة، فيسرع الشباب الثوري بتأكيد أن ضآلة الإمكانيات الثورية في البداية أمر بسيط، فهي بطبيعة الحركة الثورية تنمو مع نموها. والعامل الأساسي الذي يضمن نجاح هذه الحركة الثورية هو «الحركية» والإنتاج، فالجماهير هي أساس نموها، والجماهير سئمت الشعارات والأحاديث ولا تؤمن إلا بالحركية والنتائج.

(٣) المنظمات الشعبية

ويمكن تلخيص دورها في عبارة واحدة: تعبئة وإشراك الجماهير في الثورة. ويتم ذلك على أربع خطوات:

(أ) جمع أعضاء.

(ب) توعية أعضائها.

(ج) تنمية الالتزام (الاكتراث) بين هؤلاء الأعضاء.

(د) تدريب وتسليح هؤلاء الأعضاء الواعين الملتزمين للقيام بدورهم في الحركة الثورية الشاملة. وتصبح هذه المنظمات الهياكل الأولى لإقامة الميليشيا الشعبية التي تصبح امتداداً للحركات الفدائية التي باتت الطليعة الأولى لهذه الجماهير.

كما أن المنظمات الشعبية هذه، بدورها المرسوم كامتداد أو احتياطي للحركات الفدائية، غالباً ما تقوم بجمع موارد مالية لمساندة الحركات الفدائية، وكثيراً ما يكون هذا جانباً من عملية تنمية الالتزام بين أعضائها.

ومن الواضح أن حجر الزاوية في نجاح دور المنظمات الشعبية هو وضع برنامج سليم للتوعية. ولا يمكننا هنا أن نرسم مخططاً كاملاً دقيقاً لمثل هذا البرنامج[٢٤] ولكننا يمكننا تحديد الملامح الأولية التي يجب أن يتسم بها أي برنامج جاد، وهي:

(أ) أهداف البرنامج: يجب ـ كحد أدنى ـ أن تقنع الجماهير بما يوفر شروط قيام حرب التحرير الشعبية[٢٥]، ومنها:

ـ أن يؤمن الشعب الفلسطيني العربي بحرب التحرير ويعمل على تعبئة نفسه ليخوضها.

ـ أن يؤمن الشعب العربي الكبير بحرب التحرير، وأن لا فائدة من مهادنة

---

(٢٤) إن معالجة مشكلة برامج التوعية ونوعيتها تشمل تخصصات كثيرة، منها علم النفس وعلوم الاجتماع والعلاقات الاجتماعية، والاقتصاد السياسي، والتخطيط، وما يسمى بالـ «Operations Research» وغيرها.

(٢٥) لقد طالب شباب حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» بهذه النقاط على أنها الأساس المنطقي الوحيد الذي يمكّن من بناء أسلوب واقعي لحرب التحرير الشعبية.

الاستعمار، بل لا بد من الاحتكاك به في ساحة قتال نختارها[٢٦] وبالوسيلة التي نختارها (حرب التحرير).

- إن الميدان الأول للصراع يجب أن يكون فلسطين المحتلة.

- إن تحرير فلسطين هو الطريق إلى حل المشاكل التي تعوق مسيرتنا العربية.

- أنه يجب على القوات التقدمية الثورية في العالم العربي أن تنسق جهودها ضمن هذا الأسلوب من العمل.

(ب) يجب استعمال كل المحركات المؤثرة على الإنسان العربي حالياً للحصول على تعبئة شاملة للفرد بكيانه وبطاقاته كلها. وهذه المحركات تشمل القومية والدين والشعور بالعدالة، والشعور بالكرامة، والعاطفة الإنسانية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان المتألم المظلوم. ويحسن استبعاد أي حركات تتسم من قريب أو بعيد بالاهتمام بالرابطة العنصرية، إيجابية كانت أم سلبية[٢٧]، فهذه مؤداها الانزلاق إلى أبشع التصرفات الوحشية.

(ج) يجب اتباع أسلوب علمي[٢٨] في تربية الكوادر الثورية الجديدة. وذلك لا يتأتى باستعمال الراديو والتلفزيون والمنشورات، وإنما يتأتى باتباع أسلوب شامل يتضمن:

أولاً: حلقات ضيقة للمناقشة، يقودها شباب واع ملتزم، يمكنهم خلالها تحطيم الشكوك والمخاوف التي قد يشعر بها الشباب الجدد إزاء هذا الطريق الشاق الطويل الذي نريد السير فيه.

ثانياً: المتابعة الفردية، حيث يدخل الشاب الجديد في سلسلة من الحوارات الجادة مع المشرفين على برنامج التوعية، إلى أن تحدث «الانتفاضة الشخصية»، وهي المرحلة التي يشعر فيها الشاب أنه مقتنع تماماً بهذه الآراء ولا يجوز بتاتاً أن تستعمل أي وسائل إرهابية أو رشوة بشتى أنواعها للحصول على هذا الاقتناع. فالوسيلة الوحيدة للحصول على قناعة

---

(٢٦) وقد تحدثنا من قبل عن أهمية تحديد الإطار الجغرافي للمعركة وتأثير ذلك على الواقع العددي للمجابهة.

(٢٧) والمقصود بالإيجابية تلك الرابطة التي تؤكد وتدعم الشخصية العربية وبالسلبية تلك التي تهدف إلى كراهية الشخصية اليهودية. وكلتاهما تهدف إلى العنصرية وكلتاهما مرفوضة.

(٢٨) ونرى نتائج مثل هذا الأسلوب في كل من الإيمان المطلق بصحة مسلكه الذي اتسم به قطاع كبير من الجمهور الأمريكي تحت تأثير النظام الأمريكي ككل، إلى أن انفضح هذا النظام بانفجار المشكلة العنصرية وحرب فيتنام، ومن جهة أخرى في التعبئة الشاملة التي قام بها الحزب الشيوعي الصيني والتي تمثل حالة متطرفة جداً من أسلوب التوعية. ولدراسة هذا الأسلوب القاتل، يمكن الرجوع إلى مراجع عدة منها: Robert Jay Lifton, *Thought Reform and the Psychology of Totalism: A Study of «Brainwashing» in China*, Norton Library; no. 221 (New York: Norton, [1963]).

حقيقية تمكّن هذه الجماهير من خوض حرب للتحرير الشعبية هي الدليل والمنطق والبرهان.

وثالثاً: المظاهرات والتجمعات الجماهيرية (Rallies)، وهي تكمل هذه التنمية الفردية بالرابطة الجماهيرية التي تؤكد للشباب أنهم ليسوا وحدهم، ولكننا نتحدث عن انتفاضة جماهيرية ساحقة.

رابعاً: المشاركة الديمقراطية في تجسيد أي مخططات تناقش داخل هذه المنظمات الشعبية. فالأسس منطلقات جوهرية لا يساوم فيها، ولكن المخططات والبرامج التنفيذية محلياً وقطرياً وقومياً، موضع اعتبار ومراجعة مستمرة.

وخلال كل هذه الخطوات تكون المنظمات الشعبية مسؤولة عن إعطاء الجماهير صورة واضحة حقيقية صادقة عن المشاق والتضحيات التي تتطلبها حرب التحرير الشعبية. كما أنها مسؤولة عن تأكيد طول مدة هذه الحرب، فلا يجوز لها أن تعد الجماهير بالنصر القريب وإلا عدنا إلى التضليل المخزي الذي اتسمت به كل دعايتنا وإعلامنا طوال عشرين عاماً مضت.

(٤) **المنظمات الفدائية**

وعليها:

(أ) المحافظة على ذاتيتها، ضماناً لاستقلالها وحرية حركتها، وسنداً معنوياً لحركتها القطرية.

(ب) تنسيق الجهود بينها كخطوة أولى لتوحيدها، لما في وحدتها من ازدياد لإمكانياتها وفاعليتها.

(ج) تحديد علاقتها بكل من:

ـ الحكومات العربية: فعليها أن تنتظر منها مساندة مستترة أولاً ثم مساندة فعلية فيما بعد، مع تصعيد القتال المسلح[٢٩]. وذلك يتفق وفاعلية دور الحكومات الذي تحدثنا عنه من قبل.

ـ المنظمات الشعبية: فتؤكد دورها كطليعة هذه المنظمات الواسعة التي ستتبعها وتنساق وراءها إلى القتال المسلح.

ـ الحركات الدولية: وهذا الموضوع يحتاج إلى بعض الشرح: فاسرائيل كما بيّنا ليست وحدها، بل تتمتع بموارد مقنّعة هائلة من مساندة الغرب عامة وأمريكا خاصة.

---

(٢٩) وهذا أمر طبيعي نظراً إلى الدور السياسي والدبلوماسي الذي تلعبه هذه الحكومات. وقد اتبعت حكومة هوشي مينه الوطنية في شمال فيتنام السياسات نفسها تجاه ثوار الفيت كونغ في الجنوب.

وقد طرح بعض المفكرين(٣٠) نظرية «الامتداد الزائد» (Over extension) التي تهدف إلى توغيل قوات أمريكا النظامية ومواردها الاقتصادية في أماكن متعددة من الكرة الأرضية في سلسلة من حروب التحرير الشعبية في نفس الوقت. ومن ثم يصعب عليها أن تمارس كل هذه الحروب دون أن تنشق الجبهة الداخلية، وتتحطم رغبتها وتطلعاتها الامبريالية. وذلك يستدعي تنسيقاً واسع النطاق بين الحركات الثورية التحررية في شتى أنحاء العالم، الأمر الذي يفترض نوعاً من المثالية في الخلق الإنساني. فأنصار هذه النظرية لا يبالون بقيام صراعات على السلطة للتحكم في دفة عملية التنسيق، وأمامنا تجارب الدوليات السابقة، وهي العبرة لمن اتعظ.

- التنسيق بين القيادة العسكرية والقيادة السياسية داخل الحركات الفدائية. وقد اختلفت الآراء بين خبراء حرب التحرير الشعبية في كيفية تنسيق هذه العلاقة(٣١). ويبدو أن لكل حركة ظروفها، ويصعب القطع في هذه المسألة الشائكة. بل إن كثيراً ما يتوقف ذلك على شخصية القواد السياسيين والعسكريين الذين يبرزون في الحركة، فيصعب تحقيق المثل الأعلى، وهو توحيد القيادتين في شخص واحد، أو مجموعة ضئيلة من الأفراد(٣٢). فلنترك الباب مفتوحاً، وليعبّر زملاؤنا المناضلون عن رأيهم، وإن كنت شخصياً أميل إلى تأكيد وإبراز العنصر السياسي في حرب التحرير الشعبية باعتبار أن الناحية العسكرية تبقى

---

(٣٠) وقد طرح تشي غيفارا شعار «لتكن هناك أكثر من فيتنام واحدة» قبل وفاته بشهور.

(٣١) ومن أشهر ما كُتب في هذا الموضوع: Regis Debray, *Revolution in the Revolution! Armed Struggle and Political Struggle in Latin America*, translated by Bobbye Ortıs (New York: MR Press, 1967),

وقد صدرت ردود عدة له ودفاعات عنه في مجلات عديدة، ونذكر بصفة خاصة العدد الخاص الذي أصدرته المجلة الأمريكية: *Monthly Review* (July-August 1968).

وهذا لا يغنينا عن العودة إلى المراجع الأساسية في هذا الموضوع وهي من كتابات غيفارا (وهو قريب جداً من ديبريه في موقفه) وكتابات ماوتسي تونغ، وتبدو بعض الملامح الصغيرة في كتابات هوشي مينه في: Ho-Chi-Minh, *On Revolution; Selected Writings, 1920-66*, edited and with an introduction by Bernard B. Fall, Praeger Publication in Russian History and World Communism; no. 190 (New York: Praeger, [1967]);

وننصح القارئ الذي يريد الحصول على تحليل واقعي - غير نظري أو ايديولوجي - لبعض أوجه القضية أن يعود إلى: Elis Joffe, *Party and Army: Professionalism and Political Control in the Chinese Officer Corps, 1949-1964* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1965);

كما أن سجل تاريخ بعض الحركات يعطي بعداً جديداً لهذا النقاش، ويمكن للقارئ الحصول على فكرة سريعة عن ذلك من مجلة: **دراسات عربية**، السنة ٤، العدد ٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٧) عدد خاص حول: غيفارا والثورة في أميركا اللاتينية، أو من كتاب William J. Pomeroy, *Guerilla and Counter-Guerilla Warfare; Liberation and Suppression in the Present Period*, Little New World Paperbacks; LNW-1 (New York: International Publishers, [1964]).

(٣٢) مثل ماوتسي تونغ وفيديل كاسترو.

دائماً حية ويصعب أن يطويها النسيان.

(٥) دور المثقفين

وهم فئة أتاح لها المجتمع فرصة التعليم إلى أبعد حدوده، فعليهم أن يقدموا في تواضع وطواعية كل طاقاتهم وجهودهم إعراباً عن تقديرهم للتضحيات التي بذلها مجتمعنا لهم، فالمثقفون عليهم:

(أ) العمل مع الجماهير ـ على النحو الذي بيناه ـ على تطوير برنامج هيكلي سليم للعمل العربي.

(ب) العمل على تحقيق هذا البرنامج بشتى الوسائل، ومنها:

ـ المشاركة الفعلية بحمل السلاح، فهذه هي التجربة التي تصقل المرء تماماً. ولا شك أن هناك من يمكنهم القيام بأدوار أخرى غير مقاتلة لا تقل أهمية، مثل:

ـ خلق جو قبول عام للمبدأ بتعبئة الصحافة ووسائل الإعلام بآرائهم.

ـ تنظيم الحركات الجماهيرية للضغط على الحكومات العربية لتبنّي هذا العمل.

ـ تكوين الكوادر الثورية لتنفيذ البرنامج إذا ما قبل.

وفي كل هذا، علينا ألا نفتر، بتعليمنا أو بما نسميه «ثقافتنا»، بل علينا أن نتقبل رأي جماهير شعبنا العربي العظيم، فهي صاحبة المصلحة الأولى في هذه المعركة المصيرية التي تهدد وجودنا العربي كله.

خاتمة

إن أبعاد النضال في المجابهة الشاملة التي تتطلبها حرب التحرير الشعبية كبيرة وتستدعي منا تقبل تضحيات هائلة، والطريق طويل وشاق، كله بغتات مردية، قد تحطم في لحظات ما بنيناه في سنوات. ولكننا إذا درسنا وتأكدنا ثم تقدمنا، فالنصر لنا لا محالة، فقضيتنا قضية الحق، وحريتنا بل وجودنا كله مهدد...

اسرائيل والرفض العربي(*)

عبد الله عبد الدائم

يحاول ماكسيم رودنسون، عالم الاجتماع والمؤرخ الفرنسي، في كتابه الأخير **اسرائيل والرفض العربي**، أن يدرس المسألة الفلسطينية والنزاع العربي - الاسرائيلي دراسة يريدها علمية، مستندة إلى منهج البحث الاجتماعي والتاريخي. وهو بذلك يقوم بمهمة صعبة وجريئة: إنها تصطدم بالصعوبات الثاوية وراء أي محاولة لدراسة التاريخ من زاوية علم الاجتماع. وهي ترتطم بالحدود التي تمليها مثل هذه الدراسة على من آثر أن يصطنع فيها منهجاً ذا اتجاه ماركسي، فيه الاتجاهات الاجتماعية والاجتماعية التاريخية التي وضع أسسها ماركس، وفيه بالإضافة إلى ذلك رغبة في تفسير الماركسية تفسيراً جديداً ونزعة إلى التحرر من أشكالها الرسمية المألوفة. وهي فوق هذا وذاك تركب هذا المركب العلمي الخطير، في موضوع شائك، يحمل طابعاً عملياً سياسياً، كما يحمل سمة راهنة وحادة، ومن الصعب بالتالي فصل الحقيقة فيه عن الموقف السياسي. هذا إذا لم نشأ أن نذكر تلك الصعوبة النفسية الداخلية العميقة التي لا بد أن يواجهها كاتب مثل هذا البحث من خلال الضغوط النفسية والاجتماعية التي يمكن أن يتعرض لها بوصفه يهودياً، مهما يكن الجهد الذي يبذله في سبيل الحقيقة المجردة، ومهما تكن صلته باليهودية حرة من قيود الدين أو التعصب.

من خلال هذا كله تبرز نقاط القوة والضعف معاً في مثل هذا الكتاب: إنه محاولة جادة وصادقة وجريئة من أجل دراسة المشكلة الفلسطينية دراسة اجتماعية تاريخية علمية، جرب فيها صاحبها أن يكون مخلصاً لمنهجه العلمي ما وسعه ذلك، وجرب أن يقاوم ويقاوم في سبيل هذا الإخلاص للبحث العلمي مشوهات كثيرة في داخله وخارجه.

وهي من هذه الزاوية أول محاولة ظهرت في هذا الميدان، ولا بد أن يتقبلها المفكرون والباحثون باستبشار وأمل.

(*) نُشر في: الآداب، السنة ١٧، العدد ٢ (شباط/فبراير ١٩٦٩)، ص ٢ - ٥ و٥٨ - ٦٠.

غير أن هذه المحاولة لا بد أن تكون ـ بحكم طبيعتها والظروف التي تقوم فيها ـ معروضة لكل ما يمكن أن يتعرض له البحث الاجتماعي والتاريخي العلمي من مزالق ومخاطر، لا سيما عندما يتصدى لمشكلة لم تصبح بعد ملكاً للتاريخ، وما تزال ملكاً للحاضر بكل حرارته وقسوته ومرارته. وصاحب المحاولة ـ إخلاصاً منه للحقيقة ـ لا يزعم لنفسه العصمة في ذلك، ولا يدعي أنه يستطيع في مثل هذا الميدان من البحث أن يجترح ما لم يجترحه سواه، وأن ينجو من المخاطر والأخطاء التي لا بد أن يواجهها أي بحث علمي في ميدان الظواهر الإنسانية عامة وفي ميدان الظواهر الاجتماعية والتاريخية خاصة. وحسبه وحسب غيره من الباحثين أن يبذل ما يستطيع للحصول على الوثائق والمعلومات التي تبدو له صحيحة وأن يسلط عليها منهج البحث العلمي وأن يتخير منها ما يبدو له معبراً عن المظاهر الأساسية للموضوع المدروس، وأن يعرضها متجرداً ما استطاع من ضغط الأفكار السائدة والآراء الشائعة والعواطف المفسدة. وهذا ما فعله وجربه بعمق وصدق.

وظننا ـ ضمن حدود ما نعرف أيضاً وما نقوى عليه من تجرد ـ أنه وفق في ذلك إلى حد كبير. لقد جاءت الحقائق التي أثبتها صحيحة دقيقة في معظمها، وجاء تفسيره للأحداث وتحليله لمجرى الأمور قادراً على الكشف عن محركاتها وبواعثها الحقيقية في أكثر المواضع، وأراد في الجملة أن يلعب دور القاضي الحكم بين طرفين متنازعين يصعب الحكم بينهما.

سوى أن جهوده الصادقة هذه أفسد بعض جوانبها في نظرنا عدد من العوامل:

أولها أنه أراد بالذات أن يلعب دور الحكم كما قلنا. والحكم يحرص بطبيعة مهمته أن يصل إلى التوفيق بين المتنازعين أكثر من حرصه على أن يحكم لأحدهما من دون الآخر. إن هدفه أن يقبل المتخاصمان أحدهما الآخر، ولو على حساب أحدهما، ما دام يعتقد أن الصراع في غير مصلحة كليهما، وما دام يصدر عن منازع إنسانية في نظره وعن جنوح إلى السلم كثيراً ما يبدو له وكأنه الشيء الأخلاقي والإنساني الأول.

ومن هنا ـ وهذا **ثاني** العوامل المفسدة لبعض نظرات الكاتب ـ ينطلق الباحث من أمنية لا من حقيقة علمية اجتماعية تاريخية مجردة، هي الاعتقاد بأن مثل هذا التوفيق بين المتنازعين شيء ممكن. وبدون هذا الاعتقاد ما كان له أن يكتب ما كتب أو أن يبذل ما يريد أن يبذل من جهد يراه نافعاً. وهو بهذا يجاوز دون شك حدوده كباحث وعالم ويتخذ موقف المفكر الحريص على السلام الراغب في التسوية السلمية، الناظر إليها على أنها تعلو على سواها في جميع الأحوال.

وثالث هذه العوامل الخلفية الموجهة لنظرات المؤلف المفسدة لها أحياناً والصادرة أيضاً عن هذا الباعث الأساسي المحرك لتفكيره ـ باعث التوفيق والإصلاح ـ اعتقاده أو رغبته في الاعتقاد أن إسرائيل يمكن أن تكون حريصة على التعايش الحقيقي مع البلاد العربية ويمكن أن تقبل في سبيل ذلك تنازلات تصل إلى حد إنكار نزعاتها التوسعية بل

إنكار كيانها الذي قام بعد عام ١٩٤٨، وقبول قيام دولة يهودية عربية في فلسطين يعيش فيها الطرفان في وئام فردوس أرضي لا أجمل ولا أحسن! إن تنصيبه إرادته ورغبته ـ إرادته ورغبته في الوصول إلى توفيق ـ ينقله نقلاً غير علمي وغير منطقي إلى اعتبار هذه الإرادة هي الواقع، وإلى عدم الفصل بين الرغبة وبين القدرة. وهكذا يضمّن ثنايا كتابه معلومات وأفكاراً عديدة ـ يشعر القارئ أنها مقتسرة وأنها موجهة برغبة لا بدراسة علمية هدفها أن تثبت أن مطامح الصهيونية التوسعية وأحلامها الكبرى في دولة من الفرات إلى النيل ليست هي شعار سكان اسرائيل ـ أو ليست شعار معظمهم ـ وأنها وقف على بعض القادة الصهيونيين وعلى بعض الزعماء الاسرائيليين المتصلبين. وكأنه يريد من خلال ذلك أن يوجه كلا الطرفين المتنازعين: يريد أن يوجه أبناء اسرائيل إلى ضرورة اتخاذ مثل هذا الموقف اللاصهيوني، كما يريد أن يوجه العرب إلى إمكان افتراض حدوثه!

من خلال هذه العوامل، يقع التحليل التاريخي والاجتماعي الذي يقوم به للأحداث فريسة فكرة مبيتة مسبقة، توجه أخيراً طراز تخيره للحوادث وتفسيره لها. هذه الفكرة المبيتة هي الرغبة أولاً في إيجاد حل للنزاع والاعتقاد بالتالي أن هذا الحل ممكن وتأييده ـ بعد ذلك ـ بالأحداث والمعلومات والحجج. إنه يضع النتيجة إلى حد كبير قبل المقدمات، ويختار الموقف ليتخير على ضوئه كثيراً من الحقائق والحوادث. ولا نعني بهذا أنه يقوم بهذا العمل عن وعي كامل وعن سابق تصور وتصميم. فمن الصعب أن نبين ـ لدى أي مؤلف ـ مدى وعيه الفعلي لخطته ومدى انسياقه عن إيمان وصدق وراء خطة يخالها وليدة بحث علمي، وكثيراً ما تكون محصلة مجموعة من العوامل الذاتية وغير الذاتية لا يعيها صاحبها كامل الوعي. من العسير أن نقول أيهما أسبق في التكوين في فكر الكاتب: النتيجة التي وصل إليها أم الأحداث التي أيد بها النتيجة. ولعلهما في واقع الأمر متعاصران لدى كثير من الكتاب: فالأحداث يتم اختيارها وتفسيرها من خلال نتيجة قد تكون في البداية غامضة غير متبلورة، والنتيجة ما تلبث حتى تبلورها الأحداث والوثائق. وهكذا تنمو الأحداث والنتائج متكاملة إلى حد بعيد، متآزرة في معظم الأحيان.

على أن في وسعنا أن نقول غير متجنين إن أولوية النتيجة وسبقها وقيادتها للأحداث بارزة واضحة بل تكاد تكون فاضحة في الدراسة التي بين أيدينا. ولعل مما يبرر ذلك كون النتيجة المفروضة نبيلة كما تبدو للكاتب، موجهة بالجوانب التي تتراءى إنسانية خيرة. ومن هنا فهي لا تبدو للباحث العلمي ـ ولا سيما إذا كان غربياً ـ عاملاً مشوهاً يحسن استبعاده، والتصديق بها وقبولها يكادان يندسان بيسر.

وهكذا تطرح هذه الدراسة موضوع صلاح البحث الاجتماعي العلمي في الدراسات التاريخية والسياسية، وتكشف بشكل نموذجي معبر عن مزالق مثل هذا البحث، حين يريد في الأصل أن يضع الحقائق والوثائق قبل التفسيرات والنتائج، وحين لا يعدو في واقع الأمر أن يفعل ما فعله غيره، فينطلق من النتائج عن شعور أو غير

شعور، سوى أنه يخرجها وكأنها وليدة الحقائق والبيانات والمعلومات الموضوعية. غير أن مزالق مثل هذا البحث الاجتماعي العلمي عامة لا تبرر الإحجام عنه، ولا تبطل شأنه، بل تبين حدوده، وتحفزه إلى مزيد من الموضوعية. وأياً كانت الحال فلا بد للباحث أن يغتبط حين يرى كاتباً مثل رودنسون يقتحم مثل هذا المنهج ويركب هذا المركب الصعب في موضوع شائك، يجلله ضباب العواطف ويسوده سوء الفهم وتعشش فيه الضلالة المزمنة، حتى لدى أكثر المفكرين تجرداً ووعياً في دنيا الغرب. ولا يسع القارئ، والقارئ العربي خاصة، إلا أن يقدر المسافة الهائلة التي قطعها مثل هذا البحث الذي ساقه الكاتب والشأو الذي بلغه في توضيح المسألة وجلائها وإبراز أوصالها ومعالمها.

* * *

على أن هدفنا ما هو أن نكتب مقالة عن قيمة البحث الاجتماعي التاريخي وعن مدى نجاح المؤلف فيه. فلنمضِ توًا إلى تحليل الكتاب عن كثب، فمثل هذا التحليل هو القمين بأن يلقي مزيداً من الضوء على الملاحظات التي قدمنا بها لهذه الدراسة.

يضم الكتاب **ثمانية فصول وخاتمة**. **أولها** يتحدث عن الأصول التاريخية للشعب اليهودي. **وثانيها** يشير إلى نشأة الفكرة الصهيونية وفكرة الوطن القومي اليهودي. **وثالثها** يتحدث عن السنوات العشر الأولى التي تلت ولادة ذلك الوطن. **ورابعها** يحلل الوجود العربي بعد معركة قناة السويس ويشير إلى تباشير الحركات الاشتراكية التي أخذت في الظهور. **وخامسها** يصف بعض معالم الصراع العربي الاسرائيلي حوالى عام ١٩٦٣ ويقف خاصة عند الوضع في اسرائيل وأمائر الصراع بين الفئة المعتدلة فيها والفئة المتصلبة. **وسادسها** يقدم وصفاً للإطار الذي يقوم ضمنه واقع السياسة العربية، إطار الدول العربية والدول الافريقية والدول الإسلامية. **وسابعها** يوضح الهدوء النسبي الذي ساد العلاقات العربية ـ الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٤ حتى قبيل محنة حزيران/يونيو، والانفجار المفاجئ الذي حدث في الموقف قبيل هذه المحنة. **وثامنها** يسرد الأحداث التي سبقت الخامس من حزيران/يونيو والعوامل التي أدت إلى وقوع الاصطدام. أما **الخاتمة** فهي التي تحاول أن ترسم صورة المستقبل الممكنة كما يتراءى للكاتب من خلال الأحداث الواردة في الفصول السابقة، ومن خلال آماله وتطلعاته. وهذه الخاتمة هي التي تفتح في واقع الأمر باباً واسعاً للجدل والمناقشة، وتكاد تلقي على سائر الفصول هالتها وتهب لها معناها النهائي.

والحق أن فصول الكتاب كلها مرتبطة بخيط رائد أساسي، قوامه البحث عن كل العوامل والعناصر التي من شأنها أن تهون المسألة، سواء في نظر العرب أو في نظر الصهاينة. وهدف هذا التهوين إمكان فتح باب لحل يبدو للكاتب أبعد الحلول عن مزيد من المآسي والآلام للفريقين. فكثير من الحقائق المثبتة والتحليلات الواردة تريد أن تقدم بعض الأعذار للطرفين، فِعلةَ من يريد التوفيق والإصلاح. إنها تقر بحق العرب الأصلي وتقر بالحيف الذي وقع بهم، غير أنها تفترض ولادة حق جديد لإسرائيل، حق البقاء في دولة قامت وتكونت. وبين هذين الحقين، بين قرني الإحراج كما يقول المناطقة، تريد أن

تجد مخرجاً! ومن هنا يقع الكاتب في مأزق صعب وفي تناقضات لا مفر منها. وهذه بعضها:

١ ـ لقد أراد هرتزل وأتباعه عام ١٩٠٠ أن يقيموا مستعمرة في فلسطين. غير أن ذلك حدث، لسوء الحظ، في زمن لم تكن فيه فكرة الاستعمار مستهجنة، كما أنه قام في فترة ما كان يأبه فيها الأوروبيون لسكان أي بلد خارج عالمهم، وكانوا يفترضون أي رقعة وراء ذلك العالم وكأنها خلوة فارغة تنتظر من يحتلها. تلك حقيقة تاريخية «علمية» في نظر الكاتب تبدو له وكأنها كافية لتفسير موقف هرتزل وصحبه! ولعلها تتراءى عنده وكأنها أسباب مخففة للجريمة.

٢ ـ وقيام اسرائيل ألحقَ حيفاً دون شك بسكان البلاد الأصليين حين طردهم من ديارهم، غير أن مثل هذا الحيف ليس أول حيف من نوعه يقع في تاريخ الإنسانية، وتاريخ العرب نفسه يشهد أنهم أوقعوا مثل هذا الحيف على شعوب أخرى! صحيح أن ما فعله العرب كان في حقبة زمنية قائمة على الفتوحات وعلى غزو أمة لأمة، وأن ما فعلته الصهيونية تم في عصر يأبى طرد شعب لشعب، غير أن في وسعنا ـ فيما يبدو للكاتب ـ أن نعتبر ذلك أيضاً سبباً من الأسباب المخففة للجريمة!

٣ ـ وبعد قيام اسرائيل ـ فيما يروي المؤلف ـ حاول بعض قادتها أن يرفضوا حلم اسرائيل الكبير (من الفرات إلى النيل) وأن يجنحوا إلى السلم وأن يقدموا حلولاً معقولة على نحو ما فعل شاريت مثلاً. غير أن موقف الفئة «المتصلبة»، وعلى رأسها بن غوريون (فضلاً عن الرفض العربي) لم يوفر لمثل هذه المحاولات شروط النجاح. وكأن هذه النوايا المفترضة لدى بعض زعماء اسرائيل وبعض سكانها تبدو مرة أخرى للكاتب أسباباً مخففة للجريمة!

٤ ـ وإسرائيل واقع ارتبط بالغرب وبالوجود الغربي الأمريكي خاصة، غير أن هذا الارتباط لا يعني أنها في جوهرها قاعدة استعمارية، ما دام وليد ظروف سياسية أملته. وليس هنالك ما يحمل على الاعتقاد ـ في رأيه ـ أن مثل هذا الارتباط جوهري وأساسي ومستمر وغير قابل للتغير!

تلك أفكار منثورة هنا وهناك في ثنايا الكتاب، هي التي تنبئ عن نقطة الضعف التي أشرنا إليها، نعني وجود «خلفية» وراء البحث، تجعله مشدوداً أنى تيسر له ذلك شطر «تهوين» الجرم الاسرائيلي، واجتراح معجزة التوفيق. ولا بد أن نقول إن الكاتب يقوم بمثل هذا الجهد أيضاً من أجل تبرير موقف العرب أمام الرأي العام العربي خاصة وأمام اسرائيل أيضاً، وإن تكن مهمته الأخيرة هذه أيسر مأخذاً دون شك ما دام الأمر أمر حق العرب الصريح الواضح (رغم غموضه للرأي العام الغربي).

إن الكاتب ينطلق من حلقة قوامها المحاكمة التالية: إن قيام المستعمرة الصهيونية قد أثار ردود الفعل العربية، وردود الفعل العربية هذه أثارت وتثير المواقف الاسرائيلية.

وهكذا يستمر الدور الفاسد (Cercle Vicieux) ويزداد الأمر تعقيداً. وفي قلب هذا الدور الفاسد يبحث عن مخرج. والمخرج في نظره لا بد أن يكون عنصره الأساسي قبول العرب للأمر الواقع، واعتراف اسرائيل بالأضرار التي ألحقتها بالعرب! لا بد في نظره أن يعترف العرب للإسرائيليين بحق الحياة ضمن المؤسسات التي أقاموها. ولا بد في مقابل ذلك أن يعترف الاسرائيليون بأنهم ألحقوا بالعرب خسائر كبرى، وبأنهم حرموهم من حقهم في الحياة في أرضهم.

وعند ذلك يمكن التفكير في تعايش بين المجموعتين، بحيث يعود عدد كبير من اللاجئين العرب إلى ديارهم، وبحيث يمكن قيام دولة ثنائية القومية!

ولن نناقش هذه النتائج التي يخلص إليها الكاتب من زاوية إمكانها أو عدمه. وهو نفسه يقر بأنها قد تكون من قبيل الأحلام. وكأنه يريد أن يقول إن الإيمان بالحلم يمكن أن يهيىء الشروط لانقلابه إلى واقع. والذي نريد أن نقف عنده هو مدى انسجام هذه النتائج مع المنهج العلمي الذي اختاره، ومدى اتفاقها مع التفكير المنطقي والعلمي.

لقد قلنا أكثر من مرة إن المهمة الخيرة في نظره التي نذر الكاتب نفسه لها لا بد أن توقعه في تناقضات عديدة. فهو يريد التوفيق والإصلاح ولا يريد الحكم لزيد أو لعمرو لمجرد الحكم. ولا نريد أيضاً أن نناقش هذه النية نفسها، فقد تكون ــ ضمن جملة الشروط التي يكتب فيها الكاتب كتابه ــ نية خيرة. وقد لا يرى الكاتب ــ ضمن إطار الظروف التي توجد فيها المشكلة ــ بديلاً أفضل منها.

غير أن هذا ليس كافياً ليجعل المنطق خُلفاً، وليقلب الحق على عقبيه، وليجعل الجاني والمجني عليه في منزلة تكاد تكون واحدة:

١ ـ إن المنطق العقلي لن يقبل ــ في سبيل إيجاد مخرج لمأزق صعب ــ أن يجعل كلا العرب والإسرائيليين أصحاب حق، ينبغي أن يعترف به كل منهما للآخر. وكتاب رودنسون نفسه في معظم أجزائه ينكر على الاسرائيليين أي حق تاريخي أو غير تاريخي في احتلال بلاد غيرهم. لكنه ما يلبث فجأة، في خاتمة كتابه خاصة، أن يتحدث ــ حديث من لا يريد أن يثير الجاني طمعاً في إقناعه بالحل ــ عن حق لإسرائيل في البقاء. إنه في نظره الحق الذي فرضه قيام اسرائيل، واغتصاب اسرائيل. ولا ندري ماذا يبقى من حقوق الدول إذا اعتبرنا سياسة الأمر الواقع أصلاً. ومن يستطيع عند ذلك أن يفرق بين شريعة القوة والغاب وبين شريعة حقوق الإنسان والأمم.

٢ ـ إن من الصعب على من يقرأ كتاب رودنسون نفسه ويقرأ الصهيونية وولادة دولة اسرائيل، أن يعتقد مع رودنسون أن اسرائيل صادقة في أي محاولة ظاهرية من محاولات السلام والوفاق مع العرب. والأحداث التي يذكرها حول مقاومة كثير من اليهود في الأصل للفكرة الصهيونية، وحول جنوح بعض زعماء اسرائيل بعد ولادتها نحو حلول وتنازلات، وحول عودة اسرائيل عن أحلامها الكبرى، تعبر في واقع الأمر

عن حقيقة واحدة لا ثاني لها، هي حقيقة الكر والفر، والسير تبعاً لمقتضيات الظروف، تيسيراً للهدف النهائي وتجزيئاً له إلى مراحل وخطوات. وتاريخ الصهيونية منذ أيام هرتزل حافل بمثل هذه المناورات، وبمثل هذه التراجعات التي يقصد منها الاستعداد لهجوم أكبر. والنتائج وحدها كافية للتدليل على ذلك. وتمسك اسرائيل بعد كل جولة بمزيد من الأراضي واقتناصها كلما سنحت الفرصة لجزء من بلاد العرب لا يتركان مزيداً لمستزيد. قد يقول الكاتب بينه وبين نفسه إن مثل هذه المواقف الممعنة في الجشع هي نتيجة «الرفض العربي». ولكن ما أسعد هذا الموقف الاسرائيلي إذن وما أشد مجونه: لقد اقتطعت اسرائيل أرض العرب، فإذا هم رفضوا القبول بالأمر الواقع فليس أمامها إلا أن تقتطع أرضاً أخرى! إنها دعوة سهلة إلى السلم تلك التي تدعو إليها على أسنّة الحراب. وإنه لإيمان عميق حقاً بالتعايش ذلك الذي يجعل منه مبرراً وأداة لمزيد من التوسع!

٣ ـ إن كتاب رودنسون نفسه ومقاله الشهير السابق في مجلة **الأزمنة الحديثة** يشهدان أن «اسرائيل واقع استعماري». غير أن المؤلف ينعطف فجأة في خاتمة الكتاب الذي بين أيدينا ليدخل بعض التعديل على موقفه، وهو تعديل تمليه عليه أيضاً في نظرنا تلك الرغبة في التوفيق. إنه يرفض انتساب اسرائيل وارتباطها بالعالم الغربي ارتباطاً جوهرياً، ويعتبر ذلك الارتباط عارضاً وليد ظروف سياسية. ويبلغ به الأمر حداً يشوه فيه معنى القاعدة الاستعمارية حين يفهم من هذه الكلمة قيام دولة هدفها استغلال العالم الثالث المتخلف واستثماره من قبل قوة صناعية حديثة. وعند ذلك ينكر أن تكون اسرائيل قاعدة استعمارية بهذا المعنى، وأن يكون انتسابها إلى العالم الغربي قائماً من خلال بنيتها الاقتصادية المتقدمة. وهو بهذا يضيق معنى القاعدة الاستعمارية كما أنه ينسى الارتباط بين البنية الاقتصادية والبنية السياسية في أي بلد. والأدلة واضحة على الدور الاستعماري الذي تقوم به اسرائيل بالنسبة إلى البلدان العربية، بحيث لا نحتاج إلى سرد لها. وحسبنا أن نذكر واحداً منها، أورده المؤلف نفسه في معرض حجته، وهو جدير بأن نورده في معرض الرد على تلك الحجة. إنه يقدم كدليل على عدم ارتباط اسرائيل بالاستعمار الغربي ارتباطاً جذرياً أنها لا يمكن أن تكون حجر عثرة في طريق تقدم البلدان العربية، وأن الثورة الاجتماعية والاقتصادية والتقدمية في البلاد العربية لا تقلقها ما دامت لا تهدد وجودها وحياتها! وههنا جوهر المشكلة: إن أي تقدم وتحرر حقيقي يمكن أن يحدث في البلاد العربية، لا يمكن أن يكون لصالح اسرائيل. ومن هنا فهي متآزرة مع جميع قوى الرجعية والسيطرة في العالم من أجل الحيلولة دون ذلك التقدم. وذلك هو دورها الاستعماري الكبير، وهذا هو بالدرجة الأولى معنى وجودها كقاعدة استعمارية. إنها بالتعريف وبحكم طبيعتها ضد تقدم البلدان العربية، بل ضد بقائها ووجودها. وجهودها المتآزرة مع المعسكر الرأسمالي والامبريالي موجهة بالدرجة الأولى نحو تعطيل ذلك التقدم، ونحو إضعاف الوجود العربي نتيجة لذلك. بل إن مهمتها الأولى إنعاش أعمق صيغ التسلط لدى ذلك المعسكر وحثه على ممارسة سياسة إمبريالية في البلاد العربية لعله يمارسها في غير ما قناعة أو حماسة. يشهد على ذلك أن كثيراً من الدول الغربية بدأت

تضيق ذرعاً بمطالب اسرائيل وموقفها، وتهتبل الفرص للتحرر من ضغطها اللامعقول، في عالم لم يعد يتسع لأشكال التسلط والاستعمار البالية. ويشهد على ذلك أن اسرائيل جرّت فرنسا وانكلترا إلى معركة خاسرة لا معقولة عام ١٩٥٦، وهي اليوم تجني بعض ردود الفعل على ما ورطتهما فيه. إن اسرائيل لا تبدو مرتبطة بالعالم الغربي وبالسياسة الامبريالية مكرهة، بل العكس هو الصحيح، إنها تريد أن تنعش السياسة الامبريالية وتحييها من أجل مطامعها، ولو لم تكن الامبريالية موجودة لخلقتها.

* * *

هذا جانب من التناقض المنطقي الذي يقع فيه الكاتب نتيجة للفكرة المبيتة لديه، فكرة التوفيق والتعايش. وهذا لا يعني أنه لا يعرض أفكاره هذه في كثير من الحيطة ومحاولة الدقة، وأنه لا يبين في كثير من الأحيان ما لها وما عليها. غير أن خطها الغالب هو الخط الذي ذكرناه، أما الليونات والترجح فتدل على الحيرة التي أوقع نفسه فيها وعلى المركب الصعب الذي ركبه.

ومع هذا وذاك، فالكتاب في جملته عامر بغير هذه الأفكار المتناقضة. إنه عامر بحقائق وآراء قيمة سديدة. وإن له فضل جلاء الكثير من الغموض الذي يجلل القضية الفلسطينية لدى الغرباء عنها. ولقد استطاع أن يكشف زيف كثير من الأفكار التي يؤمن بها الناس هنا وهناك حول اسرائيل ووجودها. كما أنه استطاع أن يقدم في كثير من الأحيان شرحاً سديداً لأحداث الصراع العربي - الاسرائيلي يخالف الأخطاء الشائعة لدى الرأي العام الغربي وغير الغربي على حد سواء. ولا يتسع المقام لذكر هذه الأفكار السديدة التي يأتي بها، والتي يغير من خلالها نظرات الغربيين الخاطئة، بل بعض أفكار العرب المألوفة. وحسبنا أن نشير إلى بعضها:

١ - يؤمن الكثيرون في العالم الغربي وفي البلاد العربية أن قيام دولة اسرائيل يتفق مع النبوءات التي جاءت في الديانة اليهودية حول عودة اليهود إلى أرض صهيون. ويبين المؤلف خطأ هذا الاعتقاد: فالنبوءة الواردة في الكتب الدينية تتحدث عن عودة في آخر الزمان (تشبه عودة المهدي المنتظر أو المسيح)، يقوم خلالها عصر ذهبي في فلسطين، ولا تتحدث عن عودة سياسية مبتسرة كالتي بشرت بها الصهيونية. ومثل هذه العودة التي تمت تناقض في نظر كثير من رجال الدين تلك الوعود الدينية وتخالفها. ولهذا كان رجال الدين اليهود أعدى أعداء الصهيونية في أيامها الأولى خاصة. وهكذا نجد الصهيونية قد استغلت في واقع الأمر شعوراً دينياً، غيرت حقيقته وأعطته طابعاً سياسياً «علمانياً». فالحديث عن أرض الميعاد لم يرد قط في كتب اليهود على الصورة التي اصطنعتها الصهيونية من أجل أغراضها الدنيوية.

٢ - يقبل كثير من الغربيين الفكرة الشائعة القائلة إن مئات الآلاف من العرب الذين غادروا فلسطين أثناء حرب عام ١٩٤٨، فعلوا ذلك بدافع من زعمائهم العرب أنفسهم. ويبين الكاتب للرأي العام الغربي خطأ هذا الاعتقاد، ويشرح الأسباب الحقيقية لهجرة

العرب، وهي أسباب يأتي على رأسها الإرهاب الذي مارسه اليهود، والذي نجد مثالاً عليه في مذبحة دير ياسين.

٣ ـ يبين الكاتب للرأي العام الغربي أيضاً أن الشعب اليهودي الذي جاء ليحتل فلسطين شعب مغاير كل المغايرة للشعب اليهودي القديم الذي سكن تلك البلاد منذ نيف وألفي سنة، وأن اليهود منذ أيام تحريرهم وتوزعهم على الأرض لم يعودوا يكونون شعباً بأي معنى من معاني الكلمة. لقد زالت عنهم صفات الجماعة المتجانسة والأمة المتشابهة وأصبحوا أفراداً تربطهم فيما بينهم أحياناً رابطة الديانة المشتركة، وأحياناً أخرى ثقافة مشتركة ضيقة تكونت ضمن حدود البلدان التي سكنوها (وما هي بالتالي ثقافتهم القديمة)، وأحياناً ثالثة ذكرى أصولهم المشتركة جزئياً. وهكذا فإن الجماعة التي أرادت أن تحتل فلسطين جماعة جديدة، شعب غير متجانس، بل لا تصدق عليه كلمة شعب. وهذا الشعب غير المتجانس الذي لا يكون شعباً هو الذي أراد أن يطرد شعباً متجانساً أصيلاً عريق الحضارة موحد الكيان. ومن هنا فالكارثة مضاعفة: إنها كارثة طرد جماعة لجماعة، وإنها فوق هذا كارثة طرد جماعة غير متجانسة ولا تكون شعباً لجماعة أخرى متجانسة عريقة الأصول.

٤ ـ وكنتيجة لذلك يدحض الكاتب معتقداً آخر شاع لدى الغربيين، وهو المعتقد الذي يرى أن سكان فلسطين العرب لم يكونوا سوى محتلين لأرض لم تكن لهم، وأنهم قد فتحوا تلك البلاد عنوة في القرن السابع للميلاد، لا يختلفون في ذلك عن الرومان أو الصليبيين أو الأتراك الذين احتلوا تلك البلاد في فترات مختلفة. ولهذا فهم ليسوا في نظر هذا المعتقد الخاطئ المضلل سكاناً أصليين للبلاد أكثر من سواهم، بل ليسوا أكثر أصالة من اليهود الذين سكنوا هذه البلاد في القديم وكان لهم فضل احتلالها قبلهم! ويردّ رودنسون هذا الزعم، ويبين أنه على الرغم من قلة عدد العرب الذين فتحوا فلسطين وجاؤوا من بلاد العرب في القرن السابع، فإن سكان تلك البلاد ما لبثوا حتى تعربوا سريعاً بتأثير عوامل عديدة، على رأسها عامل الدين الإسلامي. وهكذا غدت فلسطين عربية وانصهر سكان البلاد مع الفاتحين، في حين أنها لم تصبح يوماً رومانية أو تركية أو غير ذلك.

٥ ـ وقريب من ذلك ما يفعله الكاتب حين يوضح للرأي العام الأجنبي الفارق الأساسي بين «احتلال» العرب في الماضي لبلاد سواهم، وبين احتلال اليهود اليوم مثلاً لبلاد فلسطين (رغم أنه يعود فيقع في شيء من التناقض حول هذا الموضوع في خاتمة كتابه كما ذكرنا). فلقد قام العرب بفتوحاتهم في عصر كانت فيه الفتوحات أمراً عادياً. وهم بعد ذلك فتحوا بلاداً تحتلها شعوب غريبة عنها كانت تسومها العذاب، ولهذا فإن معظم سكان تلك البلاد تلقوا الفاتحين العرب كمنقذين. ثم إن العرب لم يعاملوا الشعوب التي فتحوا بلادها معاملة المغلوبين، بل عاملوهم معاملة الند للند، وأحسنوا حتى إلى من بقي منهم على دينه النصراني أو اليهودي. هذا إذا لم نرد أن نقول إن سكان معظم تلك

البلدان التي فتحها العرب ينتسبون في الأصل إلى موجات جاءت من جزيرة العرب (بعض الحجج الواردة هنا أضفناها نحن إلى حجج المؤلف). ومن هنا دانت لهم تلك البلاد طوعاً، وانصهرت في بوتقتهم وما لبثت حتى استعربت.

وآية هذا كله أنه لا يجوز تشبيه احتلال اليهود اليوم لفلسطين باحتلال العرب لبلاد غير الجزيرة العربية أيام الفتوحات الإسلامية، ولا يجوز بالتالي في أي حال من الأحوال أن نبرر تلك بهذه، كما يفعل كثير من الكتّاب المضللين.

❊ ❊ ❊

والكتاب في جملته يخاطب الرأي العام الأجنبي أولاً وقبل كل شيء. ويوفق إلى حد كبير في أن ينضو عن القضية الفلسطينية ما علق بها من أفكار خاطئة في أذهان الغرب، بفعل الدعاوة الصهيونية خاصة. ومن الجوانب القوية التي نقع عليها في الكتاب، تلك التي تفند كبريات الحجج التي يتذرع بها الصهاينة والتي ينساق معها كثير من المضلَّلين في الغرب.

ونقدم في ما يلي جانباً من مناقشة المؤلف لتلك الحجج الشائعة الخاطئة:

١ - يقف المؤلف عند ذلك السلاح الذي طالما استخدمته الصهيونية، لاجتذاب العطف إليها، نعني التحدث عن آلام الشعب اليهودي وما لقيه عبر التاريخ من خسف وهوان، وما لقيه على يد النازية خاصة من تقتيل وتشريد. والصهيونية كما نعلم تعتبر هذا الواقع الأليم الذي تعرضت له كافياً لتبرير مطالبتها بوطن قومي تأوي إليه وتنهي فيه قصة آلامها وعذابها. وتستغل الصهيونية في هذا المجال ما يساور الغربيين من شعور بالإثم أمام المآسي التي تعرض لها اليهود، ومن رغبة في التكفير عن ذلك الإثم، ولو على حساب غيرهم. وجواب المؤلف على هذه الذريعة الصهيونية واضح صريح: لو حق لآلام اليهود أن تبرر في نظر بعضهم إنشاء دولة مستقلة، فليس في ذلك على أية حال ما يبرر أن تقوم تلك الدولة على حساب العرب. والعرب غير مسؤولين أولاً وآخراً عن آلام اليهود في أوروبا. ومن حقهم أن يقولوا: إذا كان الأوروبيون يشعرون بالإثم وبالمسؤولية تجاه اليهود، فما عليهم إلا أن يقدموا لهم بعض أرضهم، بدلاً من أن يتنازلوا لهم عن أرض سواهم.

٢ - ويفند الكاتب كذلك ذريعة «العداء للسامية» التي يريد الصهاينة أن يمتطوها من أجل أغراضهم. فهم يتهمون بالعداء للسامية كل من لا ييسر مهمة الصهيونية ومطامعها التوسعية، وكثيراً ما يوهمون الرأي العام الغربي بأن عداء العرب لهم يسقى من نزعة عامة ضد السامية وضد اليهود. ويجيب المؤلف بأن موضوع «العداء للسامية» موضوع وجد لدى الأوروبيين، ولم يعرفه العرب. غير أن خلق دولة اسرائيل كان من أهم عوامل إذكاء هذه النزعة دون شك. فلقد أثارت الصهيونية في البلاد العربية نزعة معادية للصهيونية كان لا بد لها أن تؤدي بشكل من الأشكال إلى نزعة عداء للسامية

ولليهود. ومعنى هذا أن الصهيونية لم تستطع في الواقع، كما زعمت، أن تسهم في حل مشكلة العداء للسامية، بل عملت على إذكائها في كثير من الأحيان، لدى العرب ولدى سواهم.

٣ ـ ويضطر الكاتب أن يقف عند حجة واهية تصطنعها الصهيونية مع ذلك، كجزء من خطتها التي تجرب فيها ألا تهمل أي سلاح في معركتها. فكثيراً ما يوهم الصهاينة الرأي العام الأجنبي أن الصراع بينهم وبين العرب صراع بين التقدم والتخلف، بين المدنية والبربرية، وأن أبرز أسبابه تلك النقائص التي تنسب إلى العرب، وذلك التخلف الذي يعانون منه في حياتهم السياسية والاجتماعية. ويجيب الكاتب على هذه الذريعة العجيبة: ليس من حق أحد أن يقول إن شعباً يشكو من نقائص تجعله جديراً بأن تقتطع أرضه وتحتل دياره. ومثل هذه الحجة الفريسية التي تصطنعها الصهيونية حجة طالما لجأ إليها الفاتحون المغتصبون في شتى الصور، غير أن الضمير الحديث يرفضها ويمجها.

٤ ـ كذلك يبيّن الكاتب أن المسألة ليست، كما تحاول بعض الأوساط اليسارية الغربية أن تقول، مسألة صراع بين الاشتراكية والرجعية أو الفاشية العربية. فالصهيونيون، كما يجيب بوضوح، جاؤوا إلى فلسطين لينشئوا دولة يهودية، ولم يأتوا إليها ليكونوا حواريين مبشرين بالاشتراكية. ولقد بين الكاتب في مواضع كثيرة من كتابه حقيقة النزعات الايديولوجية الاشتراكية في اسرائيل، وحقيقة القطاع الاشتراكي في الاقتصاد الاسرائيلي، وذكر أن البنية النهائية للاقتصاد الاسرائيلي بنية رأسمالية تعتمد على رؤوس الأموال الكبرى الأجنبية، وأياً كان الأمر فيمكن التأكيد بأن المجتمع الاسرائيلي في جملته مجتمع لا يمت إلى الاشتراكية، وأن الدولة الاسرائيلية لا تستهدف في سياستها الخارجية توسيع نظامها الاشتراكي، بل يمكن القول على العكس من هذا، إن الصراع في حقيقته صراع بين الاشتراكية العربية ضد النزعة الاستعمارية الصهيونية.

٥ ـ ويزيل الكاتب وهماً آخر عالقاً في بعض الأذهان، هو الوهم القائل بأن عداء العرب لإسرائيل عداء ديني يرجع إلى عداء الدين الإسلامي للدين اليهودي. وههنا يبين الكاتب أيضاً أن الدين الإسلامي في جوهره لا يعادي الدين اليهودي، كما أن المسلمين لم يلجأوا أيام فتوحاتهم إلى إكراه اليهود أو سواهم على الدخول في دينهم، بل إن كثيراً من اليهود الذين اضطهدهم مسيحيو أوروبا وجدوا في أرض الإسلام ملجأ وملاذاً. والعلاقات بين الطوائف الدينية كانت غالباً في البلاد الإسلامية علاقات قائمة على التسامح والتعايش.

٦ ـ وتريد حجة صهيونية شائعة أن تقول إن الصراع في أعماقه تعبير عن نزعة «التوسع العربي»، وجوهر هذه الحجة أنه إذا كان من الطبيعي أن تدافع كل دولة عربية عن وجودها ومصالحها، فمما ينبع عن نزعة توسعية أن تحاول الدول العربية المختلفة أن تدافع عن فلسطين وأن تقاتل من أجل فلسطين. وتضيف هذه الحجة في كثير من الأحيان أنه لو أتيح لعرب فلسطين أن يُتركوا وشأنهم لأمكن الوصول إلى تفاهم بينهم

وبين اسرائيل! وأمام هذه الحجة الواهية، يعجب الكاتب من أن يشكك في مشروعية مشاعر التضامن بين العرب، الصهاينةُ أنفسهم الذين يرون أن من واجب يهود العالم كلهم أن يتضامنوا مع اسرائيل! ويضيف أن بين العرب في مختلف ديارهم أواصر وثيقة من التاريخ والثقافة المشتركة، يشعر بها كل فرد من أفراد ذلك الشعب المتجانس منذ قرون وقرون. في حين أن الصلات بين اليهود صلات واهية تعوزها حتى وحدة اللغة وهي الحد الأدنى الضروري لقيام ثقافة مشتركة. وللعرب أن يتحدوا أو يبقوا مجزأين، كما يحلو لهم، وليس من حق أحد أن يأخذ عليهم وحدتهم، ما داموا لا يستخدمون هذه الوحدة من أجل غزو أراضي غيرهم.

* * *

هذه ملاحظات عابرة على كتاب رودنسون. وكنا نتمنى أن نتريث عند كثير من الأفكار والحقائق الأخرى الواردة في الكتاب. كما كنا نتمنى أن نستطيع عرض وجهة النظر العربية من المسألة الفلسطينية عرضاً منطقياً واضحاً، يتجاوز الإشارات العابرة التي نثرناها في هذه الكلمة هنا وهناك. غير أن مثل هذا المطلب يستلزم وحده أكثر من مقالة. ولعل لنا إليه عوداً في مناسبة أخرى. وحسبنا هنا أننا قدمنا ـ فيما نعتقد ـ عرضاً موضوعياً لكتاب أثار الكثير من الجدل، وأوقع بعض الكتّاب في أحكام متناقضة، بعضها متطرف في الهجوم عليه، وبعضها الآخر مجتزأ يقوم بامتداحه عوضاً عن تحليله ودراسته. ونعتقد، في الجملة، أن أفكار الكتاب جديرة بأن تدرس وتحلل وتتخذ من قبل المفكرين العرب منطلقاً لدراسات تخاطب الغرب وتعقد حواراً مع الرأي العام الصادق فيه، بغية الوصول إلى مزيد من التوضيح للقضية العربية الأولى، وبغية الوصول إلى تضامن أوثق فأوثق بين الضمائر والعقول الشريفة في العالم. وأياً كان الأمر، فالموقف السليم الذي ينبغي أن يقفه الفكر العربي من أي محاولة تتصدى لقضيته، سواء كانت محاولة إلى جانبها أو ضدها، أن يتخذ من ذلك مناسبة لعرض وجهة نظره وتفنيد الحجج التي يراها خاطئة، وفتح حوار فكري مع الآخرين. وأسوأ المواقف هو موقف «الرفض»، رفض الحوار مع الآخرين، واللجوء بالتالي إلى الانكفاء على الذات والاعتكاف ضمن الحقيقة الذاتية، التي تتراءى لصاحبها بينة بدهية، وما هي كذلك للآخرين. إن موقف الإيمان الصامت بالحقيقة، لا يختلف في نتيجته العملية عن موقف الشك بها والخوف من إخراجها إلى النور. ولم تكن الحقيقة يوماً «جوزة» قابعة في قشرتها، على حد تعبير جيمس، وإنما هي حوار وتفاعل وانفتاح.

إن الصهيونية استطاعت، عن طريق الجهد والدأب وعدم اليأس، أن تقلب باطلها حقاً في نظر الكثيرين، فمتى يقوى العرب على أن يجعلوا حقهم كما يرونه هو الحق الذي يراه الآخرون؟

الإنسان العربي الجديد:

رؤى جديدة، مهمات جديدة(*)

عبد الله عبد الدائم

تكاد كلمة «جديد» أن تغدو في وطننا العربي، بعد محنة الخامس من حزيران، كلمة الساعة، كلمة الوعود والآمال، كلمة المستقبل ورؤاه. «الجديد» هو الذي يتراءى في الأفق، وكأنه «القوة» المرجوة، والمنقذ والمخلص. على أنه إذا كان الإرهاص بالجديد مظهراً بيناً وشعوراً شاملاً، فمعالم هذا الجديد يكتنفها الكثير من الضباب، وتجللها سحب الغموض. ولا تثريب في ذلك، فمن مواطن القوة في الجديد ما يشتمل عليه من عناصر عصية على النبوءة، عامرة بقوة المفاجأة، محملة بغنى الممكن وثراء المكنون. غير أن الغنى يغدو فقراً والثراء وهماً، عندما لا يحمل تصور الجديد من معالم هذا الجديد إلا اللفظة أو الشعور اللفظي، عندما يغدو التعلق بالجديد تعلقاً بمولود سحري سوف يهبط من السماء، دون أن يدري أحد عن قسماته شيئاً، ودون أن تنبئ عن ولادته جهود الحاضر. فالمستقبل الغني لا بد أن يعمل له الحاضر، دون أن يستوعب كامل إمكاناته. والمستقبل إلى حد بعيد اتجاه من اتجاهات الحاضر، ينمو ويترعرع من قلب الحاضر، ثم ما يلبث حتى يغدو غيره. ومن هنا فلا سبيل إلى أن نحلم بـ «جديد» حق إلا حين تدلنا صورة الحاضر على بعض معالم هذا الجديد، إلا إذا بدأنا ببناء هذا الجديد، ليبنينا هو بعد ذلك، وليتجاوزنا. ولقد مضت ـ في عصر سيطرة الإنسان على العالم ـ فكرة المستقبل الذي يفر من بين يدي الإنسان، والذي لا توجهه إرادة الإنسان إلى حد بعيد. والدراسات والأبحاث والمؤسسات التي جعلت همها السيطرة على المستقبل والمستقبل البعيد غدت أكثر من أن تحصى. وما الحديث عن «التحسب» (Prospective) و«التنبؤ التكنولوجي» و«علم المستقبل» (Futurologie) إلا جانب من محاولات دائبة، أخذت شكل الدراسات العلمية والرياضية، هدفها الإمساك بمجرى الغد، وبقدر المستقبل.

(*) نُشر في: مواقف (لبنان)، السنة ١، العدد ٣ (آذار/مارس ـ نيسان/ابريل ١٩٦٩)، ص ٨٦ ـ ٩٢.

وإنساننا العربي الجديد، لا بد أن نحاول الإطلالة عليه من خلال هذه النظرة، لا بد أن نتبين معالمه إذا أردنا فعلاً أن يولد، لا بد أن نخلقه إلى حد كبير إذا أردنا أن يخلق. إننا لا بد صانعوه إذا أردنا أن يصنعنا، ولا بد مطلقوه إذا أردنا أن يتجاوزنا. ليس شأننا معه شأن من ينتظره، بل شأن من يبحث وينقب ويستحث. لن يهبط من الغيب، ولن تحمله المعجزة، ولن يحمل معه المعجزة. لن يكون جديداً إلا بنا، ولن تستبين معالمه إلا من خلال جهدنا. إن نحن قد انتهينا، فلن يكون لنا جديد، وإن أصبحنا القديم القديم، فلا نحلمن بالطريف. الإنسان الجديد ليس سوانا، وإن يكن فوقنا، ليس نوعاً جديداً من الإنسان ولا مخلوقاً مبتكراً، بل هو الإنسان ذاته، الإنسان العربي، في محاولة ولوجه الأعمق في إنسانيته وعروبته، وتعرفه الأصدق على طريقه وقدره. خطأ أن نقول إن ما لم نستطع أن نفعله لا بد أن يفعله جيل جديد بعدنا، وما فشلنا فيه سوف يظفر عليه مستقبل من دوننا. من خلال فشلنا ينبغي أن ندفع الجيل الجديد لينتصر. من خلال صدقنا مع ذاتنا، نفسح المجال لولادة أعمق للجيل المنتظر. من قلب محبتنا للجيل الجديد يمكن أن يولد هذا الجيل. ومحبتنا للجيل الجديد تعني إنكارنا لغرورنا، وتخلينا عن أثرتنا، وتحطيمنا لعبادة ذاتنا. إنها تعني القدرة على الإنسلاخ عن إهابنا من أجل الرؤية الجديدة، من أجل المستقبل الذي صنعنا عناصره السلبية إلى حد بعيد.

* * *

بداية البداية أن جيلنا الذي قاد المعركة فأخطأها، قد أفلس، ولا ينتقص هذا من جهده وتضحية نضاله. غير أنه يومئ إلى جهد جديد واجب وتضحية من طراز آخر ونضال يستوي مع سمو المعركة وضخامتها. والمسألة كلها: هل أقر بإفلاسه وتجاوزه، أم ما يزال الفقير المدعي للغنى والفاشل الذي يلبس لبوس الظفر؟ الإقرار بالإفلاس دليل الحياة ومنطلق التجاوز، وبداية العمل لبناء الجيل الجديد. والإصرار على الخطأ والمكابرة فيه دليل التمسك بالماضي والعجز عن إدراك رؤى المستقبل وإقفال الطريق أمام المستقبل.

إن نقد الذات أول معالم الصحة النفسية والسلامة، وأولى بوادر الحيوية. والتغني بالمواقف والتبجح بالأعمال أبرز سمات الشيخوخة. أما كيف أفلس الجيل الذي قاد المعركة حتى الخامس من حزيران/يونيو، فحديث يطول. حسبنا منه دليله العملي الواقعي، حسبنا منه ما آلت إليه الأمور. فالنتائج هي المهمة في نظر التاريخ. أما النوايا، وأما العلل والأعذار فقد تبرّر ولكنها لا تبرئ.

لا يعنينا كثيراً أن نمضي في تحليل الأسباب، من أجل توزيع المسؤوليات. الذي يعنينا آن الأسباب شاملة، وأن المسؤوليات جماعية، وأن جيلاً بكامله قد سقط: هل كانت الأحداث المفاجئة فوق الطاقة والحسبان؟ هل بلي بما لم تبل به أمة من عدو متفوق ماكر؟ هل أهمل القوى الحقيقية، قوى الشعب، فعاش معزولاً عن الجماهير وتخلى عن تربيتها تربية صادقة حقيقية؟ هل أغفل التعبئة الوحيدة الفعالة، تعبئة الشعب ونصب نفسه

حاكماً وحكماً وحيداً؟ هل استهوته المطامع فتساقط عبر الطريق، حين وصل إلى المغانم سريعاً وجنى ثمرات نضاله عاجلاً قبل أن يكتمل عوده وقبل أن تصلب بنيته بالعرق والنصب؟ هل غادر أفكار الشباب الكبيرة في طور مبكر فشاخ قبل الأوان وابتلعته مغريات الطريق؟ هل ابتلي بهزال الفكر وأهمل دور العقل والثقافة والتنظيم العقلاني؟ هل مشكلته مشكلة خواء في الفكر أم مشكلة خواء في الأخلاق أم مشكلة الضعف في كليهما؟ أسئلة عديدة تتزاحم في الذهن. تحليلها له غير هذا الموضع. وهو على أي حال لا يغير من النتيجة شيئاً، ولعله يصل بنا في نهاية الأمر إلى أن السبب هو جماع هذه الأسباب وكثير غيرها، وأن العلة شاملة.

الذي يعنينا ليس مجرد التحليل والكشف عن الأعذار، بل إنكار هذا الجيل لأسلوبه ومنهجه. إن هذا الإنكار أولاً يولد الحل ويولد المستقبل. من هذا الاعتراف أمام الحقيقة تولد الحقيقة. من هذا التحرر من «الأنا» الضيقة، تولد حرية الآخرين ويولد عطاؤهم. عندما يعلن هذا الجيل عن إفلاس دوره السابق يغدو له دور. وعندما يتحرر من وطأة «ماضيه» ينفتح على المستقبل ويفتح المستقبل للجيل الذي يتجاوزه.

إن الذي يطلب إليه هو أن يفكر في الأشياء من خلال المستقبل، من خلال نظرة «مستقبلية»، لا أن يفكر فيها عبر نظرة «تراجعية» تحمل أثقال العادات الماضية. بهذا النهج يقوى على تبين معالم الصورة الجديدة للإنسان العربي المنشود، ويبدأ التنقيب عنها ويشرع في رسم خطوطها وييسر السبيل لظهورها.

ولا يعني هذا أن ولادة الجيل الجديد هي في نهاية الأمر حبيسة إرادة الجيل الحالي، الجيل الذي قاد المعركة حتى الخامس من حزيران/ يونيو. ولا يعني هذا بخاصة أن الإنسان الجديد أعطية يمنحها الجيل الحالي، ويجود بها أو لا يجود. فالجيل الجديد يؤخذ ولا يعطى، وينتزع ولا يمنح. سوى أن المسألة في نظرنا لا بد أن تكون في حقيقتها أخذاً وعطاء متبادلين بين جيلين. فليس من الصحيح أن الجيل الجديد يولد من لا شيء، كما أنه ليس من الصحيح أنه هبة الجيل الذي سبقه. والصحيح أن الجيل السابق حين ينقد تجربته ويدرك حدودها، وحين يقسو على ذاته ويستطيع تجاوز إسار ماضيه، يخلق بطبيعة الحال بذور الثورة التي سيتلقفها الجيل الجديد ويوغل فيها ويصل بها إلى غايتها. والصحيح كذلك أن بواكير الجيل الجديد، حين تبدأ بأن ترفض، دون أن تدرك تماماً ماذا تقبل وماذا تريد، تيسر للجيل القديم تجاوزه لذاته ونقده لتجربته وتضعه على طريق خلق الجيل الجديد. وهكذا تضع تباشير الجيل الجديد، الجيل القديم أمام المناخ الروحي اللازم للتجاوز، وأمام الحاجة إلى المراجعة والانقلاب على الذات، فتبدأ عن هذا الطريق ولادة معالم الجيل الجديد، ولادة أوضح، وتأخذ براعمه بالتفتح وتنطلق اتجاهاته نحو مزيد من التعين والتشكل. على أن دور الجيل الجديد في خلق ذاته وإطلاق شرارته يظل هو الدور الأساسي. فالإرهاص بالجديد والتحسس بالمستقبل صفات لا نجدها إلا لدى الصفوة القليلة من أبناء الجيل القديم. أما الكثرة الكاثرة فمشدودة إلى عاداتها الماضية. وأصوات

الإنسان الجديد هي القادرة على إيقاظ أكبر عدد ممكن من تلك الكثرة، وعلى كسبها من أجل معركة التغير.

ولكي يستطيع هذا الجيل الجديد أن يلعب هذا الدور، لا بد أن تكون تضحياته وأعماله بمستوى المهمة التي ندب نفسه لها، ولا بد أن يكون بمستوى التجاوز الذي يريده. ومن هنا نستطيع أن ننطلق لتحديد بعض صفات هذا الجيل الجديد القادر على أن ينتزع القيادة ويتصدر المعركة.

١ ـ إن أول صفة لا بد أن يتصف بها هذا الجيل، هي المعاناة الفعلية للمعركة. وهذه الصفة أم الصفات الأخرى، لأنها تنبع من طبيعة الواقع الذي نعيشه، ومن طبيعة الضرورة التي تستدعي ظهور هذا الجيل الجديد. فواقع الإنسان العربي هو واقع المعركة الفعلية مع العدو الأول، العدو الصهيوني، ومع سائر القوى المادية والمعنوية، التي تؤكد وجوده. وهو واقع لا يقبل أنصاف الحلول: إنه يبين في غير ما تلكؤ أن سبيل الخلاص هو المعركة، المعركة بكل معانيها، المعركة الحربية، المعركة الدموية.

لقد جرب الجيل القديم الثورة البيضاء، وجرب إحداث تغيير أساسي في بنية المجتمع دون أن يعاني من النضال الدموي إلا أقله. وأثبتت تجربته الفاشلة أن النضال الحقيقي في مجتمع مهدّد بالفناء هو خوض معركة الفناء والإفناء. من خلال هذه المعركة، من خلال هذا «المطهر» يمكن أن يتكون الجيل الجديد. ومن معاناتها تتضح سماته وتتضح معالم ثورته. ومن هذه الانتفاضة الحيوية القاسية ضد عوامل الموت، تبزغ الأدلة على مدى قدرة هذا الجيل على تحمل قدره القاسي، قدر إنقاذ أمة مهددة بالموت، عن طريق سلوك «سبيل الموت».

٢ ـ ومن هنا فإن الجيل الجديد يختلف اختلافاً جوهرياً عما عداه، في صفة أساسية مميزة، وهي أنه لا يجتنب المعركة، بل يريدها ويتقصدها. إنه جاوز تلك المرحلة التي كان يخيل فيها إلى بعض أفراد الجيل القديم أن من الممكن أن نربح شيئاً بدون معركة فعلية شاملة وأنه في وسعنا أن ننقذ شيئاً دون تعبئة فعلية لقوى كل فرد من أفراد الشعب من أجل يوم موعود. إنه يدرك أن قدره هو قدر المقاتلة والمعركة، ولا بد أن يقذف نفسه في هذا القدر، ولا سبيل إلى اجتنابه. إنه لم يعد في وضع الجندي الذي ما يزال يأمل في عدم وقوع المعركة، بل غدا في وضع الذي أصبح في حمياها وقلبها، وما عليه إلا الإيغال فيها والإمعان في الضراوة والشراسة ليبلغ النصر. إنه يدرك أن أقصر طريق للنصر وأقلها نفقات هي طريق الاتجاه صوب المعركة توأ والتعبئة من أجل المعركة بكل الإمكانات والوسائل. أما ما سوى ذلك ففرار من الواقع إلى الأحلام، فرارٌ لن يقود الجميع إلا إلى ميتة الجبناء، ميتة البعير.

٣ ـ وترتبط بهذا سمة أخرى أساسية من سمات جيل القدر الصعب، قدر الأمة العربية، هي إيمان هذا الجيل أن ثمرات نضاله قد لا يجنيها هو في حياته. إنه جيل الحرمان والتضحية، جيل الثورة التي لا ينتظر صاحبها من ورائها المغانم. وفي هذا أيضاً

يختلف اختلافاً أساسياً عن كثير من أبناء الجيل السابق. فالثورة الناقصة التي قادها بعض أفراد ذلك الجيل، كانت مقودة برؤى المغانم الدانية، أو كانت على أحسن تقدير تجمع بين الغرم والغنم، وتعتبر الغنم حقاً مكتسباً يانع القطاف لمن أصابه بعض الغرم. ومن هنا تعثرت هذه الثورة في الطريق وتساقطت أمام المغريات وتمزقت يوم دنا القطاف. وظهر زيفها بوجه خاص عندما تعرضت للمحنة الصعبة، محنة التضحية الفعلية أمام خطر العدو المداهم. والتجاوز الأساسي الذي لا بد أن يحققه الجيل الجديد، أن يكون جيل الأشواك والصعاب والتضحيات، أن يدرك أن المسيرة الجدية غير دانية الجنى وغير معسولة الوعود.

٤ ـ ومثل هذه النظرة تفترض لدى الجيل الجديد نفساً طويلاً في كل ميدان. وههنا أيضاً يقوم فراق أساسي بينه وبين معظم أفراد الجيل القديم. لقد كان نضال هؤلاء في معظم الأحوال وفي شتى الميادين نضالاً قصير النفس نزق المقاصد، يستعجل الأمور ويريد أن يحقق أغراضه بين عشية وضحاها، ويجد عنتاً في الانتظار الطويل، والمصابرة المديدة. ومن هنا كانت ولادته إجهاضاً وكانت ثمراته فجة. لم يحاول ذلك الجيل أن يسلك الطريق، ولو دارت، ولم يدرك أن للتغيير شروطه ومستلزماته ومراحله وفترات نضجه. ومن هنا سيطر عليه التفكير السحري، بدلاً من التفكير الموضوعي العلمي، واعتقد أن الأمور تتغير بمجرد أن نريد ذلك، وأن الرغبة تعني القوة والمقدرة، وأن الأفكار عصا سحرية تغير البلاد والعباد لمجرد قولها وإلقائها والاحتماء بها. الجيل الجديد يرفض هذا التفكير السحري، هذا الموقف اللاهث، هذه النظرة القصيرة. إنه يؤمن بسياسة النفس الطويل والعمل الدائب والنظر البعيد. إنه جيل الفكر العلمي، الذي يدرك أن للحوادث أسبابها وأن للتغيير عوامله وشروطه، وأن الطريق القصير حقاً هو الطريق الذي يبدأ من حيث يجب أن تكون البداية والذي يذلل المعضلات خطوة خطوة ومرحلة مرحلة. إنه يتعجل ولكن في أناة ووعي، ويجهد ولكن في صبر على مستلزمات المعركة، وفهم لمتطلبات التغيير.

٥ ـ وجيل النفس الطويل والبعيد لا بد أن يكون جيل النظرة الكلية الشاملة. إنه يدرك صفحة الواقع إدراكاً علمياً، يكشف عن جوانبها المختلفة وعن علاقاتها المترابطة، ويضع خطته بوحي من هذا الفهم الكامل المتكامل لمختلف العوامل التي تفعل فعلها في ذلك الواقع. فالنظرة الجزئية إلى جنبات المعركة نظرة لا بد أن تلتقي مع الموقف السحري. إنها حين تدرك جانباً من الأمر وتنسى جوانب، تقع في التقدير الناقص، فتغالي في قيمة ذلك الجانب الذي لا ترى سواه، أو تحقر من شأنه وتهمل أثره حين لا تدرك دوره في الكل الذي ينتسب إليه. إن الإدراك الموضوعي العلمي يعني الإدراك الكلي الشامل لمختلف العوامل التي تؤثر في مجرى الأحداث. وبداية القدرة على مغالبة الأحداث فضح روابطها وعلائقها وتحليلها إلى عواملها وأجزائها. ومنطلق النجاح في أي خطة كبيرة أو صغيرة، في أي مهمة جليلة أو يسيرة، تبين العناصر المختلفة التي تتألف منها هذه المهمة، وإدراك الصلات بينها، ومعرفة مراحلها ومواقيتها وصعوباتها. والتحليل

العلمي لأي عمل، تحليلاً يبين المنظومة الكلية التي ينتسب إليها، هو اليوم سبيل النجاح في شتى ميادين الحياة الحديثة. ولسنا غريبين اليوم عن تلك الأساليب الفنية الحديثة التي أثبتت نجعها في ميدان الحرب وفي ميادين النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، نعني تلك الأساليب التي يطلق عليها حيناً اسم أساليب «التحليل الإجرائي» (Operational Analysis) وحيناً آخر اسم «تحليل النظم» (Systems Analysis). إن الخوف من الواقع ومن الصعوبات وليد الفهم الناقص لهذا الواقع، كما أن الاستهتار بالواقع وبالصعوبات وليد مثل هذا الفهم الناقص. والموقف الفعال المجدي، الموقف المطمئن، هو الموقف الذي يدرك الأمور في صفتها الكاملة، في حقيقة روابطها وعلاقاتها، فيقدرها حق قدرها دونما إفراط أو تفريط، ويعرف من أين يعالجها وكيف ينطلق للتأثير فيها وتغيير مجراها. وفي معركته الطويلة مع العدو، لا بد أن يكون سلاح الجيل الجديد هذه المعرفة المتكاملة لعناصر المعركة وعواملها ومراحلها. ولا بد أن يكون حصاد ذلك كله تخطيطاً علمياً شاملاً يقبض على ناصية الأحداث ويذلل معضلاتها مرحلة مرحلة وخطوة خطوة.

٦ ـ ومن هنا كان الجيل الجديد جيل التخطيط العلمي والبناء العقلاني للحياة. إنه ينطلق من روح العصر روح السيطرة على المستقبل، عن طريق رسم الصورة المرجوة لهذا المستقبل، ورسم السبل المؤدية إلى تلك الصورة المنشودة. إنه يستقي من تجربة الحضارة الحديثة كلها، تلك التجربة التي تشهد بحقيقة أساسية وهي المزيد من تحكم الإنسان في مجرى الأحداث، ولو كانت أحداث المستقبل القريب أو البعيد. وإنسان الجيل الجديد، كإنسان العصر الحديث، لا يرضى بأن تقذف له الأيام ما تشاء من أحداث، ولا ينتظر غير الدهر وتقلبات الأزمان، بل يمسك بعامل الزمن، ويقبض على المستقبل، عن طريق التنبؤ به والتخطيط له. إنه يريد أن يصنع قدره إلى حد بعيد، أن يرسم عالم مستقبله، من خلال التخطيط العلمي والتأثير في مجرى الأحداث.

وطبيعة المعركة التي يخوضها تزيد في تأكيد موقفه هذا. فالعدو الصهيوني يحاول الانتصار عليه بفضل هذا السلاح الأساسي الذي يمتلكه إلى حد بعيد، سلاح العمل المخطط، المستند إلى وسائل التنظيم الحديثة. وإذا كان كل شيء إلى جانبنا في معركتنا مع هذا العدو، فالشيء الوحيد الذي ما يزال ضدنا، والذي يفسد أشكال التفوق الأخرى التي نملكها، هو تفوق عدونا في التنظيم العقلاني والتخطيط العلمي. وهذا التفوق ليس بالأمر القليل، غير أن امتلاكه ليس بالأمر العسير أيضاً، إذا نحن انطلقنا من حيث ينبغي أن يكون المنطلق، أي من هذا الموقف الذي يريد أن يتحكم في الأحداث، بدلاً من أن تتحكم فيه الأحداث.

٧ ـ وإذا كان التخطيط يعني امتلاك المستقبل والسيطرة عليه، فأداة هذه السيطرة الأساسية على الحاضر والمستقبل لا بد أن تكون التنظيم، والتنظيم العقلاني العلمي. إن الوجه الآخر للتخطيط وللنظرة الكلية الشاملة هو التنظيم. ولا معنى لخطة توضع إذا لم

يوضع التنظيم العملي الذي يؤدي إلى إنقاذها وانقلابها إلى واقع. وأي خطة تبقى حبيسة الورق أو حبيسة الذهن، إذا لم ترسم السبل العملية التي تنقلها من الأذهان إلى الأعيان. وهذه السبل العملية سبل إدارية وتنظيمية تلعب الدور الحاسم في نجاح أي خطة أو فشلها. والتنظيم ـ أيامنا هذه ـ فن واسع الأطراف متطور الوسائل والأساليب. لقد دخل ميدان العمليات العسكرية في الجيوش والمؤسسات الاقتصادية المختلفة، وامتد إلى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية. ودخلته أيضاً أساليب فنية يتعاظم تطورها وخطرها. فدخلته «النماذج الرياضية» وأسعفته «الحاسبات» وطبقت فيه طرائق «التحليل الإجرائي» وسواها من الطرائق المبتكرة العديدة. والتنظيم يعني استخدام شتى الأساليب الفنية في الإدارة والقيادة، من أجل استخدام الموارد المالية والبشرية المتاحة أفضل استخدام ممكن، ومن أجل تجنب الهدر والضياع في الجهود والنفقات، ومن أجل بلوغ أفضل النتائج بأيسر السبل وأقصر الأزمان. ومثل هذا التنظيم الذي يحسن تعبئة الموارد والإمكانيات ويحسن الإفادة منها، هو أول ما نحتاج إليه في معركتنا، تلك المعركة التي تستلزم تجنيد كل قطرة من جهد، والإفادة من كل ذرة من الموارد. والجيل الجديد، جيل المعركة القاسية الطويلة، جيل الخطط الكاملة البعيدة المدى، لا بد أن يتوسل إلى غاياته هذه باقتحامه هذا الميدان الأساسي من ميادين التفوق العلمي والتقني في عصرنا، نعني ميدان التنظيم والقيادة العقلانية المنظمة لشتى جوانب الحياة. وليس جديداً أن نقول ـ مع العديد من الباحثين اليوم ـ إن التفوق الحقيقي للمجتمعات المتقدمة اليوم ليس ثاوياً في «تفوق الأدمغة» بل في تفوق الإدارة والتنظيم، في تلك الشبكة المتصالبة المتآخذة التي يسلطها التنظيم على مشكلات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية، في تلك الخطط «الإجرائية» التي تستمد من تلك النظرات الكلية الشاملة.

* * *

من العسير أن نعدد سائر الصفات المرجوة المرتقبة للجيل الجديد. ولا شك أن هذه الصفات ستكون أولاً وآخراً وليدة المعاناة، وليدة النضال الفعلي الذي سيقوده هذا الجيل. ومن خلال تلك المعاناة سوف تتفتق الصفات وتنبثق المواقف النفسية التي تجعل الجيل الجديد جديداً. وقد تحمل لنا تلك المعاناة مفاجآت عديدة، حين تصهر في بوتقة المعركة الفعلية القوى المتوثبة في أمتنا العربية، حين تحيل ذلك التحرق والتوثب الذي يئن في نفوس الملايين من شعبنا عملاً ونشاطاً وحركة. فالمسألة كل المسألة أن الحياة الراكدة الآسنة لا تحمل الجديد، وأن التحرك والعراك والمغالبة هي التي تحمل على راحاتها عوامل العطاء والخصب والسمو. النفوس المحتمية بالسلامة، الملتصقة بحمأة الأرض، المطمئنة إلى سكنى اللحم والدم، تشد الحياة إلى الموت، وتنتج العقم والجفاف. أما النفوس القادرة على أن تتسلق الذرى وتمتطي قيم الحياة الفنية، وتطلق طاقات العطاء، فهي التي تعيش في خطر، هي التي تركب مرة وإلى الأبد مركب المعركة الفعلية. من هذا الوضع، ومن خلال هذه المنزلة التي تدل البوادر على أن الجيل المنتظر بدأ بارتقائها، تولد سائر الصفات النفسية والمواقف الروحية التي سوف تسم هذا الجيل. ومن قلبه تتكاثر هذه

الصفات وتتوالد وتخصب. من مثل هذا الموقف، يصبح ما نخاله عقماً في أمتنا غنى وثراء، وتغدو الحيرة عزماً والقلق تصميماً. من أعماق هذه الوقفة الإيجابية الحاسمة، ينقلب كل ما هو سلب إلى إيجاب.

أجل، ليست صفات الجيل الجديد بناء عقلياً بارداً نبنيه. إنها انصهار في تجربة وانبثاق من قلب معاناة. على أننا إن كنا قد أومأنا إلى بعض الخطوط العريضة التي يمكن أن تحتوي هذه الصفات، فلأننا نعتقد في الوقت نفسه أن التنقيب عن هذه الصفات من عوامل خلقها وتكوينها. فصفات الجيل الجديد، كالجيل الجديد نفسه، لا تبزغ على حين غرة، وإنما هي ولادة متصلة تمتد جذورها إلى الجيل القديم نفسه. صحيح أن هذه الصفات لا تأخذ مداها وقسماتها إلا عبر المعركة ومع الزمن، غير أنه من الصحيح كذلك أن أول المعركة موصول بآخرها، وأول المعركة بذور تبزغ وتطلعات تظهر وتخمينات تنثر هنا وهناك. وأبرز تلك البذور والتطلعات تلك الاتجاهات التي تتحسسها أقلام الكتاب والمفكرين، والتي يرهصون عن طريقها بالمولود الجديد. إن الأحداث والحياة هي التي سوف تخلق الجيل الجديد. غير أن للقيادة الفكرية التي تعرف أن تحلل معنى الأحداث وتدري كيف تستنطق واقع الحياة، دوراً في ذلك الخلق. والجيل الجديد هو صاحب الدور الأول في توليد صورته الموعودة، كما قلنا ونقول. غير أن الجيل القديم لا بد أن يسهم في توليد تلك الصورة، ولا بد أن يساعد على تكوين معالمها. معركة الجيل الجديد كما قلنا متصلة بمعركة الجيل القديم، ومن شرارة هذا الاتصال الواعي، يخلق المستقبل المرجو.

لقد أصيبت أمتنا العربية في سنواتها الماضية بموطنين من مواطن العقم: **أولهما** وأبرزهما ابتعادها عن معاناة المعارك والنضال حقبة طويلة من الزمان واستسلامها لحياة الدعة والمتعة قبل أن تبني كيانها وتوطد أركانها. **وثانيهما** افتقارها للقيادة الفكرية والروحية الغنية، وتآمر الأحداث على مختلف أشكالها ضد هذه القيادة ومحاولة إلغاء دورها. وانبعاثها المنشود لن يكون إلا بمغالبة هذين المقتلين: لا بد لها أن تقذف بنفسها أولاً في جو المعركة، في حرارة الدفاع عن وجودها وحياتها، ولا بد ثانياً أن تنتزع قياداتها الفكرية دورها ومهمتها الكبرى في توجيه مسيرتها وتاريخها. من هذا اللقاء بين العمل والفكر، تتفجر الحياة الجديدة الأصيلة. من قلب العمل الشاق يكتمل الفكر وينضج، ومن اكتمال الفكر يتصاعد العمل ويتعاظم.

ولعلنا اليوم على أبواب هذه الولادة. لقد تحرك العمل الجدي وتحركت روح التضحية والفداء والتعبئة الجماعية، وانفتحت في الوقت نفسه أمام الفكر آفاق جديدة ورؤى جديدة ومهمات جديدة، وبدأنا نشهد فيه مخاضاً جديداً. وجيلنا الجديد الذي نرجوه لم يعد في رجم الغيب، بل تململ واضطربت الحياة فيه، فلنسر في إثره نمده بالزاد ونرقب خطواته ونستحثها ونلتحم معها.

إلى الشباب العربي(*)

عصمت سيف الدولة

«ليحذر الشباب العربي من الاقليمية في كل الظروف، فهي غير أمينة على أسرار النضال الجماهيري. وهي هي التي ستتصدى غداً أو بعد غد لهؤلاء الشباب لتحول بينهم وبين الاستمرار في النضال المنظم، وليولد التنظيم القومي الثوري من تفاعل كتائب الأنصار وتعاونها والتحامها خلال المعركة، فكذلك يملك الشباب العربي أسباب النصر النهائي حتى وهم في الوضع المهزوم».

هذا ما قلناه منذ عامين، على أثر هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

فهل تغيّر شيء في الوطن العربي خلال عامين لنضيف إلى ما قلنا قولاً جديداً؟

نعم. المقاومة. ولكن ألا يتصدون اليوم لهؤلاء الشباب ليحولوا بينهم وبين اكتمال المقدرة على استمرار النضال المنظم، عن طريق التفتيت والعرقلة والانحراف؟ هو كذلك.

فما العمل؟

أيها الشباب العربي، لا تهربوا من مسؤولياتكم وراء التساؤل الكبير. إن القادرين على النصر مسؤولون عن الهزيمة، فأنتم المسؤولون. وإن تخذلوا أمتكم بدلاً من أن تنصروها فلن يجديكم شيئاً أن تتهموا العاجزين عن النصر أو المخربين. إنكم لستم أول أمة خاضت معارك التحرير. إن وحدة العدو، ووحدة الساحة، ووحدة المرحلة تفرض عليكم أن تكونوا جبهة واحدة مع كل الذين يقاتلون. والذين يقاتلون فعلاً فئتان مفرزتان عقيدة وغاية فلا تختلطان. أنتم القوى القومية التي تخوض في الأرض المحتلة معركة التحرر العربي في سبيل الوحدة. والقوى الإقليمية التي تخوض المعركة من أجل إزالة آثار العدوان أو من أجل تحرير فلسطين ثم لا يزيدون، أولئك حلفاء المرحلة، رضيتم أم

(*) نُشر في: **الآداب**، السنة ١٧، العدد ٧ (تموز/يوليو ١٩٦٩)، ص ١ ـ ٢. وهو مُستلّ من كتاب: عصمت سيف الدولة، **ما العمل؟ رسالتان إلى الشباب العربي** (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٩).

أبيتم، وإن أبيتم فإنكم لا تعزلون سوى قوتكم ولن تجديكم عزلتكم فتيلاً. والحلف غير الوحدة، فلا يجديكم في المعركة شيئاً أن تطلبوا وحدة المقاومة مضموناً وتنظيماً. تلك وحدة تنطوي على أسباب الفرقة، فلن تلبث حتى تمزق الصفوف كرة أخرى. إنما هي الجبهة العربية الموحدة بين القوى القومية والقوى الفلسطينية المقاومة. كذلك فعل كل الذين أحرزوا من قبلكم النصر في معارك التحرير.

فلماذا لا تقوم الجبهة؟

إنكم المسؤولون.

إن القوى الفلسطينية منظمة في «فتح» تخوض المعركة من منطلقاتها، بأدواتها، إلى غايتها، لا شبهة في أنها توفي بمسؤوليتها في الإطار الفكري والحركي الذي اختارته حداً للقتال. فإن كان ثمة من يقاتلون بعيداً عن «فتح» ولكن تحت شعار «مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين» فإنهم يعبثون. وفي «فتح» مكان لكل المقاتلين من أجل إزالة آثار العدوان عن أوطانهم من فلسطين أو غير فلسطين. «فتح» إذن هي الطرف القائم بدون شك، المعين بدون لبس، ليكون طرفاً في الجبهة العربية لتحرير فلسطين.

أما الطرف الآخر فأنتم، وأنتم مبعثرون. أنتم الذين يمزقونكم كل يوم أو أنتم المزقون. مع أنكم الأكثرون. أنتم أبطال القتال في ساحة المعركة، وأنتم الجماهير العربية في الوطن العربي فأنتم الملايين. فما الذي تنتظرون؟ أن تبيح الإقليمية وطنكم لأعدائكم مرة أخرى أو أن تساوم عليه أو تستسلم، ثم تبكوا كما بكيتم من قبل في حزيران/يونيو ١٩٦٧ المشؤوم؟

أيها الشباب العربي، أنصروا أمتكم العربية، فإنها بعد عامين من الهزيمة أكثر من ذي قبل حاجة إلى أن تنصروها، وإن تنصروها لا تنصروا إلا أنفسكم ومستقبل وطنكم العظيم.

فما العمل؟

١ ـ ليلتحم كل القوميين المقاتلين في المقاومة في منظمة عربية واحدة، وليقيموا مع «حركة التحرير الوطني الفلسطيني» (فتح) جبهة عربية موحدة لتحرير فلسطين.

٢ ـ ولتشكّل في كل مكان من الوطن العربي كتائب الأنصار لتكون القواعد الجماهيرية للمنظمة العربية تحمي ظهرها وتؤمّن، في البداية ودائماً وحتى النهاية، سمتها القومية، ولتكن المنظمة العربية القبضة الضاربة لتلك الجماهير.

٣ ـ ولتكن مهمة الأنصار من الجماهير في الوطن العربي، حماية الجبهة العربية الموحدة من تخريب الأعداء والمتآمرين والمتخاذلين والمنهزمين، والتحريض على القتال، والاستمرار فيه، وتعبئة كل القوى لمنع التراجع أو المساومة أو الاستسلام. وفي كل قضية مطروحة في أي مكان عربي، سيجد الأنصار صلة وثيقة بينها وبين النصر في المعركة، وعلى أساس تلك الصلة يحددون مواقفهم من كل القضايا ومن كل القوى، منتصرين دائماً لأمتهم.

٤ ـ ولتكن مهمة الأنصار من القادرين في الوطن العربي والعرب المقيمين في أي مكان من الأرض أن يشكلوا مكاتب إمداد المقاتلين بالمال والعتاد إلى أقصى درجة يستطيعونها ليكون المقاتلون في غنى إلى أقصى درجة مستطاعة عن دعم الاقليمية وما لها ليكونوا بذلك أبعد ما يكونون عن إسارها.

٥ ـ ولتكن مهمة الأنصار، من المثقفين والكتاب والأدباء والفنانين، إعفاء جهد المقاتلين في المعركة من عبء الدعوة الفكرية والإعلامية وليشكلوا من أنفسهم مكاتب الدراسة والدعوة والدعاية وليحضروا لليوم الموعود.

٦ ـ وليكن اليوم الموعود إثر مرحلة المعركة القائمة لإزالة آثار العدوان، أو في يوم معلوم، عهداً وميثاقاً على كتائب الأنصار الذين صقلتهم المعركة، واختبروا فيها صلابتهم، أن يعقدوا مؤتمرهم العربي الذي يتحولون به إلى تنظيم قومي يتولى مسؤولية الثورة العربية الشاملة ضد الاحتلال والتجزئة والاستغلال، فينبثق التنظيم الثوري من قواعده التي حضرتها المعركة وأهلتها لدورها القيادي العظيم.

٧ ـ وليكن شعار المرحلة: التنظيم من أجل التحرير، والتحرير من أجل الوحدة.

هكذا يمكن أن يولد التنظيم الثوري القومي من خلال معركة تحرير فلسطين.

حرب التحرير العربية الفلسطينية: انطلاقتها وأبعادها(*)

هادي طعمة

ـ ١ ـ

مدخل

لا نقصد في هذه الكلمة أن نؤرخ للثورة العربية الفلسطينية، أو أن ندرسها دراسة تاريخية بحتة، فذلك يقتضينا الإحاطة بكل الأحداث والانتفاضات وما أعقبها من ثورات تفجرت على مر السنوات الخمسين الماضية، وكذلك: التعرف على زعاماتها وبنيتها وتكوينها، وكل الظروف التي مرت بها الثورة داخلياً وقطرياً وعربياً، وعالمياً، وما يقف وراء الغزو الصهيوني الاستيطاني وتحركاته وسائر أطرافه وأعماله. وذلك يحتاج ولا شك إلى دراسة معمقة وشاملة، قد لا يتسع لها كتاب بذاته. وإنما نهدف إلى تناول أبرز النتائج التي ترتبت على اندحار بضع كتائب من الجيوش العربية التي خاضت الحرب المقرر فشلها مسبقاً؛ إلى جانب طلائع الثورة آنذاك، وما اقترن بهذا الفشل من تكريس للغزو الصهيوني الاستيطاني وقيام حكومة ممثلة له عام ١٩٤٨. ومن جهة أخرى، وما واكب تلك الحرب ورافقها وأعقبها من تشريد عرب فلسطين الذين أُبعدوا عن النضال الحقيقي من أجل التحرير، إلى حد كبير.

فمع الذهول المشوب بخيبة الأمل المريرة التي أصيبت بها الجماهير العربية جراء الاندحار، ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٦٧، سرت مقولة لعلها تركزت في أذهان أبناء فلسطين أكثر من غيرهم، آخذة أشكالاً متعددة تبعاً لأنظمة الحكم العربي المتاخمة لخطوط وقف إطلاق النار، مفادها: أن الحل في يد الجيوش العربية وأنها ستعود لتزيل

(*) نُشر في: الآداب، السنة ٧، العدد ٨ (آب/اغسطس ١٩٦٩)، ص ٢٤ ـ ٢٩.

الوجود الصهيوني وتحرر أرض فلسطين. فاستقر ذلك لدى عرب فلسطين، مع دغدغة هذا الحلم العذب لعواطفهم ومشاعرهم وآمالهم، يبيتون عليه وينام معهم طوال عشرين عاماً مضت.

وبالرغم من توالي سنوات الانتظار تلك، فإن الحلم ظل باقياً في الأذهان، قائماً في النفوس، لدى غالبية كبيرة من أبناء فلسطين. لا تزاحمه فكرة ما، فتحوله إلى مجال العمل والحقيقة، يشاركهم في ذلك عرب الأمة كلها، نفس الموقف المشلول الإرادة ـ إلى حد ما. أما القلة القليلة من عرب فلسطين، فقد ركبوا الفورات النفسية التي كانت تغلي مراجلها تحت طائلة الصبر والركود والحذر المتأتية عن تلك المقولة، فاندفعوا يخوضون عمليات، تراءى لمخيلاتهم أنها عمليات كبرى تكفل القضاء على فاعلية القوى العسكرية الصهيونية، أو تضطرهم إلى إعادة اللاجئين العرب الى ديارهم. على أن كل تلك الاندفاعات، إنما كانت بمثابة إرهاصات للعمل الفدائي الذي انبثق عام ١٩٥٥ في غزة، والذي ما لبث أن انتشر في المناطق المجاورة، وبعد ذلك إلى الضفة الغربية. فقد كانت هذه البداية الثورية ـ بصورة عامة ـ ناجحة ليس فقط لقيام ثورة كبيرة تحمل بشائر الانتصار، وتعبئة قوى الجماهير العربية الفلسطينية، بل ووسيلة كافية لإشراك جيوش بعض الدول العربية وتسيير اقتصاد أقطارها ناحية جعله في خدمة الحرب التحريرية مباشرة. ومناخ مثل هذا يسود ميداناً واسعاً من الأرض العربية، يكون كفيلاً بتفجير التناقضات، على مدى أو آخر، بين الجماهير العربية المتطلعة نحو هدفها التحرري، من جهة، وبين عناصر الحكم المتواطئة مع الاستعمار والمتذبذبة وسائر الفصائل الرجعية، من جهة أخرى. إلا أن قوى الحلف الصهيوني الاستعماري، كانت مدركة تماماً ما يترتب على حلول مثل ذلك الجو في أفق بعض الأقطار العربية، من التهابها بالثورة، وزوال مصالحها فيها. ومن أجل توقي تخييم مناخ ثوري كهذا، عجلت أكثر الدول الاستعمارية تضرراً وتحمساً، بريطانيا وفرنسا وثالثتهما قوى الغزو الصهيوني، بالحرب ضد القطر العربي المصري. وبالرغم من وقوع غزة ـ منطلق الثورة الفدائية ـ تحت السيطرة الصهيونية، وبالرغم من استشهاد عدد غير قليل من الثوار، فإن الثورة ازدادت تفجراً واشتعالاً، ولم يستطع أن يعطلها ويشلها، غير وقوف القوات الدولية على امتداد خط وقف إطلاق النار بين العدو والقطر المصري.

ـ ٢ ـ

وضع الأقطار العربية

لئن كان طبيعياً أن تنتفض الجيوش العربية ضد خائنيها عقب الانكسار الذي لحق بها في الحرب الفاشلة التي خاضتها عام ١٩٤٨ ضد الغزو الصهيوني العنصري الذي اعتمد الأحابيل السياسية والألاعيب العسكرية التي كانت تنفذها بريطانيا، أكثر من اعتماده على القوى الصهيونية المجندة، فتقوم تلك الجيوش بعملياتها الانقلابية التي شهدتها

المنطقة العربية في سوريا ومصر، مستهدفة إزاحة الحكام بوصفهم العقبة الكأداء التي تحول دون خوض الحرب التحريرية بالشكل المجدي، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن تثور جماهير بعض الأقطار العربية فيما لو كتب للثورة الفدائية التي انطلقت عام ١٩٥٥ أن تستمر. ذلك لأنها كانت كافية لأن تصبح محكاً جيداً تتعرى عنده قوى الرجعية المتواطئة مع الاستعمار والصهيونية. بيد أن ذلك لم يحصل، بسبب توقف عمل الثورة عن الاستمرار. وإنما الذي حصل هو أن الجماهير العربية ثارت على الأفكار التي تحاول فرضها القوى الرجعية، حكاماً وأحزاباً وجماعات، بتخطيط من الاستعمار والصهيونية، وأن تقوم ثورة عارمة في الوعي، أوشكت أن تضع الجماهير على أعتاب الطريق الوحيد نحو التحرير، لولا انغماس بعض الأطراف الفاعلة في هذا الوعي ـ ومعها أكثرية الجماهير المناضلة ـ في المناقشات الفكرية المجردة عن الواقع الثوري وما يفرضه من متطلبات نضالية.

ولقد استطاعت قوى من الشعب العربي، إبان ذلك الوعي النضالي المتعاظم، أن تملي شعار «طريق الوحدة، طريق العودة» وتترجمه إلى واقع عملي بقيام وحدة مصر وسوريا. ونتيجة لذلك، تحركت دوائر الاستعمار والصهيونية تحركها المضاد والهادف إلى فك عرى الوحدة السياسية وفصمها، خشية قيام ثورات في بعض الأقطار المجاورة لدولة الوحدة. إلا أن نضج الثورة في العراق قد أدى إلى انفجارها عقب أشهر معدودة من قيام الوحدة. فامتد لهيب الثورة العربية ليلامس جمراتها المتقدة في أكثر من قطر، فانكبت دوائر الحلف الصهيوني الاستعماري والرجعية المحلية، لتمحص الوسائل والأساليب التي تضمن التفافها حول الثورة وحصرها في أضيق نطاق ممكن، أو التي تمكنها من التغلغل في صفوفها والعمل على تهيئة تفجيرها من الداخل وإسقاطها في قبضة الرجعية المحلية.

ومع تصاعد الأمل لدى الجماهير العربية باقترابها من خوض معركة التحرير، تبدى للشعب العربي، وجماهير فلسطين خاصة، أن حلول يوم إطباق الجيوش العربية على الكيان الصهيوني الزائف، بات قريباً. فاستسلمت أكثر من ذي قبل إلى مقولة ان التحرير هو من شأن الجيوش العربية ذاتها، هذه المقولة التي أفادت منها الصهيونية بقدر ما تضررت بها الأمة العربية، عن طريق شل فاعلية جماهيرها، وفي مقدمتها: جماهير فلسطين.

كما تبدى للشعب العربي ـ إلى جانب ذلك ـ أن انتصار الأمة على أعدائها، إنما يكون من خلال الانتصارات الجزئية التي تحرزها على واقع التجزئة والتفتت والتسلط، فتوحيد قواها ورص جموعها ـ من ثم ـ بغية خوض المعركة الفاصلة بالتالي.

ولئن كان ذلك ـ ولا يزال ـ صحيحاً، فإن انكسارها واندحارها في أكثر من واقعة أو معركة، لا يعني موتها بالضرورة. بل على العكس، إذ تولد الأمة ولادة صحيحة من خلال النكبات والمآسي التي تعانيها، فتنمو نمواً سليماً وتشب في مناخ صحي كفيل ـ برغم الأعاصير ـ بأن يجعلها أمة قوية وعظيمة تستحق الحياة بجدارة.

وهكذا كان الأمر، غداة انحراف بعض الثورات وتقوقعها في نطاق الاقليمية، إلى

الحد الذي قاد إلى تصور أن الوحدة أسبق في المعاداة من الوجود الصهيوني، وبالتالي إلى نشوب تآمر رجعي أدى بالنهاية إلى قيام شرذمة عسكرية في دمشق ـ تساندها الرجعية المحلية والصهيونية والاستعمار، صراحة ـ بعملية الانفصال في أيلول/سبتمبر ١٩٦١، وتسلمت الحكم بسهولة.

لقد صُدمت الجماهير العربية إزاء ذلك، بخيبة أمل كبيرة، فتراءى لها أن يوم التحرير قد غاص في آفاق معتمة، وأن الإعداد للمعركة قد تراجع إلى مواقع بعيدة يحتاج من أجل العودة إليها، سنوات طويلة من النضال والكفاح.

وفيما عدا ثورة اليمن، وباستثناء انتصار ثورة القطر الجزائري، لأنها كانت موشكة على الانتصار، لم يتحقق للعروبة ـ منذ عام ١٩٥٨، عام الوعي النضالي غير التام النضج ـ تقدم ملموس في نضالها بحيث يكون من شأنه تقريب طلائعها من عتبة طريق الكفاح السديد. اللهم إلا اتخاذ مسارها ناحية التركيز على مضمونها الاشتراكي، فكراً وتطبيقاً، الذي استهدف البناء الداخلي بأكثر من إعداد الاقتصاد حربياً.

على أن عام الوعي نفسه كان يشهد في الخفاء عملية مخاض وولادة أول بؤرة ثورية ما لبثت أن اتسعت إلى بؤر أخذت على عاتقها طبخ الوعي السائد لدى الشعب العربي وإنضاجه، وشق الطريق النضالي الوحيد، طريق الكفاح المسلح، الذي تنفذ من خلاله الجماهير المناضلة نحو التحرير. وبالرغم من أن صوت هذه البؤر الثورية لم يكن مسموعاً إلا في مجالات محدودة جداً، وأنه لم يكن ليقنع غير عدد قليل، فإن الثورة العربية قد دخلت مدخلها الصحيح من قبل تلك البؤر التي وإن لم تكن ذات فاعلية في مسيرتها بادئ الأمر، ستكون بعد مضي سنتين أو ثلاث، طليعتها المقدامة المستشرفة لأبعاد التحرير.

ومع ذلك، فقد ظلت غالبية الجماهير العربية الفلسطينية مستسلمة لخدر مقولة «التحرير بيد الجيوش العربية» [. . .] بحثاً عن الطريق، عن الحل. بل لقد قادها الاسترخاء المتراكم عبر سنوات طويلة وانتظار مجيء التحرير على أيدٍ لم تمس نفوسها مأساة النكبة وآلام التشرد إلا من بعيد، حد الادعاء بعدم جدوى أي عمل فدائي جديد.

والحق أن عدم نضج وعيها وقصور نظرها عن إدراك حركة التاريخ، كان يقدم لها مبررات بدت ـ بطبيعة الحال ـ معقولة، بسبب وقوع الثورة العربية الفلسطينية التي انطلقت عام ١٩٥٥ في مجال الالتزامات السياسية للدولة التي تبنتها وأخذت على عاتقها: إعداد وتدريب وتسليح طلائع الثورة نفسها. فتلك الجماهير لم تكن تدرك أن هذا السبب غير المقصود الذي أدى إلى فشلها، خارج عن إرادة الثورة نفسها، فتفرزه بالتالي عن مجموع الانطلاقة السليمة.

- ٣ -

وضع النظم العربية

يمكن إجمال الوضع الذي كان يسود النظم العربية المختلفة النظرات والاجتهادات، والواحدة الالتقاء عند وجوب التحرير، بما يلي:

أ - تفتت سياسي وعسكري، تتفاوت درجته من قطر إلى آخر، جراء انعدام الفهم الموضوعي للأمة والنضال، بسبب غياب الوعي القومي الثوري الشامل والتام النضج، الأمر الذي أدى إلى قيام تكتلات متعددة ومختلفة، كل منها يطمح إلى تسلم السلطة بدعوى أنه الجدير بالقبض على تسيير الثورة من خلال الحكم، والإعداد لمعركة التحرير.

ب - حرب إعلامية وتناحر سياسي بين النظم المتقاربة عقائدياً، تبلغ - بعض الأحيان - درجة ضارية لم يسبق أن بلغته بين قطرين متناقضين.

ج - ما نتج عن ذلك:

(١) تفتت اقتصادي، جراء عدم اعتماد أسلوب واحد في التخطيط الاقتصادي من أجل تحويله إلى اقتصاد حرب، لا في القطر الواحد - بسبب الانقلابات والضغوط السياسية - ولا في الأقطار المتقاربة النظم.

(٢) تجمد التخطيط العسكري وعدم الاهتمام بتطوير الخبرة بالمعدات العسكرية والتدرب عليها.

(٣) انعدام الالتحام بين المثقفين الثوريين والمؤسسات العسكرية.

د - انتفاء التلاحم بين الحكومات العربية وجماهير أقطارها، إلى حد وصل معه إلى وجود شك دائم ومتبادل، في أغلب الأحايين.

هـ - تقوقع الثورة العربية في أقطارها القليلة، وإصابتها بالشلل وعدم تمكنها من الانتشار إلى الأقطار الكثيرة التي ظلت مستعمرة، فظلت قواها وإمكانياتها - بشراً وثروات - نهب الاستعمار والرجعية المحلية.

وذلك كله يشكل جذر أمراضنا.

فما هو الحال الذي كانت عليه القوى المتعددة التي تؤلف الوجود الصهيوني الاستيطاني؟ لقد كان على نقيض واقعنا العربي، تماماً. كل قواه العسكرية وغير العسكرية، مستنفرة من أجل البناء والإعداد الدائم للتصدي ضد كل محاولة أو مبادرة عربية تحررية، ودائبة على تطوير كل ما توصلت إليه وباستمرار، للغرض نفسه.

أما القوى المناضلة من عرب فلسطين، فلم يكن حالها بأفضل مما كان عليه وضع الشعب العربي، وعلى الخصوص، الذين يقطنون الأقطار المتاخمة لخطوط النار، بسبب ما ارتبطت به من التزامات حزبية وسياسية غير حزبية، مع أنظمة هذه الأقطار. ولذلك فقد انقسم المناضلون على أنفسهم، إلى:

أ ـ فريق ينادي بالتحرير من خلال الاستمرار في العمل العربي، إيماناً منه بأن طريق الوحدة، هو طريق التحرير. وهذا الرأي متطور كثيراً عن رأي الاتكاليين المنتظرين مجيء الحل من الجيوش العربية المنشغلة في مشاكل أقطارها، والمتحملة لعبء تلك المشاكل التي جرت على عناصرها التصفية الجسدية أو الإبعاد عن الخدمة الفعلية، والتسليم والاستكانة لأكبر القوى المتصارعة، وغالباً ما تكون الحاكمة.

ب ـ وفريق يرى أن المباشرة الفعلية في شق طريق التحرير يكون منطلقاً من أيدي عرب فلسطين، بعيداً عن الارتباطات والالتزامات المقيدة لحركة الثورة من قبل هذه الحكومة أو تلك، من أجل أن تصبح «طليعة الثورة التحريرية ونموذجاً حياً للثورة الشعبية» وبهدف إتاحة الحرية والفاعلية لها باتخاذ موقف الاستمرار والتأجيج، من خلال الاستقلال الحركي.

لقد كان يقترن رأي الفريق الأول، بصعوبة تحقيق ما يرتأيه الفريق الثاني، صعوبة بالغة، بل لقد ذهب إلى استحالة قيام عمل ثوري كهذا. على أن هذا الرأي وإن كان يبدو صحيحاً في تصوره للصعوبات المرهقة إزاء انبثاق هكذا انطلاقة ثورية، إلا أنها تتذلل لدى الفريق الثاني من خلال إيمانه بالجماهير وتسخين الجو البارد الذي يسود المنطقة، وفي تهيئة الظروف الموضوعية للثورة، المتولدة تلقائياً من استمرار العمليات الفدائية والتصميم على مواصلة الكفاح المسلح الذي يؤدي وبصورة حتمية إلى مضاعفة أثر هذه العمليات، انتقالاً من الوخز المستمر في كيان العدو، إلى إحداث جرح تليه جروح أخرى، لا يستطيع العدو إزاءها وتجاه ما يبغيه من تحقيق «سلام دائم» داخل كيانه الدخيل وعلى خطوط الهدنة، إلا أن يشن هجمات عدوانية على القطعات أو القرى العربية، قصد حمل الحكومات العربية على منع الفدائيين من القيام بعمليات أخرى. غير أن سلطان الوصاية قد انحسر عن حركة الثورة الفدائية، بفعل تصميم رجالها على السير بعيداً عن أية وصاية ـ من جهة ـ وتعاظم وعي الجماهير العربية بأن لا بد لنجاح الثورة من كف الأيدي (البابوية) عن اللعب في الثورة والمتاجرة بالقضية.

وعليه، فإن ما يتمخض عن حدوث مثل هذه الحالة من التوتر لدى العدو وفقدان السيطرة على أعصابه وعلى قوى الثورة، وفشل حلفاء الاستعمار الضاغط عليهم أيضاً، وخلاص الثورة من قبضات هؤلاء جميعاً، هو ما سبق أن ذكرناه، ونلخصه بما يلي:

أ ـ تسخين نفسي وفكري ثوري وتهيئة الظروف الموضوعية للثورة بين جماهير فلسطين خاصة، وجماهير الوطن العربي عامة.

وهذا ما حدث بالفعل عقب العدوان على «السموع» بشكل سريع وملموس، وإن يكن محدوداً، ولكنه تجسم فيما بعد في معركة «الكرامة».

ب ـ هز الجو السياسي السائد رسمياً وشعبياً.

ج ـ دفع بعض الحكومات إلى تسليح خطوط النار أكثر فأكثر، كخطوة أولى نحو تحصينها.

كان ذلك، مجمل ما تراه البؤرة الثورية التي شهد ولادتها عام ١٩٥٨ عام الوعي النضالي غير التام النضج، والتي ما لبثت أن نمت وتحولت إلى ما يمكن اعتباره تشكيلة ثورية، معتمدة التمويل والتسلح الشخصي، ومستفيدة من تجارب الاندفاعات والثورات السابقة في فلسطين، ومن تجارب الثورة العربية في الجزائر والثورات التحررية في العالم. فانطلقت قواها في اليوم الأول من عام ١٩٦٥ لتعلن ميلاد انفجارها بالرصاص والانفجارات لا بالكلام والمنشورات، ولتهز السكون الجاثم على جماهير فلسطين واتكالها ويأسها وقنوطها، ولتفتح ثغرات في السدود المضروبة عليها من أجل أن يتدفق السيل وأن يعاد ارتباطه بروافده، ومن أجل أن يصب في مجرى تيار ثوري هادر يكتسح كل التراكمات والترسبات التي حلت في نفسية أبناء فلسطين، ولتجتث الطحالب التي نبتت بين تجمعاتهم وتجرف الصخور والمعوقات التي وضعت في طريق التحرير.

إن تحقيق هذه الاستراتيجيا، يحتاج إلى «تسخين الحدود» ليس عن طريق استمرار العمليات الفدائية وحسب، بل وما تؤدي إليه من دفع الحكومات لجيوشها إلى خطوط الهدنة. ولكن خطوط هذه الاستراتيجيا ونقاطها الرئيسية لم تتحقق في حزيران/يونيو المشؤوم بقدر تحققها في معركة الكرامة، حيث أثبتت قوى الثورة الفدائية ليس الصمود وحده، بل وإلحاق الهزيمة بقوات العدو الكثيفة والمتدرعة بجميع أسلحة القتال الفتاكة المعروفة. فحققت الثورة الفدائية تحولاً كبيراً في مسيرتها، إذ حازت على ثقة الشعب العربي بأسره وإثبات قدرتها على الصمود والاستمرار والانتصار، أمام العالم أيضاً، وأن تدحض مزاعم «التفوق العلمي والتكنيكي» والادعاء بعدم إمكانية مجابهته ومقارعته، وأن تمزق الزهو والغطرسة التي سادت التجمع الاستيطاني الصهيوني الاستعماري، المتمثلة بقواده بوجه خاص.

والأهم من ذلك، ما استطاعت أن تحققه من انعطاف هائل لدى جماهير فلسطين نحو العمل الفدائي، بوصفهم المحرك الأساسي لعجلة الثورة ومسيرتها. فصححت بذلك مفهوم التحرير لديهم باتكالهم على الجيوش العربية، وجعلها إياهم الطلائع التي تتصدر المعركة وتتقدم هذه الجيوش. وتصحح ـ مع ذلك ـ موضع القضية العربية الفلسطينية عالمياً، وذلك بسحبها من داخل أروقة الأمم المتحدة ووضعها في المكان الطبيعي لها بين الثورات التحررية الناشبة في العالم المستعمر، ولتبعد عنها أيدي الآخرين الثقيلة، وإحلال الأيدي الحقيقية الحريصة على حلها بدلاً منها.

وأيضاً، فقد استطاعت الثورة الفدائية أن تقلب شعار طرح الهدف السياسي كأداة لحل القضية، المطروح عالمياً وعربياً، رأساً على عقب، بطرحها شعار الكفاح المسلح الأساس الوحيد نحو الهدف السياسي، ذلك «أن الحرب الشعبية هي حرب سياسية، جيشها الشعب بكامله». فمزق هذا الطرح الموضوعي الثوري خرافة إمكان التوصل إلى الهدف السياسي دون اعتماد الكفاح الشعبي المسلح وسيلة رئيسية للتوصل إليه.

لقد كان طبيعياً أن تتقدم جموع عرب فلسطين المناضلة، لتسير في طريق الكفاح المسلح، إلا أنه ليس من الطبيعي ألا يتحرك الشعب العربي برغم عوامل التجزئة ومخلفاتها في النفس العربية. ذلك أن ارتباط الأمة العربية إنما هو ارتباط عضوي حي من خلال وجودها وبقائها. وقد تمثل هذا التحرك، بالمشاركة الفعلية في الثورة الفدائية التي تصدَّرها في ميدان الاستشهاد الجليل، خليل عز الدين الجمل ـ لبنان، ومهند أحمد ـ اسم حركي لفدائي من العراق، وغيرهم.

إن هذا التحول الهام في مسيرة الثورة الفدائية التحررية، الذي يمثل مدخلاً خطيراً يهدد مصالح الاستعمار في المنطقة العربية بأسرها، وفي مقدمتها: ترسانة الغزو الاستعماري الاستيطاني في فلسطين، لا يمكن أن يقف عند حدود المشاركة الجزئية من جانب جماهير فلسطين والشعب العربي، قياساً للألوف المقاتلة بالملايين التي لم تحتشد للمعركة بعد، والتي تدفع بين الحين والآخر، بمقاتلين جدد إلى خطوط النار.

ومن الجدير أن نسجل فاعلية استمرار الثورة الفدائية والمقاومة الشعبية في الأراضي المحتلة، وما ينبغي أن يتم من تنسيق مع الجيوش العربية وفق استراتيجية تأجج لهيب الثورة جنباً إلى جنب مع اتساعها وانتشارها، بهدف تهشيم ركائز الكيان الاستعماري، قبل أن ندون ما تنظر إليه دوائر الاستعمار إزاء ارتفاع بوادر تهديد مصالحها في المنطقة العربية، اقتصادياً وسياسياً، وما ستتخذه ـ تبعاً لهذا ـ من مواقف سياسية وعسكرية على السواء. ذلك أن الدول الاستعمارية وعلى رأسها أمريكا، لن تتخلى عن مصالحها الاقتصادية ومواقعها السياسية والعسكرية في أرض العروبة، حتى في حالة تخليها عما حصلت عليه عقب حرب حزيران/ يونيو من مكاسب «بصورة غير مباشرة»، أو لم يكن يهمها بكثير أو قليل، الحفاظ عليها.

لقد أفاد العدو الصهيوني من مواقع الأرض التي احتلها عام ١٩٦٧، وهو يعمل عسكرياً ـ على الأخص ـ واستناداً إلى ذلك، وفق استراتيجية (ليست جديدة عليه، بل أصبحت في حوزته) نقل الحرب إلى خارج الأرض المحتلة سابقاً ولاحقاً، بعيداً عن معسكراته ومستعمراته الحربية، وبالذات في حالة احتدام المعركة بين قواته والجيش العربي. ولكن دور الفدائيين يلغي إلى حد كبير فاعلية العمل بهذه الاستراتيجيا، ويحيل بعضاً لا يستهان به من قطعاته العسكرية التي كان من الممكن تحريكها نحو أية جبهة، إلى قوات مجمدة خلف خطوط النار بمسافات متفاوتة البعد والقرب، إلى جانب بث الرعب

والهلع في معسكراتها المشدودة إليها، من خلال توقعها جميعاً، وفي آن واحد، بأنها ستتلقى الضربة في أية لحظة على أيدي الفدائيين. وهكذا تبقى جميع وحدات العدو المجمدة الآن، ومستقبلاً، تحت وطأة هذا الشعور المخيف المرعب الذي يزداد ثقله وحدته مع تزايد عمليات الفدائيين التي كلما تجاوزت مرحلة من نموها واشتداد قوتها وخبراتها، كلما ازدادت ردود الفعل لدى العدو، الأمر الذي يحمله على القيام بعملياته العدوانية على القوات العربية المرابطة وقوات الفدائيين معاً. وينتج عن هذا بالضرورة افتضاح خططه العسكرية وانكشافها، واستهلاك قدرة العقول العسكرية لديه عن ابتكار خطط جديدة للمواجهة، بمواصلة الهجمات الجبهوية والفدائية وعدم إتاحة الفرصة له بالتفكير والدراسة.

ـ ٤ ـ

وإزاء هذه الحالة، لا يبقى أمام الطغمة العسكرية ـ خاصة ـ إلا أن تقدم على شن هجوم واسع ضد القطعات العربية ليس بهدف احتلال جديد تضاعف من خلاله ضغوطها على الدول العربية، بقدر ما يكون من أجل تطمين التجمع العنصري الاستيطاني الاستعماري في الأرض المحتلة بأن المبادرة لا تزال في أيديها. وحتى لو حصل على احتلال جديد، فإن من المؤكد سيكون لمنطقة قريبة من خطوط النار. بمعنى أن أبناء هذه الأرض ـ الآن ـ يحيون في مناخ قتالي، وربما يحملون الأسلحة بكميات غير قليلة، وخبرة قتالية مهما كانت درجتها، فإنها ستجعل العدو أمام مجابهة جديدة وإزاء مشاكل أخرى تضاف إلى ما تورط فيه من مشاكل نجمت عن الاحتلال الجديد عام ١٩٦٧، يسعى جاهداً إلى إماتتها ولكن دون جدوى.

والأمر الثاني الذي يتمخض عن هذا الاحتلال ـ إن وقع ـ أن أبناء القرى والمدن المجاورة لخط النار، ستندفع تلقائياً إلى زيادة تسلحها وتدربها على فنون القتال الشعبية، إن لم تنخرط في صفوف الثورة الفدائية. وهذه الدفعات الجماهيرية المقاتلة والدفق الدموي العظيم الذي تكتسبه الثورة، تستطيع أن توقف قوى العدو في مواقعها إن لم تلحق به الهزيمة، كما حدث في معركة الكرامة.

وبحكم استراتيجية الحرب الشعبية التي توجب شن الهجمات الخاطفة ضد العدو، فإن هذه الجماهير المقاتلة لن تقف متجمدة تلقاء مواجهة العدو، منتظرة الرد على عدوانه، بل ستبادر إلى مهاجمته وباستمرار. بمعنى أن هذه الحالة القتالية ستدفع بالجماهير العربية إلى المشاركة الفعالة في الهجوم على قوات الاحتلال الصهيوني.

وهذه الجماهير ـ بطبيعة الحال ـ ليست ممثلة لحكوماتها وما تتبناه من مشروعات أو وجهات نظر، وإنما ممثلة لجماهير أقطارها، والشعب العربي بأجمعه، مؤمنة وملتزمة بالنضال الذي تمليه عليها الأمة العربية، بحماية وجودها وبقائها حرة من أي تسلط

استعماري. «ولن يستطيع أحد أن يمنع مواطناً عربياً في مكان ما من الأرض العربية من أن يحمل بندقية ويقاتل». فإن هذا التلاحم العربي القتالي التحرري غير ملتزم بأي عرف من الأعراف الدولية ـ المتعارف عليها في هيئة الأمم المتحدة، كوقف إطلاق النار مثلاً. وعليه، فلن يكون لها ـ جميعاً ـ أي نفوذ تمده إلى الثورة لتغير في مجراها ومسارها قليلاً أو كثيراً. وإذا أضفنا إلى هذا كله، عجز التفوق التكنولوجي والعلمي عن القضاء على ثورات التحرر الشعبية، وأن الثورة الفدائية الماضية في اتساع نطاق تفجرها وتعاظم فاعلية عملياتها، ستزيد الجروح الدامية في جسم العدو عمقاً ونزفاً، اقتصادياً وجسدياً، وهما عنصرا الحرب. بمعنى أنه سيصاب حتماً بـ «فقر الدم» والشلل. ويصبح ـ عندئذ، ومع توالي الشهور ـ عاجزاً عن مواجهة جيش الثورة الفدائية المطرد النمو نحو أن يكون قوة ضاربة.

وقبل أن يصل العدو إلى حالة الشلل الحتمية، وأن يكون للثورة جيشها الضارب الذي يتولى توجيه الضربة القاضية للعدو، يبرز أمران في سؤالين، **الأول**: ماذا سيكون موقف الدول الاستعمارية، وعلى رأسها أمريكا، تجاه ما يلوح لها من ذلك الحال الذي تشرف عليه حليفتها: دولة الصهيونية؟

والثاني: ما هو التكنيك الأكثر جدوى وفاعلية الذي يمكن أن تستخدمه القوات العربية المواجهة للعدو، بالتنسيق مع قوى الثورة الفدائية، من أجل التعجيل في إنهاء الكيان العنصري الاستعماري الاستيطاني؟

ولعل أفضل إجابة ملخصة عن جذر السؤال الأول، ما صرح به أحد كبار الطغمة الحاكمة في الأرض المحتلة، من أن العلاقة القائمة بين أمريكا ـ خاصة ـ والوجود الصهيوني، إنما هي علاقة زواج سياسي واقتصادي، تضمن لها مصالحها في المنطقة، وأنه لا يمكن للدول الأخرى المرتبطة معها في هذه المصالح، التخلي عن «اسرائيل»!

وإذ لا يصرح هذا المسؤول الصهيوني الكبير بالموقف، فهو يلوح من ثنايا إجابته. وإننا إذا لم نقطع الآن بتدخل أمريكا ـ خاصة ـ لإنقاذ جسد العدو الصهيوني من الموت ـ كما في فييتنام ـ فإنه يبقى احتمالاً بارزاً ممكن التحقق في اللحظة الحرجة أو قبلها. ولكن ثقل تدخلها العسكري المباشر في المنطقة يؤدي إلى حدوث رد فعل ينعكس فيما يحدث من ارتطام بين قوتي جماهير الشعب العربي من جهة، وحاكميها المتواطئين مع الاستعمار وسائر الفصائل الرجعية، من جهة أخرى، وسرعان ما يتحول الارتطام إلى صدام عنيف يميد الأرض من تحت أقدام الرجعية المحلية، وبالتالي: إزاحة أقدام الاستعمار عن مواقعها المتمثلة في استغلال مكانة الوطن العربي السياسية والبشرية، ونهب ثرواته الاقتصادية، هذه الإمكانيات التي يحرص أشد الحرص على إبقائها مستمرة الجريان نحو مصب خزائنه.

وينشأ عن هذا احتمالان، الأول: إما أن يقذف الاستعمار، إزاء الخطر الداهم

الذي يهدد مصالحه، بكل ثقله في المنطقة، ويقوم بغزو مباشر لمعظم الأقطار العربية، أو كلها، وإما أن يحاول حصر مشاركته في أضيق نطاق ممكن، عن طريق التلويح بالحرب النووية المحتملة الوقوع بين المعسكرين، في حالة ما من حالات التحرك العسكري لدول المعسكر الاشتراكي، في الوقت الذي ترسل فيه أمريكا سراً وحدات مختلفة من جيشها [...] إلى الأرض المحتلة، متشجعة بيقينها أن ليس من مبادر إلى الغزو سواها، وأن احتمال تحريك المعسكر الاشتراكي، احتمال بعيد.

على أن احتمال الغزو الواسع أو المحدود، يقودان إلى تصفية الوجود الاستعماري بشكليه المباشر وغير المباشر من الوطن العربي، وإن يكن الأول أسرع إلى الإنهاء، من الثاني. لأن الذي يترتب على وقوع أحد شكلي التدخل، هو التحام الشعب العربي في معارك واسعة وضارية مع قوى الاستعمار العالمي والرجعية المحلية المتواطئة معه، قد تزيد على ما يخوضه الفييتناميون عنفاً وضراوة.

إن انبثاق أكثر من ثورة شعبية مسلحة في أكثر من قطر عربي، كنتيجة طبيعية لحالة المواجهة القائمة بين العروبة المتطلعة إلى هدفها التحرري، من جهة، وقوى الحلف الصهيوني الاستعماري والرجعي، من جهة ثانية، ليس فقط حتمي الوقوع، وإنما معناه وجوهره، قلب للشعار الذي طرحته الجماهير في عام ١٩٥٨ عام الوعي النضالي غير التام النضج، الذي ظل سائداً على صعيد السياسة فقط، من كون الوحدة تعني العودة، إلى وضعه موضع التنفيذ الثوري، بجعل: الطريق نحو العودة ـ طريق الكفاح المسلح، أو وحدة المقاتلين العرب ـ هو الطريق المؤدي إلى الوحدة الراسخة المكينة والشامخة.

وذلك ما يتمخض عن الافتراض الأول. وذلك ـ أيضاً ـ أخشى ما يخشاه الاستعمار.

أما الاحتمال الثاني، وهو محاولة الاستعمار ـ وفي مقدمته أمريكا ـ حصر تأثير المشاركة العسكرية مع العدو في أضيق نطاق ممكن، فإنه يقود إلى إيجاد مناخ خلاق للثورة المسلحة لدى جماهير غفيرة من الشعب العربي، أي نشوء حالة خطرة قابلة للاشتعال حتى في الأقطار الراكدة المستكينة، من مجرد انطلاق طلائع تتصدر الثورة الشعبية، أو القوات النظامية. فيضطر الاستعمار معها إلى الضغط على حليفته: قوى الرجعية المحلية، قصد ممارسة الضغوط السياسية على حكومات الأقطار المستعمرة بشكل غير مباشر، من أجل التخفيف من إمكانياتها في الاستعداد العسكري، وسحب ما يمكن سحبه من القوات المرابطة على خطوط النار. ولكن الجماهير هي الأخرى ستمارس ضغوطها على تلك الحكومات التي ستغدو عند مفترق طريقين، فإما أن تسير بإرادة الجماهير وقوتها، وتخوض معركة التحرير، وهذا يعرضها إلى التآمر الاستعماري الصهيوني الرجعي، فإن لم ترضخ تكون عندئذ قد استندت إلى قوة الجماهير التي لا تقهر (والمهم هنا تنظيمها وإعدادها، بتدريبها وتوعيتها دائماً) وإن رضخت للتآمر، فستواجه ثورة شعبية؛ وإما أن

يستطيع الإطاحة بحكومة أو أكثر، بانقلاب عسكري يتولى مهمة امتصاص غضب الجماهير عن طريق الشعارات والمزايدات السياسية، ثم ما تلبث أن تنكشف لعبتها مخلفة الثورة بين الجماهير بهذا القدر أو ذاك. بينما يمارس ـ الاستعمار ـ في الوقت نفسه، ضغوطاً أخرى على حكومات الأقطار المستعمرة مباشرة، لتقوم بعملية إرهاب وتقتيل ضد قوى الثورة العربية، ليس بقصد قتلها بشخوص رجالها وحسب، بل وبهدف تخويف وإرعاب الآخرين من الانخراط في صفوفها. على أن حركة التاريخ تشير بما لا يقبل النقاش، إلى أنه من الممكن تعطيل الثورة حيناً من الزمن، إلا أن الإرهاب ـ عمره ـ لم يستطع أن يميت الثورة.

إن المناخ الحالي الذي يسود بعض الأقطار العربية مشبع بروح الثورة الشعبية المسلحة. وإن احتمال انفجار الثورة على امتداد الوطن العربي يتوقف على إشعال فتيله بغزو ما، وإن كان ينبع بدرجة كبيرة من خلال استمرار القتال في الأرض المحتلة الذي يعني استمرار إيقاظ الشعب العربي على واقعه وظروفه كلها، وإنضاج وعيه الثوري وبلورته، وبخاصة إذا تجلت لجماهير بعض الأقطار الحقيقة المريرة التي يعيشونها، وأصبح لهذه الحقيقة إمكانية هز النفوس من الأعماق وتفتيح الأذهان على كونهم يهدفون إلى التحرير، وأنه يجب استخدام ثروات الوطن من أجل الحرب التحريرية، بينما هم مستعمَرون لا يملكون حرية التحرك ولا إمكانية الاستفادة من ثرواتهم العظيمة، وأنهم كـ«فاقد الشيء لا يعطيه». فهم إذن لا يخسرون شيئاً بالثورة، بل يربحون فيها كل شيء.

فأية محاولة للمشاركة في الحرب إلى جانب الصهيونية الحاكمة في الأرض المحتلة، وأية عملية غزو ـ محدودة كانت أم واسعة ـ إنما تعني إشعال فتيل الثورة على اتساع الأرض العربية. ولربما تعدتها إلى بلدان أفريقية أو آسيوية أخرى.

ـ ٥ ـ

وطالما أن الحرب العربية تهدف إلى التحرير، وأن الصهيونية تجهد من أجل البقاء، وأن كلاً منهما يعتمد السلاح حكماً فاصلاً لتقرير زوال الوجود الصهيوني أو بقائه!، فما هو التكتيك الأكثر جدوى وفاعلية الذي يمكن أن تستخدمه الجيوش العربية على امتداد مواقع المجابهة، بالتنسيق مع قوى الثورة الفدائية، بغية التعجيل في إنهاء الكيان الصهيوني العنصري الاستعماري من الأرض المحتلة؟

إن في استراتيجية حرب التحرير الشعبية القائلة بأن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم المستمر على العدو، تكمن الإجابة عن هذا التساؤل، إجابة واضحة وبسيطة، لا غموض فيها ولا تعقيد. وفيها ـ وحدها ـ ضمان الانتصار قبل خوض المعركة الفاصلة، بصورة أكيدة. إن خمول حركة الجبهات العربية يهيئ للعدو نوماً رغيداً يشبعه بالمعنويات ويحقق له الطمأنينة في يقظته. حتى لقد جعلته يستخف بالمقاتلين العرب ويهزأ منهم هزءاً مريراً عبر أمتار المياه التي تفصلهم عن بعض، وليس ثمة حرية على الرد الحقيقي إزاء هذه

الحالة المزرية، ليس ثمة شيء إلا السكوت الممض عن الإهانة الكبرى للعروبة. في حين أننا لا نشكو ولا نعاني غياب تلك الحقيقة النضالية، لأنها ثابتة على مر التاريخ، أنْ هاجِم وهاجم حتى تضمن أحسن وسائل الدفاع عن وجودك كله، وحتى تستطيع تدمير قوى لا يستهان بها من جيش العدو، والأهم منها تحطيم معنوياته التي لا يمكن أن يعوضها بمعنويات يستوردها من الخارج، حتى في دخول أمريكا الحرب، فإن ارتفاع معنويات جيشه، مؤقت ما يلبث أن يهبط، وأن تنهار مجدداً.

وفيما يتعلق بالجيوش العربية ومواقعها، فإن في تطبيق شعار: أضرب ثم أضرب حتى تلاشي العدو ليس فقط بعيداً عن مواقع الجيوش العربية نفسها، وإقصاء لسلطان مدفعيته وصواريخه عن متناول القرى والمدن العربية أيضاً، بل وتحطيماً لإرادته القتالية من ناحية الجيوش العربية، وملاحقته من ناحية شن الهجمات الفدائية لضمان إرباكه وإقلاق راحته، وإفزاعه الدائم ـ على أقل تقدير. إن حرب التحرير الشعبية التي يمارسها الفدائيون، شبيهة بالألغام المحكمة والعسيرة على الكشف، لا يدرى بمكانها ومن تحت أية بقعة من الأرض تنفجر، ومتى. حرب مرعبة، مفزعة ومدمرة وإن يكن تأثيرها الفعلي المباشر محدوداً بحدود موضع اللغم نفسه، إلا أن استمرارها المتصاعد سرعان ما يملأ الكيان المعادي بخوف وهلع متزايدين.

وهكذا تظل قطعات العدو في هذا الجو النفسي الكئيب الموئس. فدورياته دائمة الخشية من تفجر الأرض تحت عرباتها وهطول وابل الرصاص عليها. وقطعاته المعسكرة، تتوقع كل لحظة هجوماً عليها، ولا تكاد تتنفس شيئاً من الطمأنينة إلا مع ارتفاع الشمس، ثم ما تلبث أن تزول مع زوال الشمس ليخيم الجو النفسي المتربص المتوجس والخائف. وهكذا. . . رعب دائم، وخوف وفزع. ومن جهة أخرى، ارتفاع في خبرات الفدائيين القتالية، وفي المعنويات ـ لديهم ولدى الجيوش النظامية ـ على السواء. فضلاً عن إعادة الثقة إلى العرب الواقعين تحت الاحتلال، بشكل خاص، مما يهيىء للثورة إمكانية الانتشار إلى أكثر من مكان. ولعل اشتداد المقاومة في الأرض المحتلة وامتدادها ـ هذه الأيام ـ يمثلان إرهاصة عظيمة لامتداد الثورة الفدائية. فإن خروج بضع مئات من النساء أو الشباب، أو الصبية والصبايا، بلا سلاح غير سلاح الإرادة، لمواجهة الموت المحقق، ليمثل أعلى وعي في الثورة، لأنه يعني أعلى درجاتها في الخسارة الشخصية المطلقة ومن غير أن يحقق انتصاراً مباشراً على العدو.

هذا، علاوة على تحويل الطمأنينة والارتياح اللذين سادا التجمع الاستيطاني العنصري الاستعماري، عقب الخامس من حزيران/ يونيو، إلى الجيوش العربية التي يتوجب عليها أن تخطو خطوة أخرى ترافق التحول الذي تحرزه الثورة الفدائية، ليس باقتصارها على تغطية مجاميع الفدائيين المنسحبة، وإنما بالمشاركة معها في الإعداد إلى زحف تطهيري لمعسكر ما من معسكرات العدو المتقدمة.

إن اتباع هذا التكتيك وغيره، ضروري جداً في الحرب الدائرة، ليس من أجل تطهير الأراضي التي احتلت بعد ٥ حزيران/يونيو فحسب، بل ومن أجل التعجيل في انتصار الثورة العربية الفلسطينية، عن طريق إحلال منطق التاريخ الإنساني بدلاً من لغة «الحل السلمي» التي يضمن فيها المعتدي الدخيل، حقوقاً: غير مشروعة ــ إن جاز التعبير ــ لم يهبها له صاحب الحق الشرعي الوحيد.

ولعل الضرورة القصوى في انتهاج ذلك التكتيك ــ وغيره ــ تتضح من أن الثورة العربية الفلسطينية لا تشبه ثورة أخرى في التاريخ كله، بحكم واقع الاستعمار الصهيوني الاستيطاني. فأكثرية جماهير فلسطين خارج أرضها ــ القطرية ــ كما أنها لا تماثل ثورة الصين أو كوبا لاختلاف طبيعتيهما عن الثورة الفدائية المتأتي تفردها من كونها تعاني استعماراً هو آخر ما توصلت إليه الدول الإمبريالية بمعية الصهيونية، من ابتكار لأشكال الاستعمار الجديدة.

تُرى، ماذا ستكون عليه الحرب العربية التحررية المحتدمة الآن مع الاستعمار الصهيوني مباشرة، ومع دول الاستعمار بشكل غير مباشر، التي تبدو ــ لحد هذا الوقت ــ باردة قاصرة على التهديد بالأساطيل البحرية والجوية المعدة للغزو، أتظل هكذا باردة، أم ستسخن تبعاً لاشتداد لهيب الثورة الفدائية بمساندة الجيوش العربية أو بمعزل عنها؟ وماذا يتوجب على الدول العربية المتحررة، انتهاجه واتباعه من تكتيكات عديدة وفعالة، ضمن استراتيجية إبقاء هدف التحرير والمبادرة في قبضة العرب، وبحيث تخيف الدول الاستعمارية من الإقدام على أية عملية غزو لبعض الأقطار العربية أو جميعها؟

والواضح ــ عندي على الأقل ــ أن هذا التخويف لا يتأتى فقط من خلال تقوية الجيوش النظامية تقوية عظيمة، جنداً وسلاحاً وكفاءة، وإنما أيضاً بإلهاب الأرض العربية بحرب شعبية لا تبقي له على مصالح ولا تذر له موطئ قدم.

فهي التي يخشاها الاستعمار خشية كبيرة، ويحسب لها كل حساب. فإذا ما تهيأ لهذه الثورة الشعبية العارمة وجود أكثر من قطر محرر يمتلك مثل ذلك الجيش تسانده جماهير القطر نفسه بحمل السلاح ومضاعفة الإنتاج، عندئذ تصبح الأمة العربية في الموقع المخيف، والموقع القوي الذي يشل ــ إلى حد كبير ــ إمكانية مشاركة الاستعمار لقوى الغزو الصهيوني، وتدعيم كيانه الذي هو في حقيقته، نتاج التحالف الصهيوني مع الاستعمار، والذي عمل دائماً من أجل حمايته، فهو مسؤول عن استمرار بقائه حتى لو قضت مسؤوليته هذه بإبادة جماهير فلسطين كلها، إلى جانب بضعة آلاف أخرى من الشعب العربي.

وأيضاً: تُرى هل يستسلم هذا الشعب للأمر الواقع ويسلم للرجعية المحلية، حليفة الاستعمار، بالحكم؟ في الوقت الذي يزداد فيه وعيه النضالي نضجاً، ولا يجد سبيلاً إلا

في خوض حرب تحرير شعبية واسعة وكاسحة؟ حتى في حالة وقوع هذا التصور المتشائم جداً، والمستحيل التحقق، فإنه يحتاج إلى سنوات عديدة، تفعل الثورة أثناءها، فعلها الثوري لدى الشعب العربي.

إن أول ما يدلنا عليه استقراء تاريخ ثورات التحرر، هو اندحار الأعداء وانهزام الغزاة، وأن النصر للشعوب المكافحة دائماً.

المراجع

كتب

ياسين، صبحي محمد. **الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ١٩٣٦ - ١٩٣٩**. القاهرة: النادي الفلسطيني العربي، ١٩٥٩.

ـــــ. **حرب العصابات في فلسطين**. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧. (في المعركة)

دوريات

- **الثورة الفلسطينية** (مكتب إعلام فتح): الأعداد ١ - ١٤.
- **دراسات عربية**: بعض الأعداد بعد ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧.
- **المجاهد** (الجزائر): بعض الأعداد.

المقاومة من وجهة نظر قومية(*)

عصمت سيف الدولة

كان الحديث عن «المقاومة من وجهة نظر قومية» موجهاً إلى جمع من الشباب العربي التقوا على موعد محدود في نادي «الوافدين» بالقاهرة مساء يوم ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٩. وبدأ الحوار بعد الحديث حتى انقضت حدود الموعد. ثم لم تنقطع ساعات طويلة على مدى أيام عدة، وشارك فيه شباب جاد في البحث عن إجابات لأسئلة محدّدة، وآخرون يثيرون الأسئلة لاختبار إجاباتهم المعدة. وغير هؤلاء وهؤلاء في مواقع عدة بصيغ متعددة. ولقد أثارت الأسئلة التي طرحت تساؤلات لم يطرحها أحد. وثبت من كل هذا أن «المقاومة» أكبر أثراً، وأعمق محتوى، من أن يكفي حديث قصير للإجابة عن كل ما تفجره من قضايا في أذهان الشباب العربي. فقد ذهبت الأسئلة والتساؤلات التي تثيرها «المقاومة» إلى حد تناول كل القضايا الفكرية والحركية التي تتصل بالوجود القومي ومستقبل الحياة فيه، أو أغلبها، ولما ينقطع الحوار بعد. عندئذ أصبح من حق المقاتلين في المقاومة، وقياداتهم، والشباب العربي في كل مكان، أن يشاركوا في الحوار الذي بدأ حديثاً. فهاكم الحديث كما كان، وهاكم الحوار، بعد انتقاء أسئلته وإجاباته بمقياس الموضوعية، والصلة بالحديث، وعدم التشهير بأي من القوى أو المنظمات التي تقف في مواجهة العدو المشترك، وصياغتها مرتبة على وجه يتفق مع تسلسل نقاط الحديث ذاته. دعوة إلى مزيد من الحوار البناء حول أسلوب الوفاء بمسؤولياتنا القومية.

أولاً: الحديث

مدخل

إن الحديث عن «المقاومة» حديث شائك لأسباب عدة. أولها أننا إذ نتحدث عن

(*) نشر في: الآداب، السنة ١٨، العدد ١ (كانون الثاني/يناير ١٩٧٠)، ص ٢ ـ ١٠ و٥٤ ـ ٦٣.

«المقاومة» لسنا على الحياد من معركتها البطولية ضد الغزو الصهيوني، بل نحن مع «المقاومة». إن هذا يعني أننا ملتزمون بحدود المعركة فلا نقول إلا ما يدعم مقدرة «المقاومة» على النصر. والحديث عن المقاومة، حتى فيما يدعم مقدرتها، ليس سهلاً في كل وقت. ذلك لأن ثبات «المقاومة» في المعركة وتصاعد مقدرتها بعد هذا، والبطولات الرائعة التي يقوم بها مقاتلو «المقاومة» قد أضفى على «المقاومة» هالة من القدسية لا تقبل من الحديث إلا ما يشبه الصلاة والتمجيد. ومع هذا فقد تعلمنا من تاريخنا القريب، ومن هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ ذاتها أن الصمت، حتى لا نمس مشاعر بعض الجماهير في ما تأمل فيه وتقدسه، قد أسهم في الهزيمة. فتراكمت السلبيات خفية حتى انهارت القوى التي ما كان يظن أحد أنها قابلة للانهيار. لهذا فقد اخترنا الحديث الشائك عن «المقاومة». السبب الثاني، إننا إذ نتحدث عن «المقاومة» نتحدث عن أبطال يواجهون الموت كل يوم، أو يموتون. ونحن نتحدث عنهم من مقاعدنا المريحة في القاهرة على وجه يبدو كما لو كنا ننتمي إلى عالمين مختلفين منعزلين. هناك من يرون ــ ويرددون ــ ان وراء هذه العزلة تاريخاً من صنع المثقفين العرب أنفسهم، إذ إنهم أهدروا سنين طويلة في أحاديث لم تنقطع إلا عندما اكتشفوا أنهم بينما كانوا مشغولين بتنميق الكلمات ورصها جملاً وسطوراً وإلقائها جدلاً صاخباً، كان العدو يعد في صمت قوته المقاتلة التي أوقعت بدولهم الهزيمة، فكشفت عن عقم الحوار الذي أضاعوا فيه أعمارهم وأن فلسفة «السلاح» هي الصحيحة، أما سلاح «الفلسفة» فهو عبث لا يطاق. ولا شك أن وراء هذا الاتهام قدراً محدوداً من الحقيقة وإن كان غير كاف لتغطية نوايا المغامرين. ومع هذا فقد تعلمنا من تاريخنا القريب، ومن تاريخ الثورات في العالم، أنه إذا كان الفكر المجرد من السلاح عبثاً فارغاً، فإن السلاح المجرد من الفكر مغامرة جاهلة. من أجل هذا اخترنا الحديث الشائك عن «المقاومة» من وجهة نظر «قومية» يقيناً منا بأنا ما نزال نفتقد من الفكر المحرك أكثر مما نفتقد من السلاح الفعال.

وحديثنا، بعد، ليس استعراضاً فكرياً بدون غاية. إن غايته أن يسهم في تحقيق قدر من الوحدة الفكرية بين الشباب العربي كمقدمة لازمة لوحدة ثورية يحقق بها هؤلاء الشباب النصر على أعداء المصير التقدمي الذي يتطلعون إليه. وليس أكثر تعويقاً للوحدة الفكرية، وبالتالي تكريساً للفرقة الثورية، من عدم تحديد مضامين الألفاظ التي نستعملها في الحديث أو الحوار، عندما نتكلم لغة واحدة، بينما يعني بها كل واحد منا معنى مختلفاً، فنختلف. لهذا ستكون بداية حديثنا تحديداً لما نعنيه بـ «المقاومة»، ثم ما نعنيه بالنظرة «القومية»، لعل هذا التحديد أن يساعد على ألا يفهم أحد ما يقال على أساس من أفكاره الخاصة. فإذا انتهينا من هذا التحديد الذي سيستغرق أكثر حديثنا سيكون سهلاً علينا أن ندرك ــ بدون حاجة إلى حديث طويل ــ النظرة القومية «للمقاومة».

مع التسليم مقدماً بأن كل هذا اجتهاد قد تختلف فيه الآراء.

١ ـ ماذا تعني «المقاومة»؟

عندما نتحدث عن «المقاومة» نعني أسلوب القتال المسلح الجماهيري لتحرير الأرض العربية من الغزو الصهيوني. فالمقاومة تعنينا ـ في نطاق هذا الحديث ـ من حيث هي «أسلوب» للنضال، أسلوب قتال «مسلح» متميز عن النضال الدبلوماسي أو الدعائي أو الفكري. وهي «أسلوب» قتال مسلح «جماهيري» متميز عن الأسلوب الدولي وأسلوب الحرب النظامية. إن هذا لا يعني أن المقاومة مجرد عصابات مسلحة مقطوعة الصلة بالصراع الدبلوماسي، أو الدعائي، أو الفكري، وبالدول وسياستها وجيوشها. أبداً. إنما يعني أن المقاومة، إذ تلجأ إلى واحد أو أكثر من تلك الأساليب، إنما تفعل هذا كدعم ومساندة لأسلوبها المتميز: القتال الجماهيري المسلح.

ونحن نعلم أن «المقاومة» ضد الغزو الصهيوني ليست مجرد «مقاومة» دفاعية بل تتضمن نوايا هجومية تذهب إلى حد تحرير فلسطين، ومع ذلك نسميها «مقاومة». ونعلم أن «المقاومة» مجسدة في عديد من المنظمات المتميزة من حيث منطلقاتها الفكرية، أو تركيبها البشري، أو غاياتها الاستراتيجية، أو مقدرتها القتالية، أو حتى بقادتها دون مميز موضوعي آخر. وكلها عندنا ـ في نطاق هذا الحديث ـ مقاومة. كما نعلم أن تلك المنظمات «الجماهيرية» المتعددة ليست على قدر موحد من الاستقلال أو التبعية بالنسبة إلى بعض الدول العربية. ومع ذلك نعنيها جميعاً عندما نتحدث عن المقاومة، ذلك لأن ما يهمنا من «المقاومة» في هذا الحديث هو تلك السمة المشتركة بين كل المنظمات وهي: أسلوب القتال الجماهيري المسلح.

٢ ـ ماذا تعني «القومية»؟

إن كان هذا واضحاً وبسيطاً فلعله مما يثير الدهشة أن يكون مفهوم «القومية» أقل وضوحاً وأكثر تعقيداً. يرجع هذا في ما نعتقد إلى عوامل متعددة ومتفاعلة أهمها:

أولاً ـ إن موجة المد القومي التي بدأت في سنة ١٩٥٥ قد جذبت إليها بعضاً من المثقفين الذين فهموا القومية على أنها انتماء سلبي يحقق لهم نصيباً في عائد انتصاراتها بدون أن ينتبهوا إلى حدها الإيجابي من حيث هي التزام بالنضال من أجل تحقيق مضامين حية. لهذا كثر الحديث عن القومية حديثاً فارغاً كتفاخر فقراء الريف بانحدارهم من عائلات عريقة، منقرضة. وتلقف أعداء القومية تلك الأحاديث فأضافوها ـ بسوء نية ـ إلى حساب الفكر القومي.

ثانياً ـ إن الحركات القومية المعاصرة للصعود الرأسمالي في أوروبا قد أسقطت على القومية كل مثالب الرأسمالية، وأدينت القومية بما جنت أيدي الرأسماليين إدانة تحتاج مراجعتها إلى جهد علمي لا يقدر عليه الكثيرون أو لا يرغبون فيه. فأصبح رفض القومية ملجأ مريحاً للعاجزين عن فهم حركة التاريخ وما يجري تحت أنوفهم في القرن العشرين.

ومنها وأخطرها ـ **ثالثاً** ـ إن الحركة القومية العربية قد صاحبت محاولات التحرر من الاستعمار التركي والأوروبي، وبهذا سبقت التحول الاشتراكي الذي بدأ بعد التحرر. فلما طرحت قضايا التحول الاشتراكي حاولت الرجعية العربية أن تغلف موقفها الرجعي بما تبقى لديها من تراث النضال القومي، فأفرغت القومية من مضمونها التقدمي وانقلبت القومية على أيديها إلى مجرد رابطة عرقية متعصبة ورجعية.

وغير هذا أسباب كثيرة.

وهكذا أصبح الحديث عن القومية مباحاً لعديد من التيارات المتناقضة، كل منها يدعيها، وكل منها له في الأحداث «وجهة نظر قومية».

من أجل هذا، لا بد لنا من أن نصبر على طول الحديث عن «القومية» ليكون مفهومها الذي نعنيه ونلتزمه، ونرى «المقاومة» على ضوئه، محدداً إلى أقصى درجة من التحديد ممكنة.

٣ ـ الوجود القومي

الذي لا شك فيه أن الوجود القومي (الأمة)، كأي معطى موضوعي، قابل للمعرفة وإن كان غير متوقف وجوداً وعدماً على تلك المعرفة. بمعنى أننا إذا عرفناه فذلك اكتشاف لحقيقة موضوعية. وإذا لم نعرفه فالحقيقة قائمة وإن كنا لا نعرفها. وقد وصل الكثيرون إلى اكتشاف الحقيقة القومية عن طريق البحث العلمي باستعمال مناهج مختلفة. وأصبح مسلماً بأن ثمة وجوداً اجتماعياً ذا خصائص متميزة يسمى «الأمة». ولكننا اليوم نريد أن نحاول اكتشاف تلك الحقيقة من منطلق جديد: المنطلق الاشتراكي. نريد أن نبدأ كاشتراكيين لنرى معاً ما إذا كان ذلك سيصل بنا إلى أن نكون قوميين.

لماذا؟

إن أزمة المستقبل العربي كما نراها من الآن هي أن القوى الاشتراكية منقسمة إلى قوميين ولا قوميين، لأن وحدة القوى الاشتراكية في الوطن العربي كما نطلبها ضرورة قومية، لأن المقاومة كما نعرفها لن تنتصر نهائياً إلا إذا أصبحت مقاومة قومية اشتراكية، ولن يغنيها عن هذا مليون فوهة بندقية.

فلنبدأ من البداية.

والبداية هي البحث عن إجابة عن ذلك السؤال الحيوي الذي لا بد أن يكون قد طرحه كل منا على نفسه وهو: كيف أحقق لنفسي حياة أفضل مادياً ومعنوياً؟... منفرداً؟... هذا غير ممكن فلكل منا أسرة ينتمي إليها ولا يستطيع أن يحقق لنفسه حياة أفضل بمعزل عنها. فلتكن غايته إذن، أن يحقق الحياة الأفضل لنفسه وأسرته معاً؟... منفردين؟... هذا غير ممكن، فأسرة كل منا جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي ينتمي إليه

تؤثر فيه وتتأثر به سواء أرادت هذا أم لم ترده. إذن فالحياة الأفضل، بدون اختلاس، لا يمكن أن تتحقق لأي منا وأسرته إلا في داخل مجتمع تسمح إمكانياته وعلاقاته بالحياة الأفضل التي نريدها لأنفسنا.

من هنا يصبح دور كل منا، وهو يسعى إلى حياة أفضل له ولأسرته، أن يعمل إيجابياً لتطوير «المجتمع الذي ينتمي إليه» إلى حيث تتحقق إمكانيات وعلاقات الحياة الأفضل. هذا الدور الإيجابي يتضمن أمرين أساسيين: **الأول**: إن لكل عامل إيجابياً الحق في أن يتطور المجتمع الذي ينتمي إليه ما دام هذا شرطاً لازماً موضوعياً لتطوير حياته الخاصة. إن هذا الحق ينصب على كل من الإمكانيات والعلاقات: حق استرداد الإمكانيات من مغتصبيها والمستأثرين بها، وحق تنظيم العلاقات الاجتماعية بحيث يحصل كل واحد من عائد التقدم الاجتماعي على نصيب خاص متكافئ مع ما قدمه من عمل إيجابي، مساهمة في ذلك التقدم. **الأمر الثاني**: التزام كل عامل إيجابياً في مواجهة المجتمع الذي ينتمي إليه بأن يسهم في تطوير المجتمع إلى حيث يتحقق له، ولغيره، الإمكانيات والعلاقات التي تسمح بحياة أفضل. هذا الالتزام ليس التزاماً منفرداً، بل التزام في مواجهة المجتمع. والمجتمع جماهير حية مريدة وقادرة على استيفاء حقوقها. وهذا يعني ألا يقوم الالتزام بالنضال من أجل التقدم إلا خلال علاقة جماعية منظمة تضع كل مناضل في مواجهة، وتحت رقابة، جماهير محددة هي جماهير «المجتمع الذي ينتمي إليه».

إلى هنا لا يثور خلاف بين الاشتراكيين.

فحق كل عامل في إمكانيات المجتمع الذي ينتمي إليه، أو رفض الاغتصاب والاستئثار، هو ترجمة للملكية الاجتماعية لمصادر الإنتاج وأدواته. وحق كل عامل في أن يحصل من عائد التقدم الاجتماعي على نصيب متكافئ مع ما قدمه من عمل، هو ترجمة لشعار «الكل حسب عملِه». والتزام كل عامل إيجابياً في مواجهة المجتمع الذي ينتمي إليه هو ترجمة لـ «الديمقراطية الشعبية». والعمل الجماعي المنظم هو الصيغة التي تجسد تلك الديمقراطية.

عند هذا الحد كلنا اشتراكيون، مناضلون في سبيل تقدم «المجتمع الذي ننتمي إليه».

ثم يرد السؤال المهم:

ما هو ذلك «المجتمع الذي ننتمي إليه»، ويرتبط مصيرنا بمصيره، والذي لنا حق في كل إمكانياته، وحق في صياغة علاقاته، وعلينا التزام أمام جماهيره بأن نطوره ونحقق فيه الحياة الاشتراكية الأفضل؟

إن طرح هذا السؤال ليس تفلسفاً ولا تعسفاً، بل إن الإجابة عليه شرط جوهري لنجاح أي نضال اشتراكي، إذ على ضوئه نعرف نقطة انطلاقنا، وإمكانياتنا المادية والبشرية، وقوانا، والقوى الحليفة لنا، والقوى المضادة لغاياتنا، وحلفاءها وساحة معاركنا

المقبلة. وعلى أساسه نضع استراتيجيتنا، وفي واقعه ندير معاركنا التكتيكية. ثم نقدم الحساب لجماهيره المحددة التي التزمنا أمامها بأن نحقق لها المستقبل الاشتراكي.

هذا إذا كنا جادين في ما ندعيه من تقدمية، وما نعلنه من استعداد للنضال من أجل حياة أفضل.

ونحن جادون.

فما هو المجتمع الذي ننتمي إليه؟

أسهل الإجابات وأقربها إلى الذهن هي أن المجتمع الذي ننتمي إليه يتحدد بـ «الدولة» التي نحن رعاياها. فلكل «دولة» وطن، وشعب، وفيها حكومة، ولها إمكانيات، وعلاقات، ومقدرة على التقدم. ذلك هو الأمر الواقع. وليس من المنكر أن الأمر الواقع هو بداية الطريق النضالي أياً كانت غاية هذا الطريق. وإن تجاهل الأمر الواقع أو القفز من فوقه إلى غيره مثالية تبدد الطاقات ولا تغير من الأمر الواقع شيئاً. ولكن إذا كانت الدولة أمراً واقعاً فإن التخلف أمر واقع، والاستغلال أمر واقع، والاحتلال أمر واقع، وإسرائيل أمر واقع، والهزيمة أمر واقع، فلماذا لا نقبل كل هذه الأمور الواقعة؟ لأن الاشتراكيين تقدميون، فهم يعرفون أن كل ما يبدو أمراً واقعاً هو في حركة وتغير دائمين، وأن ثمة في كل يوم جديداً تحت الشمس، وأن مهمتهم على وجه التحديد هي تغيير الأمر الواقع إلى الأمر الأفضل. إذن، فكون الدولة أمراً واقعاً يحدد لنا مجتمعاً معيناً ليس بالضرورة أنها أفضل تحديد للمجتمع الذي ننتمي إليه. ويكون علينا أن نبحث عن الحقيقة الموضوعية لهذا المجتمع لنرى بعد هذا ما إذا كانت الدولة تتفق مع تلك الحقيقة أو لا تتفق. وعندما لا تكون الدولة متفقة مع تلك الحقيقة الموضوعية يجب أن تزول الدولة المصطنعة لتقوم بدلاً منها الدولة التي تتفق مع حقيقة المجتمع الذي ننتمي إليه.

فكيف يمكن أن نكتشف تلك الحقيقة اللازمة لتحديد مدى التزامنا النضالي من أجل الاشتراكية؟

يقول القوميون ان الوجود القومي (الأمة) مسلمة علمية وذات خصائص يسهل معها تحديد نطاق الانتماء، ويقدمون في التدليل على هذا عديداً من النظريات، التي أسهم بعض الاشتراكيين في وضعها عن خصائص الأمة: وحدة اللغة، وحدة الأرض، وحدة المصالح، وحدة الشعور النفسي، وحدة الإرادة... إلى آخر النظريات التي قيلت في خصائص الأمة، وينتهي القوميون من هذا الحوار إلى أن الأمم هي «المجتمعات» التي ينتمي إليها الناس، وأن لكل إنسان أمة، متكونة، أو في طور التكوين ينتمي إليها، وأن التزامه النضالي يمتد إلى أن يشمل كل أمته وطناً وبشراً، وأن حقه في حياة أفضل يمتد ليشمل كل إمكانيات أمته وعلاقاتها. ثم يضيف العرب القوميون: ونحن أبناء أمة عربية واحدة، فهي مجتمعنا الذي ننتمي إليه، وإمكانياتها حقنا، والتزامنا قائم أمام جماهيرها كافة برغم التجزئة الطارئة عليها.

وإلى عهد قريب جداً كانت كل الدراسات القومية في الوطن العربي تدور حول هذه الفكرة وتقف عندها.

ولم يكن هذا كافياً.

لم يكن كافياً لإذابة الجمود الفكري لدى بعض الاشتراكيين، ولم يكن كافياً لإقناع بعض آخر من الاشتراكيين بمضاعفة التزاماتهم النضالية والتصدي لسحق الدول الاقليمية وتغيير الحياة في الوطن العربي كله بدلاً من المهمة السهلة نسبياً، وهي تغيير الحياة في جزء منه. وقد استفز هذا الرفض كثيراً من الاشتراكيين العرب فاحتدمت المعركة بين صفوف الاشتراكيين. وطبيعي أن الرجعية كانت المستفيدة الأولى من هذا الخلاف. والواقع أن ما وصل إليه الفكر القومي من بيان لخصائص الأمة لم يكن كافياً، ولا يمكن أن يكون كافياً لإقناع أي مناضل من أجل الاشتراكية بأن يمد التزامه النضالي إلى خارج حدود دولته، بما يتضمنه هذا من أعباء ثورية مضاعفة، لمجرد أن يقال له إن أولئك المقهورين خارج الحدود اخوتك، أبناء أمتك، لأنك تتكلم لغتهم، وتعيش معهم على رقعة جغرافية واحدة، ولك معهم مصالح مشتركة... الخ. ومن باب أولى لم يكن كافياً، ولا يمكن أن يكون كافياً، لأي اشتراكي أن يستجيب لدعوة عصبية قومية غير ذات مضمون تقدمي فيهدر جهده من أجل معان مجردة غير قابلة لأن تتحول إلى حياة أفضل، خاصة إذا جاءت الدعوة من صفوف القوى الرجعية. ذلك لأن الغاية النهائية للنضال الاشتراكي هي أن يحقق حياة أفضل.

ولم يكن ثمة أمل في وحدة القوى العربية التقدمية إلا باكتشاف العلاقة بين القومية والتقدمية. ومع أن الثبات النسبي للرابطة القومية، وانعكاساتها على البناء الاشتراكي في المجتمعات التي سبقت إلى بناء الاشتراكية، وصمودها كإطار للتقدم في تلك المجتمعات بالرغم من إدانتها كان يشير إلى أن هناك علاقة موضوعية بين القومية والاشتراكية، فإن القومية كانت قابلة للإضعاف كرابطة، والذبول كفكرة، والفشل كحركة، في عصر الصعود الاشتراكي، ما لم يثبت أنها بذاتها رابطة تقدمية أو على الأقل أنها ليست عائقاً في سبيل الاشتراكية.

وقد قدم الاشتراكيون العرب، تحت إلحاح رغبتهم في وحدة القوى العربية التقدمية، ووفاء منهم بمسؤولياتهم القومية أمام الجماهير العربية، عديداً من الدراسات التي استهدفت الكشف عن علاقة القومية والاشتراكية، من جميع الزوايا الفكرية أو التطبيقية التي تهم الاشتراكيين في حوار مفتوح مع القوى التقدمية. وكان ذلك هو الجانب الجاد من الحوار الذي استنفد سنين غالية من حياتنا على أمل لقاء كل التقدميين في وحدة ثورية، حتى فوجئنا بالعدو الصهيوني الامبريالي المشترك يعصف بأحلام الطامعين في بناء الحياة الاشتراكية الأفضل في جزء منفرد من الوطن العربي، وتبينوا في أسوأ الظروف تلك الوحدة الموضوعية والتفاعل المتبادل بين كل المشكلات التي يطرحها واقع الأمة العربية، وتذكروا تلك الكلمة التي قيلت لهم فصفقوا لها ثم نسوها أو تناسوها أو

أخفوها «إن التقدم العربي لا يمكن أن يقوم على أساس التجزئة».

ونحن نفترض أن الدرس القاسي قد أثمر فنعيد الحوار بدون استغلال لمرارة الهزيمة ونعود بهم إلى حيث توقفنا: العلاقة بين القومية والتقدمية. هل القومية رابطة تقدمية؟ هل تقف عقبة في سبيل الاشتراكية؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة ستكون آخر الحوار. والرفض المتعنت لها يضع أدعياء الاشتراكية في الوطن العربي موضع اتهام جاد وصريح يتناول ولاءهم للجماهير واشتراكيتهم ذاتها، فإن الوقت العصيب الذي تمر به أمتنا لم يعد يسمح بمزيد من تدليل المتمردين على أمتهم ولو رفعوا شعارات الاشتراكية.

٤ ـ لماذا تكونت الأمم؟

قلنا من قبل، ونقول الآن، لكل الاشتراكيين الذين يتنكرون لالتزاماتهم القومية، ويقصرون ولاءهم على جماهير أقاليمهم بحجة أن القومية غير ذات علاقة بالتقدمية، أو بأن الحركة القومية رجعية:

أيها الإخوة،

إن مسألة الأمة كظاهرة اجتماعية غير منكورة فالأمم تملأ الأرض وهي تطرح أسئلة ثلاثة:

الأول: ما هي الأمة؟ وفي الإجابة على هذا نظريات عديدة تعرفونها ولا تعنينا في هذا الحديث.

الثاني: كيف تتكون الأمة؟ والمتفق عليه أنها تكوين تاريخي يتم على مدى حقبة طويلة من الزمان خلال المشاركة في أحداث تاريخية نعرفها من تاريخ كل أمة على حدة.

الثالث: الذي يعنينا الآن هو:

لماذا تكونت الأمم: لماذا لم تظل الأسر أسراً، والعشائر عشائر، والقبائل قبائل؟ لماذا تجاوزت المجتمعات تلك الأطوار البدائية حتى وصلت إلى طور التكوين القومي؟ لا يمكن أن يكون قد تم هذا كله اعتباطاً. فالاشتراكيون خاصة يعرفون من منهجهم العلمي ألا شيء يتم اعتباطاً أو مصادفة، وان كل شيء حتى حركة المجتمعات من الماضي إلى المستقبل محكومة بقوانين تضبط حركتها واتجاهها. كما يعرفون من منهجم الجدلي أن التطور تقدم صاعد أبداً، وأنه لا يكرر نفسه، بل ينمو من خلال الإضافة نمواً جدلياً.

إذن لماذا تكونت الأمم؟

يقول الاشتراكيون العرب إن المجتمعات البشرية قد تطورت من حيث النمو من الأسرة إلى العشيرة إلى القبيلة، إلى الشعب المستقر على الأرض، إلى الأمة خلال البحث

عن حياة أفضل. تلك الغاية التي لا تزال تحرك الإنسان في أي مكان مهما اختلف مضمون الحياة الأفضل. فالطور العشائري كان تحقيقاً لحياة أفضل عجزت الأسر منفردة عن تحقيقها. والطور القبلي كان تحقيقاً لحياة أفضل عجزت العشائر منفردة عن تحقيقها. والطور القومي كان تحقيقاً لحياة أفضل عجزت المجتمعات القبلية والشعوبية منفردة عن تحقيقها. وقد تم كل هذا خلال أحداث ومراحل تاريخية مليئة بالصراع والهجرات والحروب بين القوى داخل المجتمعات ومع المجتمعات الأخرى المتماثلة بحثاً عن الحياة الأفضل، استنفد فيها كل طور متخلف أقصى طاقته، على التقدم، فلما أن عجز عن مزيد من التقدم، وكان لا بد له بحكم قوانين التاريخ أن يتقدم، انتقل إلى طور أكثر تقدماً، أكثر تقدماً من حيث انه يقدم له إمكانيات للتقدم لم تكن متاحة له في طوره السابق.

وهكذا، إذا كنا نحن الآن في الطور القومي، وإذا كنا ننتمي إلى أمة عربية تكونت تاريخياً، فإن هذا يعني أن تاريخنا قد استنفد كل مقدرة العشائر والقبائل والأقاليم العربية على التقدم قبل أن تتكون أمتنا، وأنها عندما تكونت كانت دليلاً تاريخياً لا ينقض على عجز المجتمعات الأولى التي تكونت منها على التقدم الاجتماعي منفردة، وأنها هي الرابطة التقدمية التي تتيح لكل جماهير المجتمعات الأولى إمكانيات التقدم التي لم تكن متوافرة لها.

هل هي آخر طور؟

هكذا يتساءل «الأميون» فنقول لا. فقياساً على حركة التاريخ الجدلية الصاعدة لا يمكن أن يكون الطور القومي آخر مراحل النمو الاجتماعي، بل نعتقد أنه عندما يتم التكوين القومي لكل الأمم التي لا تزال في طور التكوين، ثم تستنفد كل الأمم أقصى طاقاتها على التقدم سيتم تكوين أو تكوينات اجتماعية جديدة أكثر مقدرة على التقدم. كل ما في الأمر أننا لا نعرف من الآن كيف يكون التكوين الجديد كما لم تكن تعرف القبائل أن مصيرها إلى الوحدة القومية. فقد يكون التكوين الجديد جغرافياً، وقد يكون قارياً، وقد يكون إنسانياً عالمياً. ثم إننا لا نعرف متى سيتم هذا على أي من تلك المستويات. ولكنا نستطيع أن نقول إنه قياساً على ما استنفدته المجتمعات القبلية لتصبح أمماً ومع إدراك لزيادة معدل سرعة التطور الحضاري، فإن بين البشرية وبين تجاوز الطور القومي بضعة آلاف من السنين تخرج ذلك الطور الاجتماعي المقبل عن الموضوع الذي يشغلنا وهو ـ حتى نتذكر ـ تحديد المجتمع الذي نلتزم في مواجهة جماهيره بالنضال الاشتراكي ونتحمل أمامها مسؤولية تطويره وتحقيق الحياة الاشتراكية الأفضل فيه.

الأمة العربية هي إذن مجتمعنا الذي ننتمي إليه، والقومية هي الرابطة التقدمية التي تجمعنا. لا مبرر للجمود ولا للخوف، فإن النصر معقود لأية حركة تتناسب مع المعطيات الموضوعية لساحة نضالها. والقومية هي الضمان للنصر الاشتراكي. وإن كان ثمة من يرضيهم أن يضيفوا إلى التزامهم القومي التزاماً أممياً نحو الوحدة المأمولة للمجتمع

الإنساني، فلا تثريب عليهم، ولكن نقول لهم دعونا أولاً نوفّ بمسؤولياتنا القومية نحو الجماهير التي نعرفها ويرتبط مصيرنا بمصيرها إلى آلاف السنين، وإن عشتم بعد هذا فافعلوا ما تريدون. وحتى قبل ذاك الحين فإن قبولكم حقيقة الوجود القومي هو قبول للوجود القومي لأمم أخرى، والتزام بالتعايش السلمي معها، والتحالف مع حركاتها التقدمية، ضد الرجعية العالمية المتحالفة، ذلك لأن مجرد القبول بحقيقة الوجود القومي للأمم جميعاً لا يعني أن أمتنا ليست جزءاً مؤثراً ومتأثراً بالتطور البشري كافة، لأننا أيضاً أمة من البشر.

تلك هي القومية.

٥ ـ النظرة القومية

عند هذا الحد، حد اكتشاف المضمون التقدمي للقومية تصبح نظرية القومية ذات المضمون الاشتراكي عقيدة (ايديولوجية) كافية لتقييم الواقع العربي وتحديد استراتيجية تغييره، وتعبئة قواه وقيادة المعارك فيه وتحقيق النصر لجماهيره، أي تكون كافية للتحول إلى حركة قومية ثورية ذات منطلقات فكرية واستراتيجية حركية.

أما المنطلقات الفكرية فيمكن تلخيصها في جانبيها السلبي والإيجابي في أمرين:

١ ـ بما أن المجتمع العربي لا يتطور تطوراً متكافئاً مع إمكانياته إلا بحشد كافة إمكانياته لتطويره ككل فإن الإقليمية التي تجسد التجزئة فكراً وتنظيماً هي حركة رجعية فاشلة: رجعية لأنها تعوق التطور الاجتماعي في الوطن العربي وفي أي جزء منه تطوراً متكافئاً مع الإمكانيات العربية المتاحة، وفاشلة لأنها محاولة لإعادة الأمة إلى طور متخلف عن الطور القومي وهو مستحيل بحكم حتمية التقدم الصاعد في حركة المجتمعات.

٢ ـ إنه بحكم الوحدة الموضوعية للمشكلات القومية، فإن أية مشكلة في أي مكان من الوطن العربي هي مشكلة قومية غير قابلة لأن تحل حلاً تقدمياً متكافئاً مع الإمكانيات العربية إلا من منطلق قومي بأداة قومية في إطار التقدم الاجتماعي لجماهير الأمة العربية ككل. وبالتالي فإن الحل التقدمي النهائي لكل مشكلات التقدم في الوطن العربي لا يتم إلا في ظل دولة الوحدة العربية الاشتراكية والديمقراطية.

إن هذا لا يعني أن كل جزء من الأمة العربية عاجز تماماً عن تحقيق بعض التقدم لجماهيره، ولكن يعني تماماً أن ما يتحقق في كل دولة إقليمية أقل بكثير مما كان يمكن أن يتحقق للشعب فيها في ظل دولة الوحدة الاشتراكية والديمقراطية.

وأما عن الاستراتيجية فهي قائمة على أساس تلك المنطلقات الفكرية. تبدأ بالواقع وتنتهي إلى غايتها العظيمة «إقامة دولة الوحدة الاشتراكية والديمقراطية». وبدءاً بالواقع العربي يمكن تقسيم استراتيجية الحركة العربية التقدمية إلى خمس مراحل:

المرحلة **الأولى**: الإعداد الفكري والبشري لقيام أداة الثورة العربية.

المرحلة **الثانية**: إقامة أداة الثورة العربية تنظيماً قومياً اشتراكياً ثورياً.

المرحلة **الثالثة**: إشعال الثورة العربية التحررية الوحدوية الاشتراكية.

المرحلة **الرابعة**: إقامة دولة الوحدة النواة العربية الثورية.

المرحلة **الخامسة**: تصفية الإقليمية وإقامة دولة الوحدة الشاملة الاشتراكية الديمقراطية.

وطبيعي أن كل مرحلة من هذه تنطوي على مراحل تكتيكية لا داعي لحصرها الآن، ولا يمكن التنبؤ بها مستقبلاً. المهم أن نعرف أن الحركة العربية التقدمية تعيش الآن في مرحلتها الاستراتيجية الأولى: مرحلة الإعداد الفكري والبشري لقيام أداة الثورة العربية، وأنها من موقفها في هذه المرحلة تنظر وتقيّم وتتخذ موقفاً من أي حدث دولي أو عربي أو إقليمي، ومن كل القوى، والصراعات والحروب. وعلى ضوء مقتضيات هذه المرحلة تنظر وتقيّم وتتخذ موقفاً من الغزو الصهيوني ومن المقاومة.

فلننظر من هذه الزاوية ولنقدر الموقف العربي من الغزو الصهيوني بما فيه «المقاومة».

٦ ـ حقيقة الموقف

إن حقيقة الموقف من وجهة نظر قومية تتلخص في ما يلي:

أولاً: إن هناك غزواً صهيونياً لجزء من الوطن العربي يستهدف توطين اليهود عليه في دولة تمتد من الفرات إلى النيل. بدأ الغزو الصهيوني تسللاً قبل سنة ١٩٤٨ ثم مسلحاً في ذلك العام، ثم ما تلاه من توسع حتى سنة ١٩٦٧، وهو غزو في ظل دعم وتأييد الامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

ثانياً: إن هذا الغزو موجه ضد الأمة العربية بقصد الاستيلاء على جزء من الوطن العربي، وانه قد بدأ واتسع ونجح حتى الآن في غيبة أية قوة قومية، ذلك لأن التجزئة التي أقامها ذات الاستعمار المؤيد للصهيونية، والتي تجسدها الدول العربية الإقليمية، قد حالت، وتحول بين القوى المعتدية وبين القوى القومية المعتدى عليها بأن حرمت على الجماهير العربية أن تتصدى للدفاع عن وطنها بأداة قومية سياسية (دولة الوحدة) أو بأداة قومية جماهيرية (التنظيم القومي الثوري)، وإن الدول الإقليمية على هذا الوجه قد أسهمت وتسهم بقدر في تغطية الغزو الصهيوني للوطن العربي.

ثالثاً: إنه في غيبة القوى القومية تصدت الدول الإقليمية لهذا الغزو في حروب دفاعية ثلاث على مدى عشرين عاماً، وانهزمت في كل مرة بالرغم من تفوق إمكانياتها المتاحة، وإن المرجع الأساسي لفشلها هو أنها دخلت معركة قومية ـ أو أدخلت فيها ـ بذهنية إقليمية، من منطلقات إقليمية، بأدوات إقليمية، كانت غايتها أن تدرأ خطراً يهدد

سلامتها الإقليمية ولم تكن لدى أية دولة عربية في أي يوم من الأيام إرادة تحرير الأرض العربية في فلسطين.

رابعاً: إن معركة ١٩٦٧ قد أسفرت عن غزو الصهيونية لأجزاء من أقاليم بعض الدول العربية. وبذلك تغيرت طبيعة المعركة بالنسبة إلى هذه الدول فأصبحت طرفاً أصيلاً في المعركة، فلم تقبل الهزيمة كما قبلتها في أرض فلسطين، ولم تقبل المفاوضة كما فاوضت على أرض فلسطين، وصمدت كما لم تصمد من قبل، وهي تعد العدة لحرب هجومية لأول مرة في تاريخها، كل هذا وهي تعلن وتكرر إعلانها بأن حدود معركتها هي إزالة آثار العدوان، أي تحرير أرضها وليس تحرير الأرض العربية في فلسطين.

خامساً: الحقيقة الخامسة من حقائق الموقف أن جولة حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧ قد أسفرت عن دخول الجماهير العربية طرفاً في القتال المسلح ضد الصهيونية في شكل منظمات فدائية، صمدت للقتال بينما القوى جميعاً منهارة، وتصاعدت مقدرتها حتى فرضت وجودها على الأطراف التقليديين للمعارك السابقة: الصهيونية من ناحية، والدول العربية من ناحية أخرى. تلك هي المقاومة إحدى حقائق الموقف الراهن في الصراع ضد الصهيونية.

٧ ـ المقاومة من وجهة نظر قومية

قلنا إن الحركة العربية التقدمية تمر الآن بمرحلتها الاستراتيجية الأولى، وهي الإعداد لبناء أداة الثورة العربية تنظيماً قومياً تقدمياً ثورياً، وإنها من هذا الموقع تقيم وتحدد موقفها من الأحداث والقوى جميعاً. وعلى ضوء ما أوردناه في نقاط خمس من حقائق الموقف في الوطن العربي يمكن تلخيص النظرة القومية على الوجه الآتي:

أولاً: بالنسبة للغزو الصهيوني والامبريالي، فإنه يتناقض تناقض الحياة والموت مع الحركة القومية لأنه يستهدف الاستيلاء على ذات الأرض التي تستهدف إقامة دولة الوحدة العربية عليها، والقضاء على أي أمل في قيام حياة أفضل على الأرض العربية، وبالتالي فإن سحق اسرائيل وتصفية الصهيونية العالمية هي القضية الأولى والأساسية للنضال العربي.

ثانياً: إنه إذا كان ذلك الغزو قد بدأ واتسع ونجح في غيبة القوى القومية ـ الطرف الأصيل في المعركة ـ فإنه قابل للاتساع والنجاح طالما كانت القوى القومية بعيدة عن ساحة القتال، وإن التنظيم الثوري القومي الجماهيري والسياسي هو الأداة الوحيدة القادرة على سحق اسرائيل وتصفية الصهيونية.

ثالثاً: إن الدول العربية، كانت، وما تزال، وستظل، منفردة أو متحالفة غير قادرة على تحرير فلسطين لسبب بسيط هو أن تحرير فلسطين يقع خارج نطاق أهدافها كدول إقليمية، وبالتالي فإن أي مخطط لتحرير فلسطين يجب أن يقوم بعيداً عن أية تبعية لأية دولة

عربية سواء كانت تبعية سياسية أو تنظيمية أو مالية أو إدارية.

رابعاً: غير أن الدول العربية التي فقدت أجزاء من أقاليمها في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ قد أصبحت طرفاً أصيلاً في المعركة إلى أن تزول آثار العدوان، ولهذا فإن الموقف القومي يتطلب دعم مقدرتها على الصمود وتنمية مقدرتها على القتال ودفعها إلى المعركة والحيلولة دون انسحابها منها أو استسلامها، مع التحوط ضد ما تعلنه من أن حدود معركتها تقف عند حدود ٤ حزيران/يونيو ١٩٦٧.

خامساً: أما عن المقاومة كأسلوب فذلك هو المدخل التاريخي لإنجاز المرحلة الاستراتيجية الأولى من مراحل الثورة العربية. فقد كانت الحركة العربية التقدمية تواجه صعوبات جسيمة تحول دون بناء تنظيمها القومي. كانت في حاجة إلى مكان في الوطن العربي لا تمتد إليه قوانين وشرطة ومحاكم وسجون الدول الإقليمية. وكانت في حاجة إلى ساحة نضال تعبئ فيها قواها وتربي كوادرها وتخوض معاركها بعيداً عن رقابة أو وصاية أو تخريب الدول الإقليمية. وكانت في حاجة إلى تكوين جماهيري ثوري يتم ويقوم ويكتسب شرعية من مقدرته الذاتية على الوجود بعيداً عن جهود الدول الإقليمية. وكانت في حاجة إلى الوجود المنظم الذي يمثل الجماهير العربية ككل، ويحقق وحدتها القومية في ذاته، بدون اعتداد بالانتماء السياسي لأية دولة عربية.

كانت ــ باختصار ــ في حاجة إلى ممارسة أسلوب القتال الجماهيري المسلح الذي يكون السمة المشتركة بين منظمات المقاومة القائمة في الساحة الآن، الساحة التي هي مكان من الوطن العربي بعيد ــ فعلياً ــ أو يمكن أن يكون بعيداً عن قوانين الدول الإقليمية وشرطتها ومحاكمها وسجونها.

فكأن المقاومة ــ من وجهة نظر قومية ــ تمثل أفضل الإمكانيات المتاحة مرحلياً لبناء أداة الثورة العربية.

٨ ــ دعوة إلى القوى العربية التقدمية

هل ينطبق هذا على كل منظمات المقاومة؟

لا يمكن الهروب من الإجابة عن هذا السؤال الدقيق. فلنحاول الإجابة عنه في إطار ثلاثة حدود لا نتخطاها. **أولها**: إننا ندعم المقاومة ككل ضد العدو الرئيسي لأمتنا العربية. **ثانيها**: إننا لا نعرف كثيراً عن حقيقة المنظمات في الساحة. **ثالثها**: إن المقاومة بكل منظماتها لم تتبلور بعد ــ نهائياً ــ لا فكراً ولا تنظيماً، فهي قابلة للتطوير والتطور.

في هذه الحدود نرى أن ثمة ثلاثة اتجاهات في المقاومة:

١ ـ اتجاه إقليمي مرتبط ببعض الدول العربية تنظيمياً أو مالياً أو سياسياً.

٢ ـ اتجاه إقليمي فلسطيني يشكل الجانب الأكبر من المقاومة يمثل شعب فلسطين

ويقاتل من أجل تحرير فلسطين لإقامة دولة فلسطينية.

٣ ـ اتجاه قومي غير متبلور وغير مفرز تماماً ومتناثر بين منظمات محدودة الحجم أو في قواعد كل المنظمات تقريباً.

وكل الاتجاهات تقاتل اليوم معركتها المشتركة ضد الصهيونية، فهي في وضع يفرض عليها التحالف والتنسيق بين قواها. ولكنا نستطيع بسهولة أن نرى أن الاتجاه **الأول** سيخرج من المعركة بمجرد انقضاء مرحلة إزالة آثار العدوان، أي بخروج الدول العربية المرتبط بها من المعركة بعد استرداد ما ضاع من أقاليمها في حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

أما الاتجاه **الثاني** الذي يجسد الإقليمية الفلسطينية، فإنه سيقاتل إلى أن تتحرر فلسطين لأن غايته أن يحررها وأن يقيم فيها دولته. وهنا قد يبدو أن الإقليمية لا تساوي الفشل. والواقع أنه إلى أن تزول آثار العدوان قد لا تكون الإقليمية الفلسطينية سبباً في إضعاف مقدرة المنظمات التي تجسدها. ولكن لننظر ماذا بعد إزالة آثار العدوان؟ عندما ينفض حلفاء المرحلة ويعود حرس الحدود إلى الحدود، وتطرح قضايا الأمن الداخلي والالتزامات الدولية، عندئذ ستكون تلك المنظمات أمام اختبار دقيق: إما أن تصفي قواعدها أو تقبل تصفيتها، وإما أن تستولي على قواعد في الدول العربية بالقوة المسلحة، أي تدخل معارك ضد الإقليمية العربية ذاتها. ولن تكون حجتها في هذا إلا أن لها حقاً في الأرض العربية خارج فلسطين، أي إلا إذا لاذت بالمنطلق القومي، عندئذ ستتبين كم أخطأت عندما اختارت الملاذ الإقليمي. ولن تكون لها فرصة كسب المعركة إلا إذا قبلت أن يكون للجماهير العربية حق فيها وفي فلسطين، لأن ذلك هو المبرر لالتزام تلك الجماهير بتمكينها من النصر في قلب الأرض العربية خارج فلسطين، وعندئذ ستتبين أن الإقليمية تساوي الفشل ولو بعد حين. فإن قبلت فقد تحولت إلى قوة قومية. ولا بد أن تقبل. نقول لا بد لأن الحقيقة الموضوعية لمعركة تحرير فلسطين أنها معركة قومية، لا تنتصر فيها إلا القوى القومية. وبرغم كل قصر النظر، وكل حسن النية أيضاً، فإن المنظمات الإقليمية الفلسطينية ستجد نفسها في وقت ليس ببعيد أنها، إما أن تصبح قومية، وإما أن تهزم. لن يهزمها الإسرائيليون بل ستهزمها الإقليمية، الإقليمية فيها والإقليمية خارجها. إن ما تواجهه في لبنان نموذج وإنذار لما ستواجهه في ما بعد في دول عربية تقف معها الآن ضد الإقليمية اللبنانية.

إنه مما يحير الفهم ألا يرى الشباب الذين بلغت ثوريتهم حد الفداء المأزق القريب الذي هم مساقون إليه. إن كل ما سمعناه تأييداً لشعار «مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين» هو أن عزل الشعب الفلسطيني عن قضيته طوال عشرين عاماً وتصدي الدول العربية للغزو الصهيوني هو الذي أضاع فلسطين. ولا شك في أن عزل الشعب العربي من فلسطين عن معركة تحرير فلسطين وحبسه في مخيمات اللاجئين هو أحد الأسباب التي مكنت للغزو الصهيوني من أن يستقر فترات طويلة بدون مقاومة. ولا شك في أن تصدي الدول العربية للغزو الصهيوني هو الذي أضاع فلسطين. ولكن ألا نتبين

بوضوح أنه إذا كانت الدول العربية قد عزلت الشعب العربي من فلسطين في مخيمات اللاجئين وحالت بينه وبين القتال لتحرير الأرض المحتلة، فإنها في ذات الوقت كانت قد حبست الجماهير العربية في حدودها الإقليمية وحالت بينها وبين القتال لتحرير الأرض المحتلة. وقالوا: لقد انقضى عشرون عاماً ونحن مشردون ضائعون بلا وطن وبلا هوية، فنحن نقاتل من أجل تحرير فلسطين ليكون لنا فيها ما نفتقده من وطن وهوية. وهذا صحيح، ولكن ألا نتبين بوضوح أن الإقليمية العربية هي التي حالت دون أن يكون لكم وطن وتكون لكم هوية يوم أن اعتبرتكم، أنتم الذين تلقيتم عنها الضربة الموجهة إلى الأمة العربية كلها، أجانب غرباء في بلادها؟ ألا نتبين بوضوح أن الإقليمية هي التي حالت وتحول دون أن يكون لكم في دولة الوحدة وطن وهوية؟ فلماذا لا تقاتلون من أجل ما هو أسمى وأشمل، وتحاكمون القومية بما جنت أيدي الإقليمية؟ لماذا تصلح المقاومة صيغة إقليمية فتصطنع بينها وبين الجماهير العربية حدوداً بدون أرض، وهوية بدون دولة، وتمييزاً بدون موضوع، لكسب الرأي العالم العالمي من خلال فكرة «الدولة الفلسطينية الديمقراطية»؟..

هذا حوار أفضل.. ولكن هل جربتم كسبه من خلال فكرة «دولة الوحدة الديمقراطية»! الحق أنكم لا تكسبونه إلا بمقدرتكم على النصر. ومع هذا فإنما نسعى إلى كسب الحلفاء والمؤيدين لـ «القضية» التي نكافح من أجلها والتي نعتقد أنها حق وعادلة. ولكننا لا نغير قضايانا من أجل كسب الحلفاء والمؤيدين. أفلا تعتقدون أن قضية «دولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية» أكثر حقاً وعدلاً من قضية «دولة فلسطين الديمقراطية»؟

إن الجماهير العربية تعتقد أنها أكثر حقاً وعدلاً وأولى بأن تكسب تأييد كل القوى التحررية التقدمية في العالم ولو بعد حين.

إننا نستطيع أن نستطرد إلى ما لا نهاية، ولكن الالتزام القومي يفرض علينا أن نؤيد وندعم المقاومة ككل، ونؤيد وندعم المقاومة الفلسطينية بوجه خاص، لأننا نتحدث ونحن مشتبكون في المعركة فلا يمكن أن نخذل المقاومة عموماً، ولأننا نعرف أنه عندما تنسحب القوى الإقليمية العربية من ساحة القتال على أثر إزالة آثار العدوان، لن تبقى في الساحة إلا المقاومة الفلسطينية التي ستقاتل إلى أن تحرر فلسطين، فهي حليف طويل الأمد نسبياً، للقوى القومية تلك التي يمثلها الاتجاه الثالث.

هذا الاتجاه الثالث لم يتبلور بعد، وتتوقف بلورته على التعجيل بإقامة التنظيم القومي الثوري الذي تكون منظمته المقاتلة في ساحة المقاومة هي قوته الضاربة، وتتحرك تحت قيادته طبقاً لاستراتيجيته وفي حماية قواعده المنظمة على المستوى العربي.

كيف يتم هذا؟

إننا نعرف أن شيئاً عربياً في صفوف المقاومة يحلم أحلاماً غير واقعية، وأن شبح «جيفارا» العرب يعبث بمخيلة كثير من شبابنا العربي، وأن فلسفة «النواة المسلحة» المعزولة

عن الجماهير، غير المتبلورة عقائدياً، التي تبني استراتيجيتها عن طريق التراكم التكتيكي، وتبني قاعدتها الجماهيرية من خلال المعارك، وتكوّن عقيدتها الثورية بعد أن تنتصر، هذه الفلسفة التي روج لها «ريجي دوبرييه» تتداول في صفوف المقاومة. ولا أكثر من منظمة قد تعجلت فاختارت اسمها، ورسمت شاراتها، ووضعت مواثيقها، ورفعت شعاراتها القومية وهي تنتظر التحام الجماهير العربية حول قيادتها اعتقاداً منها بأن هكذا يكون التنظيم القومي التقدمي الثوري. إننا نشفق على هؤلاء الشباب من خيبة الأمل المريرة التي سيعانونها عندما يجدون أن الجماهير العربية، وإن كانت تعطف عليهم، لا تلتحم بهم. ونخشى أن ينزلقوا حينئذ إلى اتهام الجماهير لأنها لم تستجب إلى دعوتهم العجولة.

ويهمنا أن نقول لكل المناضلين الذين يمثلون هذا الاتجاه، ويتطلعون إلى أن يكونوا القوة الضاربة لجماهير أمتهم العربية، ان عبقرية «جيفارا» البطل كانت على وجه التحديد في استجابته لواقع الثورة في كوبا واختياره الأسلوب المناسب لها بدون تقيد بالأساليب التقليدية، وأن محصلة الخبرة من ثورة كوبا الناجحة هي أنها غير قابلة للتكرار بعيداً عن مثل الواقع الذي أفرزها.

إن تحرير فلسطين إحدى المهمات الأساسية للثورة العربية ولكنها جزء من معركة التحرر العربي. ومعركة التحرر العربي ليست سوى مقدمة لوحدة الوطن العربي. وحتى معركة الوحدة ليست إلا جزءاً مكملاً لمعركة الاشتراكية. والنصر في كل تلك المعارك لازم لتحقيق الغاية النهائية: إقامة دولة الوحدة الاشتراكية والديمقراطية التي تقدم للجماهير العربية في كل مكان إمكانيات الحياة الأفضل. إن تجاهل هذه الوحدة الموضوعية بين مشكلات الحياة في الوطن العربي لن يؤدي إلا إلى الفشل. إن الجماهير العربية مع كل المناضلين ضد الاعتداء الصهيوني الامبريالي، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هو إلى أي مدى؟ لن تنتصر المقاومة ولن تنتصر الثورة العربية إلا إذا كانت الجماهير العربية في كل مكان ملتزمة بدعمها والمساهمة فيها حتى الموت. ليس الموت في معركة المقاومة ضد الصهاينة فقط، بل الموت حتى بعيداً عن الجبهة ضد القوى الإقليمية والامبريالية والرجعية والانهزامية. لا يمكن أن تنتصر المقاومة وهي تواجه القوى الصهيونية والامبريالية إلا إذا استندت إلى جماهير منظمة قادرة على أن تؤمن للمقاتلين قواعدهم ومواردهم المادية والبشرية ومواصلاتهم، وأن تفرض سيطرتها على أي مكان في مؤخرة المقاتلين بعمق الوطن العربي كله. إن هذا لن يتحقق كما يجب أن يكون إلا إذا أحاطت بإسرائيل دولة الوحدة النواة كقاعدة للثورة، ومع ذلك فإن المعركة مستعرة وليس مقبولاً قومياً التخلي عنها لفتح معركة الوحدة ضد الإقليمية. ولكننا على يقين من أن الإقليمية هي التي ستفتح المعركة قبل أن تتحرر فلسطين لتصفية المقاومة. إن أوسع التأييد الذي يحيط بالمقاومة الآن لا يمكن أن يخفي عن النظرة القومية العلمية أن تلك المعركة قادمة لا شك فيها. وحينئذ سوف يتوقف النصر أو الهزيمة على ما إذا كان للقوة المقاتلة في فلسطين قواعد جماهيرية قادرة على مواجهة الإقليمية والانتصار عليها أم لا.

إن هذا يحتم أن تكون المقاومة القومية جزءاً من تنظيم جماهيري ثوري يضم الجماهير العربية في باقي أجزاء الوطن العربي ويؤمن لقوته الضاربة المقدرة على الاستمرار في القتال حتى النصر. فهل تكفي بطولة السلاح محوراً لهذا الالتقاء؟ هل يكفي التأييد العاطفي للموت في سبيل استمرار المقاومة حتى النصر، ولو تطلب هذا العطف التضحية بواحدة أو أكثر من الدول العربية؟

نقول لا يكفي. فإن الجماهير العريضة لا تقدم على الموت انفعالاً ولكن تضحي في سبيل غايات معروفة ومحددة. والجماهير العربية على استعداد للتضحية من أجل إزالة آثار العدوان، ومن أجل تحرير فلسطين، ولكنها لا تقدم على الموت إلا إذا عرفت أنها تموت من أجل حياة أفضل لأسرها وأولادها، إلا إذا عرفت علاقة النصر في معركة إزالة آثار العدوان، أو معركة تحرير فلسطين بالنصر في معركة الحياة. ذلك هو المصدر الوحيد للصلابة الثورية والمقدرة على مواجهة مخاطر المعركة الطويلة المريرة.

ولا أحد يستطيع أن يقدم للجماهير العربية ضماناً بأن تضحياتها ستؤدي إلى مستقبل أكثر رخاء وأكثر حرية إلا هي ذاتها متجمعة وملتحمة في تنظيم قومي غايته النهائية أن يحقق لها حياة أفضل: أن يقيم لها دولة الوحدة الاشتراكية والديمقراطية. إذن لا تكفي أخوة السلاح بدون التزام عقائدي، ولا تغني الجبهات المساندة عن الوحدة التنظيمية، كما لا يغني التحرك الانفعالي عن المسيرة العلمية.

إن مثل هذا البناء ليس مسؤولية المقاومة القومية، ولكن المقاومة القومية شريكة فيه وذات حق في أن تكون جزءاً منه. لهذا فإننا لم نوجه دعوتنا إلى المقاتلين في ساحة المعركة. إن كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلتحموا في منظمة مقاتلة وأن يثبتوا من خلال المعارك الحيّة جدارتهم بأن يكونوا القوة الضاربة لجماهير أمتهم العظيمة، ثم أن يحذروا من إغراءات البطولة فيتحدثوا إلى تلك الجماهير من مواقع مسلحة، وأن يتجنبوا أن يصوغوا أنفسهم فكراً وتنظيماً وحركة في استعجال معزول عن مساهمة الجماهير نفسها في تلك الصيغة الفكرية التنظيمية الحركية. ثم أن يقبلوا من الآن أن يكونوا جزءاً من تنظيم قومي ثوري يعملون تحت قيادته.

إلى متى؟

لا يمكن أن يطلب منهم الانتظار إلى أن تخرج القوى القومية التقدمية من ترددها المدمر وتكف عن الانتظار العقيم حتى تحقيق شروطها الخاصة لكي تقتحم المعركة. إن الجانب الأساسي من بناء التنظيم القومي الثوري يقع على عاتق القوى العربية التقدمية وليس على جانب المقاومة. وإن مسؤولية النصر في المعركة الدائرة ضد إسرائيل واقعة على عاتق تلك القوى. وهي إذ تتخلى عن مسؤولياتها لن تستحق إلا هزيمة أخرى، ولن يجديها حينئذ البكاء مرة أخرى كما بكت في حزيران/يونيو ١٩٦٧.

إن كتائب «أنصار» المعركة يجب أن تشكل في كل مكان من الوطن العربي لدعم

المقاومة فكرياً ومالياً وبشرياً وسياسياً وعسكرياً تمهيداً لالتحامها مع المقاتلين القوميين من خلال مؤتمر قومي ينبثق عنه التنظيم القومي الاشتراكي الثوري. عندئذ ستتحول المقاومة إلى أداة للثورة العربية قادرة على أن تستمر في المعركة حتى النصر.

تلك هي المقاومة من وجهة نظر قومية.

٩ ـ الموقف القومي من المقاومة

«المقاومة» من وجهة نظر قومية تعني المقاومة كما يجب أن تكون. أما الموقف القومي من «المقاومة» فيعني موقف القوى القومية التقدمية (منظمة أو غير منظمة) من المنظمات الأخرى المشتبكة في القتال ضد الغزو الصهيوني للأرض العربية. وهذا الموقف يتحدد بالموقف القومي من المعركة وقواها.

ونحن نرى بوضوح أن لمعركة تحرير فلسطين مرحلتين:

أ ـ المرحلة الأولى

(١) **الهدف**: إزالة آثار العدوان (استرداد الأرض المحتلة بعد حزيران/يونيو ١٩٦٧).

(٢) **القوى الرئيسية**: القوى القومية التقدمية المقاتلة والشعبية.

(٣) **القوى الحليفة**:

(أ) المنظمات الجماهيرية الإقليمية المقاتلة.

(ب) الدول العربية.

(ج) القوى الماركسية في الوطن العربي.

(د) قوى المعسكر الاشتراكي (دولياً).

(هـ) قوى الحركة التحررية العالمية.

(٤) **القوى المضادة**:

(أ) القوى الاسرائيلية (الدولة).

(ب) القوى الصهيونية (المنظمة عالمياً).

(٥) **حلفاؤها**:

(أ) القوى الامبريالية (الولايات المتحدة الأمريكية والاستعمار).

(ب) القوى العربية المرتبطة بالاستعمار والولايات المتحدة الأمريكية.

(ج) القوى الداعية إلى المساومة أو الاستسلام.

(د) القوى العاملة على إضعاف المقدرة العربية على القتال.

ب ـ المرحلة الثانية

(١) **الهدف**: تحرير فلسطين وتصفية الوجود الاسرائيلي.

(٢) **القوى الرئيسية**: القوى القومية التقدمية المنظمة المقاتلة والشعبية.

(٣) **القوى الحليفة**: القوى الإقليمية «الفلسطينية».

(٤) **القوى المضادة**:

(أ) القوى الاسرائيلية (الدولة).

(ب) القوى الصهيونية (المنظمة عالمياً).

(ج) الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والاستعمار.

(٥) **حلفاؤها**: الرجعية العربية العميلة للاستعمار وللولايات المتحدة الأمريكية.

(٦) **قوى تنسحب من المعركة أو التحالف**:

(أ) المنظمات الإقليمية العربية (من غير فلسطين).

(ب) الدول العربية الإقليمية.

(ج) القوى الماركسية في الوطن العربي (من غير فلسطين ربما).

(د) قوى المعسكر الاشتراكي.

لقد وضعنا الإجابة بهذه الصيغة ليسهل علينا تحديد ضوابط المواقف التكتيكية للقوى العربية التقدمية على ضوء التفرقة الحاسمة بين قوى المعركة في كل من المرحلتين. ويمكن إجمال تلك الضوابط في ما يلي:

أولاً: إنه لا يجوز تحت أي ظرف إثارة معارك مع القوى الحليفة في كل مرحلة، فلن يستفيد من هذا إلا العدو المشترك. إن الوقوف موقفاً عدائياً، دعائياً، أو حركياً، ضد أية قوى مقاتلة، أو مشتبكة، أو مجابهة، عسكرياً، أو فكرياً، أو سياسياً، لقوى أعدائنا وحلفائها، خطأ تكتيكي مدمر في هذه المرحلة. إن أقصى ما يمكن الذهاب إليه هو اتخاذ موقف دفاعي ضد الحلفاء الذين يرتكبون هذا الخطأ، بدون وعي، أو استغلالاً لظروف المعركة قاصدين تحقيق النصر لحسابهم الخاص. على أن يبذل كل صبر ثوري ضد أي استفزاز، وتبذل كل محاولة ممكنة لتنمية أسباب التعاون وتوثيق التحالف وتصفية أسباب الخلاف. نقول هذا مدركين تماماً أن الساحة لا تخلو من تخطيط واع لتخريب العلاقة بين القوى التي تقف معنا لفض تحالفها أو تحويلها عن هدفها المشترك. كما أننا

ندرك تماماً التخريب الذي قد ينتجه الجهل الذي يعربد تحت حماية السلاح، أو الانتهازية التي تبحث عن مكاسبها الخاصة. ولكنا مدركون في الوقت ذاته أن الاستجابة لكل هذا والمساهمة فيه عن طريق قبول الدخول في معارك جانبية بين القوى المتحالفة هو «موضوعياً» وبصرف النظر عن المبررات إضعاف للمقدرة العربية ومساعدة غير مباشرة للقوى المعادية.

ثانياً: إن مواقع القوى ستتغير جذرياً بعد انتهاء مرحلة إزالة آثار العدوان، والدخول في مرحلة تحرير الأرض المحتلة من فلسطين قبل سنة ١٩٦٧ وتصفية الوجود الاسرائيلي. وإن كثيراً من القوى المشاركة الآن في القتال، والحليفة، ستنسحب من المعركة ثم تكتفي بالتأييد الأدبي، أو تقف على الحياد، أو تنضم إلى تحالف القوى المعادية. إنها تلك القوى التي تقبل الوجود الاسرائيلي على الأرض العربية أو غير المستعدة للقتال حتى تصفية ذلك الوجود. تلك هي أخطر مرحلة سيواجهها النضال العربي. وفيها ستقع مسؤولية الاستمرار في المعركة على عاتق:

١ ـ القوى القومية التي تقاتل من أجل تحرير فلسطين لأنها جزء من الوطن العربي ولتقيم دولة الوحدة.

٢ ـ القوى الإقليمية الفلسطينية التي تقاتل من أجل تحرير فلسطين لأنها وطنها الخاص لتقيم فيه كما تقول «الدولة الفلسطينية الديمقراطية».

ثالثاً: على ضوء هذا فإن ضابط الموقف القومي من المقاومة الآن، أي في مرحلة إزالة آثار العدوان تتلخص في أمرين: (أ) دعم المقاومة ككل في مواجهة القوى المعادية وحمايتها من محاولات الإضعاف أو التصفية والوقوف معها ضد أية قيود تفرضها عليها الدول العربية. (ب) نقد المقاومة في خصوصية «الإقليمية» عن طريق التركيز على ما تسببه تلك الإقليمية (فكراً، وصيغة، وعلاقات) من إضعاف لمقدرتها على النصر.

ثانياً: الحوار

مدخل

س ١: أليس من المبالغة القول بأنا ما نزال نفتقد من الفكر المحرك أكثر مما نفتقد من السلاح؟ لقد هزمتنا إسرائيل بقوة مسلحة متفوقة ولم تهزمنا في مناظرة فكرية. بل إن الواقع الاجتماعي الذي يضم أشتاتاً من الناس في الأرض المحتلة وكما يشير إليه تعدد الأحزاب وكثرتها هناك يدل على تمزق الاتجاهات الفكرية. وبالرغم من هذا فإن المقدرة المادية قد حققت لإسرائيل النصر حتى الآن.

ج ١: لا أعتقد أن هناك مبالغة في القول بأننا نفتقد من الفكر المحرك ـ الفكر المحرك وليس الفكر المجرد ـ أكثر مما نفتقد من السلاح. وليس صحيحاً أن مرجع انتصار

اسرائيل على الدول العربية حتى الآن هو تفوقها في القوة المسلحة. الأسباب أعمق وأقدم من هذا. لقد ثبت أن اسرائيل كانت تعد العدة للقتال في سنة ١٩٦٧ منذ ١٩٥٦. وكانت تعد للقتال سنة ١٩٥٦ منذ ١٩٤٨. وكانت تعد للقتال سنة ١٩٤٨ منذ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩. ومن قبل هذا بنصف قرن كانت تعد المقاتلين والمال اللازم للقتال. إن هذا التخطيط طويل المدى (الاستراتيجي) هو المرجع الأول لانتصار الصهيونية حتى الآن. وقد كانت الصهيونية العالمية تخطط للمستقبل منذ أكثر من قرن على ضوء فكرة محددة ومحركة هي إقامة دولة يهودية تمتد من الفرات إلى النيل. ولا شك أن الفكرة ذاتها غير مقطوعة الصلة بمعطيات مادية وفكرية سبقتها، ولكن ابتداء من تكوين الحركة الصهيونية أصبحت القوة المادية المالية والعسكرية تعد وتنتقى ويتم التدريب عليها لتكون كافية لتحقيق أهداف الصهيونية خطوة خطوة. ولولا هذه الوحدة الفكرية لما التزم الصهاينة جيلاً بعد جيل وفي كل مكان من الأرض بأن يبذلوا من أموالهم وجهدهم ما يكفي لبناء قوة عسكرية متفوقة.

أما عن انعدام الوحدة الفكرية في الأرض المحتلة بين أشتات من الناس فتلك حقيقة يجب أن تفهم في حدودها. إنهم مختلفون في ما يتعلق بكيفية الحياة في اسرائيل. ويذهبون في هذا الاختلاف من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين. ولكن خلافهم هذا لا يتجاوز مداه ليتناول وجودهم في الأرض المحتلة، أي وجود اسرائيل. إن الوحدة الفكرية هنا متحققة إلى أقصى درجاتها. وهي هي الفكرة المحركة للنشاط الهادف إلى إعداد القوة العسكرية المتفوقة. أي أن التفوق المادي استلزمته وأقامته فكرة الحفاظ على الوجود الاسرائيلي والتوسع فيه حتى يتم تحقيق الغاية القديمة، الدائمة، إقامة دولة يهودية من الفرات إلى النيل وفي هذا هم متفقون.

على عكس هذا كان الأمر في الجانب العربي. إننا نمتلك إمكانيات مادية وبشرية أكثر بكثير مما تملكه الصهيونية العالمية. ونستطيع أن نعد قوة عسكرية أكثر تفوقاً مما تستطيعه اسرائيل. كان ذلك هو الوضع دائماً. ولكن العقيدة المحركة لحشد هذه الإمكانيات والإعداد العسكري لهزيمة الصهيونية كانت مفتقدة دائماً. وليس أدل على هذا من أن الحروب التي خاضتها الدول العربية كانت كلها حروباً دفاعية. كما أنها دخلت كل الحروب بدون أن تكون مستعدة لها، أو حتى بدون أن تتوقعها. وافتقاد الفكر المحرك هو الذي حال دون التقاء العرب على تخطيط استراتيجي طويل المدى لمواجهة المخططات الصهيونية. وهو الذي حال دون وحدتهم اللازمة لهزيمة الغزو الصهيوني الامبريالي.

إنه إذا كان يبدو الآن على ضوء أحداث جرت في حزيران/يونيو ١٩٦٧ أن التفوق المادي العسكري كان العامل الحاسم في الهزيمة، فإن هذا لا يعني أن أسباب هزيمة ١٩٦٧ كانت عسكرية، بل الهزيمة العسكرية كانت النتيجة الحتمية لأسباب أسبق منها وأعمق. أهمها أنه لم تكن لدينا فكرة محركة تحدد الغاية التي أعددنا لها قواتنا المسلحة.

وعندما جاءت المعركة لم نفتقد السلاح فقد كان وفيراً، ولكنا افتقدنا معرفة كيف نستعمله.

١ ـ ماذا تعني المقاومة؟

س ٢: إن الحديث عن «المقاومة» ككل بالرغم مما قيل من أنها مجسدة في منظمات متعددة متميزة من حيث منطلقاتها الفكرية أو تركيبها البشري أو غاياتها الاستراتيجية، والتركيز على أنها «أسلوب القتال الجماهيري» فيه عناية بالشكل أكثر من العناية بالمضمون، في حين أن العبرة في استحقاق أية ثورة للنصر هو بمضمونها الاجتماعي. هل تجوز التسوية مثلاً بين منظمة تخوض الثورة من أجل مجتمع اشتراكي لمصلحة الكادحين وبين بعض المنظمات التي لا تريد حتى أن تفصح عن مضمون التزامها الاجتماعي؟

ج ٢: لا توجد حركة، ولا ثورة، بدون مضمون. بل إن كل حركة أو ثورة ذات مضامين مركبة. والحديث عن المقاومة كأسلوب قتال جماهيري لا يعني تجاهل مضامينها الاجتماعية، ولكن يعني اختياراً للزاوية التي تتصل بموضوع الحديث. والمقاومة ككل متميزة بأنها أسلوب قتال جماهيري. أما من حيث مضامينها فإنها جميعاً كما نعتقد ذات مضمون «تحرري» بحكم أنها قوة مقاتلة ضد الغزو الصهيوني. وهي هنا متشابهة بل إنها لا تتميز في هذا عن حركة الدول العربية التي تواجه اسرائيل. فحركتها تلك ذات مضمون تحرري أيضاً. وفيما يتجاوز المضمون التحرري تختلف المنظمات والدول نفسها من حيث المضمون الاجتماعي. وحتى ونحن نتكلم عنها من موقف قومي فإنا نأخذ موقفاً ذا مضمون تحرري وحدويّ اشتراكي، ونقيسها على موقفنا، وندعوها إليه، لأننا نعتقد أن العبرة في استحقاق أية ثورة للنصر ليس بمضمونها الاجتماعي فقط، ولكن بمضمونها الصحيح، أي الذي يستجيب لمتطلبات الواقع. والواقع هنا واقع عربي محتل مجزأ متخلف. ونحن لم نشأ أن ندخل في محاكمات المنظمات بعضها للبعض الآخر، اعتقاداً منا بأن القضايا التي تختلف عليها لا تؤثر في استحقاقها للنصر إلا من حيث بعدها أو قربها من المضمون القومي التقدمي الذي ندعوها إليه. وإن الخلاف حول المضامين الاجتماعية لا ينفي الوحدة حول المضمون التحرري الذي لا يكتمل إلا في إطاره القومي. مع ملاحظة أن استحقاق النصر هنا ليس استحقاقاً قانونياً بل يستحق النصر من يقدر على تحقيقه، ولا تقدر عليه وبالتالي لا تستحقه إلا المقاومة القومية الاشتراكية. إن أي مضمون غير هذا، أو دون هذا، أو يتجاوز هذا، خطأ لن يؤدي إلى النصر.

٢ ـ الوجود القومي

س ٣: إني لا أرى أن المدخل إلى معرفة الوجود القومي أو الأمة هو أن نبدأ كاشتراكيين. وربما يكون العكس هو الصحيح. أي اننا إذا بدأنا كقوميين يمكن أن نصل

إلى أن نكون اشتراكيين، باعتبار أن القومية تتضمن الولاء للجماهير العريضة التي تتكون منها الأمة ولأن الوجود القومي أقدم من النظام الاشتراكي وسابق عليه تاريخياً.

ج ٣: إن الوجود القومي (الأمة) كمعطى موضوعي يمكن معرفته عن طريق المناهج العلمية. فالبحث العلمي هو المدخل الصحيح لمعرفة الوجود القومي. وقد عرف كثير من الناس حقيقة انتمائهم القومي وتعرفوا على أمتهم قبل أن يعرفوا شيئاً عن الاشتراكية. ولكننا في حديثنا لا نستهدف التدليل على الوجود القومي. إنما نستهدف الوصول إلى إقناع بعض الاشتراكيين في حوار موجه إليهم بأن القومية رابطة تقدمية أولاً تقوم عقبة في سبيل الاشتراكية. وفي مراحل سابقة وضع القوميون تحت نظر هؤلاء الاشتراكيين دراسات علمية عن القومية وتركوا لهم أن يتعرفوا على تلك العلاقة بأنفسهم. ولكن في هذه المرحلة، حيث أصبحت وحدة القوى التقدمية ملحة بحكم المعركة، نرى أن ندير الحوار معهم انطلاقاً من مواقفهم ذاتها ليتبينوا أنهم كاشتراكيين مطالبون بالالتزام القومي. وعلى هذا فالاشتراكية ليست مدخلاً لمعرفة الوجود القومي، ولكنه المدخل الذي قد يكون مناسباً لإخراج بعض الاشتراكيين من عزلتهم وتحطيم جمودهم العقائدي وانفتاحهم على جماهير أمتهم.

س ٤: إذا كان صحيحاً أن البدء من منطلق اشتراكي يؤدي بنا إلى أن نكون قوميين، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين الخبرة التاريخية التي أثبتت أن الاشتراكية نجحت في كثير من أنحاء العالم كنظرية وكثورة وفي التطبيق بدون اعتداد بالقومية، بل نستطيع أن نقول من موقف معاد للقومية؟

ج ٤: أولاً إن الخبرة التاريخية للاشتراكية كنظرية وفي التطبيق لم تكتمل بعد حتى نستطيع أن نحتكم إلى محصلتها النهائية. ولكن ما تحقق حتى اليوم من خبرة يدل على اتجاه ثابت لاكتشاف العلاقة بين القومية والاشتراكية. فكلنا يعرف أن الاشتراكية التقليدية بدأت بموقف عدائي صريح للقومية على زعم أنها من خلق البرجوازية المستغلة التي تسعى إلى السيطرة على السوق القومي. ولكنا نعرف الآن وبعد أكثر من نصف قرن من التطبيق الاشتراكي أن أكثر الدول الاشتراكية قد اعترفت ــ من خلال خبرتها في التطبيق ــ بتأثير الخصائص الخاصة بكل مجتمع على البناء الاشتراكي فيه. وعندما تجاهلت بعض الدول هذه الخصائص ثار، وما زال يثور، نوع من الصراع بين الدول الاشتراكية. وهكذا تفرض «الخصائص» الخاصة بكل مجتمع ذاتها على الاشتراكيين ويقبلونها بالتدريج، خفية أو صراحة. من أين جاءت هذه «الخصائص»؟ ليس من المنطلقات الاشتراكية فقد بدأت واحدة. وليس من المعالم الجغرافية فهي لا تختلف في يوغوسلافيا مثلاً عنها في ألبانيا، أو في المجر عنها في رومانيا، أو في جبال الصين عنها في جبال الأورال. ولكن جاءت نتيجة تراث تاريخي كسب به كل مجتمع خصائصه. فأصبحت تلك الخصائص مميزاً قومياً له. ولسنا نشك في أنه لن يمضي وقت طويل حتى يصبح مسلّماً بأن لكل أمة اشتراكيتها الخاصة بها، كنظرية وكثورة وكنظام اجتماعي. حينئذ تكون الخبرة التاريخية في هذه

الخصوصية قد اكتملت بالاعتراف بالعلاقة التقدمية بين القومية والاشتراكية بعد أن كانت قد بدأت بأفكار الاشتراكيين للقومية.

س ٥: إن اتخاذ السؤال «كيف أحقق لنفسي حياة أفضل مادياً ومعنوياً» كمدخل للوصول إلى الحل الوحدوي الاشتراكي يكشف عن منطق فردي لا يستقيم مع القول بأن الوجود القومي «الأمة» معطى موضوعي غير متوقف على معرفتنا، لأن هذا الوجود الاجتماعي يعني أنه لا وجود للفرد منعزلاً عن مجتمعه بحيث يبدأ مسيرته النضالية من ذاته كما لو كان وحيداً.

ج ٥: اعتراض صحيح في ما يتعلق بأن لا وجود للفرد منعزلاً عن مجتمعه بحيث يبدأ مسيرته النضالية من ذاته كما لو كان وحيداً. ولكن من ناحية أخرى لا يوجد مجتمع غير متكون من أفراد. فالفرد جزء متفرد وإن كان جزءاً من كل يحتويه. وبين الفرد والمجتمع علاقة جدلية فالفرد يؤثر في مجتمعه ويتأثر به ليعود فيؤثر فيه. وعند الحديث عن هذا التأثير المتبادل لا بد من اختيار نقطة بداية. فإما أن نبدأ بالحديث عن المجتمع وتأثيره في الفرد وإما أن نبدأ بالفرد وكيف يؤثر في المجتمع. وقد اخترنا أن نبدأ بالفرد اعتقاداً منا بأن الانتقال من البسيط إلى المركب أسهل إدراكاً من الانتقال من المركب إلى البسيط. فإذا كنا قد قلنا إن البداية هي سؤال كل منا «كيف أحقق لنفسي حياة أفضل مادياً ومعنوياً» فإن هذا لا ينفي أن مضمون الحياة التي يريد أن يغيرها ومضمون الحياة الأفضل مادياً أو معنوياً التي يريد أن يحققها متأثران بمجتمعه قبل أن يطرح على نفسه السؤال.

س ٦: أليس قبول تحديد المجتمع على أساس الدولة أكثر واقعية من البحث عما يقال إنه «الحقيقة الموضوعية للمجتمع» مع ملاحظة أن «أكثر واقعية» لا يعني قبول الأمر الواقع. أو بمعنى أوضح أليس أكثر واقعية أن يناضل الاشتراكيون في كل بلد عربي حتى إذا ما استولوا على السلطة وأقاموا الاشتراكية استطاعوا الالتحام في دولة واحدة لانعدام التناقض بينهم؟ أليس هذا أكثر واقعية من الوحدة بين دول مختلفة النظم الاجتماعية؟

ج ٦: لنبدأ الإجابة من آخر السؤال. لنستبعد على الفور تصور أن تقوم الوحدة بين دول مختلفة النظم الاجتماعية. إن هذه الصورة قد تتحقق في النظام الكونفدرالي، وهو نظام لا يتفق مع الأسس القومية للوحدة. أما في دولة الوحدة فلا يمكن أن يتواجد نظامان اجتماعيان أو أكثر، مثلها في هذا مثل أية دولة وحدة في العالم، والواقع أن الحديث عن وحدة عربية بين نظم مختلفة حديث فارغ وغير قابل للتحقق، فالوحدة لا تعني الجمع بين دولتين ونظامين أو أكثر في إطار دستوري واحد، ولكن تعني إلغاء الكيان الدستوري لكل من الدولتين لإقامة كيان دستوري جديد يضم الإقليمين أو الشعبين. وطبيعي أن هذا لا يتم تلقائياً ولكن بالنشاط الثوري الإيجابي الذي أقام دولة الوحدة في مواجهة الدولتين الإقليميتين. هذا النشاط الثوري الإيجابي له حتماً مضمون اجتماعي (وهو عندنا اشتراكي) هو الذي سيكون نظام الدولة الجديدة عندما تنتصر القوى

الوحدوية التي تجسده وتقيم دولتها الواحدة. لهذا قلنا دائماً إن الوحدة العربية لا تتم من خلال اتفاق بين الدول، ولكن تتم من خلال كفاح القوى التقدمية المنظمة قومياً، أي التي تعمل داخل كل الدول العربية بقصد إلغاء الوجود المستقل لكل منها لمصلحة دولة الوحدة العربية. ذلك لأن إقامة دولة الوحدة يقتضي إلغاء الوجود المستقل لدولتين (أو أكثر) في وقت واحد لإقامة دولة الوحدة بديلاً عنها: فكيف يمكن تحضير الإقليمين (أو أكثر) للوحدة في وقت واحد ومحدد؟ لا يمكن أن يتم هذا إلا بعمل موحد طبقاً لاستراتيجيا واحدة تحت قيادة واحدة تحرك الجماهير في دولتين (أو أكثر) لتقيم على أنقاضهما دولة الوحدة. ذلك هو الأسلوب الواقعي والصحيح. وعلى ضوئه لا يكون أسلوب نضال الاشتراكيين في كل قطر إلى أن يستولوا على السلطة ثم يلتحمون في دولة الوحدة أسلوباً واقعياً، إلا إذا كان نضال الاشتراكيين في كل قطر يتم في إطار وحدة تنظيمية تجمعهم وفي نطاق الالتزام بمخطط استراتيجي واحد يستهدف أن تكون غاية النضال الاشتراكي، ليس الاستيلاء على السلطة في كل قطر على حدة وتطبيق الاشتراكية فيه، ولكن إلغاء الوجود المستقل لكل قطر وإقامة دولة الوحدة الاشتراكية. وطبيعي أن الالتزام الاشتراكي بتحقيق الوحدة سيكون ذا أثر إيجابي على تخطيط البناء الاشتراكي المقبل، لأن مصادر الإنتاج وأدواته وعلاقاته ومشكلات البناء الاشتراكي في دولة الوحدة لن تكون جمعاً حسابياً لمصادر الإنتاج وأدواته وعلاقاته ومشكلات البناء الاشتراكي في الأقاليم، بل ستكون متميزة نوعياً عنها، بحيث إن التخطيط الاشتراكي في دولة الوحدة سيكون مغايراً نوعياً لمجموع الخطط الاشتراكية في الأقاليم منفصلة.

على ضوء هذا نستطيع أن نرى أن تصور الوحدة بعد نمو البناء الاشتراكي في كل قطر على حدة تصور غير واقعي لأسباب كثيرة منها ما يتصل بضرورة الوحدة ذاتها، إذ عندما يستقر في أذهان الاشتراكيين والجماهير في كل قطر أن الحياة الاشتراكية الأفضل قابلة للتحقق في ظل التجزئة، فإن الوحدة العربية ستفتقد المبرر الحياتي لها وتكون الدعوة إليها غير واقعية، ومنها أن نمو البناء الاشتراكي على أساس التجزئة سيقيم مجتمعين منفصلين حتى لو كانا اشتراكيين. ولما كان البناء الاشتراكي صياغة اجتماعية إيجابية لإمكانيات المجتمع وعلاقاته، فإن تنمية هذه الصياغة على أساس التجزئة ستجعل التحامها أكثر صعوبة لما يقتضيه الالتحام من إعادة الصياغة الاجتماعية الشاملة لإمكانيات المجتمع الموحد وعلاقاته، بحيث تصبح الدعوة لإعادة النظر أو تعديل أو إلغاء ما تم بناؤه في كل من القطرين تمهيداً للوحدة بينهما دعوة صعبة القبول. إن كل ما يستطيعه الاشتراكيون الوحدويون هو إسقاط الاستغلال في الأقطار العربية ووضعها على طريق التحول الاشتراكي وتحقيق ما يمكن تحقيقه من المنجزات الاشتراكية، كل هذا مع مراعاة التزامهم القومي بألا يكون البناء الاشتراكي عقبة في سبيل الوحدة. وهذا يقتضي الوعي، وتوعية الجماهير على أن حياة الرخاء والحرية المتكافئة مع إمكانيات أمتهم العربية لن تتحقق إلا في ظل الوحدة، ثم أن يخططوا للبناء الاشتراكي في أي قطر على أساس أنه سيكون جزءاً من دولة الوحدة الاشتراكية، وأخيراً أن يسرعوا بإقامة دولة الوحدة

الاشتراكية ليتم البناء الاشتراكي منذ البداية على أساسه الصحيح. إن جمهورية ألمانيا الديمقراطية تفعل هذا في تخطيطها الاشتراكي فتدخل في حسابها دائماً احتمالات عودة الوحدة الألمانية. ذلك هو الأسلوب الواقعي، وبدونه سيرى الاشتراكيون الإقليميون ما بنوه منفصلاً وقد عدله الاشتراكيون الوحدويون أو ألغوه لحساب إقامة الاشتراكية على أسس قومية، ذلك لأنه إذا كنا لا نقبل الوحدة الرجعية فإنا لا نقبل أن نبيع دولة الوحدة بالاشتراكية الإقليمية. ثم إن الواقع دليل الواقعية، وقد بدأ التحول الاشتراكي في أكثر من قطر عربي، فهل قربت الوحدة بينها أو تأخرت؟

س ٧: لماذا كانت الدراسات القومية في الوطن العربي التي تدور حول فكرة الوجود القومي وعلاقته بالتقدم الاشتراكي غير كافية لإقناع باقي الاشتراكيين؟ هل لعجز هذه الدراسات عن الإقناع أم لأن باقي الاشتراكيين لا يريدون أن يقتنعوا ربما لأن لهم ارتباطات غير قومية؟

ج ٧: الواقع أننا نرى أن موقف الاشتراكيين غير مبرر علمياً. غير مبرر علمياً أن نلتزم بالنضال الاشتراكي في «الأقاليم» أو «في العالم أجمع»، ونقفز فوق الوجود القومي مع التسليم بأنه موجود، إذ لا أحد من الاشتراكيين ينكر الوجود القومي (الأمم). وقد ذكرنا أسباباً عدة لهذا الموقف منها الجمود العقائدي، ومنها الرجعية العربية التي ترفع شعارات القومية. ولسنا نريد أن نقول إن الارتباطات غير القومية سبب يضاف لأننا لا نريد أن نتهم أحداً بالخيانة بدون أن تكون الأدلة الحاسمة على هذه التهمة متاحة. وإنما نضيف ما قد يكون سبباً مؤثراً وهو أن أغلب القيادات الاشتراكية في الوطن العربي من المثقفين الذين يجزعون من متاعب النضال القومي فيهربون منه إما إلى الإقليمية ومتاعب النضال فيها محدودة، أو إلى الأممية ومتاعب النضال فيها صورية. ولكنا نعتقد أن الفشل الإقليمي سيكون المدرسة التي تعلمهم ـ بعد أن يدفعوا ثمن الفشل ـ أنهم لا يستطيعون الإفلات من انتمائهم القومي، وأنهم لا يختارون المتاعب على هواهم، فلا بد لهم من أن يقبلوا مواجهة متاعب النضال التقدمي كما تطرحها الظروف الموضوعية. والظروف الموضوعية في الوطن العربي تطرح متاعب ذات سمات وأبعاد وعلاقات قومية أمام كل الاشتراكيين سواء أرادوا هذا أم لم يريدوه. إن هذا هو حكم التاريخ الذي صاغنا أمة عربية واحدة.

٣ ـ لماذا تكونت الأمم؟

س ٨: إن سؤالي ذو شقين:

الشق الأول: لقد كانت المجتمعات القبلية في صراع دائم في ما بينها، وكانت لكل قبيلة أهداف مختلفة ومتناقضة، وربما كان تكوين الأمم نتيجة سيطرة مجموعة من القبائل على مجموعة أخرى أو غزو أحد الشعوب لشعوب أخرى. فكيف يمكن القول إطلاقاً بأن

الوجود القومي كان حلاً تقدمياً بالنسبة إلى جميع المجتمعات التي تكوّن منها بدون تفرقة بين المجتمعات المسيطرة والمجتمعات المقهورة؟

الشق الثاني: إن الحديث عن الوجود القومي أو الأمة ككل، وتقدمها ككل، فيه تجاهل لدور الصراع الطبقي كحقيقة محركة للتقدم. والصراع الطبقي يفترض انقساماً طبقياً يستحيل معه الحديث عن المجتمع ككل.

ج ٨: عن الشق **الأول**: إن الوقائع صحيحة أو غير مستبعدة. ففي المجتمعات السابقة على الطور القومي كان الصراع على أشده، وكان كل مجتمع يحاول أن يفرض سيطرته على المجتمعات الأخرى. ويمكن أن نستنتج أن المجتمعات الأخرى كانت في أغلب الحالات تقاوم السيطرة المفروضة عليها. ونقول اختصاراً للجواب إن كل ذلك هو ما نسميه الأحداث التاريخية التي تكونت الأمم خلالها. ثم نضيف هذه النقاط المتتابعة.
بصرف النظر عن تقديرنا نحن للأهداف التي كانت تحرك الصراع القبلي لا بد أن كل قبيلة كانت تستهدف، من الصراع هجوماً أو دفاعاً، حياة أفضل لها، أي انه كان صراعاً اجتماعياً غايته تقدمية من وجهة نظر كل أطرافه، انتهى بسيطرة مجموعة من القبائل أو شعب من الشعوب على باقي المجموعات أو الشعوب الأخرى، وكان ذلك حلاً تقدمياً بالنسبة للقوى المسيطرة، وهو ما لا يمكن زعمه بالنسبة للقوى المغلوبة التي لا شك أنها كانت ترفض القهر ولو خفية وتحاول الثورة عليه واستئناف الصراع متى استطاعت. وقد استطاع كثير من المجتمعات القبلية أن يثور ويصبح غالباً بعد أن كان مغلوباً. واستغرق ذاك الصراع حقبة تاريخية طويلة سبقت التكوين القومي وأسهمت فيه. خلال تلك الحقبة التاريخية الطويلة كان يوجد دائماً طرف ثالث يظهر من حين إلى حين ويفرض الهدنة والتحالف بين المتصارعين. ذلك هو العدو المشترك في شكل قبائل أخرى أو شعب آخر.
المهم أن ندرك أنه خلال الصراع كان التفاعل الاجتماعي بين المجتمعات المتصارعة لا يتوقف وكانت تنمو بين المجموعات المتصارعة في رقعة جغرافية تتسع وتتقلص وتتحدد رويداً خصائص ومصالح مشتركة تميزها عن مجموعات أخرى. كل هذا والصراع الذي أصبح داخلياً يبرز إلى الأمام كلما غاب الخطر الخارجي. ويصل الأمر بعد تراكم الخصائص والمصالح المشتركة إلى أن يصبح الصراع داخل الوحدة هو الحل التقدمي الذي يتفق مع أهداف جميع المتصارعين، أي يصبح هدف الصراع دائراً حول كيفية التعايش في إطار وجود مشترك بدلاً من كيفية الخروج من هذا الوجود المشترك. وبينما يستمر الصراع على وجه لا يخفي ميراثه القبلي تكون الأمة قد بدأت في التكوين، ويدل على هذا إعادة إرجاء الصراع الداخلي في مواجهة العدو الخارجي الذي يُعتبر عندئذ عدواً قومياً، تواجهه الأمة التي في طور التكوين بقوى موحدة وقيادة موحدة. ونتعلم من النصر الذي تحققه أن وحدتها القومية كانت حلاً لمشكلة الأمن التي يعجز عنها كل جزء منفرداً. وفي ظل هذا الأمن يقدم لها الوجود القومي أفضل الإمكانيات لتحقيق الحياة الأفضل اجتماعياً، وتقدم لها الأرض المشتركة المادة الموحدة التي تشكل منها حياتها. كل هذا مع استمرار

الصراع الاجتماعي، ليس بين القبائل في هذا الطور، ولكن بين القوى ذات الأهداف الاجتماعية المختلفة والمتناقضة، وإن كانت كل منها تعتبر أن أهدافها تمثل الحياة الأفضل بالنسبة إلى الأمة ككل.

من هذا ندرك الحقيقة الكامنة وراء التكوين القومي، وهي عجز المجتمعات السابقة عليه عن حل مشكلاتها منفردة بصرف النظر عن أسباب هذا العجز التي لا بد أن تختلف من جماعة إلى جماعة. إن مجرد كون التكوين القومي يتضمن مقدرة فرضت ذاتها كبديل عن هذا العجز يعني أنها طور أكثر تقدمية من الطور السابق عليها.

الشق الثاني: لعل الإجابة عن الشق الأول أن تكون قد أوضحت أن الوجود القومي لا ينفي الصراع الاجتماعي داخل الأمة. هذا الصراع الاجتماعي حقيقة غير منكورة وهو ما يسمى أيضاً بالصراع الطبقي. ولسنا نرى أن في الحديث عن الأمة ككل، وتقدم الأمة ككل، تجاهلاً للصراع الطبقي، لأننا ننطلق في موضوع الصراع الاجتماعي أو الصراع الطبقي من مسلمة أولى نستطيع أن نصوغها كما يلي: إن الوحدة الموضوعية والتأثير المتبادل للمشكلات في أي مجتمع تعني أن الحل التقدمي لهذه المشكلات جميعاً، في زمان محدد، في مجتمع محدد، حل واحد محدد موضوعياً بصرف النظر عن مدى صحة معرفة الناس به. وينقسم الناس عادة قسمين كبيرين في موقفهم من هذا الحل الموضوعي. قسم يتبنى ويناضل من أجل تحقيق هذا الحل التقدمي الذي يكون قد عرفه من خلال إدراكه الصحيح للمشكلات الاجتماعية وتأثيرها المتبادل وحلولها العلمية. أولئك هم التقدميون، الذين وإن كانوا قسماً من المجتمع إلا أنهم يمثلون مصلحة المجتمع ككل. أما كيف أدركوا إدراكاً صحيحاً المشكلات الاجتماعية وتأثيرها المتبادل وحلولها العلمية فذلك أمر قد تختلف الطرق إليه من أول البحث العلمي إلى آخر تجربة الحياة وممارستها، وإن كانت تجربة الحياة وممارستها تكون المدخل العريض لهذه المعرفة حيث يعي الذين يعانون مشكلات الحياة ضرورة التغيير الاجتماعي حتى تحل مشكلاتهم، ويكون ذلك حافزاً لهم على البحث عن حلول تقدمية لمشكلاتهم، ذلك البحث الذي يكتمل لهم من خلاله عنصر المعرفة بمصالحهم المشتركة في التقدم وضرورة النضال الاجتماعي من أجل تحقيقه. في مواجهة هذه القوى التقدمية التي تتحول بالتحامها في نضال منظم إلى طبقة، تقوم القوى الرجعية التي تلتحم لحماية مواقعها لتكوّن طبقة أيضاً. والرجعية قسم من المجتمع ينتمي إليه الرجعيون تحت تأثير عوامل عدة، منها الرغبة في الاستغلال، أي استغلال قوى المجتمع الذي ينتمون إليه لمصلحتهم الخاصة. ومن هنا لا يمكن أن يقال عن هذه الشريحة المستغلة من الرجعيين إنها تمثل المجتمع ككل لأنها لا تستهدف تقدم المجتمع ككل، بل إنها مع معرفتها بأن مصالحها الخاصة مناقضة للحل التقدمي الذي يجسد مصلحة المجتمع ككل، تختار مصالحها الخاصة وتقف موقفاً عدائياً من المجتمع. غير أن هناك شريحة أخرى تقف موقفاً رجعياً، ضد الحل التقدمي لأنها تجهل حقيقة المشكلات الاجتماعية أو تأثيرها المتبادل أوحلولها العلمية، فلا تتبنى الحل التقدمي ولا تناضل من أجله وقد تعوقه أو تقف ضده استجابة

لتصوراتها الخاطئة. موضوعياً، هي رجعية بصرف النظر عن حقيقة مصالحها التي تجهل علاقتها بالتطور التقدمي، وموقفها لا يمثل مصلحة المجتمع ككل بل يمثل مصلحتها هي ذاتها كما تتصورها تصوراً خاطئاً.

وبين التقدميين والرجعيين، يستمر الصراع الاجتماعي في شكل قوى منظمة تحاول كل منها أن تحقق أهدافها، أي يستمر الصراع الطبقي. ومهما تكن أسباب الرجعية فلا يمكن إلا أن تكون الأهداف التقدمية مجسدة لمصلحة المجتمع ككل في المجتمع المعين والمرحلة التاريخية المحددة التي يدور فيها الصراع، وهي أهداف كسبت سمتها التقدمية من استجابتها للواقع الاجتماعي ككل وليس من هوى أصحابها. وهذا هو الذي يؤمن النصر للتقدميين في نهاية المطاف بالرغم من ضراوة الرجعية، ومن هنا ثقة التقدميين بالنصر. لكل هذا فإنا إذا كنا نستطيع بحق الحديث عن نشاط الرجعية من أجل مصالحها الطبقية، فإنا لا نستطيع أن نقول نفس الشيء عن نضال التقدميين الذين يمثلون ـ من حيث هم تقدميون ـ مصلحة المجتمع ككل، حتى المصلحة الحقيقية للقوى النسبية، أو لتلك القوى التي لا تعرف كيف تحدد موقفها من الصراع الطبقي تحديداً سليماً فتنحاز إلى الرجعية جرياً وراء مكاسب مؤقتة، أو تحت تأثيرات ميتافيزيقية بالرغم من أن مصلحتها الحقيقية في الحل التقدمي الذي تجهله أو تعوقه أو تعاديه.

س ٩: إن تفسير «الأممية» بأنها انتماء إلى مجتمع إنساني واحد متوقع بعد آلاف السنين تفسير غير صحيح ومخالف لمفهوم الأممية التي تعني وحدة الطبقة العاملة في الوقت الحالي وفي المستقبل في مواجهة الإمبريالية العالمية. فإلى أي حد تكون «الأممية» بهذا المفهوم الصحيح متفقة أو مناقضة للدعوة القومية؟

ج ٩: صحيح أن «الأممية» تعني وحدة الطبقة العاملة في الوقت الحاضر وفي المستقبل في مواجهة الإمبريالية العالمية. ولكن هذه مواجهة ذات غاية تتجاوز القضاء على الإمبريالية إلى إقامة مجتمع إنساني موحد. وعلى هذا فإن تحليل الموقف الأممي يسفر عن معطيات ثلاثة: **الأول** أنه تحالف بين الطبقات العاملة ضد الإمبريالية العالمية المتحالفة. وهذا الموقف مبرر بالدفاع عن النفس لأن محركه الخطر المشترك الذي يجسده العدوان الامبريالي، وهو مقبول بدون حاجة إلى مبررات فكرية أو فلسفية أخرى. والمعطى **الثاني** أنه تطلع إلى بناء مجتمع إنساني موحد، وهذه غاية تبعد عن عصرنا آلاف السنين، ومع أنها أمنية إنسانية جميلة إلا أنها لا تصلح محوراً للالتقاء أو الالتزام النضالي الذي يستهدف تغيير الواقع إلى ما هو أفضل منه وأكثر تقدماً بما يعنيه ذلك من التحام بالواقع ذاته حتى يمكن تغييره. المعطى **الثالث** الذي لم يشر إليه السؤال مع أنه موضوع الحديث أن الأممية مطروحة كموقف مناقض للقومية، مع أن الوجود القومي واقع معترف به، والرابطة القومية حقيقة تشد الناس ولا يمكن تجاهلها. والأممية هنا «مثالية» من حيث إنها تتجاهل الواقع الموضوعي وتحاول أن تصوغ علاقات نضالية تقفز من فوقه، ولا شك في أن الزعم بأن مصالح الطبقة العاملة في العالم كله واحدة زعم غير صحيح. إنه يفترض

المساواة بين الأمم من حيث التحرر والتقدم الاقتصادي. وهذه فرضية غير صحيحة. إن العاملين في كل الأمم يكافحون ضد الطبقات المستغلة بقصد استرداد مصادر الإنتاج وأدواته من أيديهم وتحويلها إلى ملكية اجتماعية يكون لكل عامل فيها نصيب متكافئ مع ما يعمل. ولكن وراء هذا حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهلها، هي أن مصادر الإنتاج وأدواته وكل الثروات التي يراد إعادة توزيعها توزيعاً عادلاً في بعض الأمم المتقدمة هي في الأصل ثروة مغتصبة بالاستعمار من أمم أخرى. إن هذا هو المبرر الرئيسي لما نلاحظه من أن المستوى المعيشي الذي يثوّر العمال في إحدى الدول لأنه أقل مما يستحقون، هو ذاته يتجاوز بمراحل أحلام العاملين في أمم أخرى. تلك هي الحقيقة التي أفزعت «جيفارا» فثار ثورته العميقة ضد استغلال «المجتمعات المتقدمة» للمجتمعات المتخلفة بدون تفرقة بين اشتراكيين وغير اشتراكيين. إن هذا يعني في ما يهمنا أن التراث التاريخي الذي جعل مصلحة العاملين في كل أمة محددة بمشكلات التقدم كما تطرحها ظروف الأمة التي ينتمون إليها وليس بالمستوى العالمي لمعيشة العاملين، يحول دون الإدعاء بوحدة المصلحة بين العمال في جميع أنحاء الأرض إلى درجة تجعل من الانتماء إلى «العمل» بديلاً عن الانتماء إلى الأمة. غير أن هذا ذاته لا يعني أن ليس بين العاملين في كل الأمم مصلحة مشتركة كتلك التي أشرنا إليها وهي إسقاط الإمبريالية العالمية المتحالفة. إن تلك مصلحة تفرض عليهم أن يتحالفوا ضد عدوهم المشترك. كما أن للعاملين في بعض الأمم مصالح مشتركة قد لا تكون عالمية، كمصلحة العاملين في المجتمعات المستعمرة في أن تتحرر مجتمعاتهم. وهكذا نرى أنه انطلاقاً من أن القومية هي الرابطة الأصل، يخوض العاملون التقدميون في كل أمة معاركهم الداخلية ضد الاستغلال، ويشاركون مع العاملين في أمم أخرى معاركهم ضد العدو الإمبريالي المشترك دون أن يفقد أي منهم هويته القومية.

٤ ـ النظرة القومية

س ١٠: أ ـ إذا كانت الإقليمية رجعية فاشلة كما سمعنا، فكيف يمكن تفسير الإنجازات التحررية التي حققتها الدول العربية المتحررة بالرغم من أنها إقليمية؟

ب ـ وما الرأي في فشل دولة الوحدة التي قامت في سنة ١٩٥٨ حتى في المحافظة على وجودها؟

ج ١٠: أ ـ عن التحرر:

إن القاعدة التي ذكرناها هي أن فشل الإقليمية لا يعني أن كل دولة إقليمية عاجزة تماماً عن أن تحقق نجاحات محدودة بما تستطيع، ولكن يعني تماماً أن ما تحققه أقل بكثير مما كان يتحقق للشعب فيها في ظل دولة الوحدة الاشتراكية والديمقراطية حيث يكون مدى التقدم ومعدله متكافئين لا مع مقدرتها الذاتية ولكن مع الإمكانيات العربية المتاحة وهي بالغة الوفرة.

ومع ذلك فلننظر إلى المنجزات التي حققتها بعض الدول العربية وعلى المستوى الذي

يختاره الإقليميون عادة للجعجعة، وهو مستوى التحرر، الذي يظنون أن قد وصلوا إليه في ظل الإقليمية بجلاء الجيوش المحتلة. إنا نخطئ خطأ ساذجاً إذا اعتقدنا أن جلاء الجيوش الأجنبية أو إجلاءها يعني التحرر تلقائياً. إن عصر الاستعمار بالبطش الظاهر ينحسر عالمياً، وتسحب الدول الاستعمارية قواتها من مناطق عديدة لمجرد توفير نفقاتها، وهي لا تفعل هذا متخلية عن مصالحها ولكن حافظة لتلك المصالح بأساليب أخرى أقل تكلفة واستفزازاً من الجيوش المقاتلة. ولا شك في أن بعض الدول العربية قد استفادت من ذلك التحول التاريخي فجلت عنها الجيوش، وأتاحت لها الفرصة لرفع أعلام الاستقلال ودق طبوله والحصول على مقعد مريح في هيئة الأمم المتحدة. غير أن التجربة لم تلبث أن أثبتت لنا أن الاستعمار الجديد، الخفي، الاقتصادي والثقافي، ليس أقل ضراوة وتخريباً من الاستعمار المسلح السافر. ذلك لأن التحرر من الاستعمار ليس منتهى غايات الشعوب بل هو بدايتها. فبرفع السيطرة الأجنبية عن الوطن وإمكانياته المادية والبشرية، يبدأ المستقلون في تحمل مسؤولية بناء الحياة التقدمية الأفضل التي هي المعادل الحقيقي لتضحيات معارك التحرير. ولن يتحقق لهم هذا إلا بأمور ثلاثة: **أولها** ـ الأمن، أي حشد كل الإمكانيات والجهود والقوى وتخطيط استخدامها من أجل بناء حياة أفضل للجماهير التي قاست طويلاً في ظل الاحتلال الأجنبي، بدون خوف من عودة السيطرة الأجنبية، أو بدون حاجة إلى اقتطاع نسبة عالية من الإمكانيات المحدودة لرد، أو ردع، محاولات احتلال أخرى. ولا نريد أن نشير إلى أمثلة متعددة، بل يكفي أن نقول إن أكثر الدول العربية جديةً في رغبة التقدم الاقتصادي لم تترك سنة واحدة متصلة بدون تهديدات، أو إغارات، أو حصار، أو حرب، وإن قدراً متفوقاً من طاقاتها كان وما يزال مسخراً من أجل دفع أو رد محاولات الاعتداء على استقلالها بالرغم من أنها كسبت معركة الجلاء. معركة التحرر إذن لم تنتهِ لأن الأمن الكافي للتفرغ لبناء الحياة الحرة لم يتحقق. وإنها لمأساة حقاً أن تكون حياة الجماهير تضحيات متصلة بلا نهاية معروفة، تضحي من أجل الاستقلال ثم تستمر في التضحية في معارك الحفاظ على الاستقلال بدون انقطاع يسمح لها بأن تجني ثمار هذا الاستقلال. إن هذا الأمن اللازم لبناء الحياة غير قابل للتحقق إلا في داخل الوحدة العربية القادرة على تصفية العدوان مرة واحدة وإلى الأبد، وفرض احترام حريتها على كل مغامر، وتجنيب احتياطي للدفاع يكفي للردع ولا يؤثر على المقدرة على الإنتاج، ثم التفرغ بالقدر الأكبر من إمكانياتها لعملية بناء الحياة الأفضل. أي إن الإقليمية التي قد تستطيع أن تكسب معركة جلاء الجيوش الأجنبية عن أرضها تجد نفسها فاشلة في وضع حد نهائي لمحاولات العدوان وتوفير الأمن اللازم لتفرغها لبناء الحياة. فهي ــ في جملة قصيرة ــ عاجزة عن النصر النهائي في معركة التحرر. الأمر **الثاني** ـ الذي لا يتم النصر في معركة التحرر بدونه هو هزيمة وتصفية الاستعمار الجديد. وجوهر الاستعمار الجديد هو التبعية الاقتصادية للدولة المسيطرة. إن الدول العربية تنتمي إلى العالم الثالث. فهي دول متخلفة اقتصادياً أو نامية. وهي في حاجة ملحة إلى أن تضاعف مقدرتها الإنتاجية بمعدل من السرعة يعوض سنوات التخلف. وفي هذا تحتاج

ـ بالإضافة إلى الجدية في العمل ـ إلى أكبر قدر من معدات وخبرات الدول المتقدمة. وهي إما أن تكون قادرة على دفع ثمنها الاحتكاري الفادح لكي تحصل عليها بدون شروط أو تبعية، وإما أن تدفع من ثمنها ما تستطيع ثم توفي باقي الثمن قبولاً لشروط صريحة أو ضمنية، معلنة أو خفية، تضعها موضع التابع للدولة البائعة المعدات الشارية الحرية. وتلك هي النافذة التي يعود منها الاستعمار الجديد بعد أن كانت جيوش الاستعمار القديم قد غادرت من أبواب الموانئ. ولقد وقعت بعض البلاد العربية ـ الخالية من الجيوش الأجنبية ـ في براثن الاستعمار الجديد، وباعت الاستقلال الذي دفعت ثمنه من دماء الشهداء بالارتباطات المالية والاقتصادية التي فرضتها عليها الدول الاستعمارية. فهل تحررت أم خانت الحرية؟ لم تتحرر ولم تخن بل فشلت في تحقيق النصر النهائي في معركة التحرر، ولن تستطيع أن تحققه إلا في ظل دولة الوحدة، القادرة بمواردها الوفيرة على أن تشتري من المعدات والخبرات ما تحتاجه للتقدم الاقتصادي، بثمنه الفادح، بدون أن تبيع حريتها. وعندما نرى مستوى الحياة في كثير من البلاد العربية التي جلت عنها الجيوش الأجنبية متردياً، أو متوقفاً، أو يحبو مثقلاً بالديون والالتزامات الخارجية، فيجب أن ندرك أن الإقليمية التي قد تتقدم حبواً، فاشلة في التقدم وثباً، لأن التقدم وثباً لا يتحقق لها إلا بالإمكانيات العربية التي ترفع عنها أثقالها، ثم تكفي، وأكثر، للتنمية الاقتصادية في الوطن العربي كله، بعيداً عن شرك الاستعمار الجديد الذي يختفي وراء الأموال، والمعدات، والخبرات والمعونات. الأمر **الثالث** ـ الذي لا يكتمل النصر في معركة التحرر إلا به هو أن تشعر الجماهير التي أذلها الاستعمار سنين طويلة بأن قيودها قد تحطمت يوم أن استقلت، وأنها تعيش في بلادها المتحررة حياة حرة لا ذل فيها ولا خوف ولا قهر ولا استبداد. فهل تحطمت قيود الجماهير العربية بعد الجلاء ورفع أعلام الاستقلال ودقّ طبوله؟ إن الرجعية لا تزال تفرض عليها القهر الاقتصادي وتذلها قبل أن تسمح لها بالحصول على لقمة العيش التي تحفظ الحياة من الموت، وتقبض على الناس من أمعائهم حتى يركعوا لها أو يسجدوا أو يموتوا جوعاً. والجماهير العربية تتفرج على نظم العبودية والإقطاع في القرن العشرين، ويحتمي الظالمون من غضبتها، وثورتها، وراء حق الدول المستقلة في ألا يتدخل أحد في شؤونها الداخلية، والتزام الدول «المستقلة» بألا تتدخل في شؤون غيرها. ثم ما بين وعود الحرية والرخاء والتقدم تبذل للجماهير برعونة غير معقولة، وبين عجز الدول الإقليمية فعلياً عن تقديم إمكانيات تحقيق الوعود المبذولة، انزلقت بعض الحكومات العربية الى الدكتاتورية المستبدة تفرض بها على الجماهير الصمت والصبر والمذلة لتغطي فشلها الذي لا مفر منه ما دامت تعد بما هي غير قادرة على تحقيقه في ظل الإقليمية. فهل كسبت الجماهير النصر النهائي في معركة التحرر؟ إنها لن تكسبه إلا في دولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية التي إن تعد فهي قادرة على الوفاء بوعدها، فهي لا تخشى الجماهير وفي غير حاجة إلى أن تفرض عليها الصمت والصبر والمذلة.

ثم، أخي، أليس من المغالطة أن نتحدث عن الإنجازات التحررية في ظل الاحتلال الصهيوني.

ب ـ عن وحدة ١٩٥٨:

بقي الجانب الاستفزازي من السؤال الذي يقول: «ما الرأي في فشل دولة الوحدة التي قامت سنة ١٩٥٨ حتى في المحافظة على وجودها؟». ومصدر الاستفزاز فيه أنه يوحي بأن الوحدة التي قامت بين سوريا ومصر سنة ١٩٥٨ قد فشلت في كل مجال «حتى» في المحافظة على وجودها. ولسنا نريد أن نستجيب للاستفزاز فنعدد مكاسب الشعب العربي في ظل ثلاث سنوات من الوحدة، بل نتجاوزه إلى الجانب البناء من السؤال وهو الخاص بالفشل في المحافظة على وجود دولة الوحدة. ذلك لأن وحدة ١٩٥٨ لم ينصفها كثير من أصدقائها وكل أعدائها.

لقد قامت دولة الوحدة سنة ١٩٥٨ بين مصر وسوريا تجسيداً لرغبة شعبية عربية عارمة لا شك فيها. ثم وقع الانفصال سنة ١٩٦١ بدعم وتأييد وتخطيط القوى الاستعمارية والصهيونية. لم يعد هذا محل شك أيضاً خاصة بعد أن انكشفت كثير من المخططات العدوانية التي مهدت لحرب ١٩٦٧. ولم يعد أعداؤنا أنفسهم ينكرون أنهم بدأوا الإعداد للحرب والتدريب على خططها منذ أن قامت الوحدة، وأن الانفصال كان الخطوة الأولى في تنفيذ تلك المخططات. وهذا بشطريه يدل على أن الوحدة كانت خطوة تقدمية مستجيبة لآمال الجماهير العربية من ناحية، ومضادة للمصالح الاستعمارية والصهيونية من ناحية أخرى، أي انها بمقياس تحرري تقدمي كانت خطوة إلى الأمام، وإن الانفصال كان ردة رجعية. إن هذا لا ينفي أنه إذا كانت الجماهير العربية قد انتصرت في سنة ١٩٥٨ فقامت دولة الوحدة، فإن هذه الجماهير ذاتها قد انهزمت في سنة ١٩٦١ ففقدت الوحدة الوليدة. كل هذا صحيح. إنما الخطأ الجسيم إن كان بحسن نية، أو التخريب المجرم إن كان متعمداً، هو القول بأنه ما دامت الجماهير العربية قد انهزمت في سنة ١٩٦١ فإن وحدتها سنة ١٩٥٨ كانت خاطئة: إن هذا حكم ببراءة القوى الامبريالية والصهيونية والانفصالية العميلة من جريمة التآمر والعدوان على الأمة العربية. وهي دعوة انهزامية إلى التنازل عن أهدافنا حتى لا ننهزم. وقياساً عليه يصح قول الانهزاميين والخونة من أنه ما دمنا قد انهزمنا ثلاث مرات من إسرائيل فإن رفضنا الوجود الاسرائيلي خاطئ. لقد تردت مجموعات من أكثر المثقفين العرب ادعاء للعلمية وللتحررية وللتقدمية، بل وللقومية أيضاً، في هذا الخطأ الجسيم يوم أن راحت بعد الانفصال تحاكم وتدين وحدة ١٩٥٨ بدلاً من إدانة الإمبريالية والصهيونية. إن هذا الموقف الخاطئ خطأ جسيم قابل للتكرار في كل جولة لا ننتصر فيها من معاركنا الطويلة، ولن تكون كل جولات معاركنا انتصاراً وإن كان حتماً علينا أن ننتصر في النهاية.

في إطار هذا الإدراك لمعركة وحدة ١٩٥٨، التي حققت فيها الأمة العربية أروع انتصار في تاريخها المعاصر، ومنيت فيها أيضاً بأفدح هزيمة، لا ننكر بأن وقوع الانفصال واستمراره دليل غير قابل للنقض على أن القوى التي تصدت لحمل مسؤولية الدفاع عن وجود دولة الوحدة قد فشلت في الوفاء بمسؤولياتها. ولقد قيلت عشرات التبريرات

لذلك الفشل، منها ما وصل إلى حد المهاترات الرخيصة. ونحن لا نعيدها ولا نرد عليها. إنما نقصر الحديث على ثلاثة أسباب أساسية نعتقد أنها مجتمعة قد كانت وراء الفشل في الحفاظ على دولة الوحدة من حيث إنها سهلت للقوى المعادية إنجاز غايتها المجرمة:

الأول: إن وحدة سنة ١٩٥٨ قامت واستمرت حتى انفضت وحدة «انفصالية»، أي معدة وجاهزة موضوعياً للانفصال. فقد تمت وحدة الرئاسة، ووحدة الحكومة، ووحدة مجلس الأمة، أي تناولت الوحدة الإطار السياسي، ثم بقي الإقليمان منفصلين جماهيرياً (في كل منهما تنظيم سياسي مستقل وتنظيمات مهنية ونقابية مستقلة) واقتصادياً (لكل منهما مصادر إنتاج مستقلة، وخطة اقتصادية مستقلة، وذمة مالية مستقلة، ونقد مستقل، وميزان تجاري مستقل، وميزان مدفوعات مستقل، ومخصصات للخدمات مستقلة، وجهاز إداري مستقل) وعسكرياً (لكل منهما جيش مستقل من أبنائه خاصة) ودولياً (لكل منهما علاقات، واتفاقات تجارية خارجية مستقلة)... الخ. لقد قيل قبيل الوحدة وأثناءها، وبعد الانفصال، إن القوى الوحدوية قد استعجلت الأمور وقفزت إلى طموح غير واقعي لأنها اختارت الوحدة، وإن الاتحاد كان أفضل من الوحدة. قال هذا نفس أولئك الذين عرفنا من قبل أنهم أكثر الناس ادعاء للعلمية وللتقدمية وللقومية أيضاً. وفي العراق أريقت الدماء في معارك بين أنصار «الوحدة» ودعاة «الاتحاد» وكانت «وحدة» ١٩٥٨ نموذج القياس في أذهان الطرفين. وقد تجاهل دعاة الاتحاد، الرافضون لوحدة ١٩٥٨ بحجة أنها التحام كامل لا تطيقه الظروف الاقليمية، أن وحدة ١٩٥٨ لم تكن «وحدة» ولا كانت «اتحاداً». كانت شيئاً يشبه ـ وإن كان أقل التحاماً ـ الاتحاد الكونفدرالي. كانت اشتراكاً في حكومة مختلطة بين دولتين مستقلتين جماهيرياً واقتصادياً ومالياً وتجارياً وعسكرياً. ولم يكن ذلك الوضع قابلاً للحياة طويلاً، فإما وحدة حقيقية وإما انفصال. وبينما قنعت القوى المسؤولة عن الحفاظ على الوحدة بالخطوة الشكلية التي تحققت ولم تنشط في تصفية آثار التجزئة وملء الإطار السياسي الموحد بمحتوى اقتصادي واجتماعي وعسكري واحد، نشطت القوى الإمبريالية والصهيونية وعملاؤها الانفصاليون للقضاء على الوحدة وهي في أضعف أشكالها. وهكذا لم يتطلب انفصال إقليم من دولة أكثر من بيان في الإذاعة، وهو ما لا مثيل له في التاريخ. ولم يواجه الانفصاليون أية متاعب، من أي نوع، فبمجرد إعلان الانفصال وجدوا بين أيديهم دولة مجهزة ومعدة للانفصال.

لماذا؟ لأن الإقليمية الخائفة على مصالحها الخاصة، الداعية إلى الوحدة كطريق إلى مكاسب جديدة تضاف إلى مكاسبها في أقاليمها، أذعنت لوحدة الإطار السياسي ولكنها حالت دون الالتحام الجماهيري والاقتصادي والعسكري حتى لا تفقد مواقعها القيادية أو مصالحها السياسية أو سيطرتها العسكرية. فهل فشلت دولة الوحدة أم خربتها الإقليمية؟

الثاني: إن وحدة ١٩٥٨ لم تكن تجسد آمال الجماهير العربية، وتشكل خطوة تقدمية لمجرد أنها وحدة بين مصر وسوريا، بل لأنها دولة الوحدة النواة، التي قامت على أنقاض

دولتي مصر وسوريا. ودولة الوحدة «النواة» لا تتميز بعدد الأقاليم التي تقوم عليها، ولكن بأنها قاعدة الثوريين العرب ومنطلقهم إلى تصفية الإقليمية وإقامة دولة الوحدة العربية الشاملة. وهي لا تكون كذلك إلا برفض التجزئة وعدم التردد، أو التوقف عن استرداد مزيد من الأرض العربية إلى أن تنمو الدولة النواة وتصبح دولة الوحدة. فإن توقفت وارتضت حدودها الجديدة، فقد انقلبت إلى دولة إقليمية ـ وإن كانت قائمة على رقعة أوسع من ذي قبل من الوطن العربي ـ وإن كانت تضم قطرين أو أكثر ـ وقد توقفت وحدة ١٩٥٨ عند حدود الإقليمين، أو نقول تجمدت، فتحولت إلى دولة إقليمية كبيرة. ولما كانت الإقليمية فاشلة ولو تجسدت في دولة كبيرة، فقد فشلت في الحفاظ على وجودها.

من الذي فشل؟ ليس دولة الوحدة العربية النواة التي هتفت لها الجماهير العربية سنة ١٩٥٨، بل الدولة الإقليمية التي كانت قائمة على إقليمي سوريا ومصر سنة ١٩٦١. أما لماذا فشلت، أي لماذا انقلبت دولة إقليمية؟ فلأن القوى الإقليمية الخائفة على مصالحها الخاصة، التي تدعو إلى الوحدة من منطلق إقليمي باعتبار أن الوحدة قد تحمل إليها مجالات أكثر اتساعاً للاستغلال، كانت حريصة في تجربتها الوحدوية الأولى على أن تنتظر حتى تستوثق مما إذا كانت التجربة قد حققت لها مكاسب تغري بمزيد من الوحدة، أو لم تحقق.

الثالث: هو أن وحدة ١٩٥٨ قامت بتأييد عارم لا شك فيه من جانب الجماهير العربية في كافة أنحاء الوطن العربي، ولكن في غيبة التنظيم القومي الثوري الذي يصنع طلائع تلك الجماهير، ويقودها، فيحقق الوحدة بقوتها على وجه يجسد قوميتها شكلاً ومضموناً، ويبقي على الوحدة نواة لدولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية التي يستهدفها، ويدافع عن الوحدة حتى الموت كما يدافع الثوار عن قواعدهم.

إن هذا السبب أولى بانتباه الشباب العربي لأنه كامن وراء السببين الأولين وإن كان أكثر منهما شمولاً. أما أنه كامن وراء السببين الأولين فذلك لأن وجود التنظيم القومي الثوري كان كفيلاً بسحق الإقليمية التي أبقت وحدة ١٩٥٨ معدة للانفصال حتى انفصلت وحولت دولة الوحدة النواة إلى دولة إقليمية ففشلت. أما أنه أكثر منهما شمولاً فذلك لأنه كامن وراء كل الهزائم التي أصابت الأمة العربية حتى هزيمة ١٩٦٧، وسيكون كامناً وراء أية هزيمة تصيب الأمة العربية حتى في ساحة «المقاومة»، إلى أن يقوم التنظيم القومي الثوري ويتولى مسؤولية قيادة الجماهير العربية ضد أعدائها، في كل الساحات، على الطريق إلى دولة الوحدة الاشتراكية والديمقراطية.

لا شك في هذا أبداً.

ومن هنا ندرك أنه حتى لو لم تكن المقاومة إلا أفضل المداخل المتاحة لبناء التنظيم القومي، وحتى لو لم يستطع أبطال المقاومة إلا أن يساهموا، ويسهلوا، مولد التنظيم القومي، فقد حققت المقاومة وحقق أبطال المقاومة الشيء الجوهري الذي تفتقده أمتهم

العربية، ووضعوا قدمها على أول طريق النصر، وانعطفوا بالتاريخ العربي انعطافة جديدة ظافرة لا شك في أنها ستؤثر تأثيراً عميقاً في اتجاه التاريخ البشري المعاصر.

٥ ـ حقيقة الموقف

س ١١: تقول إن الغزو الصهيوني قد وقع بتأييد من الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، أفليس أكثر مطابقة للحقيقة أن نقول إن هناك غزواً إمبريالياً للوطن العربي يستعمل الصهاينة أداة له في تحقيق أغراضه على أساس أن إسرائيل ليست إلا أداة تابعة، وقاعدة للإمبريالية؟ إني أرى أن هذا التحديد يساعدنا على فهم عدونا الأساسي في معركة تحرير فلسطين.

ج ١١: إن إسرائيل، والحركة الصهيونية، حليفة للإمبريالية العالمية وليست أداة لها. إن كلاً منهما ذات استقلال فكري وتنظيمي وحركي، ولكل منهما استراتيجيته الخاصة. الحركة الصهيونية حركة عنصرية رجعية نشأت في وسط أوروبا، ثم تحالفت مع الاستعمار البريطاني، ثم نقلت تحالفها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تبعاً لانتقال مركز القوة الدولي، بقصد تحقيق غايتها الخاصة وهي إقامة دولة يهودية من الفرات إلى النيل. فهي حركة غزو استيطاني يستهدف أرضاً محددة. أما الإمبريالية العالمية فهي تحالف رأسمالي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية حالياً غايته فرض سيطرته المالية والاقتصادية على إمكانيات العالم ونهب ثروات الأمم، أو تسخيرها لما يتفق مع تحقيق مزيد من الرخاء والقوة في الدول الاستعمارية. وبالرغم من الاختلاف في مضمون العدوان، ومدى شمول الاستراتيجيا العدوانية، في كل من الحركة الصهيونية والامبريالية العالمية، إلا أنهما حليفتان متفقتان في ما يتعلق بالوطن العربي على وجه التحديد. الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تستهدف إبقاء العالم العربي في حالة تخلف وتبعية اقتصادية فتحول بكل قوة دون وحدته. ويحقق لها هذا ويضمنه عزل المشرق العربي عن المغرب العربي بكيان غير عربي. والصهيونية تستهدف إقامة الدولة اليهودية في ذات المكان الذي يعزل المشرق العربي عن المغرب العربي ويجعل وحدته أكثر صعوبة. فمع اختلاف المبررات أصبح الوجود الاسرائيلي في قلب الوطن العربي يحقق لكل من العدوين غايته، فتحالفا. والإمبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تستهدف استنزاف الإمكانيات العربية في حروب دفاعية والإعداد العسكري لها وهو اقتطاع من قواها المنتجة لتبقى متخلفة ـ بينما تدبر الصهيونية منذ عشرات السنين الحروب العدوانية ضد الأمة العربية لتستولي على الأرض التي تريد أن تقيم عليها الدولة اليهودية. فمع اختلاف المبررات أصبح العدوان الاسرائيلي المتجدد على الأمة العربية يحقق لكل من العدوين غايته فتحالفا. والتحالف يعني التعاون وتبادل الخدمات في إطار الأهداف المشتركة. إن هذا قد يبدو غير ذي قيمة عملية ما دمنا نواجه الإمبريالية والصهيونية معاً. ولكننا نعتقد أنه ذو قيم عملية خطيرة. **أولها** أن الاعتقاد بأن الصهيونية أداة للامبريالية قد يؤدي إلى الاعتقاد الخاطئ بأن مساومة الولايات المتحدة الأمريكية ستؤدي إلى أن تسحب قاعدتها الصهيونية من فلسطين وتكف عنا أداتها

إسرائيل. وهو وهم عشنا فيه ردحاً من الزمان يوم أن كنا نفاوض انكلترا لتكف عنا الحركة الصهيونية ظناً بأنها أداتها. ثم إن هذا الاعتقاد قد يؤدي إلى تغطية الاغتصاب الصهيوني للأرض العربية لو انقطعت صلة إسرائيل الدولة بالولايات المتحدة الأمريكية عن طريق تولي الاتجاهات التي يقال لها يسارية، سلطة الحكم في إسرائيل. وهو وهم يداعب خيال كثير ممن يسمون أنفسهم تقدميين في الوطن العربي أو خارج الوطن العربي. ومهما تكن ضآلة فرصة تولي بعض العناصر من أدعياء التقدمية في إسرائيل للحكم، فإن موقفنا يجب أن يكون محدداً من الآن بأننا لا نقبل اقتطاع جزء من وطننا العربي ولو سكنته الملائكة. إن رفضنا للوجود الاسرائيلي قائم على حقنا في فلسطين ولا يتأثر حقنا هذا بنوع النظام الاجتماعي في مجتمع الغاصبين ولا بسياساتهم الداخلية أو الدولية. ثاني أوجه الخطورة في تجاهل الاستقلال داخل التحالف الإمبريالي الصهيوني أن الاعتقاد المضاد بأن الإمبريالية أداة مسخرة للصهيونية يخفي عنا الدور الإيجابي، ذا الغايات البعيدة، للعدوان الإمبريالي الذي يتم ـ مرحلياً ـ في إطار تحالفها مع الصهيونية. ثم إنه يؤدي إلى نتيجة مفزعة هي الاعتقاد بأن هزيمة الصهيونية وتحرير فلسطين سيكون نهاية معاركنا ضد الامبريالية باعتبار أن الامبريالية لم تدخل المعركة ضدنا إلا كأداة للصهيونية. وهذا وهم ضيق الأفق. إن معاركنا ضد الامبريالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ستستمر وستكون أكثر ضراوة عندما نواجهها مباشرة بعد أن نكون قد صفينا الوجود الاسرائيلي في فلسطين.

لهذا، فنحن أمام عدوين متحالفين، ولسنا أمام عدو واحد يتخذ من الآخر مجرد أداة له ليست ذات أغراض عدوانية خاصة.

س ١٢ : ما المقصود على وجه التحديد من القول بأن الغزو الصهيوني موجه إلى الوطن العربي بدلاً من القول بأنه موجه ضد الدول العربية عامة، أو بمعنى أصح ضد الدول العربية التقدمية؟

ج ١٢ : المقصود الكشف عن حقيقة هي أن الغزو الصهيوني موجه إلى الوطن العربي وليس إلى الدول العربية أو أي دولة عربية بالذات، إذ الواقع أنه عندما رسم الصهاينة حدود الأرض التي يريدون غزوها والاستيطان فيها وإقامة الدولة اليهودية عليها لم تكن هناك أية دولة عربية فقد كان الوطن العربي كله تحت السيطرة التركية. ثم إنه لما أن خطط الاستعمار الغربي حدود الدول العربية القائمة حالياً، لم تغير الصهيونية مخططاتها مراعاة لأية دولة ناشئة. أما عن استهدافها الدول العربية المسماة تقدمية فإنه غير صحيح أيضاً. فإن الصهيونية غزت الأرض العربية في ظل الاحتلال البريطاني، وتوسعت سنة ١٩٤٨ بينما كانت الدول العربية تابعة للاستعمار تحكمها الرجعية، واستولت على خليج العقبة سنة ١٩٥٦ في معركة مع مصر المتحررة التي لم تتحول اشتراكياً، ثم أضافت أرضاً جديدة سنة ١٩٦٧ مقتطعة من ثلاث دول مختلفة من حيث نظام الحكم أو النظام الاجتماعي. ذلك هو المخطط الصهيوني التوسعي.

وهذا لا ينفي أنه عندما وجهت الصهيونية ضربتها الأولى إلى الأمة العربية كانت الضربة غزواً لبعض أرض فلسطين، وأنها كلما توسعت أصابت ضرباتها دولة أو أكثر من الدول العربية، لأن الواقع الفعلي أن الوطن العربي الذي تحاول الصهيونية الاستيلاء على جزء منه مقسم بين الدول العربية. كما لا ينفي أيضاً أن الصهيونية عندما توقت وتختار معاركها التوسعية المرحلية تستهدف تحقيق أمرين معاً: **الأمر الأول** الاستيلاء على مزيد من الأرض. **الأمر الثاني** ضرب أية قوة أو أي اتجاه نام قومياً أو تقدمياً قبل أن تكتمل له المقدرة على حماية نفسه ضد مراحل التوسع المقبلة أوَ قبل أن تكتمل له المقدرة على توجيه ضربة مضادة. ولا شك في أن الاتجاهات التقدمية القومية في بعض البلاد العربية تمثل خطراً مقبلاً على مخطط التوسع الصهيوني. كما لا شك في أن دخول الجماهير العربية غير المنتمية سياسياً إلى أية دولة عربية يمثل اتجاهاً بالغ الخطورة على الوجود الاسرائيلي ذاته. ومن هنا كانت الضربات الاسرائيلية توجه إلى هذه القوى النامية لتأمين مقدرة إسرائيل على مزيد من التوسع. ويمكننا أن نضيف إلى هذا عاملاً لا شك في أهميته، وهو أنه انطلاقاً من معرفة الحركة الصهيونية أنها كانت دائماً، وما تزال، وستظل عاجزة عن تحقيق أغراضها منفردة وبقوتها الذاتية، فإن استراتيجيتها قائمة على أساس التحالف المستمر مع مركز القوة العالمية الذي كان ألمانيا الإمبراطورية فتحالفت معها، ثم انكلترا فتحالفت معها، ثم الولايات المتحدة الأمريكية فتحالفت معها. والتحالف يتضمن تبادل الخدمات والمساعدات. ومنذ سنة ١٩٥٦ كانت مصر عدواً صلباً للاستعمار الأمريكي، لأنها لم تقبل عودة النفوذ الأمريكي إلى الشرق العربي بديلاً عن النفوذ البريطاني الذي ساعدت أمريكا على هزيمته في سنة ١٩٥٦ لتحلّ محله. وقد حاولت الولايات المتحدة أن تحل محل بريطانيا بكل الطرق، من أول المساعدات الاقتصادية إلى آخر الحصار الاقتصادي. وعندما تحققت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ تأكدت الولايات المتحدة الأمريكية بأن طريقها إلى المشرق العربي لا يمكن أن يقوم إلا على أنقاض الاتجاه القومي الذي يدفع الدول العربية إلى غاية تبدو حتمية هي قيام الوحدة الشاملة. حينئذ بدأ التخطيط الأمريكي لضرب هذا الاتجاه وتصفيته، واتخذ التخطيط هدفاً له عزل الجمهورية العربية المتحدة عن العالم العربي وعن قضاياه. فكان الانفصال خطوة أولى، ثم التهديدات المستمرة للإقليم الشمالي، ثم تحرك القوات من الإقليم الجنوبي تعبيراً عن موقف التأييد لسلامة الإقليم الشمالي، وإذا بها تواجه خططاً هجومية جاهزة منذ زمن بعيد لتصفية قواتها العسكرية بمجرد استدراجها إلى الحدود. ثم وقعت المعركة التي استهدفت الصهيونية من ورائها أرضاً جديدة كجزء من خطتها التوسعية، واستهدفت الولايات المتحدة الأمريكية من ورائها تصفية انفتاح مصر على العالم العربي. وإن كنت تشك في هذا فلعلك قد سمعت أن الولايات المتحدة الأمريكية عرضت، ولم تسحب عرضها، بأن تعيد سيناء إلى الجمهورية العربية المتحدة في نظير أمر واحد هو أن تنفض الجمهورية العربية يدها من القضايا العربية.

إذن فالغزو الصهيوني يستهدف أصلاً الوطن العربي، بدون توقف على وجود أو

عدم وجود الدول العربية، أو على حدودها، ونظم الحكم فيها، أو ما إذا كانت تقدمية أو رجعية. أما شق الطريق إلى هذا الهدف فيصطدم بالدول القائمة على الأرض التي يستهدفها الغزو سواء كانت رجعية أو تقدمية. أما المعارك فتدور ضد القوى التي تعترض الطريق أو قد تقطعه في المستقبل. أما استهداف الجمهورية العربية المتحدة بالذات فلأن عزل مصر عن الوطن العربي يمثل هزيمة ساحقة للحركة القومية. وعندما تهزم الحركة القومية يصبح الوطن العربي، بما فيه مصر، لقمة سائغة للإمبرياليين الأمريكيين.

س ١٣ : ألا تكشف الإجابة عن السؤال السابق حقيقة الخطأ الذي تكرر في المحاضرة وهو الحديث عن الدول العربية كما لو كانت متساوية في الموقف القومي، أو الموقف التقدمي، أو الموقف من فلسطين، بحجة أنها ما دامت كلها إقليمية فكلها فاشلة؟ هل يصح بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة مثلاً ما يصح بالنسبة لتونس؟

ج ١٣ : أرجو أن يكون واضحاً أننا عندما نتحدث عن الدول، أو الدولة، نتحدث عن مؤسسة سياسية ذات مضامين فكرية واقتصادية وسياسية خاصة. وهي ذاتها شخص اعتباري (معنوي) خاص متميز عن الأشخاص الذين يعملون في أجهزته. هذه الدول، المؤسسة، شخص من أشخاص القانون الدولي ملتزمة به في حركتها الخارجية في مواجهة الدول الأخرى. وهذه الدولة، المؤسسة، شخص من أشخاص القانون الداخلي ملتزمة به في حركتها الداخلية في مواجهة الشعب الذي تضمه. وهذه الدولة المؤسسة، محدودة المقدرة بإمكانياتها الخاصة، وهي في الوقت ذاته حائل دون أن يستفيد الشعب من أية إمكانيات غير إمكانياتها الخاصة. إنها ساحة النشاط الاجتماعي وهي في الوقت نفسه حدود هذا النشاط. ونحن عندما نقيم الدول العربية على حقيقتها كدول، ولكن من وجهة نظر قومية، أي على ضوء المقارنة بين ما نستطيع أن نقدمه إلى الشعب العربي فيها من إمكانيات التقدم، وبين ما يمكن أن يحصل عليه هذا الشعب نفسه من إمكانيات في ظل دولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية، نقول إنها فاشلة لأنها إقليمية. وهذا يصح بالنسبة إلى جميع الدول العربية.

أما مقارنة الدول العربية في ما بينها فشيء آخر. إنها تختلف مساحة وعدداً وثروات وإمكانيات ونظاماً وحكاماً وقادة. وفي هذا لا تستوي دولة مع دولة أخرى. ولا يعنينا الآن أن نصوغ جدولاً مقارناً لحركة التقدم في الدول العربية. إنما الذي يعنينا تماماً أن نفسر ذلك الاختلاف بين الدول العربية في مواقفها من القضايا القومية. قد يبدو عسيراً على الفهم أن نقول مثلاً عن الجمهورية العربية المتحدة إنها دولة إقليمية، في ذات الوقت الذي نقول فيه إن اتجاهها القومي حقيقة تزعج الاستعمار إلى درجة التحالف مع الصهيونية لتصفية هذا الاتجاه بالقوة المسلحة. إن انفتاح مصر على أمتها العربية كان في ذاته نصراً قومياً فكيف تحقق في ظل الاقليمية؟ ودعم ثورات التحرر في الجزائر وفي اليمن وفي كل مكان من الوطن العربي، حركة قومية، ولا نقول مجرد موقف، فكيف تمت في ظل الإقليمية؟ وإذا كانت الانتصارات القومية قابلة للتحقق في ظل الدولة

الإقليمية، ومن خلالها، فلماذا نتهم الإقليمية بالفشل؟

أسئلة مكررة، ومبررة.

ومع هذا لننظر معاً إلى البدهيات. والبدهية الأولى أن القوى القومية التقدمية التي تجسد الحركة القومية تعيش وتمارس نشاطها الفكري والسياسي في ظل تجزئة وطنها العربي إلى دول إقليمية متعددة. ويحكم القيود الإقليمية على التحامها وشمول نشاطها الوطن العربي كله، يتجه هذا النشاط إلى تحقيق أكبر قدر من التقدم تسمح به الإمكانيات الإقليمية مع محاولة كسر القيود الإقليمية الممثلة في الدولة ودستورها وحدودها وقانونها ومحاكمها وسجونها للالتحام بالقوى القومية التقدمية الأخرى التي تفعل نفس الشيء في دول عربية أخرى.

ثم يأتي الموقف من سلطة الحكم في الدول الإقليمية.

عندما تكون الدولة في قبضة قوى إقليمية، تبدو الإقليمية منسجمة مع ذاتها ودولتها، وهنا ينكشف دورها الفاشل الرجعي العميل ونكون أمام نموذج خاص [. . .]. هناك الدولة الإقليمية التي يحكمها الإقليميون حيث تسحق القوى القومية التقدمية بقسوة ووحشية، وحيث تتآمر الدولة علناً مع الاستعمار ومع الصهيونية أيضاً، وتبرر تآمرها بفكر تنسجم إقليميته مع رجعيته. ولكن الأمر ليس على هذا الوجه في كل الدول العربية، إذ إن القوى القومية التقدمية ليست قوى سلبية أو ضعيفة، بل حدث ويحدث أن يتولى قادة لا شك في أن اتجاههم القومي التقدمي مسؤولية الحكم في دولة إقليمية. هنا يقوم الصراع الذي لم يرد في كتب الفقه الدستوري أو فقه كتاب الصراع الاجتماعي. قيادة لا تؤمن بالدولة الإقليمية تصبح هي ذاتها صاحبة الدولة الاقليمية، قيادة لا تؤمن بشرعية التجزئة، ومع هذا تحتكم إلى الشرعية الإقليمية في تعاملها الدولي. قيادة تؤمن بوحدة الأمة العربية ومع هذا تجد نفسها مضطرة إلى معاملة أبناء هذه الأمة معاملة الوافدين الأغراب. قيادة تؤمن بوحدة الإمكانيات العربية، ومع ذلك تجد نفسها مضطرة إلى الدخول في سباق المنافسة بين دول التجزئة. قيادة تؤمن بأن التقدم لا يقوم على أساس التجزئة ومع ذلك تحاول حل المعادلة الصعبة في الإقليم بينما المعادلة لا تُحل إلا في ظل الوحدة. والصراع دائم بين الاتجاه القومي وقيود الإقليمية التي تشده إلى الوراء: قيود الدستور والقانون والالتزامات الدولية. ووراء هذا صراع اجتماعي لا يتوقف بين القوى القومية التقدمية التي تقف وراء الاتجاه القومي الذي تمثله القيادة، وبين القوى الإقليمية ذات المصالح التي تجسدها الدولة. وقد سحق هذا الصراع المرير بعض الحكام الذين وقعوا في شرك الحكم الإقليمي، فإذا بهم من خلال تراكم وتبرير تصرفاتهم اليومية، من أول تفتيش عند الحدود إلى وعود العدالة الاجتماعية، يجدون أنفسهم وقد أصبحوا إقليميين تحت شعار التقدمية. ومنهم من أراد أن يغطي هزيمته التي يشعر بها شعوراً قوياً فاتجه إلى مزايدات قومية، أو تقدمية، وهو أول من يعلم أنها غير قابلة للتحقق. ومنهم من صمد للصراع الذي لم يحسم بعد. هنا تستطيع القيادة القومية أن

تدفع بالدولة إلى معارك التحرر بجرأة وحسم برغم الإقليمية، لأن المجاهرة بالرغبة في الانسحاب من معارك التحرر تكشف ارتباط الإقليمية بالاستعمار، فهي توافق علناً وتنقد سراً وتبحث عن مخرج غير متهم من متاعب التحرر العربي. ولكن عندما تطرح قضية الوحدة لا تقبل الإقليمية أن تلغى دولتها، فهي تقبل التعاون والتحالف والوقوف في صف واحد. . . الخ، ولكنها لا تقبل الوحدة. ولما تمت الوحدة نتيجة لعلاقة قامت بين القواعد والقيادة متخطية الدولة، كانت الإقليمية بالمرصاد فلم تترك فرصة واحدة لإضعاف الوحدة وإعدادها للانفصال.

إن هذا يعني أن ما يتحقق في اتجاه قومي عن طريق الدول العربية إنما يعبر عن مرحلة انتصار للقيادة القومية التقدمية في صراعها ضد دولتها الإقليمية، ولكن انحسار هذا الاتجاه من حين إلى حين يدل على أن الصراع لم يحسم، وهو لا يحسم ما دامت الدولة الإقليمية قائمة، لأن قابلية الدولة الإقليمية للاستجابة لمتطلبات النضال القومي محدودة، ومن هنا فهي أداة فاشلة في النهاية. فكيف يمكن الخروج من هذا المأزق، أي كيف يمكن أن تحكم القوى القومية التقدمية دولة عربية بدون أن تتحول هي إلى قيادة إقليمية؟ بالتنظيم القومي الثوري، الذي يرشح لها حكامها وتبقى قيادته بعيدة عن سجن الإقليمية، قادرة على أن تواصل نضالها القومي إلى أن تكسب أرضاً جديدة فتقيم دولة الوحدة النواة.

ألم نقل إن التنظيم القومي الثوري هو الأداة الوحيدة الصالحة لحل مشكلات القوى القومية؟

٦ ـ المقاومة من وجهة نظر قومية

س ١٤: أ ـ كيف يمكن القول إطلاقاً بأن الدول العربية كانت وما تزال وستظل، منفردة أو متحالفة، غير قادرة على تحرير فلسطين لأن تحرير فلسطين يقع خارج نطاق أهدافها في حين أنه يمكن لقوة قومية تقدمية في مكان السلطة أن تستهدف تحرير فلسطين وأن تسخر قوى الدولة ذاتها لهذا التحرير؟

ب ـ ثم أليست إسرائيل دولة قائمة على أصغر الأقاليم العربية، فلماذا انتصرت؟

ج ١٤: أ ـ أما عن مقدرة الدول العربية على تحرير فلسطين فقد قلنا إنها عاجزة ما دامت «إقليمية» لأن الإقليمية هي مصدر الفشل، وما دامت الدولة إقليمية فإن أية قوة قومية تتولى السلطة لن تجد من بين أهداف دولتها مسؤولية تحرير أرض تعتبرها الدولة الإقليمية أرضاً أجنبية. فالقوة القومية التي تتولى السلطة في أية دولة عربية لن تستطيع أن تُدخل في أهداف دولتها تحرير فلسطين إلا إذا رفضت التجزئة العربية واعتبرت أنها دولة قومية. وهذا يعني أن ترفض وجود دولتها الإقليمية ذاتها وتحيلها إلى دولة وحدة نواة. والدولة تتحول إلى دولة وحدة نواة عندما تصبح قاعدة الثوريين العرب ومنطلقهم إلى تحرير الأرض العربية في كل مكان وإسقاط الإقليمية في أي مكان أيضاً. فإن استطاعت

القوة القومية التي تتحدث عنها أن تفعل هذا، تكن قد سحقت دولتها الإقليمية قبل أن تستطيع أن تخطو خطوة واحدة خارج حدودها.

ب ـ أما عن إسرائيل فهي ليست دولة على إقليم يمكن مقارنته بأية دولة عربية. إن إسرائيل هي القوة الضاربة التابعة لتنظيم صهيوني عالمي. هو الذي خطط لها، وهو الذي يمولها ويكسب لها الحلفاء والمؤيدين في العالم أجمع، وتتحرك تحت قيادته لكسب مزيد من الأرض تستوعب اليهود جميعاً. والأرض المحتلة ليست إقليماً لدولة إسرائيل بل هي رأس الجسر، أو القاعدة، التي احتلتها الصهيونية لتحشد عليها قوتها الضاربة من أجل مزيد من التوسع. وهكذا نرى أنه عندما نقول إن على المقاومة أن تتحول إلى قوة ضاربة لتنظيم قومي جماهيري ثوري، فإننا لا نبتكر أسلوباً جديداً لقتال الصهيونية، إنما ندعو إلى الأسلوب المتكافئ مع أساليب الأعداء، وعندما تتكافأ الأساليب يكون النصر حليف الأوفر إمكانيات، والأكثر تحملاً لمرارة الصراع، والأعدل غاية.

س ١٥: ما معنى أن المقاومة كأسلوب قتال جماهيري هي مدخل تاريخي لبناء التنظيم القومي؟ هل يعني هذا أنه لا يوجد أي مدخل غيره؟

ج ١٥: نعني بالمدخل أنه أفضل الإمكانيات المتاحة في مرحلة تاريخية محددة.

ولا شك أن دخول الجماهير العربية ساحة القتال المسلح ضد الغزو الصهيوني يقدم أفضل الإمكانيات المتاحة لبناء تنظيم قومي ثوري في الوقت الحالي. ليس معنى هذا أنه لا يوجد أي مدخل غيره، أو أن مصير الأمة العربية متوقف على ما يراه نفر من أبنائها ولو كانوا من أبطال المقاومة. ولكن معناه أن أبطال المقاومة من جهة، والقوى القومية التقدمية من جهة أخرى، أمام فرصة تاريخية يتحملون جميعاً مسؤولية إهدارها. وعندئذ ستبحث الجماهير العربية عن مدخل آخر، ولو كان أصعب. أما ما هو المدخل الآخر، الأصعب، فذاك حوار لا يدور إلا بين الذين يعنون ما يقولون، أي الذين لا يبحثون عن المدخل من قبيل الفضول، ولكن لأنهم لا يقبلون الحياة نفسها إلا في داخل تنظيمهم القومي، أولئك يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه ليجسدوا ولاءهم لجماهير أمتهم بالرغم من كل العقبات والصعوبات.

٧ ـ دعوة إلى القوى العربية التقدمية

س ١٦: ما هو مفهوم التقدمية؟

ج ١٦: أين، ومتى؟

إن التقدمية موقف إيجابي قائم على أسس خمسة:

الأول: الوعي بأن كل شيء في الوجود متحرك متغير أبداً. **الثاني**: الوعي بأن كل شيء متغير متحرك يتقدم من الماضي إلى المستقبل وينمو من خلال الإضافة نمواً جدلياً.

الثالث: الوعي بأن مضمون التقدمية يختلف من زمان إلى زمان في المجتمع الواحد.
الرابع: الوعي بأن مضمون التقدمية يختلف من مجتمع إلى مجتمع في الزمان الواحد.
الخامس: إن التقدمية على هذا الأساس هي التبني الإيجابي للحلول الصحيحة للمشكلات التي يطرحها مجتمع معين في مرحلة تاريخية معينة.

فإن أردت أن تطبق هذا على المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة العربية، فإن المشكلات الرئيسية التي تطرحها الظروف العربية الآن هي الاحتلال والتجزئة والتخلف والاستغلال. وإن حلولها الصحيحة هي الحرية والوحدة والاشتراكية. وعلى هذا يكون مفهوم التقدمية بالنسبة إلينا هو التبني الإيجابي للحرية والوحدة والاشتراكية، معاً.

س ١٧ : إذا كنا لا نعرف كثيراً عن حقيقة المنظمات في الساحة، فكيف عرفنا أنها بكل منظماتها لم تتبلور بعد ــ نهائياً ــ لا فكراً ولا تنظيماً، فهي قابلة للتطوير والتطور؟ إننا نعرف أن أقدم المنظمات في الساحة ذات اتجاهات مبلورة منذ نشأتها ولم تتغير، كما أن بعض المنظمات قد انشقت على أساس عقائدي مما يدل على أنها متبلورة.

ج ١٧ : إننا نعرف ما نقول ومع هذا فإنا لا نعرف كثيراً عن حقيقة المنظمات في الساحة. ربما لأن ضراوة المعركة التي تخوضها المقاومة ضد الصهيونية والإمبريالية وعملائها تحول دون إباحة كثير من أسرار المنظمات. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنا لا نستطيع أن نعوّل على كل ما يقال عن المقاومة لأننا لا نستبعد تدخل القوى المعادية، بطريق أو بآخر، في ما يعلن. ومن بين ما نعرفه أن بعض الشباب العربي قد حددوا مواقفهم النهائية من منظمة أو أكثر على أساس أنها قد تبلورت نهائياً على ما يعرفونه عنها معرفة ممارسة. ونعرف أيضاً أن قيادات بعض المنظمات تتصرف كما لو كانت قد وصلت إلى صيغتها النهائية. ثم نعرف معرفة اليقين أن هذا غير صحيح وأن المقاومة بكل منظماتها لم تتبلور بعد ــ نهائياً ــ لا فكراً ولا تنظيماً. ذلك لأننا نعرف بأن العبرة في المواقف النهائية لا بما يظنه الناس بأنفسهم أو بغيرهم ولكن بملاءمة تلك المواقف للظروف الموضوعية، أي أن طبيعة المعركة ضد الغزو الصهيوني هي التي ستكون العامل الرئيسي في بلورة المقاومة فكراً وتنظيماً. ولما كنا نعرف أن المعركة ضد الغزو الصهيوني معركة قومية تقدمية فإنا على يقين من أن كل المنظمات ــ بدون استثناء ــ ستكون مضطرة إلى تطوير نفسها في اتجاه طبيعة المعركة. إن هذا يمكن أن يتم عن طريق المعرفة العلمية ومن الآن، ولكن تجاهله لا يعني أنه لن يتم، فخلال المعركة الطويلة، وتراكم الخبرات، والمعاناة اليومية للتناقضات، والخيار الملزم بين النصر أو الهزيمة، سيخرج من الساحة كل الذين لا يلائمون طبيعتها ولا تبقى في الساحة إلا المقاومة القومية التقدمية.

س ١٨ : لماذا ترى أن الاتجاه المرتبط ببعض الدول العربية سيخرج من المعركة بمجرد انقضاء مرحلة إزالة آثار العدوان، أي بخروج الدول العربية المرتبطة بها من المعركة

بعد استرداد ما ضاع من أقاليمها في حزيران/يونيو ١٩٦٧، ولا تقدر احتمال بقاء هذه المنظمات في الساحة، وما الذي يمنع من استمرار دعم الدول العربية للمقاومة حتى بعد إزالة آثار العدوان؟

ج ١٨: لأنه عندما تخرج الدول العربية من المعركة تكون ملزمة في مواجهة المجتمع الدولي بأن تكف القوى التابعة لها عن الاستمرار في القتال. فإذا لم تفعل فهي في حرب تتجاوز حدودها أياً كانت صورة القوى التابعة لها، نظامية أو منظمة. ولما كانت الدول العربية تخوض المعركة الآن ـ كما تعلن ـ في سبيل إزالة آثار العدوان وفي حدوده، فإنها كدول «ستكف القوى التابعة لها عن القتال فور إزالة آثار العدوان». وتجد المنظمات التابعة لها حينئذ أن عليها أن تطيع التعليمات الصادرة من القيادة الحقيقية. ومع هذا لنفترض أن المنظمات التابعة لم تطع وتمردت على قيادتها. إنها حينئذ ستجد نفسها بدون قواعد ولا أموال ولا مزيد من الأسلحة وستحاول أن تحصل على ما تريد من الجماهير وليس من الدولة، فتكتشف أنها لم تكن يوماً مرتبطة بجماهير منظمة قادرة على تعويضها إيجابياً عن رابطتها بالدولة التي خذلتها، أي ستفتقد التنظيم القوي القادر على أن يمدها بعناصر المقدرة على الاستمرار، من كل الأقطار بدون توقف على موقف الدولة في أي قطر على حدة. ومع هذا لنذهب إلى أكثر من هذا ونفترض أن بعض الدول العربية ستخرج من المعركة «علناً» ولكن تظل تدعم المقاومة سراً. إن هذا لن يغير من الوضع الدولي شيئاً، فلا أسرار بعيدة عن معرفة أجهزة الدول المعنية بمراقبة جدية خروج الدول العربية من المعركة بعد إزالة آثار العدوان، ثم إن الدعم السري قابل للانقطاع عندما ينكشف. فلا تبقى إذن وسيلة لتأمين استمرار دعم المقاومة بدون تدخل من الدولة أو بدون أن تكون مسؤولة دولياً عن هذا الدعم إلا أن تتولاه جماهير منظمة غير مرتبطة بأية دولة. ذلك هو التنظيم القومي الثوري الذي لا تسأل الدول العربية عن نشاطه لأنه ينشط بعيداً عن أية تبعية لها، بل ينشط بالرغم منها إذا اقتضى دعم المقاومة ذلك.

س ١٩: هل هناك تناقض بين مسؤولية شعب فلسطين عن تحرير فلسطين، وبين مسؤولية القوى القومية التقدمية عن تحرير فلسطين؟

ج ١٩: لا تناقض أبداً إلى أن تتحرر فلسطين. ولا خلاف أيضاً إذا كان المقصود هو أن شعب فلسطين مسؤول عن تحرير فلسطين كجزء من مسؤولية القوى القومية التقدمية عن تحرير فلسطين. ولكن الخلاف يقوم إذا كان المقصود أن شعب فلسطين وحده ـ دون القوى القومية التقدمية ـ مسؤول عن تحرير فلسطين لأنه وحده صاحب الحق في فلسطين، فهي وطنه. إن في هذا عزلاً للجماهير العربية عن معركة تحرير فلسطين، أو تمهيداً لعزلها. وهو ما لا تقبله الجماهير العربية. أما كيف يمكن التفرقة بين الشعار بمفهومه الأول والشعار بمفهومه الثاني. فمن خلال ما تمثله المنظمات ذاتها، فالمنظمة القومية ستكون مفتوحة للجماهير العربية، بما فيهم العرب من فلسطين، بل قد يكون غالبية قواها من عرب فلسطين. لا شيء يمنع من هذا. وهكذا يتحقق الشعار بمفهومه

الثاني وبدون خلاف. أما إذا كان الشعار مجسداً في منظمات مقصورة على العرب من فلسطين قيادةً وكوادر وقواعد، فكراً واستراتيجيا وحركة، فإن سمتها الاقليمية تحول دون إمكان أي تأويل قومي للشعار. وقد قلنا منذ البداية ألا تناقض إلى أن تتحرر فلسطين، ونضيف هنا أن هذا التناقض لا يقوم حتى مع وجود الخلاف، لأن التناقض مولد للصراع، والخلاف تمييز لا يقتضي الصراع. ومن وجهة نظر قومية نرى أن التحالف، وليس الصراع، بين الإقليمية الفلسطينية وبين القوى القومية واجب قومي إلى أن يتحقق النصر على العدو المشترك وتتحرر فلسطين لنرى بعد هذا لمن تكون الأرض التي تحررت.

س ٢٠: إن الجماهير العربية كلها ـ وكما هو ثابت ـ تؤيد وتدعم المقاومة بدون وجود للتنظيم القومي، فلماذا التركيز على ضرورة هذا التنظيم القومي كشرط لانتصار المقاومة؟

ج ٢٠: لأن المفروض، بعد الهزائم التي لحقت بنا، أن نحاول النظر إلى أبعد من أنوفنا. إن الجماهير العربية كلها ـ وكما هو ثابت ـ تؤيد وتدعم المقاومة لأن المقاومة مباحة ولأن تأييد الجماهير العربية لها مباح. مباح مؤقتاً لأن الدول العربية في حاجة إلى المقاومة. وسيظل مباحاً طالما هي في حاجة إليها. ونحن ننظر إلى ما بعد هذا. عندما تصبح المقاومة غير مشروعة، ويعود حمل السلاح جريمة معاقباً عليها، ويعود النضال الجماهيري نشاطاً «هداماً»، عندئذ سيتوقف مصير المقاومة على ما إذا كانت قد ارتبطت تنظيمياً بالجماهير العربية أم لا، لتستطيع قيادتها في الوقت المناسب، أن تحركها ضد محاولات تصفية المقاومة ذاتها أو تحريم التأييد والدعم الجماهيري لها. إن ما هو ثابت اليوم لن يظل ثابتاً غداً إلا أن نقيم من اليوم دعامة تثبيته في كل الظروف إلى أن تنتصر المقاومة. وليس سوى التنظيم القومي الثوري دعامة موثوقة تستند إليها قوته الضاربة في ساحة المقاومة.

س ٢١: إذا كانت الدول العربية قد حالت وتحول دون قيام تنظيم قومي ثوري، أفلا تؤدي محاولة إقامته إلى فتح معارك جانبية داخل تلك الدول وضدها، وهذا يناقض ما تدعو له من ضرورة التحالف ضد العدو المشترك حتى مع الدول العربية التي تواجه إسرائيل وتعد للقتال؟

ج ٢١: إن الأساس العقائدي للجواب هو أن الولاء أولاً وأخيراً للجماهير العربية. وعندما نقتنع بأن قيام التنظيم القومي ضرورة لازمة لانتصار أمتنا، فيجب إقامة التنظيم القومي سواء رضيت الدول العربية أم لم ترضَ. إن الثوريين حقاً لا يستأذنون أحداً عندما يريدون الوفاء بمسؤولياتهم الثورية. والقوميون لا يستأذنون الإقليمية. ومع هذا فإن الوعي القومي على ضرورة تجنب أية معارك مع حلفاء المعركة يحتم على القوى القومية ألا تتحرك إلا في الحدود التي تسمح بها ظروف التحالف من أجل المعركة. إن هذا يؤثر في صيغة الحركة وليس في ضرورة التحرك. وظروف التحالف من أجل المعركة

لا تسمح الآن بإقامة تنظيم قومي يتعرض لانقضاض الإقليمية ويضطر للدفاع عن نفسه في معارك جانبية. ولكنها ملائمة تماماً للإعداد الفكري والبشري من خلال المعركة ذاتها. لهذا كانت دعوتنا إلى تكوين كتائب «الأنصار». وكتائب «الأنصار» كما نفهمها وندعو لها ليست التنظيم القومي ولكنها حركة قومية تعبئ الجماهير من أجل الانتصار في المعركة وتدعم التحالف العربي، وتحول دون الاستسلام أو المساومة، وتسحق القوى العميلة والانهزامية، وتحرض على القتال، ثم تقاتل فعلاً في ساحة المقاومة، في صفوف قوتها الضاربة بقدر ما تستطيع وبقدر ما تحتاج قوتها الضاربة إلى دعم بشري. وأمام «الأنصار» ساحة بعيدة فعلياً عن يد الإقليميين. وأمامهم حاجة الدول العربية ذاتها إلى دعم الجماهير المنظمة. كل هذه ظروف تمثل أفضل الإمكانيات لإعداد الكوادر الثورية، التي صقلتها المعركة ذاتها، ولكنها ظروف موقوتة بمرحلة إزالة آثار العدوان. وهذا يعني أن على «الأنصار» أن يلتحموا في تنظيم قومي قبل أن تنقضي هذه المرحلة ليستطيعوا أن يؤمنوا للمقاومة إمكانيات الاستمرار في القتال.

بقي أن نقول إن أية دولة عربية تحول دون إسهام الجماهير إسهاماً منظماً في المعركة ضد الغزو الصهيوني، تكون هي بذاتها قد خرجت على قاعدة التحالف من أجل المعركة. وتكون الجماهير العربية مطالبة بأن تتعامل معها بالأسلوب الذي يناسب موقفها.

من حركة المقاومة الفلسطينية

إلى حركة المقاومة العربية(*)

عبد الله عبد الدائم

كان السؤال دوماً وأبداً: كيف نعبئ الطاقة العربية الكبيرة؟ مئة مليون عربي أو يزيدون، ولكنهم غثاء كغثاء السيل. ورقعة مبسوطة من المحيط إلى الخليج، ولكنها أشبه بالسفينة التائهة يتقاذفها الموج من كل جانب. وثروات مادية وبشرية نادرة، ولكنها حرام على أهلها، حلال للطير من كل جنس. ووراء السؤال تثوي حقائق مرة عديدة:

أولها، أن الجهد العربي ـ الممتد خلال قرابة نصف قرن ـ لم يفلح، ولم يجد بعد طريقه. ولعله إن قسناه بما أصابه زمان الناس من تقدم، يسير قدماً إلى خلف. وإن قسناه بالتحديات المصيرية التي يواجهها، لم نسرف إن قلنا إنه جهد يعمل لينهزم ويتحرك ليفشل.

وثانيها، أن قدرة هذا الجهد على تجاوز ذاته، ما تزال تبدو محدودة، رغم الهزات القاصمة. فالبنية المريضة لم تثبت بعد عزمها على الشفاء واستعدادها لمقاومة الداء. والذي يبدو منها يشير في معظمه إلى أنها تكاد تستسلم لقدرها، بل تكاد تؤمن بأن المصير الأسوأ لا بد آتيها. إن ما تُحدّث به أشبه بما يحدّث به إنسان مصاب بـ«عصاب المصير» على حد تعبير بعض علماء النفس ـ يؤمن دوماً بمصير بشع ملاقيه، فيسعى إليه بظلفه، ويحفر حتفه بأنفه.

ثالثها، أن هذا الجهد لم يستطع بعد أن يكتشف موطن العلة فيه، ولم تعلمه الأحداث حقيقة أمره. إنه في معظمه يزداد إمعاناً في العلة كلما أقعدته تلك العلة، ويلتمس الدواء في الداء، لفرط ما ألف الداء. قد يهب لجهوده أسماء جديدة، وقد يلبسها أثواباً جديدة، ولكن ما هو عتيق عتيق من أساليب الفكر والعمل ما يلبث حتى

(*) نُشر في: مواقف، السنة ٢، العدد ٨ (آذار/مارس ـ نيسان/ابريل ١٩٧٠)، ص ٢٩ ـ ٤١.

يبرز من خلال الظاهر القشيب.

تلك هي الحقائق المرة الراسخة، وما سواها كذب على النفس وعلى الآخرين، وخداع نسلو به ونتسلى. قيل الشيء الكثير في وصف العلة وفي تشخيصها، ولكن العلة باقية، بل هي ممعنة في البقاء مستشرية. ذلك أن الأمر ليس أمر تحليل العلة فحسب، وليس مجرد الكشف عن أدواء الجهد العربي، بل هو أمر تحريك الوجود العربي الساكن، والقضاء على العطالة المزمنة في هذا الوجود. ألفُ دليل عقلي لا يعدل اليوم عملاً واحداً منظماً يحرك طرفاً من ذلك الكيان الجامد. هنالك هوة قائمة بين الفكر والعمل لا بد من تجاوزها. إن الفكر يصل إلى طريق مسدود إن لم يسعفه عمل يهب له معناه وقيمته. ولكن المسألة كل المسألة ههنا: كيف يكون العمل المنظم القادر على تحريك الجثة الهامدة؟

أولاً: مسلَّمتان وراء أي عمل عربي ناجح

منطلق هذا العمل في نظرنا مسلمتان:

الأولى أن المصدر الأول الأساسي للطاقة العربية هو أن تكون هذه الطاقة فعلاً عربية. أمل الوجود العربي الوحيد في التغلب على الوجود الصهيوني الدخيل نابع من هذه الحقيقة: لن تستطيع أمة مصطنعة حلت في قلب أمة عريقة الجذور، أن تقضي على هذه الأمة ما دامت تشعر بأنها واحدة الكيان واحدة المصير واحدة الإرادة. شيء واحد يتيح لتلك البذرة الدخيلة أن تنبت وتمتد، هو تفتت الكيان العربي وتشتت الشعور العربي، وزوال الرابطة التي تشد أبناء الأمة العربية بعضهم إلى بعض. لهذا تجهد الصهيونية منذ وجدت لتقضي على ذلك الوجود العربي المتماسك وتحيله بشتى الوسائل كياناً ممزقاً متصارعاً، ولتجعل منه في النهاية ـ فيما ترجو ـ دويلات لا يقوم بينها أي شعور بأواصر القربى وروابط المصير، إن لم يقم بينها العداء والصراع. وشيء واحد يحقق للوجود العربي القدرة على التقدم والثورة في شتى جنبات حياته، هو أن ينطلق عمله في سبيل التقدم والثورة من خلال صيغة عربية موحدة متكاملة، من خلال الإيمان بأن الوجود العربي الواسع هو وحده التربة القادرة على استيعاب شروط التقدم، لا سيما أمام تحديات التفوق العالمي وفي عصر لم تعد تجدي فيه الكيانات الصغيرة.

والمسلَّمة **الثانية** أن الطاقة العربية هي مجموع الشعب العربي، وليست الطاقة المتمثلة في جزء منه، في قياداته أو حكامه أو جيوشه أو أنظمته. وقيمة أي نظام ومبرر وجوده يثويان وراء ما يستطيع أن يطلقه من قوى الجماهير وعطائها وعملها. والقيادة معناها أن نقود جموع الشعب نحو مزيد من الجهد والبذل والنتاج. إنها تعني أن نقود شعباً قائداً، لا أن نعطل قوى الشعب لنقوده. إن تحرير جموع الشعب المكبلة المغلولة بشتى أنواع القيود، هو المهمة الأولى للقيادة الحقيقية. وأياً كانت المبررات والأسباب والدعاوى، ليس من المقبول أن تكون نتائج القيادة مزيداً من العزلة بين الشعب والقيادة، تؤدي بدورها إلى مزيد من الأغلال وتعطل كل تحرر عميق. ولا يغير من الأمر شيئاً أن نفرض القيود باسم

التقدم أو باسم سواه، فالنتيجة سواء، والتقدم لا يكون بدون شعب حر الإرادة يجند نفسه من أجله. إن الثورة الحقة هي تعبير عن إرادة الكثرة الكاثرة من الجماهير وعن مصالحهم، وهم بالتعريف جنودها وحماتها وأصحاب المصلحة فيها. ومن هنا كان مدى تعاظم إسهامهم فيها قياساً لمدى تعاظم ثوريتها. أما انحسارهم وأما بعدهم، فلا يعني إلا شيئاً واحداً: وهو أن الثورة ثورة فئة أو جماعة أو طبقة، وليست ثورة الشعب.

هاتان المسلّمتان لا يجادل في أولويتهما أحد. ومع ذلك فنتائجهما هي المهملة دوماً وأبداً، والعمل من أجلهما هو العمل المشلول المعطل. قد تقوم جهود مبعثرة كثيرة، من أجل تجاوز أزمة الوجود العربي، ولكنها جهود تخبط خبط عشواء، لأنها تهرب من هاتين المسلمتين وتأبى أن تستخلص منهما ما يلزم عنهما من نتائج.

وبداية العمل المجدي وبداية العمل القادر على تحريك الجو العربي الآسن أن ندرك ما هو أساسي وما هو ثانوي، وأن نرد العلل إلى أصولها، وأن نملك نظرة كلية تبين لنا ما هي الأصول وما هي الفروع، وما هو أولى بالتقديم وما هو أولى بالتأخير. إن العمل لكل شيء في آن واحد، يعني العمل للاشيء. وقيمة الجهود لا تكمن في عدتها بل في تنظيمها وانطلاقتها من أسس سليمة ومن استراتيجيا محكمة فعالة. ومن هنا فلن يجدي الجهد العربي ما يبذل وما يحار في بذله، ما دام عاجزاً عن مواجهة الموضوعين الكبيرين اللذين تولد منهما سائر الموضوعات وتأخذ سائر الأمور من خلالهما معناها وقيمتها: نعني الوصول إلى توحيد المعركة العربية من جانب، وتوفير تفاعل جماهير الشعب وكثرته مع القيادات، من جانب آخر. هاتان هما ضالتا الجهد العربي، ومن أجلهما ينبغي أن يعمل. والضعف في نجع الجهود التي تبذل وفي فعالية الأعمال التي تقوم، يرجع في النهاية إلى أننا لم نعزم بعد عزماً حقيقياً على أن نواجه هاتين الحقيقتين، وعلى أن نستخلص منهما ما يترتب عليهما من نتائج مهما تكن التضحيات كبيرة.

ثانياً: العمل الفدائي هو الصيغة الجديدة للعمل العربي الفعال

على أننا حين نطلب إلى الأنظمة العربية القائمة أن تواجه هاتين الحقيقتين مواجهة مسؤولة وشجاعة، فكأننا نحمّل الأشياء غير طباعها. فطبيعة هذه الأنظمة ومنطق تفكيرها وعملها ومبررات وجودها أمور تجعل لزاماً عليها أن تهرب من النتائج المنطقية التي تلزم عن هاتين المسلمتين. وتاريخها حتى الآن هو تاريخ الهرب من الوقوف أمامهما وجهاً لوجه. والخامس من حزيران/يونيو يشهد على أن هذه الأنظمة هي التي يسرت الهزيمة حين استهترت بتعبئة هاتين القوتين: قوة العمل العربي الموحد المتكامل، وقوة الالتفاف الشعبي المؤمن. وليس هنالك حتى الآن ما يشير إلى أن هذه الأنظمة التي ولدت الهزيمة قادرة على تجاوز ذاتها ومغالبة طبيعتها وتكوينها. وتأتي المقاومة الفلسطينية لتكون الجواب، ولتعلن عملياً عجز الصيغ القديمة والحاجة إلى صيغة جديدة، قادرة على البداية السليمة الحرة من أثقال الماضي، وتعيد الحركة الفدائية والمقاومة الفلسطينية داخل الأراضي العربية

المحتلة الأمل إلى الوجود العربي وإلى الأمة العربية، وتضعها على بداية طريق الخلاص، وتقضي على عوامل اليأس لديها، وتومئ لها بأن النصر ممكن. غير أن هذه الحركة المليئة بالأمل والوعود، لا بد لها ـ لتكون الطريق الصامدة الصابرة المؤدية إلى النصر ـ أن تأخذ في اعتبارها الشروط الأساسية اللازمة لاستمرارها في المعركة ولتعاظم دورها ولبلوغها النصر. وهذه الشروط تنتسب في النهاية وترتد ـ في نظرنا ـ إلى الشرطين الكبيرين اللذين كانا وما يزالان ضالة الوجود العربي، والمسؤولين عن تخبطه وضياعه. إنهما الشرطان اللذان يحققان وحدة العمل العربي والتفاف جماهير الشعب العربي. إن المطلوب إلى الحركة الفدائية وإلى حركة المقاومة الفلسطينية أن تحقق ما عجزت الوسائل الأخرى عن تحقيقه وما قصرت عنه النظم العربية، وبذلك وحده تكون تجاوزاً حقيقياً وعميقاً لتلك النظم، وتعبر عن ثورة عميقة في أسلوب العمل العربي. فليست مهمة هذه الحركة أن تستخدم أسلوب الفداء في إطار البنية العربية الضعيفة القائمة أو في معزل كامل عنها، بل مهمتها أن تجعل من الفداء وسيلة لتغيير هذا الإطار من أساسه. ومسألتها مسألة صراع بينها وبين هذا الإطار المريض: فإما أن تقوى على تحطيمه، وإما أن يحطمها. وعبثاً تفر من هذه الحقيقة. إن نتائجها سوف تلاحقها دوماً، وإن شعورها بأهميتها سوف يزداد يوماً بعد يوم.

غير أن مثل هذا الموقف يصطدم بصعوبات عديدة:

أولها أنها من حيث الأصل حركة فلسطينية، تريد أن تستعين بالوجود العربي القائم من أجل بلوغ أهدافها الفلسطينية الخالصة. ومعنى هذا أنها لا تريد أن تمس هذا الوجود الذي يقدم لها العون المادي والمعنوي. ومن هنا فهي تفضل ألا تستخرج من ظهورها كل النتائج والمعاني التي يحملها هذا الظهور، وتؤثر أن تقتصر على المعنى الظاهري، معنى تعبئة الفلسطينيين تعبئة دموية من أجل استعادة حقهم السليب. وتترك بعد ذلك للمستقبل ولتطور قوتها ما قد يقودها إلى صراع بينها وبين الكيان العربي المريض.

وثانيها أنها تخشى تعقد الوجود العربي وتعقد مشكلاته، وتخشى أن تقحم نفسها في ميدان صعب ودوامة مخيفة، حين تقحم نفسها في مشكلات هذا الوجود وعلله ومذاهبه وتياراته. ولهذا تفضل أن تقف موقف الحياد من هذه العلل والمذاهب والتيارات، وأن تقتصر على هدف أبسط وأوضح وأجدر بأن يجمع من حولها القوى ويحول دون انقسامها شيعاً، هدف التضحية من أجل تحرير الأرض المغتصبة.

وثالثها أنها تعتقد أن الوسيلة الأجدى لبناء الحركة العربية القادرة على تجاوز الواقع العربي وعلى تقديم الحل الحقيقي لأزمة الوجود العربي، هي أن تتكون هذه الحركة من خلال العمل، من خلال الثورة الفعلية، من خلال تجربة الفداء والبذل. إنها ترى أن الحركة الثورية العربية المنشودة لا يجوز أن تبنى بناء نظرياً بارداً، بل لا بد أن تتكون عبر المعركة، وأن تتضح معالمها من خلال التحام العناصر القادرة على دخول المعركة، وأن تقودها القيادات التي تكونت خلال المعركة ونجحت فيها.

ثالثاً: الحركة الفلسطينية لا بد أن تكون حركة عربية شاملة

هذه كلها صعوبات واقعية وحجج فعلية صحيحة في ظاهرها. ولكنها مع ذلك لا تغير من واقع الأمر شيئاً:

١ ـ فالحركة الفلسطينية ـ مهما فعلت ـ لن تستطيع أن تبقى فلسطينية إذا هي أرادت فعلاً أن تستمر وتبقى وتنجح. إن بعدها الحقيقي هو بعد الجماهير العربية كلها، وإن قوتها تكمن في انقلابها إلى حركة مقاومة عربية. وامتدادها العربي هو الذي يحول دون مقاومة الأنظمة العربية لها، لا العكس. صحيح أن الجماهير الفلسطينية لا بد أن تكون رأس الحربة في هذه المقاومة العربية، ولا بد أن تتولى القيادة في معركة هدفها الأساسي تحرير فلسطين من أجل تحرير الوطن العربي كله. ولكن هذا لا يعني أنه في وسعها أن تعمل وحيدة في الساحة. إن العمق العربي هو الذي يحميها، يحميها من عدوها الأول، الصهيونية وقواها الكبيرة، ويحميها من آفات الوجود العربي التي يمكن أن تقضي عليها.

٢ ـ إن من الخطأ الفادح أن نجعل الجماهير العربية الغفيرة تنام على أمل وثير، هو الأمل في فئة تتولى بالنيابة عنها مهمة الدفاع عن وجودها والقضاء على عدوها. ولا يجوز أن نعيد هذه الجماهير كرة أخرى إلى نوع من التفكير السحري، طالما كان مسؤولاً عن فشل المعارك العربية في الماضي، هو أن نوهمها بأن في وسع أي فئة أو جيش أو نظام أو حركة أن تتولى عنها معركة لن تنجح إلا إذا شاركت فيها بجموعها الكبيرة وقواها المحتشدة. والمهمة الأولى لحركة جعلت التضحية والإقدام على الموت شعاراً لها وآمنت بهما طريقاً للنصر، أن تقحم الجماهير العربية في هذه التجربة وأن تدربها على شعار التضحية وتبعدها عن حب السلامة وتعدّها لامتطاء طريق الموت.

٣ ـ إذا كان التدخل العربي في المنظمات الفدائية هو الذي يشكل اليوم خطراً على هذه المنظمات وهو الذي يعمل على انشقاقها، فعلاج ذلك لا يمكن أن يكون بمنع هذا التدخل ـ لأنه مفروض على أي حال ـ بل بقلبه من تدخل تقوم به الحكومات وحدها إلى تدخل شعبي واسع يحول بين الحكومات وبين استغلال هذا العمل لأغراض ضيقة. ولا يكون ذلك إلا بتوسيع قاعدة انتماء جماهير الشعب العربي إلى العمل الفدائي. فوحدة العمل الفدائي لا يمكن أن تكون سوى انعكاس لوحدة إرادة الجماهير العربية، وإلا تحقيقاً لنزعة هذه الجماهير الطبيعية إلى العمل الموحد والهدف الموحد، عن طريق إشراكها الواسع في هذه الحركة الفدائية الثورية المنشودة. إن العمل الفدائي لا بد أن يكون مشتتاً منقسماً حين يمثل فئات أو أنظمة، ولكنه لا بد أن يكون موحداً حين يمثل الجماهير العربية في مداها الكبير وفي إرادتها الموحدة التي حالت دونها صراعات الفئات والأنظمة.

٤ ـ لقد آن الأوان لأن يدرك الشعب العربي ـ بعد تجاربه المديدة والمريرة ـ أن تجاهل المشكلات لا يجدي، وأن إهمالها لا يعني زوالها. لا بد أن توضع النقاط على

الحروف وأن نواجه الواقع، مهما بدا لنا معقداً صعباً. فالواقع هو الواقع، ولا سبيل إلى مغالبته إلا بفهمه والإقرار بوجوده أولاً. قد يكون من القاسي على آمال العمل الفدائي أن يستخرج من الواقع العربي كل ما يوحي به من نتائج. ولكن الواقع القاسي هو الذي يربي إرادة أي عمل نضالي ويزيد في ضراوته وبأسه. قد يبدو له الخوض في متاهة الوجود العربي أمراً صعباً، ومزلقاً لا يسهل الخروج منه. ولكن، لا بد مما ليس منه بد. لا بد أن نسلك الطريق ولو دارت. لا تستطيع الحركة الفدائية أن تدير ظهرها للوجود العربي المريض، فلا سلامة لها عند ذلك. لا تستطيع الحركة الفدائية أن تتجاهل أن المسألة مسألة إيجاد الصيغة الجديدة لإشراك الجهد العربي كله ولإشراك الجماهير العربية كلها في معركتها ومصيرها. لا تستطيع أن تنسى أنها وجدت لهذه الغاية. وجدت لتقدم الصيغة القادرة على توحيد العمل العربي وعلى لف الجماهير الشعبية العربية. إن طريقها هو طريق تحرير الجماهير من القيود التي كانت تحول دون مشاركتها في المعركة، وتحرير الكيان العربي من الحدود التي كانت تحول دون لقائه ووحدته. وقد وجد هذا الطريق، ووجدت القوة القادرة على كسر تلك القيود. إنها القوة التي يمنحها الفداء وتمنحها التضحية الصادقة للجماهير العربية حين تدفع ضريبة الدم، فتجعلها أقوى من القيود التي تغلها ومن الحدود التي تفصل بينها ومن الفئات التي تجمدها والنظم التي تفرض عليها وصايتها بالقوة.

ولا بد إذن من تسمية الأشياء بأسمائها. إن حركة الفداء والمقاومة ليست في معناها العميق حركة فلسطينية. فضل الحركة الفلسطينية أنها استطاعت أن تضع يدها على الداء وأن تكتشف الطريق وأن تيسر أمام الجماهير العربية مهمة التحرر والثورة. لقد أعلنت بقيامها نهاية التجارب العربية الماضية، وبينت أن الصيغة الثورية الجديدة هي الصيغة المنبثقة من طبيعة المعركة العربية مع الصهيونية والاستعمار، أي من الفداء والتضحية. وكشفت عن أن هذا الفداء هو الصيغة التي تستطيع أن تجمع الجماهير العربية وتجندها، لتخلق الحماية اللازمة للثورة الجديدة وللجماهير العربية معاً. لقد حركت الثورة الفلسطينية الجماهير العربية، فدلتها على طريق تحررها، ودلتها خاصة على طريق حماية الثورة. ومن هنا كان التحام هذه الثورة الفلسطينية بالجماهير العربية هو الحماية لكليهما. إن الشكل المميز للثورة العربية، النابع من ظروفها وحاجاتها، ذلك الشكل العربي الذي كان ضالة الأفكار والمذاهب والتيارات خلال العقود الماضية من السنين، قد أخذ يتضح أخيراً من خلال المعركة. إنه الثورة العربية التي تبنيها الجماهير العربية العازمة على المحافظة على وجودها بالتضحية والفداء. وعندما تنطلق هذه الثورة، وتصبح عربية حقاً وجماهيرية حقاً، لا بد أن تكون بطبيعة الحال ثورة تعبر عن أهداف هذه الجماهير الغفيرة المشاركة في الثورة، أي لا بد أن تكون أهدافاً شعبية تحررية اجتماعية واقتصادية سليمة، بالإضافة إلى كونها أهدافاً قومية شاملة.

رابعاً: السبل العملية لبناء حركة المقاومة العربية الموحدة

أما السبل العملية لجعل الحركة الفلسطينية حركة ثورية عربية، فلا يعنينا كثيراً أن نتحدث عن تفاصيلها. إنها سبل تدل إليها حركة النضال ذاتها وحركة المقاومة المتعاظمة نفسها. وأهم من البحث فيها اتخاذ هذا الموقف الأساسي الجذري، وتبني حركة المقاومة له. وعند ذلك لن تعوزها السبل. بل إن الواقع يدلنا إلى حد كبير أن مثل هذا الانقلاب للحركة الفلسطينية إلى حركة عربية جماهيرية شاملة، أمر يتم من تلقاء ذاته ويزداد وضوحاً يوماً بعد يوم. وكل ما نخشاه أن تنظر إليه الحركة الفلسطينية في خجل واستحياء، أو في خشية وخوف، فتعطل انتشاره وامتداده السريع. على أننا نشير مع ذلك إلى بعض هذه السبل:

أولها دون شك أن يفسح المجال واسعاً أمام دخول أبناء البلاد العربية جميعها في العمل الفدائي، مع الإبقاء على دور الفلسطينيين البارز وقيادتهم الضرورية. إن هذه المشاركة الواسعة ـ بالإضافة إلى معانيها المهمة العديدة ـ هي الوسيلة المثلى لجعل الكيان العربي كله معنياً بالمعركة، ولدفعه دفعاً حقيقياً في طريق إدراك مستلزماتها وشروطها. وهي فوق هذا وقبل هذا، شرط ضروري لإخراجه من إطار البحث عن خلاصه مع خلوده إلى حب السلامة والراحة، إلى الإطار الجدي للخلاص، إطار البحث عن الطمأنينة العميقة الباقية من خلال تهديم الطمأنينة الزائفة.

وثانيها أن تكون مشاركة أبناء البلاد العربية مشاركة جماهيرية حقاً، تتم بالدرجة الأولى عن طريق الانتساب الحر من قبل أبناء الشعب العربي، لا عن طريق الحكومات. إننا لا نرفض اشتراك أبناء البلاد العربية عن طريق منظمات فدائية تكونها الحكومات، فقد تكون هذه الوسيلة من جملة الوسائل، غير أن المشاركة الفعلية والأساسية ينبغي أن تكون عن طريق جماهيري عفوي. بهذا الشرط تصبح الحركة الفدائية حركة جماهيرية معبرة فعلاً عن إرادة الجماهير الواسعة وأهدافها العريضة، وتزول عنها صفة التشرذم، وتصير يوماً بعد يوم حركة الثورة العربية الجماهيرية الكاملة.

وثالثها أن يكون توسيع إطار الثورة الفلسطينية على هذا النحو لتصبح ثورة عربية، عملاً مشتركاً بين الحركة الفلسطينية والقوى العربية الحقيقية الممثلة للشعب العربي ولطلائعه الفعالة. فلا يجوز أن نلقي عبء تعريب الثورة الفلسطينية على الثورة الفلسطينية وحدها، فمثل هذا العبء، قد تعجز عن حمله وقد لا ترى من المعقول والمقبول أن تتصدى وحدها لحمله. لهذا لا بد من تنظيم طلائع عربية ـ غير حكومية ما أمكن ذلك ـ في كل قطر عربي من أجل قيادة الدعوة إلى حركة الفداء، ومن أجل تنظيم الانتساب إليها، ومن أجل تنسيق العمل مع التنظيم الفلسطيني المستوعب في النهاية لهذه الحركة كلها. ومن المهم أن تضم هذه الطلائع دوماً في قياداتها عناصر فلسطينية مناضلة، بل أن تكون هذه القيادات المحرك الأول لولادة هذه الطلائع واستقطابها.

ورابعها أن تعمّق الثورة الفلسطينية العربية صلاتها مع الحركات التحررية في العالم كله، وأن تتخذ من هذه الحركات امتداداً لها وحماية. إن من المهم أن تبرز هذه الثورة أمام الرأي العام الحر في العالم كثورة لا تستهدف مجرد استرداد أرض مغتصبة وعودة شعب إلى دياره، بل تستهدف معاني إنسانية أعمق وأشمل هي معاني النضال ضد القوى الاستعمارية والامبريالية والصهيونية التي خلقت هذا الجسر الاستعماري في الوطن العربي، وأرادت أن يكون حاجزاً دون المد الثوري فيه ودون تحرره الحقيقي من السيطرة الاستعمارية. واتخاذ هذه الثورة مظهر الثورة العربية الشاملة التي تكون الحركة الفلسطينية رأس الحربة فيها، بدلاً من ظهورها بمظهر حركة فدائية فلسطينية محدودة هدفها العودة إلى الأرض والديار، من شأنه أن يمنح هذه الثورة بعداً عالمياً مهماً، ويمدها بقوى متعاظمة متكاثرة، ويجعل منها واحدة من حركات التحرر العالمية الكبرى، ويجند لبقائها واستمرارها ونجاحها القوى المادية والمعنوية الهائلة والمتزايدة التي تضمها حركات التحرر في العالم.

وخامسها ألا يقتصر الحوار والتعاون مع الحركات التحررية العالمية على قطر دون قطر أو على نظام دون نظام. فهنالك في جميع أنحاء العالم قوى اعتراض ونقض وتمرد وثورة، تضع النظام العالمي كله – في شرقه وغربه – موضع التساؤل، وتتهم الحضارة الحديثة وتجرحها. إنها قوى وحركات وأفكار خفية ومنظورة، تريد أن تعيد النظر في الحضارة الصناعية الحديثة من أساسها، وترفض رياءها وتزييفها، وما تتصف به من زجر وقمع وما تقود إليه من تحكم الإنسان في الإنسان. نجد جذور هذه الحركات في الفييتنام وكوبا والصين، كما نجدها في حركات الطلاب في شتى أنحاء العالم، وفي حركة الزنوج في أمريكا وفي تململ الشعوب الآسيوية والأفريقية، وفي كثير من حركات التمرد التي تقوم بها فئات وجماعات وعقول تعيش على هامش الزيف الحضاري، ولا تشترك في لعبة الشعوب. والحركة الفلسطينية المتجهة لتكون حركة عربية، لا بد أن تمثل واحدة من قوى التمرد هذه، ولا بد أن تلتقي معها في أمور كثيرة. إنها حركة تولد من جماعات محرومة معزولة أُلقيت على هامش المجتمع، ولفظتها الحضارة الحديثة الكاذبة لتلقي بها في الخيام، ولا بد لها بالتالي أن تمثل فيما تمثل رفضاً إنسانياً عميقاً لهذه الحضارة الزائفة التي تزيد في اضطهاد الإنسان باسم التقدم، والتي تستعبد الملايين استعباداً منقى مصفى. لا بد أن تولّد هذه الحركة عمقاً فكرياً فلسفياً، يجعلها في مصاف سائر الحركات التي ترفض وتتمرد على هذه الحضارة، لا باسم العود إلى البدائية واللاحضارة، ولكن باسم السعي لحضارة إنسانية حقيقية تحترم الإنسان وتحقق سعادته وترفع عنه كابوس الكبت والزجر. لا بد لها أن تهز الوعي الإنساني المريض، الذي يحمل مع ذلك ظاهر العافية والسعادة، ويمثل نوعاً من الوعي السعيد الزائف، على حد تعبير هيغل. إنها حين تحمل تعاستها وبؤسها وخيامها، حين تحمل هذا الإفراز المهين الذي أفرزته حضارة التقدم في القرن العشرين، لتمضي به متحدية محاربة، فإنما تحمل في الوقت نفسه كل ما في القيم الإنسانية العميقة من قوة وبأس وقدرة. إنها لا تحارب من أجل استعادة أرض مغتصبة

فحسب، ولا تحارب من أجل تحطيم الاستعمار والصهيونية فحسب، بل تحارب فوق هذا من أجل تحطيم حضارة زائفة يفرزها التقدم التكنولوجي والصناعي، ومن أجل بناء حضارة إنسانية جديدة تتجاوزها علماً وصناعة وقيماً. وبهذا تحمل معها نفحة الإنسان الحق ونفحة المستقبل. وليس أقوى بأساً ومضاء من حركة تحمل بيدها مشعل الإنسان المضيء. ومن أجدر بمثل ذلك من حركة تحمل اليأس الإنساني العميق والتعاسة الإنسانية المصفاة تحت الخيام خلال عشرين عاماً، لتجعل منهما قوة قادرة على أن تسخر من كل قوة، ما دامت تسخر من الموت.

خامساً: نحو ثورة عربية شاملة

إن الثورة الفلسطينية، السائرة لتكون ثورة عربية شاملة، يرجى لها أن تلتقي مع أترابها من ثورات العالم، لتكون ثورة الاضطهاد والمضطهدين، ثورة المعذبين في الأرض، ثورة الملايين المرشحين لأن يلقي بهم دولاب الحضارة الحديثة ويرمي بهم باسم الحضارة، ثورة العالم الثالث كله في نهاية الأمر المرشح يوماً بعد يوم ـ بفضل التقدم المزعوم ـ لأن يغدو عالم العبيد الذي يخدم عالم السادة. بل إنها مدعوة لأن تكون مع أترابها، ثورة العالم كله الذي أعطته الحضارة الشيء الكثير وأفقدته نفسه، والذي علمته تلك الحضارة أن يكبت نفسه بنفسه ويزجر نفسه بنفسه باسم التقدم والحضارة، وأن يقبل حضارة بلا روح ومدنية بلا قلب. وبعد أفلا تمثل اسرائيل التي أفرزها التقدم وأفرزتها الحضارة، قمة تعاسة هذه الحضارة وهزلها ومجونها وهزئها بالإنسان؟ أو لم يتصور العالم الغربي «المتحضر» في يوم من الأيام أن معركة اسرائيل مع الشعب العربي، أشبه بمعركة صفوة من العلماء والفنيين لهم كل حقوق العيش الكريم، مع فرقة من المتوحشين جديرة بالفناء ليحيا من هو أجدر منها بالبقاء؟

ولكن الكرامة الإنسانية قادرة دوماً أن تثبت أن قضية الإنسان ليست مجرد قضية تفوّق علمي وفني، وأن هذه الكرامة حين تحمل السلاح وتركب الموت تستطيع أن تنقل الجبل من مكان إلى مكان. ولنا في بطولة «الفيتنام» مَثَل ساطع. إنها النقض العملي لقيمة الحضارة الحديثة، والتبشير العميق بما يتجاوزها. إن في وسع الإيمان بقيم الإنسان أن يجلب التقدم العلمي والفني في معناه الحق، وليس في وسع التقدم العلمي والفني المفرغ من قيم الإنسان أن يجلب الإيمان القادر على حماية ذلك التقدم.

إن أعمق ما يشهد على المعاني الإنسانية التي تحملها الثورة الفلسطينية ومن ورائها الثورة العربية الممتدة منها، أنها تعلن منذ اليوم أنها لن تكون حركة تتنكر لحق اليهود في العيش في فلسطين جنباً إلى جنب مع العرب، يوم يفرق هؤلاء اليهود بين وجودهم وبين الحركة الصهيونية العالمية المستعمرة وأطماعها التوسعية.

إن هذه الثورة تلتقي في أعماقها مع الشعارات الإنسانية التي حملتها القومية العربية دوماً في عصور ازدهارها، ومع الروح الإنسانية التي بشرت بها ومع المعاني الإنسانية التي

يسعى إليها الإنسان الحديث. وهي تحمل السلاح في سبيل هذه القيم، ما دامت الأسنة سبيلها الوحيد إلى توكيدها. إنها لا تدعو إلى قومية شوفينية ضيقة، على نحو ما تفعل الصهيونية، بل تحارب الصهيونية لتقيم القومية العربية المنفتحة التقدمية الإنسانية، ولتقضي إلى الأبد على مخلفات التفكير القومي التعصبي الضيق الذي تريد الصهيونية أن تحمله إلى العالم في أواخر القرن العشرين وتباشير القرن الحادي والعشرين.

* * *

ولكن يطول بنا الحديث لو أردنا أن نستنفد كل ما توحي به المقاومة العربية من شجون وما يمكن أن تحمله من معانٍ قومية وإنسانية عميقة. وهيهات أن نوفي في هذه العجالة جانباً مما يجدر بحثه عند الحديث عن هذه المقاومة.

وحسبنا أنْ أومأنا إلى أهم ما في الأمر في نظرنا: المقاومة الفلسطينية لا بد أن تنتهي إلى حركة مقاومة عربية، بل إلى حركة مقاومة عالمية إنسانية. هذا هو وحده الشأو الذي يرتفع بها إلى مستوى المعركة ويضعها في حجم المهمة ومقياسها. ولقد بدأت بوادر ذلك فيها، ولا بد أن تتعمق هذه البوادر، ما دامت هذه الثورة حية مستمرة. وهدف الجهد العربي، في مختلف مستوياته، ينبغي أن يكون العمل على توفير الشروط اللازمة لتفتح هذه المقاومة وبلوغها كامل أبعادها ومداها. فأمل الوجود العربي هو هذا الأمل الوحيد، وفرصته هذه هي الفرصة الذهبية. لن يفقد شيئاً حين يضع كل ثقله في سبيل حماية هذه الحركة الفتية وحين يجعل منها حركة الشعب العربي كله. بل سوف يربح من خلالها كل شيء. لم يبق لدى الأمة العربية من أقصاها إلى أدناها ما تفقده. إنها مهددة بالفناء وبالموت البطيء. لن يجديها أن تفكر في أي شيء، في الأنظمة، في المصالح، في الأهل والولد، في حياة الدعة والسكينة. فهذه كلها لن تقوم لها قائمة إذا هي ظنت أن في وسعها أن تحافظ عليها بالركون إلى طريق السلامة. إن عليها أن تدرك وتثق أن عهد الأمن والطمأنينة والراحة قد مضى، وأن عليها أن تهدم طمأنينتها الزائفة لتبني طمأنينتها الحقيقية. من قلب المعركة وحدها يمكن أن يولد المستقبل المضيء، ومن تحدي الموت يمكن أن تولد الحياة. السلام لن يصنعه لها أحد، إن لم تصنعه بحبائل الموت.

إلى حركة المقاومة العربية الشاملة ندعو، فليس دونها خلاص.

الوحدة العربية
ومعركة تحرير فلسطين(*)

عصمت سيف الدولة

ـ ١ ـ

منذ أن اغتصب الصهاينة جزءاً من الأرض العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨، رُفع في الوطن العربي شعار يقول: «إن الوحدة هي الطريق إلى تحرير فلسطين»، على أساس من القول بأن دولة الوحدة هي القادرة ـ وحدها ـ على أن توفر المتطلبات المادية والبشرية والاستراتيجية الكافية لتصفية دولة اسرائيل في معركة قصيرة تضع فيها العالم أمام الأمر الواقع. وكان لا بد من أن تتحرر الدول العربية أولاً حتى تقيم الوحدة فتحرر فلسطين. وهكذا كانت هزيمة ١٩٤٨، التي عرفت باسم «النكبة» محركاً أول لقوى التحرر العربي التي استطاعت خلال العشر السنوات التالية أن تجلي الجيوش المحتلة عن كثير من أجزاء الوطن العربي. ومع كل خطوة تحررية كان يبدو كما لو كان موعد الوحدة قريباً، وأن الأرض المغتصبة من فلسطين في طريقها إلى الحرية. وبلغ التفاؤل ببعض العرب حد دراسة تفاصيل الوحدة التي هي الطريق إلى تحرير فلسطين، فقيل إنها تلك التي تقوم فيما بين الدول العربية المحيطة بالأرض المحتلة وأسموها «دولة الوحدة الطوق». وظل ذاك الشعار سائداً إلى أن تحققت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨. وانتظرت الجماهير العربية في كل مكان أن توفي دولة الوحدة بمسؤولياتها فتكمل الطوق أو تحرر فلسطين. وطال الانتظار إلى أن وقع الانفصال سنة ١٩٦١. وقع سهلاً بدون مقاومة. وقبل سريعاً بدون انتظار. وثبت من كل هذا أن الأمل الذي عقد على وحدة ١٩٥٨ في تحرير فلسطين كان أملاً غير واقعي ومتسرعاً معاً، إذ إن وحدة ١٩٥٨ لم تفشل في تحرير فلسطين فحسب، بل فشلت حتى في الحفاظ على وجودها. ومنذ سنة ١٩٦١ التقت أغلب القوى في الوطن العربي، وفي العالم، على محاولة دفن قضية الوحدة وقضية تحرير

(*) نُشر في: الآداب، السنة ١٨، العدد ٥ (أيار/مايو ١٩٧٠)، ص ٤ ـ ٥ و١٤٥ ـ ١٤٩.

فلسطين معاً تحت ركام من الصراعات الدولية والإقليمية. إلى أن جاء حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فإذا بالقدر الأكبر من القوة العربية يقاتل متراجعاً في صحراء سيناء بينما كان قد تقدم إليها دفاعاً عن دمشق.

وكان ما كان.

وكان طبيعياً أن تعصف هزيمة حزيران/ يونيو بكثير مما كان سائداً في الوطن العربي من أفكار واتجاهات، وأن تثير الشك في مبررات وجود كثير مما كان موجوداً من قوى ونظم، وأن تشيع اضطراباً شديداً في المقدرة على رؤية المستقبل الذي كان يبدو ـ حينئذ ـ حالك السواد. غير أننا الآن، وبعد ما يقارب ثلاث سنوات من الهزيمة، نستطيع أن نرى بوضوح أن ليس كل ما كان في حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧ كان سيئاً.

لقد كان أسوأ ما فيه أن الأمة العربية، ذلك الطرف الأصيل الذي لم يكن ممثلاً في المعركة، قد دفعت من أرضها، وأبنائها، وكرامتها، ثمناً فادحاً لأخطاء القوى الإقليمية. غير أنه في مقابل هذا كشفت الهزيمة العاجلة للدول العربية عن عجزها الذي لا مفر منه عن تحرير فلسطين. وأدى هذا إلى أن دخلت الجماهير العربية ساحة المعركة في يومي ٩ و١٠ حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧ لتفرض الصمود أولاً، ثم لتستمر في القتال بعد هذا في شكل منظمات جماهيرية مسلحة. وهذا كسب لا شك فيه. فلأول مرة في التاريخ العربي المعاصر توجد في الأرض العربية قوة مقاتلة لا تحمل هوية أية دولة عربية.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، انهار الركام الذي حاولت قوى كثيرة أن تدفن تحته قضية تحرير فلسطين. لم يعد أحد يذكر الأسباب التي كانت ذرائع القتال في حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧، ونسي الناس خليج العقبة وحق المرور فيه، وتجاوزت المعركة إزالة آثار العدوان، وفرض على الدول العربية ألا تسترد أرضها إلى أن تحدد لها موقفاً صريحاً من تحرير فلسطين. وهكذا برغم كل شيء، برغم المناورات، وبرغم التآمر، وجد جميع الأطراف أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة المعركة: إما الوجود العربي وإما الوجود الاسرائيلي في فلسطين. وهو كسب لا شك فيه. كسب من حيث هو إلغاء للمسيرة المغلوطة التي حاولت قوى كثيرة أن تدفع بالجماهير العربية إليها قفزاً فوق قضية تحرير فلسطين. وكسب من حيث إننا قد عرفنا، ولو بعد دفع ثمن فادح للمعرفة، أن أحداً في الوطن العربي لا يستطيع أن يزعم لنفسه الحرية قبل أن تتحرر فلسطين، أو أن يحلم أحلام الرخاء والاشتراكية في جوار الوجود الاسرائيلي في فلسطين.

وعندما فرضت معركة تحرير فلسطين ذاتها على الناس، عاد الحديث عن علاقة الوحدة بتحرير فلسطين. ورُفع في الساحة شعار مختلف يقول: «إن تحرير فلسطين هو الطريق إلى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هي الطريق إلى تحرير فلسطين». وزاد أصحابه فأسموه «استراتيجيا».

وهو قول غير واقعي، ومتسرع معاً.

أما أنه غير واقعي فلأن القوى المعادية هي التي بدأت معركة احتلال جزء من الأرض العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨ وفي غيبة دولة الوحدة. وهي التي بدأت معركة تأمين الوجود الاسرائيلي سنة ١٩٥٦ وفي غيبة دولة الوحدة. ثم إنها هي التي بدأت معركة فرض الاعتراف بدولة اسرائيل سنة ١٩٦٧ وفي غيبة دولة الوحدة أيضاً. فحتى لو كانت هزيمة الدول العربية في حزيران/يونيو سنة ١٩٦٧، ورفض الجماهير العربية للهزيمة واستمرارها في القتال، قد حول المعركة مما أراد بها الصهاينة إلى معركة لتحرير فلسطين، فإن هذا لا يغير شيئاً من حقيقة أن العدو هو الذي اختار وحدد تاريخ المعركة، وفرضها في الوقت الذي اختاره وحدده. وعلى هذا يمكن القول بأن القوى المعادية قد استعجلت معاركها سنة ١٩٤٨، وسنة ١٩٥٦، وسنة ١٩٦٧، لتثبيت الوجود الاسرائيلي «داخل حدود آمنة ومعترف بها» في غيبة دولة الوحدة لأن تلك القوى تعرف أن الوحدة العربية هي الطريق الموثوق إلى تصفية الوجود الاسرائيلي وتحرير فلسطين، وأن غيبة دولة الوحدة تقدم لها أكثر الظروف ملاءمة لتحقيق غاياتها العدوانية.

إن هذا يبدو لنا أكثر اتفاقاً، واتساقاً، مع الواقع الذي نعرفه، من الزعم الذي يوحي بأن القوى العربية، أو أية قوة عربية، هي التي اختارت أن تبدأ وتخوض المعركة القائمة من أجل تحرير فلسطين وفي غيبة دولة الوحدة تنفيذاً «لاستراتيجيا» أعدت من قبل على أساس أن «تحرير فلسطين هو الطريق إلى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هي الطريق إلى تحرير فلسطين».

وهو قول متسرع، لأن أصحابه، لم يصبروا على أنفسهم، ولا على الظروف حتى يتبينوا: **أولاً** ـ ما إذا كان النضال القائم في سبيل تحرير فلسطين سيحقق غايته في غيبة دولة الوحدة أم أن تطورات المعركة، المسلم بأنها طويلة، ومعقدة، وصعبة، ستضعهم ــ ربما أقرب بكثير مما يتصور الكثيرون ــ أمام خيار حيوي: فإما إقامة دولة الوحدة التي توفر لهم العمق الاستراتيجي اللازم لمواصلة القتال وإما هزيمة أخرى. **ثانياً** ـ ما إذا كان بعض المناضلين في سبيل تحرير فلسطين سيكفون عن القتال ليقيموا على الأرض المتحررة دولتهم الفلسطينية المسماة «ديمقراطية»، أم أنهم سيواصلون القتال إلى أن تقوم دولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية.

ذلك لأنه إذا كانت المعركة تدور الآن في ظل تأييد ودعم «حلف الخرطوم» الذي انعقد بين الدول العربية في آب/أغسطس سنة ١٩٦٧ من أجل «إزالة آثار العدوان» فإن هذا الحلف موقوت ــ على أحسن الفروض ــ بغايته، وعندما تنتهي مرحلة «إزالة آثار العدوان»، على أي وجه تكون نهايتها، يكون الحلف قد استنفد أغراضه فينفض. حينئذ تبدأ «فعلاً» معركة تحرير فلسطين. ولم يقل لنا أحد ــ بعد ــ كيف تستمر المعركة وقد كفت الدول العربية، راغبة أو كارهة، عن دعم المعركة، وغلقت حدودها، وصفت أو حاولت تصفية قواعد المناضلين؟ نقول كيف تستمر إلا إذا سقطت الاقليمية العربية

المتراجعة وأقيمت على أنقاضها دولة عربية توفر للقتال أسباب الاستمرار حتى النصر. إنها عندئذ دولة الوحدة النواة أو نواة دولة الوحدة.

ومن ناحية أخرى، لم يقل لنا أحد ـ بعد ـ كيف يكون تحرير فلسطين طريقاً إلى الوحدة العربية خاصة إذا كان ذلك الشعار المسمى «استراتيجيا» متضمناً كهدف إقامة دولة فلسطين المسماة «ديمقراطية». كيف تكون تلك الدولة الاقليمية طريقاً إلى الوحدة العربية؟ ما هي المعطيات الجديدة المتوافرة، أو التي يمكن أن تتوافر لدولة فلسطين، ولم تكن متوافرة لدول عربية كثيرة تحررت ولم تتوحد. إن كل ما نعرفه من المميزات الخاصة بدولة فلسطين المسماة «ديمقراطية» هو أن نسبة اليهود غير العرب فيها ستكون أكبر منها في أية دولة عربية أخرى. فهل يصلح هذا سبباً جديداً لتكون طريقاً إلى الوحدة؟

إن هذه أسئلة لا تكفي النوايا ـ ولو كانت حسنة ـ للإجابة عليها. أين الحقيقة إذن؟

هل ثمة علاقة بين الوحدة العربية وتحرير فلسطين؟ وإن وجدت فما هو مضمونها، وأين تقع، وكيف تتجسد في هذه المرحلة التاريخية التي يمر بها النضال العربي؟

في الإجابة على هذه الأسئلة نجتهد بقدر ما يطيق هذا الحديث المحدود.

ـ ٢ ـ

عندما يكون الحوار دائراً بلغة واحدة ثم لا ينتهي إلى اتفاق، فلا بد من أن يكون ثمة خلاف في مضامين الكلمات التي يستعملها المتحاورون. وتكون الخطوة الأولى أن نعرف ما يعنيه كل طرف بالكلمات التي يقولها. والحوار حول علاقة الوحدة بتحرر فلسطين يدور بين الذين لا ينكرون الوحدة ولا ينكرون تحرير فلسطين، فلا بد إذن من أن يكون ثمة خلاف بين ما يعنيه كل منهم بـ «الوحدة العربية» أو بـ «تحرير فلسطين».

ونحن نعتقد أن مرجع الغموض وعدم التحديد في هذه العلاقة إلى الذين يتحدثون عن الوحدة العربية أو أنهم هم المسؤولون عن القدر الأكبر منه. ولولا هذا لما رأينا أن كل الناس ـ فيما يقولون ـ راغبون في الوحدة العربية ومن دعاتها، ومع ذلك ما تزال الوحدة أبعد الأهداف العربية عن التحقيق، بل إن أغلب الناس لا يعرفون كيف تتحقق وما هي الطريق إليها، ولو عرفوا موقع تحرير فلسطين من هذا الطريق.

وآية هذا أن كثيرين أولئك الذين يتحدثون أو يكتبون عن الأمة العربية، وعن القومية العربية، وعن الوحدة... الخ، حديثاً يبدو كالمناجاة الذاتية، ويعز معه الحوار، لأننا لا نستطيع أن نعرف مما يقولون كيف عرفوا ما يتحدثون فيه إلا أن يكون عن طريق شعورهم بالانتماء القومي، أي حالتهم النفسية. والشعور بالانتماء القومي دلالة صحيحة على وجود أمة ينتمي إليها المتحدث، ولكنه لا يصلح منطلقاً إلى تحديد أهداف المستقبل. ونحن نعرف هذا ـ مثلاً ـ من قول مطروح ومتردد في الأدب القومي العربي، في كل

الأدب القومي العربي تقريباً، كما لو كان بدهياً. ذلك هو القول بأننا ما دمنا أمة عربية واحدة «فيجب أن تكون لنا دولة سياسية واحدة». أو أننا ما دمنا أمة عربية واحدة «فيجب» أن نساهم جميعاً في تحرير فلسطين. والشعور بالانتماء القومي يبرر أننا أمة عربية واحدة، أما لماذا «يجب» ما بعد هذا فلا جواب. أو أن ثمة إجابات غير وافية. أو إجابات صحيحة وإن كانت هي ذاتها غير مبررة قومياً. مثل تلك الإجابة التي تقول «يجب» أن تقوم الوحدة لأنها الطريق إلى تحرير فلسطين، لأن دولة الوحدة ـ وحدها ـ هي القادرة على توفير المتطلبات اللازمة لتحقيق نصر عسكري ضد الصهيونية. وهو قول صحيح. ولكن المسألة هي كيف عرفنا أنه صحيح. إن كنا عرفناه عن طريق ممارسة القتال الفاشل عشرين عاماً ضد اسرائيل، فإن هذا يبرر قيام الوحدة، في الحدود وإلى المدى، وبقدر ما توفر لنا أسباب التفوق العسكري اللازم لهزيمة اسرائيل، لا أكثر. ثم تنفض الوحدة بعد أن تكون قد أدت مهمتها. وفي هذه الحالة تكون الوحدة غير لازمة بالنسبة إلى الدول التي لا تحيط باسرائيل، بل وتكون الوحدة العسكرية بين الدول التي تحيط بها بديلاً صالحاً من الوحدة السياسية لأنها توفر المتطلبات اللازمة للتفوق العسكري أو يمكن أن توفرها، بل نزيد فنقول إنه حتى الوحدة العسكرية لا تكون لازمة، لو أحسنت بعض الدول العربية استخدام إمكانياتها المتاحة مادياً وبشرياً. إذ لو أحسنت لكانت قادرة على هزيمة اسرائيل. وفي كل الأحوال ستكون علاقة الوحدة بتحرير فلسطين موضوعاً من «صلاحية» العسكريين، قادة المعركة، الذين يقررون مضمون تلك العلاقة، وأين تقع، وكيف تتجسد طبقاً لتطورات استراتيجية أو تكتيك القتال ضد اسرائيل.

أما إذا كنا قد عرفنا أن «الوحدة العربية» لازمة لتحرير فلسطين عن طريق البحث العلمي في تلك الظاهرة الاجتماعية التي تسمى «أمة» واكتشاف العلاقة الموضوعية بين الوجود القومي والوحدة القومية، فإن الوحدة تكون لازمة لزوماً موضوعياً، فنلتزمها غاية في معركة تحرير فلسطين، وفي غير معركة تحرير فلسطين، ولا نعفي منها أحداً مهما يكن بعيداً عن ساحة معركة فلسطين، ولا نتراجع عنها حتى بعد أن تتحرر فلسطين.

هنا يكون موقفنا من الوحدة وتحرير فلسطين موقفاً عقائدياً، وليس موقفاً انتهازياً.

ـ ٣ ـ

والموقف القومي العقائدي يقوم ـ باختصار ـ على خمسة أسس متكاملة:

أولاً: إن الأمة جماعة بشرية تكونت تاريخياً من جماعات وشعوب كانت مختلفة لغة وتراثاً ومصالح متصارعة، ومتفاعلة خلال ذاك الصراع، انتهت بعد مرحلة تاريخية طويلة من المعاناة إلى أن تلتحم لتكون شعباً واحداً ذا لغة مشتركة وتراث مشترك ومصالح مشتركة. وهذا لا خلاف عليه. إنما الخلاف حول الأرض الخاصة والمشتركة كعنصر من عناصر التكوين القومي. ونحن نرى أن الاختصاص برقعة مشتركة من الأرض هو

العنصر الجوهري المميز للأمة، ذلك لأن كافة العناصر الأخرى مثل وحدة اللغة التي تركز عليها النظرية الألمانية، ووحدة المصالح الاقتصادية التي تركز عليها النظرية الماركسية، أو وحدة الثقافة التي تشيد بها الكتابات العربية، أو حتى وحدة الإرادة التي تركز عليها النظرية الفرنسية. . . الخ، كل هذه عناصر ممكن أن تتوافر، وأن تجتمع، لجماعات بشرية لا ترقى إلى مستوى «الأمة» كالمجتمعات القبلية مثلاً. إنما تجاوزت المجتمعات الطور القبلي ودخلت طور التكوين القومي بالاستقرار على أرض معينة، ثم اكتملت تكويناً باختصاصها بتلك الأرض المشتركة، وبهذا أصبحت أمة.

ثانياً: يترتب على هذا أن الأمة تكوين واحد من الناس (الشعب) والأرض (الوطن) معاً. فنحن عندما نقول إننا أمة عربية ثم نتحدث عن الوطن العربي لا يكون حديثنا عن شيئين منفصلين، بل عن الكل (الأمة) الذي يتضمن الجزء (الوطن). فالشعب العربي (الناس) والوطن العربي (الأرض) يكونان معاً الأمة العربية، التي ما تحولت من شعوب لا تختص بالأرض التي تقيم عليها إلى أمة، أو من أرض لا تخص شعباً بعينه إلى أمة إلا عندما التحم الشعب العربي بالوطن العربي واختص به ليكونا وجوداً اجتماعياً واحداً هو الأمة العربية. من هنا ندرك أنه عندما يتعرض الشعب العربي، كله أو بعضه، للإبادة أو الطرد من أرضه، وعندما يتعرض الوطن العربي كله أو بعضه للغزو الاستيطاني أو الاقتطاع، أي عندما تقوم أية محاولة لفصل الناس (الشعب) عن الأرض (الوطن) لا نكون بصدد خطر يتهدد بعض أبناء الشعب العربي يمكن تعويضهم عنه أرضاً بأرض، ولا بصدد خطر يتهدد جزءاً من الوطن العربي يمكن الاستغناء عنه أو المساومة عليه، بل نكون بصدد خطر يتهدد الوجود القومي العربي ذاته.

وهكذا تقدم لنا القومية أول ضوابط الموقف العقائدي من الغزو الصهيوني لفلسطين.

ثالثاً: ثم إنه لما كانت الأمة تكويناً تاريخياً فإن اشتراك الشعب في الوطن هي مشاركة تاريخية، تحول من ناحية دون الشعب وأن يتصرف في وطنه أو في جزء منه في أية مرحلة تاريخية معينة لأن الوطن شركة تاريخية بين الأجيال المتعاقبة. وتحول من ناحية أخرى دون أي جزء من الشعب وأن «يتصرف» في الإقليم الذي يعيش عليه أو في جزء منه بالتنازل عنه للغير أو تمكين الغير من الاستيلاء عليه (علاقة خارجية). وتحول من ناحية ثالثة دون أي جزء من الشعب وأن يستأثر بأي إقليم عن بقية الشعب (علاقة داخلية).

ومن هنا نصل إلى قاعدة نتائج هامة وملزمة قومياً. **أولها**: إن فلسطين كجزء من الوطن العربي إقليم مملوك ملكية مشتركة للشعب العربي كله وليس ملكاً خاصاً لشعب فلسطين. **ثانيها**: إن الشعب العربي كله، ومن باب أولى شعب فلسطين وحده، لا يملك الحق في التنازل، أو التفريط، أو المساومة، على حرية فلسطين. **ثالثها**: ان مسؤولية تحرير فلسطين واقعة على الشعب العربي كله وليس على شعب فلسطين وحده. **رابعها**: ان

كل الاتفاقات، أو المعاهدات، أو القرارات، والدساتير، والقوانين، والمواقف، والتصريحات، سواء كانت صادرة من دول أجنبية أو دول عربية، في الماضي أو الآن أو في المستقبل تمس حرية فلسطين غير مشروعة قومياً، فهي ليست حجة على الأمة العربية ولا قيداً على حقها في تحرير فلسطين.

رابعاً: إن الأمة كتكوين تاريخي لم تتكون اعتباطاً أو مصادفة، بل تكونت من خلال بحث الناس عن حياة أفضل. فإذا كنا قد بلغنا خلال المعاناة التاريخية الطور القومي، أي ما دمنا أمة عربية واحدة، فإن هذا يعني أن تاريخنا، الذي قد نعرف أحداثه وقد لا نعرفها، قد استنفد خلال بحث أجدادنا عن حياة أفضل كل إمكانيات العشائر والقبائل والشعوب قبل أن تلتحم معاً لتكون أمة عربية واحدة وأنها عندما اكتملت تكويناً كانت بذلك دليلاً موضوعياً غير قابل للنقض على أن ثمة «وحدة موضوعية» قد نعرفها وقد لا نعرفها، بين كل المشكلات التي يطرحها واقعنا القومي، أياً كان مضمونها، وأنها بهذا المعنى، مشكلات قومية لا يمكن أن تجد حلها الصحيح إلا بإمكانيات قومية، وقوى قومية، في نطاق المصير القومي. قد يحاول من يشاء أن يحل مشكلاته الخاصة بإمكانياته القاصرة، ثم يقنع بما يصيب، ولكنه لن يلبث أن يتبين، في المدى القصير أو الطويل، أن الحل الصحيح المتكافئ مع الإمكانيات القومية المتسق مع التقدم القومي، قد أخطأه عندما اختار أن يفلت بمصيره الخاص من الوحدة الموضوعية للمشكلات التي تشكل حلولها المصير القومي الواحد.

وهكذا بينما احتاج الاقليميون إلى الهزيمة المرة في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ليتعلموا أن أحداً لا يستطيع أن ينتصر في معركة التحرر ما دامت فلسطين محتلة، لا يحتاج القوميون إلى تجارب مريرة ليعرفوا أن أحداً لن ينتصر في معركة تحرير فلسطين ما دام للاستعمار قدم وقاعدة في الوطن العربي، وأن فلسطين لن تتحرر بغير إمكانيات قومية، وقوى قومية، في نطاق معركة التحرر العربي وإطار المصير القومي.

خامساً: وأخيراً، فإن هذه الوحدة الموضوعية بين المشكلات التي يطرحها الواقع القومي بما تعنيه من أن حلولها الصحيحة المتكافئة مع المقدرة القومية غير قابلة للتحقق إلا بإمكانيات وقوى قومية في إطار المصير القومي، تفرض الوحدة العربية كأداة يستحيل بدونها وضع كل الإمكانيات والقوى القومية، واستعمالها، في سبيل حل كل المشكلات العربية، وتحقيق المصير العربي الواحد. إن هذا لا يعني أن الإقليميين ودولهم عاجزون تماماً عن تحقيق أي نجاح في مواجهة المشكلات التي يتصدون لها، بل يعني تماماً أنهم لا ينجحون إلا مؤقتاً وأنهم لن يلبثوا أن يتبينوا، في المدى القصير أو الطويل، أن الوحدة لازمة لاطراد النجاح أو الحفاظ عليه.

وهكذا نعرف من الآن، أن فلسطين لن تتحرر في غيبة دولة الوحدة، وأنها حتى لو تحررت لن تستطيع أن تحافظ على تحررها إلا في ظل دولة الوحدة. كيف إذن فشلت وحدة ١٩٥٨ في تحرير فلسطين؟ لأسباب بسيطة، لأنها كانت استجابة قومية ولكنها لم

تكن وحدة قومية. فشلت في أن تتحول إلى وحدة قومية. كانت اشتراكاً بين إقليمين في الرئاسة وفي الحكومة، وبقي الإقليمان منفصلين جماهيرياً، واقتصادياً، ومالياً، وعسكرياً فلم تكن تجسيداً لوحدة المصير داخلها. ثم إنها قنعت بالإقليمين وتوقفت عن الامتداد، فارتضت التجزئة ولم تجسد وحدة المصير خارجها. وهكذا انقلبت إلى دولة إقليمية في إقليمين، بدلاً من أن تكون دولة الوحدة النواة ففقدت أساسها العقائدي، ومضمونها القومي، ففشلت.

- ٤ -

إلى هنا نكون قد عرفنا الموقف القومي العقائدي من الوحدة وعلاقتها بتحرير فلسطين. غير أن هذا لا يكفي، لأن الموقف القومي العقائدي تعبير سلبي في مواجهة الواقع، ويبقى أن نعرف كيف يحدد قوانا ويضبط حركتها الإيجابية، أي كيف تتحول القومية من وعي على المواقع إلى حركة لتغيير الواقع. وأن تقع العلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية في تلك «الحركة».

وأرجو ألا يكون غائباً عنا أن حقيقة المشكلة التي نعالجها آخذة في الوضوح خلال الحوار. فنحن الآن لسنا أمام القضية الشكلية الأولى: أيهما الطريق إلى الآخر الوحدة أم تحرير فلسطين، بل نحن أمام الحقيقة الموضوعية لتلك القضية: علاقة النضال من أجل الوحدة بالنضال من أجل تحرير فلسطين.

ولما كانت الحركة النضالية، أية حركة نضالية لتغيير الواقع تتضمن خمسة عناصر هي: المنطلق، والغاية، والقوى، والاستراتيجيا، والتكتيك، فسنرى فيما يلي - باختصار شديد - كيف تحدد لنا القومية العناصر الخمسة للحركة القومية وموقع معركة تحرير فلسطين منها:

أ - أما عن المنطلق فهو محدد بالوجود القومي ذاته. بالأمة كواقع موضوعي. وبواقع الأمة في مرحلة الانطلاق. وفي الواقع العربي وقائع كثيرة، أولها أننا أمة واحدة ولكن مجزأة وأن فلسطين جزء من الأمة العربية ولكن مغتصبة، من هنا تكون البداية.

ب - أما عن الغاية فهي محددة بوحدة الوجود القومي التي تعني اختصاص الشعب العربي كله بالوطن العربي كله، فما يتفق مع تلك الوحدة يبقى وما لا يتفق معها يجب أن يزول. ولما كانت الصهيونية تغتصب جزءاً من الوطن العربي وكانت كل دولة عربية تستأثر بجزء من ذلك الوطن، وكان هذا وذاك لا يتفقان مع وحدة الوجود القومي، فإن غاية النضال القومي تكون استرداد الأرض العربية من غاصبيها، وإلغاء تجزئتها وإقامة دولة عربية واحدة عليها، بما فيها فلسطين.

وهكذا يكون النضال من أجل الوحدة كهدف متضمناً النضال من أجل تحرير فلسطين، ولكنه ينفي الفصل بين هدفي الوحدة والتحرير.

ج ـ أما عن القوى فمحددة بوحدة المصير القومي. ولما كانت وحدة المصير القومي تعني أن الحل الصحيح لا يمكن أن يتحقق إلا بإمكانيات قومية، وقوى قومية، فإن القوى المناضلة من أجل الوحدة لن تكون قادرة على النصر النهائي إلا إذا كانت قوى قومية. أي إلا إذا كانت مجسدة في ذاتها هدف الوحدة. وهي لا تكون كذلك إذا قبلت التجزئة الإقليمية فيها، أي إذا قبلت أن تكون قوى إقليمية ولو كانت متحالفة.

وهكذا تكون وحدة القوى القومية شاملة المناضلين في معركة فلسطين ولكنها تنفي تجزئة القوى إلى قوى قومية وقوى فلسطينية.

د ـ أما عن الاستراتيجيا فهي محددة بالوحدة الموضوعية للمشكلات التي يطرحها الواقع القومي فلا بد من أن تكون استراتيجيا واحدة تصل بين الواقع القومي والمصير القومي. ولما كانت الوحدة العربية الشاملة لا تقوم إلا بعد التحرر الكامل لكل أجزاء الوطن العربي فإن التحرر يشكل المرحلة الأولى من استراتيجية النضال من أجل الوحدة. وهي استراتيجيا ملزمة للمناضلين في كل جزء: التحرر كمرحلة أولى من نضال غايته الوحدة. وهكذا تدخل معركة تحرير فلسطين في نطاق المرحلة الاستراتيجية الأولى من النضال القومي من أجل الوحدة العربية: مرحلة التحرر. ويصح القول بأن تحرير فلسطين هو الطريق إلى الوحدة بشرط أن نفهمه على أنه طريق دخول «فلسطين» إلى دولة الوحدة العربية.

ومن ناحية أخرى، فإن وحدة الاستراتيجيا تعني أنه كلما انتصرت القوى القومية في ساحة معركة ألقت بقوتها في الساحات الأخرى إلى أن تتحقق الوحدة العربية الشاملة. وهكذا يكون النضال القومي ملتزماً بسحق الإقليمية وإلغاء التجزئة في الأجزاء المتحررة وإقامة دولة الوحدة النواة ثم الدخول بها معارك تحرير وتوحيد باقي الأجزاء. وتضاعف المقدرة على النصر ـ هنا ـ لا شك فيه، ولكنه ليس مصدر الالتزام بتحقيق الوحدة النواة والدخول بها معركة التحرير، بل مصدره الموقف القومي العقائدي. وعلى هذا يصح القول بأن الوحدة هي الطريق إلى تحرير فلسطين بشرط أن نفهمه على أنه طريق الوحدة النواة إلى الوحدة الشاملة.

هـ ـ أما عن التكتيك فلا يتوقف على القوى القومية، ولكن على ظروف المعارك، وقوى الأعداء، وأساليبهم، وغاياتهم. والقوى القومية مطالبة في هذا بأن تلتزم الأسلوب العلمي في المواقع التكتيكية لهزيمة القوى المعادية. ولكن ـ وهذا بالغ الأهمية والخطورة ـ في نطاق الالتزام الاستراتيجي. أي ألا تترك للقوى المعادية فرصة استدراجها من خلال المناورات التكتيكية إلى خارج خطها الاستراتيجي، أو أن تندفع هي إلى قبول أي نصر تكتيكي يكون على حساب الغاية الاستراتيجية. وهكذا لا يجوز أن نتنازل، أو نتراجع عن هدف الوحدة العربية من أجل النصر التكتيكي في أية معركة ولو كانت معركة تحرير فلسطين.

وهكذا يستقيم لنا ـ كما أرجو ـ فهم العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين في هذه

المرحلة. على وجه يمكن تلخيصه في جملة قصيرة: التحام القوى القومية في قوة مناضلة واحدة تخوض معركة تحرير فلسطين وتفرض الوحدة في الأجزاء المتحررة، ثم تدخل بها المعركة لتأمين النصر النهائي في معركة تحرير فلسطين حتى تستطيع أن تكسب فلسطين لدولة الوحدة.

فهل هي علاقة صحيحة؟

هنا يأتي دور الممارسة لتكون محكاً لاختبار صحة المعرفة العلمية.

فماذا تثبت الممارسة؟

ـ ٥ ـ

أما على الجانب العربي فلم يكفّ أي قادر على الكلام، منذ حزيران/يونيو ١٩٦٧ عن القول بأن معركة تحرير فلسطين معركة عربية، وأن مسؤولية تحرير فلسطين تقع على الأمة العربية كلها، وأن التعامل مع «الواقع الملموس» ـ كما قالت إحدى النشرات الصادرة من الجبهة ـ أثبتت أنه: «من الواضح أن النضال من أجل تحرير فلسطين ليس مهمة الشعب الفلسطيني وحده بل مهمة الشعوب العربية كلها وأن إنجاز هدف التحرير وتصفية الكيان الاسرائيلي لا يمكن أن يكون إلا حصيلة نضال الشعوب العربية كلها في حرب شعبية طويلة الأمد ضد الإمبريالية والصهيونية على امتداد الأرض العربية». وأنه ما لم تتم تعبئة طاقات الجماهير العربية كلها فإن سحق العدوان الاسرائيلي وتدمير جذوره يبقى حلماً غير قابل للتحقيق (الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين - حركة المقاومة الفلسطينية في واقعها الراهن)... كلهم، كل المساهمين في المعركة، قادة، وقواعد، وحكومات لا يكفون عن الاستغاثة بالمئة مليون عربي، وتحميلهم مسؤولية معركة التحرير التي لا يمكن أن يتم النصر فيها بغير قوة الجماهير العربية. حتى الإقليمية الفلسطينية تدعو الجماهير العربية إلى أن تحشد نفسها في جبهة مساندة.

إذن فـ «الواقع الملموس» قد أثبت أن النصر لا يتم إلا بالتحام الجماهير العربية وفاء لمسؤوليتها عن تحرير فلسطين. وهو صحيح.

ولكن الذين يستغيثون بالأمة العربية، وبالمئة مليون عربي، ويحملونهم مسؤولية تحرير فلسطين، لم يقولوا شيئاً عن حقوق المئة مليون عربي في فلسطين (المتحررة) أو في إزالة آثار العدوان. لم يقل أحد كلمة واحدة إجابة عن السؤال الذي يهم الجماهير العربية: لماذا يموتون من أجل تحرير فلسطين؟ أليست المسؤولية هي الوجه الآخر للحق؟ فأين حق الأمة العربية في فلسطين، وكيف يتجسد؟ إن من أغرب ما قرأنا في هذا ما قاله أولئك الذين أصدروا نداءهم المنشور عن حلم التحرير الذي لا يتحقق إلا بنضال الشعوب العربية تبريراً لدخول الجماهير معركة التحرير. قالوا: لأن الجماهير الكادحة لا تملك شيئاً تخسره. كأن الجماهير الكادحة لا تملك الحياة، مع أنها تملك مع الحياة أمل

الوحدة والاشتراكية. ويستغيثون بالجماهير العربية دفاعاً عن الكرامة العربية. والكرامة العربية عزيزة وتستحق القتال دفاعاً عنها. ولكنها ليست كلمة فارغة. إنها تعني حياة كريمة مطهرة من المذلة ولا يريد أحد أن «يعد» الجماهير العربية حتى بالحياة الكريمة المطهرة من المذلة ولو بعد التحرير، ربما لأنهم يعرفون أن ذلك وعد لا يتحقق إلا في دولة الوحدة العربية، وهم لا يريدون أن يلتزموا بوعد الوحدة بعد التحرير. إن الجماهير العربية ليست بلهاء وقد كان لها في حزيران/يونيو ١٩٦٧ عبرة لا تنسى، فإذا كان أحد يظن أنها ستقاتل حتى الموت إلى أن تتحرر فلسطين لمجرد أن يعود الأمر في الوطن العربي إلى ما كان عليه قبل حزيران/يونيو ١٩٦٧ فسيتعلم أن الغباء لا ينفع صاحبه أبداً. والغباء وباء في الإقليمية العربية. بدليل أنهم ما زالوا يتصرفون على أمل أن كل شيء سيبقى كما كان. بل إن منهم من هو مشغول عن المعركة بمخططات التوسع بعد المعركة فهو يدخر قواه ليبني في الأرض العربية امبراطوريته الخاصة. وكل هذه أوهام. لا يساويها وهماً إلا توقع استجابة الجماهير العربية لدعوة الالتحام من أجل الموت لا شيء أكثر، واستنفارها بالحديث عن المسؤولية بدون التزام بحقها في الأرض العربية. والوحدة العربية هي التي تجسد هذا الحق لا شيء غيرها. وهكذا نرى أنه إذا كان «الواقع الملموس» في المعركة يعلق النصر على التحام الجماهير العربية وكان هذا الالتحام لا يتم، إلا على هدف الوحدة فإن هذا «الواقع الملموس» يقدم دليلاً من الممارسة على أن النصر لا يتم إلا بالتحام تحرير فلسطين بالوحدة العربية.

أما عن الجانب الآخر، جانب القوى المعادية فإن الأمر أكثر وضوحاً. فهي تخوض معركتها ضد الأمة العربية وليس ضد أية دولة عربية. وهذا واضح من أن المعركة الصهيونية عندما وضعت مخططاتها لغزو الوطن العربي في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ لم تكن هناك أية دولة عربية قائمة لا فلسطين ولا غير فلسطين. قد تصطدم الصهيونية تكتيكياً مع دولة عربية قائمة أو أخرى تبعاً لما تتبينه من مخاطر مؤقتة. ولكن خطتها الاستراتيجية تستهدف إقامة دولة يهودية من الفرات إلى النيل، بصرف النظر عما هو قائم على تلك الأرض من دول أو نظم أو قوى. الغزو الصهيوني موجه إذن إلى الأمة العربية. فهي الطرف الأصيل في المعركة وهذا يقتضي أن تكون قواها في المعركة قوى قومية ملتحمة.

وإذا كانت الحركة الصهيونية ذات أهداف محددة واستراتيجيا خاصة، فإن من عناصر تلك الاستراتيجيا التحالف مع القوة الاستعمارية المتفوقة. تحالفت مع ألمانيا أولاً، ثم مع بريطانيا ثانياً، ثم مع الولايات المتحدة الأمريكية أخيراً، تبعاً لانتقال قيادة الاستعمار العالمي. وللاستعمار العالمي موقف عدائي لم يتغير ضد الوحدة العربية. هو الذي صنع التجزئة إبقاء للتخلف حتى يظل مسيطراً على مقدرات الأمة العربية. وهو الذي يحرس التجزئة حتى لا تقوم الوحدة. وهكذا التقت المصالح الاستعمارية مع المصالح الصهيونية لإقامة دولة يهودية على الوطن العربي تحقق أهداف الصهيونية وتحول دون الوحدة معاً.

قرأنا كلنا عن تقرير كامبل ـ بانرمان سنة ١٩٠٧ الذي انتهى إلى أن حماية المصالح الاستعمارية في الوطن العربي تستلزم إقامة حاجز بشري قوي وقريب يفصل المشرق العربي عن المغرب العربي ويحول دون الوحدة العربية المتوقعة. ولقد كنت مهتماً بالتعرف على هذا التقرير في مصدر رسمي تحقيقاً لصحة الإشارة إليه في الكتابات الخاصة. إلى أن اطلعت على ملخص له منشور في وثيقة عربية رسمية فأصبح حقيقة تمكن الإشارة إليها. ولكنها ليست الحقيقة الوحيدة، فقد كانت من ضمن المكاسب التي تحققت بعد هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ أن أصبح للقضية العربية أنصار من الدارسين في أوروبا وخاصة من الفرنسيين. وعرفنا مما كشفوه من وثائق علاقة الغزو الصهيوني بالوحدة. من هذه الوثائق ما نشره بيير ديستريا في كتابه **من السويس إلى العقبة** صفحة ٥٦ نقلاً عن كتاب نشر في فرنسا سنة ١٩٣٧ بعنوان **الله أكبر** ألفه محمد أسعد بك، وهو اسم مستعار لأحد عملاء الصهيونية في الوطن العربي. والكتاب عبارة عن تقرير كان مقدماً إلى أحد قادة الحركة الصهيونية العالمية هو المستشرق النمساوي الدكتور فولفجانج فايست يقول كاتبه:

«إن خلاصة الأسباب الجدية للكفاح من أجل الأرض المقدسة هو موقعها الاستراتيجي وتأثيره في مستقبل المنطقة. فلو عادت فلسطين إلى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربية مسلحة تستطيع أن تتحكم في قنال السويس والطريق إلى الهند. أما إذا ظلت فلسطين مستقلة، أو أصبحت دولة يهودية، فإنها ستقوم عقبة في سبيل إنشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دولة عربية وأخرى على جانبي فلسطين. إن دولة صغيرة «حاجزة» تقوم على ١٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع على ضفتي نهر الأردن ستحمي كل دولة عربية ضد تدخل أية دولة عربية أخرى..

إن توازن القوى حول قنال السويس يتوقف إذن على استقلال فلسطين بالنسبة إلى العالم العربي، يتوقف على دولة في فلسطين تكون كسويسرا عند ملتقى القارات الثلاث. إن هذا الاستقلال يتفق تماماً مع طموح الاستعمار اليهودي، ذلك لأن اليهود وحدهم هم الذين ستكون لهم مصلحة في هذا الاستقلال وليس العرب إذ إن هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج في دولة عربية كبرى».

إن هذا الكلام القديم يبدو حديثاً، لأنه يعبر عن استراتيجيا معادية وضعت قديماً وما تزال تحكم تكتيك القوى المعادية. ومن حين إلى آخر يعبرون عنها بوضوح وقوة. في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٨ أي بعد قيام وحدة ١٩٥٨ نشرت مجلة **الأوبزرفاتور دي مويان أوريان** مقالاً بمناسبة الذكرى الثانية لحرب ١٩٥٦ قالت فيه: «إن التفوق الاسرائيلي قدم ضماناً لحماية الوضع القائم ضد المحاولات الوحدوية. لقد أصبح واضحاً أن حفظ التوازن فيما بين الدول العربية المجاورة لإسرائيل والدول العربية عموماً مهمة يتولاها الاسرائيليون وتدخل في نطاق واجباتهم. إننا نقوم هنا، إذا صح التعبير، على تنفيذ «مبدأ مونرو» خاص بالشرق الأوسط. إن القرار الذي اتخذناه بهذا الخصوص منذ عشر سنوات (أي منذ ١٩٤٨..) قد أدى إلى الاستقرار والسلام بدلاً من الخوف». وفي كانون الأول/

ديسمبر سنة ١٩٦٦ قال ليفي أشكول في رسالة بالراديو: «إن سياسة إسرائيل منذ ١٩٥٨ (أي منذ الوحدة..) أن تحول ولو بالقوة دون أي تغيير يحدث في الوضع القائم في الدول العربية». وفي شباط/فبراير سنة ١٩٦٧ قال أبا إيبان في تصريح أدلى به في لندن: «يجب أن يكون واضحاً أن مصير المنطقة العربية لا يمكن أن يكون الوحدة، بالعكس إنه الاستقلال القائم على التجزئة».

وهكذا تثبت الممارسة ــ ممارسة المعركة ضدنا ــ أن القوى المعادية قد غزت فلسطين مقدمة لغزو مزيد من الأرض العربية لإقامة دولة يهودية وظيفتها أن تحول دون الوحدة العربية الشاملة كهدف استراتيجي لتلك القوى المعادية.

وهذا يعني أن طبيعة معركة تحرير فلسطين التي تفرض التحام الجماهير العربية تحتم أن يكون التحامها من أجل الوحدة كهدف استراتيجي للقوى العربية. وبهذا تقدم طبيعة المعركة الدليل على صحة الموقف القومي من العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين.

ــ ٦ ــ

إذا كان هذا هو الحل الصحيح، فما الذي يحول دونه؟

أولاً، وقبل كل شيء، عدم وفاء القوى القومية بمسؤولياتها. فلو أرادت الوفاء لما حالت أية قوة على الأرض دون أن تلتحم في قوة مناضلة لتحرير فلسطين وإقامة دولة الوحدة.

ثانياً، الإقليمية العربية. والإقليمية كنقيض للقومية تقوم على أساس أن كل إقليم عربي تكوين اجتماعي (مجتمع) قائم بذاته مستقل بمصيره. ولما كان الاستقلال علاقة ذات طرفين أو أكثر (استقلال بالذات عن الغير) فإن دلالة الإقليمية تتجاوز أي إقليم لتصبح علاقة قائمة على تبادل الاعتراف بتجزئة الوطن العربي تجمع الإقليميين في كل مكان، حتى الذين لا ينتمون إلى دولة عربية، لتضعهم جميعاً في مواجهة الشعب العربي في موقف مضاد لوحدته القومية. وتتجسد هذه الإقليمية في الموقف الإقليمي من المشكلات العربية، ومن معركة تحرير فلسطين، بوجه خاص، لأن الإقليمية متصدية فعلاً للمعركة دفاعاً عن فلسطين أو دفاعاً عن الأجزاء التي احتُلت بعد ١٩٦٧ ولكن من موقف إقليمي.

وقد قلنا دائماً ونقول الآن إن الإقليمية فاشلة.

ولسنا نحتكم لتجربة الفشل في السنين الماضية، لأن هناك من يتوهمون أن تغيير القيادات الإقليمية قد يكون سبباً للنصر. وذلك من أوهام الإقليمية. لأن فشل الإقليمية كامن في ذاتها مهما تكن نوايا قادتها. ففي معركة تحرير فلسطين مثلاً، تفتقد الإقليمية (غير الفلسطينية) حتى مبررات القتال. إن استقلال الدول الإقليمية ذاتاً ومصيراً يجردها من أي حافز للقتال من أجل تحرير فلسطين لسبب بسيط هو أن فلسطين تقع خارج

حدود الدول الإقليمية المستقلة ذاتاً ومصيراً. وأكثر الإقليميين أمانة هم الذين يعترفون بهذا ويبحثون عن مخرج لاسترداد ما ضاع من أرضهم ثم يلقون مسؤولية تحرير فلسطين على شعب فلسطين. وإذا قيل إن اسرائيل تمثل خطراً على الدول العربية فإن المسألة ـ بمنطق الإقليمية ـ تكون كيف تؤمن وجودها من هذا الخطر. وهو ممكن ولو بالمساومة على أرض فلسطين ذاتها، ولو بقبول حماية واحدة أو أكثر من الدول الكبرى. كل هذا ممكن بدون حاجة إلى تحرير فلسطين، وإذا لم يكن ممكناً فإن الإقليميين سيقاتلون دفاعاً عن أرضهم إن استطاعوا، ولكنهم لن يصلوا أبداً ـ ولو استطاعوا ـ إلى حد دخول معركة تحرير فلسطين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن «الإقليمية» المستقلة ذاتاً ومصيراً تعني **أولاً** استئثار كل دولة عربية بالجزء الذي تقوم عليه فهي تغتصبه من الأمة العربية. وتعني **ثانياً** حرمان الشعب العربي فيها من حقه في الأرض العربية خارجه فهي تحبسه فيه. وبهذا تحول ـ سلبياً وإيجابياً ـ دون التحام الجماهير العربية في قوة موحدة لتحرير فلسطين وإقامة دولة الوحدة. وبهذا لا تخدم إلا الغزو الصهيوني لفلسطين. ولهذا عندما يتحدث الإقليميون عن تحرير فلسطين لا يصدقهم أحد ويسخر منهم العالم كله. والعالم على حق لأن الإقليمية المستقلة بمصيرها عن فلسطين تكون غير منطقية عندما لا تترك فلسطين لمصيرها المستقل. إن على الشعب العربي في كل مكان أن يفلت من شراك التضليل ولو احتراماً لأرواح الشهداء من أبنائه الذين راحوا ضحية التضليل الإقليمي. والحقيقة أننا ما دمنا متفقين على أن التجزئة قد سهلت غزو فلسطين، فيجب أن نعرف ونعترف بأن الغزو الصهيوني لفلسطين قد بدأ واتسع وما يزال قائماً في حماية الإقليمية العربية التي تجسد تلك التجزئة. وإذا كنا متفقين على أن الإقليمية العربية مشتبكة في صراع ضد الصهيونية دفاعاً عن استقلالها، فيجب أن نعرف، ونعترف بأن هذا الاستقلال لا يعني أنها ستخوض معركة تحرير فلسطين، بل يعني أنها طالما بقيت في الوطن العربي فستحول، بكل الطرق، من أول المغالطة اللفظية إلى آخر التصفية الجسدية، دون التحام القوى القومية لدخول معركة تحرير فلسطين، أي ان استقلالها ذاته يحول دون تحرير فلسطين، وانها يجب أن تسقط لتقوم دولة الوحدة حتى تتحرر فلسطين.

أما الإقليمية الفلسطينية فلها مصلحة مؤكدة في تحرير فلسطين. ولا شك في أنها ستقاتل ما استطاعت لتحرير فلسطين. ولكن الإقليمية ستخذلها. الإقليمية فيها والإقليمية خارجها. هذا لا شك فيه. إن شعار الاستقلال عن الدول العربية بمعركة تحرير فلسطين يتضمن حتماً استقلال الدول العربية عن معركة تحرير فلسطين. وليس صحيحاً أن يقال إنه مع ذلك لا يعني الاستقلال عن الجماهير العربية ولا يحول دون التحامها في معركة تحرير فلسطين. لأن مجرد الدعوة إلى التحام الجماهير العربية يعني دعوتها إلى كسر القيود الإقليمية وهو أمر يمس صميم وجود الدول الإقليمية ويتناقض مع استقلالها عن فلسطين واستقلال فلسطين عنها. إن كان هذا تكتيكاً فهو تكتيك فاشل لأنه ينطوي على مغالطة

مكشوفة. وكل تكتيك ناجح يجب أن يكون منضبطاً عقائدياً واستراتيجياً وإلا فهو مغامرة أو مقامرة.

- ٧ -

الحل القومي، إذن، هو الحل الصحيح لمشكلة تحرير فلسطين. فهل هناك موضع في هذا الحل لمشكلة الإقامة في فلسطين المتحررة، تلك المشكلة التي يقدمون لها صيغة فلسطين المسماة «ديمقراطية»، حلاً يرضي ـ فيما يقولون ـ الرأي العام العالمي؟ إن حلها القومي واضح وصريح. إذ بمجرد أن ننسى التمييز الديني والعنصري تقدم لنا «القومية» الحل الصحيح. فالقومية لا تقبل الاستقلال الإقليمي لفلسطين عن الأمة العربية. وفلسطين الإقليمية فاشلة من الآن في حل مشكلة الإقامة فيها. فهي «دويلة» يواجه فيها مليونان من المجني عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة: الدار المهجورة وقد سكنت، والأرض المتروكة وقد زرعت، والأموال المنهوبة وقد أصبحت أموال الآخرين. ثم يقال لهم لا تذكروا ما كان وعيشوا «ديمقراطيين»، كأن الديمقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من القائلين. إن فلسطين، مهما تكن أرض السلام، ستضيق بمن فيها وتنتهي حرب التحرير لتبدأ الحرب الأهلية في أرض فلسطين. القومية لا تقبل إلا دولة الوحدة ودولة الوحدة أكثر رحابة من فلسطين. وفي دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون أن يعيشوا آمنين. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن للأمة العربية أبناء من اليهود في فلسطين المحتلة وفي أماكن كثيرة من الأرض. أولئك العرب اليهود. إنهم يحملون لسبب أو لآخر الهوية الاسرائيلية أو هويات أخرى أجنبية. وهم لسبب أو لآخر قد انتقلوا إلى فلسطين أو غادروا الأرض العربية إلى أماكن أخرى. كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية. ولكل هؤلاء حق قومي في أن يقيموا في رحاب أمتهم على وطنهم العربي في فلسطين أو في غير فلسطين. ولكل هؤلاء حق في أن تكون دولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية دولتهم القومية التي تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الأمن وأسباب التقدم الاجتماعي. وكل هؤلاء مطالبون بأن يعبروا عن ولائهم لأمتهم وأن يرتفعوا بوعيهم إلى مستوى المسؤولية القومية، وأن يعرفوا أن أرض فلسطين هي أرض أمتهم العربية، وأن لهم حق الإقامة فيها سواء كانوا فيها من قبل، أو كانوا وافدين إليها من أقطار عربية أخرى. وأن من حقهم أن يعودوا إليها، أو إلى أي مكان من الوطن العربي إن كانوا قد غادروا أرضهم العربية. بل إنهم في القومية سواء مع إخوتهم العرب الذين أكرهوا على مغادرة فلسطين، لا فضل لأحد منهم على الآخر إلا بقدر ما يجسد، فكراً ومسلكاً، ولاءه القومي لأمته العربية. وحتى الذين تورطوا منهم فوجدوا أنفسهم في مواقع الخيانة لأمتهم، ويقتلون إخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة فإن جزاءهم سيكون متعادلاً مع ما كان لهم من حرية في الاختيار، وعلى ما يكون لهم من موقف يختارونه في الصراع العربي ضد الغزو الصهيوني. ولكنهم في كل الأحوال لن يكرهوا على مغادرة أرضهم العربية ولن يفتقدوا حماية دولة الوحدة.

أما الذين خانوا أوطانهم فهجروها، وجاؤوا غزاة للوطن العربي فلا مكان لهم في الأرض العربية. وعليهم أن يلحقوا بأممهم حيث كانوا، ولسنا مطالبين أن ندفع لهم ثمن الخيانة أو أن نقدم لهم مكافأة على العدوان.

ذلك هو الحل السلمي الوحيد المقبول قومياً.

وهو حل لا نبتكره نفاقاً لدعاة السلام، إنما نقدمه دليلاً على سهولة الاهتداء إلى الحلول السلمية الصحيحة من الموقف القومي العقائدي لأنه الموقف الصحيح. وليس أدل على أنه الحل السلمي الصحيح من أن المهاتما غاندي قد طرحه منذ ربع قرن. ولا أحد ينكر أن غاندي كان رمزاً خالصاً للسلام الإنساني مع أنه لم يكن عربياً قومياً. قال غاندي في ١٤ تموز/يوليو سنة ١٩٤٦:

«إن فلسطين للعرب بذات المعنى الذي تعتبر فيه انكلترا للإنكليز وفرنسا للفرنسيين. إنه لخطأ بيّن، وأمر غير إنساني، أن يُفرض اليهود على العرب. إن ما يجري في فلسطين اليوم لا يمكن أن يوجد له مسوغ من أي قانون أخلاقي للسلوك.. إنها لجريمة ضد الإنسانية أن يُقبر العرب الأعزاء لكي يتخذ اليهود كل فلسطين أو جزءاً منها وطناً قومياً لهم. إن التصرف الأمثل هو الإصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة في أي مكان ولدوا ونشأوا فيه».

ونحن باسم القومية العربية نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة في وطنهم العربي، وما على الأمم الأخرى إلا أن توفي بمسؤولية السلام فتحمي أبناءها اليهود من التعصب ضد السامية. وبهذا الحل تحل المشكلة ويسود السلام.

إن دعونا القومية، إذن، دعوة سلام في جوهرها. وإننا لمسؤولون قومياً عن تحرير العرب اليهود من القهر العنصري المفروض عليهم في أرض فلسطين. ومسؤولون قومياً عن عودة العرب اليهود الذين غادروا وطنهم العربي وتعويضهم عن أي عسف لم يحترم انتماءهم القومي للأمة العربية. ولكننا غير مسؤولين على أي وجه عن إرضاء التعصب الأوروبي ضد اليهود أو التعصب الصهيوني ضد البشر جميعاً، بأن نقيم للصهيونية دولة في أرضنا، سواء في فلسطين، أو حتى في الربع الخراب من الصحراء القاحلة. لا أحد يملك هذا ولا أحد يستطيعه. فإن جنحوا إلى السلم جنحنا، وإن أصروا على البقاء أكرهناهم على العودة إلى أوطانهم، ونعد لهم ما نستطيع من قوة.

أهي عودة إلى شعار إلقائهم في البحر؟

إن هذا لا يتوقف علينا، ولكن على الطريقة التي يختارونها للجلاء عن الأرض العربية. وعلينا أن نكف عن «النفاق» باسم الإنسانية فإن الحرب ليست مباراة رياضية، بل هي صراع وحشي، ومجزرة بشرية. وإذا كان ثمة من يدعي الإنسانية نفاقاً فليبحث أولاً عن المسؤول عن المجازر البشرية، والعرب لم يكونوا أبداً مسؤولين.

في أواخر الحرب الأوروبية الثانية كانت أغلبية اليهود الألمان في سجون النازية. وكانت النازية في مأزق اقتصادي وعسكري لا يمكّنها من الإبقاء عليهم. فاتفقت النازية والصهيونية في مفاوضة مباشرة جرت في سويسرا على ترحيلهم من ألمانيا. وعُرض الأمر على الحلفاء، فأحالوه إلى لجنة برئاسة اللورد موين الانكليزي. ثم استقر الرأي على أنه بالرغم من مخاطر الإبادة الجدية التي تعدّها النازية للتخلص منهم، إلا أن ترحيلهم من ألمانيا سيخفف عنها بعض متاعبها ويعوق انتصار الحلفاء. وقرروا جميعاً ترك اليهود للموت فأبيدوا بالوحشية التي نذكرها. ونذكر أيضاً أن الحركة الصهيونية طاردت من أجل هذا اللورد موين حتى قتلته في شوارع القاهرة.

إنها الحرب. والصهاينة أول من يعلمون هذا، ويعاملوننا وفقاً له.

فإذا كان واحد من العرب قد قال ـ أخيراً ـ إننا سنلقي الاسرائيليين في البحر، فليتذكر المنافقون أن الزعيم الصهيوني وايزمان قد قال: «لا أذيع سراً إذا قلت إننا اتفقنا مع بريطانيا على تسليمنا فلسطين خالية من العرب قبل نهاية الانتداب». وان الزعيم الصهيوني جابوتنسكي قال: «إن فلسطين يجب أن تكون لليهود أما العرب فلهم الصحراء. إن اتباع سياسة اللين مع العرب للتوصل إلى أركان الوطن القومي اليهودي في فلسطين ثم إجلاء العرب عنها تدريجياً مع الزمن، سياسة مملة يطول شرحها، لأنه أصبح معروفاً لدى العرب ما هي الغايات التي يسعى إليها اليهود، ولذلك بات من الضروري مجابهة العرب بالأمر الواقع وإفهامهم ضرورة الجلاء إلى الصحراء». وان الزعيم الصهيوني إسرائيل فرانكويل قال: «إن فلسطين وطن بلا شعب فيجب أن تعطى لشعب بلا وطن، وواجب اليهود في المستقبل أن يضيقوا الخناق على سكان فلسطين العرب حتى يضطروهم إلى الخروج منها». وان الزعيم الصهيوني سميلانسكي قال: «إن فلسطين يجب أن تكون وطناً للشعب اليهودي وإنه من الممكن نقل أهل فلسطين العرب إلى الأقطار العربية المجاورة». وان الزعيم الصهيوني مناحيم بيغن قال: «إن مذابح الأسر العربية عمل رائع من أعمال الاستراتيجية العسكرية». وان الزعيم الصهيوني بن غوريون قال: «علينا أن نتلقن الدرس بأن الهزائم العسكرية في حد ذاتها لا جدوى من ورائها ما لم يعقبها إجراء فعال، وعلينا أن نستخدم الانتصارات العسكرية كأساس للتوطن السكاني الذي لا يمكن إغفاله». وانه فيما بين يومي ١١ ـ ١١ ـ ١٩٤٨ و١٧ ـ ١١ ـ ١٩٦٦ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة ثمانية عشر قراراً بعودة الشعب العربي إلى فلسطين فقال الزعيم الصهيوني أبا إيبان: «حتى لو صوتت الأمم المتحدة بنسبة ١٢١ إلى واحد فلن نقبل قرارها».

فهل فقدوا بهذا كثيراً من الرأي العام العالمي؟

لنكف إذن عن «النفاق» باسم الإنسانية فإن النفاق لا يخدع أحداً. إن الأوروبيين الذين يريدون كسبهم نفاقاً هم الذين ألقوا باليهود في الأفران الموقدة وليس في البحر. وهم الذين أهلكوا من أنفسهم خمسين مليوناً في حربين خلال ربع قرن دفاعاً عما

يعتقدون أنه حق. وتعلموا من كل هذا أن دعوة الحق التي تهرب من حلبة الصراع دفاعاً عنه دعوة منافقة.

ولنقلها صريحة قاطعة: إذا فرض علينا العالم أن نختار بين أن يذهب العرب إلى جوف الصحراء، أو أن يذهب الصهاينة إلى أعماق البحر، فليذهب الصهاينة إلى أعماق البحر، ولن نكون نحن المسؤولين، بل العالم هو المسؤول.

ـ ٨ ـ

وأخيراً، فلست غافلاً عن أن هذا الحديث قد ترك وراءه سؤالاً ما يزال معلقاً بدون إجابة. ذلك هو السؤال الخاص بالمضمون الاجتماعي لعلاقة الوحدة بتحرير فلسطين. وهو سؤال بالغ الأهمية بحيث لا تمكن الإجابة عليه إجابة قاصرة على هامش الموضوع الذي نتحدث فيه. ويكفي أن نقول هنا ـ ونرجو ألا يخطئ أحد في فهم العلاقة بين ما نقول وما قلنا ـ إننا نتحدث كاشتراكيين. فالقومية عندنا إطار الاشتراكية ووعاؤها. والتحرر مرحلة أولى في سبيل الوحدة التي هي بدورها أداة بناء الاشتراكية. والقوى القومية هي التي تخوض معارك التحرير والوحدة لتحقق حياة اشتراكية لكل الجماهير العربية. باختصار: إن المصير القومي الذي تحدثنا عنه كثيراً، والتزمناه غاية، هو مصير قومي اشتراكي.

ذلك لأن الناس لا يقاتلون حتى الموت عبثاً، بل يقاتلون من أجل حياة أفضل[١].

(١) محاضرة ألقيت في دار نقابة المحامين في عمّان، الأردن.

معركة المصير (*)

سهيل إدريس

يقول الكاتب الصحفي الحر محمد النقاش في صحيفة الشعب البيروتية:

«طالما كنا من مؤيدي الحرب على اسرائيل حتى النصر أو الموت. وليس ذلك فقط لأن أية تسوية سياسية مهما عدلت فإنها لن تكون في مصلحة العرب، بل لأننا نؤمن بحاجة أمتنا إلى القتال، إلى خوض معركة حقيقية تكون عنصراً أساسياً في مقومات نهضتنا الحديثة».

وبعد أن استشهد الكاتب بما قاله الجنرال ديغول من أن «الحروب لتسمو بأخس النفوس» استطرد يقول: «وفي صفوفنا اليوم ما لا يحصى من النفوس الخسيسة. وليس الذنب ذنبها بقدر ما هو ذنب الظروف التاريخية التي مرت بنا من جمود وخمول واستعمار، وكادت تخرج بالعروبة عن أصالة طباعها وتقاليدها في الشجاعة والفداء».

والحق أن الفساد الذي استشرى في أوصال الأمة العربية على كل صعيد، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، هو الذي يبث الانحلال في جميع مرافق حياتنا، فإذا نحن نعيش عيشة تافهة لا تسمو بها مطامح ولا تحدوها شعلة ملهمة. وقد يكون طبيعياً أن نجد الانهزامية واليأس يتأكلان ذوي النفوس الضعيفة منا، ويراودان بين الحين والحين حتى ذوي النفوس القوية.

وقد بات واضحاً أن هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لم تكن إلا محصلة انهيارات مرعبة في كيان الإنسان العربي أحدثتها عوامل كثيرة كان أهمها فقدان الروح النضالية التي لا بد أن تتوفر لكل أمة تريد الحياة في هذا العالم القائم على الصراع والنزاع والمطامع.

إن روح القتال قد خمدت في النفوس العربية طوال عقود من السنين، حتى في نفوس كثيرين ممن نذروا أنفسهم لحركة المقاومة والفداء. والواقع أن هؤلاء الفدائيين لا

(*) نُشر في: الآداب، السنة ١٩، العدد ١٢ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١)، ص ٢.

يستطيعون أن يتحلوا بهذه الروح إذا وهنت في نفوس أفراد الشعب الذي أطلعهم، فمنه وحده يستمدون طاقتهم على الفداء أو على الخمول والاستسلام.

وليس أمام الأمة العربية بعد إلا أن تخوض معركة كبرى هي التي ستكون معركة التطهير الحقيقية: تطهير الأرض العربية من الاستعمار والاحتلال، وتطهير النفس العربية من الفساد والانحلال.

في هذه المعركة، لن يكون هناك محايدون ومراقبون ومتفرجون: فلا بد لها من أن تكون معركة شاملة، تشارك فيها جميع القوى العربية، العسكرية والشعبية، وعلى كل مستوى وفي كل ميدان، وتحترق بنارها ملايين العرب المئة.

إن العرب يواجهون اليوم معركتهم المصيرية الكبرى، ولم يبق ثمة مجال لأي حل، لم يبق ثمة مجال إلا لقتال ضار لا مفر لنا فيه من قبول أعظم التضحيات. ويجب أن نعمل منذ الآن على عزل تلك الأصوات الانهزامية التي تشكك بقدرة الأمة العربية على خوض هذه المعركة المنتظرة.

إننا نعيش في هزيمة مريعة لا يمكن أن نُمنى بشرّ منها. ولن نصاب في معركتنا الجديدة بهزيمة أخرى، لأنها ستكون معركة طويلة لن يلقي فيها الشعب العربي سلاحه أبداً، إلى أن يطهر ذاته من كل الأرجاس والآفات.

وأمامه الآن، وقبل كل شيء، أن يطهر صفوفه من الانهزاميين والمشككين بقدرته على النضال والقتال.

وحدة الأمة العربية وعصر الإمبريالية(*)

محمد حافظ يعقوب

١ ـ مناقشة الوحدة العربية وبحثها بعيداً عن التاريخ، مناقشة عقيمة وتعطي نتائج عكسية.

فالأحداث، عظيمها وصغيرها، لا يتم تحققها خارج التاريخ، بل في قلبه وبسببه. بمعنى، التحدث عن الوحدة العربية بمعزل عن العصر وعن ظروفه وآفاق تطوره، يظل في إطار التمنيات والتعبيرات الجمالية، ولا يدخل حيز السياسة والبحث الموضوعي، ويخرجه من إطار الممكن التحقق (الموضوعي) إلى إطار المستحيل. أقول، إذا كنا نريد إنجاز عملية الوحدة العربية، وهي عملية ثورية من ألفها إلى يائها، علينا بدءاً أن ندرس الظروف والشروط التي ستتحقق خلالها. فهل ستحدث الوحدة ضمن العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعصر برمته؟ أم ستكون حدثاً محلياً جداً بمعنى أن التأثيرات والعوامل التي أسهمت في تحقيقه لا تخرج عن إطار المنطقة وظروفها؟

٢ ـ عصرنا الراهن هو عصر الامبريالية.

والتناقض الرئيسي الذي يحكم العصر برمته: بين هذه الامبريالية وما تمثله من تشويه واستلابات وتأثيرات مختلفة في كل مكان من العالم، كطرف، وبين جبهة عريضة، بالمقابل، من الأنظمة والأحزاب والقوى والحركات الاشتراكية والتحررية في كل أنحاء العالم، التناقض الرئيسي من ثمة، يكمن بين عملية النهب الامبريالي: سرقة خيرات الشعوب وثرواتها القومية وانتقالها وتمركزها إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة؛ وكذلك الوجه الآخر لعملة هذه العملية: تخلف ثلاثة أرباع المعمورة واتساع الهوة بينها وبين الأقطار الغنية المتقدمة، كنتيجة لترتيب الامبريالية للعالم (المناطق والأنظمة وحتى التوزع الطبقي لكل بلد). نقول، يكمن التناقض الرئيسي بين الامبريالية (عملية التشويه وسياسة الإفقار الامبريالي) وبين حركات التحرر لشعوب هذه الأقطار المتخلفة.

(*) نشر في: المعرفة، العددان ١٢٧ ـ ١٢٨ (أيلول/سبتمبر ـ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٢)، ص ١٩٩ ـ ٢١٠.

سياسات النهب والتشويه الامبريالي، وترتيب العالم برمته كسوق واسعة وكمناطق نفوذ: جعلت جدوى كل أشكال النضال ومحاولات التحرر وتجاوز التخلف (التقدم الاقتصادي والتنمية) مرهوناً بحل المعضلة ذاتها: مقارعة الامبريالية. لذلك يجب وضع الوحدة العربية وفهمها في إطارها الصحيح، وهو إطار مقارعة الامبريالية وسحق تأثيراتها ومحو بصماتها من وطننا: التجزئة والتخلف (بالمعنى الاجتماعي - الاقتصادي بل والحضاري). الإطار الصحيح للوحدة العربية هو إطار العصر، عصر الامبريالية، على حد التعبير الشهير لهاري ماجدوف.

فهم الامبريالية، وإدراك كنهها وطبيعتها الحقيقية، ثم فهم تأثيراتها في الوطن العربي إذن، شرط أول لكل سياسة تستهدف التصدي للواقع العربي الراهن بمجموعه، شرط أول لكل ثورة تحررية من العشائرية والبطريركية، من بصمات الامبريالية، وترتيبها لهذا الواقع العربي كجزء من ترتيباتها للخارطة الكونية برمتها.

٣ ـ الامبريالية من الناحية السياسية:

هي بوجه عام نزوع إلى العنف والرجعية. وهي اقتصادياً «الرأسمالية في مرحلة الاحتكار»[(١)]، لأن الامبريالية نشأت باعتبارها مرحلة أرقى (نظام اقتصادي اجتماعي أعلى) من الرأسمالية: حلول الاحتكارات الرأسمالية محل المزاحمة الحرة الرأسمالية، والاحتكار، بالتعبير الماركسي، هو أعمق أساس اقتصادي للامبريالية»[(٢)]. بيد أن الامبريالية، في حقيقة أمرها، تتجاوز المباشرة لهذا المستثمر أو ذاك، لهذه الدولة الامبريالية أو تلك؛ إذ من الخطأ النظر إليها تلك النظرة الساذجة، الذائعة، من حيث الربح والخسارة الماديين فقط». إن مرحلة الامبريالية أكثر تعقيداً بكثير من أن تفسر بواسطة أية صيغة مبسطة. فالنزوع إلى اقتناء المستعمرات ليس اقتصادياً فحسب، بل ينطوي أيضاً على اعتبارات سياسية عسكرية في عالم من الدول الامبريالية المتنافسة»[(٣)]، لذلك كان الصراع بين الدول الصناعية للسيطرة على المناطق المتخلفة اقتصادياً، ليس سوى جانب واحد، ولا يمثل إلا إحدى سمات الامبريالية الجديدة المعاصرة. من هنا، كانت التقنية من مميزات هذه الامبريالية الجديدة؛ «التكنولوجيا، التي تطلبت كقاعدة عامة استثمار مقادير كبيرة من رأس المال ووحدات انتاجية ضخمة»[(٤)]، وكذلك أسواقاً كبيرة

---

(١) فلاديمير إيليتش لينين، **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية**، الطبعة العربية (موسكو: دار التقدم، ١٩٦٨)، ص ١١٩. ويجب الكاتب أن يلاحظ أن الترجمة الشائعة لكلمة Imperialism بالاستعمار هي ترجمة خاطئة.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٣) هاري ماجدوف، **عصر الامبريالية**، ترجمة عبد الكريم أحمد ([دمشق]: وزارة الثقافة، [د.ت.])، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤.

لا يمكن توفرها في العالم الرأسمالي المصنع فحسب؛ كما كان النزوع إلى السيطرة جزءاً لا يتجزأ من «عالم الأعمال»، وكان الاحتكار جوهر هذا العالم البربري، والوجه الآخر، «الأكثر نضجاً» لقانون المزاحمة الحرة فيه.

لقد تمكنت الامبريالية، من ثمة، ونجحت في تحويل العالم برمته إلى مطعم لإشباع جوعها، إلى سوق عظيمة لسلعها المتجددة المتطورة باستمرار. «ولم ينج ركن في العالم من تأثير هذا الاندفاع الامبريالي الجديد. فالعالم بأكمله تحول وتكيف طبقاً لحاجات الصناعة الجديدة المسيطرة في كل من الدول الصناعية ولمقتضيات التنافس بين هذه الدول تحت ضغط هذه الحاجات»(٥).

٤ ـ **هذه الاندفاعة الكبرى، حققت في حقيقة الأمر جوهر عصر الامبريالية**: تشويه «العالم الثالث» وربطه بالغرب الرأسمالي المصنَّع، إفقار أقطار «العالم الثالث» وغصب ثرواته وانتقالها إلى الدول الامبريالية الكبرى(٦). وبرغم أن الاستعمار لم ينسحب بسهولة؛ وبسرور من هذه البلدان، فإن الغرض الرئيسي من الاستعمار قد تحقق قبل الاستقلال السياسي الجديد. فالمستعمرات كانت قد ربطت بالأسواق الرأسمالية العالمية ربطاً لا فكاك منه، وصارت مواردها واقتصادياتها ومجتمعاتها متكيفة مع حاجات المراكز الحضارية الكبرى(٧). هذا استتبع بطبيعة الحال رسماً جديداً للخارطة الاجتماعية ـ الاقتصادية (والطبقية ـ السياسية) يتحقق من خلاله ميكانيزم العلاقة الغاشمة، تحويل المناطق المتخلفة إلى أسواق لاستهلاك البضائع الناجزة، وإلى مصدر أكبر للمواد الخام أو الأولية والزراعية، من جهة أخرى، بفائض قيمة لصالح الطرف الأقوى: الامبريالية.

في هذا العصر، بصمات الامبريالية بارزة حتى على التوزع الطبقي في المناطق المتخلفة: الأنظمة الكولونيالية التي تسودها طبقات الكومبرادور المتخمة بفتات المائدة التي لا يخرج منها بنصيب الأسد غير الامبريالية، وبنصيب القحية، شعوب «العالم الثالث».

وليس بصحيح صحة مطلقة ما يقوله بعضهم من أن «العالم الثالث» يمثل بمجموعه بروليتاريا عصر الامبريالية، وأن الأقطار الغنية كافة تمثل دور برجوازية هذا العصر؛ إذ إن ذلك يعني بلغة أخرى، زوال الصراع الطبقي وانتهاءه وتحوله إلى صراع «طبقي» دولي بل وحتى قاري وكوني، وإذا كان في هذا الرأي صحة، لكنها صحة نسبية، لأن التناقضات الاجتماعية والصراعات الطبقية لم تخفف أو تزل (من حيث إن أسبابها ومكوناتها لم تزل كذلك)، ولكنها أصبحت أكثر تعقداً وأشد تكثيفاً، وغدت عملية كشفها أكثر إثارة

---

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) انظر: بيير جاليه: نهب العالم الثالث، ترجمة ومراجعة أديب اللجمي ويوسف شقرا ([دمشق]: وزارة الثقافة، [د.ت.])، والامبريالية عام ١٩٧٠، ترجمة فؤاد مرقص (بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر، ١٩٧٠).

(٧) ماجدوف، المصدر نفسه، ص ٥٦.

وتشويقاً، والعمل على إزالتها أكثر صعوبة وحرارة. وإلا أين نستطيع أن نضع، وكيف نصنف، الصراعات الطبقية التي تكتنف كلاً من أقطار العالم الثالث وكذلك كلاً من أقطار العالم الامبريالي المصنّع؟

لقد خربت الإمبريالية العلاقات الإنسانية وشوهت جوهرها، فاستلبتها وشيّأتها وحولتها إلى سلعة. فكما حول الملك ميداس كل شيء كان يلمسه إلى ذهب، كذلك حولت الامبريالية (والرأسمالية) الإنسان من جذوره إلى بضاعة معروضة في السوق، على حد تعبير إرنست فيشر في ضرورة الفن. وهذا انطبق إلى حد بعيد على الوطن العربي.

من هنا، الامبريالية ليست وصفاً اقتصادياً أو مرحلة من التطور الإنساني، كما هي ليست درجة عالية من التقدم التقني، وليست أعلى مراحل الرأسمالية وشكلاً جديداً منها فحسب، بل هي كذلك جملة استقطابات لنشاطات العالم والإنسانية. إنها عملية تخريب كبرى للعلاقات الإنسانية، وكذلك تشويه بشع لعمليات التطور الاجتماعي ـ السياسي. مستلباً منها أي شيء، ومحولاً إياه إلى سلعة رخيصة في سوق الأشياء.

٥ ـ في الوطن العربي، بصمات الامبريالية بارزة وواضحة بشكل كبير.

منذ أواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر والعشرين، رسمت الامبريالية وحددت الخط العام للتطور الاجتماعي ـ الاقتصادي السياسي، وحفرت له قنوات خاصة لا تريده أن يحيد عنها (حملة نابليون على مصر والشام. موقف الدول الأوروبية من حملة محمد علي على الشام وحربه مع الدولة العثمانية. احتلال مصر. الجزائر. عدن. مؤتمر لندن وتقرير كامبل ـ بانرمان. اتفاقية سايكس ـ بيكو. وعد بلفور. إنشاء اسرائيل... الخ).

نتيجة تجزئة الوطن العربي[٨]، والهيمنة الاقتصادية ـ السياسية الرأسمالية، والإشراف الفعلي من قبل المؤسسات الرأسمالية ـ الامبريالية على البنى الاجتماعية والعلاقات الإنتاجية، تشويه المسار المحلي في التطور (البنى قبل الرأسمالية)، لجمه وإيقافه، والعمل على جعل البنى الاجتماعية التقليدية، المجتمع التقليدي نفسه: يتقبل العلاقة الجديدة ويتمثلها: التبعية الاقتصادية والكدح لمصلحة الامبريالي. تحويل الإنتاج القومي كله إلى إنتاج تستوعبه الآلة الصناعية للامبريالية، وقيمته الزائدة تذهب إلى جيوب المحتل وخزائنه، وما يرافق ذلك من إعادة ترتيب وتوزيع للمجتمع وللمهمات الإنتاجية؛ تحويل النظام الاقتصادي إلى اقتصاد كولونيالي: اقتصاد متمم لاقتصاديات البلدان المستعمرة من

---

(٨) قبل السيطرة الاستعمارية «كانت التجزئة العربية تتصل بأسلوب الإنتاج المحلي الشرقي البدائي، شبه الإقطاعي... الخ. (فواصل البيئة الجغرافية وضعف المواصلات، ضعف كثافة السكان، اقتصاد الاكتفاء الذاتي، ضعف العلاقات التجارية، التناثر الاقتصادي والتفتت الاجتماعي المتنوع الأشكال)». انظر: الياس مرقص، «الوحدة والماركسية الغالبة في الوطن العربي،» الثقافة العربية، السنة ١٤، العدد ٦ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١)، ص ١٦.

حيث قيامه بمهمات تصدير المواد الأولية والخام وباستيراد استهلاك البضائع المصنّعة والناجزة.

نقول، حافظت الامبريالية، على عكس ما يبدو للوهلة الأولى، على البنيان الاقتصادي الاجتماعي السابق (البنى الاجتماعية التقليدية المنسجمة مع مصالح الدولة العثمانية) لتحقيق مهمات اقتصادية جديدة ومن طبيعة خاصة ومغايرة، فغدا التركيب الاجتماعي متناقضاً، ومعقداً، والتطور بطيئاً، لتسربله بعشرات العوائق والكوابح.

٦ ـ **على أرضية هذه البنى نمت «البرجوازية» العربية** وترعرعت كامتداد للإقطاعية وكجزء من الاقتصاد الكولونيالي وترتيب الامبريالية للوطن العربي، غدت مرتبطة بألف خيط من خيوط الامبريالية. على أرضية تجزئة الوطن العربي وتفتيت وحدته وتقسيمه إلى «أنظمة» متمايزة، وبالتالي متعارضة، نشأت البرجوازية العربية. لقد كانت نشأتها حالة نشازاً وغير تقليدية ـ إذا كنا نعتبر نشأة البرجوازية الأوروبية هي النشأة النموذجية ـ في أوروبا الغربية، حققت البرجوازية الصاعدة مهمات الثورة الديمقراطية (الليبرالية، الوحدة القومية، القضاء على الإقطاعية وعلى السيطرة الكنسية، الثورة الصناعية) في غربي أوروبا، صعود البرجوازية والرأسمالية كان صعود القومية وتبلور اتجاهاتها الوحدوية. كان تحقيق الأهداف القومية مشروطاً بالسوق الطبيعية للبرجوازية: السوق القومية. في الوطن العربي، على العكس، كان صعود البرجوازية مرتبطاً بالتواجد الامبريالي وجزءاً من ترتيبها لواقعنا: التجزئة والتخلف، حيث غدا نموها وصعودها مشروطاً بتعميق حالة التجزئة وبثبات الأوضاع الامبريالية، بثبات الكولونيالية، وغدت معركتها الحقيقية هي تحقيق الارتباط وتوثيق الأواصر بالسوق الامبريالية، وليس بالسوق القومية، تجددت مهمتها، من ثمة، بمهمات الرأسمال العالمي، وغدت أزمته أزمتها، ورضيت أن تكون شريكاً صغيراً في لعبته الاحتكارية وكومبرساً يأكل من فتات المائدة. البرجوازية الأوروبية الصاعدة كانت معركة التصنيع والتنمية معركتها الحقيقية الكبرى. البرجوازية العربية التخلف والتجزئة والإذلال القومي هي جوها ومتنفسها.

هل يعني ما تقدم أن البرجوازية والقومية متلازمتان؟ بالتأكيد لا. القول بذلك يماثل القول إن العالم هو أوروبا وتاريخه تاريخها.

الثورة البرجوازية: الوحدة القومية، التصنيع والترشيد والتنمية. الليبرالية والعلمانية والقضاء على كل ما هو أثري وبطريركي، غير مرتبط أساساً بنمو الاتجاهات الرأسمالية وصعود الرأسمالية، لأن نموها كان في الاتجاه المعاكس: ترسيخ الاتجاهات الرجعية والعشائرية واللاعقلانية وتعميق الانفصالية والقطرية واللاقومية، إن طريق البرجوازية العربية هو طريق الثورة المضادة، هو الطريق المسدود[9].

---

(٩) بصدد هذه الموضوعة، والموضوعة التي سبقتها، انظر: محمد حافظ يعقوب، «موضوعات تمهيدية عن الثورة العربية والثورة الفلسطينية،» دراسات عربية، السنة ٨، العدد ١٠ (آب/اغسطس ١٩٧٢).

٧ ـ الحركة القومية العربية إذن، ليست جزءاً من صعود البرجوازية العربية، كما أنها ليست كذلك نتيجة لتطور البرجوازية العربية الذاتي المناهض للإقطاعية.

«إنها أولاً حركة تولدت وتتولد من غزو الرأسمالية، من الرأسمالية والامبريالية وكردّ عليهما. وهي تدخل في إطار الثورة العالمية الموجهة ضد هذا الغزو، ضد الرأسمالية العالمية»(١٠). إنها لا تعني بحال، أن نشأة حركة التحرر العربي القومية مرتبطة أساساً بنمو البرجوازية العربية الباحثة عن مجالها الحيوي: السوق القومية. إن مسألة التجزئة العربية والوحدة العربية حاصلة في إطار تاريخي مختلف جوهرياً: إطار التحرر من الامبريالية (والرأسمالية المحلية كشريك واستطالة لها).

تعريف ستالين للأمة بأنها «واقع تاريخي يظهر في فترة معينة، هي فترة نمو الرأسمالية»(١١)، ليس تعريفاً جامعاً مانعاً لكل زمان ومكان، لأن التأكيد أن البرجوازية هي قائدة التوحيد القومي في أوروبا، لا يعني أن القومية دائماً ذات صفة برجوازية. ففي بلدان «العالم الثالث»، القومية تعني مناهضة الامبريالية (ومحاربة الاتجاهات العربية القومية: القطروية والكوسموبوليتية) والفكر العربي جعل من القومية عنصراً من عناصر التحرر من الامبريالية ومن تشويهاتها في الوطن العربي. وهدف الثورة العربية ليس بعث امبراطورية عربية، على غرار الامبراطورية البسماركية أو النابوليونية، بل التقدم باتجاه القرن العشرين، وبناء أرضية صالحة لمواكبة العصر.

هل ستتحقق وحدة الأمة العربية نتيجة لتطور موضوعي «ذاتي»: نضج الظروف والعوامل الاقتصادية وتطور الصناعة؟ أي هل تشكل البنى الاقتصادية (الأنظمة والتشكيلات ونوعية الصناعة وحجم المبادلات، وكل ما نستطيع تسميته بالعوامل الاقتصادية) أرضية صالحة حالياً لتطور ميكانيكي يسير باتجاه التوحيد وتقريب أقطار الوطن العربي من بعضها؟

في اعتقادي، كإجابة على هذا السؤال، إن جذور التجزئة راسخة الآن في البنى الاقتصادية القائمة، في الإنتاج وعلاقات الإنتاج، في طبيعة تبلور المصالح الاقتصادية القائمة، في الإنتاج وعلاقات الإنتاج، في طبيعة تبلور المصالح الاقتصادية وتركزها، وإن الوحدة العربية لن تتحقق، موضوعياً، نتيجة تبلور العامل الاقتصادي، ذلك لأن الأرضية الاقتصادية الراهنة لمجموع أقطار الوطن العربي هي أرضية اقتصادية للتجزئة ولتعميقها، وليست أرضية اقتصادية تصلح كأساس لتطور موضوعي باتجاه الوحدة. أن اقتصاديات الأقطار العربية، بمجموعها، هي اقتصاديات متنافسة بالرغم من تكاملية المصالح، فالمنتوجات العربية، لكونها متشابهة (الصناعة استهلاكية وخفيفة: أسمنت، نسيج، سكر،

---

(١٠) الياس مرقص، «ماركس، انجلز، لينين، والمسألة القومية،» دراسات عربية، السنة ٥، العدد ٣ (كانون الثاني/يناير ١٩٦٩)، ص ١١٧.

(١١) جوزيف ستالين، **الماركسية والمسألة القومية** (بيروت: دار الفارابي، [د. ت.]).

حلويات... الخ. والزراعات متشابهة: قطن، حبوب... الخ. والمواد الخام متشابهة: البترول... الخ) فهي متنافسة. وكذلك، فإن حجم التجارة والمبادلات بين أقطار الوطن العربي لا تشكل أكثر من ٧ بالمئة من حجم تجارتها العالمية في أحسن حالاتها (تجارة مصر مع الدول العربية تؤلف ٧ بالمئة من تجارتها العالمية، وتجارة العراق تؤلف ٤ بالمئة فقط، ونسبة المبادلات التجارية بين أقطار المغرب العربي شبه معدومة إذا قيست بحجم تجارتها الخارجية)، بل إن هذه النسبة سائرة إلى التناقص والتضاؤل. إن الطبيعة الكومبرادورية للبرجوازية العربية، كما تبينا من قبل، تسمح لها أن تكون أكثر من مبادل تجاري، بالإضافة إلى ميلها الشديد نحو الصناعات السريعة الربح (البناء مثلاً). ونفورها من المشاريع الصناعية الآجلة الربح [من جملة أسباب هذا النفور، كذلك، الحجم الصغير جداً لهذه البرجوازية بالقياس إلى المؤسسات الاحتكارية العالمية، وانتفاء التقاليد الثورية ـ العلمية ـ التقنية].

أنا شخصياً مع القائلين إن التطور الاقتصادي يسير باتجاه تعميق التجزئة والقطرية. وإن الأوضاع الحالية لا تسمح بتنفيذ أي تخطيط لتكامل اقتصادي في المستقبل، بل على العكس من ذلك، هي تسعى لإعطاء التجزئة قواعد مادية متينة حتى تحفظ مصالح النافذين في كل بلد. وإن الوحدة العربية لا تتحقق عبر التطور الموضوعي: استقلت أقطار المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي، وما زالت الوحدة بينها، على الأقل، بعيدة الاحتمال، وتزداد بعداً كل يوم. الأمر نفسه بالنسبة لسوريا ولبنان. مصر والسودان... الخ.

٨ ـ المحرك الوحدوي ليس هو العامل الاقتصادي بالدرجة الأولى.

بل هو العامل السياسي الذي تكمن خلفه المصالح الاقتصادية للأمة العربية بأسرها. شعار الوحدة هو المحور الاستراتيجي للعمل الثوري العربي في هذه المرحلة التاريخية، مرحلة التحرر من التخلف والاستعمار واسرائيل. «والإطار الوحدوي هو الإطار الوحيد الصالح لإنضاج ثورة عربية، والدفع باتجاه تراكم رأسمالي منفتح على سوق واسعة، وإعطاء التحولات والصراعات السياسية والاجتماعية كل مداها»[١٢]. إن طريق الوحدة هو السبيل الوحيد لتجاوز التخلف وصولاً إلى القرن العشرين، القضاء على الاستعمار وصولاً إلى التحرر، تحطيم البطريركية واللاعقلانية وصولاً إلى العلاقة الإنسانية، الموضوعية والحرة. الوحدة هي الطريق الوحيد لبناء الاشتراكية، حتى لنستطيع القول، إن الثورة ليست عربية إلا لأنها لا تستطيع تحقيق مهامها إلا في إطار العالم العربي الموحد.

في عصرنا الراهن، عصر الامبريالية «المنفلتة من عقالها»، عصر المجمعات الاقتصادية الهائلة الضخامة، عصر الإمكانيات الأسطورية القوة، والكونية السوق؛ في هذا العصر، لا مكان للمنشآت الإنتاجية الصغيرة إلا إذا عززتها حماية جمركية متينة، ولا

---

(١٢) جودت الراسي، «بيان وحدوي،» **الثقافة العربية**، السنة ١٤، العدد ٦ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١).

قدرة على التصنيع الثقيل، والتطور التقني، إلا بفضل الإمكانات الاقتصادية الكبرى والسوق الواسعة؛ في هذا العصر، لا قدرة لبلد متخلف على اللحاق بالعصر وبالتطور، دون التخطيط والبرمجة للثروات القومية بمجموعها (تقييد الاقتصاد)، دون ضرب الرأسمالية، وبناء الاشتراكية.

في هذا العصر، القدر الحتمي لحركة تحرر الأمة العربية، لتجاوز التخلف (التخلف ليس من ناحية استهلاكية [. . .]، بل من حيث مدى تطابق قوى الإنتاج مع علاقات الإنتاج)، واللحاق بالعصر وبالقرن العشرين، أن تكون اشتراكية، أن تكون محاربة (مسلحة)، ومناهضة لكل أشكال التشويهات الامبريالية، والاستغلال الطبقي كشكل من أشكال هذا التشويه. إن بلوغ المرحلة الحضارية المطلوبة، لا يمكن تحقيقه دون توفر شروط أربعة أساسية:

أ ـ سوق قومية واسعة تستطيع استيعاب كميات كبيرة جداً من الإنتاج القومي.

ب ـ في شروط التخلف، الإمكانات البشرية تمثل عاملاً أساسياً في عملية الانتقال إلى الحضارة.

ج ـ عملية الدفع الثوري لقوى الإنتاج، التي تنتقل ببلد ما من زراعي أو مصدر للمواد الخام (كمرتبط بالمتروبول) إلى بلد فائق التصنيع(١٣).

د ـ إن هذه الشروط الثلاثة السابقة، لا يمكن حتى التفكير بها بدون التحرر من كماشة الاستعمار الجديد، بدون الوحدة العربية. إن المهمتين المطروحتين أمام الأمة العربية اليوم (الثورة العربية)، وهما الوحدة والتحرر، لا يمكن تحقيقهما بغير الوحدة.

إن الوحدة، كعملية ثورية، كل خطوة في سبيلها هي خطوة صدامية هجومية لأنها قادرة على تغيير نمط العلاقات الاجتماعية، واقتلاع جذور التخلف (والتجزئة) من علاقات الإنتاج، ولكونها قادرة على اجتثاث بصمات الامبريالية ومحوها من المنطقة. إن الوحدة بالتالي، ليست ترفاً برجوازياً كما هي ليست تحقيقاً لمطالب شوفينية، رجعية، مغايرة للعصر(١٤). إنها ضرورة استراتيجية، حيوية، فالوطن العربي، الممزق المتداعي، أمام الهجمة الامبريالية، لا يستطيع حتى إيقاف هذه الهجمة، دون حد أدنى من العلاقات الوحدوية الجادة والحقيقية على مختلف الأصعدة.

النضال الثوري العربي إما أن يكون وحدوياً أو لا يكون. ذلك أن مخططات الامبريالية تتركز جميعها في منع الوحدة: الإبقاء على الوضع الراهن. المهم، أن نصوب على الدريئة ذاتها: الامبريالية، بالبندقية ذاتها: الوحدة العربية.

وليس من الصدفة أن تتبدد طاقات الثورة العربية وأن تضيع جهودها، حتى الآن،

---

(١٣) للتوسع في موضوع الدور التعويضي للإمكانات البشرية في البلدان المتخلفة، انظر: ريجار شلياما، **بناء الاشتراكية في الصين** (بيروت: دار الطليعة، [د. ت.]).

(١٤) العفيف الأخضر، «محاولة لاستخلاص الدروس من النكبة،» **دراسات عربية**، السنة ٤، العدد ١٢ (تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦٨).

ما دامت مركزة اهتماماتها على البناء الداخلي، على تعميق القطروية. وليس صدفة أن سيمحا فلابان (الصهيوني ـ عضو حزب المابام) يركز على القول إن نظرية الالتفات إلى بناء كل قطر عربي على حدة (تعميق القطروية الانفصالية) تمتاز «بأنها أكثر واقعية»، و«بأنها تعطي الأولوية للتحولات الاجتماعية وللنمو الاقتصادي على حساب الرومنطيقية العربية الشاملة (أي تجربة الوحدة) التي ظهر فشلها»[١٥]. كما يقول القول نفسه د. موشيه سنيه (زعيم حزب الماكي الشيوعي الصهيوني) في مقالته «الخروج من دوامة البغضاء»، ناصحاً بالاهتمام فقط بالبناء الداخلي دون محاربة إسرائيل وبناء الوحدة: «وفي اعتقادي شخصياً أن هذه التجربة ينبغي أن تحمل المسؤولين الحاليين عن الحركة القومية العربية على البقاء في أرض المعركة ضد الامبريالية تحاشياً للغرق في سديم عداوتهم لإسرائيل»[١٦].

أليس غريباً أننا ما زلنا حتى الآن نضع أنشوطة العدو حول رقبتنا بأيدينا؟

٩ ـ من الخطأ الإسهام في تلك المناقشة العقيمة والبلهاء، والمتركزة حول هل الأمة العربية موجودة؟ ذلك لأن الأمة العربية في أذهان الجماهير حقيقة موجودة بشكل أكيد، حقيقة عميقة الجذور في وجدانها، والعمل على بناء الدولة العربية الواحدة يعني في أعماقه تجاوز الهزائم المتكررة، والرد على الإذلال والمهانة الامبريالية.

وحدة الأمة العربية، ثورة أيضاً، لأنها ستؤدي إلى تحذير وبلورة الاتجاهات العقلانية: العلمية الموضوعية من تراثنا (ثورة ثقافية)، لأنها ستؤدي إلى ثقافة عصرية، إنها ضد فكر العصر الوسيط، ضد الفكر الرجعي، تنفي لاعقلانية العشائرية والبطريركية، وبربرية العلاقات ما قبل الرأسمالية ولاموضوعيتها.

ما يكسب الثورة العربية محتوى جديداً (جذرياً) ليس في الصفات والمميزات الشخصية للقارة، بل في الطبقات الاجتماعية التي تعتمد عليها هذه الثورة، وهي فقراء الفلاحين، عمال المدن، والبرجوازيون الصغار. وإن ما يجعل حركة التحرر العربي القومية اشتراكية، كونها مناهضة للإمبريالية العالمية. وما يجعل الوحدة اشتراكية، كامن في القوى الأساسية التي تستطيع وحدها (ووحدها فقط) إنجاز مهمات الترشيد والتحديث وهي القوى ذات المصلحة الحقيقية في مواصلة الثورة حتى النهاية، قوى العمال والفلاحين الفقراء وجماهير البرجوازية الصغيرة.

---

(١٥) الذين يتحدثون عن التفوق الحضاري العربي (والإنساني)، بشيء من العنجهية والعزة القومية، إلى جانبهم قسط كبير من الحقيقة، إذا كان الهدف من هذا الحديث تأكيد الذات ـ في قضية التصدي للصدمة «الحضارية» الأوروبية ـ تأكيد «التحدي التاريخي» بين «الشرق والغرب»، كمقابل للشعور العنصري الغربي بالتفوق المشوب بالازدراء وبالاحتقار لشعوب المستعمرات والتي سميت فيما بعد أقطار «العالم الثالث».

(١٦) سيمحا فلابان، «الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية،»، وموشيه سنيه، «الخروج من دوامة البغضاء،» هامش ص ٢٥١ في: **الفكر الصهيوني المعاصر**، مجموعة من المؤلفين (بيروت: مركز الأبحاث، [د. ت.]).

في الرومانتيكية العربية(*)

شكري فيصل

مدخل

١ ـ حين تخصص مجلة المعرفة هذا العدد لتبحث موضوعاً أساسياً من موضوعات الحياة العربية في حاضرها وفي مستقبلها، حين تطرح قضية استمرار التضامن العربي والارتفاع به إلى أعلى ذراه وأبعد مداه، حين تفعل ذلك فإنها تستجيب إلى أعمق ما في نفوسنا من تطلع، وتتلاقى مع كل ما يراود أذهاننا من تطورات وفكر. . . ، وتتيح لنا أن نفتش عن الأرض الصلبة التي نضع عليها أقدامنا مشتركة في طريق واحد.

إن المجلة بعملها هذا تستثير عندي بخاصة عاطفة العرفان والشكر. . . ذلك أني حين قدّمت في العدد الماضي اقتراح موضوع هذا العدد (راجع هامش الصفحة ٢٥ من العدد ١٤٢) ورجوت أن يكون موضوع معالجة مشتركة؛ لم أكن أحس أني وحدي في هذا الاقتراح، لم يكن ذلك تعبيراً فردياً وإنما كان تعبيراً جماعياً. . . كنا كلنا نتطلع إلى تجاوز هذه المسافة بين الذي نحن فيه والذي نتطلع إليه. . . كنا نحس أن آمالنا تستعجل الأحداث وتستبقها، وأن أفكارنا تحاول أن تشق الطريق بين ما نحن فيه وما نطمح إليه. . . كنا، ونحن نعيش جو المعركة الظافرة، نتمنى أن تكون حركة التاريخ نحو المستقبل أشد اندفاعاً وأقوى زخماً، وكنا نرى في انتصارنا على الرعب والأهواء والتفرقة أعظم انتصار نريد له أن يتسع، وأن ينمو، وأن يكون بحق نواة الانتصارات الأخرى المرتقبة كلها. . .

من أجل هذا تمنينا على المجلة أن تجاوز الحديث عن الذي كان إلى الذي سيكون. . . أن تفرد هذه الظاهرة الأصيلة بالبحث لتتضح كل آفاق المستقبل، ولتكون رؤية هذا المستقبل واضحة من غير خوف منها ومن غير خوف عليها.

أن نتجاوز الواقع والقيد والأهواء، ذلك هو بداية كل انتصار. . . أفلا تستحق هذه

(*) نُشر في: المعرفة، العدد ١٤٣ (كانون الثاني/يناير ١٩٧٤)، ص ١٧ ـ ٢٩.

البداية أن تكون هي وحدها التي تستقطب حركتنا النفسية والفكرية... حركة الأفراد وحركة الجماهير...

٢ ـ ولكنني إلى ذلك، إلى هذا الشكر الذي أجدني أقدمه بين يدي الحديث... أحس شيئاً من عتب خفيف... إن المجلة تتحدث عن التضامن العربي... عن استمرارية هذا التضامن. ويوشك لفظ التضامن عندي أن يكون مقصراً تقصيراً... إنه يشبه أن يكون رداء مقصوص الأطراف مشقق الجوانب لفارس فحل... إنه يكاد يكون أضعف الألفاظ التي يمكن أن تستعمل في أفق الحياة العربية: ما بدا من هذا الأفق وما يمكن أن يتكشف عنه بعد...

منذ خمس عشرة سنة كان ينعقد في القاهرة ـ فيما أذكر الآن ـ مؤتمر الاتحاد القومي. كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يطوف في قاعات الاجتماعات، يستمع ويثير، يتحدث ويصغي، يستمع ويجيب، وكنت استمعت إليه في واحدة من اللجان يتحدث عن الوحدة العربية مستعيراً مصطلح التضامن العربي، فلم أتمالك ـ والوحدة فيما نؤمن عقيدة وسياسة، ماض ومستقبل، إرث ومصير ـ ان استأذنت لأتحدث في هذا الذي نؤمن به ونلقى المستقبل والله عليه.... ولعلي أذكر أني قلت آنذاك إن رجال السياسة يستطيعون أن يستخدموا هذا التعبير أو ذاك... ولكننا في مؤتمر صفته الشعبية هي الغالبة عليه، لا نحب أن نتيح للسحاب والضباب أن يغلفا حقيقتنا الأصيلة.

كنت أعلم وأنا أقول هذا، أني أضع الرئيس الراحل في موقف حرج، أني قد أضطره إلى الحديث عن الوحدة في الوقت الذي كان الاستعمار يمثل فكرة الوحدة بين الأقطار العربية، على أنها تسلط واستئثار ومشاركة في الثروات... (ولكن الله أكرم من أن يصاب العرب بمثل هذا التشويه.. ولعل الذي حققته معركة رمضان تجاوز حي واضح لكل ما كانت الدعاية المسمومة تحاول أن تنفثه)..

ومع ذلك فقد آثرت أن أتكلم على هذا النحو بعيداً عن أي مداراة لأن «المصطلح» هو الذي يجسد الفكرة وهو الذي يحاول أن يمنحها أبعادها، وهو الذي يعطيها قوامها الفكري وقوامها النفسي، ولذلك لا بد لمثل هذه المصطلحات من أن يظل لها مفهومها الواحد الذي تشتعل جوانبه كلها بالضوء المضيء، الذي يطارد كل لبس... ويطرد كل غموض...

من هنا بدت لي لفظة التضامن وكأنها نوع من الهرطقة... إنها أشبه باللفظ الدخيل الذي لا يمكن أن يحمل كل أصالة الفكرة وأن يلم بكل حدودها. لم تعد «حداً» من الحدود التي نلتزم بها جميعاً يدخل فيه ـ إذا ساغ لنا استعمال ألفاظ المناطقة في الحدود ـ ما هو منه، ويخرج منه ما ليس منه... إن لفظة التضامن تفسد هذا المصطلح، تفسد صفاءه وكأنما تريد أن تمتص أجزاءً من أجزائه الحية...

لماذا؟ أهذا نوع من الضيق النفسي، من التزمت؟ كلا.. بل نوع من الوضوح...

الوضوح الفكري من نحو، والحقيقة الأبدية من نحو آخر...

إن التضامن يتم اليوم بين شعوب لا صلة بينها، بل إنه يتم بين شعوب جرت دماؤها أنهاراً في حروب متصلة فيما بينها... إنه يتم بين جماعات لا يكاد يجمع بينها شيء إلا هذه الظروف الطارئة الجديدة التي تريد أن تحل بينها نوعاً من التضامن.

ولكن ما شأن العربية وهذه الألفاظ!.. وما صلتها بها إذا كانت لا تعبر عنها، عن أصالتها، وإنما تستعمل وكأنها تشير إلى ظروف طارئة عليها... وأين تقع لفظة التضامن هذه من هذا التاريخ المشترك والواقع المشترك، والمصير المشترك؟ أين تقع من وحدة اللغة، وما يقارب الوحدة في الدين، ومن وحدة الفكر. أين تقع من حياة ملايين الملايين على مدار خمسة عشر قرناً... في هذا المطاف العريض من أسوار الصين إلى حدود بواتيه؟.. كيف يستسيغ ضميرنا الفكري ـ إن صح هذا التعبير ـ أن تكون هذه اللفظة من مصطلحنا؟

ليكن إذن حديثنا حين نتحدث، عن الوحدة.. ليكن ذلك مصطلحنا ومعتقدنا. لتكن الوحدة رؤانا ورؤيتنا.. إنه ما من عبث كانت الحركة العربية تجمع، منذ انطلقت، بين الوحدة والتوحيد. إنه من أجل هذا التوازي الفكري كان هذا الاشتراك اللفظي.

إني لذلك إنما أتحدث هنا عن الذي أعنيه ـ عن الوحدة... أفلا يكون ذلك من خيري ومن خير القارئ ومن خير الحديث؟...

الموضوع

إذا تجاوزت هذه المقدمة ـ أكانت إلا جزءاً أساسياً من الموضوع ـ إلى ما بعدها استبان الموضوع على أنه هذا:

في سلسلة التجارب الأخيرة ـ ودَعْ عنك التاريخ ـ التي خاضها العرب، كان هنالك هذه المنظومة من الحقائق التي تحمل برهانها في ذاتها، والتي تتسلسل على النحو التالي:

ـ لا تقوم الحياة العربية في قطر، ولا يمتلك قطر ما حريته إلاّ حين تلتئم فكرته وتتوحد قواه الوطنية.

ـ لا تقوم الحياة العربية في مجموعة من هذه الأقطار على سوقها ولا يشتد ساعدها إذا لم تقم في كل تصرفاتها، على أساس النظر إلى الوحدة المقبلة والانسجام معها.

ـ القدر الذي تحققه الحياة العربية في المستوى القطري أو في المستوى القومي من النجاح هو القدر الذي تحققه من الوحدة... إنه مرهون بها... والقَدْران يمثلان خطين متوازيين... يتحرك أحدهما بقدر ما يتحرك الآخر... وعلى قدر ما يكون التقدم على طريق الوحدة يكون التقدم على طريق المستقبل.

ـ الانتصارات الأخرى ـ بعيدة عن هذه الموازاة، كلها انتصارات زائفة، والمنجزات الأخرى موقوتة... إنها تشبه الزبد الذي يعلو ظهر الموج، قد يكون حياً ومتحركاً ولكن حركته وحياته ليست أصيلة فيه... إنها جزء من حركة الموجة وحياتها وقد يكون منظره حلواً من وراء الخلفية الزرقاء التي ينبسط فوقها... ولكنه لون مخادع لا يلبث أن يذوب... إن أي رفاه اقتصادي أو تقدم اجتماعي مستقل عن المجموعة العربية إنما هو رفاه مكذوب وتقدم مخادع... إنه ثمرة برية قد يكون لها رواء الثمرة ولكن ليس له فائدتها ولا طعمها... إنه هذه الثمرة المصنوعة من الشمع يكاد يخدعك منظرها عن طبيعتها المضللة.

هذه المنظومة من الحقائق تؤكدها وتبرهن عليها وتؤكدها سلسلة من الوقائع والأيام والأحداث لا سبيل إلى عرضها الساعة... إنها تكتسب قيمتها المطلقة من أنها:

١ ـ مستمدة من الواقع فهي ليست نظراً من الأنظار، ولا رأياً من الآراء، وإنما هي الواقع نفسه تراه في كل قطعة من أرض هذا الوطن الكبير، وفي كل جزء منه.

٢ ـ مؤيدة بالتاريخ... على أنها هي تاريخ هذا الشعب العربي، على امتداد هذا التاريخ وعلى امتداد رقعته.

فإذا كانت هذه هي منظومة الحقائق، وهذه هي صفاتها فكيف يمكن أن يكون سير الحركة العربية؟!...

إننا لا نملك في الإجابة عن هذا السؤال شيئاً من الخيار، ليست لنا أية فرصة للتردد... إننا مدفوعون بالعفوية وبالمنطق... بالفطرة وبالعقل... بالتفكير البطيء أو بالتفكير السريع... إننا مدفوعون إلى أن نجيب بأن الحركة العربية يجب أن تواكب هذه الحقائق وأن تتزود بها.. بمعنى أنها يجب أن تتجه ـ دون شك ـ في كل اتجاه يضمن لها وحدتها أو قدراً من هذه الوحدة... وأنه حين يكون هنالك طريقان أحدهما يساير الوحدة والآخر يخالفها... أحدهما يواكبها والآخر يناقضها... فإن الطريق الذي يماشي الوحدة هو وحده الطريق الذي يجوز لنا أن نسلكه... وإلا كانت الحركة مضادة للتاريخ... مضادة للواقع... مضادة للمستقبل... أي إنها حركة عقيم... بل هي نوع من الإجهاض المتصل الذي هو أقسى من العقم...

إذا كانت الأمور بمثل هذا الوضوح، فما الذي يمنع الحركة العربية من أن تأخذ مسارها الطبيعي؟ لماذا تخاف هذا الاتجاه أحياناً وتحذره أحياناً... وتتجنبه أحياناً؟ لماذا لا تبصره في كل جزئية وفي كل كلية من حياتنا... لماذا لا تكون لنا سياسة دولية واحدة؟ وسياسة اقتصادية واحدة؟ لماذا لم يتحقق لنا حتى اليوم القدر الأدنى الذي لا بد منه... لماذا استطاعت دول غربية في أوروبا على ما بينها من عداوات أن تسير في طريق الوحدة الأوروبية على حين تظل الوحدة العربية وكأنها سراب من السراب؟... لماذا لا نحتفظ بالوتيرة العالية من السلوك الأخلاقي الوحدوي الرفيع الذي كان خلال معارك رمضان؟...

أتراني أعود من جديد إلى طرح المشكلة؟...

في بعض ما حاول كيسنجر ـ وزير الخارجية الأمريكية ـ أن يقوله وكأنه يداعب الغرور القومي عندنا، وكأنه يحاول إسكاته عن طريق إثارته ودغدغته. إننا نخاف الرومانتيكية العربية... إن كيسنجر يريد أن يشير إلى هذه الهبة العربية الواحدة... إلى مجموعة هذه الفضائل التي نسميها المروءة والتي يتركز فيها قدر من المثل العربية... إنه يعبر عن حذره من هذه المفاجآت...

ولكن لماذا تظل الحركة العربية سلسلة من المفاجآت... يشتد تواترها ثم يضعف... فإذا هي وكأنها في مكانها... لماذا تتخذ هذا الطابع الرومانتيكي ثم لا تجاوزه إلى ما وراءه من طابع عقلاني؟!

ليست المروءة سلوكاً موقتاً... المروءة سلوك أصيل ودائم، أو يجب أن يكون أصيلاً ودائماً... فما الذي يمنع أن تتغلب الأصالة الأصلية على المظهر العارض؟!

ها هنا تبدو لي أنا كذلك مخاوف أخرى تقف على النقيض من مخاوف كيسنجر... أو هي تتكامل معها في إحدى النهايتين... إن الرومانتيكية العربية هي التي تخيفنا نحن كذلك... أي يخيفنا منها الجانب السلبي... الاحساس العميق بالذات أو غلبة اللون المحلي أو الاندفاع نحو الشخصي أو الخاص... هذه الرومانتيكية الأخرى التي يحاول كيسنجر أن يثيرها في نفوسنا من حيث يتحدث عن الرومانتيكية التي يخافها.

من هنا يبدو أن سير الحركة العربية ـ بعد أن يلتزم بمنظومة الحقائق التي ذكرت ويصدر عنها ـ يجب أن يتجاوز هذا الطور الرومانتيكي الذي يشبه أن يكون سيفاً ذا حدين: البراعة البارعة في استعماله تتبدى في أن نخرج به عن أن يكون سلاحاً يهدد الذات إلى أن يكون سلاحاً يهدد العدو. بعض الرومانتيكية العربية تدفع إلى التناصر، ولكن بعض الرومانتيكية العربية قد يدفع كذلك إلى التنابذ، بعض الرومانتيكية العربية حي ودائم، وبعضها آني وذاتي. وبإيجاز، بعض الرومانتيكية العربية يدفع إلى أبعد التضحيات، ولكن بعضها يدفع إلى أقصى الحذر.

إن الرومانتيكية العربية الايجابية هي التي تبدت خلال معارك رمضان وما حوله... ولكن الرومانتيكية العربية السلبية هي التي تبدت، تقريباً، خلال أكثر الفقرات الحديثة من تاريخ العرب.

أليست هذه الرومانتيكية السلبية هي التي طبعت تاريخنا الجزئي القريب؟ إني حين أعرض لتاريخ السنوات العشرين الأخيرة أكاد أحس وكأني أمزق جلدي بأظافري أو أقتلع بيدي شعري... وإلا فكيف يستطيع الإنسان أن يفهم أو أن يفسر سيرة العلاقات بين الأقطار العربية؟

في خلال عشرين سنة لم يبد أن قطراً ما عربياً استطاع أن يقيم علاقة سليمة مع

قطر آخر استمرت علاقته طبيعية أو منتجة أكثر من ستة أشهر... إن شريط هذه العلاقات حافل دائماً بالقطيعة والوصل، باللقاء والفراق، بالصداقة والعداوة. أنا اليوم صديق لك، ثم أنا بعد ذلك وكأنني عدو... وأنت تمد إلي اليوم يداً ثم يفسد ما بيننا على نحو ما فإذا يدي مع غيرك... وغيرك هذا كان في يوم معك وكان في يوم مع سواك... ثم تتكرر الصورة... وكأننا في مدار مرسوم لا نكاد نخرج عنه... كأننا كرات على مائدة خضراء... يضرب بعضها بعضاً... يظهر بعض ويغيب بعض، يطفو بعض على السطح الأخضر، ويسقط بعض في مستقره... ثم تمتد يد (أية يد هذه) فتعيد الكرات إلى مثل موضعها، ثم تفرق بينها ثم تضرب بعضها ببعض... العصا هي العصا... والكرات لا تدري أين مكانها من السطح أو مكانها من القرار.

ولم تكن هذه الصورة في شرق الوطن العربي وحده، ولكنها قامت كذلك في غربه... ولكنها كانت كذلك بين شرقه وغربه... وأوشك أن أستخدم لغة الانفعال والتحدي لأقول: إن وفاقاً عربياً لم يدم وفاقاً من غير ملل أو فتور مرة تزيد على الأشهر المعدودات... حتى وحدة ١٩٥٨... حتى هذا الأمل الذي أعاد العرب من جديد إلى ساحة التاريخ، وقهر للمرة الأولى ـ بعد صلاح الدين ـ تفرقهم، حتى هذه الوحدة لم تعدم بعد ستة أشهر من كان يشرب الشاي في القاهرة ويقسم على قطعها... لم تعدم من ظن أن الشام قد مسخت. فجاء يغني لها ويردد نشيدها ـ وما نشيدها في معركة التاريخ؟.. أكان تاريخ هذه المنطقة إلا هذه الحركة المتكاملة بين مصر والشام؟ بين القاهرة ودمشق؟!

هل هي الرومانتيكية العربية الايجابية التي تصنع النقيض والرومانتيكية العربية السلبية التي تصنع النقيض الآخر.

إني أذهب من غير تردد إلى أن الجانب السلبي من الرومانتيكية دخيل علينا في أكثره... القوى الغربية التي يهمها أن يبقى الوطن العربي مزرعة لها هي التي نمت عندنا هذه الجوانب السلبية... إن أصالتنا كفيلة أن تسدد هذه الرومانتيكية في أفضل المسالك إلى أفضل الغايات... وحينذاك لا نخافها نحن وحدنا وإنما يخافها كيسنجر وحده... ومع ذلك فنحن في هذه المرحلة ـ لا أتردد في أن أعترف ـ قد نساق أو قد تسوقنا هذه الرومانتيكية السلبية، فكيف نخلص إلى ردعها؟

إن المشكلة تتبدى دائماً من جديد هي هي... ولأن السؤال صميمي وعميق فإنه يتشكل مرة إثر مرة دون أن ينكمش أو يتراجع...

ويبدو أن لا شيء يمكن أن يؤلف هذه القوة الرادعة في هذه المرحلة التي يختلط فيها ما بين الصور السلبية والايجابية للرومانتيكية مثل أن نضبط السلوك العربي كله إلا السلوك السياسي وحده، فنصدر عن القناعة الفكرية بديلاً من أن نصدر عن الانفعالات الآنية.

إني لا أتحدث عن الفكر التطبيقي، عن العلم وعن سيطرة التقنية وعن استخدام الآلات... تلك كلها أمور عظيمة جداً رائعة جداً... ولكني أخشى ونحن نؤكد عليها ـ وذلك حق ـ أن ننسى الأصول التي تنبع منها والأجواء التي تتكامل فيها... إننا نسرف أحياناً في تمجيد بعض الحقائق في حياتنا إلى حد ننسى معه بعض الظواهر الأخرى... وهل هناك من شك في أنه لو كانت عندي تقنية الشرق والغرب معاً، وكنا هذه الجماعة الممزقة، فإن ذلك لن يعني شيئاً؟! إن من أروع انتصاراتنا هذا التوافق مع التطور الجديد في استعمال الأسلحة... ولكن أروع انتصاراتنا كانت، لا جدال، في أننا انتصرنا على أنفسنا وعلى تجزئتنا وعلى فرديتنا في عمل مشترك تعاقب بعضه إثر بعض وتلاقى بعضه مع بعض ليضع السلاح في هدفه ومستقره.

الصدور عن القناعة الفكرية ومجانية الانفعالات الطارئة والوافدة هو الأصل إذن... هو الضمان المؤكد لاستمرارية التضامن ونموه ليتشكل بعد ذلك وحدة كاملة.

ولكن من الذي يملك أن يصل بين القناعة بالفكرة وبين التصرفات العملية؟... ما هي القوة التي تملك أن تربط دائماً بين الفكر والتصرف... بين النظر والعمل؟

* * *

ها هنا يبدو أننا نحتاج إلى سلطة جديدة... سلطة فوق السلطات القائمة... ومهما تكن الكلمة مخيفة، مهما تكن مثيرة، فإننا ـ هنا أيضاً ـ نحتاج إلى أن نتقبل الفكرة واللفظة على السواء تقبلاً عقلانياً.

سلطة جديدة فوق السلطات القائمة؟! ما معنى هذا في خضم هذه الكيانات الجزئية القائمة؟ ما معناه في حدود طموح هذه الكيانات الصادق أو في حدود طموحها الكاذب... في حدود ما تحاول أن تقوم به وما يجب أن نقوم به؟...

ليست السلطة الجديدة زيادة في الأصفار ولا زيادة في الأرقام تقع وراء الاختصار... ليست تتويجاً كاذباً، ولا معالجة سطحية، ولا كلاماً يسطر فوق الصحف.. ولكنها يجب أن تنبع من إيماننا بأن هذه الأنظمة المتجزئة يجب أن تؤول إلى نظام واحد.

السلطة الجديدة ليست قوة فوق القوة، ولا سلاحاً فوق الأسلحة، ولا دستوراً جديداً ينضاف إلى الدساتير، ولا حركة تتراكم فوق الحركات، ولا حزباً فوق الأحزاب... إنما السلطة الجديدة سلطة القناعة الفكرية التي قدّرنا أو قررنا أننا يجب أن نصدر عنها... إنها لذلك يجب أن لا تثيرنا وأن لا تخيفنا...

إن هذه السلطة تنبع من سلسلة من المبادئ، ويشرف عليها مجموعة من الرجال.

أما المبادئ الكبرى التي تطلقها وتنطلق منها فهي هذه:

ـ الإنسان العربي واحد أين كان والجماعة العربية جماعة واحدة أين استقرت من أرض الوطن العربي.

ـ المصلحة العربية مصلحة واحدة لا تقتصر على قطر دون قطر.

ـ تقاس المصلحة العربية بقدر شمولها واستمراريتها ومستقبليتها.

ـ مكانة الإنسان العربي بقدر العمل الذي ينهض به. وكل قيمة أخرى قيمة مصطنعة أو مضافة.

وأما الذي يشرف عليها، هذه السلطة، فهو الفكر... يمثل هذا الفكر ويجسده رجال من رجال الجامعات والاختصاص والفكر (ينتخبون أو يختارون أو...) يكونون موضع الثقة وموضع الاجماع... يؤول إليهم أمر التخطيط ويؤول إليهم أمر الاحتكام إليهم في كل ما يكون من خلاف... هؤلاء الرجال ـ الفكر لا جنسية لهم إلا الجنسية العربية، لا يرتبطون بحكومة ولا حزب ولا جماعة وإنما يحملون مسؤولية الجماعة...

فإذا ربطنا بين المبادئ التي تنبع عن هذه القناعة الفكرية وبين الرجال الذين يجسدونها، كان ما بين ذلك إنما هو مجموعة من الأجهزة العربية التي تتناول كل جوانب الحياة؛ وصورة الأجهزة في الجامعة العربية صورة ضئيلة لها.

ماذا يضير العرب أن يسلموا أنفسهم للقناعة الفكرية وحدها؟ ماذا يضير رجال السلطة في الوطن العربي أن يخضعوا للقناعة الفكرية وحدها؟ ماذا ينتقص من شأنهم إذا هم لجأوا إلى مبدأ الاحتكام في كل مايختلفون فيه ثم جعلوا من رجال الفكر الذين يثقون بهم المحكمين في خلافاتهم؟

لقد جرب العرب قيادات كثيرة... فلماذا لا يجربون ـ إلى جانب ذلك ـ قيادة الفكر... الفكر الجماعي؟... أهي طوبائية؟ أهي مثل عليا؟ ولكن أليست المثل العليا هي التي تهب الوجود العربي سلامة موقفه وصحة حركته؟... وماذا ننشد إلا المثل العليا؟

إني أقدر أن كثيرين قد يفغرون أفواههم دهشة!... سيتمثلون الصعوبات كلها... ولكننا إنما نشكو هذه الصعوبات، ولا بد لنا من حركة ما نحو تجاوزها. إن هذه الحركة لا يمكن إلا أن تكون خلقاً وفكراً، سلوكية رفيعة ونظراً ناضجاً... الخلق السليم هو الذي يقود إلى الفكر ويضمن استقامته، والأخذ بالقناعة الفكرية هو الذي يضمن سلوكاً رفيعاً لا يتعرض لرياح الأهواء.

إن لم تكن هذه هي المشكلة: الجوانب السلبية من الرومانتيكية... ولم يكن هذا هو الحل؟... فماذا إذن تكون المشكلة وكيف يكون الحل؟

إن كان الواقع هو الذي يسيطر على الفكر فيشله... فكيف يكون إذن التغلب على الواقع إلا بأن يسيطر عليه الفكر أو يقوده؟

إذا كان إلف الأشياء وعدم الخروج عنها هو الذي نشكو منه، فكيف نستطيع أن نظل أسرى لهذا الإلف... أسرى لمواقف التجزئة والمصلحة والأهواء؟

لماذا لا ندعو لسلطة جديدة هي سلطة الفكر وحده ورجال الفكر وحدهم؟

العرب: جدلية التكوين القومي والتحرر الثوري(*)

خليل أحمد خليل

العرب فرقتهم سياسة الاستعمار والاحتلال والتخلف التاريخي. فلماذا لا تجمعهم سياسة التحرر القومي والتوحد والتقدم؟ هذا السؤال المركزي يشغل العرب الآن أكثر من أي وقت مضى. الآن زمن الفصل والتحول. فصل بين التعميم القومي وبين التكون القومي، وتحول من التحرر الوطني الاستقلالي إلى التحرر الثوري الاتحادي. في زمن التعميم كانت التبشيرية الجماهيرية تأخذ مكان تنظيم التكون القومي، تدفع باتجاهه ولا تربط تماماً بين مقوماته. أما في زمن التكون القومي الراهن فلا بد من ربط مقومات هذا التكون بمكونات التحرر الثوري، ولا بد من تحديد سياسي جديد لإطارات التغيير العربي ولضواغط الارتهان. ولا بد من اختيار مصيري يحدد سياسة العرب من الآن حتى نهاية القرن العشرين.

أولاً: مقومات التكون القومي

كان التعميم القومي الداعي إلى الوحدة يركز على التوجه إلى الجماهير العربية تارة، والجماهير الكادحة وجماهير الشعب العربي تارة أخرى. ومن البداهة أن يكون في تلك الدعوة الجماهيرية قصد ثوري، فالجماهير ـ على أنها مفهوم غامض وعام ـ هي عامة الشعب، أي النقيض الثوري للأسياد والمسيطرين. إن التوجه إلى الجماهير هو بمثابة العودة إلى القوى التحتية المنتجة، المضطهدة وصاحبة المصلحة في الصراع الثوري مع الفئة أو الطبقة العليا. ومن هذا المفهوم بدأت من مستوى التكونات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة أحياناً، حركات قومية، عربية الانتماء في أغلب الأحيان. وكان في ذهن الداعين القوميين أن هذه الجماهير بالذات هي الشعب العربي. على أن مفارقة برزت، عن قصد وعن غير قصد، في هذا التوجه، وصارت الجماهير العربية تعني شعوباً عربية، ودولاً، وأنظمة... الخ. وصار المشرق العربي الشرق الأدنى تارة، وجزءاً من الشرق

(*) نُشر في: دراسات عربية، السنة ١٠، العدد ٥ (آذار/مارس ١٩٧٤)، ص ١٧ ـ ٢٧.

الأوسط تارة أخرى، وصار المغرب العربي الكبير بلدان شمال افريقية، وصارت فلسطين إسرائيل، ولا تزال إيران تسعى لتحويل الخليج العربي إلى خليج فارسي. وربما تكون هذه الإشارة النقدية ساذجة وبلا معنى تاريخي، لولا الصلة الموضوعية الراهنة بين التسميات والمسميات، بين الكلمات والأشياء، بين الأفكار والوقائع السياسية.

إن الجماهير العربية بمدلولها الثوري والقومي هي دونما شك أساس التكون القومي، إلا أن التعطيل الطارئ على وحدة العلاقة الجدلية بين مفهوم الجماهير ومفهوم الشعب، أدى عملياً إلى فصل بين إرادة هذه الجماهير كفئات اجتماعية موزعة على نطاقات إقليمية، وبين إرادتها كشعب. ولهذا فإن الدفع مجدداً باتجاه التكون القومي يقتضي الربط المطلق بين إرادة الجماهير وإرادة شعب الجماهير العربية، فالحديث عن شعوب عربية يتضمن في كل الأحوال توجهات إقليمية، سواء أكان انتماؤها يسارياً أو يمينياً، ويتضمن نضالات وطنية ضيقة، في حين أن المسألة القومية عند العرب تستحوذ على كل اهتمامهم، وتستقطب القوى الاشتراكية العربية حولها.

وربما يغيب عن بالنا، ونحن ندخل في متاهات التجريد الذهني، أن هذا الشعب مقيم بكل جماهيره فوق أرض متماسكة جغرافياً، كانت ذات يوم متحدة سياسياً ومتداخلة بشرياً واقتصادياً، وأن أرض هذا الشعب العربي تبلغ حوالى ١٢ مليون كلم[٢]، أي ما يوازي عشر الكرة الأرضية. كما أن العرب سيزيد عددهم في أواخر القرن العشرين عن المئتي مليون نسمة.

إذن كيف سننظم هذا الشعب؟ كيف سنوحد هذه الأرض؟ وإنتاجها، هل سيكون لشعبها أم سيظل رهيناً للأجانب والمستعمرين والصهاينة؟ وبكلمة واحدة: أية سياسة عقلانية مسؤولة نحتاجها لدفع مسارنا التكوني القومي؟ إن السياسة، وهي كفكر اتجاه من اتجاهات الثقافة والحضارة عند أي شعب من الشعوب، هي أيضاً كممارسة أسلوب لتوجيه طاقات الأمة بوصفها ثورة دائمة، في اتجاه وحدة شعب هذه الأمة، وتمكينه من خلال وحدته الشعبية من إبداع تاريخه وفقاً لعبقريته وكوامن قدراته.

إن السياسة كخط ثقافي وحضاري تستوجب قيام شعبنا بثورة ثقافية متماسكة، تجدد بنيان حضارته، كما أن الثقافة العربية لا بد لها من القيام بدورها الجذري في عقلنة السياسة العربية، ونقدها وتصويب اتجاهاتها. فإذا كانت السياسة تقدم الإطار العام لتبلور الثقافة، فإن الثقافة تحدد السمات الخاصة للسياسة، وتقيم خطوطها السليمة والملتوية، التقدمية والرجعية، القومية والإقليمية، الوطنية والعميلة. وهذا التلازم في العلاقة بين السياسة والثقافة يجعلنا نلاحظ أنه تلازم صراعي أو نضالي، وأنه قلما يتبصر السياسيون في مواقفهم من ثقافة شعبهم، وغالباً ما يلجأون إلى قمعها وإذلال بعض المثقفين لا سيما إذا كانوا طليعيين، أي يقومون بدورهم النقدي ـ وهو الدور الثوري للمثقف العربي. ومما لا ريب فيه أن التنازع السلبي بين ثقافة العرب الراهنة وبين توجهاتهم السياسية يؤثر كثيراً على تفتحهم الحضاري، ويجعل أنظمتهم السياسية عقيمة على مستوى الدولة الخلاقة.

كما أن الترابط الثوري بين ثقافتنا الوطنية الأصيلة وبين سياستنا العربية يسهم كثيراً في تأطير حركة الحضارة العربية المعاصرة، وفي مدها على صعيد الإنتاج الاقتصادي والعمران، باندفاعات ونهوض وكفاءات، تحتاج إليها الأمة العربية الآن أشد احتياج ـ وهنا لا بد من مثال على هذه المفارقة: خلال حرب تشرين الأول/أكتوبر استقدمت اسرائيل ٦٠ ألف كادر وخبير من الخارج، ولم نسمع أن أمتنا العربية استطاعت الافادة من كوادرها خارج مصر وسورية من جهة، واستقدام كوادرها من الخارج من جهة ثانية. وهذا درس كبير لنا، مدلوله أن الأمة العربية تملك مساحة من الأرض وعدداً من البشر، وموارد ضخمة كالنفط وثروات مالية كبيرة، وعدداً رفيعاً من المثقفين، فهذا إنتاج مهم بحد ذاته، ولكنه يستدعي سياسة تستوعبه في مستوى متقدم من التنظيم الاجتماعي ـ فهذا الأخير هو سلاح استراتيجي أيضاً ـ وهو مجال للتفوق الحقيقي بين الشعوب لأنه يمثل رقي العلاقات الاجتماعية ومؤشر تضامن الشعب أو الأمة.

على أن واقع الأمة العربية التي وصفها بعض المؤرخين كجاك بيرين (J. Pirenne) بأنها امبراطورية مع وقف التنفيذ، يجعلنا نحصر همنا التاريخي الراهن في تقصي أسباب «وقف التنفيذ» هذا. واقع الأمة قيل فيه الكثير، يساراً ويميناً، وما لم يقل هو أن الأمة، بدون شعب واحد، تسقط كمقولة، وتحل محلها منطقاً وجدلاً مقولة أمم ـ شعوب. فهل استرعت انتباهنا هذه الواقعة النظرية التي تعبر عن واقعة ملموسة؟ الأمة الواحدة لا تكون دون شعب واحد، والشعب الواحد لا يسترد مكانته الوحدوية التاريخية ما لم يسلك سلوك الأمة الواحدة الأهداف والمصالح، ويضع دائماً صلة الأمة بالشعب فوق كل اعتبار تجزيئي أو إقليمي مصلحي.

الأمة العربية في واقعها الانتقالي من مرحلة الاستعمار إلى الاستقلال، ومن مرحلة التحرر الوطني إلى مرحلة التكون القومي الذي لا بد أن يتوّج بوحدة شاملة على امتداد التحولات الثورية العميقة، هذه الأمة شهدت ولادة أحزاب وحركات وتشكيلات عديدة، من الواجب الوطني والثوري تذكيرها الآن بأنها لم تنجز بعد مهمتها التاريخية التي من أجلها ولدت، وأن عليها المزيد من الاندفاع في اتجاه استكمال التكون القومي حتى يرقى إلى مستوى معادلة ثورية جديدة: الشعب الواحد ـ الأمة الواحدة ـ الدولة السياسية الواحدة (فدرالياً أو كونفدرالياً).

إن الأحزاب السياسية على امتداد الوطن العربي، أكانت حاكمة أو معارضة أم داخلة في جبهة وطنية، لا يجوز لها أن تنسى أنها على اختلاف توجهاتها الطبقية، والطبقية القومية، والقومية، مطالبة بموقف صريح من تجاربها، وبشجاعة على النقد الذاتي والتقييم الموضوعي للمكاسب والخسائر، للخطوات السليمة والخطوات الضالة، وذلك كله بدافع من متطلبات ربع القرن المقبل الذي سوف يتقرر فيه مصير العرب:

ـ هل ستبقى الأحزاب أحزاباً لا يجمعها جامع ولا يوحدها موحد؟ أليس هناك فرصة تاريخية ـ بموازاة جامعة الدول العربية على الأقل ـ لقيام جامعة أحزاب عربية؟ ثم أليس في الواقع مجال لقيام جبهة تحرر وتقدم عربية تضم من يريد من هذه الأحزاب؟

وإذا كانت هذه الأسئلة ستبقى دون جواب، فماذا يمكن للأحزاب أن تقول بشأن دورها، مصيرها، حضورها أو غيابها؟

- هل ستبقى الدول العربية، وهي المنظم الاجتماعي التأسيسي لقوى كل عضو من أعضاء شعب الأمة، دولاً تتصرف كأعضاء أو كأطراف، لا رأس لها ولا وحدة كيان؟ وهل تستفيد هذه الأعضاء استفادة فعلية من مصيبة كونها جسماً له أشلاء وليس له ما يحفظه من الهلاك؟ أليست الوحدة خير حافظ لما أنجزته أعضاء هذه الأمة من مكاسب استقلال وتحرر وطني ولما تبتغيه من سيادة قومية وتقدم اجتماعي ورقي ثقافي وحضاري وإسهام في مستقبل الإنسانية، ونحن نعيش على عشر أرضها ونشكل ٥ بالمئة من سكانها؟ هذه أمور قد لا تعني بعض الحكام المصابين بانفصام مصالحهم عن مصالح الشعب، وبانفصام سياستهم عن ثقافة الشعب وحضارته ومستقبله، ولكنها أمور تعني في الصميم كل مواطن عربي يشعر الآن بدوره الواعي المسؤول، وبقوته وقدرته على الفعل والتغيير أكثر من أي وقت مضى علينا في هذا القرن.

وإذا كانت هذه المقومات الرئيسية في التكون القومي العربي تستدعي دائماً وأبداً التحرك العربي الشجاع والنبيل القصد، فإنها ستبقى من حيث الانجاز مرتبطة بمكونات التحرر الثوري لدى العرب.

ثانياً: مكونات التحرر الثوري

إذن، انطلاقاً من وعي وحدة الأرض ووحدة الشعب تنطرح مسألة وحدة الفكر العربي إزاء تاريخ العرب ذاتهم. كل شعب منصهر جدلياً بأرضه: تكون كما يكون، وكما يكون تكون. فإن تجزأ تجزأت، وإن توحد توحدت، والعكس أيضاً صحيح. والفكر أيضاً يستمد من جدلية الأرض والشعب مسار تكونه. فهو ـ أي الفكر ـ يوحد ويجزئ، يتخطى ويغير. إذا التزم بالأرض وشعبها أنجز مستوى من الوعي، أو من التآلف الفكري والتاريخي، يتحدى الظروف والعوامل الفاصلة بين الشعب وأرضه من جهة، وبين أجزاء أراضي وأعضاء هذا الشعب من جهة ثانية. وفي هذا السياق نكتفي بما يمليه علينا الحس السليم، ولا نتورط في متاهات النقاش حول أسبقية الوعي، أو أسبقية الوجود، بل نقول بالتلازم بين الشعب والأرض، وبين الوعي والعمل.

لكن هذا القول التبسيطي بتلازم الوعي والعمل، لا يعفينا أبداً من التشديد على الصلة التوافقية والتعارضية بينهما، ومن التشديد على العلاقة الصراعية والنضالية بينهما. فالفكر، بطبيعة تكوينه وانبثاقه من فعل تناقض الواقع وحركة التغير، يؤيد ويرفض، يثبت وينفي، يحكم ويحاكم، يوالي ويعارض. ليس هناك فكر صواني، ولا فكر نيتروني ـ حيادي ـ، وإنما هناك فكر مركب، كالواقع ذاته، فيه ما فيه من تعارض المقولات القومية والإقليمية، الطبقية والوطنية، الاستقلالية والتبعية... الخ. وليس من حق أي حاكم أو حكم أن يحاول أن يدعي أنه يستطيع ارتهان فكر الشعب، بل واجبه يكمن في

تفاعله وتعاطيه الخلاق مع فكر أو عبقرية الشعب. ولكن الحكم ـ أو السلطان ـ يتحنط أحياناً أو يتحجر في نمط من الرتابة، والانفصام عن متحولات الواقع الذي يحكم عليه أو له... ومن هنا كانت العقبات الكأداء في وجه تيارات التحرر الفكري العربي، الذي هو على صلة جدلية بالسياسة من جهة وبمقومات التكون القومي العربي من جهة ثانية. بعض هذه العقبات يمكن للمفكر العربي الثوري أن يتسامح في شأنها، سواء لجهة سوء وضعه المعيشي (الذي يرتضي بربطه جدلاً مع واقع فئات عريضة من شعبه) أم لجهة قلة اهتمام الدولة بالإنتاج الثقافي ـ خاصة إذا كان هذا الإنتاج ناقداً وثورياً. ولكن المفكر العربي لا يمكنه أن يتسامح في شؤون مصيرية بالنسبة لدوره الثقافي في التكون التحرري والقومي لشعبه، مثل حريته الفكرية، إذ إن العقل المبدع يلتزم ولا يأتمر، يبتكر الحلول الجديدة ولا يستوحيها من أي ارتهان. وأيضاً إذا كان المفكر عاجزاً عن صون حريته فكيف يمكنه الطموح، فعلاً، إلى الاسهام في حرية شعبه الفكرية؟ وإذا تنازل عنها فهل يصح بعد ذلك وصفه بصفة المفكر؟ إن مهمة التحرر الثوري الفكري التي يتحمل المفكر العربي بعض أوزارها، تستدعي أن يستشهد في سبيل حريته ـ حرية شعبه ـ وأن يقاتل سياسياً لأجلها كما تستدعي هذه المهمة مواجهة ضواغط البيروقراطية والرقابة والقمع التي تتسلح بها بعض الأنظمة لرصد وكبت حركة التحرر الفكري لدى الشعب بأسره. ذلك أن مسار القمع الكبتي الذي يبدأ بالمفكرين، يتحول إلى سلاح سياسي ايديولوجي، ويطال الشعب كله في نهاية المطاف. وإذا كانت سياسة القمع الكبتي، المعادية والقاتلة لحركات التحرر الفكري الثوري، تعتمد أصلاً على نظام تابع، معاد لمصالح الشعب ذاته ولأهدافه في التكون القومي الاتحادي والتقدم الاجتماعي العام، فإنها تجد في واقع أمية الجماهير العربية (التي تبلغ معدلاً عاماً يقدر بـ ٧٠ بالمئة)، سلاماً احتياطياً تواجه به المفكرين، وتعزلهم عن شعبهم، حتى ان دخول عدد من المفكرين العرب إلى السجن في البحرين مثلاً لم يستحق قيام تظاهرة شعبية واحدة لأجلهم، وإنما تحرك فريق من المفكرين المتحررين مطالبين بحريتهم. وهذا أيضاً درس قاس للمفكرين: فالمفكر الثوري لا دور له إلا بين أبناء شعبه، فهو كالسمكة بينهم، وعليه أن يناضل معهم لأجل كل قضاياهم. أما فيما يتعلق بدوره الفكري لأجل محو أميتهم، أي إقامة البنية الشعبية التي تستطيع استيعاب إنتاج طليعتها الفكري، فتغدو النظرية عندئذ على طريق الثورية السليمة، وتغدو أيضاً الصلة فاعلة ما بين الممارسة الثورية (عمل الشعب) وبين النظرية الثورية (عمل مفكري الشعب من أبنائه المخلصين). عندما يبدأ مفكرو هذه الأمة بمحو أمية ٧٠ بالمئة من أبنائها وبإزالة آثار عدوان الجهالة المتراكم (وكأنه نتاج لا بد منه!)، إنما يسلكون بأقدام قوية طريق التغيير، وإلا فإن الوهم ينتظرهم على آخر كلمة من كتاباتهم.

جدير بالذكر أيضاً، وبالتذكير، أن المفكرين العرب لن يجدوا في الكلام المكتوب أو المذاع أو المتلفز، الوسيلة الكافية الشافية، ولا المحركات الصحيحة لدفع الشعب في النضال لأجل حريات العرب وحقوقهم. ثمة، ولا شك، محركات أفعل: أولها التزام المفكر العربي بمسار النضال شبه اليومي، وثانيها ملازمته لهذا الشعب في تظاهراته

وإضراباته ومعتقلاته وكفاحاته المسلحة. وإلا فإن المفكر يغدو راوية، أو مبشراً، أو متأملاً ـ ولو من موقع التزام صادق ـ في هموم شعبه.

إن حريات العرب وحقوقهم هي أيضاً من مسؤولية الأحزاب والمنظمات الجماهيرية والدول العربية. ومع ذلك فإن المفكر الثوري يبقى له، من زاوية الدفاع عن حضارة شعبه، دور أساسي يتمثل في نضاله الدائب لبذر التثوير الثقافي ـ وهو تثوير سياسي عام في نفس الوقت ـ وتعميقه والدفاع عن مكاسب الثقافة الثورية، وأهمها حرية الإنسان في عقله، وحق الإنسان في كرامة جسده، فهذا الإنسان إذا حنط عقله وقمع جسده، ماذا يستطيع أن يفعل لأجل أرضه وكيف لا يكون غريباً في وطنه؟

من الواضح، على مستوى مكونات التحرر الثوري، أن كل نضال فكري يدفع شعبنا العربي في اتجاه تكونه القومي، هو بحد ذاته فرع من فروع التثوير الثقافي الأشمل. وهو بذلك، وعلى صعيد سياسي صرف، إسهام حقيقي في تجذر ورسوخ سياسة التقدم العربي، ولكنه يبقى ناقصاً ما لم يأخذ بالحسبان أساليب التحرر الأخرى: فالعنف الفكري يقابله ويلازمه عنف سياسي، والعنف الاقتصادي يرافقه عنف عسكري... الخ. ولهذا فإن العلاقة الجدلية بين مقومات التكون القومي من جهة، ومكونات التحرر الثوري من جهة ثانية، ستبقى غامضة وملتبسة، ما لم نبادر إلى بحث أمرين: الأول إطارات التغيير العربي، والثاني ضواغط الارتهان.

ثالثاً: إطارات التغيير العربي وضواغط الارتهان

١ ـ إطارات التغيير

تبرز مسائل عدة أساسية في مستوى إطارات التغيير العربي:

● إن صلة المسألة الوطنية بالمسألة القومية تشكل إطاراً للتغيير على مستوى إنجاز نطاقات فاعلة وصاهرة لعروبة الأرض والشعب، وعلى مستوى الانتقال الثوري من المتحدات الإقليمية إلى متحدات قومية عربية أوسع تعتبر مرتكزاً للتغيير الأشمل في اتجاه الوحدة العربية.

● كما أن صلة المسألة الوطنية ـ القومية (المسألة العربية العامة) بالمسألة الاشتراكية، تعطي لحركة التكون القومي مضموناً تحررياً ثورياً، إذ على ضوء هذه الصلة تتحدد القوى الشعبية والوطنية العربية ذات المصلحة الدائمة في إنجاز التحول العربي التاريخي لجهة الاتحاد القومي والتحرير الاجتماعي لعلاقات الإنتاج والثقافة والحضارة، ولجهة تغيير البنى الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لكافة تشكيلات المجمع العربي، وفي الواقع، تتقابل مقولات جماهير عربية، مجتمعات عربية، أحزاب عربية، دول عربية، كيانات، ثقافات... الخ. وتتعارض مع مقولات الشعب العربي، المجتمع العربي، اتحاد الأحزاب العربية، الدولة العربية، الكيان العربي، الثقافة العربية. وهذا التعارض في المقولات يعبر

عن مسألة فعلية: مسألة تداخل التكون القومي في التكون الاجتماعي، وتداخل التحرر الوطني بالتحرر القومي، والتوحد العربي بالترابط الاجتماعي، والتقدم العربي بالتقدم الاشتراكي.

● على ضوء هذه الصلة بين المسألة العربية والمسألة الاشتراكية، يترتب على القوى السياسية العربية التقدمية تحديد اختيار جديد: إما في اتجاه يسار قومي (جدلية الوحدة التحررية والاشتراكية الاجتماعية)، وإما في اتجاه يسار فئوي (جدلية الفئوية الوطنية الإقليمية والاشتراكية في قطر عربي واحد). وفي المقابل، يبدو اليمين في اتجاهين: اليمين القومي الذي ينزع إلى لون من اتحاد العرب بدون تغيير سياسي واجتماعي واقتصادي، واليمين الانعزالي الذي يستميت في الحفاظ على كيانات فئوية معادية لمصالح الشعب العربي.

● إلا أن هذه المسائل ـ صلة المسألة الوطنية القومية بالمسألة الاشتراكية، وصلة اليسار القومي باليسار الفئوي، وصلة اليمين القومي باليمين الانعزالي ـ تستحق كلها أن تمحص وتعمق، بحيث يكون الاهتمام بها من أوليات مهام النضال العربي المعاصر والمقبل. وإننا نكتفي بالإشارة إلى أن معالجة هذه المسائل، تحليلاً ونقداً، لا بد أن تتم في ضوء حروب التحرر العربي ذات السمات التالية:

ـ إنها حروب دفاع عن الوطن العربي وشعبه وموارده وحضارته القومية.

ـ إنها حروب دفاع لكبح جماح الاستعمار العالمي (بكافة تشكيلاته) والاستعمار الصهيوني، وحروب مواجهة ترمي إلى تعريب فلسطين والأجزاء الأخرى المحتلة من أرض العرب.

ـ إنها حروب دفاع وتحرر ترمي أيضاً إلى تعريب الطاقات الاقتصادية والإمكانات البشرية العربية الهائلة.

● وإذا كانت حروب التحرر العربي هي الإطار العام الذي تتحدد فيه وتتبلور مقومات التكون القومي العربي الجديد، وتتحرك فيه مكونات التحرر العربي الثوري، فإن هذه الحروب التي تنطلق من دوافع مسائلنا القومية وأبعادها الاشتراكية، إنما تفرض علينا النظر إلى مسألة السلاح الاستراتيجي. فأي الأسلحة يعتبر استراتيجياً لدى العرب؟ ربما يرغب البعض في التركيز على آخر درجة في السلم الاستراتيجي للأسلحة المتوفرة لدى العرب. لكننا نود، من جانبنا، البدء مما هو متوفر لدينا فعلاً، ونصعد نحو الأسلحة التي يجب توفيرها:

ـ اننا نلاحظ أن جدلية العلاقة بين الإنسان المتطور وبين أرضه هي أول سلاح استراتيجي في أيدي العرب.

ـ وفي المقام الثاني تبرز جدلية وحدة الأرض والشعب، وحدة الإنتاج والبشر، التي لا تغدو سلاحاً استراتيجياً إلا بقدر ترقيها وتجسدها في مستوى فعال من التنظيم الاجتماعي.

ـ وفعالية التنظيم الاجتماعي (التنظيم السياسي الاقتصادي للمجتمع والدولة) هي التي تجعل ثروة النفط العربي، وما ينجم عنها من ثروات مالية، سلاحاً استراتيجياً في أيدي العرب يمكن الإفادة من استخدامه في حروب التحرر العربي، وإلا فبدون هذه الفعالية الثورية يبقى النفط نفطاً، أي مادة خاماً في جوف الأرض، مرهوناً للشركات الاستثمارية الأجنبية.

ـ وهذا كله يعيدنا إلى نقطة البدء: كيف نواجه جدلياً، وفي منظور التغيير الثوري، الواقعة التالية: وحدة الأرض وتفرقة الشعب العربي؟ إن وحدة الموقف السياسي العربي، عند حد معين، تسمح للعرب بحيازة سلاح لتعريب النفط، وتعريب النفط هو الذي يجعله سلاحاً استراتيجياً يمكن الرقي في استخدامه إلى مستوى السلاح التكنولوجي، ويغدو بالإمكان إقامة العلاقة الجدلية الثورية بين سلاح النفط العربي وسلاح التكنولوجيا الحديثة. وبدون ذلك تبطل هذه العلاقة الجدلية بينهما، وإذا بالمعادلة جبرية محضة: نفط + سلاح تكنولوجي لا يؤديان إلى التكون القومي وتعريب أرض الشعب العربي بتحريرها من كافة أشكال الارتهان أو الاستلاب. العلاقة الجدلية تنتج شيئاً جديداً. ومن هذا المنظور بالتحديد نعود إلى ملاحظة أولية هي أن العلاقة بين الدول العربية مثلاً ليست جدلية نظراً لأن لقاءها في «جامعة دول» لم يؤد بعد إلى دولة واحدة أو تكونات اتحادية لدولة عربية مقبلة، كما ان حرب تشرين الأول/اكتوبر، وهي حرب الأرض، حرب تعريب اسرائيل بقوة السلاح التكنولوجي والنفط، لم تؤد في الواقع إلى تحرير فلسطين أرضاً وشعباً، وإنما أعطتنا المؤشر الموضوعي على هذه الإمكانية المنشودة.

٢ ـ ضواغط الارتهان

بعد استشفافنا لأهم إطارات التغيير الكبرى المنظورة، يهمنا تبيان ضواغط الارتهان التي تواجه العرب وأهمها ضغط الانقسام السياسي على مستويات عديدة منها:

● انقسام العرب إلى عرب القتال وعرب تأييد القتال وعرب معاداة القتال.

● انقسام العرب إلى عرب الكفاح المسلح وعرب المهادنة مع المحور الأمريكي ـ الاسرائيلي في المنطقة.

● عرب الشعب وعرب قمة دول الشعب العربي، وانقسامهم حتى في الاجماع على الرفض (مفاوضات التعريب الجزئي للأراضي المحتلة، ومفاوضات على التعريب الشامل للأراضي المحتلة، واحتمال مفاوضات على تعريب أجزاء من فلسطين المحتلة ـ قرار التقسيم مثلاً).

● مستوى نتائج الحرب العربية في تشرين الأول/اكتوبر وقدرة العرب على التصدي لما يسمى (السلام الامبريالي ـ الصهيوني) وهو في الواقع سلاح جديد يُستخدم ضد العرب. فحرب العرب كانت تهدف قبل كل شيء إلى تعريب فلسطين، فإذا بها تتوقف إما لهدف التعريب الجزئي، وإما بدون هدف واضح. وهناك أطراف خارج الدول العربية المشتركة في القتال وخارج المقاومة الفلسطينية، تستخدم كل أساليبها للتشديد من ضواغط

الارتهان على إرادة القتال العربي، مراهنة على أن ما نملك الآن من وسائل السلاح السياسي كافية لتحقيق ما تسميه «السلام السياسي» العادل والدائم. فهل نحن فعلاً أمام سلام عادل؟ وكيف يكون هذا «السلام» دائماً في منطقة لا تني تتحول وتتجدد؟

● إن العرب وهم مؤتزرون بتأييد من بلدان وشعوب جنوب العالم (العالم الثالث)، يشعرون بحذر أنهم في المقابل يواجهون ما يمكن تسميته حلف شمال العالم، الذي يجمع بينه، من زاوية أخرى، إجماعه على ضرورة بقاء اسرائيل، وهذا يستلزم من زاويتهم اعتراف العرب بها. وهذا الموقف مهما يكن وراءه من تبريرات وصداقات، هو في النهاية موقف معاد للعرب، وإن تكن فيه تفريعات معادية لإسرائيل. ويبقى على العرب، حقاً وواجباً، أن ينهجوا سياسة تحرر من ضواغط الارتهان الدولي، بدءاً من إقدامهم على استكمال تكونهم القومي، ركيزة حركة تحررهم الثوري.

وحين نشدد على مسؤولية العرب في صنع مصيرهم ومستقبلهم، إنما نستلهم هذا التشديد من واقعة أنهم لم يبتوا بعد في تصورهم القومي والاجتماعي والسياسي لما سيكونون عليه في آخر هذا القرن. وعليه فإن عرب اليوم تتحداهم اختيارات ومجابهات كبرى. وإذا لم يبادروا هم أولاً إلى تقرير ما يبتغون، فإن عليهم جدلياً أن يتحملوا وحدهم، ولغير صالحهم، عواقب ارتهاناتهم الداخلية والخارجية. من هذه الاختيارات ينجلي أولاً الاختيار الأكبر: هل يريد العرب دولة كبرى؟ أم يريدون أن يخطوا إلى دركات أخطر (دويلات، مستعمرات، مستوطنات)؟ وثانياً إذا لم يبادروا إلى حسم هذا الاختيار في اتجاه النضال القومي الواسع لأجل بناء دولة عربية كبرى، فإنهم أمام وحدة الخطر الصهيوني - الأمريكي، وما يجر هذا الخطر من عواقب استعمارية إضافية، سوف يضيّعون الفرصة التاريخية لتكونهم القومي ولتقدمهم الاجتماعي، كما انهم لن يستطيعوا الحفاظ على أوضاعهم الراهنة، وهذا ما ظهر جلياً حتى في حرب تشرين الأول/ اكتوبر الأخيرة. وبموازاة وحدة الخطر الأمريكي - الصهيوني، هناك أيضاً الخطر البريطاني - الفرنسي الذي تتمثل بقايا اندفاعته الاستعمارية، سواء في الخليج العربي أم في جزر القمر والصومال واريتريا والسودان، وأيضاً الخطر الإيراني - التركي على العرب لناحية الخليج وتهديد المشرق العربي بأسره، ومن الشرق هذه المرة.

هذه المخاطر تحتم على العرب اختياراً إضافياً، ألا وهو دفع الرفض العربي للخطر الامبريالي الأمريكي - الصهيوني، إلى مستوى القتال من أجل وحدة العرب. واليسار العربي يجد مكانه الطبيعي في هذا الاتجاه وإلا فإنه سيسقط في إطار الفئوية ويتلاقى، شاء أم أبى، مع اليمين القومي والفئوي. ولا بد أن ندرك أن جيش الشعب الذي يعرب أرض الأمة، هو الذي يوحدها أيضاً. ومن هنا فالجيوش العربية لها دور في القتال التحريري وفي القتال الاتحادي. وختاماً، أمام العرب اختيار سياسي تاريخي، لا أولوية لشيء عليه، ألا وهو الكفاح المتنوع والمتعدد الجبهات، لأجل تتويج مسار التكون القومي العربي بدولة سياسية عربية تهيئ للعرب المناخ الحضاري الأصلح لتقدمهم واستكمال تحررهم الاقتصادي والثقافي والعلمي.

حول علاقة بعض القوى الوطنية والتقدمية بعبد الناصر(*)

منير شفيق

تتناول هذه المقالة علاقة القوى القومية والتقدمية ـ غير الناصرية، بثورة ٢٣ تموز/ يوليو وبسياسة قائدها البطل القومي عبد الناصر. وهو القائد الذي تعدت زعامته حدود القطر المصري ليتزعم حركة التحرر العربي لحوالى عقدين من الزمان، أي ان نقطة تركيز هذه المقالة ليست عبد الناصر، وإنما علاقة القوى القومية والوطنية والتقدمية بعبد الناصر.

إذا كان عبد الناصر اليوم قد أصبح ممجداً من الغالبية العظمى من تلك القوى إلا أنه لم يكن كذلك في حياته، أو في مراحل كثيرة من حياته السياسية بعد ٢٣ تموز/ يوليو. ولا بد من أن نتذكر أن البعض ممن يتمسحون بأذياله الآن، ويذرفون عليه دموع التماسيح، كانوا قد سددوا إلى صدره سهاماً مسمومة في أحرج الظروف التي مرّ بها، بما في ذلك مرحلة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠)، بل كانوا لا يشحذون سيوفهم إلا في الأوقات العصيبة التي كان عبد الناصر فيه أحوج ما يكون لمساندتهم وتأييدهم، أي في الأوقات التي كانت فيها مطرقة الصهيونية والامبريالية والعملاء تشدد عليه الضربات.

السؤال، هل هي صحوة؟ هل هي عود عن خطأ؟ أم هي المتاجرة؟ أم الدفاع عن حق يراد به باطل؟ إنه شيء حسن أن يصحح الموقف، ولو بعد فوات الأوان. ولكن التصحيح لن يكون حقيقياً ومفيداً إلا إذا جرى عبر نقد ذاتي صارم، وتقويم دقيق وعميق. ويجب أن يفرز ذلك فرزاً جيداً بعيداً عن تلك الاتجاهات التي ما زالت على نهجها نفسه، فانقلبت للمتاجرة، وللدفاع عن حق يراد به باطل... أي الباطل ذاته الذي كان الهدف من وراء طعن عبد الناصر في حياته. إن الذين تعلموا حقاً، وانتقدوا

(*) نُشر في: دراسات عربية، السنة ١٣، العددان ١٠ ـ ١١ (آب/ أغسطس ـ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧)، ص ٣ ـ ٢٠.

أنفسهم بصدق وجرأة، جديرون بالتشجيع والاحترام. أما الذين ما زالوا مُدغلين فيجب أن يكشف خداعهم ويُعرى رياؤهم، لكي تبور تجارتهم، ويعودوا من رحلة حمل الباطل على ظهور الحق خاسرين.

أولاً: مرحلة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤)

عندما نجح انقلاب ٢٣ تموز/يوليو، وأطاح بالملك فاروق وحاشيته. بهتت القوى الوطنية والتقدمية المنظمة داخل مصر وخارجها، فأبت، لفترة طويلة، أن ترى في هذا الانقلاب العسكري جنيناً لثورة وطنية. فرأته، جرياً على عادتها. انقلاباً كبقية الانقلابات العسكرية في ذلك العهد، أي مثل انقلاب الحناوي، وحسني الزعيم، والشيشكلي في سوريا، أو مثل الانقلابات التي كانت تقع في أمريكا اللاتينية. وراحت تفتش فيه عن أصابع الاستعمار. ولم يكن من الصعب عليها، كما هو الحال بالنسبة لأية واقعة، التقاط بعض الجزئيات من أجل إثبات دعواها، بل ذهب البعض في تفسير هذا الانقلاب على أساس أنه جاء ليجهض المد الجماهيري الوطني ويجمده. ثم جاءت الصراعات في داخل مجلس قيادة الثورة حول الحريات والأحزاب ليزيد تلك القوى إصراراً على تحليلها، ويدفع بها إلى التعاطف مع محمد نجيب ضد جمال عبد الناصر. وكانت واقعة الاضراب العمالي الذي حدث في كفر الدوار، وإصدار قرار بإعدام اثنين من العمال، وتنفيذ القرار ليزيد من طمس الجانب الوطني في حركة ٢٣ تموز/يوليو بزعامة عبد الناصر عن أعين تلك القوى الوطنية والتقدمية. ثم زاد الأمر تفاقماً حين بدأ عبد الناصر مفاوضات الجلاء مع الاستعمار البريطاني. ثم توقيع اتفاقية الجلاء التي حملت في طياتها تنازلات للاستعمار البريطاني، كبقاء آلاف الخبراء البريطانيين في قاعدة فايد، والتسليم بحق بريطانيا في العودة إلى قواعدها في مصر إذا جرى اعتداء على أية دولة صديقة لبريطانيا كتركيا مثلاً. وهنا تصاعدت الحملة ضد عبد الناصر إلى أقصى مداها. ونزلت إلى الشارع بعدائية شديدة. فمن جهة الحريات، تم التقاطع مع القوى الرجعية العميلة في مصر وخارجها ضد عبد الناصر. ومن جهة السياسة، ارتكز الموقف على تخوين عبد الناصر لتوقيعه اتفاقية الجلاء. وما زال الكثيرون يذكرون تلك التظاهرات التي سارت في عمّان ودمشق وبيروت وبغداد وهي تهتف بسقوط «حكم البكباشيات والصاغات».

فهل كان هذا الموقف صحيحاً؟ لقد أثبتت الوقائع خطأه وعدم صحته، بل سرعان ما تراجعت تلك القوى نفسها عنه في ١٩٥٥ و١٩٥٦، وراحت تعلن تأييدها لعبد الناصر، وانقلاب ٢٣ تموز/يوليو. وأصبح عبد الناصر في نظرها بطلاً وطنياً كبيراً. وراحت تسمي انقلاب ٢٣ تموز/يوليو ثورة ٢٣ تموز/يوليو. وهكذا ينقلب الموقف من الاتهام بالعمالة ومن التشكيك والطعن والمناداة بالإطاحة بعبد الناصر إلى التأييد والدعم واعتبار عبد الناصر زعيم الثورة الوطنية.

ثانياً: الصراع بين مرحلتين في النضال

السؤال المطروح تحديداً. لماذا لم يلتقط الوجه الوطني في ثورة ٢٣ تموز/يوليو؟..

إن القوى الوطنية والقومية والتقدمية التي عاشت وترعرعت في مرحلة ما قبل ٢٣ تموز/يوليو، كانت قد تعودت أنماطاً من القيادات والشعارات والنضالات والمقولات، ولدتها مرحلة النضال ضد الاستعمار المباشر والحكومات الرجعية العميلة للاستعمار. ولم يكن في القائمة وقوع انقلاب لا تكون وراءه المخابرات البريطانية أو الأمريكية. ولهذا عندما تبدل الوضع لم يكن من السهل إدراك ما معنى صعود قوة وطنية وقومية من بين ضباط الجيش إلى السلطة وسيطرتها على الدولة. وكان لا مفر من أن يختلف سلوك هذه القوة الوطنية، وهي في السلطة، في كثير من مناحيه عن سلوك القوى الوطنية الأخرى وهي خارج السلطة. فعلى سبيل المثال، عندما يحدث اضراب، فهي المسؤولة عن تلبية مطالبه أو قمعه. وعندما تكتب الصحافة شيئاً، فهي المسؤولة عن تحمله أو إسكاته. وهذا يختلف عن المرحلة السابقة، خاصة فيما يتعلق بلجوئها إلى القمع. فالقمع كان من شيم العملاء، وليس من شيم القوى الوطنية التي كانت تقع تحت القمع. وعندما جاءت الآن قوة وطنية وسيطرت على السلطة واضطرت للجوء إلى بعض الاجراءات القمعية، فهذا يعني في عرف بعضهم أنها «ليست وطنية» ما دامت تقمع! إنها السذاجة حين لا ترى الديمقراطية والدكتاتورية لدى كل طبقة، بما في ذلك الطبقات الوطنية، تشكلان وحدة ضدين، وذلك عند الاستيلاء على السلطة.

وهكذا، فإن سيطرة العادة والأفكار الرائجة وعدم التقاط سمات الوضع الجديد حتم الصدام مع عبد الناصر.

لقد كان لا مفر من أن يتصدى عبد الناصر لمعالجة المسائل الوطنية من مواقع وجوده في السلطة. وذلك على خلاف ما كان الحال في معالجة تلك المسائل حين كانت الحركة الوطنية ترزح تحت سلطة الحكومات الرجعية العميلة والاستعمار. ومن هنا ما كان لأولئك الوطنيين والتقدميين والقوميين الذين تعودوا على النضال ضمن تلك الظروف أن يفهموا الوضع الجديد، ويكتشفوا قوانين العلاقة به. وما كان لعبد الناصر على رأس ثورة ٢٣ تموز/يوليو، وعلى رأس الدولة، أن يعالج المسائل الوطنية كما كان يفعل النحاس باشا أو الشباب الوفدي. فالحركة الوطنية الآن بزعامته في السلطة وعلى رأس الدولة. ومن ثم لا بد من خوض الصراعات ضد الاستعمار والصهيونية والعملاء انطلاقاً من هذا الواقع الجديد. وكان من بين متطلبات الواقع الجديد مسائل، مثل تثبيت أركان السلطة الوطنية الجديدة، وتسيير عمليات الإنتاج، والدخول في مفاوضات، وإقامة علاقات دولية. فهل كان من الممكن أن تعالج القوى الوطنية الاضرابات بوجود سلطة وطنية كما كانت تعالجها في المرحلة السابقة؟ وهل كان من الممكن لعبد الناصر أن يعالج صراعه مع الانكليز وهو في السلطة كما كان يفعل عندما كان طالباً في الثانوية؟ أم كان لا مفر من إجراء الحسابات الدقيقة، لأن أي تصعيد فوق حد معين لا يعني تظاهرة صاخبة ثم

صداماً مع الشرطة، ثم ذهاباً إلى السجن، وإنما يعني حرباً دولية! وبكلمة، إن الحركة الوطنية الآن في السلطة. وهذا ما يجب أن يفهم جيداً. وتفهم أبعاده في كل المجالات فهما جيداً.

إن عدم القدرة على فهم الواقع الجديد، بما في ذلك التغير الكيفي الذي حدث في ميزان القوى وما يترتب عليه من معطيات، قد دفع بجيل أو أكثر من الرعيل الوطني الذي عاش مرحلة حزب الوفد في مصر إلى الانزواء في البيوت والتشاؤم يأكل قلوبهم، والسواد يجلل كل ما تقع عليه أبصارهم. لقد أحسوا أن «الخيانة» و«النكسة» و«الردة» قد أطبقت على البلد. واعتقدوا أن ضربة نزلت بذلك العهد المشرق من النضالات الوطنية. كما أن بعض ذلك الجيل ممن قرروا الاستمرار في النضال جنحوا إلى التصدي لعبد الناصر والهجوم عليه وفقاً لتلك التصورات نفسها. لقد حورب عبد الناصر بموضوعات ورؤى المرحلة السابقة ولم يكن مع عبد الناصر، حقيقة، ما بين ١٩٥٢ و١٩٥٤ غير بعض الشارع الشعبي. ولكن بصورة سلبية محفوفة بالتردد والانتظار، مع شعور غامض بأن شيئاً ايجابياً أخذ يحدث.

ثالثاً: الصراع بين ما هو جديد وبين ما هو قديم

وهكذا كانت مشكلة عبد الناصر منذ البداية مع معاصريه من السياسيين الوطنيين والقوميين والتقدميين ـ ولا أقول مع الجماهير ـ تلك المشكلة المزمنة بين ما هو جديد وبين ما هو قديم، أي بين واقع تغير وتقدم وأصبح يتطلب أشكالاً وصيغاً جديدة في النضال والمعالجة وبين موضوعات عاشت في الواقع الذي سبق، وتعودت أشكالاً وصيغاً محددة مناسبة لذلك الواقع، ولكنها أصبحت الآن بالية. إنها تلك المعضلة التي تنشأ عن تطور الواقع تطوراً يسبق الأفكار، الأمر الذي يؤدي إلى تخلف الفكر عن اللحاق بالواقع في الوقت المناسب. فالواقع الحي أكثر غنى وثراء من الأفكار. والواقع الحي يسبق الأفكار في عملية تطوره. ولكن لا يكتمل عقد تطور الواقع في كل مرحلة من مراحله ما لم يتوج ذلك بالوعي والأفكار والسياسات التي تعود فتلعب بالنسبة له، دوراً حاسماً راجعاً. فالصراعات فيما بين القوى السياسية، خاصة، تلك التي تنتسب إلى الجبهة الواحدة تنبع، في واحد من مصادرها، من عملية التقاط ما يستجد في التطور الموضوعي، حيث تسبق إحداها الأخرى في التقاط الجديد والتعبير عنه، بينما تظل تلك الأخرى أسيرة موضوعات الماضي وأفكاره وسياساته. وهنا لا بد من أن يندلع الصراع وقد يأخذ، أحياناً، شكلاً جاداً شديد القسوة يصل إلى حد التشكيك والتخوين والتصفية، ولكن التطور الموضوعي لا يرحم المتخلفين عنه، فإما يلقي بهم بعيداً، وإما يجبرهم بعد أن يتضح وضوحاً بيناً على التراجع وقبول الأطروحات الجديدة التي يكون قد أكدها. بيد أن المأساة تستمر حين يجيء هذا القبول متأخراً، بمعنى حين يكون التطور الموضوعي قد خطا خطوة جديدة إلى الأمام وكوّن معطيات جديدة. وأصبح يتطلب عمليات لحاق جديدة به، فيبقى القبول المتأخر الذي تخلى عن مواقع المرحلة الأسبق

متخلفاً حين لا يكون تقدمه قد واكب المرحلة الراهنة أيضاً، واكتفى بالتقدم خطوة واحدة فقط. وهكذا يحكم على نفسه بأن يظل على الهامش باستمرار. إن سبباً في ذلك، وليس هو السبب الوحيد، يرجع إلى أن التغيير الذي يكون قد أحدثه المتخلفون في مواقفهم السلبية، لم يأت عبر معاناة حقيقية ونقد جذري لمنهجهم وللأسباب التي جعلتهم يتخلفون.

إن تخلف الأفكار عن الواقع المتطور في ميدان النضال السياسي يشبه تلك المعضلة الاجتماعية والفكرية الناشئة عند الجيل الذي ولّى زمانه، حيث يجد صعوبة في التقاط ميزات الزمن الجديد وسماته. فيروح يتحدث عن أيام زمان، والرجولة في أيام زمان، والخير أيام زمان، وكيف كان كل شيء أفضل أيام زمان. إن الحنين إلى الماضي يكون أحياناً عند بعض الناس أقوى من التطلع إلى المستقبل أو القدرة على مواجهة الواقع المعاش.

على أن هذه المعضلة تأخذ الشكل المهزلي حين يخوض المرء الصراع ضد حالة جديدة بعقلية الحالة القديمة. فيسقط على خصمه الجديد صفات الخصم القديم إسقاطاً قسرياً. ثم يدخل المبارزة وفق الأصول السابقة. لماذا؟ لأنه لا يعرف. في الحالة التي أمامنا، خوض الصراع إلا ضد العملاء. أما الصراع فيما بين قوى وطنية فأمر غير ممكن.

لهذا يجب أن يلبّس الخصم الوطني صفة العمالة حتى يخاض الصراع ضده. أوَلم يحدث مثل ذلك مع دون كيشوت في القصة الاسبانية المشهورة، حين انتهى عصر الفروسية، وأصبحت المبارزة تتم وفقاً لقوانين السوق الرأسمالي، الأمر الذي أخرج دون كيشوت من الواقع الجديد ليمضي مخترعاً طواحين هواء مناسبة؟ فالمبارزة بالنسبة له غير ممكنة إلا وفقاً للأصول القديمة.

رابعاً: الموقف من الانجازات الوطنية السابقة

في الواقع أن قيادة ثورة ٢٣ تموز/يوليو لم تساعد، بدورها، تلك القوى على التقاط سمات الواقع الجديد. فقد عمقت الشق حين لم يؤخذ موقف نظري وسياسي صحيح من المرحلة الوطنية السابقة، أي مرحلة (١٩١٩ ـ ١٩٥٢). فقد أرخي ستار من الصمت على الدور الوطني الكبير الذي شهدته تلك المرحلة. وبدأت الأضواء تسلط على بعض سلبيات الوضع الوطني الحزبي السابق. وراحت ترسم الصورة من خطوط تلك السلبيات وألوانها. وبدا كأن النضال الوطني لم يولد إلا ليلة ٢٣ تموز/يوليو. فبدلاً من أن تقدم ٢٣ تموز/يوليو كاستمرار شرعي لتلك النضالات وكتتويج لها، انكفأ الطرح النظري والسياسي إلى تشطيبها من تاريخ الشعب العربي في مصر. وقد وصل الحد في عام ١٩٦٥ إلى أن اعتقلت أجهزة المباحث عدداً غير قليل من الذين شاركوا بتشييع جنازة الزعيم الوطني مصطفى النحاس باشا.

إن مثل هذه العقلية تسود في معظم الحالات الوطنية عندما يحل جناح مكان آخر

في السلطة حيث يصار إلى تشطيب العهد الذي سبقه. فتسلط الأضواء على سلبياته وتعدم ايجابياته. وترسم الصورة من خيوط تلك السلبيات وألوانها. إن مثل هذا الاتجاه يساهم فوراً في تعميق الهوة بين رجال عهدين ومرحلتين، وفي رفع التناقض إلى مستوى العداء. إن الشيء الصحيح هنا هو ضرورة رؤية كل مرحلة تاريخية ومعطياتها واعتبار عملية تطور الثورة الوطنية في بلادنا تمر عبر حلقات متصلة تلد فيها كل حلقة من أحشاء الحلقة التي سبقتها وهي استمرار لها وإن كانت تحمل عملية تخط لها.

وبالمناسبة إن شيئاً شبيهاً بهذه العقلية نجده، أحياناً، عند خمسة أشخاص أو عشرة يشرعون في بناء منظمة وطنية أو ثورية فتراهم يجنحون إلى إعدام كل من سبقهم وكل من حولهم، كأنما عملية الولادة، أية ولادة جديدة، يمكن أن تتم، على أرض الواقع، دون أن تكون استمراراً للحالات التي سبقتها، ودون أن تحمل بصمات الوراثة، إنه لمن الضروري الاعتراف بمسألة الاستمرار والتتويج والتخطي، والعمل على تأكيد السمات الجديدة على ضوء إعطاء حكم موضوعي صحيح لسمات المرحلة السابقة، وذلك بإبراز ايجابياتها وسلبياتها في ارتباطها بالظروف التاريخية المحددة، إن هذا المنهج يبرز شرعية الجديد ونضارته وضرورته. كما أنه يساعد بلا شك، في إعطاء حركة الجديد زخماً أكبر حين يمد جسور التحالف والاتحاد مع رجال المرحلة السابقة وجماهيرها، وذلك على ضوء ضرورة فهم المعطيات الجديدة. ومساعدة أولئك الرجال وتلك القطاعات من الجماهير ـ قد تكون واسعة أو ضيقة ـ على مواكبة الجديد والاسهام النشط فيه، بدلاً من العيش في الماضي ومصارعة الجديد بمقولات مرحلة انقضت.

خامساً: التأييد والدعم (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨)

الحياة تتقدم، ومجرى النضال لا يتوقف. فيطل عام ١٩٥٥ ليحمل معه تألق نجم عبد الناصر، في باندونغ، ثم صفقة الأسلحة التشيكية، ثم تأميم قناة السويس، وأخيراً العدوان الثلاثي وصمود عبد الناصر في مواجهته. وهكذا لم يأت عام ١٩٥٦ حتى كان عبد الناصر القائد الوطني بلا منازع. وإذا بأجيال جديدة من الشباب تنزل إلى ساحة النضال في ظروف الصراعات الجديدة ملتفة حول عبد الناصر. وإذا بجماهير الشعب تخلص من بعض ترددها في حسم موقفها الايجابي من الظاهرة الجديدة. وهكذا غدا عبد الناصر قوة جارفة مع النصف الأخير من عام ١٩٥٥ وعبر عام ١٩٥٦، فتضطر تلك القوى التي كانت تهتف قبل سنة أو أقل «يسقط حكم البكباشيات والصاغات» لإعلان تأييدها ودعمها لحكم القيادة الوطنية الثائرة. وراحت تلهث وراءها. وأخذ التأييد والدعم يتصاعدان لقائد القومية العربية مع اشتداد الصراع ضد حلف بغداد، ورفض أمريكا تمويل بناء مشروع السد العالي، ومن ثم تم عقد اتفاق بناء السد العالي مع الاتحاد السوفياتي، وصدور قرار تمصير البنوك والشركات في عام ١٩٥٧، وتحقيق أول وحدة رائدة في العصر العربي الحديث، وذلك من خلال وحدة مصر وسوريا التي لعب حزب البعث العربي الاشتراكي أيضاً دوراً مبادراً في الوصول إليها.

إن هذه السنوات بالتحديد (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨) هي التي كرست زعامة عبد الناصر على نطاق عربي، وهي مرحلة تكوّن الجيل الناصري، وهي التي شهدت ذلك التحول الانقلابي في موقف تلك القوى القومية والتقدمية في تأييد عبد الناصر إلى حد اعتباره قائدها بعد أن كانت لا تقبل أن تسميه بأقل من «الدكتاتور العسكري الفاشي، والمتواطئ مع الامبريالية الأمريكية». إن حدوث هذا الانقلاب كان أمراً حتمياً أمام كل تلك الانجازات والمآثر التي حققها عبد الناصر.

سادساً: كيف تم تغيير الموقف؟

ولكن هل استند تغيير الموقف على مرتكزات من التحليل الدقيق والعميق، أم كان انقلاباً في الموقف يحمل كل علامات السطحية التي حملها الموقف العدائي الخاطئ الذي سبقه؟ في الواقع لقد تم التغيير دون مراجعة حقيقية وجريئة للموقف السابق، أي حدث التغيير، ونسي الموقف السابق، وكأن شيئاً لم يكن. ولكن هل كان من الصحيح أن تعالج القضايا الوطنية الخطيرة بمثل هذه البساطة والخفة؟ أم كان الواجب الثوري والوطني يتطلب إجراء تقويم صحيح لكي يصحح المنهج، ويعمق فهم الواقع، وتستخلص الدروس، وذلك من أجل تجنب الوقوع في الخطأ مرة أخرى. ولكن لما لم يحدث ذلك فقد تكرر الوقوع في الخطأ مرات ومرات مع عبد الناصر نفسه، ثم مع غيره من الحركات الوطنية، وخاصة، مع الثورة الفلسطينية، وما زال الحبل على الجرار. وهذا أمر منطقي ما دامت القيادات المسؤولة عن تلك السياسات ترفض المحاسبة الصارمة للنفس. وتكتفي بالقفز من موقف إلى موقف دون تفسير سليم لما حدث وما هو حادث. وكانت تلك القيادات كلما سئلت عن الأخطاء تتهرب من المواجهة الحقيقة، وتعطي اجابات مسطحة حتى لو قدمت اعترافات شكلية بوقوع خطأ ما. وذلك لكي تسرع إلى كم الأفواه تحت الادعاء أن إثارة هذه المسائل لا تخدم شيئاً سوى التشكيك، وإثارة الانقسام، وخدمة العدو. ولكن الوقائع أثبتت أن مثل هذا الموقف لن يقود إلى تعزيز الوحدة الداخلية. والأهم لا يقود إلى تقويم المسار حاضراً ومستقبلاً، ويبقينا باستمرار في براثن الوقوع في الأخطاء والتخبط إلى ما لا نهاية.

حقاً «تغير» موقف تلك القوى. ولكن بقي السؤال: كيف حدث أن يحقق كل تلك الانجازات والمآثر ذلك القائد نفسه الذي أنكرت عليه قبل سنة أية نفحة وطنية؟ كان الأمر يتطلب من تلك القوى إعادة تقويم تحليلها لعبد الناصر وطبيعته. ولم يكن كافياً أن تنقلب إلى تأييده ودعمه دون مراجعة. نعم كان عليها أن تجيب، هل كانت هذه الطبيعة الوطنية والقومية والثائرة موجودة في عبد الناصر خلال مرحلة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ولم تَرها. ولماذا لم ترها؟ أم لم تكن موجودة فهبطت عليه فجأة بعد ١٩٥٤ كشيء أضيف إليه إضافة من الخارج. ولكن كيف؟ طبعاً لا يمكن الأخذ بالتفسير الثاني لأنه شديد التهافت. ولا يمكن أن يؤخذ على محمل الجد. إن التفسير الصحيح هو أن ترى تلك الطبيعة موجودة في قلب التكوين الأساسي لعبد الناصر ونظامه. فخروجها إلى السطح

بهذه القوة، في المرحلة الثانية، يشكل امتداداً لوجودها السابق، وليست إضافة، أو استعارة طبيعة جديدة. أما من الجهة الأخرى فإن خروجها إلى السطح. بكل تلك القوة، لم يكن يعني أن الجانب الآخر من طبيعة عبد الناصر أصبح مُلغى ولا وجود له، وإنما يعني أنه بقي موجوداً أيضاً ولكن في ظروف غلبة وجه الانجازات والمآثر الوطنية والتقدمية والقومية الكبرى.

سابعاً: الطبيعة المزدوجة أو وحدة الضدين

كان عبد الناصر ذا طبيعة من شقين: الشق **الأول**، ويتكون من الطبيعة المصارعة ضد الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية العميلة. وتحمل هذه الطبيعة في طياتها السعي لتحقيق الوحدة العربية والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الديمقراطية. والتحالف مع الجماهير. أما الشق **الثاني**، فيتكون من الطبيعة التي تحسب موازين القوى في الصراع ضد الامبريالية والصهيونية. وتحسب في كل مرة المكاسب والمخاسر، ومن ثم فهي قابلة لأن تؤجل الصدام، وتساوم، وتهادن، دون أن يعني ذلك طمساً للشق الأول أو التخلي عنه، وإنما يكون ذلك، في حساباتها، خدمة له وتهيئة لقفزة جديدة باتجاهه. وكان هذا الشق الثاني يفسر أيضاً الجنوح إلى حل كل القوى السياسية المنظمة ودمجها في تنظيم واحد، ويدخل ضمنه منع الاضطرابات أو التظاهرات أو المعارضة، ويشمل استخدام القهر والسجون.

لقد عُبر عن الشق **الأول** حين أطيح بفاروق وحاشيته والانكليز، وترجمته كل تلك الصراعات البطولية التي خاضها عبد الناصر ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية، وبصورة خاصة، ضد حلف بغداد، ثم الصراع من أجل الوحدة، ثم الإصلاحات الديمقراطية في الزراعة والصناعة والاقتصاد عموماً، بما في ذلك الإصلاح الزراعي ــ تصفية الاقطاع ــ والتمصير والتأميم ــ ضرب الشركات الأجنبية وكبار الرأسماليين. وعبر عنه أيضاً من خلال توطيد تحالف القوى الشعبية ودعم الثورة الفلسطينية.

أما الشق **الثاني** فيعبر عنه بما جاء من تنازلات في معاهدة الجلاء، واللقاء مع راونتري، واتفاق الهدنة مع الكيان الصهيوني بعد العدوان الثلاثي، ويترجمه الاصرار على حل الأحزاب ووضع الكثيرين من الوطنيين والتقدميين المصريين والسوريين في السجون، ثم الاتفاق مع مورفي في لبنان، ثم الموافقة على قرار ٢٤٢، ثم مشروع روجرز.

كان وجود هذين الشقين يتم عبر عملية واحدة، وإن كان أحدهما في كل مرة يطغى على الآخر دون أن يلغيه أو ينفيه. فهذه الوحدة بين الضدين ولدت وضعاً في منتهى التعقيد يتشكل في اللحظة الواحدة من عدد من الجوانب المتناقضة، الأمر الذي جعل من السهل باستمرار أن تعمى الأبصار حين تلتقط جوانب محددة ويتم التعامي عن الجوانب الأخرى أو يفسر وجودها تفسيرات خيالية روائية. فعلى سبيل المثال، كان الهجوم على انقلاب ٢٣ تموز/يوليو ينبع من كونه أخذ طابع الانقلاب العسكري الفوقي،

وبهذا سهل تشبيهه بالانقلابات الأخرى. كما أن الصراع مع البريطانيين حمل في طياته فتح خطوط مع الأمريكيين، وكذلك حدث بالنسبة للمساومة مع البريطانيين عند توقيع اتفاقية الجلاء. وقد سار ذلك بمعية قمع اضراب كفر الدوار وإعدام اثنين من المناضلين، ولكن حدث ذلك ضمن وجود جوانب أخرى مثل الإطاحة بفاروق والصراع الفدائي ضد البريطانيين وفي فايد والاصرار على جلاء البريطانيين، مثل تصفية الاقطاع في الأرض وضرب الاتجاهات الرجعية العميلة.

ولهذا كان الخطأ الذي ارتكب في حينه، هو عدم رؤية الجانب الوطني والديمقراطي في الثورة، وذلك في الوقت نفسه الذي رؤيت فيه الجوانب الأخرى. ثم كان الخطأ الآخر وهو عدم معالجة الوضع كوحدة ضدين لأحدهما الغلبة على الآخر في كل مرة، ولكنهما يتبادلان الموقع بالنسبة للغلبة في كل مرحلة من المراحل. ولهذا عندما تم التراجع عن الخطأ ورئي الوجه الوطني المناضل، رئي أيضاً بطريقة أحادية الجانب، الأمر الذي جعل التراجع عنها في مرحلة أخرى يتم بطريقة أحادية الجانب أيضاً وهكذا. . .

ثامناً: مرحلة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣)

كانت الأعوام ١٩٥٥ و١٩٥٦ و١٩٥٧ و١٩٥٨ قد شهدت تقدماً ايجابياً في العلاقات بين القوى الوطنية والقومية والتقدمية وبين عبد الناصر على مستوى مصر وعلى المستوى العربي. بيد أن عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ادخل حركة التحرر العربي في مرحلة جديدة:

١ ـ قامت الوحدة المجيدة بين مصر وسوريا.

٢ ـ أنزلت هزيمة كاملة بحلف بغداد وأطيح بنوري السعيد، وقامت في العراق سلطة وطنية إقليمية مؤيدة من الشيوعيين والاتحاد السوفياتي.

٣ ـ نزول قوات الأسطول السادس الأمريكي إلى بيروت وانتهاء الحرب الأهلية في لبنان بقيام الشهابية على ضوء اتفاق عبد الناصر ـ شهاب ـ مورفي.

٤ ـ أصبحت الامبريالية الأمريكية هي رأس الرمح المباشر الموجه إلى صدر القومية العربية بعد أن كان رأس الرمح المباشر هو الاستعمار البريطاني والفرنسي.

نظرة سريعة إلى هذه المتغيرات الأربعة تبيّن بوضوح أن مرحلة جديدة ذات سمات جديدة قد تكونت، الأمر الذي تطلب سرعة في اللحاق بالواقع الجديد وإلا فلا بد من وقوع أزمة جديدة بين موضوعات قديمة (تحملها قوى وطنية وتقدمية) وبين موضوعات جديدة (يحملها عبد الناصر، وحركة التحرر العربي التي يمثلها). ولكن لما لم يحدث مثل هذا اللحاق عاد الاضطراب مرة أخرى إلى صفوف القوى الوطنية وترجم في الصراعات الحادة التي خاضها عراق عبد الكريم قاسم والأحزاب الشيوعية في مختلف البلاد العربية

ضد عبد الناصر تحت اتهامه بالدكتاتورية الفاشية وبالعمالة لأمريكا. ثم انتقال الصراع بين عبد الناصر وبين أحزاب قومية. وهكذا مرحلة جديدة، واقع جديد، انتقال جديد لمركز الصراع. كل ذلك كان يتطلب التقاطاً نظرياً وسياسياً جديداً له. وهنا كررت المعضلة نفسها، مرة أخرى، متمثلة في عملية تأخير الوعي عن تطور الواقع. ومتمثلة في دفع الثمن مجدداً بسبب عدم تقديم تحليل صحيح ودقيق لعبد الناصر، أي ثمن الانتقال السطحي من حالة العداء في الفترة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) إلى حالة التأييد المطلق خلال الفترة (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨). وبكلمة، كان الموقفان يشكلان وجهين لعملة واحدة، ولهذا كان لا بد من تكرار الخطأ مرة أخرى في الأعوام ١٩٥٩ و١٩٦٠ و١٩٦١.

تاسعاً: الوحدة العربية

كان تحقيق الجمهورية العربية المتحدة، وكان الدخول في المرحلة الجديدة التي تميزت بسقوط حلف بغداد وقيام حكم وطني في العراق قد طرحا فوراً موضوع مواصلة الزحف الوحدوي إلى العراق. وسرعان ما نشأت العراقيل في وجه تحقيق هذه الوحدة التي لو تحققت لتغير الوضع العربي تغييراً جذرياً عظيماً. فمن جهة طغت الاتجاهات الإقليمية الضيقة في العراق، وكانت واجهتها وضع الحريات الديمقراطية ـ بالأساس حرية الأحزاب ـ مقابل الوحدة. ومن جهة ثانية طغى الاتجاه الوحدوي عند عبد الناصر مصراً على حل الأحزاب كشرط أساسي لتحقيق الوحدة.

حقاً قد لا يكون الصراع بين الطرحين هو كل شيء في هذه المسألة لأن موضوع تحقيق وحدة الجمهورية العربية المتحدة والعراق كان يعني تصعيداً إلى أعلى المستويات للصراع ضد الامبريالية، لأن مثل هذه الوحدة تعني أن النسر العربي في مصر حين يحلق بجناحين أحدهما سوريا والثاني العراق، فهذا يعني انقلاباً في موازين القوى يزلزل الوضع العالمي بأسره. ولهذا كان الاقدام على مثل هذه الوحدة بجدية يحتاج إلى قدر عال جداً من الشجاعة والاستعداد للتضحيات.

على كل حال كانت المسألة بالنسبة لعبد الناصر هل يتنازل عن الاصرار على حل الأحزاب وضم أعضائها كأفراد لتنظيم واحد «الاتحاد القومي»، في ذلك الوقت مقابل أن تتابع مسيرة الوحدة إلى العراق؟ أم يبقي على ذلك الشرط ولو تأخرت الوحدة أو تعرقلت لأمد غير قصير؟ لو أقدم عبد الناصر على هذه التضحية من جانبه لسحب البساط من تحت أقدام الاتجاهات الإقليمية التي تذرعت بموضوعة الحريات العامة لمنع وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة.

أما من الجهة الأخرى فالسؤال هو هل كان من الصحيح بالنسبة للقوى الوطنية والثورية في العراق أن تضع موضوع حرياتها الديمقراطية فوق الوحدة العربية؟ أم كان الموقف الصحيح هو أن تندفع باتجاه الوحدة وتحققها وحتى لو كانت نتيجة ذلك أن تدخل في السجون بسبب إصرارها على عدم حل أحزابها؟

الدرس الذي يجب أن يستخلص من هذه المسألة هو أن تحقيق الوحدة العربية في ذلك الحين كان يجب أن يعالج بجدية عالية ولا يوضع فوقه شيء آخر. بما في ذلك حل الأحزاب أو عدم حلها. إن الثورية الحقيقية، وإن العداء الحقيقي للامبريالية وللصهيونية، وإن الولاء الحقيقي للثورة العربية كان يتطلب أن تحقق الوحدة ولا توضع في طريقها الشروط، إن هذا الموقف كان يجب أن تأخذه القوى الثورية والوطنية في العراق مهما كان الثمن، دون أن يعني ذلك التنازل عن أحزابها وحلها. أي عليها أن تدفع إلى تحقيق الوحدة وتنجزها فعلاً. فتذهب إلى عبد الناصر وتقول له «هذا هو العراق جاهز للانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة دون قيد أو شرط». ولتدخل بعد ذلك السجون دفاعاً عن الحريات الديمقراطية. وعندئذ تكون قد لعبت دور البطل الوحدوي ودور البطل الديمقراطي. أما التمسك بالحريات الديمقراطية والدوس على وحدة عربية أصبحت لقمة في الفم فيفقد تلك القوى حتى جديتها في الدفاع عن الحريات الديمقراطية. ببساطة، أن تكون القوى الثورية في السجون في ظل الوحدة أفضل ألف مرة من أن تكون فوق سرج الانفصال لأن من الضروري أن يدرك جيداً أنه بلا وحدة في بلادنا العربية لا شيء قابل للبقاء على المستوى الإقليمي: لا استقلال، ولا ديمقراطية، ولا إصلاحات تقدمية.

عندما وقعت جريمة الانفصال بين مصر وسوريا، حاولت بعض القوى الإقليمية القول إنها كانت على حق حين عارضت الوحدة مطالبة بالحريات الديمقراطية كشرط لإنجازها. وذلك باعتبار أن حدوث الانفصال جاء الدليل على انهيار الوحدة بدون شرط الحريات الديمقراطية. فإذا كنا نعتبر أن الحريات الديمقراطية تعزز الوحدة إلا أن ذلك الاستنتاج خاطئ تماماً بسبب أن انهيار الوحدة بين مصر وسوريا حدث عندما لم تنضم العراق له أولاً. وحدث بالتآمر الامبريالي ثانياً. ثم حدث بسبب أخطاء داخلية ثالثاً، ومن ضمنها عدم وجود جبهة متحدة قوية تضم كل الأحزاب والقوى الوحدوية والثورية والوطنية، ولكن في كل الأحوال يظل الاتجاه الذي يضع الحريات الديمقراطية فوق الوحدة اتجاهاً خاطئاً. وإنما يجب أن يبقى الدرس الحقيقي هو الوحدة أولاً ومن ثم التمسك بالحريات الديمقراطية، والنضال في سبيلها في ظل الوحدة. أما في اللحظة التي تهدد فيها الوحدة، فيجب أن نقف إلى جانب الوحدة حتى ونحن في سجونها.

عاشراً: تنظيم واحد أم تعدد تنظيمات

هنا تبرز أمامنا موضوعة أخرى لا بد من التوقف عندها، وهي الصراع الذي دار حول هل يكون هنالك تنظيم واحد أم يكون هنالك تحالف بين عدد من الأحزاب والتنظيمات القومية والوطنية والثورية؟ إن طرح هذا السؤال يجب ألا يقتصر في بلادنا، على المرحلة الوطنية الديمقراطية وإنما على المرحلة الاشتراكية أيضاً. ثم هل يكون الاتجاه الرئيسي ـ وفي المرحلتين ـ للقوة القائدة في معالجة تناقضاتها مع الأحزاب والقوى الوطنية والثورية الأخرى يعتمد على أسلوب المركزية الديمقراطية، ويلجأ إلى الاقناع والحوار الدؤوب، ويرتكز على الأغلبية الجماهيرية لا على الاجماع «المطلق»؟ أم يأخذ

شكل القمع والتصفية ودفعها لممارسة النشاط خارج الشرعية، ويأخذ من جانب الأطراف الأخرى شكل التشهير والتحريض العدائي والتآمر والتخريب؟

إن التعلم من تجربة العلاقة بعبد الناصر يجب أن يقودنا لتقديم الاجابات الصحيحة عن هذه الأسئلة. لقد كان بمقدور عبد الناصر أن يعتمد على الأغلبية الجماهيرية. وقد كانت الأغلبية الجماهيرية معه فعلاً على النطاقين المصري والعربي. وكان باستطاعته أن يسمح للقوى الوطنية والثورية الأخرى بالعمل التنظيمي المستقل وبممارسة نشاط سياسي ايجابي بالتحالف معه. فلا يترك تلك الثغرة التي دخل منها الكثيرون، بما في ذلك، بعض الموتورين والأعداء ليضربوه حياً وشهيداً. لقد دخلت منها القوى الانفصالية بكل من أيدها في فصل عرى الوحدة المصرية ـ السورية، ودخل منها عبد الكريم قاسم في العراق بعد إسقاط نوري السعيد، لتحول دون إكمال مسيرة الوحدة إلى العراق. ولكن في المقابل يجب أن نلاحظ مسألتين: **الأولى**، الأخطاء السياسية الفادحة التي ارتكبتها، من البداية، بعض القوى الوطنية والقومية والتقدمية في موقفها من ثورة ٢٣ تموز/يوليو ومن معاهدة الجلاء. إن عدم اتباع سياسة صحيحة تجاه عبد الناصر وإثارة العداء على تلك الصورة ضده، لم يساعدا على إرساء تقاليد لعلاقة وطنية ديمقراطية مع القائد عبد الناصر. وزرعتا حقلاً من الريب والشكوك. وفرشتا أرضية لتكريس فكرة التنظيم الواحد وضرورة حل تلك الأحزاب. **الثانية** عدم التقاط قوانين العلاقة فيما بين قوى النضال العربية في ظروف قيادة عبد الناصر لحركة التحرر العربي.

إن معالجة التناقضات داخل صفوف الشعب وقواه الوطنية والثورية عن طريق الديمقراطية والحوار الايجابي بعيداً عن القمع من جهة، وبعيداً عن التشهير والتخوين والتحريض العدائي من جهة أخرى، يسمحان بتوليد دوافع للاعتماد على الجماهير واللجوء إليها بدلاً من تغييبها ووضعها في مواقع المتفرجين، وبدلاً من اللجوء إلى القمع أو إلى التآمر وحبك الدسائس والتخريب من الداخل.

هنالك من يتصور أن النموذج السوفياتي لبناء الاشتراكية من خلال حزب واحد أوحد يشكل النموذج الأمثل. وهذا أمر كان يساعد بدوره على إضعاف مواقف الذين كانوا يطالبون عبد الناصر بالديمقراطية وتعدد الأحزاب بينما سيتخلون عن ذلك إذا تسلموا السلطة، واتجهوا لبناء الاشتراكية. إن التجربة السوفياتية التي فرضت على لينين وستالين هذا الطريق يجب أن تربط بظروف قاهرة محددة عاشتها ثورة تشرين الأول/ اكتوبر. ولكن في كل الأحوال يجب ألا تعتبر قانوناً أو نموذجاً أمثل يسحب على كل حالة من حالات بناء الاشتراكية. فالأحزاب منتج تاريخي يعكس مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة ولا يمكن فرض إزالتها بالقسر، وإنما هي بحاجة لعملية تاريخية طويلة جداً لكي تزول، بما في ذلك بعد انتصار الثورة الاشتراكية. ومن هنا فإن هذا الفهم العلمي لهذه الموضوعة يسمح بإقامة دعوى العمل الجبهوي، وإرساء تقاليد صحيحة للتحالف والصراع في المرحلتين الوطنية الديمقراطية والمرحلة الاشتراكية، وذلك

فيما بين القوى والأحزاب السياسية المختلفة التي تدخل ضمن الإطار العريض للمرحلتين الوطنية الديمقراطية والاشتراكية، أي كل الأحزاب والقوى التي لا تنتمي إلى الثورة المضادة، ولا تتبع لقوى أجنبية خارج البلاد العربية.

حادي عشر: المساومة

هل كان لعبد الناصر أن يناور مع راونتري رسول الامبريالية الأمريكية عام ١٩٥٩ في ظروف محددة لموازين قوى جديدة؟ أي السؤال نفسه الذي طرح قبل ذلك في عام ١٩٥٤ يوم توقيع معاهدة الجلاء. والسؤال نفسه الذي طرح عام ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثي حول قضية شرم الشيخ وقوات الطوارئ في سيناء وقطاع غزة، والسؤال نفسه الذي طرح بعد ذلك ١٩٦٧ عند الموافقة عل قرار ٢٤٢، وأخيراً قبول مشروع روجرز ١٩٧٠.

إن الخط البياني لصراع عبد الناصر مع الامبريالية كان متعرجاً ولم يسر على خط مستقيم، أي تخللته مراحل صراع حاد وصل إلى مستوى القطيعة التامة، ومراحل مساومة وتقديم تنازلات، وتهدئة لحدة الصراع.

السؤال الذي تطرحه هذه المسألة من شقين: هل كان يحق لعبد الناصر وهو القائد القومي التحرري أن يعقد مثل تلك المساومات أم لا؟ أما الشق الثاني فهو: هل يجوز لمعارضي تلك المساومات من القوى الوطنية أن يذهبوا بمعارضتهم لعبد الناصر إلى حد التخوين والاتهام بالعمالة أو «السير على طريق العمالة»؟

ما من ثوري يحترم نفسه ويحمل أقل قدر من المسؤولية، وله بعض المعرفة في تاريخ الثورات، يستطيع أن يقول انه ضد المساومة من حيث أتت، أو لا مساومة مطلقاً مهما كانت الظروف وتحت أي شرط من الشروط. إن هذه المسألة لم تعد مكان نقاش بين الثوريين الجديين. فقد أصبحت مسألة مقبولة ومقررة. إن الثوريين ليسوا ضد كل مساومة، وإنما هنالك مساومة يرفضونها ومساومة يقبلون بها. هنالك مساومة تحمل طابعاً خيانياً. وهنالك مساومة تحمل طابعاً وطنياً وثورياً، أو على الأقل، مساومة يمكن القبول بها. ويجب أن يرسم خط فاصل بينهما ولا يجوز الخلط بينهما.

إن الشيء الذي يجب أن يرى، سواء وافقنا عبد الناصر أو لم نوافقه على هذه المساومة أو تلك، هو الخطأ المريع الذي وقعت فيه قوى وطنية وتقدمية وقومية أكثر من مرة حين راحت تدمغ عبد الناصر «بالعمالة والخيانة» وتدعو لإسقاطه. ولهذا كان الموقف الصحيح أن يظل الموقف ايجابياً من عبد الناصر حتى في ظروف عدم الموافقة على سياسات معينة أو مساومات معينة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يعارض راونتري وتكشف نواياه ومشاريعه، دون أن ينسى ذلك الجانب الأساسي في طبيعة عبد الناصر وهو الوطنية والنزعة القومية الاستقلالية، ومن ثم يعالج التناقض على هذا الأساس وليس انطلاقاً من تحويله إلى عدائية حتى النهاية.

إن عدم استقاء الدرس الصحيح أول مرة في عام ١٩٥٤، ولا ثاني مرة عام ١٩٥٦، ولا ثالث مرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠، ولا رابع مرة عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ (بعد التوقف عملياً عن الرد على تحويل مجاري نهر الأردن) أدى إلى تكرار لارتكاب الخطأ عام ١٩٦٧ بعد الموافقة على قرار ٢٤٢، وألحق تكراره أيضاً أضراراً فادحة بالثورة الفلسطينية عام ١٩٧٠ بعد موافقة عبد الناصر على مشروع روجرز.

ثاني عشر: مرحلة (١٩٦٣ ـ ١٩٦٧)

لا زال الكثيرون يذكرون كيف استقبلت اجراءات عبد الناصر التأميمية في ١٩٦١ و١٩٦٣. فقد تخلفت قوى عديدة من القوى القومية والوطنية والتقدمية عن إدراك أبعادها أو على الأقل اعتبارها خطوة وطنية وديمقراطية إلى أمام. فقد فسرت في ذلك الوقت انها للخداع وذر الرماد في العيون. فالذين كانوا يحللون انتماء السلطة الطبقي في مصر باعتبار أن عبد الناصر يمثل كبار الرأسماليين المصريين (اليمينيين الرجعيين الكومبرادور)، كطلعت حرب والشبراويشي، أسقط في يدهم أمام هذه التحولات. فكان لا بد من أن يفعل الخيال فعله لمواجهة سقوط تلك التحليلات، وذلك بالإصرار على أن قرارات التأميم «جاءت لتخدم مصالح طلعت حرب والشبراويشي» رغم أنها أممت مصالحهما الأساسية. وبقي السؤال إلى متى يمكن أن تستمر هذه المواربة، خاصة، وأن عبد الناصر أصبح على أبواب اندلاع صراع شديد بينه وبين الامبريالية الأمريكية (جبهة اليمن ١٩٦٣، وتحويل مجاري نهر الأردن ١٩٦٤). ولكن، للأسف، كان لا بد من نزف دم غزير من الجيش المصري في الصراع ضد الامبريالية والرجعية حتى يتفضل «الطليعيون» بإعادة الاعتبار لعبد الناصر كقائد قومي ومصلح اجتماعي كبير، ومن ثم لكي تبدأ مرحلة صياغة موضوعة «تمثيل عبد الناصر للبرجوازية الصغيرة».

هكذا من ناحية التمثيل الطبقي كان هنالك تذبذب دائم لتحديد ما يمثل عبد الناصر. فتارة سمي بممثل الكمبرادور وملاكي الأرض الكبار ضد الاقطاعيين، وتارة سمي بممثل البرجوازية المصرية الكبيرة الوطنية التي تريد أن توحد السوق العربية، وتارة يمثل البرجوازية المصرية الكبيرة اليمينية الفاشية، وأخيراً يمثل البرجوازية الصغيرة.

يمكن القول إن شرائح عديدة من القوى القومية والوطنية والتقدمية خففت من غلواء عدائها لعبد الناصر في هذه المرحلة. ولكن بقيت هنالك شرائح أخرى تهاجمه وتطعن به، وتثير الشبهات حول علاقته بأمريكا.

ثالث عشر: مرحلة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠

لم يكد عبد الناصر يتلقى الضربة القاسية، في حزيران/يونيو ١٩٦٧، وهو في خضم صراعه البطولي ضد العدو الصهيوني والامبريالية الأمريكية حتى انطلقت أصوات عديدة، وفي هذه المرة كان من بينها بعض الناصرين السابقين، لتعلن «سقوط البرجوازية

الصغيرة»، و«سقوط الناصرية». وراحت تفتح النيران على بطل حركة التحرر العربي وهو مثخن الجراح نازف الدماء. فالبعض اتخذ من حرب الشعب الفلسطينية منطلقاً للطعن بعبد الناصر بدلاً من أن تكون تكريساً للتحالف معه. والبعض استخدم «الماركسية اللينينية» للعداء ضده بدلاً من أن تكون تكريساً للتحالف معه.

يمكن القول إن الطامة الكبرى في العداء لعبد الناصر جاءت بعد حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، حين شحذت جيداً خناجر الطعن في عبد الناصر والاعلان عن «سقوط البرجوازية الصغيرة»، وإنكار وجود برجوازية وطنية، ثم الهجوم عليه «كمستسلم ومفرط» بالمسألة الوطنية عندما وافق على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وازدادت الحملة المسعورة عندما وافق على مشروع روجرز. ولا زال الكثيرون يتذكرون الكثيرين ممن يذرفون عليه الآن دموع التماسيح وهم يكتبون ضده في صحافة بيروت، ويسيرون بالتظاهرات في عمان. ولا شك في أنه أغمض عينيه الاغماضة الأخيرة وقلبه ينزف من تلك السهام التي أطلقت عليه من بعض القوى الوطنية والقومية و«اليسارية».

وهكذا مرة أخرى تعالج ظروف ما بعد حزيران/ يونيو بعقلية ما قبل حزيران/ يونيو فلا يكتفى بمعارضة قرار ٢٤٢ أو عدم الموافقة عليه، مع إبقاء التحالف مع عبد الناصر ودعمه، والإبقاء على اعتبار عبد الناصر مناضلاً قومياً كبيراً، وإنما يصعد الصراع ضده إلى مستوى العدائية حتى النهاية. ولا يفهم عبد الناصر حين عمل على تحقيق وحدة الصف العربي في الظروف الجديدة بديلاً عن شعار وحدة الهدف. ولا يفهم عبد الناصر حين شدد من علاقاته مع الاتحاد السوفياتي بأنه بقي عبد الناصر رجل الاستقلال القومي والحياد وعدم الانحياز. ولا يفهم عبد الناصر حين وافق على مشروع روجرز أنه يدخل تكتيكاً جديداً لا يعني بأي شكل من الأشكال تخليه عن الثورة الفلسطينية أو تخليه عن نضاله الوطني واستعداده للحرب.

رابع عشر: خلاصة

إن التعلم من تجربة بعض القوى الوطنية والثورية في علاقتها مع عبد الناصر يدخل ضمن استقاء الدروس من المثل السلبي وليس المثل الايجابي، لأن المرء يستطيع أن يقطع بأن الوجه الرئيسي لتلك العلاقة كان يحمل طابعاً سلبياً. فقد كانت سلسلة من التخبطات المتواصلة حتى عندما كانت تأخذ مظهراً ايجابياً، وذلك لأن الايجابية لم تكن وليدة تحليل عميق صحيح للوضع، ولا تدخل ضمن رؤية شمولية ذات بعد مستقبلي استراتيجي، وإنما كانت تنبع من أسباب طارئة ومواقف ظرفية ونظرة سطحية شكلية، وإلا كيف يمكن أن يكون عبد الناصر بعد حرب العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ بطل القومية العربية، ثم ينقلب بين ليلة وضحاها، ولمجرد لقاء مع راونتري، ومناورات محدودة، إلى عميل الامبريالية الأمريكية الجديد؟ وكيف يمكن أن يكون التأييد للوحدة العربية ـ وحدة مصر وسوريا ـ حقيقياً حين تباع الوحدة، ويطالب بالانفصال لأن قوى وطنية وتقدمية اعتقلت

في سوريا أو عذبت أو سقط منها شهداء؟

أول ما يجب أن نتعلمه من هذه التجربة التاريخية ذات الوجه السلبي في علاقات بعض القوى الوطنية والتقدمية مع عبد الناصر هو كيف يمكن التعايش والتحالف مع قوة قومية قائدة وبيدها السلطة، ويجب دعمها ولكن هنالك تناقضات وصراعات معها في الوقت نفسه. كيف يمكن أن تحل عبر هذه الحالة مسألة التحالف والنقد، مسألة القبول بقيادتها وبممارسة التنافس معها تحت الطموح للوصول إلى القيادة. قطعاً ما من حزب سياسي أو منظمة سياسية وطنية أو ثورية لا تطمح للوصول إلى السلطة. ولهذا حين يقبل بتعدد الأحزاب والتنظيمات ويتم في الوقت نفسه تحالف، فكيف سترسى تقاليد للصراع على شكل يسمح بالمنافسة المشروعة ويسمح بممارسة النقد في ظل النضال المشترك ودعم القوة القائدة الوطنية؟ كان الصراع مع عملاء الاستعمار أمثال نوري السعيد والملك فاروق سهلاً ـ العداء على طول الخط. ولكن الصراع فيما بين القوى الوطنية والثورية في حكم وطني صعب ومعقد. العداء على طول الخط يعني فتح الثغرة الخطرة التي سيفيد منها العدو. أما الدعم على طول الخط بمعنى الموافقة على كل شيء فهو غير ممكن طالما هنالك أحزاب متناقضة في تمثيلها للفئات والطبقات الشعبية وفي سياساتها وأفكارها ومعتقداتها ومناهجها. ولهذا تطرح موضوعة الموقف المعقد، أي أن يكون الوجه الرئيسي التأييد والدعم والنضال المشترك ضد العدو، ويكون الوجه الثانوي النقد والصراع والمنافسة. ويدرس الوجه الثاني في ارتباطه بالوجه الرئيسي، ولكن كما هو الحال في كل وضع يحمل وحدة ضدين، حيث يمكن أن يتبادل المواقع كل من هذين الوجهين. بيد أن هذا التغيير في المعادلة لا يلغي استمرار الموقف المعقد الذي يراعي الوجهين ويمارسهما في كل حالة مع إعطائه الأولوية للوجه الرئيسي في كل مرة وإخضاع الوجه الثانوي له في أثناء ممارسته. وذلك لكي تأتي ممارسة حمل الضدين متماسكة متناغمة لا متعاكسة.

النظرة الشمولية في حالة معقدة

كان فهم عبد الناصر وسيظل عملاً بحاجة لتعميق وتصحيح من قبل الكثيرين. والسبب في أن الكل يحب أن يستغله ويسقط عليه أفكاره وما يريد، لا أن يراه كما هو. ولهذا كان من السهل دائماً أن تلتقط مواقف أو أفكار في حياة هذا القائد العملاق بصورة مجتزأة، ثم يقال هذا هو عبد الناصر. وينطبق هذا على الحالتين: حالة الايجابية أو حالة العداء. ولكن ذلك يكون قد كشف عن جزء وليس عن الكل. أي لم يؤخذ الجوهر ولم تمسك المسألة بشموليتها. فهنالك من يرى في عبد الناصر رجل التأميمات ولا يحب أن يرى فيه في الوقت نفسه رجل التحالف الوطني مع البرجوازية الوطنية. وهنالك من يراه الرجل الذي فرط بوحدة مصر وسوريا ولا يرى فيه رجل القومية العربية والوحدة العربية. وهنالك من يرى فيه علاقاته الأخيرة في الاتحاد السوفياتي، ولا يحب أن يرى فيه أيضاً رجل الحياد الايجابي وعدم الانحياز والقائد المستقل. وهنالك من يرى فيه الرجل المعادي للاستعمار والامبريالية، ولا يحب أن يرى فيه المناضل المناور والمهادن والمساوم في

ظروف معينة. وهنالك من يجب أن يرى فيه المعادي للامبريالية الأمريكية، ولا يرى فيه صاحب العلاقات الحسنة مع كينيدي والموافق على مشروع روجرز. وهنالك من يجب أن يرى فيه المسؤول عن هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ ولا يجب أن يرى فيه قائد الشعب في عشرات من الانتصارات. وهنالك من يجب أن يرى فيه موافقته على قرار ٢٤٢، ومشروع روجرز، ولا يجب أن يرى فيه الرجل الذي أعاد بناء الجيش المصري وحقق مرحلة الصمود وساند الثورة الفلسطينية بعد حزيران/يونيو ١٩٦٧ ليسترد بالقوة ما فقد بالقوة. وهنالك من يجب أن يرى في عهده تسلط المباحث وحالات من القمع وحل الأحزاب ولا يجب أن يرى فيه اتصاله الدائم بالجماهير ورفع عشرات الأثقال عن كواهلها، وهنالك من يجب أن يرى في عهده تلك الصعوبات التي عانى منها اقتصاد مصر، ولا يجب أن يرى دوره الإصلاحي الكبير في تطوير الزراعة والصناعة والطاقة وبناء السد العالي والانهاض الاقتصادي. وهكذا نلاحظ أن الرؤى المجتزأة الجانبية كانت دائماً، وما تزال، هي معضلة القوى الوطنية والتقدمية في علاقتها بعبد الناصر. وما كان من الممكن في الماضي وليس من الممكن الآن أن يفهم عبد الناصر فهماً عميقاً وصحيحاً إذا لم تر كل الجوانب رؤية شمولية متماسكة، وبشكل يحدد أن الوجه الغالب لمسار قيادته ومرحلته كان الوجه الايجابي المشرق النضر. ولكن هذه الرؤية الشمولية يجب ألا تتجمد عند نقطة محددة، لأن عبد الناصر كان باستمرار متطوراً وخلاقاً يعالج كل وضع ضمن معطياته فيتخطى نفسه دوماً. ولم يكن أسير قوالب وصيغ محددة حتى ولو كان، في مرحلة من المراحل، قد صاغها هو بنفسه. أولم يتخط هو بنفسه صيغة حركة التحرير القومي إلى الاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي؟ أولم يتخط هو بنفسه استراتيجية العمل من مرحلة إلى أخرى؟ أولم يتخط هو بنفسه علاقات سابقة مع هذه الدولة أو تلك مرات ومرات؟ الأمر الذي يتطلب أن يلتقط الجوهر لا الشكل في عبد الناصر. أن يلتقط المنهج العملي الواقعي لا منتجاته وصيغه، وأن ترى المبادئ الأساسية والخطوط العريضة لجماع سياساته ومواقفه لا هذه السياسة أو تلك، في هذه المناسبة أو تلك، أي يجب أن ترى المبادئ الأساسية والخطوط العريضة الملتزمة بالقومية العربية ـ والوحدة العربية، وانحيازه للثورة الاجتماعية الديمقراطية والاستقلال وامتلاك حرية التحرك والحياد الايجابي وعدم الانحياز، والنضال ضد الكيان الصهيوني والاستعمار والهيمنة والعنصرية والعملاء والاقطاع. هذه هي القواسم المشتركة لاتجاهه الرئيسي، أما ما عدا ذلك بالنسبة للمواقف الظرفية والتطبيق العملي في هذا الظرف أو ذاك فهو يحمل النقاش والتخطي. ولهذا يمكن القول إنه لو كانت جماهيرنا العربية محظوظة ليعيش عبد الناصر عشرين عاماً أخرى لرأيناه بالتأكيد يتخطى نفسه باستمرار. ومن هنا لا يستطيع المرء أن يجمده بعد استشهاده عند النقطة التي فارق الحياة فيها.

مطلوب! علاج الأزمة من الجذور(*)

محمد جابر الأنصاري

الخطأ القومي الأليم المتمثل في توقيع معاهدة الصلح المنفرد هو في الحقيقة ـ على خطورته ـ عرض من أعراض خطأ قومي أكبر وأفدح يتعلق بالعرب جميعاً، لا بمصر وحدها.

هذا الخطأ العام هو خطأ العرب في طريقة إدارتهم للصراع مع عدوهم منذ أكثر من ثلاثين سنة وحتى الآن.

● **أولاً**: منذ أن دخلت الجيوش العربية السبعة أرض فلسطين عام ١٩٤٨ والعرب يحاربون باعتبارهم دولاً متعددة وجبهات متباينة، بينما تحاربهم إسرائيل كدولة واحدة وجبهة متحدة.

لقد ظل العرب مقيدين بمنطق السيادات والكيانات المتعددة، وهم لم يتمكنوا من تجاوز هذا المنطق إلى منطق الكيان العربي الواحد القادر على مجابهة اسرائيل باستراتيجية واحدة وقوة واحدة.

إن استمرار منطق التجزئة ومنطق الكيانات المنفصلة هو المسؤول الحقيقي عن خروج مصر عن الحظيرة العربية، فلو كانت الوحدة ـ وحدة الجمهورية العربية المتحدة ـ ما زالت قائمة بين مصر وسوريا ـ مثلاً ـ ولم يطح بها الضباط الانفصاليون يوم الانفصال، لما تمكن الإقليم المصري من الانفراد اليوم بالصلح مع العدو، ونتيجة لذلك فإن الانفصاليين الذين خرجوا على إرادة الشعب السوري لا يقلون مسؤولية عما حصل في مصر اليوم من دعاة الصلح المصريين الذين خرجوا على الإرادة القومية، هذه حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا ونحن نحاسب المسؤولين عن الصلح. إن يوم الانفصال في سوريا المصادف ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١ هو توأم يوم الصلح المنفرد في مصر المصادف ٢٦

(*) مستل من: **هل كانوا عمالقة...؟** (البحرين: المطبعة الحكومية لوزارة الإعلام، ١٩٨٠)، ص ٤٢ ـ ٤٦.

آذار/ مارس ١٩٧٩. فمن الانفصال يتولد الانفراد، ومن مرارة الانفصال تحصل عزلة الانفراد.

لقد انطلقت مصر اليوم من واقع سيادتها الكيانية، كدولة قائمة بذاتها لا يربطها كيان وحدوي حقيقي أكبر منها، فأقدمت على هذا الخطأ وانفردت دون غيرها من الدول العربية بقرار الصلح.. ألا يقضي منطق الكيانات المنفصلة ذات السيادة الكاملة بأن كل كيان له الحق ـ قانونياً ودولياً ـ في اتخاذ القرار الذي يريد؟ إذن فخطأ مصر نتيجة لخطأ أعم وأكبر.

ويجب أن يكون واضحاً لدينا أن منطق الكيانات ومنطق التجزئة هذا قابل لأن تتولد منه أخطاء قومية فادحة أخرى من جانب هذه الدولة العربية أو تلك، قد لا تقل خطراً عما أقدمت عليه مصر، ذلك أن الالتزام القومي المشترك عند العرب ما يزال التزاماً معنوياً وأخلاقياً، ولكنه لم يتجسد بعد في واقع دستوري قانوني ملزم للجميع، فكل دولة عربية ما تزال تقرر بمفردها علاقتها بالمعسكر الغربي أو الشرقي، وتعطي بمفردها ما تشاء من امتيازات وتسهيلات وتعاقدات. وإذا كانت الدول العربية قد التزمت بميثاق شرف غير مكتوب بالنسبة لقضية فلسطين، فإن ذلك لم يمنع ـ عملياً ـ الخروج عليه في ظروف معينة، والمشكلة في حالة استمرار وضع التجزئة العربية هي أنه لا يمكن القيام بشيء عملي حاسم ضد من يقرر الخروج على معنويات العروبة وأخلاقياتها (عدا إرسال الوفود إليه لإقناعه بالحسنى)، أما في حالة الاتحاد الدستوري، فإنه يحق للسلطة الاتحادية العليا التدخل حتى عسكرياً إن لزم الأمر لإعادة المنحرف عن انحرافه، وهذا ما لم يتيسر للعرب لغياب كيانهم الواحد.

لقد قيل إن بن غوريون ـ مؤسس الكيان الاسرائيلي ـ قد شعر بأقسى حالات التشاؤم في حياته عندما بدا أن مصر وسوريا والعراق على وشك إقامة الوحدة الثلاثية فيما بينها طبقاً لميثاق ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٦٣.. ولكن الخلافات العربية أنقذت بن غوريون من هذه الحالة.

ولقد مات بن غوريون، بانفجار الدماغ، بعد أسبوع من حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣ عندما تحولت الجبهات العربية إلى جبهة قتال واحدة لفترة قصيرة، وكأن حركة الساعد العربي الواحد تعني شلل الدماغ الصهيوني على الفور.

ما معنى هاتين الاشارتين الدالتين في سيرة مؤسس اسرائيل؟

إن المعنى أكثر من واضح.. وهو أن الوحدة العربية قاتلة لإسرائيل وأن التجزئة العربية، بالمقابل مهلكة للعرب، وإذا ما استمر واقع التجزئة كما هو إلى ما لا نهاية، فإن النكبات العربية على درب الصراع مع إسرائيل ستتواصل أيضاً إلى ما لا نهاية، ذلك أن التجزئة فوق تفتيتها للطاقات، تبقي العرب منقسمين إلى فقراء وأغنياء، نصفهم في الخنادق ونصفهم في الفنادق، وهو وضع لا يليق بأمة تريد أن تحتل مكاناً تحت الشمس.

ولعل المشروع العراقي - السوري لتحقيق وحدة القطرين هو إدراك لهذا الواقع الخطير، ومحاولة لمعالجته بالحل الجذري الحتمي الوحيد العودة إلى استراتيجية الوحدة العربية، أي استراتيجية تجميع الطاقات وتعميم الثروات..

وهذه الاستراتيجيا يجب ألا تتضمن توحيد العرب فحسب، وإنما يجب أن تعني أيضاً استقلال موقفهم الدولي بين مختلف المعسكرات الدولية، وعلى الأخص استقلالهم عن المعسكر المتحالف عضوياً مع اسرائيل، لأنه من الخطأ والمهانة والغفلة أن نرتبط بحماة أعدائنا ونقبل تحكيمهم وتحكمهم في مصائرنا. إن الاستمرار في هذا المنطق المعكوس ـ منطق الارتباط بحلفاء عدونا ـ يمثل أيضاً جانباً هاماً من جوانب تعثر القضية العربية.. وتبلغ المأساة أقصاها عندما نتصور أن حليف اسرائيل سيحقق لنا الرخاء.

● ثانياً: يستحيل على أية أمة الدخول في حرب ومجتمعها مجتمع استهلاك واسترخاء وسياحة وانفتاح، فهذا ضد طبائع الأشياء وضد منطق الأشياء.

دخول الحرب يحتم قبل كل شيء اتخاذ قرار بخلق مجتمع الحرب، أعني مجتمع الصمود، ومجتمع الحرب لا يخلق بين عشية وضحاها. إنه قرار استراتيجي يحتاج تطبيقه إلى سنوات طويلة، لهذا فإن المسألة ليست مسألة الاسراع في إعلان الحرب على اسرائيل، والذين يدافعون اليوم عن معاهدة الصلح من منطق عجز العرب حالياً عن محاربة اسرائيل إنما يرددون في الحقيقة كلمة حق يراد بها باطل.

فعجز العرب ناجم عن أنهم لم يتخذوا القرار الاستراتيجي لخلق مجتمع الحرب.

وليس السؤال: هل يستطيع العرب محاربة اسرائيل الآن.

السؤال هو: هل يستحيل على العرب بما لديهم من طاقات اتخاذ قرارهم الاستراتيجي الآن بخلق مجتمع الحرب العربي المتحد، من أجل أن يحاربوا اسرائيل بعد عشر أو عشرين سنة؟ أو من أجل أن يفرضوا السلام العادل الشامل الذي يريدونه؟

فالسلام المشرّف لا ينبثق إلا من القدرة على الحرب، ولا يأتي بالتهافت على مغريات الاستهلاك والرخاء الموعود والانفتاح الاعتباطي، بينما العدو ما يزال يحتل أجزاء من تراب الوطن والمقدسات.

هذه مسألة لا مهرب منها، ولا يمكن أن نواجهها بمسك العصا من الوسط، أي بالخلط بين واجبات الحرب ومغريات الاستهلاك الطفيلي، لأن هذا الخلط إذا استمر كفيل بأن يفاجئنا بعد حين بمعاهدة صلح منفردة ثانية وثالثة لا سمح الله.

وخلق مجتمع الحرب مرتبط باستراتيجية الوحدة العربية، فلا يمكن خلق مجتمع حرب من كيانات مجزأة، متعددة، منقسمة على نفسها، مجتمع الوحدة ومجتمع الصمود وجهان لحقيقة واحدة، وعندما تقوم هذه الحقيقة يستطيع العرب من واقع الصمود وواقع القدرة عليه، إطلاق يد المقاومة الفلسطينية لخوض حرب الاستنزاف الطويلة المنتظرة ضد اسرائيل، وهم واثقون من قدرتهم على الرد عندما تحولها اسرائيل إلى حرب شاملة.

● **ثالثاً**: إن الصراع العربي ـ الاسرائيلي، على خطورته، هو مظهر من مظاهر أزمة أعمق، وهذه الأزمة هي أزمة العرب مع أنفسهم ومع العصر، والكيان الاسرائيلي ما كان مقدراً له أن يقوم لو كان الكيان العربي في حالة من الحيوية والعافية حضارياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً، وما لم يحل العرب مشكلتهم الحضارية الجذرية مع أنفسهم لن يستطيعوا حلها مع عدوهم. إن الصراع العربي ـ الاسرائيلي يوازيه ويتقدم عليه في الخطورة والأهمية صراع عربي ـ عربي، أي صراع عربي داخلي ذاتي، هو صراع الأمة العربية مع نفسها لتجاوز تخلفها وانقسامها وضعفها، إن حسم وحل هذا الصراع الذاتي شرط لا بد منه لتحقيق القدرة على خوض الصراع الخارجي ضد العدو.

ومكمن الأزمة هنا أن الأمة العربية قد عجزت حتى الآن عن حسم وضعها الحضاري الشامل بين أمم العصر، وهي ما زالت مترددة في اختيار هذا السبيل الحضاري أو ذاك، محجمة عن الإقدام على قرارها الحضاري المصيري.

لقد حسمت اليابان ــ بطريقتها ــ مصيرها وسارت، وحسمت الصين ــ بطريقتها ــ مصيرها وسارت، وفعلت الشيء ذاته كل من الهند وفيتنام، كل هذه الأمم الشرقية عرفت طريقها واختارت أسلوب تقدمها وأنماط فكرها وسلوكها بما يتفق مع طبائعها، ولكن العرب ــ كأمة ــ لم يستقروا بعد على حل حضاري فكري واجتماعي حاسم، وهم ينتقلون من تجربة إلى أخرى، ومن نظام إلى آخر في سلسلة من الاجهاضات والاخفاقات ــ منذ محمد علي الكبير إلى جمال عبد الناصر ــ دون أن تتبلور صيغة حضارية فاعلة وثابتة لصورة المستقبل العربي.

وهذا الحسم الحضاري لوضع الأمة العربية كله لا مهرب منه.. من نحن؟ وماذا نريد؟ ما هي فلسفتنا في الحياة وفي الاقتصاد والتنمية، وفي السياسة والدولة، وفي الفن والأدب؟ ما هي «هويتنا» الحضارية بكلمة واحدة؟

هذه ليست أسئلة نظرية، إنها أسئلة مصيرية، فالشعوب لا تحارب وهي ضائعة، حائرة، بلا أفكار تؤمن بها، وبلا عقيدة تدافع عنها ولا قيم وأخلاق تلتزم بها.

هكذا ترسم أمامنا ــ في النهاية ــ ثلاثة جوانب لحقيقة واحدة:

١ ـ مجتمع الوحدة ضد التجزئة والتمزق.

٢ ـ مجتمع الحرب ضد الاسترخاء والتسيب.

٣ ـ مجتمع الحضارة والعقيدة ضد التخلف والتردد والضياع.

ولربما كانت المسألة الأخيرة هي أهم المسائل، بل أم المسائل، بل مسألة المسائل، فعندما تحسم الأمة العربية طريقها في الحضارة والفكر بحل جذري شمولي حاسم لأزمتها الذاتية، تكون قد توصلت من خلال ذلك إلى مجتمع الوحدة ومجتمع الصمود، هذا هو التحدي الكبير، هذا هو الجهاد الأكبر.

وهذا ما ينتظر العرب في الحقيقة بعد تجاوزهم لآثار المعاهدة التي نرجو ألا تشغلهم طويلاً عن مواجهة الأزمة كلها.. ومن الجذور، فهل يفعلون؟

أثر ظهور الحركة القومية العربية في اندثار الامبراطورية العثمانية(*)

أسعد عبد الرحمن

الدراسات عن الحركة القومية العربية كثيرة. وهي، في مجموعها، دراسات أجابت بدقة على أسئلة عديدة. غير أنه من المؤكد أن أسئلة أخرى ـ وبالذات تلك المتعلقة ببدايات تلك الحركة ـ بقيت دون جواب حاسم، بل إن واحدة من أحدث الدراسات العربية وأبرزها ابتكاراً أثارت، في معرض تحليلها، أسئلة قديمة ـ جديدة بعضها يتعلق بالمنهج، وبعضها الآخر يتعلق بالوقائع[1]. ومع أن الدراسات العديدة المتعلقة بالامبراطورية العثمانية، الصادرة باللغة الانكليزية في ربع القرن الماضي[2]، قد أوضحت

(*) نُشر في: شؤون عربية، العدد ١١ (كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢)، ص ١٩ ـ ٤٦.

(١) المقصود هنا الدراسة التي وضعها وليد قزيها حول التحليل التاريخي للفكر القومي العربي وتطور الحركة القومية العربية في المشرق العربي. وقد نشرت الدراسة تحت عناوين مختلفة على النحو التالي: وليد قزيها: «فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين،» الحلقة الأولى، المستقبل العربي، السنة ١، العدد ٤ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨)، ص ١٢ ـ ٢٦؛ «القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين،» الحلقة الثانية، المستقبل العربي، السنة ١، العدد ٥ (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩)، ص ٥٥ ـ ٦٦، و«الأسس الاجتماعية ـ السياسية لنمو الحركة القومية المعاصرة في المشرق العربي،» الحلقة الثالثة، المستقبل العربي، السنة ١، العدد ٦ (آذار/ مارس ١٩٧٩)، ص ٦٣ ـ ٧٥. أما النقاش الذي أثارته هذه الدراسة فتجلى في ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة، التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بتاريخ ٢٦ ـ ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩. انظر ملخصاً لتلك الدراسة وما أثارته من نقاش، وما تبعه من تعليق وليد قزيها، في: القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢ (بيروت: المركز، ١٩٨٠)، ص ٢١ ـ ٨٣.

(٢) ومن الأمثلة على هذه الدراسات نورد التالية: Roderic H. Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1964); Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, Oxford Paperbacks; no. 135 (London: Oxford University Press, 1961); Serif Mardin, *The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the Modernization of* =

جوانب أساسية خاصة بالبيئة التي نمت فيها الحركة القومية العربية، فإن لمن المرجح أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يسدل ستار البحث نهائياً حول وقائع وقضايا بدايات الحركة القومية العربية وغيرها مما يشابهها من الظواهر.

السبب الرئيسي **الأول** في كون واستمرار ظاهرة حركة القومية العربية «مفتوحة» الآفاق ومستعصية على الاجابات والتقويمات النهائية، ناجم عن «طبيعة» العلوم الاجتماعية وعن «الحالة الراهنة» لهذه العلوم التي تندرج ضمن نطاقها هذه الظاهرة. فالعلوم الاجتماعية ما تزال تشكو من ثغرات واضحة سواء على صعيد تقرير المنهج الحاسم، أو في مجال استكمال وتقرير المعلومات القاطعة، أو على طريق الاتفاق الكامل على «لغة مفاهيم» واحدة. ومع ذلك، فالمسألة لا تدور بالتأكيد في حلقة «العبثية»، إذ من الثابت، أنه أمكن تحقيق بعض التقدم في هذا المجال، ولو بوتائر متواضعة وبطيئة، على امتداد السنوات القليلة الماضية(٣).

= *Turkish Political Ideas*, Princeton Oriental Studies; 21 (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1962); Frederick W. Frey, *The Turkish Political Elite*, [M.I.T. Studies in Comparative Politics Series] (Cambridge, Mass.: M.I.T. Press, [1965]); Hamilton Alexander R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, 2 vols. (London; New York: Oxford University Press, 1950); George William Stripling, *The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574*, Illinois Studies in the Social Sciences, vol. 26; no. 4 (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1942); Abdul-Latif Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine* (London: Macmillan, 1969), and Moshe Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861: The Impact of the Tanzimat on Politics and Society* (Oxford; London: Oxford University Press; Clarendon Press, 1968).

(٣) حول معضلة «المنهج» الأفضل في العلوم الاجتماعية، انظر ما قاله المشاركون في ندوة مركز دراسات الوحدة العربية وبالذات ما قاله محمود عبد الفضيل، في: **القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية**. وبخصوص مشاكل البحث في حقول العلوم الاجتماعية المختلفة، وبالذات في دول العالم الثالث، انظر: David E. Apter and Charles Andrain, «Comparative Government: Developing New Nations,» *Journal of Politics*, vol. 30, no. 2 (May 1968), pp. 403-407.

وبشأن الثغرات التي تعاني منها العلوم الاجتماعية بحكم طبيعتها، انظر الدراسة الكلاسيكية التي وضعها ماكينزي: William J. M. MacKenzie, *Politics and Social Science* (Baltimore, Mad.: Penguin Books, 1957), pp. 65-68 and 383.

وحول مناهج وطرائق البحث في علم السياسة في الخمسينيات والستينيات، انظر تباعاً:
Roland Arnold Young, ed., *Approaches to the Study of Politics: Twenty-two Contemporary Essays Exploring the Nature of Politics and Methods by Which It Can Be Studied* (Evanston, Ill.: Northwestern University Press, [1958]), and James Clyde Charlesworth, *Contemporary Political Analysis* (New York: Free Press, 1967). =

أما السبب الرئيسي الثاني المسؤول عن صعوبة معالجة موضوع كموضوع بدايات الحركة القومية العربية فعائد إلى المعضلة القديمة ـ الجديدة الخاصة بالكيفية الموضوعية التي يستطيع بها الباحث تقويم الأحداث والمواقف المنصرمة، دون أن تجرفه اغراءات تلوين واقع الماضي ومفاهيمه بألوان الباحث الايديولوجية الذاتية الراهنة. ثم كيف تجاوز المرء بتقويمه ذاك خطر القيام بمجرد إسقاط معايير ومكتشفات الحاضر على الماضي، بل وكيف يحمي الباحث تقويمه دون ابتزاز ظروف الماضي الموضوعية أكثر مما تحتمل. وحول هذه المسألة بالذات، وفي ما يتصل مباشرة بموضوع هذا البحث، من المفيد الاعتراف بأن «النقد التحليلي لأحداث أوائل هذا القرن في بلاد الشام يبدو متجنياً بعض الشيء، إذ يرى الأشخاص والأشياء والأحداث بمنظار سبعينات (وربما ثمانينات) هذا القرن وفي ضوء مفاهيم ما كانت لتخطر للمشاركين في وضع الأحداث آنذاك ببال»، وبخاصة وأن البعض يستسهل هذه الأيام «وبعد أن انقضى على تلك الأحداث والأفكار ما يزيد على نصف قرن الصاق جسميات وخلق روابط بين احداثيات وإدانة وتمجيد شخصيات»(٤).

أما السبب الرئيسي الثالث، الأوضح من غيره، فمتصل بكون موضوع الحركة القومية العربية وما لها وما عليها، قد عاد ليتخذ لنفسه مكاناً على خشبة المسرح السياسي العربي الراهن، بل إن هذا الموضوع سخن بفعل حرارة الحوار والنقاش والصراع السياسي والايديولوجي الدائر في وسط العديد من المنتديات، ومن فوق العديد من المنابر السياسية والفكرية العربية القومية واليسارية والإسلامية النشطة في هذه المرحلة. وما ذلك بالأمر المستغرب إذ ان «المشاكل التي كانت مطروحة (في مطلع القرن) ما تزال في أكثرها مطروحة اليوم تبحث عن حلول»(٥).

هذا، وقد اشتمل ذلك الحوار والنقاش والصراع الساخن بين التيارات المختلفة(٦)،

= أما الدراسات اليسارية التي انتقدت مناهج البحث الغربية الليبرالية فمن أبرزها: Robin Blackburn, comp., *Ideology in Social Science: Readings in Critical Social Theory* (New York: Vintage Books, [1973, ©1972]), particularly the first 180 pages; Martin Shaw, *Marxism and Social Science: The Roots of Social Knowledge* (London: Pluto Press, 1975), pp. 84-122, and James D. Cockcroft, André G. Frank and Dale L. Johnson, *Dependence and Underdevelopment: Latin America's Political Economy* (Garden City, N. Y.: Anchor Books; Doubleday, 1972), particularly pp. 399-433.

(٤) زاهية قدورة، «تقديم،» في: نجيب عازوري، **يقظة الأمة العربية**، ترجمة أحمد أبو ملحم (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨)، ص ٩.

(٥) المصدر نفسه، ٩ ـ ١٠.

(٦) من أمثلة هذا الحوار بين الأكاديميين والأساتذة أصحاب الاتجاهات المختلفة، راجع الصفحات الخاصة بالامبراطورية العثمانية في: **القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية**، ص ٥٢ ـ ٥٧ و٦٣ ـ ٦٤.

ومن بين أمثلة كثيرة على الحوارات القائمة على قدم وساق بين القراء في الصحف الكويتية، مثلاً، =

بل وحتى داخل التيار الفكري الواحد، على موضوعين رئيسيين واسعين هما(٧): الأسباب الحقيقية لتفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية؛ والأسباب الحقيقية لنشوء أو بروز(٨) الحركات الاستقلالية الإسلامية والقومية العربية داخل الامبراطورية العثمانية.

ورغم أن ذلك الحوار والنقاش والصراع دار، وما يزال يدور، حول مختلف المسائل الأساسية والفرعية التي يشتمل عليها هذان الموضوعان العريضان، ورغم أهمية المناقشة العلمية لمختلف هذه المسائل، ستكون هذه الدراسة معنية بمسألة هامة واحدة فقط هي: مدى مسؤولية عامل ظهور الحركة القومية العربية، مقارنة بالعوامل الأخرى، في تفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية. ذلك أنه ما من مرة يجري الحديث فيها عن الامبراطورية العثمانية، سواء في المنتديات والمنابر الإعلامية أو غير الإعلامية المختلفة، إلا وتجد تبايناً في التقويمات الراهنة للعديد من القضايا التاريخية المتصلة بتلك الامبراطورية.

= انظر أحدثها نسبياً كما ظهرت في: **الوطن**، ٨/١٢/١٩٨٠، ص ١٥؛ **الوطن**، ١٦/١٢/١٩٨٠، ص ١٥؛ **الوطن**، ٢٣/١٢/١٩٨٠، ص ٧؛ **الوطن**، ٣٠/١٢/١٩٨٠، ص ١٨؛ **الأنباء**، ٢٠/١٢/١٩٨٠، ص ١؛ **القبس**، ١٤/٢/١٩٨١، ص ٥، و**القبس**، ٢٠/٢/١٩٨١، ص ٥.

(٧) هذا التبويب وما يندرج ضمنه من استنتاجات هو واحد من الخلاصات التي خرج بها المؤلف بعد أن انتهى من القراءات المكثفة الخاصة بهذا البحث. والقارئ المدقق للمراجع المختلفة، التي ورد ذكرها حتى الآن أو تلك التي سيشار إليها لاحقاً، سيلاحظ تركيز هذه الدراسة أو تلك على معالجة جانب (أو أكثر) من هذين الموضوعين العريضين. بل إن ديفيسون أشار منتقداً إلى نزوع باحثين سابقين لتفسير كثير من الموضوعات بمنهج أحادي التعليل. انظر: Roderic H. Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876* (New York: Gordian Press, 1973), particularly p. 6.

وإذا كان لا بد من ذكر بعض المراجع الإيضاحية لهذه المسألة عند هذه النقطة الزمنية، يمكن للقارئ مراجعة الحوار الذي دار في: **القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية**، ص ٢١ ـ ٨٣. هذا علاوة على دراسة: زين نور الدين زين، **نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية**، ط ٢ (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٢)، وخاصة الفصلين الثاني والثالث، علاوة على ما يورده زين من انتقادات للدراسات السابقة وخلاصات ينتهي هو إليها في الفصل الأول. وأخيراً، من المفيد جداً ـ في هذا النطاق ـ مراجعة الدراسة القيمة التي وضعها عبد اللطيف طيباوي وردّ فيها على كثير من الاستنتاجات التي خلص إليها باحثون آخرون. انظر: Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, passim and p. 13 in particular.

(٨) وهنا لا بد من الاشارة إلى أن المفكرين والكتاب يختلفون كثيراً حول تعريف القومية العربية وطبيعتها. ففي حين يعتبرها البعض ظاهرة قديمة ودائمة، يعتبرها آخرون ظاهرة حديثة وربما طارئة. ومن الأمثلة على التيار الأول، انظر: منيف الرزاز، **تطور معنى القومية**، ط ٣ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٣)، ص ٢٤، ونور الدين حاطوم، **محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية** (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣)، ص ٥. ومن الأمثلة على التيار الثاني، انظر: زين، المصدر نفسه. ولعل في اختيار المؤلف للعنوان **نشوء القومية العربية**... دليلاً كافياً على كونه يعتبرها ظاهرة حديثة من دون جذور تاريخية.

وفي هذا المجال، فإن قضية مسؤولية أو عدم مسؤولية ظهور الحركة القومية العربية في سقوط الدولة العثمانية هي واحدة من هذه القضايا القديمة ـ الجديدة التي تنقسم حولها التيارات الايديولوجية والفكرية والسياسية المتنافسة في العالم العربي هذه الأيام. وهنا، لا بد من الاشارة إلى أن أية محاولة متكاملة لقياس وزن عامل ظهور الحركة القومية العربية في عملية اندثار الامبراطورية العثمانية تقتضي استعراضاً شاملاً مزدوجاً لكل من العامل نفسه وللعملية ذاتها. غير أن مثل هذا الاستعراض هنا مستحيل أولاً، وغير مطلوب ثانياً. فهو مستحيل بحكم اعتبارات المساحة المتاحة لهذا البحث الموجز، وهو غير مطلوب بحكم توفر دراسات عديدة سبق لها وأن قامت بمعالجة الجوانب المختلفة لذلك العامل ولتلك العملية على نحو تفصيلي وشبه كامل. ولهذا، سيكتفي البحث بتثبيت أبرز الوقائع والحقائق التاريخية الخاصة بالموضوع ومحاولة توظيفها، بالتالي، في قياس مسؤولية وثقل حركة القومية العربية بالميزان الخاص بسقوط السلطنة العثمانية.

غير أن وضع عامل ظهور الحركة القومية العربية في سياقه التاريخي، وإتاحة فرصة علمية لتقدير ثقله النسبي في ترجيح كفة اندثار الامبراطورية العثمانية، يقتضي ـ في الجزء الأول من البحث ـ تثبيت الحقائق الخاصة بالعوامل التاريخية الداخلية والخارجية (السابقة لظهور القومية العربية) التي أضعفت وأنهكت، وربما أسهمت أكثر من غيرها، في سقوط الامبراطورية العثمانية. كما أنه لا بد ـ في الجزء الثاني من البحث ـ من تثبيت وتفحص الحقائق الخاصة بمحاولات الانقاذ التي جرت قبل التاريخ الثابت لظهور الحركة القومية العربية وتقدير أثر تلك المحاولات في تقرير مستقبل الامبراطورية. ثم إن الحيثيات ذاتها تقتضي ـ في الجزء الثالث والأخير من البحث ـ تثبيت الحقائق الخاصة بأحداث نصف القرن الأخير من تاريخ الامبراطورية الذي شهد، ضمن تطورات عديدة أخرى، البدايات المبكرة للحركة القومية العربية وتقرير وزن تلك الأحداث والتطورات في رسم نهاية الامبراطورية العثمانية.

العوامل التاريخية في انهاك وتفسيخ الامبراطورية العثمانية

مما لا شك فيه أن عملية تفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية هي عملية أكثر من أن يكون سبب واحد، مهما بلغت أهميته، مسؤولاً عنها. ومما لا شك فيه أيضاً أن تلك العملية أكبر من أن تقع فجأة وبدون مقدمات. وكادت المصادر العلمية الرصينة تجمع (ونقول كادت، ولا نقول أجمعت، فقط من باب اتقاء خطر التعميم ليس إلا) على أن العوامل المسؤولة عن هدم وإسقاط الامبراطورية كثيرة من الناحية العددية، ومتراكمة متغيرة نوعياً مع مرور الزمن من الناحية الكيفية، ومتفاوتة في منشئها «الجغرافي» وفي أثرها المادي (تبعاً للمراحل المختلفة) من الناحية الفعلية. ولأغراض هذا البحث، وانسجاماً مع ما ذهب إليه مؤرخو الامبراطورية، لتكن نقطة بدء نهاية الامبراطورية مع نهاية عهد السلطان سليمان القانوني (بعبارة أهل الشرق) وسليمان

العظيم (بعبارة أهل الغرب)(٩).

١ ـ **العوامل الداخلية: تاريخياً**: شارف العصر الذهبي للامبراطورية العثمانية على النهاية مع وفاة السلطان سليمان(١٠). ذلك أن الأسس القانونية ـ السياسية ـ الاجتماعية للنظام الامبراطوري الذي قاده السلطان سليمان اهتزت بقوة بعد وفاته. فعباءة هذا النظام المتحلق حول شخصية سلطان فذ، كانت مفصلة لتلائم السلطان سليمان و«السلف القوي». وما إن جاء «الخلف الضعيف» والفاسد، حتى غدت العباءة فضفاضة ومترهلة وعرضة للتمزيق.

فالنظام السياسي العثماني، بارتكازه على صيغة الوراثة من بين أفراد العائلة الحاكمة ودون قواعد محددة سليمة، فتح المجال أمام مجيء شريط من الحكام الفاسدين خلقياً، أو المخبولين، أو الأطفال، أو المتفوقين في مجالات الدسائس والمؤامرات والسجن والقتل(١١). وفي هذه البيئة، وبعد خراب الرأس، بدأ انحطاط الأطراف، فلم يمض وقت طويل حتى فسدت القيادة السياسية والعسكرية والإدارية والدينية الحاكمة (المتكونة من «طبقات مغلقة» اشتملت على «رجال الدين» وكبار المسؤولين الإداريين، والعسكريين بما في ذلك قيادة الانكشارية، والأعيان والوجهاء الاقطاعيين المتحلقين حول العائلة الحاكمة) سواء في الآستانة أو في الولايات(١٢). وقد استنزف فساد هؤلاء الامكانات

(٩) حسب ما ورد في: فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ٢ ج (بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٥)، ج ٢، ص ١٢.

(١٠) حول التفاصيل القانونية والسياسية والاجتماعية للنظام الامبراطوري العثماني في هذا العصر، انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢ و١٦ ـ ١٨؛ زين، المصدر نفسه، ص ٢٨، ٣٠ ـ ٣٥ و٣٨ ـ ٤٠؛ Walter F. Weiker, «The Ottoman Bureaucracy: Modernization and Reform,» (Newark, N. J.: Rutgers University, unpublished monograph), pp. 5 and 7; Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, p. 23; Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, pp. 10-14, and Halil Inalcik, «The Nature of Traditional Society (Turkey),» in: Robert Edward Ward and Dankwart A. Rustow, eds., *Political Modernization in Japan and Turkey*, Studies in Political Development; 3 (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1968), pp. 42-45.

(١١) المراجع التي تؤكد واقع العائلة الحاكمة ووراثة العرش كثيرة نذكر منها: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٠؛ عازوري، **يقظة الأمة العربية**، ص ١٨١ ـ ١٨٢ و١٨٤؛ Weiker, Ibid., p. 12, and Davison, Ibid., p. 15.

(١٢) حول انتشار الفساد في كافة «المؤسسات» المحيطة بالسلطان، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ١٩ و٢١؛ ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩**، ترجمة كريم عزقول، ط ٣ (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧)، ص ٥٢ ـ ٥٣؛ عازوري، المصدر نفسه، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٨؛ Weiker, Ibid., pp. 7 and 12; Davison, Ibid., p. 15, and Richard L. Chambers, «The Civil Bureaucracy (Turkey),» in: Ward and Rustow, eds., *Political Modernization in Japan and Turkey*, pp. 303-304.

الفعلية، بل والطاقات المستقبلية، للامبراطورية على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية. وكما هو متوقع في مثل هذه الأوضاع، لعب الجناح الانكشاري للمؤسسة العسكرية الدور الأكثر إضراراً. فتضخم حجم هذا الجناح بعد اشتماله على أبناء المسلمين الأحرار بدءاً من عهد مراد الرابع (حكم سنة ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠)، والسماح لأعضائه بممارسة التجارة وغيرها من أعمال، وتدهور مستوى اعداده وانضباطه العسكري، وفساده، واحتكاره للقوة، جعل ذلك الجناح العسكري يتحول من سلاح بيد النظام إلى سلاح يعطل تطوره. وهكذا، بدأت الانكشارية، وحلفاؤها من الطبقات المختلفة في القيادة الحاكمة، بممارسة كافة أنواع التآمر والتسلط والابتزاز ضد العائلة العثمانية ورعيتها المسلمة وغير المسلمة دون مراعاة للقوانين والأعراف الإسلامية(١٣).

وفي ظل غياب سلاطين أقوياء متنورين، وانحطاط مستوى القيادة العسكرية والإدارية والدينية، انهار التوازن المجتمعي: فمن جهة أولى، ومع إلغاء نظام «فرسان المزارع» المكلفين بجمع الضرائب واستبداله بنظام «التلزيم» في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن التالي، تشكلت طبقة قوية من الأعيان. وسرعان ما أصبح هؤلاء باشوات، أو هم سيطروا على الباشوات والقضاة والمجالس المحلية عبر أساليب الرشوى والافساد. ثم من موقعهم الجديد المفعم بالسلطة السياسية، مارس الاقطاعيون الجدد مختلف أنواع الاستغلال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي دون أن يخشوا لومة لائم من ممثلي السلطة المركزية الذين أصبحوا، عملياً، حلفاء أو تابعين لهم. وقد اغتنم الأعيان ظروف الامبراطورية الداخلية والخارجية فانتزعوا صلاحية بناء قواتهم العسكرية الخاصة. وبذلك، تضاعفت قوة هؤلاء فاستقلوا بولاياتهم ومناطقهم وبدأوا يتصارعون على النفوذ والسلطة في المناطق المجاورة، بل إن بعضهم تحدى السلطة المركزية واستقل عنها، ثم حاول الاستيلاء عليها، بمساعدة حلفاء آخرين، كما حدث في الانقلاب الشهير على السلطان سليم الثالث في العام ١٨٠٧ وقتله وتعيين سلطان جديد ينسجم مع طموحاتهم(١٤).

ومن جهة ثانية، سمح التنظيم الإداري والاقتصادي العثماني، الموروث عن النظامين البيزنطي والعربي، باللامركزية المفرطة التي أتاحت المجال (في ظل ضعف السلاطين وأعوانهم) لاستقلال الولايات فعلياً رغم الحفاظ على الشكل التابع. كما سمح

---

(١٣) ومن أجل أمثلة محددة على التعسف ضد المسلمين وغير المسلمين، انظر: Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, pp. 121-122; Weiker, Ibid., pp. 7 and 26; Davison, Ibid., p. 50, and

عازوري، المصدر نفسه، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ و٢٢١.

(١٤) حول تعاظم قوة الأعيان، وتحالفهم، وممارساتهم التسلطية ضد السلطة المركزية وفي مناطقهم، ومقاومتهم لمحاولات الحد من سلطاتهم، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٦ و٥٢؛ Weiker, Ibid., pp. 4, 7-8 and 28; Davison, Ibid., pp. 15-18 and 24-27; Tibawi, Ibid., p. 110, and Inalcik, «The Nature of Traditional Society (Turkey),» pp. 25-26.

ذلك التنظيم باستبداد حكام الولايات الفاسدين، وبالذات في مجالي الضرائب المجحفة والتجنيد القسري. وأخيراً، أدى التنظيم الامبراطوري العثماني إلى إبقاء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الأقاليم المختلفة ضمن نطاق البناء الاقطاعي القديم(١٥).

ومن جهة **ثالثة**، تحول كل من «نظام الملل» و«نظام الامتيازات» اللذين منحهما السلطان في أوج قوته (بمحض إرادته وتكرماً منه إلى جاليات أجنبية تقيم في مملكته)(١٦) إلى عامل هدم للامبراطورية. وكانت حقوق وواجبات جميع الرعايا والأجانب من غير المسلمين المقيمين في الامبراطورية قد انتظمت ضمن «نظام الملل» في البداية، ثم ما لبثت حقوق الجاليات الأجنبية غير المسلمة أن انتظمت وفقاً لقواعد «نظام الامتيازات». وقد عنى «قانون الملة» الاعتراف بالطوائف الدينية غير الإسلامية وبرؤسائها وبقوانين أحوالها الشخصية الخاصة بها. كما أن «قانون الامتيازات» عنى اعترافاً من السلطان العثماني بالامتيازات والحصانات الاقتصادية والتجارية الخاصة بالرعايا الأجانب غير المسلمين ـ على النسق البيزنطي السابق ـ بل وبزيادة عليه لاعتبارات تتعلق بتطوير الاقتصاد الامبراطوري العثماني(١٧). وكان لهؤلاء أيضاً استقلالهم الطائفي على نحو مماثل لقانون الملة بحيث لم يخضعوا للمحاكم العثمانية وإنما للمحاكم القنصلية تبعاً للانتماءات السياسية. وقد أدى كل ذلك، وبخاصة في ظل غياب السلطة المركزية القوية، وفي ظل انطباق مفهومي «الملة» و«الدين» على مفهومي «الشعب» و«الأمة» وفي ظل التدخلات الخارجية إلى زيادة تفكيك الامبراطورية. فهذان النظامان جعلا «السلطنة العثمانية وكأنها مكونة من مجموعة

---

(١٥) حول هذا الموضوع يمكن الاستزادة من المصادر التالية: فردريك هرتز، **القومية في التاريخ والسياسة**، ترجمة عبد الكريم أحمد؛ مراجعة ابراهيم صقر (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، [د.ت.])، ص ١٦٥ ـ ١٦٧؛ اميل توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام** (بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٠)، ص ١٥١ ـ ١٥٢؛ سمير أمين، **الأمة العربية: القومية والصراع الطبقي**، ترجمة كميل قيصر داغر (بيروت: دار ابن رشد للطباعة والنشر، ١٩٧٨)، ص ٦٥ ـ ٦٦؛ حتي، **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، ص ١٨ و٢١ ـ ٢٢، و Tibawi, Ibid., p. 23.

(١٦) الاقتباس مأخوذ من: حتي، المصدر نفسه، ص ١٧. كما يتأكد ذلك بعبارات مختلفة مشابهة في كتاب: هرتز، المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(١٧) إلا إذا أشير إلى غير ذلك بمصادر أخرى محددة، المعلومات عن نظامي الملة والامتيازات، والمقاومة التي أبداها زعماء الطوائف دفاعاً عن نظام الملة مستقاة من المصادر التالية: زين، **نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية**، ص ٣٢ ـ ٣٥ و٣٨ ـ ٤٠؛ حتي، المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٨ و٢٥ ـ ٢٦؛ Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, pp. 13-14 and 43; Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861: The Impact of the Tanzimat on Politics and Society*, pp. 201-205; Tibawi, Ibid., pp. 23, 118-120 and 122-133, and Robert R. Palmer and Joel Colton, *A History of the Modern World*, 3rd ed. (New York: Knopf, 1965), pp. 629-630.

من الطوائف المستقلة استقلالاً ذاتياً»[18]. كما أنهما أصبحا عائقاً «ضد الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد»، ونوعاً من «الحقوق التقليدية التي مهدت السبيل للدول الأجنبية للتدخل في شؤون... (الامبراطورية) الداخلية»[19].

ومن جهة رابعة، أدى فساد السلطة المركزية وضعفها إلى (١) تحديها والاستقلال (أو محاولة الاستقلال) عنها، أو إلى (٢) محاولة الهيمنة عليها بشكل مكشوف من قبل تحالف مراكز القوى القديمة (الانكشارية، رجال الدين... الخ.) والقوى الجديدة (الأعيان بمختلف أصولهم الاجتماعية، والحركات الدينية الإسلامية) على غرار الانقلاب الذي وقع ضد السلطان سليم الثالث في العام ١٨٠٧. وقد تعددت الحركات الاستقلالية وتنوعت سواء من حيث موقعها الجغرافي أو من حيث هويتها. فمن الناحية الجغرافية، ظهرت الحركات الانفصالية في مختلف أرجاء الامبراطورية الأوروبية والآسيوية والافريقية. ومن ناحية الهوية، اتخذت هذه الحركات واحداً من ثلاثة أنواع: فهو إما نوع نابع من الطموح الشخصي أو العائلي، أو صادر عن موقف ديني سلفي، أو متأت عن التمايز القومي بكل ما رفده من دعم أوروبي خارجي. ومن الأمثلة الأبرز على النوع الشخصي في المنطقة العربية صعود أحمد باشا (المشهور بالجزار) مع نهاية القرن الثامن عشر. وقد سيطر الجزار تماماً على ولايتي صيدا ودمشق وامتد نفوذه أحياناً شمالاً حتى طرابلس وأحياناً جنوباً حتى الحدود المصرية. وكان أحمد باشا قد تحدى الحكومة المركزية أكثر من مرة ونجح في إجبارها على الاعتراف به وبسلطته في مناطق سيطرته ونفوذه. كما حاول أكثر من زعيم، سواء في حياة الجزار أو عقب وفاته في العام ١٨٠٤ الاستئثار بالسلطة في مناطقهم. ومن الأمثلة على هؤلاء مصطفى آغا بربر في طرابلس، ومحمد أبو مرق ومحمد آغا أبو نبوت في يافا، وآل جرار في نابلس. وقد فشل هؤلاء جميعاً في تحقيق مآربهم بعد هزائمهم الدموية على أيدي الجزار أو الحكومة المركزية. غير أن ذلك الفشل لم يمنع آخرين من القيام بمحاولات جديدة وناجحة. فقد استطاع محمد علي باشا الاستقلال بمصر بدءاً من ١٨٠٥، والمباشرة باحتلال سورية عام ١٨٣٠، وتهديد العاصمة العثمانية ذاتها في العام ١٨٣٩. وعندما ردت الدول الأوروبية جيوشه عن العاصمة وأجبرت إبراهيم باشا على الانسحاب من سورية في العام ١٨٤١، نجح محمد علي ـ مقابل ذلك ـ بالحصول على استقلاله الفعلي في ولاية مصر التي أصبح حكمها وراثياً في عائلته. ومن الأمثلة الأبرز على النوع الديني من الحركات في المنطقة العربية، ظهور الحركة الوهابية بدءاً من العام ١٧٤٤. وقد استطاعت هذه الحركة، بتحالفها مع عائلة آل سعود في نجد، احتلال مكة المكرمة مرتين، كانت الثانية منهما في العام ١٨٠٦. وعندئذ، أعلن الوهابيون استقلالهم عن السلطان سليم الثالث واعتبروه فاسداً وضالاً وغير مؤتمن على الدين الإسلامي، بل إن الوهابيين تجاوزوا بنشاطهم حدود الجزيرة العربية

(١٨) حتي، المصدر نفسه، ص ١٧.

(١٩) المصدر نفسه.

وهاجموا سهول حوران والبصرة ودمروا كربلاء. وقد فشل السلطان أكثر من مرة في القضاء على حركتهم حتى نجح في ذلك محمد علي باشا، موفداً من السلطان، مع العام ١٨١٧. وأخيراً، من الأمثلة الأبرز على النوع الثالث من الحركات، القوى القومية في اليونان ونجاحها في تحقيق استقلالها (أو انفصالها)، والتمردات أو الانتفاضات القومية المتصلة في البلقان. وغني عن الذكر، أن هذه الحركات ـ الناجحة منها والفاشلة ـ كانت للسلطة المركزية، بل وللامبراطورية بأسرها، ضربات عنيفة نجحت في ضعضعة قدراتها وزعزعة برامجها وإهدار الكثير من هيبتها وشرعيتها[٢٠].

٢ ـ **العوامل الخارجية: تاريخياً**: لم تقم الامبراطورية العثمانية وسط فراغ. ولا هي كانت بقادرة، رغم مساعي العزل الداخلي التي مارستها قياداتها التقليدية، على الانعزال عن البيئة الخارجية المحيطة بها والفاعلة فيها. وإذا كانت تلك البيئة قد منحت السلطة بعض الأوكسجين اللازم لها في بعض الأحيان (المسألة الشرقية في مختلف مراحلها ودور الخلاف الأوروبي في الحفاظ على الامبراطورية)[٢١] فإن البيئة ذاتها هي التي حجبت عن السلطنة ما لزمها من الاوكسجين الضروري لها في أحيان أخرى (التدخلات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ودعم الحركات الانفصالية بمختلف أشكالها في حالات عديدة[٢٢].

(٢٠) اعتمدت الدراسة في معلوماتها عن الحركات الانفصالية أو الاستقلالية أو التصحيحية في الامبراطورية العثمانية في هذه الفترة على مصادر عديدة نذكر منها: محمد جابر الأنصاري، **تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، ١٩٣٠ ـ ١٩٧٠**، سلسلة عالم المعرفة؛ ٣٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠)، ص ٧؛ حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩**، ص ٥٦، ٦٤، ٨١ ـ ٨٤ و٣١٢ ـ ٣١٣؛ زين، **نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية**، ص ٤٤ ـ ٤٦؛ ادوارد عطية، **العرب**، ترجمة عبد اللطيف شرارة (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٢)، ص ٩٦ و٩٨؛ Inalcik, «The Nature of Traditional Society (Turkey),» p. 54; Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, pp. 41-45, and Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, p. 24.

(٢١) المصادر حول المسألة الشرقية في مراحلها المختلفة كثيرة نذكر منها: حتي، **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، ص ١٩، ٢٢ ـ ٢٤ و٢٨؛ Palmer and Colton, *A History of the Modern World*, pp. 511-512 and 627-635, and Davison, Ibid., p. 5.

(٢٢) ومن المصادر العديدة التي تؤكد تدخلات الدول الأوروبية ودورها في إضعاف الامبراطورية العثمانية، وقطع الطريق على تطورها، نذكر: توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام**، ص ١٧٤ و١٧٦ ـ ١٧٧؛ هرتز، **القومية في التاريخ والسياسة**، ص ١٣٣ و١٦٦ ـ ١٦٧؛ جوزف م.ن. جيفرز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، ترجمة أحمد خليل الحاج؛ مراجعة محمد أحمد أنيس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١)، ج ١، ص ١٠١؛ عازوري، **يقظة الأمة العربية**، ص ١٩٠ ـ ١٩٤؛ Stephen H. Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate...*, issued under the auspices of the Royal Institute of International Affairs (London; New York: Oxford University Press, 1958), pp. 15, =

وتماماً مثلما أغرى الانحطاط الداخلي القوى المحلية الطامحة بالاستيلاء على السلطة أو أجزاء منها، أغرى الانحطاط ذاته القوى الخارجية الطامحة بالتدخل المباشر وغير المباشر لالتهام كل أو بعض «الكعكة العثمانية». ولم يكن الضعف العثماني عامل الاغراء الوحيد. ذلك أن اعتبارات الصراع التاريخي الذي رافق نشوء وتوسع الامبراطورية، بأبعاده السياسية والعسكرية والدينية، كانت ما تزال تفعل فعلها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كذلك، كان واقع الدول القومية الأوروبية الجديدة المتقدمة علمياً وصناعياً ورأسمالياً وسياسياً وفكرياً وثقافياً، كافياً لإغرائها بالتحرك التوسعي على حساب الكيانات الضعيفة المجاورة. تلك الكيانات التي لم تدخل بعد عصور انتصار الإنسانية والعقل(٢٣) أو عصر الثورات التجارية والصناعية والزراعية، ولم تحصد، بالتالي، أياً من ثمارها. وباختصار، لقد تضاعف احساس الغرب الأوروبي بتفوقه بحكم وقوعه على تخوم واقع قديم متخلف كان بمثابة الفراغ الذي يغري الآخرين بملئه. وهكذا تفاعلت الأوضاع الخارجية مع الأوضاع الداخلية على نحو جدلي أدى، في النهاية، إلى تعميق الأزمة الداخلية وزيادة شراسة الهجمة الخارجية.

بدأ تداخل الأزمتين الداخلية والخارجية على نحو مبكر جداً إثر فشل القوات العثمانية في حصارها الأول لفيينا في العام ١٥٢٩. ورغم أن ذلك لم يمنع تلك القوات من التوسع في مناطق أخرى، فإن بداية التأزم جاءت مع الفشل الثاني في حصار فيينا في العام ١٦٨٣ وما أعقبه من انفصال هنغارية وتوقيع «معاهدة كارلووتز» المذلة في العام ١٦٩٩. ومنذئذ، تتابعت أعمال تقطيع أوصال الامبراطورية إما نتيجة مبادرات الدول الأوروبية لاحتلال مناطق «عثمانية»، أو بفعل دعمها لحركات الاستقلال في الأقاليم «العثمانية» أو نتيجة الحروب المتصلة. ويكفي في هذا الصدد الاشارة إلى أن الامبراطورية منيت بأربع هزائم عسكرية كبيرة في القرن الثامن عشر (١٧١٨، ١٧٧٤، ١٧٩٢، ١٧٩٩) وثلاث هزائم بارزة في القرن التاسع عشر (١٨١٢، ١٨٢٩، ١٨٧٨) وقد شكلت هذه الحروب الخارجية، وما تخللها من حروب وحركات انفصالية واستقلالية داخلية، الخط البياني للمنحدر التاريخي الخاص بالتآكل الإقليمي الذي تزحلقت عليه

---

22 and 38-44; Davison, Ibid., p. 9; Tibawi, Ibid., p. 30, and Weiker, «The Ottoman = Bureaucracy: Modernization and Reform,», p. 3.

(٢٣) حول تقدم أوروبا وتخلف الامبراطورية العثمانية، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ١٩؛ توما، المصدر نفسه، ص ١٥٢؛ Palmer and Colton, Ibid., pp. 627-628, and Davison, Ibid., p. 15.

وحول نشوء الدول القومية وقوتها في أوروبا والغرب عموماً، انظر: Palmer and Colton Ibid., وذلك على النحو التالي: حول توحيد ايطاليا، ص ٥١٣ و٥١٦ ـ ٥١٧؛ حول توحيد المانيا، ص ٥٢٠ ـ ٥٢٣ و٥٢٧؛ حول قيام الامبراطورية النمساوية... الهنغارية، ص ٥٣١ ـ ٥٣٣؛ حول التحديث في روسيا القيصرية، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٩؛ وفي ما يتعلق بتوطيد المركزية في الولايات المتحدة، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٥، وحول تأسيس الدومنيون الكندي، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٨.

الامبراطورية منذ معاهدة كارلووتز الموقعة في العام الأخير من القرن السابع عشر(٢٤).

نجم عن تشابكات البيئة الخارجية بالبيئة الداخلية للامبراطورية العثمانية جملة نتائج هامة موجزها ما يلي: من جهة أولى، جرى تكريس ما اصطلح على تسميته بالمسألة الشرقية «التي كانت في الواقع مسألة غربية تتناول الخلافات التي وقعت بين دول أوروبة المتحاسدة»(٢٥). ورغم أنه كان لهذه «المسألة» نتائج عدة، فإن أهمها على الاطلاق ـ في نطاق ما نحن بصدده ـ أنها أطالت عمر الامبراطورية العثمانية. فقوات روسية القيصرية التي شنت ست حروب ضد الامبراطورية في قرن واحد ما كان من عائق أمام زحفها ودخول الآستانة سوى الدول الأوروبية الأخرى (بريطانيا وفرنسا أساساً) المنافسة لها. وقد تبدى ذلك، على أوضح ما يكون في حربي ١٨٥٤/١٨٥٦ و١٨٧٦/١٨٧٨. وكانت الدول الأوروبية الكبرى قد بادرت إلى تطويق إمكانية الاقتتال في ما بينها بعقد «مؤتمر برلين» في العام ١٨٧٨. غير أن نتائج ذلك المؤتمر، رغم حفاظها على الكيان العثماني وعلى السلام الأوروبي، لم ترض لا القوميين البلقانيين أو الروس السلافيين، ولا السلطان العثماني أو معارضيه من «الشبان الأتراك» ولا هي ـ بالمحصلة ـ أوقفت شهية مختلف الدول الأوروبية الاستعمارية المفتوحة على أراضي الامبراطورية(٢٦).

ومن جهة **ثانية**، أدى تفاعل البيئتين الداخلية والخارجية للامبراطورية العثمانية إلى نهش متواصل لأقاليم السلطنة. وحتى سقوط نابليون في العام ١٨١٥، ذهبت «حصة الأسد» من أراضي السلطنة المقتطعة إلى كل من النمسة وروسية القيصرية. وبعد ذلك، ومع ظهور الفكرة القومية وترسخها، حصلت بعض المناطق العثمانية الأوروبية على استقلالها الذاتي أو الكامل تبعاً لحالة التوازن بين الدول الأوروبية الكبرى. كما سقطت لاحقاً بعض المناطق العربية بأيدي الاستعمار الأوروبي، على نحو مباشر أو غير مباشر، سواء في شمال افريقيا، أو في الخليج العربي، أو في أطراف الجزيرة العربية(٢٧).

ومن جهة **ثالثة**، أوقعت الثورة الصناعية الأوروبية، بطوريها الأول والثاني،

---

(٢٤) حول الهزائم العسكرية للامبراطورية وتقطيع أوصالها، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٢ - ٢٤؛ حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ - ١٩٣٩**، ص ٥٧؛ عازوري، المصدر نفسه، ص ١٩٨؛ Davison, Ibid., pp. 5 and 14; Roderic H. Davison, «Environmental and Foreign Contributions (Turkey),» in: Ward and Rustow, eds., *Political Modernization in Japan and Turkey*, pp. 93-94, and Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861: The Impact of the Tanzimat on Politics and Society*, pp. 11 and 210-218.

(٢٥) النص مقتبس من: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٦) حول هذا كله، راجع مصادر الهامش رقم (٢١).

(٢٧) راجع مصادر الهامش رقم (٢٤)، وحوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ - ١٩٣٩**، ص ٨١ - ٨٦.

الامبراطورية العثمانية ـ كما غيرها من المناطق خارج العالم الغربي ـ في مستنقع الشبكة الاقتصادية الرأسمالية الغربية الصاعدة. وقد أدى ذلك إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية العثمانية الناجمة أصلاً عن ضعف البناء الاقطاعي للامبراطورية في وجه المد الرأسمالي الأوروبي المستفيد من التكنولوجيا الجديدة في مجالات الاكتشافات الجغرافية والعلمية والزراعية والصناعية(٢٨).

ومن جهة رابعة، فاقمت المرحلة الثانية من الاستعمار الأوروبي حالة التردي في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الامبراطورية بضرب الصناعات الحرفية اليدوية عبر غزو الأسواق العثمانية واغراقها بالبضائع الأوروبية المنافسة أسعاراً والمتفوقة نوعياً. كما أن متطلبات الاستعمار الأوروبي الجديد، عمقت الأزمة السياسية والاقتصادية الداخلية في الامبراطورية عندما اقتطعت أجزاء مهمة من كيانها(٢٩).

ومن جهة خامسة، وأخيرة، أدى تفاعل البيئتين الداخلية والخارجية في الامبراطورية العثمانية إلى تعزيز علاقات القوى والجاليات غير المسلمة داخل السلطنة مع دول أوروبة، وإلى نمو امتيازاتها الاقتصادية، ووعيها القومي، وحركتها الاستقلالية الانفصالية وبالذات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ثم إن ذلك التفاعل أدى ـ على نحو معاكس ـ إلى افقاد السلطة المركزية العثمانية تدريجياً الكثير من شرعيتها بين الرعايا المسلمين بسبب عجزها أو خضوعها للتدخلات الأوروبية. وقد كان فقدان الشرعية ذلك عاملاً أساسياً في كثير من النشاطات اللاحقة المناهضة للسلطة العثمانية أو الهادفة إلى الخروج عن طاعتها وسلطتها والتي قامت بها شعوب وقوى إسلامية عربية(٣٠).

---

(٢٨) حول الثورة الصناعية في طوريها الأول والثاني، انظر: Palmer and Colton, *A History of the Modern World*, pp. 422 and 569-573.

وحول الاكتشافات الجغرافية وتطور طرق المواصلات وأثرها، انظر: أمين، **الأمة العربية: القومية والصراع الطبقي**، ص ٦٥ ـ ٦٦، وحوراني، المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢٩) حول أثر الاستعمار على الاقتصاد في العالم غير العربي ومن ضمنه الامبراطورية العثمانية، انظر: حتي، **خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى**، ص ٤٤؛ أمين، المصدر نفسه، ص ٦٦؛ Palmer and Colton, Ibid., pp. 615-619 and 622; Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate*, pp. 31-35; Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861: The Impact of the Tanzimat on Politics and Society*, pp. 173 and 176-179; Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, pp. 2, 13 and 16, and Weiker, «The Ottoman Bureaucracy: Modernization and Reform,» p. 26.

(٣٠) حول هذا كله، انظر المصادر الواردة في الهامش رقم (٢٠). انظر أيضاً: مورو بيرجر، **العالم العربي اليوم**، ترجمة محيي الدين محمد (بيروت: دار مجلة شعر، ١٩٦٣)، ص ٢٧٥؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٥٧ ـ ٥٨ و٧٦ ـ ٧٧، و Ma'oz, Ibid., pp. 11, 182, 187-188, 193-194, and 210-213.

محاولات الانقاذ والمحصلة النهائية

كان أمراً طبيعياً ومتوقعاً، في ظل مرور الامبراطورية العثمانية في الدهاليز الخانقة لأزمتيها الداخلية والخارجية، أن تبرز محاولات للإصلاح، بل إن مثل هذه المحاولات تتابعت منذ البداية المبكرة للأزمتين، على أمل تجاوزهما. ويمكن، في هذا المجال، رصد سبع محاولات كبرى قام بها بعض السلاطين، أو بعض قيادات الدولة الآخرين، أو بعض رعايا الامبراطورية البارزين:

١ ـ **محاولات الانقاذ:** جاءت أولى محاولات الإصلاح منذ اللحظة التي لاحت فيها المؤشرات الأكيدة على ضعف الامبراطورية ووهنها. وكان أوضح هذه المؤشرات العجز العسكري الذي تبدى في فشل الحصار الثاني لفيينا في العام ١٦٨٣ وما أعقبه من هوان سياسي في معاهدة كارلووتز المذلة. وهنا بادر أكثر من رئيس للوزراء (من آل كوبولو تخصيصاً) لتخطي الأزمة الداخلية (أساساً) دون أي نجاح يذكر، بل إن سنوات القرن التالي شهدت ازدياد بلل طين «الأزمة الداخلية» بالبلل الذي جاءت به «الأزمة الخارجية»(٣١).

قاد السلطان سليم الثالث (حكم من ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) محاولة رئيسية ثانية لتجاوز الأزمتين بالشروع بمعالجة مشاكل السلطة الداخلية. غير أن المقاومة العنيفة التي جوبه بها السلطان من مراكز القوى التقليدية (العسكرية، والدينية، والسياسية، والإدارية، والاقتصادية) لم تجهز على محاولته الإصلاحية فحسب، بل أجهزت على حكمه وعليه أيضاً(٣٢).

أما محاولة الإصلاح الكبيرة **الثالثة**، فكانت في عهد السلطان محمود الثاني الذي حكم الامبراطورية في الفترة ما بين ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩. وهنا، نجح هذا السلطان، بأسلوب حذر تدرجي، في هدم معاقل بعض القوى التقليدية (الانكشارية) على نحو كامل وفي كسر شوكة معاقل قوى أخرى (مؤسسة رجال الدين، ومراكز قوى الزعامات والقيادات المحلية في بعض الأقاليم). كما أن السلطان محمود الثاني، أرسى بأسلوب التحديث (أو التغريب) «من فوق» قواعد ضرورية للإصلاح القادم كان أبرزها تنميته لقوة وهيبة ـ ولاحقاً دكتاتورية ـ السلطة المركزية نسبياً. غير أن جهوده الإصلاحية هذه، أثارت عليه التيارات التقليدية و«مراكز القوى» المحلية سواء في المركز أو في الولايات،

---

(٣١) من المصادر التي تعرضت لظروف وحيثيات محاولة الإصلاح المبكر الأولى، نذكر: حتي، المصدر نفسه، ص ١٩ ـ ٢٤؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢، و Weiker, Ibid., p. 3.

(٣٢) رغم أن مصادر عديدة عالجت جهود سليم الثالث للإصلاح وما نتج عنها من مقاومة ونتائج، فإن ذكر بعضها كاف في هذا المجال، انظر: Inalcik, «The Nature of Traditional Society (Turkey),» pp. 43-53; Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, pp. 23-24, and حتي، المصدر نفسه، ص ٢٤.

بل إن جهوده جوبهت بنقمة شبيهة بالنقمة التي أثارتها جهود بطرس الكبير الإصلاحية في روسية القيصرية. وفي المحصلة، أدت محاولاته لتعزيز قوة وهيبة سلطة المركز إلى ضرب جيشه الجديد، وإلى فقدانه المؤقت لسورية، وفقدانه النهائي اللاحق لولاية مصر، وتسريع بروز «الأزمة الخارجية». وقد حدث التطور الأخير هذا، عبر تعزيز وجود ونفوذ القوى الأوروبية في الامبراطورية العثمانية. وقد بادرت هذه القوى إلى إنجاز مصالحها أولاً، ومصالح خليفته السلطان عبد المجيد ثانياً، بإجبار جيوش محمد علي باشا وابنه ابراهيم على الانسحاب من سورية والارتداد إلى مصر في العام ١٨٤١. وكان السلطان عبد المجيد (حكم ١٨٣٩ ـ ١٨٦١) قد اعتلى العرش إثر وفاة سلفه الذي عاجله الموت قبل أن يعلم بهزيمة جيوشه على أيدي قوات ابراهيم باشا[٣٣].

وفي عهد السلطان عبد المجيد، كانت المحاولة الكبرى الرابعة للإصلاح. وهنا، لعب رشيد باشا، وزير الخارجية والصدر الأعظم لاحقاً، الدور الرئيسي في التخلص من التهديد «الداخلي» لمحمد علي باشا برافعة التدخل «الخارجي» ممثلاً في الدول الأوروبية. ولإغراء هذه الدول على «التدخل» من أجل إجبار قوات إبراهيم باشا على النكوص عن العاصمة العثمانية التي هددتها جيوشه، بل وللانسحاب من سورية بكاملها، أقنع رشيد باشا السلطان بالإسراع ببدء ما اشتهر لاحقاً باسم «عهد التنظيمات»[٣٤]. وقد تم ذلك عبر الاعلان عن البرنامج الإصلاحي المعروف بفرمان «الخط الشريف للعام ١٨٣٩». وفي هذا المجال، لم يكن «إغراء» الدول الأوروبية الحافز الوحيد لمبادرة رشيد باشا. فقد اغتنم هذا الأخير، نتيجة إيمانه بالإصلاح وبضرورته للامبراطورية، فرصة الأزمة العسكرية ـ السياسية لتمرير إصلاح ليبرالي في وقت جعلت فيه الظروف مقاومة المحافظين التقليديين ضعيفة. غير أن المقاومة سرعان ما استجمعت قواها. ولم يمض وقت طويل، حتى نجحت جهود مراكز قوى رجال الدين، والسياسيين ـ الإداريين، والأعيان والآغوات، وجامعي الضرائب، وزعماء الطوائف المسيحية (الذين هدد الإصلاح سيطرتهم على رعاياهم)، وجمهور من المواطنين العاديين أيضاً. في وضع معظم بنود «الخط الشريف» في الادراج الرسمية. ومع ذلك، أرسى الإعلان عن ذلك الإصلاح، وما تبعه من تنفيذ لبعض وعوده، الأساس اللازم لإصلاح قادم، وتماماً مثلما هو كرّس انقساماً سياسياً دام

---

(٣٣) وقد أوردت مصادر عدة تفاصيل المحاولة الإصلاحية التي قادها السلطان محمود الثاني، ودوافعها وظروفها ونتائجها. ومن هذه المصادر: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٤ ـ ٢٥؛ باسل الكبيسي، حركة القوميين العرب (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤)، ص ٢٢ ـ ٢٣؛ Weiker, Ibid., pp. 3-4, 8-9 and 28; Davison, Ibid., pp. 6-7 and 25-34; Inalcik, Ibid., p. 54, and Palmer and Colton, *A History of the Modern World*, p. 454.

(٣٤) حول الاختلافات بخصوص مدة واسم وجوهر التنظيمات، انظر: الكبيسي، المصدر نفسه، ص ٢٢؛ Davison, Ibid., p. 5; Weiker, Ibid., pp. 1 and 4, and Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, p. 168.

أكثر من نصف قرن بين أنصار التغريب العلمانيين أساساً، وأنصار التقليد المحافظين. وقد أدى هذا الصراع إلى سقوط رشيد باشا من مركز السلطة وصعوده إليها مجدداً ست مرات متلاحقة طوال ما يزيد قليلاً عن ربع قرن(٣٥).

وفي نهاية هذه الفترة، جاءت المحاولة الكبرى الخامسة للإصلاح. وكان مهندسا هذه المحاولة، المعروفة بفرمان «خط همايون» للعام ١٨٥٦، هما تلميذا رشيد باشا ـ المصلحان علي باشا وفؤاد باشا. وعلى عكس ما حدث في المحاولة السابقة، كان إملاء الدول الأوروبية وبصماتها واضحة على وثيقة «خط همايون». ذلك أن الإعلان عنها جاء عشية «مؤتمر باريس» للسلام وكان بمثابة ثمن لاحق للتدخل «الخارجي» الأوروبي الذي أنقذ الامبراطورية من هزيمة محققة أمام روسية القيصرية في حرب القرم ١٨٥٣/١٨٥٥. ومجدداً، آثار الإصلاح الجديد ـ بتأكيده على وعود «الخط الشريف» وبضمانه المعتقد والعبادة لجميع الطوائف وفتح المجال أمام غير المسلمين للعمل في الخدمة المدنية والجيش ضمن أمور أخرى ـ أثار زوبعة جديدة من الإرادات المتصارعة(٣٦). وبالمحصلة، بقيت تلك الإصلاحات، رغم بعض الانجازات المهمة «حبراً على ورق»، لأنها استبقت الزمن ولأنها كانت تعوزها أداة التنفيذ. فقد قاومها بشدة علماء الدين المحافظون على حرفية الشرع الإسلامي، كما أن الأجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة راحوا هم أيضاً يعارضونها. وكان اليهود والنصارى الذين يعملون صيارفة يعارضون أسلوب جمع الضرائب، ولم يكن الشباب المسيحي واليهودي الذين هم في سن الخدمة العسكرية ليرضوا عن قوانين الخدمة العسكرية الجديدة»(٣٧).

ورغم أن المحاولة الكبرى السادسة للإصلاح كانت بقيادة مدحت باشا، إلا أنها استندت، في زخمها، على جيل جديد من المحدثين الإداريين والمفكرين والصحفيين والسياسيين. وقد ترعرع هؤلاء («العثمانيون المحدثون» أو «العثمانيون الشبان» أو

---

(٣٥) جميع المعلومات الواردة عن الإصلاح الذي تم في عهد السلطان عبد المجيد مستخلصة من: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٥ ـ ٢٦؛ Weiker, Ibid., pp. 4, 23-24 and 26; Inalcik, Ibid., pp. 53-63; Davison, «Environmental and Foreign Contributions (Turkey),» pp. 97-98; Tibawi, Ibid., pp. 114-118; Ma'oz, *Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840-1861: The Impact of the Tanzimat on Politics and Society*, pp. 24-26; Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, pp. 3-4 and 36-50, and Palmer and Colton, Ibid., pp. 511 and 629.

(٣٦) انظر مصادر الهامش السابق.

(٣٧) النص مقتبس من: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٥ ـ ٢٦. وحول شرح خاص للأطراف التي قاومت إصلاحات الخط الشريف وخط همايون، وما واكب هذه الاصلاحات من ردود فعل أخرى، انظر: Weiker, Ibid., pp. 26-27; Ma'oz, Ibid., pp. 201-204; Tibawi, Ibid., pp. 629-630, and Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, pp. 50-51.

«الانتلجنسيا البيروقراطية»[٣٨] في حقبة الليبرالية التي أشاعها المصلحان فؤاد باشا وعلي باشا، بل إن رجال هذا الجيل سرعان ما تجاوزوا، بقيادة مدحت باشا، تلك المرحلة ورموزها وبدأوا يطالبون بإصلاحات دستورية واسعة. وقد نجح هؤلاء ـ في ظل تردي الأوضاع المالية والعسكرية للامبراطورية وازدياد الضغوط الدولية عليها ـ بتنحية السلطان عبد العزيز وخليفته السلطان مراد الخامس وتنصيب السلطان عبد الحميد الثاني الذي حكم في الفترة ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩. وقد ركب هذا الأخير الموجة الإصلاحية ووافق على إعلان دستور وتأسيس مجلس نيابي لم يلبث أن ارتد عنهما وعطلهما في شباط/فبراير ١٨٧٨ منهياً بذلك عصر «التنظيمات الخيرية». ومع أن المراجع المختلفة اعتبرت تاريخ تجميد السلطان عبد الحميد للدستور بمثابة التاريخ الرسمي لنهاية عصر إصلاحات «التنظيمات الخيرية»، فإن ذلك لا يلغي كون عهد عبد الحميد شهد ـ رغم توقف وانتكاس الإصلاحات السياسية ـ إصلاحات متعددة في المجالات الأخرى[٣٩].

أما المحاولة الكبرى السابعة، والأخيرة، للإصلاح فقد قادتها، هذه المرة «جمعية الاتحاد والترقي» التي أمسكت خيوط السلطة الحقيقية تدريجياً في أعقاب انقلابي ١٩٠٨ و١٩٠٩[٤٠].

٢ ـ **المحصلة النهائية**: بات من المؤكد الآن أن النظر إلى محاولات الإصلاح، التي شهدتها الامبراطورية العثمانية في المراحل المتلاحقة، على أنها محاولات منهجية مبرمجة ومترابطة إنما هو من قبيل المبالغة والمغالطة. ذلك أن تلك المحاولات كانت في مجموعها (أ) حلقات في سلسلة غير متصلة، تماماً مثلما كانت (ب) حلقات منفصلة أو شبه منفصلة تباينت في ما بينها تبايناً شمل مختلف جوانبها.

---

(٣٨) حول هذه التسميات المختلفة للجيل الجديد من المصلحين، انظر: زين، **نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية**، ص ٧٥؛ حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩**، ص ٣١٤، و Weiker, Ibid., p. 5.

(٣٩) المعلومات عن جيل المصلحين الجدد وعن عهد السلطان عبد الحميد الثاني، مستقاة من: زين، المصدر نفسه، ص ٤١، ٥٨، ٧٣، ٧٥ و٧٩؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٩٠ و٣١٤؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٢٧ ـ ٢٨ و٧٦ ـ ٧٧. انظر أيضاً: Weiker, Ibid., pp. 5 and 37-38; Tibawi, Ibid., pp. 148-149, 152, 188-199 and 196-199; Davison, «Environmental and Foreign Contributions (Turkey),» pp. 99-100; Palmer and Colton, *A History of the Modern World*, pp. 630 and 634-635, and Davison, *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, pp. 81-408.

(٤٠) حول حركة المعارضة العثمانية ونجاحها في إسقاط السلطان عبد المجيد وجهودها في الإصلاح وسياستها العامة، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٧٧؛ زين، المصدر نفسه، ص ٧٩ و٨٧، ومصطفى الزين، **أتاتورك، أمة في رجل** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٢)، ص ١٦ ـ ٣٢. انظر أيضاً: Dankwart A. Rustow, «The Military (Turkey),» pp. 360-363; Arif T. Payaslioglu, «Political Leadership and Political Parties (Turkey),» pp. 414-417 and 428 in: Ward and Rustow, eds., *Political Modernization of Japan and Turkey.*

فقد توزعت محاولات الإصلاح على امتداد فترة زمنية طويلة، طولها بطول حياة الامبراطورية ذاتها تقريباً. وتوزعت المحاولات الرئيسية، كي لا نتحدث عن الفرعية، بين فاصلين زمنيين هما الربع الأخير من القرن السابع عشر، والربع الأول من القرن العشرين، بل إن تواريخ وقوع كل واحدة من محاولات الإصلاح تؤكد، إلا في ما ندر، فقدان التواصل الزمني الوثيق حتى بين إصلاح معين والآخر الذي يليه.

كما أن تلك المحاولات افتقرت إلى التواصل القيادي سواء من حيث الرموز البشرية أو من حيث حوافز القيادات، أو من حيث توجهاتها. فقد ساهمت في تلك المحاولات، وإن بدرجات متفاوتة تبعاً للحالة المحددة، القيادات الرسمية المتربعة «فوق» سدة السلطة والقيادات غير الرسمية القابعة «تحت» مظلتها، والدول والقوى الأجنبية الفاعلة خارج المظلة العثمانية. كما أن تلك المحاولات كانت لدى الطرف الذي يصوغها، الداخلي أو الخارجي لا فرق، إما توجهاً استراتيجياً مؤقتاً أو توجهاً تكتيكياً في الأساس تبعاً للإصلاح المحدد في الظرف المحدد. ولذلك، فإن السمة العامة لتلك الإصلاحات تلخص في جوهرها، وبعيداً عن بعض الاستثناءات النادرة، في أنها كانت إصلاحات لفظية وقشرية أو، في أحسن الأحوال، غير جذرية، تماماً مثلما أن معظمها كان ـ من حيث السمة العامة ـ إصلاحات فوقية تمت تحت وطأة الخوف من التهديد الذي يمثله الخطر الأجنبي، أو من أجل إرضاء الطرف الأجنبي، أو تحت وطأة الضغط المباشر للأجنبي. وأخيراً، كانت تلك الإصلاحات أسيرة قوى داخلية وخارجية مناهضة لها أو هي كانت، في أحسن الأحوال، تتم في ظل ظروف مقاومة شديدة من تلك القوى أو بعضها.

ولعل المحصلة النهائية لتلك الإصلاحات تتلخص في النتائج المختلطة والمتعاكسة، السلبية والايجابية في آن معاً، التي انتهت إليها. فهي وإن نجحت في إطالة عمر الامبراطورية (عبر إرضاء الدول الأجنبية الطامعة فيها وتأجيل هجمتها أو تجميد هجمة بعضها) فإنها لم تنجح في حقن شرايين الامبراطورية بدماء الشباب والقوة المرغوبة. وهي وإن منحت قدراً معيناً من الاوكسجين السياسي والاجتماعي والاقتصادي لنشوء وبدء تشكل طبقة وسطى جديدة، فإنها لم توفر لتلك الطبقة القدر اللازم لها للنمو السريع. وكان لا بد من مضي وقت كاف حتى تغدو تلك الطبقة قادرة على الاضطلاع بدورها المأمول في التغيير. كما أن تلك الإصلاحات، وإن أضعفت القوى التقليدية المحافظة الدافعة «إلى الوراء» في المجتمع العثماني، فإنها ـ وهي تحقق ذلك ـ فقدت الكثير من زخمها. ولذلك، عجزت تلك الإصلاحات عن أن تكون خطوة واسعة «إلى الأمام»، وبقيت أشبه ما تكون بالقوة «المراوحة مكانها» التي نجحت في إضعاف خصمها بعد أن نجح الخصم ذاته في حرمانها من الوصول إلى موقع القوة الذي سعت إليه. ومجدداً، كان لا بد من وقت إضافي، تنمو معه الطبقة الوسطى وتزداد فيه جذرية الإصلاحات، حتى يتم اقتلاع تلك القوى الاقطاعية التقليدية اقتلاعاً كاملاً أو شبه كامل. وفي تلك الأثناء، وبانتظار تلك التطورات، كانت النتيجة الراهنة لما انتهت إليه الإصلاحات عندئذ تتلخص

في: ازدياد مركزية الدولة دون ازدياد قوة الدولة ذاتها.

ومع أن المركزية الجديدة للدولة أفادت في تطويق القوى الانفصالية (أو الاستقلالية) داخل الامبراطورية وتأجيل انفكاكها، وساعدت في حماية رعايا الامبراطورية من جبروت الاقطاع المحلي، فإن تلك المركزية أفضت إلى تمركز شديد في السلطة. وكان هذا التطور محركاً هاماً، ضمن عوامل أخرى، في اطلاق العنان للقوى الليبرالية التركية (أساساً) وغير التركية للاصطدام بالسلطة المركزية ومحاولة تقويضها، تماماً مثلما كان محركاً هاماً ساعد في تسريع نمو القوى الليبرالية والاستقلالية غير التركية (العربية أساساً)[٤١]. وهذا هو ما سنعالجه، فوراً، في المبحث الثالث والأخير من هذه الدراسة.

العوامل القديمة ـ الجديدة وأحداث نصف القرن الأخير

ربما تكون وقائع الفترة الممتدة ما بين السنوات القليلة السابقة لاعتلاء السلطان عبد الحميد سدة السلطة والسنوات القليلة التي أعقبت خلعه هي الفترة الأكثر حسماً في تلاشي الامبراطورية العثمانية. فالعوامل «التاريخية» الداخلية، التي أضعفت الامبراطورية وفككتها وصاغت أزمتها الداخلية، وبقيت فاعلة ومؤثرة، والعوامل «التاريخية» الخارجية، التي أنهكت السلطنة العثمانية ومزقتها وصاغت أزمتها الخارجية، ازدادت شراسة. ورغم أن الأزمتين حافظتا على الحيثيات الأساسية والمعالم البارزة المكونة لكل منهما تاريخياً، فإن الافرازات المتراكمة لكل واحدة من الأزمتين تحولت ـ أثناء هذه الفترة موضع البحث ـ إلى حالة نوعية جديدة. ذلك أن ضغط عوامل الأزمة الخارجية أصبح، في السنوات الأخيرة من حياة الامبراطورية، الأكثر حسماً إذا ما قورن بوزن عوامل الأزمة الداخلية. كما أن الوضع الداخلي شهد تحولاً نوعياً جديداً تمثل في تشكل قوى سياسية معارضة ومنظمة سواء كانت عثمانية أو تركية أو غير ذلك، وذات مضامين ليبرالية إسلامية أو قومية متصلبة أو غير ذلك. وأخيراً، فإن جوهر «المسألة الشرقية» طفا وبقوة على سطح الأحداث منهياً بذلك الأشكال القديمة التي عبّرت فيها تلك المسألة عن نفسها في الماضي. فمع السنوات الأخيرة، لم تعد محصلة التنافس الأوروبي الابقاء على الوضع الراهن في الامبراطورية، وإنما التسابق إلى تفكيك ونهش تلك الامبراطورية. ومع نهاية عهد السلطان عبد الحميد تفاعلت عوامل الأزمة الخارجية مع عوامل الأزمة الداخلية لتنسج خيوط أزمة شاملة مستحكمة.

فعلى الصعيد الخارجي العام، استمر فعل العوامل الإقليمية والسياسية والعسكرية والدينية والدولية من زاوية إغراء الدول الأوروبية بالتدخل في شؤون الامبراطورية والاستيلاء على أقاليمها. كما أن التقدم الأوروبي على كل الأصعدة زاد شهية الدول

(٤١) الاستنتاجات حول المحصلة النهائية للاصلاحات مستقاة من الوقائع والخلاصات الخاصة بتلك الاصلاحات حسبما وردت في المصادر المشار إليها في الهوامش أرقام (٣١) ـ (٤٠).

الأوروبية المختلفة للتوسع على حساب مصالح وأراضي الكيان المتخلف للامبراطورية التي كانت بمثابة «رجل أوروبة المريض». فمن جهة **أولى**، اغتنمت الدول الأوروبية الحروب الخارجية للامبراطورية في الأعوام ١٨٧٨، ١٩١٢، ١٩١٣، ١٩١٨ لإضعاف الامبراطورية وسلخ أراض تقع ضمن نطاق سيطرتها. ومن جهة **ثانية**، استغلت الدول ذاتها الحروب والتمردات الداخلية في الامبراطورية لزيادة ممتلكاتها وتوسيع نفوذها في جنوب القوقاز، وصربية، ورومانية، وبلغارية، وبوسنة، وقبرص، ومصر، وتونس... وغيرها. ومن جهة **ثالثة** وظفت الدول الأوروبية تقدمها الرأسمالي من أجل انجاز ارتهان الاقتصاد العثماني لاقتصادها مفاقمة بذلك أزمة البناء الاقطاعي للامبراطورية، وضاربة كذلك الصناعات اليدوية المحلية فيها. ومن جهة **رابعة**، ضاعفت الدول الأوروبية الامتيازات الخاصة بالجاليات والرعايا غير المسلمين موطدة بذلك ـ وعلى نحو جدلي ـ ارتباط هذه الجاليات وأولئك الرعايا بها اقتصادياً وقومياً وثقافياً. وكان ذلك على حساب وحدة مجتمع وأراضي السلطنة العثمانية[٤٢].

وعلى الصعيد الداخلي العام، استمرت قوة التشكيلات المختلفة لطبقة الأعيان، ومعها نزعاتهم الانفصالية، في التصاعد رغم نجاح «الاصلاحات الخيرية» في إضعاف حالة اللامركزية التي طالما عانت منها الامبراطورية. ومن جهة **ثانية**، بقي البناء الاجتماعي والاقتصادي الاقطاعي القديم قائماً رغم الإصلاحات التي شهدتها الأقاليم المختلفة وبالذات في سورية الطبيعية. ومن جهة **ثالثة**، أدى انخفاض إنتاجية المجتمع والاقتصاد الامبراطوري، علاوة على بذخ وإسراف وفساد المسؤولين العثمانيين، إلى وقوع السلطنة في شباك الديون الأجنبية المتراكمة والمتزايدة أبداً. ومن جهة **رابعة**، أدى «نظام الملل» و«نظام الامتيازات» إلى إعاقة الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للامبراطورية، بل وإلى تفكيك الوحدة. كما أن ذينك النظامين شكّلا نوعاً من التربة الخصبة لنمو التمردات (أو الانتفاضات) الانفصالية (أو الاستقلالية) ولازدياد تدخل الدول الأجنبية في الشؤون الداخلية للامبراطورية. ومن جهة **خامسة**، أدى عنف السلطة ودمويتها في أحيان كثيرة، علاوة على فسادها وابتعادها عن التعاليم الإسلامية، إلى افقادها الكثير من شرعيتها ومصداقيتها في أعين رعاياها[٤٣].

ومع النصف الأخير من حياة الامبراطورية العثمانية، تفاعلت الأزمتان الداخلية

---

(٤٢) حول التطورات في البيئة الخارجية في عهد عبد الحميد، انظر مثلا: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٦ و٢٨؛ أمين، **الأمة العربية: القومية والصراع الطبقي**، ص ٦٥ ـ ٦٦؛ Palmer and Colton, *A History of the Modern World*, pp. 634-635; Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, pp. 152 and 188-194, and Davison, «Environmental and Foreign Contributions (Turkey),» pp. 99-100,

(٤٣) حول التطورات في البيئة الداخلية في عهد عبد الحميد، وعلاوة على المراجع الوارد ذكرها في الهامش السابق، انظر: توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام**، ص ١٥١ ـ ١٥٢ و١٧٥ ـ ١٧٧.

والخارجية لتبلور ـ ضمن نتائج أخرى ـ قوى سياسية «عثمانية» مختلفة سرعان ما أسرجت حصان التوجهات الانفصالية والانقلابية والاستقلالية. وقد انتظمت هذه القوى ضمن الخريطة السياسية «الداخلية» العامة للامبراطورية، في توجهين رئيسيين: أما **الأول** فلم يعترف بعثمانيته منذ بداية الفترة موضع البحث وسعى جاهداً إلى تمزيق الخيمة العثمانية بسيوف التمردات (أو الانتفاضات) القومية. أما التوجه **الثاني** فأصر على عثمانيته وسعى إلى تطويرها عبر «النضال الداخلي» بأسلوب الإصلاح، متسلحاً بأفكار توفيقية تمزج مضامين الليبرالية الغربية مع مضامين الإسلام. وفي حين ضم التوجه الأول الشعوب والأقليات القومية الأوروبية (أرمن، رومانيين، بلغاريين، يونانيين، ألبانيين. . . الخ.) ضم التوجه الثاني الطلائع الليبرالية بين الأتراك وبين شعوب البلاد العربية «العثمانية» سواء في آسية أو افريقية (قبل احتلالها من الدول الأوروبية). وقد خاضت أطراف التوجه الأول شريطاً متصلاً من المعارك التي اتخذت شكل الانتفاضات (أو التمردات) أو الحروب الانفصالية (أو الاستقلالية) على امتداد سنوات النصف الأخير من حياة الامبراطورية. وهنا، ليس ثمة حاجة للتوكيد على ما أدت إليه هذه المعارك، المدعومة بشكل مباشر أو غير مباشر من هذه الدولة الأوروبية أو تلك، من خسائر واضحة. ذلك أن الامبراطورية العثمانية فقدت إبان تلك المعارك، عدا عن النزيف المعنوي والبشري والمادي الحاد الذي أصابها، جميع امتداداتها في أوروبة.

أما المواجهة مع أطراف التوجه الثاني فقد اتخذت أشكالاً مختلفة وسارت في اتجاهات مغايرة. ذلك أنه كانت لهذه الأطراف خطط وبرامج وجهود مختلفة أملوا من ورائها وقف الانحطاط كخطوة أولى على طريق بعث الأمجاد الغابرة للامبراطورية. وعلى طريق تحقيق ذلك، تصارع على السلطة المركزية ـ ضمن هذا التوجه ـ تياران عثمانيان جاءت غالبيتهما الساحقة من الليبراليين الأتراك الذين ظهروا على مسرح الأحداث بقوة معقولة بدءاً من ستينات القرن التاسع عشر. وعندئذ، بدا وكأن الساحة السياسية أصبحت خالية من مراكز القوى التقليدية المحافظة المعشِشة في مختلف مناحي الحياة وفي مختلف المواقع الجغرافية العثمانية. ومع العام ١٨٧١، إثر وفاة علي باشا (بعد فؤاد باشا) اللذين قادا التيار الإصلاحي «المعتدل»، ازداد نفوذ التيار الإصلاحي «الجذري» بقيادة مدحت باشا، وعند منتصف العام ١٨٧٦، نجح هذا الأخير وأنصاره بعزل السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس على التوالي، وأتوا بالسلطان عبد الحميد الثاني. وقبل نهاية العام، أعلن السلطان الجديد ـ بإيعاز من التيار الجذري ـ دستوراً جعل الحكم في البلاد نيابياً. وعندما اتضح أن المجلس التشريعي الجديد مصرّ على المشاركة الفعلية في الحكم، وإن الجيش الامبراطوري أوشك أن ينهزم في الحرب السادسة (خلال قرن) التي كانت تشنها روسية، انقلب السلطان عبد الحميد على الليبراليين فحل البرلمان في ١٩ آذار/مارس ١٨٧٧، وطرد قادتهم مثلما طرد مدحت باشا قبل ذلك ببضعة أشهر. ومنذئذ، تمحور الصراع بين قوى «الانقاذ العثمانية الداخلية» ـ إذا جازت العبارة ـ في معسكرين رئيسيين: الأول متحلق حول السلطان، والثاني حول المعارضة الليبرالية. ورغم اتفاق الطرفين على هدف

«الانقاذ» بمعناه العام، فإنهما اختلفا، من حيث الممارسة، حول تحديد «سقف» أو «أرضية» ذلك الهدف. فالسلطان عبد الحميد اكتفى، في ما يبدو من ممارساته، ببرنامج «الحد الأدنى» من الانقاذ الذي عنى عنده وعند أنصاره: الحفاظ على الوضع الراهن ووقف عملية تمزيق الامبراطورية. أما برنامج «الحد الأقصى» الخاص ببعث شباب الامبراطورية واستعادة أمجادها فكان الهدف المعلن والمطلوب من قبل المعارضة الليبرالية العثمانية. هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية، كانت وسائل وقيادة وبنية كل واحد من معسكري «الانقاذ» على طرفي نقيض: أما معسكر عبد الحميد فقد سعى إلى تحقيق هدفه عن طريق الإصلاحات غير السياسية، وتقوية مركزية الدولة، والابقاء على جوهرها الأوتوقراطي الثيوقراطي. ومع ازدياد عزله للقوى الليبرالية العثمانية الإسلامية المعارضة (وغيرها من القوى الاستقلالية والانفصالية غير الإسلامية) وقمعه لها بمختلف الوسائل البوليسية والدموية استقطب السلطان، بوسائل متعددة، مزيجاً عريضاً من القيادات والقوى. فقد التفت حوله، لأسباب دينية وتقليدية ومصلحية، غالبية قيادات القوى المحافظة ومؤيدوها داخل الامبراطورية (المؤسسة الدينية، الأعيان، الوجهاء، الآغوات... الخ.). كما لم تعادِه، وربما دعمته، قطاعات جماهيرية واسعة من العثمانيين الأتراك والعرب وغيرهم.

وعلى صعيد مختلف، سعى معسكر المعارضة إلى تحقيق هدفه الاستراتيجي عن طريق الإصرار على عودة الحياة البرلمانية وغير ذلك من الاصلاحات السياسية التي تمزج الأفكار الليبرالية الغربية وتوفقها مع الإسلام. وحتى مطلع القرن العشرين بقيت قيادة وبنية هذا المعسكر بأيدي عناصر طلائعية مسلمة أو متأسلمة (تركية أساساً) تنتمي إلى قطاعات مختلفة من أبناء الطبقة الوسطى المسلمة (مثقفين ثوريين، طلبة المدارس المدنية والعسكرية، صحفيين، مدرسين، صغار موظفين، وجهاء محليين، وقلة من صغار ضباط الجيش... الخ.). ورغم انضمام بعض العناصر غير المسلمة إليها، عجزت قوى هذا المعسكر، الأشبه ما يكون بالجبهة العريضة ذات القيادة والتركيبة المسلمة أو المتأسلمة والتركية أساساً، في تحويل اختراقهم الهامشي للجماهير العثمانية (وبالذات العربية) إلى اختراق أساسي أو شبه أساسي(٤٤).

أصبح الشغل الشاغل للسلطان عبد الحميد، منذ أن انقلب على الليبراليين العثمانيين، الحفاظ على حكمه وعلى الوضع الراهن للامبراطورية في وجه محاولات النهش

---

(٤٤) المعلومات حول تركيبة وبنية ووسائل هذين التوجهين الرئيسيين وتفرعاتهما العثمانية مستخلصة من: حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩**، ص ٣١٤، ٣١٨ و٣٣٤؛ زين، **نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية**، ص ٧٣؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٧٧؛ توما، المصدر نفسه، ص ١٥١ ـ ١٥٢ و١٥٦؛ Payaslioglu, «Political Leadership and Political Parties (Turkey),» pp. 414-417 and 428, and Rustow, «The Military (Turkey),» pp. 360-361.

التي سعت إليها الدول والحركات الانفصالية (أو الاستقلالية) الأوروبية. ومنذئذ، اكتفى السلطان ببرنامج «الحد الأدنى» ذاك وبات واضحاً أن تلك هي حدود «انقاذ» الامبراطورية عنده وعند أنصاره. أما «برنامج» الحد الأقصى «الخاص ببعث شباب الامبراطورية واستعادة أمجادها» فأصبح - بوعي منه أو بدون وعي - مسألة غير واردة أو بحكم المؤجلة. ذلك أن النهج الذي نهجه، في غمرة انشغاله في التحديات المباشرة والأكثر ضغطاً وإلحاحاً، جعل إمكانية تجاوزه «الحد الأدنى» إلى «الحد الأقصى» إمكانية مستحيلة ذاتياً وموضوعياً. فهو بعد أن استحوذت عليه فكرة الحفاظ على حكمه الفردي أولاً، كان لا بد له من الاتكاء على مقومات الوضع الراهن الداخلي آنذاك بكل ما فيها من تخلف وقصور، من أجل ضرب القوى الليبرالية العثمانية الإصلاحية الصاعدة ليدرأ عن نفسه «الخطر الداخلي». وقد قاده ذلك إلى تبني نهج إن نجح في الابقاء على حكمه وعلى الوضع الراهن على المدى القصير، فإنه عاجز عن تحقيق ذلك على المدى الطويل، ناهيك عن الوصول إلى استعادة المجد الغابر. وبالفعل نجح السلطان عبد الحميد في قيادة سفينة حكمه (وليس سفينة الامبراطورية بالضرورة) في بحر من العداء الداخلي والخارجي طوال الثلاثين عاماً التالية عبر اغتنامه لفرص أتاحتها له الظروف الدولية والمحلية من جهة، وعبر اعتماده مجموعة سياسات خارجية وداخلية من جهة ثانية. ورغم استثماره لتلك الظروف وتبنيه لتلك السياسات، كان نجاحه (المؤقت) إزاء «الخطر الخارجي» متواضعاً إذا ما قورن بنجاحه (المؤقت) إزاء «الخطر الداخلي». فرغم أنه حافظ على بعض الممتلكات والحقوق العثمانية وطوق تيارات انفصالية (أو استقلالية) عديدة في أوروبا، فإنه في «اتفاقية برلين» للعام ١٨٧٨ خسر وتنازل عن كثير من الحقوق الإقليمية والسياسية «العثمانية» في تلك القارة. ولم يمض وقت طويل حتى فقد قبرص ومصر لبريطانيا، وتونس لفرنسا[٤٥].

أما نجاح السلطان عبد الحميد الأكبر (المؤقت) فكان على صعيد درء «الخطر الداخلي» عن عرشه. فقد اعتمد السلطان في مواجهة الحركات القومية الانفصالية (أو الاستقلالية) والإصلاحية أساليب تراوحت ما بين المجازر والتدمير في جانب، والعنف البوليسي في جانب ثان، والتسامح والاسترضاء والاعمار في جانب ثالث. وفي حين خص الأقليات الأوروبية القومية بالأسلوب الأول، خص الحركة الليبرالية الإصلاحية العثمانية (التركية أساساً) بالأسلوب الثاني، وخص البلاد العربية الآسيوية (وهي المتبقية في الامبراطورية مع نهاية القرن) بالأسلوب الثالث مع استعمال الأسلوب الثاني أيضاً مع العناصر العربية القليلة العاملة ضمن المعارضة العثمانية. وقد تمثل الخطر الأشد والأكثر مباشرة على السلطان في الحركة الليبرالية العثمانية (القومية التركية لاحقاً). فهذه الحركة

---

(٤٥) حول النهش الأجنبي للامبراطورية في عهد عبد الحميد، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ١٣١ - ١٣٤؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٢٦ - ٢٧، و Davison, «Environmental and Foreign Contributions (Turkey),» p. 99.

(التركية أساساً) قائمة في عقر داره، وهي لا تهدده ـ كما الحركات القومية الأوروبية ـ بالانفصال عن امبراطوريته، وإنما هي تسعى إلى التخلص من أوتوقراطية السلطان، أو من السلطان ذاته (لاحقاً) بل والاستيلاء على السلطة إن اقتضى الأمر. ثم إن كون دعاة الحركة مسلمين أساساً جعلها أكثر تأثيراً في النيل منه ومن شرعية نظامه القائم، ولو اسمياً، على الإسلام. كما أنه، رغم الخطر المباشر لهذه الحركة، وبسبب تركيبتها العثمانية التركية المسلمة، بقيت يد السلطان إزاءها مغلولة نسبياً بحيث لا يستطيع معالجة خطرها بأسلوب المذابح التي مارسها، مثلاً، ضد الأرمن في العامين ١٨٩٥/١٨٩٦[٤٦].

ومع ذلك يجب أن لا يعزى النجاح (المؤقت) للسلطان عبد الحميد سواء في مجال الحفاظ على حكمه الأوتوقراطي أو في مجال تطويقه للمعارضة وعزلها عن الجماهير العثمانية (التركية العربية بالذات) إلى قمعه البوليسي فحسب. ذلك أن الظروف الموضوعية والظروف الذاتية للمعارضة ساعدته، أيما مساعدة، في ذلك أيضاً. ومن هذه الظروف: كون غالبية الجماهير العثمانية استشعرت الخطر الأجنبي غير المسلم الذي كان يتهدد أكبر «القلاع الإسلامية» و«خليفة المسلمين» من جهة، وكونها كتلاً بشرية أمية غير مستنيرة وتقليدية محافظة من جهة ثانية، وكونها استفادت من إصلاحات السلطان عبد الحميد الانشائية والعمرانية والاقتصادية (وبالذات في سورية الطبيعية) من جهة ثالثة، وكونها بعيدة عن تأثير القوى الليبرالية الطلائعية من جهة رابعة. وكان تأثير هذه القوى الطلائعية هامشياً بسبب بنية الجماهير العثمانية الأمية والمحافظة أولاً، وصعوبة المواصلات والاتصالات داخل الامبراطورية ثانياً، والحصار والتعتيم والقمع السلطاني ثالثاً، وقصور التنظيمات المعارضة وانقسامها رابعاً، وتشتتها في المنافي خامساً، وطبيعة برامجها «الغربية» سادساً، والتحالفات القائمة بين بعضها وبعض الدول والقوى الأجنبية سابعاً[٤٧].

وهكذا، نجح السلطان عبد الحميد ليس في الإبقاء على حكمه في مواجهة المعارضة العثمانية (التركية أساساً) فحسب، بل نجح أيضاً في إبقاء تلك المعارضة ضمن الحدود الطلائعية الضيقة حتى أواخر حكمه. فالجماهير العثمانية (ومنهم العرب ـ أكبر المجموعات عدداً) بقيت على ولائها للامبراطورية وللسلطان. وحتى عندما نجحت

(٤٦) هذه الاستنتاجات حول الأساليب العنيفة وغير العنيفة التي لجأ إليها عبد الحميد في مواجهة خصومه الانفصاليين أو الاصلاحيين مستمدة من الوقائع كما وردت في: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٧؛ حاطوم، **محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية**، ص ١٦، و Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, pp. 194-197.

(٤٧) هذه النتائج الخاصة بظروف المجتمع العثماني وأوضاع الحركة الليبرالية المعارضة وبرامجها وتحالفاتها مستقاة من المعلومات الواردة في: حوراني، المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١، ٣١٤ ـ ٣١٩، ٣٣٤ و٣٣٧؛ جيفرز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، ص ٩٢؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٤٧ ـ ٤٨، وصالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ط ٤ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧١)، ص ٣٢ ـ ٣٣.

المعارضة بقيادة «جمعية الاتحاد والترقي» في فرض الدستور على السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٨ فهي إنما حققت ذلك بالإبقاء عليه وعلى حكمه أولاً وبأسلوب التلويح بخلعه على يد طلائع عسكرية في سالونيك وغيرها ثانياً، وبعيداً عن مشاركة الجماهير العثمانية (ومنهم العرب) ثالثاً. وإن كانت هذه الوقائع تؤكد أمراً فإنما تؤكد طليعية الحركة المعارضة وعدم اتساع جماهيريتها في جانب، تماماً مثلما تؤكد غيبة الجماهير العثمانية (ومنهم العرب) عن الإطاحة بعبد الحميد في جانب ثان. بل إن الوقائع تؤكد أن موجة الفرح التي غمرت الجماهير العثمانية (ومنهم العرب) بعودة الدستور اقترنت بالمديح للسلطان باعتباره الجهة التي أعادت الدستور. وهنا لا بد من التوكيد على أن تلك المشاعر من جانب الجماهير العثمانية لم تكن بالضرورة حباً بالسلطان كشخص وإنما تعلقاً به كرمز إسلامي يقود امبراطورية عثمانية «إسلامية». هذا على الصعيد العثماني العام(٤٨).

أما على الصعيد الجماهيري «العثماني» العربي، فمما لا شك فيه أنه ـ إضافة إلى العوامل العامة ـ كان ثمة عوامل خاصة للتعلق بالسلطان عبد الحميد وبالامبراطورية ربما أبرزها سياسة السلطان الموجهة لكسب ود رعاياه العرب وبخاصة أنهم لم يشكلوا أي خطر عليه أو على الامبراطورية فالمسلمون العرب (وهم الأغلبية) كانوا ـ بحكم قوة المشاعر الإسلامية والفكر الإسلامي عندهم وغياب الفكر القومي عنهم طوال عهد عبد الحميد ـ يشعرون بأن الدولة دولتهم. وحتى الليبراليين المناهضين منهم لأوتوقراطية الحكم فإنهم، على قلة عددهم في وسط الجماهير الواسعة، كانوا بغالبيتهم الساحقة مع الإصلاح التدريجي واللامركزية الإدارية، ولم يكونوا دعاة انفصال أو ثورة طوال عهد عبد الحميد على الأقل.

أما المسيحيون العرب فكانوا، على عكس مسيحيي أوروبا «العثمانية»، راضين اجمالاً بما حصلوا عليه من حكم ذاتي في جبل لبنان (حيث تجمّعهم الأساسي) أو هم ـ في لبنان وغيره ـ يطمحون إلى تطوير المكتسبات السابقة عبر الإصلاح الداخلي التدرجي. وحتى الطلائع الليبرالية العلمانية العروبية بينهم فإنها لم تكن (باستثناء ندرة نادرة في أواخر عهد عبد الحميد) من دعاة الانفصال أو الثورة بل إن خوف كثير من الليبراليين والعلمانيين المناهضين للسلطان من الخطر الأوروبي جعلهم يلتصقون أكثر فأكثر بمبدأ الحفاظ على الامبراطورية العثمانية وبعث قوتها لمواجهة ذلك الخطر(٤٩).

---

(٤٨) حول ظروف الانقلاب الأول وطبيعته وإعادة الدستور في العام ١٩٠٨ والموقف الجماهيري منه، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦، وأبو يصير، المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٤٩) وردت التأكيدات على الموقف العربي العام (في أوساط المسلمين والمسيحيين) المتمسك أو المؤيد أو غير المعادي للدولة العثمانية طوال عهد عبد الحميد، في: توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام**، ص ١٥٢؛ حاطوم، **محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية**، ص ١٧؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٣١٤ ـ ٣١٥؛ عطية، **العرب**، ص ١٠٥، وسالم عبد الغني قنيبر، **الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر: عبد العزيز جاويش، ١٨٧٢ ـ ١٩٢٩** (بيروت: دار مكتبة الأندلس، ١٩٦٨)، ص ٤٤ ـ ٤٨ و٣٠٥. =

ومن الاجراءات التي اتخذها السلطان عبد الحميد لتنمية هذه المشاعر والمواقف العربية الودية تجاه الامبراطورية: التطوير الاقتصادي إلى درجة أن بلاد الشام غدت في عهده أكثر ازدهاراً (ربما أقل بؤساً) من أي منطقة أخرى في الامبراطورية؛ التطوير الإداري وتخصيص أفضل الولاة وأكفئهم لبلاد الشام؛ تطوير التعليم العصري في سورية الطبيعية؛ تقريب العرب المسلمين واستخدامهم في ديوانه وحرسه، وتعيين العرب المسيحيين في مناصب عالية في وزارات الخارجية والزراعية والأشغال العامة وغيرها؛ ترسيخ المكتسبات السابقة الخاصة بالتسامح الديني في علاقات الطوائف المسلمة وغير المسلمة؛ الدعوة إلى الخلافة الإسلامية رغم أن تلك الدعوة ارتدت عليه عكسياً في الأوساط العربية في وقت لاحق؛ بناء المساجد وإنشاء المدارس الإسلامية(٥٠).

ومن المؤشرات السياسية المهمة على صحة هذه الاستنتاجات الخاصة بمواقف العرب، عدا عما ثبتته المراجع العلمية المطلعة، غياب وجود أية تنظيمات سياسية عربية مهمة ـ حتى ولو طلائعية ـ مناهضة للسلطان طوال مدة حكمه سواء في أوساط المسلمين أو المسيحيين العرب. أما العرب الذين ناهضوا السلطة من خلال تنظيمات تركيا الفتاة أو جمعية الاتحاد والترقي (التركية أساساً) فكانوا قلة ضمن تنظيمات، هي، أصلاً، منظمات قلة.

غير أن عدم وجود تنظيمات سياسية عربية وطنية تدعو إلى استقلال البلاد العربية في العام ١٩٠٨ لا ينفي وجود ارهاصات وطنية وعروبية بدأت تتحرك في ذلك الاتجاه. وبغض النظر مؤقتاً عن القضايا الشائكة الخاصة بمفهوم القومية العربية وهويتها وعوامل تكوينها وحوافز قيادتها ووجودها الزمني(٥١)، فإنه لمن الثابت وجود تأثيرات، متواضعة

= وعلى صعيد مختلف، يمكن تبين مواقف بعض الأفراد المعادين للإطار العثماني والمنادين بالاستقلال في هذا الجزء من سوريا أو ذاك، في المصادر التالية: حول نجيب عازوري، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ٣٣١ ـ ٣٣٣، وحاطوم، المصدر نفسه، ص ١٦ ـ ١٨. وحول موقف عبد الرحمن الكواكبي، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ حاطوم، المصدر نفسه، ص ١٥، وتوما، المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(٥٠) حول سياسة عبد الحميد لكسب ود العرب، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ٣١٤، ٣١٨ و٢٣٢؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٢٨؛ جيفرز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، ص ٦٢ ـ ٦٤ و٦٧؛ بيرجر، **العالم العربي اليوم**، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ عطية، المصدر نفسه، ص ١٠٥؛ Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine*, pp. 179-188 and 194-198; Palmer and Colton, *A History of the Modern World*, p. 635, and Davison, «Environmental and Foreign Contributions (Turkey),» p. 99.

(٥١) حول المواقف المختلفة من ظاهرة القومية (ومن ضمنها العربية) انظر المراجع الواردة أدناه على سبيل المثال لا الحصر وعلى النحو التالي:

أ ـ نجد التأكيد على أن القومية (أو القومية العربية) قديمة ودائمة في: الرزاز، **تطور معنى القومية**، ص ٢٤؛ حاطوم، المصدر نفسه، ص ٥، وهرتز، **القومية في التاريخ والسياسة**، ص ١٦٤. =

ونامية في آن معاً، لجملة أفكار طرحها بعض الأعلام البارزين في دنيا العرب منذ نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد صبت هذه الأفكار، في النهاية، في مجرى الفكرة القومية العربية. ومن هؤلاء الاعلام الذين صنعوا ما أصبح يعرف باسم «النهضة الفكرية والثقافية العربية» نذكر رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) وخير الدين التونسي (١٨١٠ ـ ١٨٩٩) وجمال الدين الافغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) وناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) وفارس شدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) وغيرهم ممن انتظموا على التوالي ضمن ـ ما يمكن تسميته تباعاً ـ بتياري «النفير الإسلامي المجدد» و«النفير العلماني العروبي». ولعل جوهر القاسم المشترك بين هذين التيارين يكمن في دعوة كل منهما إلى «الليبرالية العثمانية»، رغم تباين مفهوم الليبرالية ومداها عند كل واحد من هؤلاء المفكرين. فالليبراليون المسلمون العرب (ومعهم الافغاني) من دعاة التجديد الإسلامي إما لم يمانعوا في بقاء الإطار العثماني (الطهطاوي مثلاً) أو تحمسوا له (خير الدين التونسي، ومحمد عبده لاحقاً) ولكن على أسس ليبرالية إسلامية. ومن هذه الأسس اعتماد مبدأ الشورى ومشاركة العلماء المثقفين في ضوء التسامح الديني، مع التوفيق ـ إلى درجة معينة ـ بين الإسلام والحضارة الأوروبية من جهة، وبين العثمانية (التي كان التونسي أميل لها) والوطنية المصرية (التي كان الطهطاوي أميل لها) أو عدم المفاضلة بينهما (محمد عبده) من جهة ثانية. وأما الليبراليون المسيحيون العرب فإنهم قبلوا بالإبقاء على إطار الامبراطورية العثمانية شرط أن يكون ذلك الإطار ليبرالياً لا يفرق بين أبناء الطوائف الدينية (شدياق واليازجي والبستاني) مع التوفيق بين عثمانية الامبراطورية والوطنية السورية (البستاني).

وعلى الرغم من أن هذه الطروحات والجهود الفكرية، شأنها شأن الأفكار الليبرالية التركية، أسهمت في هز الأركان الايديولوجية والسياسية لنظام السلطان عبد الحميد

= ب ـ نجد التأكيد على أن القومية (أو القومية العربية) زائلة في المواقف الماركسية الكلاسيكية وفي بعض المصادر الماركسية المعاصرة. أما حول كونها ظاهرة جديدة، فانظر: Palmer and Colton, Ibid., pp. 477-478 and 509, and

زين، **نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية**. واختيار المؤلف لعنوان كتابه دليل كاف على كونه يعتبر القومية العربية ظاهرة حديثة من دون جذور تاريخية متبلورة.

ج ـ وحول كون القومية العربية «يقظة» و«انبعاثاً» و«دفقاً» و«اتضاحاً» لحركة قديمة فاعلة، انظر: حاطوم، المصدر نفسه، ص ٨ و١٠؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٣١١ ـ ٣١٢؛ جيفرز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، ص ٦٤، وعازوري، **يقظة الأمة العربية**.

د ـ وحول رجعية أو تقدمية الظاهرة القومية تبعاً للظروف مع توضيح المواقف المتباينة منها نجد معالجة مطولة نسبياً لذلك في: الرزاز، المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٩٥. كذلك من المفيد العودة إلى الحوار الذي جرى في الندوة التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية والتي نشرت في: **القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية**، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(وهذا ما يفسر معاداته للقائلين بها) فإن تأثيرها بقي طوال عهده تأثيراً طلائعياً، وربما هامشياً، إذا ما قورن بتأثيرات الفكر الليبرالي التركي. ومع أن تلك الطروحات والجهود أفقدت نظام السلطان عبد الحميد مصداقيته وشرعيته «الإسلامية» والليبرالية، فإنها بحكم طلائعيتها وانحصار تأثيرها في أوساط المثقفين، لم تشكل قوة تهدد نظامه. وعلى الرغم من أن تلك الطروحات والجهود أرست جزءاً من القواعد التي استثمرها وطورها بعض المفكرين البارزين من معاصري وتلامذة واتباع ذلك الجيل من الطلائعيين لتنمية الأحاسيس والروابط الوطنية (ولاحقاً التنظيمات السياسية) العروبية والقومية والعلمانية، فإنها ـ رغم اسهامها في هز استقرار عهد عبد الحميد ـ لم تؤثر على أي نطاق حاسم في إنهاء الامبراطورية ذاتها. وحسبنا عند هذه النقطة، التوكيد عن أن طروحات ذلك الجيل الإسلامية والعروبية والوطنية كانت وبقيت طلائعية غير متغلغلة في أوساط الجماهير العريضة تدعو ـ أو في أسوأ الأحوال تقبل فحسب ـ باستمرار الإطار العثماني إطاراً سياسياً لها طوال عهد السلطان عبد الحميد[٥٢].

غير أن الوقائع اللاحقة تؤكد وقوع تغير أساسي في الحقبة الفاصلة ما بين عشية الانقلاب الأول في منتصف ١٩٠٨، مروراً بالانقلاب الثاني في ربيع ١٩٠٩، وغداة الانقلاب الثالث في مطلع ١٩١٣ بقيادة «جمعية الاتحاد والترقي». فزواج الأهداف والمصالح بين القوى والعناصر التركية والعربية في الحركة الليبرالية العثمانية المعارضة القائم منذ ما قبل الانقلاب الأول سرعان ما تحول إلى حالة من الهجر والانفصال في الفترة الفاصلة ما بين الانقلابين الثاني والثالث. ثم ما لبث أن تحول ذلك الانفصال إلى طلاق كامل، بل واقتتال، في السنوات القليلة التي أعقبت الانقلاب الثالث. والأخطر من ذلك، أن هذا التبدل في العلاقات لم يقتصر على غالبية القوى والعناصر العربية الليبرالية المعارضة، وإنما امتد ليشمل مشاعر قطاعات واسعة من الجماهير العربية كذلك. وكان أمراً طبيعياً أن يؤدي تغير العلائق السياسية إلى تغير الأدوات السياسية. فبعد أن كان الليبراليون العرب ملتحمين التحاماً تنظيمياً كاملاً مع الليبراليين الأتراك في التنظيمات العثمانية المعارضة المعروفة، بدأوا منذ العام ١٩٠٩ بالابتعاد عن تلك التنظيمات ذات القيادة التركية الغالبة ليؤسسوا تنظيمات سياسية عربية خاصة بهم. وقد تراوحت مطالب هذه التنظيمات ما بين قلة تنادي بالانفصال والاستقلال الناجزين، وقلة تدعو إلى ما يشبه

---

(٥٢) المعلومات حول أعلام وطروحات ومواقف وامتدادات ونتائج «النهضة الفكرية والثقافية العربية» وردت في: جيفرز، المصدر نفسه، ص ٦٥؛ حتي، المصدر نفسه، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ و٢٠٧؛ نبيه عاقل، «تطور الأمة العربية ونظم الحكم الإدارية والسياسية،» في: **دراسات في المجتمع المدني**، مجموعة مؤلفين، ص ١١٣؛ توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام**، ص ١٥٣ ـ ١٥٥؛ حاطوم، المصدر نفسه، ص ١٤ و١٦؛ قنيبر، **الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر: عبد العزيز جاويش، ١٨٧٢ ـ ١٩٢٩**، ص ٤٤ ـ ٦٤، وحوراني، المصدر نفسه، ص ٩١ ـ ١٠٣، ١٠٩ ـ ١٤٣، ١٦٧ ـ ١٩٧ و٣٥٧ ـ ٣٦١.

الاستقلال السياسي الكامل ضمن السيادة العثمانية، وأغلبية تسعى إلى استقلال إداري ضمن صيغة اللامركزية العثمانية(٥٣). ولم يكن هذا التحول السياسي والتنظيمي الواسع مجرد صدفة تاريخية. ذلك أنه كان نتاجاً مفهوماً لمجموعة ظروف وعوامل، بعضها خارجي أو داخلي، وبعضها تاريخي أو حديث، وبعضها موضوعي أو ذاتي، وبعضها مباشر. ولعل من أبرز هذه الظروف والعوامل:

أولاً: التحول النوعي الهائل في الصراع الدولي بين دول أوروبا وانعكاس ذلك انعكاساً كاملاً على جوهر «المسألة الشرقية». فمع وقوع انقلاب ١٩٠٨، كانت صيغة الوفاق الدولي، وفقاً لقواعد «مؤتمر برلين» للعام ١٨٧٨، قد تآكلت وبدأت الدول الأوروبية تتحرك ـ تحت وطأة التناقضات الحادة داخل المعسكر الرأسمالي الاستعماري الغربي ـ باتجاه صيغة المحاور المتجابهة. وقد انتهى هذا التحول بانفجار الحرب الكونية الأولى التي اشتركت فيها الامبراطورية العثمانية ضمن معسكر المانيا القيصرية(٥٤).

ثانياً: شحذ ذاك التحول الهام في العلاقات الدولية، علاوة على الانحطاط والضعف التاريخي والانقسام والتصارع الداخلي القائم عندئذ في الامبراطورية العثمانية، شهية الدول والحركات القومية الانفصالية (أو الاستقلالية) الأوروبية لالتهام وجبة جديدة من السيادة والممتلكات «العثمانية» في أوروبا وافريقيا. وبذلك وجدت السلطة العثمانية الجديدة نفسها تخوض غمار معارك وحروب منذ انقلابها الأول وحتى سقوطها نهاية الحرب الكونية الأولى(٥٥).

---

(٥٣) حول المراحل المختلفة التي مرت فيها العلاقات العربية ـ التركية في الفترة ما بين الانقلاب الأول عام ١٩٠٨ وعشية الانقلاب الثالث في العام ١٩١٣، وما رافق ذلك من نشوء الأحزاب العربية، انظر: اميل توما، **ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية**، ط ٢ (بيروت: دار ابن رشد؛ منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الاعلام والثقافة، ١٩٧٨)، ص ١٧ ـ ١٨؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٣٤، ٣١٤ و٣٣٤ ـ ٣٣٧؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٤٦ و٢٠٨ ـ ٢٠٩؛ جيفرز، المصدر نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٨، ٩١ ـ ٩٢ و٩٨ ـ ٩٩؛ أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ص ٣٣ ـ ٣٥؛ عطية، العرب، ص ١١٠ ـ ١١١؛ اسماعيل الخطيب الطوباسي، **كفاح الشعب الفلسطيني، ١٩٠٨ ـ ١٩٦٥** (عمان: اللجنة العامة لموسوعة أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ١٩٧٧)، ص ١٢؛ توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام**، ص ١٥٧، وحاطوم، المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٩.

(٥٤) حول تغير المناخ الدولي في عهد «الاتحاديين» والسير على الطريق المؤدية إلى الاقتتال الأوروبي في الحرب الكونية الأولى، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥، وقنيير، المصدر نفسه، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٥٥) حول تحركات القوى القومية الانفصالية في أوروبا في عهد «الاتحاديين» ودعم الدول الأوروبية لهم، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ٤٥، وأمين سعيد، **أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٥)، ص ٣٠.

ثالثاً: تراكمت، في ظل المراحل المبكرة لهذه الظروف الصعبة، وربما نتيجة لها ولكن ليس بسببها وحدها، التوجهات والممارسات السلبية والمعادية للعرب من قبل السلطة العثمانية الجديدة. فالانقسامات الايديولوجية والسياسية والتنظيمية الحادة في صفوف الليبراليين الأتراك أنفسهم، وارتباط قياداتهم الوثيق بالماسونية وبالطوائف اليهودية المتأسلمة، والتسرع الشديد من قبل تيارهم الأساسي في حقن المجتمع بإصلاحات جذرية واسعة غربية المحتوى ومتحدية للمشاعر الإسلامية، والممارسات العملية الاحتكارية ذات المضمون الشوفيني التركي لدى تيارهم الأساسي، ومعاداة ذلك التيار للعرب وعزلهم، وممالأته للصهيونية وأطماعها في فلسطين، كل ذلك أدى إلى تنفير العرب وطلائعهم الليبرالية الوطنية طوال الفترة الماضية وحتى وقوع الانقلاب الثالث في مطلع ١٩١٣[٥٦]. وحتى هذه النقطة الزمنية، بل وإلى ما بعد المؤتمر العربي الأول في باريس في منتصف العام ١٩١٣، بقي التيار العروبي الوطني المتنامي، ومعه غالبية العرب الساحقة، متمسكين بإطار الدولة العثمانية[٥٧].

رابعاً: تنامت في هذه الأثناء قوة التيار الوطني العروبي مع نمو الطبقة الوسطى حديثة التشكل. وكان هذا التطور نتيجة طبيعية لتراكم التحويلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدها المجتمع العثماني في القرن التاسع عشر وبالذات في بلاد الشام. فمع السنوات الأخيرة من عهد عبد الحميد تبلورت نتائج التحديث السابق (تفسخ الاقطاع

---

(٥٦) في ما يتعلق بتراكم عوامل تنفير العرب من «الاتحاديين» في الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩١٣، انظر: توما، **ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية**، ص ١٥؛ أمين، **الأمة العربية: القومية والصراع الطبقي**، ص ٦٨؛ بيرجر، **العالم العربي اليوم**، ص ٢٧٥؛ حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩**، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦؛ جيفرز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، ص ٦٥ ـ ٦٦؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٤٦ ـ ٤٧؛ سعيد، المصدر نفسه، ص ٢٨؛ خيرية قاسمية، معد، عوني عبد الهادي: **أوراق خاصة**، كتب فلسطينية؛ ٥٤ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٤)، ص ٩ ـ ١٠، وهرتز، **القومية في التاريخ والسياسة**، ص ١٦٧.

(٥٧) حول تمسك التنظيمات العربية والعرب اجمالاً بالإطار العثماني طوال المراحل الأولى من حكم الاتحاديين، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ٢٠٨؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٩ و٣٦٢؛ حاطوم، **محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية**، ص ١٧ ـ ١٩؛ جيفرز، المصدر نفسه، ص ٦٩، ٩١، ٩٥ و١٨٦، وقنيبر، **الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر: عبد العزيز جاويش، ١٨٧٢ ـ ١٩٢٩**، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧.

غير أن الحديث عن التأييد العربي العام، لا يعني أن بعض الأفراد والتنظيمات لم يكن لديهم مواقف استقلالية في هذه الفترة. حول ذلك، انظر: حوراني، المصدر نفسه، ص ٣١٦، ٣٢٨ ـ ٣٢٩ و٣٤٠ ـ ٣٤٢؛ أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ص ٣٤؛ جيفرز، المصدر نفسه، ص ٦٧، ٩١ ـ ٩٢ و٩٧؛ الطوباسي، **كفاح الشعب الفلسطيني، ١٩٠٨ ـ ١٩٦٥**، ص ١٢؛ حتي، المصدر نفسه، ص ٢٠٨؛ عطية، **العرب**، ص ١١١، وتوما، **ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية**، ص ١٧ ـ ١٨.

وازدهار التجارة، تعليم عثماني وتبشيري عصري، تحديث عسكري، بعثات دراسية لدول أوروبية، طباعة ونشر عصريان) فوسعت قواعد الطبقة الوسطى العربية في بلاد الشام. ومع تفاعل الارهاصات العربية الوطنية القديمة والارهاصات القومية الأوروبية مع الطموحات الاقتصادية والقومية للطبقة الجديدة الصاعدة (وبعض طبقة الأعيان والوجهاء أيضاً) ازداد تسيس المجتمع العربي في سوريا الطبيعية. كما أن مناخ الحرية السياسية (والانفلات السياسي لاحقاً) الذي أعقب عودة الحياة الدستورية والنيابية في العام ١٩٠٨ منح التسيس العربي زخماً جديداً[٥٨]. ورغم ذلك، لم يتبلور هذا التسيس في تنظيمات عربية (مدنية وعسكرية) إلا نتيجة الأوضاع والتوجهات والممارسات السلبية المعادية للعرب في ظل نظام «جمعية الاتحاد والترقي» ذات القيادة التركية الغالبة[٥٩].

بقيت هذه التنظيمات العربية عثمانية في ولائها وتوجهها حتى اللحظة التي تحول فيها مضمون وممارسات الامبراطورية من دول عثمانية إسلامية موحدة إلى دولة تركية غير إسلامية محتلة. وعندئذ، فقط، تحول الانفصال القائم بين القوى الليبرالية والوطنية العربية وبين القوى الليبرالية الوطنية التركية، إلى طلاق كامل. وفي هذا المجال، كان الانقلاب الثالث الذي قاده التيار التركي المتشدد داخل «جمعية الاتحاد والترقي» في العام ١٩١٣ نقطة تحول حاسمة في العلاقات التركية ـ العربية، فمنذئذ استفرد «الاتحاديون» المتصلبون بالسلطة ثم انقلبوا، فكراً وممارسة، على صيغة «الجامعة العثمانية الإسلامية» لصالح صيغة «الجامعة الطورانية» الرامية إلى قصر توثيق الروابط «على الشعوب الناطقة بالتركية والمتمتعة بروح وطنية تركية صافية». بل إنهم أصروا على إخضاع الشعوب «العثمانية» الأخرى لهم. وبذلك، تخلى الأتراك الليبراليون السابقون عن ليبراليتهم مثلما تخلوا عن العباءة الإسلامية التي طالما ألقوها على أكتاف حركتهم وامبراطوريتهم. ولم يتوقف ليبراليو وإسلاميو الأمس عند ذلك الحد. فهم ما لبثوا أن ساروا في دهاليز الشوفينية وأصروا، بأساليب فجة، على تتريك الشعوب الأخرى. ثم سرعان ما لجأت قوى «الاستعمار الثقافي» تلك إلى التصرف في بلاد الشام الحجاز بأساليب قوى الاحتلال: حكم بوليسي وعسكري قمعي لم يتورع عن استخدام أسلحة المصادرة والنهب والترحيل والتشريد إزاء الرعايا بشكل عام، وأسلحة الاعتقال والنفي والاعدام لأحرارهم في العامين ١٩١٥ و١٩١٦ بشكل خاص. وعندئذ، تحولت المشانق التي نصبها الحاكم التركي جمال باشا وأزهق على أعوادها أرواح مجموعة من أحرار العروبة في دمشق وبيروت إلى مشانق

(٥٨) حول العوامل المبكرة واللاحقة في تسييس العرب العثمانيين مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ و٢٠٥ ـ ٢٠٧؛ توما، **الحركات الاجتماعية في الإسلام**، ص ١٧٦ ـ ١٧٨؛ حوراني، المصدر نفسه، ص ٣٣٤؛ حاطوم، المصدر نفسه، ص ٩ ـ ١٤؛ الطوباسي، المصدر نفسه، ص ١١؛ أمين، **الأمة العربية: القومية والصراع الطبقي**، ص ٥٤ ـ ٥٥، وعطية، المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ١٠٩.

(٥٩) حول ذلك، انظر مصادر الهامشين رقمي (٥٣) و(٥٦).

أزهقت عملياً روح الامبراطورية العثمانية في البلاد العربية[٦٠]. وهكذا، وبعد تأخير كثير، تحولت الدعوة العربية الوطنية والقومية إلى حركة تطالب بالاستقلال الناجز والانفصال عن الامبراطورية بعد تردد طويل حسمه شريف مكة في مطلع حزيران/ يونيو ١٩١٦. ففي ذلك الشهر، غامر الشريف وأعلن «الثورة العربية» على الحكم التركي والانضمام إلى معسكر الحلفاء. وما كان بإمكان شريف مكة الاقدام على ذلك لولا التشجيع والتعضيد الذي لقيه من القيادات الوطنية والقومية السورية والعراقية التي ما إن خاب أملها في ليبرالية «الاتحاديين» حتى تحولت عن المناداة باللامركزية الإدارية إلى المناداة بالانفصال والاستقلال. وشريف مكة لم يغامر تلك المغامرة مع الحلفاء إلا بعد أن استكمل محادثاته معهم وحصل من بريطانيا على وعود صريحة بدعم استقلال العرب وضمان سيادتهم على أراضيهم[٦١].

وفي ما عدا هذه الحقائق عن الظروف المؤدية إلى إعلان «الثورة العربية» والانحياز إلى معسكر الحلفاء، ثمة حقيقتان لا بد من تثبيتهما:

أولاً: تمسكت نسبة هامة من مفكري العرب وسياسييهم وعسكرييهم الوطنيين، ناهيك عن قطاعات واسعة من الجماهير العربية، بولائها للدولة العثمانية، وقاتلوا ضمن صفوفها، وساهموا في دعم مجهودها الحربي، أو هم استنكفوا عن حمل السلاح ضدها. وكان كل ذلك رغم معاناتهم الشديدة في ظل تلك الدولة وبالذات بعد العام ١٩٠٨[٦٢].

ثانياً: لقد كان المجهود الحربي للثورة العربية ـ رغم مبالغة التصريحات اللاحقة[٦٣] ـ جهداً متواضعاً بالمقاييس المطلقة. بل إن مجهود «الثورة الوهابية» وغيرها من

---

(٦٠) حول التطورات التي أدت إلى الطلاق العربي ـ التركي في الفترة ما بين ١٩١٣ ـ ١٩١٦، انظر: حتي، المصدر نفسه، ص ١٨٦ ـ ١٩٥؛ حاطوم، المصدر نفسه، ص ٢١؛ بيرجر، **العالم العربي اليوم**، ص ٢٧٥؛ أبو يصير، المصدر نفسه، ص ٣٧ ـ ٣٩ و٤١ ـ ٤٤؛ الطوباسي، المصدر نفسه، ص ١٣، وأمين سعيد، **ثورات العرب في القرن العشرين** (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦١)، ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٦١) حول مقدمات وظروف الإعلان عن «الثورة العربية» في الحجاز وعلاقاتها سواء مع الوطنيين في سوريا والعراق أو مع دول الحلفاء، انظر: جيفرز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، ص ١٠٢ ـ ١١٥، ١١٧ ـ ١٥٠ و١٩١؛ أبو يصير، المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٥٦؛ الطوباسي، المصدر نفسه، ص ١٣ ـ ١٤؛ عطية، المصدر نفسه، ص ١١٤ ـ ١١٨؛ سعيد، **أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين**، ص ٣٤ ـ ١٣٠؛ حتي، المصدر نفسه، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ و٢٠٩؛ حاطوم، المصدر نفسه، ص ٢١، وأمين، المصدر نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٦٢) حول تمسك قادة ومفكرين وسياسيين وعسكريين وجماهير عربية بالدولة العثمانية ومساعدتها في الحرب الكونية الأولى، انظر: حاطوم، المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢١؛ حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩**، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤؛ عطية، المصدر نفسه، ص ١١٦؛ سعيد، المصدر نفسه، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ و٢٦٤، وقنيبر، **الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب العربي المعاصر: عبد العزيز جاويش، ١٨٧٢ ـ ١٩٢٩**، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٦٣) حول التقويمات البريطانية المجاملة للمجهود الحربي الخاص بالثورة العربية، انظر: جيفرز، المصدر نفسه، ص ١٨٥؛ عطية، المصدر نفسه، ص ١١٨، وسعيد، المصدر نفسه، ص ٢٩١ ـ ٣٠٦.

الانتفاضات (أو التمردات) العديدة التي شهدتها الامبراطورية وقضت عليها كان أشد خطراً على الهيبة المعنوية والكيان المادي للامبراطورية من «الثورة العربية». ثم إن المجهود الحربي لهذه «الثورة» التي انهزمت سريعاً على أيدي إمارة آل سعود المجاورة كان هامشياً للغاية قياساً بجهود القوى المشاركة في الحرب العالمية الأولى[٦٤]. وذلك المجهود يغدو، بالتالي، غير ذي أهمية في تقرير النتيجة النهائية للحرب الكونية الأولى التي حسمت هزيمة كل من ألمانيا القيصرية والامبراطورية العثمانية. وإذا كانت ألمانيا القيصرية الفتية انهزمت وهي في أوج قوتها داخلياً وخارجياً، فإن من باب أولى توقع هزيمة الامبراطورية العثمانية الهرمة التي كانت في حضيض قوتها داخلياً وخارجياً. وعليه، فإن ثقل عامل الحركة القومية العربية ـ بقواها المسلمة والمسيحية الناشئة، وبحركيتها الثقيلة والمترددة[٦٥] وبانقسامها على نفسها إزاء الحرب، وبوضعها المسحوق عندئذ بمعاول التعسف التركي ـ ما كان ليقدم أو يؤخر في سقوط الامبراطورية العثمانية. فهذه الأخيرة كانت بحكم الساقطة «موضوعياً»[٦٦] تحت وطأة مجموعة عوامل الانحطاط الداخلي والخارجي التي أدت، منذ وفاة السلطان «سليمان العظيم»، إلى انهاك وتفسخ وانهيار واندثار الامبراطورية العثمانية.

وطالما أن الوقائع الواردة في هذه الدراسة وقائع ثابتة وصحيحة، فإن النتيجة الرئيسية لذلك يجب أن تكون واضحة. ففي ضوء كون تفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية عائداً إلى مجموعة عوامل متعددة غير عربية متعلقة ببنيتها الداخلية ومتعلقة كذلك ببيئتها الخارجية المعادية والحاسمة، يغدو الحديث عن الدور العربي في سقوط الدولة العثمانية، بل وقصر الحديث على ذلك الدور كعامل وحيد (أحياناً) في بلورة نهاية تلك الدولة، حديثاً مبالغاً فيه إلى حدود قصوى، وتعسفياً يفتقر إلى الأسانيد. ذلك أن إلغاء العوامل الجوهرية (والفرعية أيضاً) لصالح إبراز عامل القومية العربية الذي لم يكن له، في المحصلة، سوى أثر ثانوي على سقوط الامبراطورية، يجعل من هذه العملية محاولة غير منزهة عن الهوى السياسي، ومحشوة بالاعتبارات الذاتية غير الموضوعية، ومتجنية على العرب وعلى ظروف ظهور حركتهم القومية.

---

(٦٤) حول القوة والفاعلية الحقيقية للثورة العربية، انظر: حاطوم، المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ١٦ و٢٢؛ جيفرز، المصدر نفسه، ص ١٩٨؛ الطورباسي، المصدر نفسه، ص ١٤؛ عطية، المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧، وسعيد، المصدر نفسه، ص ٧ و١٣.

(٦٥) وصف الحركة القومية العربية على أنها «ثقيلة الحركة، مترددة ومشعبة» ورد في: حاطوم، المصدر نفسه، ص ٨. وحول عوامل ضعفها وإنهاكها، انظر: عطية، المصدر نفسه، ص ١١٨.

(٦٦) حسب تعبير وميض عمر نظمي، في: **القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية**، ص ٦٤.

نظرية الأمن القومي العربي(*)

جهاد عودة

ملخص

تهدف هذه المراجعة إلى توضيح المعالم النظرية والقضايا البحثية للجهد العربي في مجال بحث «الأمن القومي العربي». والفرضية الأساسية في استقراء هذه المعالم، أن هذا الجهد يتغافل عن فكرة «أمن المجتمع» ويركز على فكرة «أمن الدولة»، ولكن ذلك لا يعني القول بأن هذا الجهد يفهم أمن الدولة بمعزل عن الاعتبارات المجتمعية. فالجهد العربي البحثي يركز على تفاعل العوامل المجتمعية مع العوامل العسكرية ـ التكنولوجية كأساس لفهم الأمن القومي العربي، ولكنه حتى بذلك لا يقترب إلا قليلاً من مفهوم «أمن المجتمع» كفكرة مخالفة عن مفهوم «أمن الدولة». كما تحاول هذه المراجعة طرح تصور حول كيفية تحويل مفهوم «أمن المجتمع» إلى تصميم بحثي لقضايا الأمن القومي العربي.

تعتبر دراسة الأمن القومي العربي من المجالات الحديثة نسبياً للاهتمام الأكاديمي العربي، وترجع هذه الحداثة إلى مجموعتين من العوامل، **أولاهما**، انحسار حركة القومية العربية بالمعنى السياسي، ذلك التيار الهادف إلى تحقيق الوحدة العربية، **وثانيهما**، ترسيخ الخبرة العربية اليومية، بأن الحفاظ على الاستقلال الوطني يتطلب أكثر من إعداد جيش

(*) نشر في: **المستقبل العربي**، السنة ٨، العدد ٧٨ (آب/اغسطس ١٩٨٥)، ص ١٥٨ ـ ١٦٦.

يشكر الكاتب علي الدين هلال لقراءة النسخة الأولى من هذه المراجعة وإبداء ملاحظات عليها. وتتضمن هذه المراجعة أربعة كتب هي: سمير خيري، **نظرية الأمن القومي العربي** (بغداد: دار القادسية للطباعة، ١٩٨٣)؛ حامد ربيع، **نظرية الأمن القومي العربي والتطور المعاصر للتعامل في منطقة الشرق الأوسط** (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٤)؛ Abdul Monem M. Al-Mashat, *National Security in the Third World* (Boulder, Colo.: Westview Press, 1984), and

أمين هويدي، **الأمن العربي المستباح** (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٢).

قوي. فالمجموعة الأولى من العوامل ساهمت في تغيير اهتمامات البحث العلمي من كيفية تحقيق الوحدة العربية إلى كيفية العمل على إيقاف التمزق العربي، والمجموعة الثانية، أكدت أهمية العوامل غير العسكرية في الحفاظ على الاستقلال.

وتعتبر دراسة اللواء عدلي حسن سعيد عن **الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه**[1] من أولى الدراسات في هذا المجال. ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول في الدراسات العربية للأمن القومي العربي، وذلك يرجع إلى الأسباب التالية:

١ ـ كون مؤلفه عسكرياً ويعترف بأهمية العوامل غير العسكرية في تحقيق الأمن، أعطى شرعية منهجية ونظرية للباحثين العرب للنظر بجميع عناصر القوة سواء العسكرية منها أو المجتمعية على أنها كلٌّ مترابط، وأن تغيراً في أحد العناصر يؤثر على علاقات هذه العناصر بعضها مع بعض وبالتالي على الناتج وهو المفترض أن يكون الأمن.

٢ ـ كون مؤلفه عسكرياً ويرى إمكانية تحقيق أمن لأمة تتنازعها إرادات سياسية متعددة ولا تتمتع بدولة واحدة، وبالتالي تخلو من جيش موحد، أضفى على المفهوم بعداً سياسياً مهماً، بمعنى أن الأمن لا يصبح مجرد مسألة عسكرية فقط، بل أصبح عملية سياسية، الغرض منها تدعيم العناصر المشتركة بين تلك الإرادات السياسية المتعددة وتجنب الآثار السلبية لصراع تلك الإرادات.

٣ ـ تقرير أهمية البعد الموضوعي للأمن، وذلك بالتأكيد على «أن ضمان الأمن القومي العربي إنما يخضع لعدة عوامل تؤثر عليه من داخل أمنه العربي وعوامل أخرى تفرضها الظروف الخارجية والملابسات المحيطة بكل قطر أو شعب عربي، ثم بأمة العرب ككل»[2]، وهذا التقرير يعطي شرعية منهجية للجمع بين المتغيرات الداخلية والمتغيرات الخارجية في عملية تحليلية واحدة، كما يلفت النظر إلى أهمية تعدد مستويات الأمن: الدولة، الشعب، الأمة، في بناء مفهوم نظري للأمن القومي العربي.

وهذا الكتاب، وإن كان فاتحاً لميدان جديد من التفكير العربي عن قضايا الأمن إلا أنه شابَهُ بعض المحدودية النظرية والتي ظلت تظهر في أغلب الكتابات العربية بعد ذلك عن الأمن القومي العربي، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

أولاً: يعتبر مفهوم الدولة مفهوماً محورياً في التنظير عن الأمن القومي العربي. فاللواء عدلي سعيد يعترف بأن «الأهداف القومية للأمة العربية هي محصلة الأهداف الوطنية المشتركة لمجموعة الدول العربية والتي بتحقيقها تتحقق الاستراتيجية العربية بمضمونها العام»[3]، فكأنه يقول بأن الأمن القومي العربي ليس له هوية مستقلة عن

---

(١) عدلي حسن سعيد، **الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧).

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

هويات التصورات القطرية المختلفة لأمنها الوطني، بمعنى آخر، انه فصل تحليلياً بين مستوى الأمن الوطني للأقطار العربية ومستوى الأمن القومي العربي: فهما في نظره واقع واحد ولكن يمكن فهمه باعتبارهما منفصلين نظرياً وتحليلياً، والنتيجة المترتبة على ذلك هي اعتبار الأمن القومي العربي أمن مجموعة الأقطار العربية. فيقول على سبيل المثال: «والتعليم باعتباره عنصراً من العناصر التي تؤثر على مستوى قدرات الشعب الاجتماعية والفكرية يجب أن يلبي مطالب الدولة من الكفايات البشرية اللازمة لتحقيق أهدافها القومية. هنا تظهر لنا الحاجة إلى توجيه التعليم ومحاولة توحيده في الدول العربية بما يخدم المصالح المشتركة للأمة العربية مجتمعة، بمعنى أن يكون تعليم الفرد في مجموعة الدول العربية يتمشى مع أهدافها العامة فيتوحد المفهوم العلمي والقدرات والدرجات العلمية حتى يمكن الاستفادة من ذوي المؤهلات العلمية على امتداد الوطن العربي»(٤).

ثانياً: يعتبر مفهوم المجتمع كمصدر للموارد مفهوماً أساسياً للتنظير عن الأمن القومي العربي. ويتضمن ذلك الموارد الاقتصادية، كالمواد الأولية والموارد السياسية كالوحدة الايديولوجية، والموارد الاجتماعية كالتماسك الاجتماعي. بهذا المفهوم، فاللواء عدلي يرى فكرة الصراع الاجتماعي كفكرة مضادة في الأساس لفكرة الأمن، ويرى أهمية أولوية الدولة على المجتمع، حيث إن المجتمع دائماً يكون مصدر اضطراب وعرقلة للدولة في سعيها لتحقيق الأمن، فيقول على سبيل المثال: «وجملة القول، أن شعوب المنطقة العربية باختلاف نظمها الحالية، وتعدد طبقاتها وتخلفها العلمي والتكنولوجي تعتبر ميداناً فسيحاً لمختلف التيارات والمناورات السياسية التي تعتمد أساساً على الظروف والملابسات الاجتماعية لشعوب الأمة العربية لتتغلغل في نفوس الأفراد، مما يؤدي إلى قيام الصراعات الداخلية أو الطائفية وانعدام الاستقرار الداخلي بها. إن الأمن والاستقرار الداخلي في الدول العربية، بل في الأمة العربية برمتها يعتبر من الأهمية بمكان بالنسبة للأمن القومي بصفة عامة واستقرار شعوبها بصفة خاصة إذ كلنا يعلم أن استقرار الحالة الداخلية في الدولة لفترات طويلة يعطي الفرصة للمسؤولين فيها لتنفيذ استراتيجياتهم الوطنية في جميع المجالات، وبالتالي تحقيق أهدافهم القومية وفقاً لتخطيط طويل مستقر. وإن أي قلاقل أو صراعات داخلية إنما تعمل على هدم هذه الاستراتيجيات وعرقلة خطوات التقدم والازدهار»(٥). بهذه الوضعية يتم تعريف الأمن من خلال أجهزة الدولة، وأن يفهم المجتمع كفئة تحليل هامشية، أي أن عملية الأمن هي عملية تتعلق في المقام الأول بقدرات الدولة، وليست عملية اجتماعية تتعلق بقدرات الأفراد والجماعات والتكوينات المجتمعية.

وفي هذه المراجعة النظرية، سنحاول أن نقدّر إلى أي مدى تم تخطي هذه المحدودية

---

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٨ و٢٢٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨ ـ ٣٨.

النظرية: أولوية مفهوم «الدولة» وهامشية مفهوم «المجتمع» من ناحية، وعدم الفصل الوضعي بين الأمن الوطني للبلدان العربية، من ناحية أخرى.

وهذه المراجعة سوف تنقسم إلى قسمين، أولهما يتعلق بفحص المجهودات العربية الأكاديمية خلال الثمانينيات والمتمثلة، على سبيل المثال في تلك الكتب الأربعة التي تحت المراجعة. وثانيهما يتعلق ببناء نموذج للأمن كعملية اجتماعية.

أولاً: خطوات إلى الأمام، ولكن...

تتمثل هذه الخطوات إلى الأمام في كتاب د. عبد المنعم المشاط أكثر من كتاب أمين هويدي، وذلك بشأن نقد أولوية مفهوم الدولة واستعادة الأولوية لمفهوم المجتمع، من ناحية، وفي كتاب د. حامد ربيع، أكثر من كتاب د، سمير خيري وذلك بشأن الفصل الوضعي بين أمن الأقطار العربية والأمن القومي العربي، من ناحية أخرى.

فالأمن بالنسبة إلى أمين هويدي هو «أمن الأرض وما عليها، ومن عليها، وما في باطنها»[٦]، إن هذا التوضيح لأبعاد الأمن، لهو توضيح مهم، يمثل خطوة إلى الأمام عن مقولات اللواء عدلي سعيد، وذلك من حيث عدم اقتصار الأمن على أنماط تفاعل بين متغيرات داخلية وخارجية، بل أيضاً يمتد نطاقه ليشمل الأرض، الدولة، المجتمع، الثروة، من ناحية، ومن حيث التأكيد على أن الأمن كما يتعلق بإرادات الدول في مواجهة بعضها البعض، فهو يتعلق أيضاً بأنماط الإنتاج والسيطرة في المجتمعات في مواجهة بعضها البعض، من ناحية أخرى.

ولكن هذه الخطوة إلى الأمام فقدت فاعليتها في الوصول إلى إعادة الأولوية لمفهوم «المجتمع» أو على الأقل إقامة توازن بين مفهومي الدولة والمجتمع، وذلك لأن الأستاذ أمين هويدي ظل يصرّ في كتابه على استخدام مداخل ومفاهيم تقليدية لمسألة الأمن، كأن يسأل مثلاً، أمن مَن؟ وبِمَن؟ وضد مَن؟ وهذه الأسئلة الثلاثة وإن كانت تبدو للوهلة الأولى أسئلة منطقية، إلا أنها لا تخدم إلا منطق مفهوم الدولة وليس منطق مفهوم المجتمع. فمنطق مفهوم المجتمع لا يسأل أمن من؟ وذلك لأنه بحكم التعريف أمن المجتمع من حيث عملياته الأساسية التي تضفي على المجتمع صفة المجتمعية. فأمن من؟ يفترض العداء ويفترض المصلحة قبل افتراضه التضامن والعدالة. فأمن المجتمع لا يفترض عدواً لكي يسأل عنه؟ بل يفترض ظروفاً ومواقف غير مواتية وبالتالي يجب أن نسأل عنها بماذا؟

ومن هنا تأتي أهمية كتاب د. عبد المنعم المشاط[٧] عن الأمن في العالم الثالث، حيث يحدد منذ البداية معضلة الأمن في العالم الثالث (والوطن العربي منها) بما يلي:

---

(٦) هويدي، الأمن العربي المستباح، ص ٦٢.

(٧) Abdul Monem M. Al-Mashat, «Considerations in the Analysis of National Security in the Third World,» (Doctoral Dissertation, University of North Carolina, Chapel Hill, 1982).

«ندرة الموارد، الفقر، الحاجة للتحديث وبناء المؤسسات، المطالبة بالمشاركة السياسية، توقع الاحترام الإنساني والكرامة الشخصية والحاجة إلى التعاون الدولي، وذلك إلى جانب التورط في صراعات داخلية وإقليمية ودولية، كلها تشكّل بعض جوانب معضلة الأمن للمجتمعات النامية»(٨). بمعنى آخر، إن معضلة الأمن في العالم الثالث تتمثل في كيفية تحقيق الاستقلال والسيادة من خلال ديناميكيات المجتمع. كيف يكون الأمن إفرازاً اجتماعياً، وليس اقتطاعاً من الساحة الدولية؟ ذلك هو السؤال.

وهذه الوضعية للمسألة تشكل خطوة هائلة إلى الأمام، وذلك من حيث إن د. المشاط يربط بين التماسك الداخلي والتعاون الدولي ربطاً ايجابياً كأساس من أسس الأمن في العالم الثالث، وهو في هذا المجال يقدم ثلاثة تأكيدات مهمة:

«١ ـ تعتبر فرص التماسك الداخلي في المجتمع المتدرج (Hierarchical) من خلال الوسائل الديمقراطية فرصاً محدودة جداً. وبالتالي فالنخبة الحاكمة تلجأ في الغالب إلى جهاز الدولة القمعي من أجل تحقيق هذا التماسك... وهذا النوع من الموافقة (Consensus)... هو أساس الحفاظ على الدولة»(٩).

«٢ ـ إن الموافقة الداخلية مرتبطة بمفهومين آخرين وهما الشرعية والولاء. فالحكومة الشرعية هي التي تستطيع توليد الرضا والتأييد. ومن أجل أن تكون الحكومة شرعية وقادرة على الحفاظ على ذلك، فلا بد من أن تنهج سياسات تشبع الحاجات والطموحات الاجتماعية والسياسية لمواطنيها... (علماً بأن) درجة إشباع الطموحات تحدد ــ ضمن عوامل أخرى ــ التوجهات الاجتماعية العدوانية (للأفراد)»(١٠).

«٣ ـ هناك فرق واضح بين التماسك والاحتواء فالعملية الأولى تعتمد على شرعية الحكومة وقدرتها على خلق ظروف مواتية للتماسك، بينما العملية الثانية لا تحتاج بالضرورة لهذه الشروط. فالاحتواء، بصفة رئيسية، هو عملية تجنيد الفئة الأكثر نشاطاً من الناحية السياسية في المجتمع وبصفة خاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة والمتوسطة العليا»(١١).

وبهذه التأكيدات الثلاثة يحول د. المشاط التركيز من على أولوية الدولة إلى التوازن بين مفهومي الدولة والمجتمع. وهذا التوازن بين المفهومين، يجد مصدره المحرك في العمل على خلق حالة من الاحساس الجماعي (We Feeling) القائم على إشباع الحاجات للأفراد في مقابل ولائهم وطاعتهم للدولة، والذي بالتالي يعطيها قدرة أعلى على الحركة.

---

(٨) المصدر نفسه، ص ١.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(١١) المصدر نفسه، ص ٦١.

ومن الواضح إلى أي مدى تعتبر خطوة د. المشاط خطوة كبيرة إلى الأمام، ولكنها لا تحل مشكلة عدم وجود دولة للمجتمع العربي، وبهذا يظل اسهامها النظري في نطاق الأمن الوطني دون الأمن القومي[١٢]، وهذا لأن القول بمقولة التوازن هو في النهاية مقولة تعتمد على مفهوم الدولة بشكل رئيسي، وإن لم يكن أولياً.

أما بالنسبة للفصل الوضعي بين أمن البلدان العربية والأمن القومي العربي والذي هو بمعنى من المعاني، امتداد للخلاف حول العلاقة بين مفهوم الدولة ومفهوم المجتمع، فالدكتور حامد ربيع يأخذنا إلى الأمام أكثر مما يأخذنا د. سمير خيري.

فالدكتور سمير خيري يعرّف الأمن القومي العربي بأنه «تصور استراتيجي ينبع من متطلبات حماية المصالح الحيوية الأساسية لأي شعب، بحيث يطرح في جوانبه المختلفة عناصر الحماية المركزية للمصالح الحيوية ويقدم الاجابات النابعة من التصورات المستمدة من التاريخ والجغرافية لكل المعضلات التي تواجه الوجود الحي لأية أمة من الأمم. وفي هذا الصدد، فإن نظرية الأمن القومي في هذا الاتجاه تبلور المعنى التاريخي للوجود القومي وتوضح حدود المجال الحيوي لحياة الشعب وتعكس عناصره قوة الشعب وإمكانات المواجهة العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية في وقت السلم أو في وقت الحرب، سواء في حالة المواجهة أو في حالة قيام احتمالات المواجهة»[١٣]. هذا التعريف يمكن اعتباره تعريفاً تاريخياً، بمعنى أنه يركز على الطبيعة التاريخية للشعب بدون تركيزه على محدداته الاجتماعية. فالأمن هنا لا يتسق منطقياً قدرة هذا الشعب على اختيار التغير الاجتماعي بل يتسق مع طبيعته المفترضة سواء التاريخية منها أو الجغرافية، وهو في هذا يقرّب إلى أفكار ليوبولد رانكه (Leopold Von Ranke) والمفهوم الألماني للتاريخ[١٤]،

---

(١٢) انظر أيضاً: عبد المنعم المشاط، «نحو صياغة عربية لنظرية الأمن القومي،» **المستقبل العربي**، السنة ٦، العدد ٥٤ (آب/اغسطس ١٩٨٣)، ص ٤ - ٢١، و«ملف الأمن القومي العربي،» **شؤون عربية**، العدد ٣٥ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٤)، ص ٦ - ١٥٤. وهذا الملف يعبر بصدق عن أولوية مفهوم «الدولة» في دراسات الأمن القومي العربي، وذلك التأكيد على التميز التحليلي بين الأمن الوطني والأمن القومي العربي، دون محاولة إجراء تميز وصفي بينهما. انظر أيضاً في الملف قائمة المراجع عن الأمن القومي العربي في: علي الدين هلال، «الأمن القومي العربي: دراسة في الأصول،» **شؤون عربية**، العدد ٣٥ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٤)، ص ٦ - ٢١. ويجب هنا الاشارة إلى أن محمد مصالحة، في: «مسألة الأمن العربي بين المفاهيم، الواقع، والنصوص،» **شؤون عربية**، العدد ٣٥ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٤)، ص ٢٢ - ٥٦، يشير اشارة عابرة إلى بعد أمن الفرد العربي، كبعد للأمن القومي العربي. ولكن ذلك دون تبني مفهوم أولوية المجتمع. ولتأصيل مفهوم الدولة كأساس للأمن القومي العربي، انظر: جميل مطر وعلي الدين هلال، **النظام الإقليمي العربي: دراسة في العلاقات السياسية العربية**، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣).

(١٣) خيري، **نظرية الأمن القومي العربي**، ص ١٨.

(١٤) انظر: George G. Iggers, *The German Conception of History: The National Tradition of Historical Thought from Herder to the Present* (Middletown, Conn.: Wesleyan University Press, 1983), pp. 63-89.

ووفقاً له فإن الأمة تعبر عن مجموع القيم المستمدة من الماضي والتي بناء عليه، تحدد مجالاً حيوياً لها لتنمو وتتجسد في دولة [ها هو مفهوم الدولة يظهره مرة أخرى]، وذلك دون التركيز على الصفات الاجتماعية الوضعية لهذا الشعب كمحدد لوجوده.

وخطوة د. سمير خيري هي بالتأكيد خطوة للأمام من حيث قدرتها على إجراء فصل وجودي بين الأمة العربية والشعوب العربية ولكن بالتأكيد ليس فصلاً وضعياً (Positivist)[١٥]، نستطيع معه أن نرى علاقات الاتصال والانقطاع بين الأمن القومي العربي والأمن الوطني للأقطار العربية. فأفكار د. سمير خيري، تعكس تماماً إهمال وعدم اعتبار فكرة الوحدة من خلال التعدد والتنوع. وهذه الوجودية التاريخية وإن كانت تقدم فصلاً ما بين هذين النوعين من الأمن، إلا أنها من الناحية الواقعية ترى النوعين في معنى واحد، ويمكن استشفاف ذلك من تأكيده: «ولا شك أن الاعتماد المجرد لأي قطر عربي على الامكانات القطرية الذاتية يتناقض مع حقيقة المفهوم الموحد للأمة والنابع من حتمية الخطر الواحد الذي يهدد الأمن العربي في شكله القطري أو القومي»[١٦].

وفي إطار ذلك، تأتي محاولة د. حامد ربيع، حيث يبني ذلك الفصل على مسلّمة أن «مفهوم الأمن القومي هو أحد مداخل السياسة الخارجية»[١٧]، وهو بهذا يخلص مفهوم الأمن القومي العربي من معانيه الوجودية التاريخية، ويضفي عليه أبعاداً سلوكية محددة.

ومن هذا المنطلق يعرّف د. ربيع الأمن القومي، بأنه «هو البعد الاستراتيجي حيث تتفاعل وتتعانق في توافق منتظم طبيعة الحدود الجغرافية بطبيعة علاقات الجوار... الأمن القومي هو البعد الحالي الدائم الذي لا يجوز للحاكم أن يبعد عناصره عن عينه ولو للحظة واحدة»[١٨]. فهكذا يصبح الأمن القومي العربي سلوكاً يمكن ملاحظته وله فاعلية، وأهم من ذلك يصبح موضوع هذا الأمن هو نطاق التداخل والتماثل بين مصالح الأقطار العربية، ولكن بهذه الوضعية المفهومية يصبح الأمن اقتطاعاً من الساحة الدولية وبالتالي يستمر التركيز على أولية مفهوم الدولة، الأمر الذي يجعل الأمن القومي العربي، بمعنى من المعاني، امتداداً للأمن الوطني للأقطار العربية.

والدكتور ربيع في الحقيقة يذهب إلى أبعد من ذلك، من خلال تقرير أن العلاقة السليمة بين الأمن الوطني لدولة ما والأمن القومي العربي هي علاقة استيعاب بمعنى

---

(١٥) يقصد بالفصل الوجودي بين الأشياء، الفصل في المعنى لهذه الأشياء، وليس بالضرورة الفصل الواقعي بينها. أما الفصل الوضعي، فهو فصل لواقع الأشياء بعضها عن بعض ويعتمد في الأساس على خلق مؤشرات كمية تدل دلالة خالصة على شيء ما دون آخر.

(١٦) خيري، المصدر نفسه، ص ٥٨٠.

(١٧) ربيع، **نظرية الأمن القومي العربي والتطور المعاصر للتعامل في منطقة الشرق الأوسط**، ص ٢٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١.

علاقة الجزء بالكل[19]. وخطورة هذا التقرير في أنه يلغي مبدأ الاستقلالية النسبية للجزء في مواجهة الكل، كما أنه يفترض دائماً أن العناصر الأساسية لتشكيل الكل غير كامنة في الجزء وذلك باستنكاره بأنه «كيف يرتفع الجزء ليناطح الكل وكيف يسمح الجزء أن يكون أداة للإحلال موضع الكل»[20]، وأخيراً، إن هذا التقرير يجعل مهمة الأمن القومي العربي هي مهمة الدولة القائد في المنطقة[21]، التي هي من حيث الأصل جزء من كل، فكأننا وقد ناقضنا مبدأ هيمنة الكل على الجزء.

إن محاولة د. ربيع هي محاولة جادة وعميقة وتثير الكثير من التأمل والتفكير، ولكنها لم تقدم إجابة على معضلة العلاقة الوضعية بين الأمن القومي العربي والأمن الوطني للدول العربية.

وفي نهاية الجزء يمكن القول إن الأدبيات العربية عن الأمن القومي العربي قد ازدادت في وعيها بمشكلة المجتمع العربي كمجتمع بدون دولة، ولكنها وكأنها وصلت إلى طريق مسدود من الناحية المفهومية، وذلك لعدم طرقها باب تصور مفهوم للأمن غير قائم ومرتبط بمفهوم الدولة.

ثانياً: أمن مجتمع بدون دولة

يهدف هذا القسم إلى توضيح معالم برنامج بحثي عن الأمن القومي العربي، يقوم على مفهوم «المجتمع» وليس على مفهوم «الدولة». وإن أي تصميم بحثي لا بد أن يحتوي على جانبين، أولاً، جانب مفهومي يتعلق بتكوين المفاهيم، بحيث تكون نظرياً ذات مغزى، وامبريقياً ذات علاقة بالواقع، وثانياً، جانب إجرائي يتعلق بالمؤشرات الامبريقية التي تدل على هذا المفهوم في الواقع وتساعد من ناحية أخرى على تكوين مقولات أساسية عن الظاهرة.

بالنسبة لمفهوم «أمن المجتمع»، فهذا المفهوم مستمد من أربع مجموعات من الخبرات، اثنتان منها نظريتان والأخريان عمليتان، وهذه المجموعات كالتالي:

١ ـ الخبرة النظرية في مجال دراسات الأمن القومي ونظرية العلاقات الدولية

في إطار هذه الخبرة، التيار العام هو التيار الواقعي في تحليل العلاقات الدولية وتتم فيه دراسة الأمن القومي من خلال دراسة علاقة الدولة بالدول الأخرى أو علاقتها بمجتمعها من حيث ما يعطيه هذا المجتمع من مصادر قوة أو ضعف للدولة. فهذا التيار

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

يحتوي على عديد من التعريفات المختلفة للأمن القومي، والتي هي في المحصلة الأخيرة تدور حول علاقة قدرة الدولة على استخدام القوة وقدرتها على توظيف الدبلوماسية ـ بمعناها الواسع ـ من أجل الحفاظ على أهداف قومية[٢٢]. ويمكن القول بأن هذا التيار لا يعطينا ضوءاً نظرياً على كيفية تشكيل مفهوم لأمن مجتمع بدون دولة، والتي هي حالة الوطن العربي.

إلا أن هناك تياراً آخر في تحليل العلاقات الدولية، وهو تيار «المجتمع الدولي»، الذي يُعتبر هيدلي بول (Hedley Bull) من أبرز كتابه[٢٣]، وتيري ناردين (Terry Nardin)[٢٤] من أبرز الأجيال الشابة القائلة به، والمطورة له. والمقولة الأساسية لهذا التيار هي أن الدول في العالم لا تشكل فقط نظاماً (System)، بل أيضاً مجتمعاً (Society)، وأن نظرية العلاقات الدولية يجب أن تقوم على الصراع والتعاون بين هذين البعدين لوجود الدول في العالم[٢٥]. والفكرة هي أن الدول في صراعها مع بعضها البعض محدودة بقواعد عامة ومؤسسات، «فالسياسة الدولية لا تعبر عن صراع كامل للمصالح بين الدول ولا توافق كامل للمصالح»[٢٦].

وهذا التيار يقدم لنا فكرة أن الدول على مستوى معين تكوّن مجتمعاً، وهذا المجتمع قائم على واقع الصراع بين المصالح المختلفة وحاجة التعاون بين هذه المصالح، الأمر الذي يولّد خلال هاتين العمليتين من الصراع والتعاون، قيماً ومؤسسات تنظم هذا الواقع وهذه الحاجة.

٢ ـ الخبرة النظرية بمجال دراسات المجتمع العربي والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية

في خلال الستينيات برز مجال جديد للبحث العلمي يطلق عليه مجال «دراسة المجتمع العربي» وقد حددت إحدى الكتابات عن هذا الموضوع، موضوع الدراسة «مادة المجتمع العربي تنطوي على دراسة لعلاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض داخل الأمة

---

(٢٢) لعرض أدبيات هذا التيار، انظر: جهاد عودة، «مدخل نظري لصنع سياسة أمن لنظام نامي،» (ورقة غير منشورة)، والمشاط، «نحو صياغة عربية لنظرية الأمن القومي،» ص ٥ ـ ١٣.

(٢٣) انظر: Hedley Bull, *The Anarchical Society: A Study of Order in World Politics* (New York: Columbia University Press, 1977).

(٢٤) Terry Nardin, *Law, Morality and the Relations of States* (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1983).

(٢٥) Bull, Ibid., pp. 24-27.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٦.

العربية»[٢٧]. وقد تمت دراسة هذه العلاقات دراسة سياسية، وذلك بمعنى تأثير هذه العلاقات على العلاقة بين الحاكمين والمحكومين. (وهذا في الواقع أقرب إلى الاجتماع السياسي أكثر منه إلى علم السياسة)، فكأنه، ومنذ البداية، قد تمت دراسة المجتمع العربي كوحدة واحدة وكمتغير مستقل.

وكان السؤال المحرك خلف هذه الدراسات هو: كيف يتم تشكيل التضامن الجماعي، وما هي العوامل الناتجة عنه وما هي الصفات الخاصة به؟ وهذا السؤال يجد معناه ومغزاه في مجال دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، هو أن أسلم طريقة لمعرفة ظروف تشكيل التضامن الجماعي، عدم الفصل بين الهيكل الاجتماعي والثقافة والفرد، وهذا من خلال القول بالنسبية الثقافية (Cultural Relativity)[٢٨].

والفكرة هنا أن المجتمع يُفهم على أنه علاقات اتصالية بين أشكال من الوجود المجتمعي وأن تماسك المجتمع يزداد مع ازدياد وتنظيم هذه العلاقات الاتصالية القائمة على الاختيار الذاتي لوسائل ومفردات الحوار والتفاعل المجتمعي.

٣ ـ الخبرة العملية بنتائج حركة القومية العربية

من أهم نتائج هذه الحركة هي التأكيد على وحدة الشعور كأساس للتجمع وإن كانت لم تحقق هدفها السياسي المتمثل في خلق دولة واحدة وقابلت مشاكل مفهومية عديدة، منها على سبيل المثال، الاختلاف في التكوين الثقافي بين تكوينات المجتمع العربي ووجود ظاهرة الدولة القائد وتعدد الأقليات القومية والعرقية والدينية والاقتصار في الهدف على محاربة التمزق السياسي والامبريالية والصهيونية وفي فترة لاحقة التأكيد على الصراع الطبقي ضد الاقطاع والرجعية، دون التأكيد على التكامل المجتمعي بين الأشكال المختلفة للوجود الثقافي والاجتماعي والسياسي.

والخلاصة هي أن انحسار هذه الحركة أتى لأسباب عدة، منها ـ وهو ما يهمنا في هذا المقام ـ عدم التركيز على العمل على تقوية الارتباطات الفردية والتجمعية بين تكوينات المجتمع العربي.

٤ ـ الخبرة العملية بالتمزق العربي ومحدودية الحدود القطرية

دخل الوطن العربي منذ منتصف السبعينيات مرحلة تمزق بمعنى انهيار الأسس

(٢٧) بطرس بطرس غالي، محمود خيري عيسى وعبد الملك عودة، دراسات في المجتمع العربي (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠)، ص ١٩.

(٢٨) انظر: Murray J. Leaf, *Man, Mind and Society: A History of Anthropology* (New York: Columbia University Press, 1979), pp. 229-297.

البنائية للتفاعل بين الأقطار العربية والتي تمثلت في اختفاء ظواهر الدولة القائد والمحاور العربية والايديولوجية المسيطرة، وتماثل هذا مع مرحلة أخرى هي تمثل الوجه الآخر للعملة، وهي دخول الوطن العربي ـ عملياً ـ لمرحلة الاعتراف بمحدودية الحدود القطرية التي تمثلت في نمو هجرة اليد العاملة، وانتشار البنوك العربية، ومراكز البحث العلمي، والفرق البحثية، وسهولة الانتقال والتفاعل، ونمو الحركات والانفعالات السياسية، والجمعيات العلمية والفنية والأكاديمية العابرة للحدود القطرية.

والمغزى هنا، أنه رغم ازدياد التأكيد المؤسسي للتجزئة السياسية المتمثل في الدولة القطرية، إلا أن هناك تأكيداً مؤسسياً ورمزياً آخر ومقابلاً متمثلاً في نمو الارتباطات الهادفة والارتباطات العملية بين أفراد المجتمع العربي وتكويناته.

وبناء على هذه المجموعات الأربع من الخبرات يمكن تعريف أمن المجتمع العربي، بأنه متعلق بالمحافظة على، وتطوير وحماية، أشكال ووسائل الارتباط والاتصال بين الأفراد والتكوينات وأشكال الوجود في المجتمع العربي، على أن تكون هذه الأشكال والوسائل قائمة على التراضي بين الأطراف.

وبهذا التعريف، يعتبر كل عمل من أعمال القسر من أجل فرض شكل معين من الارتباط أو الاتصال خطراً يهدد أمن المجتمع العربي، وكذلك ينصرف الأمر إلى أي حرمان أو قصور لحقوق الإنسان أو الحاجات الأساسية للمواطن العربي.

فأمن المجتمع العربي لا يعني إلغاء الصراع الاجتماعي، بل محاربة التطرف وخلق مساحة بنائية لجميع الأفراد والتكوينات وأشكال الوجود للتفاعل. فالأمن هنا، بالتالي، لا يصبح مناقضاً لفكرة التغير الاجتماعي، ولكن يؤكد البعد التطوعي في هذه العملية.

ولا تصبح بالتالي الدولة في حد ذاتها موضوعاً للأمن، بل يمكن أن تكون في كثير من الأحيان مناقضاً لفكرة الأمن. فالدولة تكون فقط مسانداً ومؤكداً لفكرة الأمن طالما أنها تساهم في تطوير، والمحافظة على، الأشكال والأساليب الاتصالية والارتباطية في المجتمع، وذلك سواء بالعمل المنفرد أو من خلال الصراع والتعاون مع الدول الأخرى.

وتأسيساً على ما سبق، يمكن القول بأن الموضوعات البحثية التالية لهي من أكثر الموضوعات ارتباطاً بمفهوم أمن المجتمع العربي:

- الموضوعات المرتبطة بتنمية المجتمعات المحلية.

- الموضوعات المرتبطة بتنمية الثقافة الاتصالية والارتباطية.

- الموضوعات المرتبطة بحماية حقوق الإنسان وإشباع الحاجات الأساسية.

- الموضوعات المرتبطة بحدود سلطات الدولة من ناحية، وخضوعها أو توافقها مع

اجراءات وقيم المساءلة السياسية والاجتماعية.

ـ الموضوعات المرتبطة بالتعاون أو الصراع بين الدول من أجل حماية وإشباع الحاجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للأفراد والجماعات.

وبهذه المجموعات الخمس من الموضوعات يصبح الأمن عملية إنسانية اجتماعية وليست استراتيجية ـ تكنولوجية.

وفي النهاية، فالأمن القومي العربي، بمعنى أمن المجتمع العربي، يضحي مختلفاً اختلافاً أساسياً عن الأمن الوطني للبلدان العربية الذي يلعب فيه مفهوم «الدولة» دوراً أساسياً في تشكيله وتنفيذه.

موقف الصهيونية كفكرة وحركة
من القومية العربية(*)

عبد الله عبد الدائم

مقدمة

١ ـ كما يرتبط بقاء الأمة العربية ومستقبلها الحضاري المنشود بقدرتها على مجابهة الصهيونية والاستعمار والامبريالية عن طريق الإدارة العربية المجتمعة لأقطار الوطن العربي، يرتبط بقاء الصهيونية وإسرائيل ومستقبلها بقدرتها على تعبئة القوى الصهيونية الامبريالية العالمية تعبئة منهجية منظمة ومستمرة من أجل تفتيت الجسم العربي وتفريقه وإحالته دويلات تصطرع وقوميات تحترب وطوائف تختصم.

٢ ـ ولئن كان إدراك العرب لأهمية الترابط القومي والوحدة في زعزعة الكيان الاسرائيلي الصهيوني وفي تقويض أركانه إدراكاً لا يزال مقصّراً عن الشأو المطلوب، فإن إدراك الصهيونية وإسرائيل ومن وراءهما لأهمية معول التفريق، تمزيق الوجود العربي ـ وبالتالي للعلاقة الحتمية والتلازم الصارم بين ذلك التمزيق وبين التمكين للوجود الاسرائيلي ـ إدراك واضح واع لمنطلقاته وأغراضه، مثابر على سعيه ونضاله، منذ أن وجدت الحركة الصهيونية حتىً اليوم.

٣ ـ ذلك أن الكيان الاسرائيلي يدرك أعمق الادراك أن جهوده الكثيرة والماكرة والعنيدة في سبيل تعزيز بقائه واستمراره ونموه جهود تظل مصطنعة وموقوتة، إذا ظل الوجود العربي من حوله وجوداً متآخذاً موحّد الهدف والقصد، وإذا بقي الطوق العربي المحيط بالكيان الاسرائيلي، المفروض فرضاً يلفظه الواقع، طوقاً متماسك البنيان لا يعرف الثغرات، بله التمزق والصراع.

(*) نشر في: شؤون عربية، العدد ٥٥ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٨)، ص ٧ ـ ٢٨.

فالحروب المتتالية التي يمكن أن تشنها اسرائيل، والمساعي الكأداء التي تبذلها في سبيل إقناع اليهود بالهجرة إليها، فضلاً عن الهجرة منها، وجهود التنمية الاقتصادية اللاهثة وراء المساعدات والمعونات الأجنبية، والسعي المتعثر للاستيلاء على أكبر قدر من المياه العربية، والمحاولات المخفقة لطرد السكان العرب من الأراضي التي تحتلها ولإقامة المستعمرات، هذه كلها وكثير سواها جهود تذهب أدراج الرياح وتغدو كنار الهشيم حين يشتد ساعد الوجود العربي المتكامل المتضامن الموحد، وحين يعبئ كل ما لديه من تفوق سكاني واقتصادي وجغرافي وتاريخي وقومي، وحين يقوم بعمل مشترك من أجل تنمية ثروته البشرية والمادية تنمية تؤدي إلى خلق كيان حضاري جديد متقدم، هو وحده الذي يقوى على مجابهة التحدي الاسرائيلي علمياً وتكنولوجياً.

٤ ـ وقد يكون ما قدمناه من مُعاد القول، غير أن العود إليه كرة بعد كرة أمر لازب في نظرنا، ما دام الإيمان به، إيماناً عميقاً قادراً على أن يتحول إلى اندفاع هادر جبار يُنبت عملاً منظماً صابراً وعميقاً، لا يزال مقصراً عن الشأو المرجو كما سبق أن ذكرنا.

٥ ـ وليس قصدنا في هذه الكلمة أن نقدم الأدلة على الدور الحاسم للوجود العربي الموحد في مجابهة الكيان الاسرائيلي وحلفائه، فمثل هذا الموضوع يخرج عن مقاصد دراستنا، فضلاً عن أن كثيراً من الكتب والدراسات والأقوال قتلته بحثاً وقلّبته على وجوهه المختلفة. أما دراستنا فتتناول الوجه الثاني للموضوع، نعني موقف الصهيونية والكيان الاسرائيلي، لا موقف العرب، من وحدة الوجود العربي. ومع ذلك فالترابط العكسي بين وجهي الموضوع قائم ومتبادل وعميق، ونعني بهما الترابط الصراعي بين دور الوجود العربي الموحد في التغلب على الوجود الصهيوني الاسرائيلي من جانب وبين دور الكيان الصهيوني الاسرائيلي في الحيلولة دون وحدة الوجود العربي من جانب آخر.

٦ ـ والموقف الصهيوني الاسرائيلي من القومية العربية ومن وحدة الوجود العربي هو، كما قلنا ونقول، موقف قديم قدم الصهيونية، ينطلق من تحليل علمي عميق ومن استراتيجيا راسخة تنجم عن ذلك التحليل. إنه من الثوابت التي لا تقبل التعديل، لأنه أمر محايث للفكر الصهيوني الاسرائيلي، مداخل له يكاد يكون وإياه شيئاً واحداً، ولأنه مطلب عملي مباشر تستلزمه ضرورات بقاء الكيان الصهيوني الزائف، وتستدعيه شروط انقلاب هذا الوجود الزائف المؤقت وجوداً مستقراً مقيماً.

منهجنا في الدراسة

١ ـ الترابط العضوي بين الصهيونية والكيان الاسرائيلي ومن وراءها وبين العمل لتجزئة الأمة العربية وتشتيتها وتفتيتها، يجعل معالجة هذا الموضوع معالجة شائكة فضلاً عن أنها تكاد تكون متعذرة. ذلك أن على من يتصدى لمعالجة مثل هذا الموضوع المحوري الذي يقيم في القلب من الحركة الصهيونية ومن سياسة الكيان الاسرائيلي واستراتيجيته، أن يبحث في كل الجوانب المتصلة بقصة الصهيونية وقصة الكيان الاسرائيلي. ومثل هذا

البحث المحيط يحتاج إلى أسفار كاملة بل إلى مجلدات ضخمة.

٢ ـ ومع ذلك سنحاول أن نتعرض ـ بلغة لا بد أن تكون لغة البرقيات ـ إلى أهم مفاصل الموضوع. ومفاصل الموضوع الأساسية في نظرنا هي الآتية:

أ ـ الربط بين موقف الصهيونية وإسرائيل من القومية العربية ومن وحدة الوطن العربي وبين موقف الاستعمار والامبريالية، وهو ربط جوهري وأساسي، نظراً إلى اتحاد الموقفين في هذا السبيل.

ب ـ تحليل الأهداف الأساسية للحركة الصهيونية، من أجل بيان الارتباط العريق والعميق بين تلك الأهداف وبين التوسع على حساب الوجود العربي والبقاء عن طريق السعي لتحطيم ذلك الوجود والحيلولة دون ترابطه ووحدته وتقدمه. وعلى رأس تلك الأهداف ذات الصلة بالموقف من الوحدة العربية والقومية العربية: إقامة مملكة اسرائيل الكبرى ـ بناء المجتمع الاسرائيلي الصهيوني العنصري ـ الاستيطان العنصري ـ المناداة بالقومية اليهودية.

ج ـ الترجمة العملية للأهداف الصهيونية والاستعمارية والامبريالية المتمحورة حول الحيلولة دون تكامل الوجود العربي وتقدمه ودون تحقيق الحركة القومية العربية لأغراضها، سواء قبل قيام الكيان الصهيوني أو بعده. وهذا الجانب هو صلب الموضوع وتندرج تحته موضوعات فرعية عديدة ذات صلة وثيقة بموضوع القومية العربية ووحدة الوجود العربي، أهمها: السياسة الصهيونية الاسرائيلية التوسعية ـ معنى الأمن الاسرائيلي والحدود الآمنة ـ تفتيت الوجود العربي بشتى الأساليب الممكنة (ولا سيما استغلال موضوع الأقليات القومية والطائفية) ـ محاربة الفكرة القومية العربية عن طريق التزييف الفكري والتآمر السياسي والدعاوة الماكرة.

٣ ـ وقد اضطرنا هذا المنهج إلى الاعتماد على مظانّ كثيرة، ولا سيما تلك التي تشتمل على وثائق ونصوص (من مصادر صهيونية وغربية بوجه خاص) تقدم دليلاً على ما نطرحه من أفكار وما نقوم به من تحليل.

فلنمض إلى طرق كل واحد من هذه الموضوعات.

أولاً: الصهيونية والاستعمار والامبريالية والتلاقي العضوي بينها حول الموقف من الوجود العربي

١ ـ يبلغ التلاحم بين الصهيونية وإسرائيل من جانب وبين الاستعمار سابقاً والامبريالية العالمية لاحقاً من جانب آخر حداً يجعل من الصعب على الدارسين أن يتبينوا أيهما الأصل وأيهما الفرع، أو أيهما المسيِّر وأيهما المسيَّر. وكأننا في هذا المقام أمام «دور فاسد» كما يقول المناطقة أشبه بالدور الفاسد الذي يحدثنا عنه الشاعر في قوله:

مسألة الدور جَرَت بيني وبين من أُحِبْ
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أشِبْ

والحق أن الصهيونية والاستعمار كانا ولا يزالان وجهين لحقيقة واحدة لا يستبين فيها السيد من المسود.

ومن هنا نجد الباحثين في هذا المجال فرائق ثلاثة: فريقاً يبرز دور الاستعمار بوجه عام (والاستعمار البريطاني بوجه خاص) في توليد الحركة الصهيونية، وسبقه لها في هذا المجال، ثم دور الامبريالية فيما بعد في رعاية الكيان الصهيوني؛ وفريقاً ثانياً يبرز دور الحركة الصهيونية البديء (ومن قبلها الفكر اليهودي) في دفع الاستعمار إلى تبني أفكارها وإلى دعم مطامعها وإلى العمل على قيام الكيان الاسرائيلي، ثم دور هذه الحركة بعد ذلك (من خلال الكيان الاسرائيلي والصهيونية العالمية) في تسخير القوى الامبريالية (وعلى رأسها الولايات المتحدة) لأغراض الوجود والتوسع الصهيوني؛ وفريقاً ثالثاً يوفق بين الدورين ويظهر الصلة الدائرية بينهما والأخذ والعطاء المتبادلين بين أغراضهما قديماً وحديثاً. وموقف هذا الفريق الثالث في رأينا هو الموقف السليم. على أننا نستدرك فنقول إن الفرق بين آراء هذه المجموعات الثلاث من الدارسين فرق في الدرجة لا في الطبيعة والنوع. إنه فرق في مدى التأكيد على دور كل من الصهيونية والاستعمار، مع إقرارها جميعها بأهمية اللقاء بين الدورين.

ولتوضيح هذه الصلة الوشيجة والمعقدة بين طرفَي «المسألة اليهودية»، نعني الاستعمار والامبريالية من جانب والصهيونية وإسرائيل من جانب آخر، يحسن التريث قليلاً عند أهم منطلقات كل فريق من هذه الفرائق الثلاثة.

أ ـ ونتريث بوجه أخص عند رأي الفريقة الأول، لكونه رأياً غير شائع، ولكونه يبرز بحروف كبيرة دور الاستعمار والامبريالية في الحركة الصهيونية وفي خلق الكيان الاسرائيلي وتوطيد دعائمه، الأمر الذي يساعدنا على أن نرى على نحو أوضح الجذور البعيدة والممتدة لموقف الصهيونية وإسرائيل من الوجود العربي ووحدته. ذلك أن أصحاب هذا الفريق يرون أن الصهيونية تشكلت وتكونت «في أعماق الرحم الامبريالي» وأنها «ثمرة من ثمار الفكر الاستعماري وتعبير عن حاجة من حاجاته، في مرحلة من مراحل صعوده وتطوره»[1]. وقوام هذه الحاجة ولبّها شق الوطن العربي وتمزيقه بغية إضعافه وإخضاعه. ويقدم هؤلاء أكثر من دليل على ذلك. ومن أبرز تلك الأدلة حقائق كالآتية:

(١) حاجة الاستعمار البريطاني منذ مطالع القرن التاسع عشر، من أجل دعم امبراطوريته والحيلولة دون تداعيها، إلى جبهة استعمارية موحدة من جانب، وإلى أداة

---

(١) مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، **الأحزاب الاسرائيلية في الحركات السياسية في الكيان الصهيوني**، بإشراف حبيب القهوجي، سلسلة دراسات مؤسسة الأرض؛ ١٣ (دمشق: المؤسسة، ١٩٨٦)، ص ٥.

تدرأ الخطر الذي يهددها من جانب دول البحر المتوسط وعلى رأسها الدول العربية من جانب آخر، وعثور هذا الاستعمار ـ بعد البحث والتنقيب ـ على تلك الأداة، نعني إقامة كيان صهيوني يكون حاجزاً بشرياً قوياً وغريباً على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معاً بالبحر المتوسط[٢]. وتبرز بعض الدراسات دور بريطانيا المبكر، منذ عام ١٨٤٠، في خلق الظروف اللازمة من أجل الاستيطان اليهودي في فلسطين. بل تؤكد تلك الدراسات «أن مثيري الاستيطان اليهودي ومحركيه لم يكونوا يهوداً، بل كانوا ضباطاً ونبلاء بريطانيين مسيحيين ـ صهيونيين، ولم تكن دوافعهم بطبيعة الحال تحقيق التنبؤات التوراتية. بل كان رجال الجيش والحكومة البريطانيون، في بحثهم عن استثمار المنطقة العربية والاستيلاء على مناطق الامبراطورية العثمانية وتأمين طرقهم التجارية البرية إلى الهند، يبحثون عن مستوطنين يرتبطون بهم في المنطقة. وخاصة بعد تجارب بريطانيا الاستعمارية في الاستيطان في مناطق عديدة من افريقيا ومن العالم الجديد (استراليا)[٣]. ويضيف هؤلاء أن بريطانيا كانت وراء التنظيمات اليهودية التي انتشرت في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويكادون يلخصون موقفهم بالاستشهاد بقول ماكس نوردو: «لم يبق على الصهيونية إلا أن تظهر للوجود» وإلا فإن «بريطانيا ستضطر إلى ابتداعها»[٤]. ويوغل أصحاب هذا الرأي في توضيح فكرتهم الرائدة، فكرة ولادة الصهيونية والكيان الصهيوني من قلب مطامع الاستعمار البريطاني (ثم الاستعمار عامة والامبريالية)، حين يقولون: «إن الاعتبارات الاقتصادية في المشروع الصهيوني لم تكن هي الاعتبارات الرئيسية في ذهن مهندسيه الأول. ففلسطين، برقعتها الصغيرة وبفقرها النسبي بالموارد والثروات، لا يمكن أن تشكل قاعدة لمشروع اقتصادي مربح، على غرار مشروع جنوبي افريقيا أو روديسيا مثلاً. . . وأهمية فلسطين إذن، في المشروع الامبريالي الصهيوني، تنبع من موقعها، من الاعتبارات الاستراتيجية لهذا الموقع»[٥]. وأشهر الوثائق التي توضح موقف بريطانيا، هذا التقرير المعروف باسم تقرير «كامبل ـ بانرمان». ولا يتسع المجال للحديث عن مولد هذا التقرير وعن محتواه وعن مصيره، وحسبنا أن نذكّر بالأمور الآتية:

ـ في عام ١٩٠٧ سقطت وزارة حزب المحافظين في بريطانيا، وجاءت إلى الحكم

---

(٢) يحسن الرجوع في هذا المجال إلى المرجعين التاليين بوجه خاص: شفيق الرشيدات، **فلسطين: تاريخاً. . وعبرةً. . ومصيراً** (بيروت: دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، ١٩٦١)، بخاصة ص ٣٥ ـ ٤٨، وأسعد صقر، **الحركة العمالية في فلسطين منذ عهد الانتداب البريطاني وحتى عام ١٩٨٠** (دمشق: دار الجرمق للطباعة والنشر، ١٩٨١)، ص ٢٤ ـ ٣٨.

(٣) مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، معد، **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، بإشراف حبيب القهوجي ([دمشق]: منشورات الطلائع بالتعاون مع مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨)، ص ٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

وزارة من حزب الأحرار برئاسة المستر كامبل بنرمان.

ـ قام المحافظون، الذين هم أشد الأحزاب البريطانية دعماً للصهيونية، بإقناع «كامبل ـ بانرمان» بتبني فكرة الجبهة الاستعمارية الموحدة (من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا وإسبانيا)، فوافق على ذلك وألّف لجنة من مشاهير المؤرخين وكبار علماء الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والنفط والزراعة والاستعمار في دول الاتحاد.

ـ مما ورد في خطابه أمام أعضاء هذه اللجنة، محدداً مهماتهم، أن الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تنحل رويداً ثم تزول، وأن مهمتهم هي البحث في الوسائل التي يمكن أن تحول دون سقوط الاستعمار وانهياره بعد أن بلغ ذروته.

ـ أما تقرير اللجنة فقد تضمن تحليلاً خطيراً يشير إلى حاجة الاستعمار ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلى خلق كيان غريب في الشرق الأوسط، يعزز مكانته ويحول دون انهياره. ومما جاء فيه: «ان الخطر المهدد يكمن في البحر المتوسط، صلة الوصل بين الغرب والشرق، وفي حوضه مهد الأديان والحضارات، وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه أخص». ويفصح التقرير عن أغراضه بلغة أوضح وأصرح فيقول: «إن الخطر على كيان الامبراطورية الاستعمارية كامن في الدرجة الأولى في هذه المنطقة، في تحررها وفي تثقيف شعبها، في تطويرها وتوحيد اتجاهات سكانها... في تجمعها واتحادها على عقيدة واحدة وهدف واحد».

ومن هنا كان على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل، على حد قوله، على استمرار وضع هذه المنطقة المجزأ المتأخر، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل وتأخر وتناحر. ومن أجل بلوغ هذا الهدف أوصى التقرير بضرورة العمل على «فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي». واقترح لذلك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ «إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يتم في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس تكوين قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة»[٦].

ـ ظل هذا التقرير طي الكتمان في أدراج وزارة المستعمرات البريطانية، إلى أن نشره صحفي يهودي قبيل الحرب العالمية الأولى. غير أن آثاره ظهرت للعيان في تصميم بريطانيا على تنفيذ كل ما جاء فيه[٧]. بل إن أصداءه تبدو جلية في كثير من التقارير والمذكرات والرسائل البريطانية والصهيونية. من ذلك ما ورد في الرسالة التي وجهها حاييم وايزمن إلى سكوت (S. P. Scott) رئيس صحيفة المانشستر غارديان في تشرين

(٦) الرشيدات، فلسطين: تاريخاً.. وعبرة.. ومصيراً، ص ٤٤.

(٧) صقر، الحركة العمالية في فلسطين منذ عهد الانتداب البريطاني وحتى عام ١٩٨٠، ص ٢٨.

الثاني/ نوفمبر ١٩١٤ إذ يقول: «إننا نستطيع أن نقول... إنه إذا ما وقعت فلسطين داخل منطقة النفوذ البريطاني، ثم شجعت بريطانيا استيطان اليهود في فلسطين... فإن هؤلاء سيطورون هذا القطر ويكونون حرساً فعالاً يحمي قناة السويس»[٨]. ومن ذلك أيضاً التقرير الذي قدمه الزعيم الصهيوني البريطاني صموئيل إلى حكومته الانكليزية قبيل نهاية الحرب العالمية. وقد عرض عليها فيه مشروع تأسيس دولة يهودية تحت إشرافها. وفيه نجد تلك الجملة الشهيرة «فنكون بذلك قد أوجدنا بجوار مصر وقناة السويس دولة جديدة موالية لبريطانيا»[٩]. وقد كان هذا كله مقدمة لوعد بلفور الشهير في، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧. كذلك نحا منحى هذا التقرير النص التالي لزعيم الصهيونية الأول تيودور هرتزل: «وسنكون هناك جزءاً من الحاجز الذي يحمي أوروبا في آسيا. سنكوّن مخفراً أمامياً للحضارة في وجه الهمجية. يتوجب علينا كدولة محايدة أن نبقى على اتصال مع كل أوروبا التي سيكون عليها ضمان وجودنا».

(٢) وإلى جانب هذه الأدلة التي تشهد على حاجة الاستعمار إلى الصهيونية وإلى الكيان الصهيوني منذ أوائل القرن التاسع عشر، يذكر باحثون آخرون أدلة أخرى تشهد على ولادة الصهيونية في أحضان الاستعمار وعلى الجهود التي قام بها هذا الاستعمار من أجل توليد الصهيونية وتسهيل مخاضها. منها الأدلة العديدة التي قدمها جورج ناصيف في كتابه الهام والقيم عن **الوحدة العربية وإسرائيل**[١٠]، والتي جعلته يقول دون ما جمجمة: «والعنصر الأول الأساسي المكون لهذه الحركة الصهيونية كحركة سياسية، هو أنها حركة سياسية اجتماعية أوروبية من جميع وجوهها».

(٣) ويؤكد هذه الفكرة أصحاب الفكرة القائلة[١١] إن الصهيونية ـ حتى لو نظرنا إليها كأسطورة دينية سياسية ـ «لا تعود بجذورها إلى تاريخ اليهود الوهمي، وإنما تعود إلى ديناميات التاريخ الأوروبي الحقيقي». ومع هؤلاء سائر الذين يرون أن الصهيونية هي الحل الاستعماري للمسألة اليهودية.

(٤) ويذهب بعض الدارسين في تأكيدهم لولادة الصهيونية وإسرائيل من رحم الاستعمار والامبريالية إلى حد استهجان الآراء الكثيرة التي ترى عكس ذلك، والتي تحيل إليها أن الصهيونية العالمية قد بلغت حداً من القوة والتنظيم استطاعت معهما «أن تفرض وجودها المادي والأدبي على دول أوروبية مجتمعة، وعلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأن

---

(٨) آلان ر. تايلور، **كيف قامت اسرائيل**، ترجمة علي محمد علي (القاهرة: [د.ن.]، ١٩٦٠)، ص ٣١، نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٩) الرشيدات، **فلسطين: تاريخاً.. وعبرةً.. ومصيراً**، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(١٠) جورج ناصيف، **الوحدة العربية واسرائيل** (بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٨٥).

(١١) من هؤلاء: عبد الوهاب محمد المسيري، «الحركة الصهيونية: الخلفية التاريخية،» **عالم الفكر** (الكويت)، السنة ١٤، العدد ١ (نيسان/ ابريل ـ حزيران/ يونيو ١٩٨٣)، ص ١٣ ـ ٤٦. والبحث هام فيه تحليل رصين موثق للصلة بين الاستعمار الغربي والصهيونية.

تلعب بسياسة هذه البلدان لحساب مصالحها العدوانية في فلسطين»[١٢].

(٥) وثمة دراسات تتوقف عند فكرة أخرى في هذا المجال، إذ تشير بوجه خاص إلى دور الحركة الصهيونية غير اليهودية في ولادة الصهيونية اليهودية وما تلاها من قيام الكيان الاسرائيلي، وتبيّن أن «الصهيونية غير اليهودية أشد فاعلية وخطراً من الصهيونية نفسها في مواقف ومواضع شتى». ومن الذين تعرضوا لهذه الفكرة بشيء من التفصيل رياض معسعس في مقال له بمجلة **العربي** وفيه يقول ذلك القول القاطع: «وتؤكد الأحداث التاريخية والوثائق العديدة على أن الصهيونية غير اليهودية كانت ولا تزال الأداة الأساسية التي عملت على ترسيخ أقدام اليهود في فلسطين العربية، ودعمهم مادياً وسياسياً وفكرياً»[١٣]. ويبين، فيما يبين، أن المؤتمر الصهيوني الأول في «بازل» عام ١٨٩٧ «لم يكن الانطلاقة الأولى، بل كان تتويجاً لجنين اكتمل تشكيله في رحم الأحداث والانقلابات السياسية والاقتصادية في أوروبا منذ عصر النهضة»[١٤]. ومن أجل هذا يبين دور حركة الإصلاح الديني اللوثرية، ودور فرنسا بوجه خاص على يد نابوليون بونابرت وعلى يد نابليون الثالث «الأكثر صهيونية»، وعلى يد طائفة من السياسيين المقربين من الامبراطور (أمثال جان دونان وإرنست لاهاران الممثل الرئيسي للصهيونية غير اليهودية كما يقول).

(٦) وجملة القول ان أصحاب هذا الاتجاه الأول، على اختلاف المبررات عندهم، يبرزون الدور الرئيسي للاستعمار في توليد الحركة الصهيونية، والدور الأساسي للامبريالية العالمية في ايجاد الكيان الاسرائيلي وتثبيت دعائمه وتعزيز نزعاته العدوانية والتوسعية في المنطقة العربية. ولئن كانوا لا ينكرون اللقاء الذي تم بين الاستعمار وبين الصهيونية بعد ذلك، فإنهم يمنحون السبق إلى حد كبير للاستعمار على الصهيونية في هذا المجال. وأياً كان الأمر فهذا الاتجاه ذو الرأي الحاد والجدّي يقدم بموقفه هذا ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تبريراً أساسياً وهاماً لموقف الصهيونية وإسرائيل من الوجود العربي، ما دام مبرر ذلك الوجود الصهيوني وهذا الكيان الاسرائيلي هو، أولاً وقبل كل شيء، خدمة الهدف الأكبر للاستعمار والامبريالية، نعني الحيلولة دون تقدم الأمة العربية ودون تكاملها ووحدتها، ومنعها بالتالي من تحقيق وجودها القومي وبناء مشروعها الحضاري الكبير الذي تنشده.

ب ـ ولن نتريث عند رأي أصحاب الفريق الثاني، القائلين بأن الصهيونية هي التي دفعت الاستعمار والامبريالية إلى تبني مخططاتها وإلى خلق الكيان الاسرائيلي، حين بينت

---

(١٢) سليمان الخش، «اسرائيل مخفر للامبريالية العالمية،» **المعرفة** (دمشق)، السنة ٥، العدد ٤٩ (آذار/مارس ١٩٦٦)، ص ١٠ ـ ٢٠.

(١٣) رياض معسعس، «فرنسا وجذور الحركة الصهيونية غير اليهودية،» **العربي** (الكويت)، السنة ٣١، العدد ٣٥٤ (أيار/مايو ١٩٨٨)، ص ٥٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٨.

الترابط بين أهدافها وقيام الكيان الاسرائيلي في قلب الوجود العربي وبين مخططات الاستعمار والامبريالية الرامية إلى إضعاف ذلك الوجود وتمزيقه والحيلولة بينه وبين استعادة دوره التاريخي المجيد، ومنعه من بناء مشروعه المستقبلي المحمّل بالوعود له وبالوعيد لأعدائه. والحق أن القائلين بهذا الاتجاه كثيرون، وحججهم بيّنة ظاهرة، سنشير إلى جانب منها عند الحديث عن أهداف الحركة الصهيونية وعن خطط الكيان الاسرائيلي. وفي نشأة الحركة الصهيونية منذ مؤتمر «بازل» الصهيوني الأول عام ١٨٩٧، وفي مقررات ذلك المؤتمر، وفي تصريحات زعماء الصهيونية بدءاً من تيودور هرتزل، وفي انتزاع وعد بلفور وما تلاه، وفي ألاعيب السياسة الصهيونية أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي نجاح تواطئها المستمر مع الاستعمار البريطاني في فلسطين، وفي جهودها لجرّ الاستعمار الأمريكي الجديد إلى جانبها، وفي أقوال زعماء الكيان الصهيوني بعد قيامه، وفي كل طرفة عين ونفثة صدر تنطلقان من خلال الحياة السياسية اليومية للكيان الاسرائيلي... الخ.، شواهد وأدلة كثيرة على بلاء الصهيونية العريق والمستمر من أجل استغلال القوى الاستعمارية والامبريالية.

ج ـ كذلك لا حاجة بنا إلى التريث عند الاتجاه الثالث، اتجاه الفريق القائل بالتداخل والتكامل والترابط بين الاستعمار والامبريالية من جانب وبين الصهيونية وإسرائيل من جانب آخر، لا سيما فيما يتصل بدورهما المشترك في تمزيق الوجود العربي (منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى اليوم). وحسبنا أن نقول، تلخيصاً لهذا كله، إن محور اللقاء بين طرفي هذه المعادلة هو منع الوطن العربي من التقدم والوحدة، والحيلولة بين الوجود العربي وبين نهضته الحديثة، المرجوة والآتية ما في ذلك ريب. ويكفي للتدليل على ذلك، وعلى المساعي المشتركة للاستعمار والامبريالية في سبيل تجزيء الأمة العربية، أن نذكّر بالتآمر البريطاني الصهيوني على العرب بعيد الحرب العالمية الأولى، رغم ما قطعته بريطانيا وحلفاؤها من وعود لهم، وأن نذكّر باتفاق سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسا (١٦/ ٥/ ١٩١٦) وبوعد بلفور (٢/ ١١/ ١٩١٧) وبمؤتمر الصلح في فرساي (كانون الثاني/ يناير ١٩١٩) وبمؤتمر سان ريمو (٢٥/ ٤/ ١٩٢٠). حسبنا أن نردد قول شوقي: «ودخلنا الوغى فكنّا الغنائم». أما ما حدث من أجل قيام الكيان الاسرائيلي، وبعد قيامه حتى اليوم، من تواطؤ عميق بين الاستعمار والامبريالية وبين الصهيونية وإسرائيل، فلا يحتاج إلى فضل من بيان.

ولعل خير ما يلخص هذه الصلة العضوية المتبادلة بل المتحدة بين الحركة الصهيونية والكيان الاسرائيلي وبين الاستعمار والامبريالية من أجل تجزيء الوطن العربي وتعطيل طاقاته والحيلولة بينه وبين تحقيق وجوده القومي وبناء كيانه الحضاري، ما ورد في مقدمة ذلك الكتاب الهام والقيّم الذي وضعه الدكتور هيثم الكيلاني وهو **المذهب العسكري الاسرائيلي**، وقد جاء في مطلعها ذلك التلخيص الجامع الدقيق: «منذ أن أقامت الصهيونية والامبريالية والاستعمار دولتها المشتركة «إسرائيل» في قلب الوطن العربي، لتمنع وحدة مشرقه ومغربه، وتسلبه ثرواته، وتستثمر موقعه، وتخضعه لإرادتها في المجال الدولي ـ منذ

إنشاء هذا الثالوث إسرائيل، حدد لها هدفين يوصلانه إلى أغراضه وهما: إنشاء «الأمة اليهودية» وتفتيت الأمة العربية. ومن هذين الهدفين الاستراتيجيين الكبيرين، تنبعث وتتوالد مجموعة الأهداف الاستراتيجية والسياسية والعسكرية والاقتصادية الأخرى»(١٥).

ثانياً: الأهداف الأساسية للحركة الصهيونية

١ ـ الأهداف الكبرى للحركة الصهيونية باتت ذائعة يعرفها القاصي والداني. والمظانّ حولها كثيرة ومتوالدة. ومن هنا سنتوقف، بوجه خاص، عند الأهداف ذات الصلة الوثيقة بموضوعنا. على أن سائر أهداف الحركة الصهيونية في الواقع تتحلق ـ كما سبق أن رأينا ـ عند هدف الأهداف وتكاد تنحلّ إليه، نعني به بناء المجتمع الاسرائيلي العنصري التوسعي عن طريق الائتكال التدريجي للوجود العربي وعن طريق جعله وجوداً مقعداً واهناً عاجزاً، تسري في عروقه آفات التمزق السرطاني وتفرخ في مستنقعه الآسن شتى صنوف العلل.

٢ ـ وقبل أن نمضي في الحديث عن أهم الأهداف الصهيونية من هذا المنظار، لا بد من طائفة من التوضيحات التي تساعدنا على أن نمضي في حديثنا مطمئنين، كما تجنبنا ما قد يبدو لبساً أو تناقضاً بين تلك الأهداف:

أ ـ وأول ما نذكره بهذا الصدد هو أن هذه الأهداف ـ على كونها ثابتة ـ تخضع للتعديل والتحرير عبر مسيرتها وذلك لتحقيق المرونة اللازمة لوسائل تحقيقها.

ب ـ وثاني ما نذكره أن هذه الأهداف تنفَّذ على مراحل. ومن هنا فما تعلنه السياسة الصهيونية والاسرائيلية في مرحلة من المراحل من أهداف قد تبدو مقصّرة عن أهدافها الكبرى، ما هو إلا تعبير عن مستلزمات التنفيذ المرحلي المتدرج للأهداف الأساسية التي تظل هي المطمح الأول والأخير.

ج ـ وثالث ما نذكره أن الاجتهادات حول الأسلوب المرحلي لتحقيق تلك الأهداف قد تتباين بين الفئات والأحزاب المختلفة، غير أن ذلك التباين لا يخفي وراءه أي شقاق حول الأهداف الأساسية نفسها.

د ـ ورابع هذه الملاحظات أي وسيلة تقرّب من الأهداف الكبرى وسيلة مقبولة لدى صانعي السياسة الاسرائيلية، وأن الغاية عندهم تبرر الواسطة دوماً.

هـ ـ وخامس هذه الملاحظات ما يتذرع به الصهاينة أمام العالم من حجج تبرر أساليبهم الوحشية والبربرية لبلوغ أهدافهم، ليس سوى ذرّ للرماد في العيون، لأن إقامة

---

(١٥) هيثم الكيلاني، المذهب العسكري الاسرائيلي (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩)، ص ٣.

دولة اسرائيل على نحو ما تتصورها الصهيونية تفترض، في صلبها، منذ أقدم النصوص التوراتية والتلمودية حتى اليوم، اصطناع البطش والارهاب والتدمير وسيلة مثلى مباحة بل واجبة.

٣ ـ وقد يكون رأس الأهداف الصهيونية الكبرى التي نتحدث عنها «إقامة مملكة إسرائيل القديمة». ومما يوضح الجذور التاريخية للصهيونية ذلك الكتاب القيّم الذي وضعه محمد عزة دروزة: **تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم**. والأدلة كثيرة على ما لجأ إليه زعماء الصهيونية من تزييف للحقائق التاريخية تبريراً للعمل من أجل بناء الدولة اليهودية «من الفرات إلى النيل». وما ورد على لسان زعماء الصهيونية والسياسيين الاسرائيليين من تصريحات تؤكد هذا الحلم، أمر يندّ عن الحصر. وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال بعض الشواهد وهي قليل من كثير:

أ ـ بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو (واحتجاج اليهود عليها لأنها لم تستجب لكامل مطالبهم)، أصدرت حركة الشبيبة التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية نشرة حملت عنوان **ألف باء الصهيونية** تحتوي على إشارة صريحة إلى الامتداد الكامل لنطاق «أرض اسرائيل» مرفقة بخارطة على النحو الآتي[١٦]: «هناك في أرضنا، نحن العبرانيين القدامى وأنتم العبرانيين القادمين، سوف نضع أيدينا في تضافر واتحاد على كل شبر كان يخصنا في الماضي: من صيدا إلى سوكوت، ومن تدمر إلى أور ـ قاصديم، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر، ومن الفرات الجبار إلى الصحراء المترامية الأطراف».

ب ـ في عام ١٨٩٥ نشر هرتزل كتابه المعروف **دولة اليهود**. وفيه يعلن «أن الحل لجميع مشكلات اليهود المضطهدين في هذا العالم هو قيام «دولة اليهود» على رقعة من الأرض متسعة تكفي أمة محترمة...»[١٧].

ج ـ أرض إسرائيل، كما نجدها في رواية هرتزل الشهيرة **الأرض القديمة ـ الأرض الجديدة**، تمتد إلى الفرات وتشتمل على بيروت وسلسلة جبل لبنان.

د ـ في المقدمة التي كتبها بن غوريون لـ **الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل عام ١٩٥٢** (وهو كتاب الدولة الرسمي) نقرأ ما يلي: «إن دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل».

هـ ـ أكد أكثر من زعيم من زعماء الصهيونية أن هدفها ايجاد قومية يهودية لشعب يعيش في أرض الوطن التاريخي في زعمهم. ومما كتبه أحد زعمائهم بهذا الصدد، وهو سوكولوف: «إن أهم أهداف موسى هو تأمين مستقبل الأمة اليهودية والاستيلاء على

---

(١٦) ابراهيم أبو لغد، محرر ومعد، **تهويد فلسطين**، ترجمة أسعد رزّوق، كتب فلسطينية؛ ٣٧ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٢)، ص ٣٤.

(١٧) نقلاً عن: الرشيدات، **فلسطين: تاريخاً.. وعبرة.. ومصيراً**، ص ٣١.

أرض الميعاد إلى الأبد»[١٨].

ولا حاجة إلى تعداد الأمثلة والشواهد، فهي لا تحصى، وكلها تشير إلى ذلك المنطلق الأساسي للحركة الصهيونية، نعني إقامة «مملكة إسرائيل الكبرى» من الفرات إلى النيل. وحسبنا، طلباً للمزيد أن نرجع إلى ذلك الكتاب الهام **استراتيجية الصهيونية وإسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها** وهو كتاب أصدرته مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية عام ١٩٨٢[١٩].

وقد لبس تحقيق هذا الهدف الأساسي حللاً مختلفة عبر مسيرة الحركة الصهيونية، ولكنه ظل دوماً وأبداً بمثابة الأفق الذي تعدو نحوه الصهيونية ويعمل له الكيان الاسرائيلي. وكل ما سواه من مكاسب توسعية ليس عنده إلا مرحلة ينبغي أن تؤدي إليه. أوَلم يصدر عن مناحيم بيغن حين وصل إلى الحكم للمرة الأولى وأصبح وزيراً للدولة، التصريح الآتي: «لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل، حتى ولا للعرب، ما دمنا لم نحرر وطننا بأجمعه، حتى ولو وقّعنا معاهدة صلح»[٢٠]؟ أولم تصبح فكرة «إسرائيل الكبرى» محور «المذهب العسكري الاسرائيلي»[٢١]؟

ويحاول هذا الهدف الكبير أن يجعل من الديانة اليهودية منطلقاً له وأن يسخر الذرائع الدينية والتاريخية في سبيل تبريره والعمل له. أولم يعلن بن غوريون عام ١٩٦٣ عن قيام ما أسماه «مملكة اسرائيل الثالثة»[٢٢]؟ أولم يصرح أكثر من مرة أنه يكافح لتحقيق ما يسميه «اسرائيل الكبرى» التي لا بد أن تضم كل المنطقة التي كان يسيطر عليها الملك داود والملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة[٢٣]؟

٤ ـ ويرتبط بهذا الهدف الأكبر، هدف بناء «مملكة إسرائيل» هدف آخر مكمل له، هو «بناء المجتمع الاسرائيلي العنصري». ووراء هذا الهدف زعم صهيوني جرى اصطناعه

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(١٩) حبيب القهوجي، مشرف، **استراتيجية الصهيونية وإسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها** (دمشق: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٨٢).

(٢٠) الكيلاني، **المذهب العسكري الاسرائيلي**، ص ٣٠٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٢٢) كانت المملكة الأولى مملكة داود، وأما الثانية فهي التي أقيمت بعد ثورة المكابيين عام ١٦٧ قبل المسيح ضد حلفاء الاسكندر.

(٢٣) روجيه غارودي، «عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية،» ورقة قدّمت إلى: **الصهيونية والعنصرية: أبحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية، بغداد، ٨ ـ ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦**، ٢ مج (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧)، مج ١: **في الفكر الصهيوني، الصهيونية في الممارسة**، ص ٣٧ ـ ٣٨. ومقال غارودي يعدد الحجج التي تصطنعها الايديولوجيا الصهيونية في هذا الشأن.

للتضليل والزيف، وهو أن الصهيونية ستنهض في فلسطين (والبلاد الأخرى التي تحتلها تدريجياً) بعبء «رسالة حضارية» تتمثل في تمدين فلسطين وتحضيرها.

ذلك أن الصهيونية انطلقت، منذ بداياتها الأولى، من مسلمات الفكر العنصري الأوروبي مع ما يتضمنه ذلك من النظر إلى اليهود على أنهم جنس أسمى وأرقى من العرب، بل أسمى من سائر الشعوب. بل إن الصهاينة عثروا على ضالتهم المنشودة في نيتشه (وهو غير يهودي) الذي عبر في مناسبات عديدة عن إعجابه بالدين اليهودي كدين أكثر رجولة من الدين المسيحي الذي يتصف فيما يزعم، بالأنوثة والعاطفية والنفاق(٢٤). وكلنا يعرف أسطورة «الشعب المختار»، وقول اليهود بتفوقهم على سائر الشعوب. ومن هذا القول ينطلقون إلى قول آخر يبررون به إنشاء مملكتهم. ذلك أن انبعاث هذا العرق المتفوق في نظرهم لا بد له من مكان ثابت مستمر حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته وإبلاغ رسالته كاملة متفوقة. والأدب اليهودي حافل بأفكار عنصرية مغرقة. كفكرة نقاء الدم اليهودي، وخلود اليهود، و«الخصوصية اليهودية». أولم يدّعِ المفكر الصهيوني المعروف آحاد هاعام المأخوذ بفكرة القوة المعنوية لليهود، أن هذه القوة موجودة في أصولهم حتى قبل التوراة بزمان بعيد؟ والنتيجة الطبيعية لمثل هذا الإيمان بالأوصاف الموروثة لليهود، الإيمان بالتفوق القومي، والاعتقاد بدونية الآخرين بالتالي، ولا سيما العرب. أوَلم يعالج سوكولوف في كتابه **تاريخ الصهيونية** مسألة التخلف الموروث لدى العرب والشرقيين بوجه عام؟ هذا الموقف العنصري الممجد لليهود ومزاياهم، المزري بسواهم، المنتقص من شأن العرب بوجه خاص، يعود إلى جذور تاريخية قديمة تعمل الصهيونية على تغذيتها وإحيائها. فالتلمود، وهو شريعة إسرائيل الكاملة وسجل تعاليمها وآدابها، يحفل بالتأكيد على مبادئ اليهودية في الاستعلاء والانعزالية والعدوان. والتوراة نفسها، كتاب اليهود المقدس، رسمت لليهود طريق الخلاص فأوصتهم بالغزو والقتل وسفك الدماء دون تمييز بين محارب وغير محارب، بين رجل وامرأة، بين شيخ وطفل، وجعلت مثل هذا المصير مصير البشر من غير اليهود، وجعلت الاستعباد والإبادة قدر البلاد التي أهداها رب إسرائيل لشعبه المختار، من مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات(٢٥).

٥ ـ ولا يتسع المجال للتوقف عند أهداف أخرى للصهيونية تمت بالنسب إلى موضوع بحثنا، من مثل: هدف القومية اليهودية، المتعارض بالتعريف مع القومية العربية.

---

(٢٤) نيتشه، إرادة القوة (لندن: [د.ن.]، ١٩٦٨)، ص ٩٢، ذكر في: خالد القشطيني، «الجذور الايديولوجية للعنصرية الصهيونية،» ورقة قدّمت إلى: **الصهيونية والعنصرية: أبحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية**، بغداد، ٨ ـ ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦، مج ١، ص ١٩.

(٢٥) انظر: عبد الله عبد الدائم، «بين الخرافة والحقيقة: خرافة الصهيونية وحقيقة العروبة،» **المعرفة**، السنة ٥، العدد ٤٩ (آذار/مارس ١٩٦٦)، ص ١ ـ ١٩.

وفيما ذكرناه عن العمل لبناء مملكة إسرائيل القديمة وعن المجتمع الاسرائيلي العنصري ما يوضح بعض جوانبه. وحسبنا أن نورد في هذا المجال وصفاً دقيقاً لهذا الهدف نجده في كتاب **المذهب العسكري الاسرائيلي**(٢٦): «وتعتبر إعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة بأوضاعها التاريخية وبكل ثقافتها وحضارتها القديمة، هي الغاية القومية لدولة إسرائيل، تعمل من أجل تحقيقها بحيث تكون مقر جميع يهود العالم». وواضح من هذا التعريف أن هدف القومية اليهودية يرتبط ارتباطاً عضوياً بالأهداف التي أتينا على دراستها، بل يتداخل معها. الأمر الذي يعفينا من التريث طويلاً عنده. يضاف إلى هذا أننا سنشير إليه عبر بعض الأجزاء التالية من دراستنا. على أننا إن ننس لا ننسى أن نذكّر بكتاب أبا إيبان عن **القومية**، ذلك الكتاب الهام الذي يتعرض للقومية بوجه عام وللقومية العربية بوجه خاص ولعلاقتها مع إسرائيل، والذي نجد ملخصاً قيّماً له في كتاب **إسرائيليات** لأحمد بهاء الدين(٢٧). ولعل خير نتيجة نخلص إليها من تحليلنا لمفهوم القومية اليهودية في صراعها مع القومية العربية هي تلك التي نجدها على لسان نجيب عازوري في كتابه الشهير **يقظة الأمة العربية** حيث يقول: «هنالك حادثان هامان من طبيعة واحدة، ولكنهما يقفان على طرفي نقيض: هما يقظة الأمة العربية، وسعي اليهود الخفي لاستعادة ملك إسرائيل على نطاق أوسع. إن مصير هاتين الحركتين هو الصراع المستمر، حتى تتغلب الواحدة منهما على الأخرى. ومصير العالم كله منوط بالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متعارضين»(٢٨).

ثالثاً: الترجمة العملية لأهداف الصهيونية من خلال صلتها بالموقف من القومية العربية ومن الوحدة العربية

١ ـ لقد أتينا على وصف أهم الأهداف الصهيونية ذات الصلة بموقفها من القومية العربية. وأهم هذه الأهداف ـ كما رأينا ـ هي الآتية: إقامة مملكة إسرائيل القديمة ـ بناء المجتمع الاسرائيلي العنصري ـ تحقيق القومية اليهودية ـ وهي، كما نرى، أهداف متكاملة بل متداخلة، يوحد بينها أنها تصبّ جميعها في بؤرة واحدة، هي خلق كيان قومي اسرائيلي على حساب الوجود العربي، يشمل مملكة اليهود التاريخية كما يزعمون، ويبقى عن طريق الاستيطان والعنصرية وطرد الشعب الأصيل أو إخضاعه. والوسيلة الأساسية لهذا الكيان هي التعاون الملتحم مع الاستعمار والامبريالية من أجل المحو التدريجي لروابط

---

(٢٦) الكيلاني، **المذهب العسكري الاسرائيلي**، ص ٣٧٨.

(٢٧) أحمد بهاء الدين، **اسرائيليات**، ط ٥ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢)، ص ١٩٦ ـ ٢٠٤.

(٢٨) N. Azoury, *Le Réveil de la nation arabe* (Paris: Plon, 1905), p. v,

ورد في: أسعد رزوق، «العقيدة الصهيونية في ظل «السلام»،» **شؤون فلسطينية**، السنة ١، العدد ٣ (تموز/يوليو ١٩٧١)، ص ٤٥.

الوجود العربي الموحد، ومن أجل إضعافه عن طريق تفريقه وتفتيته.

٢ ـ وطبيعي أن تكون لهذه الأهداف ترجمتها العملية في السياسة الصهيونية وفي سياسة الكيان الاسرائيلي بعد اصطناعه. ولن نتوقف كثيراً عند الترجمة العملية لتلك الأهداف في أصول السياسة الصهيونية، فالحديث عنها تعج به الكتب، وهي ماثلة في أذهان أبناء الأمة العربية على نحو ما تتجلى في المرحلة التاريخية التي تقع بين الولادة الرسمية للصهيونية منذ أيام هرتزل والمؤتمر الصهيوني الأول في أواخر القرن التاسع عشر وبين قيام دولة الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨. ويهمنا أكثر من هذا أن نتوقف عند الترجمة العملية لتلك الأهداف على نحو ما تتجلى في سياسة الكيان الصهيوني بعد نشأته. وهذا يقودنا إلى أن نتحدث ـ في كثير من الايجاز ـ عن الجوانب التالية للسياسة الإسرائيلية: التوسع والسياسة التوسعية ـ الأمن الاسرائيلي والحدود الآمنة ـ تفتيت الوجود العربي والحيلولة بين العرب وبين بناء كيانهم القومي الموحد.

٣ ـ أما السياسة التوسعية فنعرف عنها الشيء الكثير، ونكاد نعيش أحداثها ومخلفاتها يومياً، ونجد تحليلاً وافياً لهذه السياسة، يُغني عن سواه، في ذلك الكتاب القيم **استراتيجية الصهيونية وإسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها**(٢٩). ومن المزايا الفريدة لهذا الكتاب أنه يتحدث عن الاستراتيجيا التوسعية للكيان الصهيوني تجاه عدد من البلدان العربية، هي شرق الأردن ولبنان وسوريا ومصر وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج.

هكذا يشير فيما يشير، عند حديثه عن شرق الأردن، إلى أن الحركة الصهيونية فهمت وعد بلفور وفسرته على أنه يشتمل على الأراضي الواقعة على ضفتي الأردن، ثم عدّلت إسرائيل بعد ذلك مخططاتها بهذا الشأن (مرحلياً كما تفعل دوماً). كذلك يشير الكتاب إلى مطامع إسرائيل في مياه نهر الأردن وحياضه وروافده، وإلى مطامعها في استثمار أملاح البحر الميت، وإلى اعتبارها الأردن قاعدة أساسية لتوطين اللاجئين الفلسطينيين، وإلى احتلالها للضفة الغربية عام ١٩٦٧، . . . الخ.

وفيما يتصل بلبنان يشير بوجه خاص إلى الأطماع المائية لإسرائيل (مياه الليطاني والحاصباني)، وإلى المشروعات المائية الشهيرة كمشروع جونستون ومشروع فايتس، كما يشير إلى مخططات الكيان الصهيوني في لبنان في المرحلة الراهنة. ويبين الكتاب كيف رسمت اللجنة الاستشارية الصهيونية لفلسطين في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨، حدود البلد الشمالية بحيث جعلتها تمتد من الليطاني إلى بانياس.

وفيما يتصل بالجولان يذكر الكتاب عدداً من الوثائق والتصريحات الصهيونية (حتى قبل عام ١٩٤٨) تؤكد أطماع الصهيونية في هذه المنطقة. ويتجلى ذلك في التصور الذي

(٢٩) القهوجي، مشرف، استراتيجية الصهيونية واسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها.

رسمه بن غوريون عام ١٩١٨ لحدود الدولة الصهيونية على النحو الآتي: «تضم النقب برمته، ويهودا والسامرا، والجليل، وسنجق حوران، وسنجق الكرك (معان والعقبة)، وجزءاً من سنجق دمشق (أقضية القنيطرة ووادي عنجر وحاصبيا)».

ويذكر الكتاب ما قام به الاسرائيليون بعد عام ١٩٥٠ من أجل ضم الأراضي المجردة من السلاح إلى إسرائيل: مشروع تجفيف بحيرة الحولة والمستنقعات المحيطة بها شمالاً ـ بناء محطة كهربائية عند جسر بنات يعقوب شمال بحيرة طبرية. كما يشير إلى مطامع إسرائيل في الموارد المائية لهضبة الجولان (نهر بانياس بوجه خاص)، فضلاً عن مطامعها في الموقع العسكري الاستراتيجي للهضبة. كما يتحدث عن مشاريع الاستيطان الاسرائيلي في الجولان وعن المحاولات الفاشلة لتجنيس أبنائه.

وفيما يتصل بمصر، يشير الكتاب إلى أطماع الصهيونية ومخططاتها في سيناء (وإلى مشروع حاييم وايزمان منذ عام ١٩١٩ لضم سيناء)، وإلى مشروع الاستيطان الصهيوني في العريش. ويتوقف عند المرحلة السابقة على اتفاقية كامب ديفيد والتالية لها، متحدثاً عن الثمن السياسي الخطير للانسحاب الاسرائيلي من سيناء وعما تعبر عنه اتفاقية كامب ديفيد من نجاح كبير للاستراتيجيا الامبريالية الصهيونية، وما تمثله من محاولة ماكرة لتحطيم التضامن العربي والوحدة العربية. ألم يقل بيغن بعد هذه الاتفاقية ما معناه: إننا قمنا بهذه الاتفاقية لا لنعطل قوة أكبر دولة عربية فحسب، بل لنثبت بطلان فكرة القومية العربية؟

أما عن مخططات إسرائيلية تجاه شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج فيشير الكتاب إلى الأهداف الصهيونية في هذه المنطقة، تلك الأهداف التي عبّر عنها هرتزل بقوله: «إن ما يغرينا ليس الجزيرة العربية الموحدة، وإنما الجزيرة العربية الضعيفة المشتتة المقسمة إلى عدد من الإمارات الصغيرة الواقعة تحت سيادتنا والمحرومة من إمكان الاتحاد ضدنا»[(٣٠)]. كما يشير إلى اتفاقية، فيصل ـ وايزمان التي وقعت في ١٢/١/١٩١٩. ويتوقف عند الاشارة إلى مجموعة من الخرائط تمثل أطماع الصهيونية التوسعية، عرضت على الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والعشرين (في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١)، وفي اثنتين منها يشمل الوطن القومي اليهودي، إضافة إلى فلسطين؛ الساحل الأيمن لمصر بين النيل والبحر الأحمر، وسيناء، والأردن، وسوريا، والقسم الأكبر من العراق مع نافذة إلى الخليج العربي حتى غرب السعودية[(٣١)]. ومن أهم ما يذكره الكتاب أن الخطة

(٣٠) غرنيغوري بونداريفسكي، الخليج العربي بين الامبرياليين والطامعين في الزعامة (موسكو: [دار التقدم]، ١٩٨١)، ص ١٣٤.

(٣١) حبيب القهوجي، مشرف، مسيرة السادات الاستسلامية: من زيارة القدس المحتلة حتى صفقة كامب ديفيد، سلسلة دراسات مؤسسة الأرض؛ ٦ (دمشق: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨)، ص ٢٢.

الاستراتيجية للجيش الاسرائيلي عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، التي كُشف النقاب عنها ونُشرت في بومباي بالهند عام ١٩٥٧، أشارت إلى المناطق التي تود الاستيلاء عليها، وهي عديدة، من بينها: جزيرتا تيران والصنافير، وشبه جزيرة سيناء التي تؤمن الطريق إلى البحر الأحمر في حال الحرب العربية ـ الاسرائيلية والحرب العالمية. ومن بينها: العقبة وجبال السير ومؤاب التي تُعَد قاعدة للهجوم على العربية السعودية، وأرض شومر التي تتيح الاستيلاء على حقول الزيت في السعودية... ويبين الكتاب، فيما يبين، كيف حاولت الحركة الصهيونية، في أثناء الحرب العالمية الثانية، إقامة صلح مع السعودية (عن طريق مساع بذلها جون فيلبي في البداية)، وكيف رفض الملك عبد العزيز آل سعود المشروع واصفاً إياه بالرشوة اليهودية، وكيف رفض بعد ذلك عروض الرئيس الأمريكي روزفلت مستنكراً أي حل منفرد، مؤيداً الحلول التي يقبل بها العرب مجتمعين. ثم يتحدث الكتاب عن استراتيجية اسرائيل تجاه اليمن، وعن اهتمامها بهذا الجزء من الجزيرة العربية نظراً إلى موقعه الحساس وتحكمه بالمنفذ الجنوبي للبحر الأحمر، وعن احتلال اسرائيل (في ١٢/٣/١٩٧٣) لمجموعة من الجزر غير المأهولة قرب باب المندب.

وينتقل الكتاب إلى الحديث عن استراتيجية اسرائيل تجاه العراق وأطماعه فيه (منذ أيام هرتزل ومفاوضاته الفاشلة مع السلطان العثماني عبد الحميد حتى اليوم). ويتحدث، فيما يتحدث، عن النشاط الصهيوني في العراق أيام الانتداب البريطاني، وعن «المنظمة اليهودية» التي تشكلت سراً عام ١٩٢١ في بلاد ما بين النهرين، وعن الصلة بين الصهيونية ومشروع الهلال الخصيب في مطالع الأربعينيات، وعن حلف بغداد الذي تلاه...

٤ ـ وما أتينا عليه من إشارة إلى حلف بغداد يقدم لنا بعداً آخر من أبعاد التآمر الصهيوني الامبريالي على الوجود العربي والوحدة العربية. إنه يقدم لنا صورة عن الجهود الاسرائيلية (ومعها الجهود الامبريالية) لضرب الوطن العربي وإضعافه عن طريق ضرب طوق حوله غريب عنه، يتمثل في الحزام المحيط بالدول العربية (أو ما يسمى أحياناً باسم دول الجوار)، وهذا ما عبر عنه بن غوريون حين أعلن: «إن هدفنا هو تسوير نطاق العزلة حول العالم العربي»[٣٢]. والحديث يطول في هذا المجال ولا يتسع له المقام. وحسبنا إشارات خاطفة:

أ ـ بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة في شباط/فبراير ١٩٥٨، أصاب الذعر إسرائيل، لأنها تلقت ضربة أصابت صميم مخططاتها، نعني سعيها الأزلي الأبدي لتجزئة الوجود العربي وتفتيته. ولهذا اتجه بن غوريون إلى الأنظمة التي يمكن أن تشعر بتهديد

---

(٣٢) *Haaretz*, 4/6/1973,

ذكره: القهوجي، مشرف، استراتيجية الصهيونية وإسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها، ص ١٤٧.

الحركة القومية العربية التحريرية لها. وأهم تلك الأنظمة: نظام إثيوبيا (أيام هيلاسلاسي)، ونظام تركيا، ونظام إيران. لا سيما أن سكان هذه البلدان مجتمعة، إضافة إلى إسرائيل، أكبر من مجموع سكان الشرق الأوسط. ومن أجل إقامة حلف مع هذه الدول لا بد من توافر مظلة غربية لحمايته، وقد تم ذلك كما نعلم. وهكذا ولد في آب/ اغسطس عام ١٩٥٨ حلف بين إسرائيل وإثيوبيا وإيران وتركيا، بدون إعلان رسمي أو مراسيم توقيع. وكانت الدول الثلاث الأخيرة مرتبطة مع الامبريالية الأمريكية كما نعلم (حلف «السنتو» وحلف «الناتو»). وهكذا عوّلت الصهيونية على الدور الكبير الذي يمكن أن تؤديه تركيا وإيران إلى جانبها في الصراع العربي - الاسرائيلي. وقد عبّر عن ذلك أوضح تعبير ديفيد كاما في كتابه **الصراع لماذا؟ وإلى متى؟**. ويتوقع المؤلف في هذا الكتاب أن تتعاون كل من تركيا وإيران الشاه مع الكيان الصهيوني في المخطط الذي يعتزم تقسيم المشرق العربي إلى عدد من الدويلات الطائفية.

ب - وفيما يتصل بإثيوبيا بوجه خاص، اقترحت غولدا مئير، في عام ١٩٧١، خلال زيارتها للولايات المتحدة، على الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، إقامة حلف عسكري يضم اسرائيل وإثيوبيا وجنوبي افريقيا. ذلك أن إسرائيل تعتبر الحبشة أهم دولة افريقية بالنسبة إلى إسرائيل من الناحية الأمنية (لا سيما فيما يتصل بسيطرتها على البحر الأحمر الذي تطمح إلى تحويله بالتدريج إلى «بحيرة يهودية»).

ج - وفيما يتصل بإيران في عهد الشاه، وجه الرئيس الأمريكي نيكسون، في شباط/ فبراير ١٩٧٣، رسالة إلى الكونغرس الأمريكي حول السياسة الخارجية جاء فيها: «إن منطقة الشرق الأوسط تمثل أحد أقسى الامتحانات للولايات المتحدة، وإن شاه إيران وإسرائيل قادران على ضمان أمن المنطقة لما يملكانه من إمكانيات عسكرية واقتصادية، لذلك اقترح تزويد كل من إيران وإسرائيل بصنوف الأسلحة المطلوبة». ويكشف الكاتبان الإيرانيان (شوران سوبين، وسفار زوبيه) في كتابهما **العلاقات الخارجية الإيرانية** أن أهداف اللقاء الإيراني - الاسرائيلي كان العمل لعرقلة الوحدة العربية، ويشيران إلى رغبة إسرائيل في الخروج من عزلتها عن طريق إيران، ورغبتها في الاستمرار بالتزود بالنفط الإيراني الذي استهدف قرار إغلاق خليج العقبة في أيار/ مايو ١٩٦٧ حرمان إسرائيل منه. ويبين الكاتبان كيف التقت مصلحة البلدين في تقديم الأسلحة الاسرائيلية عن طريق إيران للملا مصطفى البرزاني في العراق[٣٣].

د - وفيما يتصل بتركيا، يقول أبا إيبان في كتابه **صوت إسرائيل**[٣٤] «إن تبادل

---

(٣٣) *Jerusalem Post*, 2/2/1979,
ذكره: القهوجي، مشرف، **استراتيجية الصهيونية وإسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها**، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٣٤) Abba Eban, *Voice of Israel* (New York: Horizon Press, [1969]), p. 142.

العلاقات بين إسرائيل وتركيا يعتبر دليلاً على سلامة المنطق الاسرائيلي القائل بأن لإسرائيل هوية شرق ـ أوسطية». وفي ١٩٥٨/٨/٢٨ توجه بن غوريون سراً إلى تركيا وأجرى محادثات مع عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي. وقد تم الاتفاق بينهما على تشكيل تحالف سياسي ـ اقتصادي، وذلك في إطار استكمال حلقات «حلف السوار» الذي يشمل إيران وتركيا وإثيوبيا.

٥ ـ وقد كان لزاماً علينا ـ استكمالاً لعرض المخططات الصهيونية والمساعي الاسرائيلية لتطويق الكيان العربي وتمزيقه وإضعافه ـ أن نتحدث عن العلاقة بين إسرائيل وبين حلف الأطلسي (الذي أنشئ في ١٩٤٩/٨/٢٤ أي بعد قيام الكيان الاسرائيلي بسنة واحدة). غير أن المجال لا يتسع لذلك، والمظانّ حول هذا الموضوع متوافرة وعديدة، وحسبنا أن نذكّر بمحاولات إسرائيل المتكررة للانضمام إلى حلف الأطلسي، وأن نذكر بالتواطؤ الاسرائيلي مع ذلك الحلف في العدوان على مصر عام ١٩٥٦ وبالتواطؤ معه أيضاً عام ١٩٥٧ في تهديد سوريا (الحشود التركية على الحدود السورية واقتراب قوات الحلف البحرية وسفن الأسطول السادس الأمريكي من ميناء اللاذقية استعداداً لغزو سوريا). حسبنا أن نذكّر بالاتفاقية السرية عام ١٩٧٥ بين إسرائيل وحلف الأطلسي، وبالمناورات المشتركة التي قامت في الفترة بين ٦ و١٨/ ١٩٧٧/٥، هذا فضلاً عن التعاون بين إسرائيل والحلف في العدوان على سوريا ومصر والأردن عام ١٩٦٧.

٦ ـ وآية هذا كله أن السياسة التوسعية الاسرائيلية وما يلحق بها من التحالف مع بعض دول الجوار في المنطقة، وما يثوي وراءها من أحلاف غربية وتعاون إسرائيلي ـ غربي، جهود موصولة محركها الأول والأخير تحطيم الطوق العربي المضروب حول إسرائيل، عن طريق العدوان على الدول العربية واحتلال أراضيها، وعن طريق التآمر على أي تقدم يتم في مجال التضامن العربي والوحدة العربية والتحرر العربي. فالكيان الاسرائيلي لا يهدأ له بال ولا ينام قرير العين، مهما يربح من حروب، إلا يوم يصبح الطوق العربي، الذي يبلغ منه الحلقوم، نمراً من ورق كما يرجو ويتمنى، ولا حول له ولا طول، بعد أن تذكي فيه عوامل الفرقة والصراع، فيما تزعم وتريد.

٧ ـ ذلك أن إسرائيل تشعر بأنها لا تستطيع أن تبقى وسط هذا الوجود العربي المعادي لها إلا إذا استمرت في التوسع إلى ما لا نهاية، لا سيما إذا ظل هذا الوجود العربي موحداً متضامناً. وهي دوماً تتذرع بدعوى «الحدود الآمنة» كي تبرر عدوانها المستمر وتفريقها المستمر لذلك الوجود العربي. ومقولتها الأساسية في هذا المجال هي الآتية: «إن أمن إسرائيل يمر في عواصم الدول العربية». ونحن ندرك أبعاد هذه المقولة إذا فرقنا بوجه خاص بين نوعين من الأمن الاسرائيلي: الأمن الجاري وهو يتصل بالعمل اليومي للآلة العسكرية الاسرائيلية في إطار الصراع الدائر في المنطقة، والأمن الاستراتيجي (وهو الأعمق والأهم) أي الأمن على صعيد الاستراتيجيا العليا للكيان

الصهيوني، وهو المتعلق بترسيخ وجود ذلك الكيان أو تثبيت مبرر ذلك الوجود[٣٥].

والحديث عن معنى «الأمن الاسرائيلي» و«السلام الاسرائيلي» المزعوم، وعن الحدود الآمنة والدائمة، حديث يطول. وحسبنا أن نقول إن الحدود الآمنة التي تطالب بها إسرائيل حدود لا حد لاتساعها. وكلما احتلت إسرائيل أرضاً شعرت أنها في حاجة إلى احتلال أجزاء جديدة لحمايتها، وهكذا دواليك. وليس من حد لحدود إسرائيل الآمنة المزعومة إلا المزيد من التوسع. هذا إضافة إلى التقاء هذه السياسة الاستراتيجية مع الأهداف الأساسية للصهيونية كما بيّنا، أهداف بناء دولة إسرائيل الكبرى. لقد غرست إسرائيل نفسها في قلب وجود عربي يلفظها بطبعه، ثم طالبت بحماية نفسها من هذا الوجود. ولا حماية حقة لها إلا عن طريق تحطيم الوجود العربي كله وتفتيته وإضعافه. ولهذا تجهد وتعمل. وقد عبّر محمد حسنين هيكل عن مثل هذا المعنى ولكن من زاوية أخرى، في حوار نشرته مجلة **المستقبل العربي**، حين قال[٣٦]: «بل إنني أزعم ما هو أكثر من ذلك وأقول: إنه حتى إذا اعترفت كافة الدول بإسرائيل، فهي (أي إسرائيل) مضطرة لأن تقيم الأسوار الشائكة من حولها حتى لا تذوب... إنها مهددة بخطر الذوبان من الداخل ـ أولاً ـ من العرب الفلسطينيين، ومن الخارج ـ ثانياً ـ من الوطن العربي من حولها. أليس غريباً أن بلداً مثل إسرائيل لا يزال عاجزاً عن أن يحدد ماذا سيفعل بالأراضي: هو يريدها بدعوى الأمن، ولكنه يخشى منها بدعوى الذوبان! ولن يصلوا إلى قرار لأن ليس هناك كيان دولة قومية». ونضيف إلى هذا القول إن كيان الدولة القومية اليهودية يطمئن وترسخ أقدامه يوم يهتز كيان القومية العربية. وهذا هو هدف إسرائيل وهذا هو سبيلها الوحيد إلى «أمنها».

٨ ـ وبعد كل ما قلناه، يغدو من تحصيل الحاصل أن نقول إن الترجمة العملية للأهداف الصهيونية تشمل في خاتمة المطاف، بل في بدايته والقلب منه «تفتيت الوجود العربي». لقد وردت هذه الكلمة في أكثر من موضع في هذه الدراسة. ولعلها مفتاح موضوعنا ومحط رحاله.

ولا أدل على ذلك مما ذكرنا، ومما نعرف جميعاً بتفصيل أكبر، عن موقف إسرائيل من أي محاولة لتوحيد الوجود العربي، بدءاً من القيادة العسكرية المشتركة التي أنشأتها مصر وسوريا في ١٩/ ١٠/ ١٩٥٥ ثم انضمت إليها الأردن (والتي كان تحطيمها أحد الأسباب الرئيسية للعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦)، مروراً بالتعاون العسكري العربي عام ١٩٦٧ (الذي كان من أهم الأسباب التي انتهزتها إسرائيل للانطلاق في

---

(٣٥) انظر: الياس شوفاني، «في مفهوم اسرائيل لما تسميه الأمن القومي،» **شؤون فلسطينية**، العدد ١٢٥ (نيسان/ ابريل ١٩٨٢)، ص ٢٠ ـ ٣٢.

(٣٦) محمد حسنين هيكل، «قضايا التسوية والصراع العربي ـ الاسرائيلي،» مقابلة، أجرى الحوار مجدي حماد، **المستقبل العربي**، السنة ٤، العدد ٣١ (أيلول/ سبتمبر ١٩٨١)، ص ١٣٠.

عدوانها التوسعي في حرب ١٩٦٧) وانتهاء بحرب ١٩٧٣ (التي كانت من أهم ما حمل إسرائيل ومن وراءها على عقد اتفاقية كامب ديفيد مع مصر).

لا أدل على ذلك أيضاً وخاصة، من المؤامرات الاسرائيلية والاستعمارية ضد الجمهورية العربية المتحدة التي وضعت إسرائيل بعد قيامها بين فكي الكماشة. والحديث عن هذه المؤامرات يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها حسبنا منه أن نذكر بمؤامرة الانفصال الكبرى.

على أن ما يستحق منا وقفة خاصة، في إطار هذا السعي الجاهد من قبل الحلف الصهيوني الامبريالي لتحطيم الوجود العربي والحيلولة دون بناء كيانه القومي الموحد، هو مخطط «التفتيت» الذي اكتسب أهمية خاصة في السنوات الأخيرة، والذي كاد يصبح شعار الكيان الاسرائيلي وموجه خططه خلال الثمانينيات وما بعدها. وهذا ما يعبر عنه كتاب **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة** حين يذكر أن «مهمات إسرائيل في هذه المنطقة وإخضاعها وإضعافها بحيث لا تقوى حتى على حماية نفسها وعلى رفض إخضاعها للهيمنة الامبريالية، تقتضي، بالدرجة الأولى، تمزيق الوطن العربي وفق قانون لا ينتهي: «قانون التفتيت المستمر»[٣٧]. وهذا القانون الناظم للاستراتيجيا الاسرائيلية، هو الذي يفصّل الحديث عنه عوني فرسخ في كتابه الهام الفكر الامبريالي ومخطط التفتيت[٣٨]. ونظراً إلى أهمية هذا المخطط وصدارته على سواه في استراتيجية الكيان الاسرائيلي خلال هذه العقود الأخيرة من هذا القرن، يجدر بنا أن نتريث ـ بإيجاز عند أهم ملامحه وأغراضه وأساليبه:

أ ـ من أبرز قسمات مخطط التفتيت هذا «استغلال الكيان الاسرائيلي للأقليات القومية والطائفية ومحاولة اللعب بها». ذلك أن إسرائيل ومن وراءها يدركون أعمق الادراك أن استخدام السلاح الطائفي الديني والعرقي هو دوماً أسهل مركب وأمضاه وأشده أثراً. وخير ما يفصح عن سياسة إسرائيل في هذا المجال ويفضحها ما يقوله الكاتب الصهيوني ديفيد كاما في كتابه **الصراع لماذا؟ وإلى متى؟** (وقد سبقت الاشارة إليه). وفيه نقع على النص الصارخ التالي الذي يكشف عن محاولات التزييف العريقة لدى الصهيونية: «إن هنالك وطناً واحداً للعرب عائداً لهم، وليسوا غرباء فيه، ألا وهو الجزيرة العربية. أما بقية البلاد التي يقيمون الآن عليها فليسوا سوى محتلين لها مسيطرين عليها، يقيمون فيها امبراطورية مغتصبة، ويستنكرون بكل وقاحة الحقوق الطبيعية للشعوب التي لها الحق الشرعي في هذه المنطقة قبل «الاحتلال العربي» والتي أصبحت الآن «شعوباً وطوائف لاجئة» في الشرق الأوسط، لها كل الحق في تقرير المصير

(٣٧) القهوجي، معد، **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، ص ٨٧.

(٣٨) عوني عبد المحسن فرسخ، **مخطط التفتيت: التحدي الامبريالي ـ الصهيوني المعاصر** (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٥).

والاستقلال السياسي. وهنالك عبء من الحقوق أو الواجبات ملقى على كاهل الاسرائيليين كي يقدموا يد العون إلى المتعفنين في عبوديتهم داخل السجن العربي. لذا يجب ايجاد لغة مشتركة وطريق عمل واحدة مع الأكراد في العراق والدروز في سوريا والزنوج في السودان والموارنة في لبنان والأقباط في مصر وسائر أبناء الشعوب والديانات التي تحارب سوية من أجل التحرير والاستقلال. إن من العدالة والنزاهة والحكمة السياسية أن تعمل إسرائيل على الفك التام للامبراطورية التي تعتبر آخر امبراطوريات الماضي التي انتهت في عصرنا»(٣٩).

ولسنا في حاجة إلى المزيد من التحليل للأهداف والمخططات الاسرائيلية في هذا المجال بعد هذا القول المبين الخطير. وهو قول جاوز الأنظار والأفكار، كما نعلم، إلى العمل والتطبيق، كما تشهد على ذلك سياسة الكيان الصهيوني في العقدين الأخيرين بوجه عام وفي الثمانينيات بوجه خاص. وليست أحداث الأكراد في العراق وإشغال الجيش العراقي بها أثناء حرب ١٩٧٣ عنا ببعيدة! وليست المأساة اللبنانية والوقود الاسرائيلي الدائم لها غائبة عن أنظارنا وأفكارنا! وهل منا من يجهل مشكلة جنوب السودان وأبعادها الامبريالية الصهيونية؟

ب ـ وإذا أردنا المزيد من التدليل على عمق المخطط الصهيوني الامبريالي العامل على تفتيت الوجود العربي عن طريق زرع الطائفية الدينية والعرقية وإذكائها، فما علينا إلا أن نستشهد بذلك القول الخطير على لسان منظر وكاتب صهيوني معروف، هو اريبه أورنشتاين جاء فيه: «على نقيض شعار الوحدة العربية الذي ينادي به العرب، إنني أؤمن بتفسخه بعد حين وظهور طوائف عرقية وجغرافية، مثل لبنان المسيحي، ومنطقة الأكراد شمال العراق، وجبل الدروز، ودولة إسرائيل...»(٤٠).

والحديث يطول عن مخططات إسرائيل في لبنان ولزعزعة الأمن فيه منذ عام ١٩٥٤ (اجتماع بن غوريون وشاريت ولافون ودايان في شباط/ فبراير ١٩٥٤ الذي تحدث فيه بن غوريون قائلاً: «لقد حان الوقت لتحريك الموارنة في لبنان للإعلان عن إقامة دولة مسيحية»). والحديث كذلك عن مخططاتها فيما يتصل بإنشاء كيانات عرقية، وإثارة روح التمرد بين صفوف الأقليات وعن سعيها لإثارة الصراع بينهم وبين سواهم من أبناء الشعب العربي، ... الخ.

ج ـ ذلك أن الصهيونية وما تلاها تنظر إلى الأمر كله، كما سبق أن ذكرنا، من

---

(٣٩) ديفيد كاما، الصراع لماذا؟ وإلى متى؟، ترجمات خاصة بمؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ص ٤١ ـ ٤٢، ذكره: القهوجي، مشرف، **استراتيجية الصهيونية وإسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها**، ص ١٢٧.

(٤٠) *Ma'ariv*, 20/9/1977,

ذكره: القهوجي، مشرف، المصدر نفسه، ص ١٢٨.

منظار تعبئة «حركة التحرر القومي اليهودي» في زعمها ضد «الامبريالية العربية» على حد تعبيرها، أي ضد القومية العربية والوجود العربي المتكامل الموحد. بل يبلغ بها التآمر في هذا الصدد حداً يجعلها تنكر «أي وجود للأمة العربية»، موهمة «العالم أن القبائل التي تتكلم العربية على حد قولها «ليست ولم تكن ذات يوم أمة واحدة» وأن «العرب ليسوا أمة بل هم خليط من القبائل والطوائف الدينية، وأن حركتهم القومية ليست في جوهرها إلا تقليداً لأوروبا وبضاعة مجلوبة مستوردة من الخارج»[٤١].

د ـ هذه الأوجه والملامح المختلفة للمخطط الصهيوني الامبريالي من أجل «تفتيت الوجود العربي» نجد أفضل تعبير وترجمة عملية له في ذلك المقال الخطير الذي نشرته مجلة **الدراسات الفلسطينية**[٤٢] (النسخة الفرنسية) وعنوان المقال: «خطة إسرائيل في الثمانينيات»، وهو بقلم أودد ينون[٤٣]، الموظف في وزارة الخارجية الاسرائيلية سابقاً. وقد نشرت المقال بالعربية مجلة **الثقافة العالمية** الكويتية، في ملحق العدد (١٢) الصادر في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣. ويقول مترجم المقال ومقدمه وهو اسرائيل شاهاك، إنه يمثل في نظره «الخطة المفصلة والدقيقة للنظام الصهيوني (نظام شارون وإيتان إذ ذاك) القائم في الشرق الأوسط: وهي الخطة القائمة على تقسيم المنطقة بأكملها إلى دويلات صغيرة، وإنهاء جميع الدول العربية القائمة».

وفي هذا المقال الخطير يقدم الكاتب وصفاً لخطة إسرائيل في الثمانينيات، المنطلقة من العمل الدائب من أجل تفتيت الوجود العربي، عن طريق اللعب بما يسميه «الفسيفساء» الطائفية والعرقية التي تَسِمُه وتَصِمه والتي تجعل منه، في زعمه، وجوداً أبعد ما يكون عن الوحدة وأقوى ما يكون استعداداً لعوامل الائتكال والتفتيت، ميسراً لنجاح المحاولات التي تستهدف إعادة النظر في خارطته السياسية وفي كياناته القائمة من أجل خلق كيانات طائفية وعرقية جديدة.

هـ ـ سواء كان المخطط على نحو ما يصفه هذا الكاتب مخططاً يمثل وجهة نظر صانعي السياسة الاسرائيلية جميعهم أو بعضهم، وسواء خضع للتعديل والتحوير المرحلي أو لم يخضع، فإن الهدف الاسرائيلي واحد، وإن اختلفت التصورات والسبل من أجل

---

(٤١) Aharon Cohen, *Israel and the Arab World*, translated from Hebrew by Aubrey Hodes, Naomi Handelman and Miriam Shimeoni, Beacon Paperback; 527, abridged edition (Boston: Beacon Press, 1976), p. 73,

ذكره: القهوجي، مشرف، المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٤٢) ظهر المقال أصلاً بالعبرية في المجلة اليهودية الصهيونية اتجاهات، العدد ١٤ (شباط/فبراير ١٩٨٢).

(٤٣) Oded Yinon, «Stratégie pour Israël dans les années 80,» *Revue d'études palestiniennes*, no. 5 (automne 1982), pp. 74-85.

تحقيقه، ونعني بهذا الهدف تأجيج الصراعات الطائفية والعرقية وسواها بين أبناء الأمة العربية، وإعادة تركيبها السياسي استناداً إلى النتائج والأزمات التي يتم توليدها بسبب هذه الصراعات.

ولئن كان الوعي العميق لمثل هذه المخططات والحذر منها والعمل على تعطيلها وفشلها أموراً واجبة تستلزم من أبناء الأمة العربية جهداً فكرياً وسياسياً موصولاً، فإن ما يجعلها معروضة للانحدار والانحسار في خاتمة المطاف، مهما تعصف رياح القلق والاضطراب، هو تلك الحقيقة التي تخيف إسرائيل وتخيف الامبريالية من ورائها، وهي أن الأمة العربية (على تنوع بنيتها الاجتماعية والبشرية تنوعاً خصيباً) أمة موحدة التاريخ والمشاعر والثقافة والتراث الروحي واللغة والمصير، وأنه ما اجتمع لأمة من الأمم في يوم من الأيام مثل ما اجتمع للأمة العربية من مقومات الوحدة. ولا يتسع المجال للخوض في هذا الموضوع الشاسع الذي أشبعه الدارسون بحثاً. وحسبنا أن نقول[٤٤]: إن علينا، كيما ندرك معنى الوجود العربي الموحد ونرد على شكوك المشككين، أن نذكر دوماً أن ثمة فارقاً بين «الأمة» وبين «الحركة القومية». فالأمة العربية ذات المشاعر الموحدة والتراث الموحد والمستقبل الموحد قائمة هناك في واقع النفوس، وفي الشعور واللاشعور الجماعي لأبناء الشعب العربي. أما حركة القومية العربية فهي التي يتوجب عليها أن تجعل من هذا الوجود بالقوة وجوداً بالفعل، عن طريق النظرية القومية الواعية المتكاملة والنضال القومي اليومي المتصل الدائب في سبيلها. وإذا كان من الجائز أن تشهد هذه الحركة القومية مداً وجزراً، وأن تضعف حُمياها أو تشتد تبعاً للظروف، فإن الوجود القومي باقٍ حي، ينبغي أن نعود إليه دوماً لتصحيح أي هزال قد يصيب مسيرة الحركة القومية ولمقاومة أي خطر يهددها، ولا سيما الخطر الصهيوني الامبريالي. وبتعبير أدق إن علينا في نضالنا العربي القومي أن نجمع بين الانفعال (الذي يغذينا به الوجود الحي للمشاعر القومية بكل ما تشتمل عليه من مقويات تاريخية وتراثية وثقافية ومستقبلية) وبين الديالكيتيك الفكري (الذي ينبغي أن تقدمه لنا النظرية العربية المتكاملة العقلانية، بكل ما ينبغي أن تمتلكه من وعي لشتى الظروف المحيطة بالأمة العربية وللوسائل التي تمكنها من التحرك وسط هذه الظروف).

خاتمة

١ ـ كان بودنا، لولا ضيق المجال، أن نتحدث عن جوانب أخرى للحركة

---

(٤٤) يحسن الرجوع في هذا المجال إلى: عبد الله عبد الدائم: **التربية القومية: بحث في مبادئ القومية العربية ووسائل التربية عليها** (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٠)؛ **في سبيل ثقافة عربية ذاتية: الثقافة العربية والتراث** (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٣)، و**التربية والعمل العربي المشترك في سبيل تربية عربية أصيلة متكاملة** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٨).

الصهيونية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموقفها من القومية العربية والوحدة العربية. وعلى رأس تلك الجوانب الأخرى الأهداف الاقتصادية لإنشاء الكيان الاسرائيلي الطامع في التوسع دوماً وأبداً، والارتباط الوثيق بين تلك الأهداف وبين محاربة القومية العربية وتمزيق الوجود العربي وتفتيته، من أجل التمكين لإسرائيل كقاعدة أساسية للرأسمال اليهودي والامبريالي في الدول العربية ودول أفريقيا وآسيا. على أن هذا الهدف وسواه من الأهداف التي لم نأتِ على ذكرها صراحة وعلى نحو مفصل، متضمنة بالضرورة فيما أثبتناه من معالم للسياسة الصهيونية والاسرائيلية (كالسياسة التوسعية والسياسة العنصرية وسياسة التفتيت وسواها) رائدها التفرد بالمنطقة عسكرياً واقتصادياً وحضارياً وإقامة «مخفر أمامي للامبريالية والصهيونية في الشرق الأوسط» يقدم لها الخدمات العسكرية والسياسية والاقتصادية المنشودة. ولا حاجة إلى القول إن التآمر على الوجود العربي الموحد وعلى القومية العربية هو من شروط تحقيق الهدف الاقتصادي للصهيونية والامبريالية، كما أن قيام الحلف الاقتصادي الصهيوني الامبريالي وتغذيته كانا ولا يزالان من أهم وسائل التآمر على القومية العربية والوجود العربي.

٢ ـ وبعد، لعلنا ندرك من دراستنا هذه كيف أن العرب ـ والعالم كله ـ يجدون أنفسهم على مشارف القرن الحادي والعشرين، أمام حركة صهيونية امبريالية عنصرية، تفوق في عنصريتها و«شوفينيتها» وبربريتها كل ماعرفه التاريخ القديم والحديث من حركات عنصرية توسعية استعلائية تعمل على توكيد ذاتها عن طريق إبادة سواها. إن من الوصمة حقاً في جبين الإنسانية أن تظهر في القرن العشرين وتستمر حتى نهاياته حركة عنصرية استيطانية من هذا الطراز، تقول بتفوق أبنائها على سواهم من البشر، وتحقر الشعوب غير اليهودية وتؤمن بدونيتها، وتقول بنقاء العنصر البشري اليهودي، وتدعو إلى طرد العرب، ولا ترى حلاً لحدودها الآمنة إلا ابتلاع أراضٍ جديدة لهم.

وطبيعي أن يكون العدو الأول لمثل هذه الحركة القومية العنصرية العادية المستعلية هو القومية العربية وما تحمله من معاني النضال من أجل بناء الكيان العربي الحضاري المتكامل والموحد والمنيع، وأن يكون الهدف الأول لاستراتيجيتها منذ أن وجدت حتى اليوم إضعاف الوجود العربي، وبث الفرقة بين أبنائه، وزرع بذور الشقاق الطائفي والعرقي بين المنتسبين إليه، وبذل قصارى الجهد من أجل تفتيته وتمزيقه وتغيير بنيته وتوليد كيانات جديدة فيه.

ومن أجل هذا الهدف الأكبر تعبئ الحركة الصهيونية الاسرائيلية القوى الاستعمارية والامبريالية، وتلعب بالورقة الطائفية والعرقية في الأقطار العربية المختلفة، وتبث الأفكار المزيفة التي تضعف الإيمان بالقومية العربية لدى أبنائها، وتسخّر السياسة والاقتصاد والمال والحرب. إنها مضطرة ـ بحكم قانون وجودها المصطنع ـ إلى تبرير وجودها الزائف عن طريق الإمعان في التزييف وعن طريق الإصرار على الباطل وتزيينه للعالم.

٣ ـ ولا سبيل إلى مغالبة هذا التآمر الصهيوني الاسرائيلي الامبريالي على الأمة العربية

إلا عن طريق وعي الحركة القومية العربية لهذه الأهداف الاسرائيلية وعياً دقيقاً وعميقاً، رائده والخيط الناظم له أن تدرك هذه الحركة أعمق الادراك أن العمل الجاد العنيد من أجل بناء الوجود القومي العربي الحضاري المتكامل هو وحده الذي يستطيع أن يقف في وجه هذه الحركة القومية الصهيونية المزيفة، وأن كل هزيمة عسكرية تصاب بها الأمة العربية عن طريق الآلة العسكرية الصهيونية الامبريالية، تظل هزيمة محمّلة بوعود تجاوزها في المستقبل وقلبها إلى انتصارات أكيدة، إذا ظل الوجود العربي مؤمناً بذاته ووحدته ومصيره المشترك، مدركاً لضخامة إمكاناته عندما تحكم تعبئتها ويحكم توظيفها واستثمارها، موقناً أن الخيار أمامه بين العمل لبناء الكيان العربي الصامد المتين الذائد عن حقه بكل قواه، وبين قبول الأمر الواقع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، هو في حقيقته خيار بين الحياة وبين السبات الذليل الخانع بل الموت الطويل المدى.

٤ ـ ولقد رأينا عبر سطور هذه الدراسة أن الأهداف الصهيونية الإسرائيلية الامبريالية أهداف كانت، ولا تزال، أهدافاً بيّنة واضحة: إقامة مملكة إسرائيل القديمة المزعومة ـ بناء المجتمع الاسرائيلي العنصري الاستيطاني ـ بناء القومية اليهودية المتعالية المستعدية ـ محاربة القومية العربية. ورأينا كذلك أن الترجمة العملية لتلك الأهداف ترجمة واضحة صريحة من خلال القول والعمل: السياسة التوسعية ـ سياسة الأحلاف مع دول الحزام المحيطة بالسوار العربي ـ التحالف مع الامبريالية وحلف الأطلسي ـ القول «بالحدود الآمنة» والتوسع في محتواها بغير حد ـ تفتيت الوجود العربي ولا سيما عن طريق تفجير الصراعات الطائفية الدينية والعرقية بين أبنائه ـ إعادة تركيب بنية الوطن العربي عن طريق تمزيقه إلى كيانات طائفية وعرقية وإقليمية ـ إضعاف الروح القومية العربية عن طريق زرع الشكوك والدسائس حول فكرة القومية العربية.

هذه الأهداف وهذه الترجمة العملية لها، لا تزال تفتقر إلى أهداف عربية واضحة تقابلها وتغالبها، ولا تزال تعوزها الخطط العربية العملية المشتركة التي تترجم مثل تلك الأهداف إلى عمل منهجي موصول. ولئن كانت الغلبة مكتوبة في النهاية للوجود العربي، بحكم التباين الصارخ بين إمكاناته وإمكانات الوجود الاسرائيلي الدخيل، وبحكم وعيه عاجلاً أو آجلاً لمستلزمات بنائه ووجوده، فإن التعجيل في بلوغ هذه النهاية هو الواجب الملقى على الجيل العربي الحالي، كيما يجنّب الجيل المقبل مآسي الذل والخنوع الطويل وبلاء البربرية والوحشية التي لا تعرف الحدود.

إن علينا، بعد أن نعي أبعاد موقف الصهيونية وإسرائيل من القومية العربية، أن نرسم، بعمق ودأب، وبالتعاون مع القوى الإنسانية الخيرة، موقف القومية العربية ـ المدافعة عن الإنسانية وقيمها حين تدافع عن ذاتها ـ من الحركة الصهيونية المفتعلة العدوانية الشرسة التي تحاول أن تحطم على صخرة مطامعها عالم القيم الإنسانية.

فهرس

(أ)

آحاد هعام: ٥٢٩
آل سعود، عبد العزيز: ٤٢، ٦١، ٨٣، ٥٣٣
ابراهيم باشا: ٤٨٠، ٤٨٦
ابن الهيثم، الحسن: ١٦١
أبو بكر الصديق: ٣٠
أبو ذر الغفاري: ١٦١
أبو العبّاس السفاح (الخليفة العباسي): ١٤٣
اتفاقية الجلاء (١٩٥٤) (مصر/بريطانيا): ١٧٦، ٤٥٢، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٣
اتفاقية السلاح (١٩٥٥) (مصر/ تشيكوسلوفاكيا): ٤٥٦
اتفاقية فيصل ـ وايزمن (١٩١٩): ٥٣٢
اتفاقية كامب دايفيد انظر معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية (١٩٧٩)
الاحتكار: ٤٢٦، ٤٢٧
أحمد باشا (الجزار): ٤٨٠
أحمد، مهند: ٣٤١
أحمس الأول: ٢٣٢، ٢٣٣
اخناتون: ٢٣٣
الأدب الأوروبي: ١٥٢
ادريس، سهيل: ١٦٤، ١٦٧، ٢١٠، ٢٤٤، ٤٢٣
ارسلان، شكيب: ٢٠١
استرابون: ٢٣٣، ٢٣٤
الاستعمار الأوروبي: ١١٥، ١٨٨، ٢٤١، ٣٥٢، ٤٨٣، ٤٨٤
الاستعمار البريطاني: ١٨، ٣٨٤، ٤٥٢، ٤٥٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٥
الاستعمار التركي: ١٤٥، ٢٣٨، ٣٥٢
الاستعمار الغربي: ١٠، ١٢، ١٩، ٤٨، ١٤٥، ٢١٥، ٢٣٦، ٣١٧
الاستعمار الفرنسي: ١١٩، ٢٠٣، ٢١١، ٣٠٤، ٤٣١، ٤٥٩
الاستقلال القومي: ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦
أسعد، محمد: ٤١٦
الإسلام: ١٢، ١٣، ١٧، ٢٧، ٢٨
الاشتراكية: ١٦١، ١٨٢، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥٩، ٢٨٧ ـ ٢٩٠، ٣٢١، ٣٥٤ ـ ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٧١ ـ ٣٧٤، ٣٩١، ٤٠٦، ٤١٥، ٤٢٢، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٦٢
أشكول، ليفي: ٤١٧
الإصلاح الزراعي: ٤٥٨
الأعظمي، أحمد عزة: ٢٤١
الاعلام الغربي: ١٦
الأفغاني، جمال الدين: ٢٣٧، ٤٩٨
الاقتصاد الاسرائيلي: ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٩٦، ٣٢١
الاقتصاد العثماني: ٤٧٩، ٤٩١
الاقتصاد الكولونيالي: ٤٢٨، ٤٢٩
الاقتصاد المصري: ٤٦٧
الاقطاع: ١٥٩، ١٦٠، ٢٤٤، ٤٢٩، ٤٣٠
الإقليمية: ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٨، ٣٦٢ ـ ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٨ ـ ٣٨٠،

٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٣، ٤١٧، ٤١٨
الإقليمية العربية: ٣٦٢، ٣٦٣، ٤١٥، ٤١٧، ٤١٨
الإقليمية الفلسطينية: ٣٦٢، ٣٩٣، ٤١٨
الإقليمية اللبنانية: ٣٦٢
اللنبي (الجنرال): ٦٧
الامبراطورية العثمانية: ٣٦ ـ ٣٩، ٤٦، ٤٧٢، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٨١، ٤٨٣ ـ ٤٨٥، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٢ ـ ٥٠٤
الامبريالية: ٢٦٧، ٣٤٧، ٣٥٩، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩١، ٤١٤، ٤٢٥ ـ ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٥١، ٤٥٧، ٤٥٨ ـ ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٧، ٥١٤، ٥١٧، ٥١٩ ـ ٥٢١، ٥٢٣ ـ ٥٢٥، ٥٣٠، ٥٣٩ ـ ٥٤٢
الأمم المتحدة: ١٧٣، ٢٢٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٧٩، ٤٢١
الأممية: ٣٧٧
الأمن الإسرائيلي: ٥٣٥، ٥٣٦
أمن الدولة: ٥٠٥
الأمن الغذائي: ١٩
الأمن القومي: ١٥، ١٩
الأمن القومي العربي: ١٨، ٥٠٥ ـ ٥٠٨، ٥١٠ ـ ٥١٢، ٥١٦
الأمن المائي: ١٩
أمن المجتمع: ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦
الأمن الوطني: ٥١١، ٥١٦
أمين، أحمد: ٧٧
الانتداب الفرنسي انظر الاستعمار الفرنسي
الانصاري، محمد جابر: ٤٦٨
الأنظمة الكولونيالية انظر الكولونيالية
الانقلاب العثماني (١٩٠٨): ٣٣، ٤٨٨، ٤٩٩، ٥٠٠
الانقلاب العثماني (١٩٠٩): ٤٨٨، ٤٩٩
الانقلاب العثماني (١٩١٣): ٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٢
الانقلاب العراقي انظر ثورة ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨ (العراق)
أورنشتاين، اريبه: ٥٣٨
إيبان، أبا: ٤١٧، ٤٢١، ٥٣٠، ٥٣٤
إيزنهاور، دوايت: ٨٨

(ب)

باسكال: ٢٨٠
بدور، علي: ١٧٨
البرازي، خالد: ٢٤٢
البرجوازية الأوروبية: ٤٢٩
البرجوازية الصغيرة: ٤٦٥
البرجوازية العربية: ٤٢٩ ـ ٤٣١
البرجوازية الوطنية: ٤٦٥، ٤٦٦
البرزاني، مصطفى: ٥٣٤
برو، توفيق: ٢٤١
البستاني، بطرس: ٤٩٨
بسمارك: ١٧٠
بطرس الكبير (قيصر روسيا): ٤٨٦
البعلبكي، منير: ٢٦٥
البلشفية: ٥٢
بلفور، جيمس: ٥٩
بلينيوس: ٢٣٣
بن باديس، عبد الحميد: ١١٩، ١٢٠
بن غوريون، ديڤيد: ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٣١٥، ٤٢١، ٤٦٩، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٥
بهاء الدين، أحمد: ٥٣٠
بوانكاره، ريمون: ٢٤٠، ٢٤١
بودغورني: ٢٨٠
بوشيه، فيكتور: ١٣٩
بول، هيدلي: ٥١٣
بونابرت، نابوليون: ١٨١، ١٨٥، ٥٢٤
البيروقراطية: ٤٤٦
بيرين، جاك: ٤٤٤
بيغن، مناحيم: ٤٢١، ٥٢٨، ٥٣٣

بيير، هنري: ١٧٢

(ت)

تأميم قناة السويس (١٩٥٦): ١٦٥، ٢٠٧، ٤٥٦، ٤٥٨
التبعية الاقتصادية: ٣٧٩، ٣٨٤، ٤٢٨
التجزيئية: ١٢٦، ١٢٨، ١٣١ ـ ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨
تحتمس الثالث: ٢٣٣
تحرر المرأة: ١٦١
التخلف الاجتماعي: ٩
التخلف الاقتصادي: ٩
التخلف الحضاري: ٢٦٩
تشرشل، ونستون: ٢٠٥
تشمبرلن، جوزيف: ٥٨، ٢٤٨
التعاون العربي: ٧٥، ٧٦
التعايشي، عبد الله: ٤١
التغيير الاجتماعي: ٣٧٦
التقدم الاقتصادي: ٣٧٧
التقدم التقني: ٤٢٨
التقدم العلمي: ٤٠٣
التقدمية: ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١
تقرير كامبل ـ بانرمان (١٩٠٧): ٤١٦، ٤٢٨، ٥٢١، ٥٢٢
التنظيمات الخيرية العثمانية: ٤٨٦، ٤٨٨
التنمية الاجتماعية: ٢٥٥ ـ ٢٥٧
التنمية الاقتصادية: ١٥، ٢٥٥ ـ ٢٥٧، ٣٨٠، ٥١٨
التونسي، خير الدين: ٤٩٨
توينبي، أرنولد: ٢٠٨

(ث)

الثقافة الإسلامية: ١١٨
الثقافة التركية: ٥١
الثقافة العربية: ٢٦٧، ٢٦٩، ٤٤٣، ٤٤٧
الثقافة الغربية: ١٦، ١٦٠
الثقافة القومية الشعبية: ٥٠
ثورة ١٩١٩ (مصر): ١٩١
ثورة ٢٣ تموز/يوليو (١٩٥٢) (مصر): ١٩٠، ١٩١، ٢٤٤، ٢٧١، ٤٥١ ـ ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٢
ثورة ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨ (العراق): ١٩٣، ٢٧١، ٣٣٦
ثورة ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣ (العراق): ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣
الثورة البلشفية (١٩١٧): ١٨٨، ٤٦٢
الثورة الجزائرية (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢): ١٨١، ١٨٧، ١٩٠، ٢١١، ٢٣٨، ٣٠٤، ٣٣٧، ٣٤٠
ثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١): ٢٠٥
الثورة الصناعية الأوروبية: ٤٨٣
الثورة العربية الكبرى (١٩١٦): ٤٨، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٢٣٩، ٢٤٣، ٥٠٣، ٥٠٤
الثورة الفرنسية (١٧٨٩ ـ ١٧٩٩): ١١١
الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩): ٦١ ـ ٦٤، ٩٥

(ج)

جابوتنسكي، فلاديمير: ٤٢١
الجامعة الإسلامية العثمانية: ٢٤٢، ٥٠٢
جامعة الأمم العربية انظر جامعة الدول العربية
جامعة الدول العربية: ١٠١ ـ ١٠٥، ٤٤١، ٤٤٤
الجامعة الطورانية: ٥٠٢
الجزائري، سليم: ٣٣
جمال باشا (السفاح): ٣٤، ٥٠٢
الجمالي، محمد فاضل: ٤٥
جمعية الإخاء العربي: ٣٣، ٣٤
الجمعية الإسلامية ـ المسيحية: ٥٩
جمعية تركيا الفتاة: ٦٦، ٢٣٧، ٤٩٧
جمعية العلماء (الجزائر): ١١٩، ١٢١
الجمعية الفرنسية لدراسات شؤون البحرية والمستعمرات: ٢٤٠
الجمل، خليل عز الدين: ٣٤١

جونسون، ليندُن: ٢٢٩

(ح)

الحاج، كمال يوسف: ١٤٦، ١٤٧
الحاج، مصالي: ١٢١
الحجاج بن يوسف: ١٤٣، ١٤٧
الحداد، نقولا: ٢١
حرب السويس (١٩٥٦): ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٥٨، ٢٧١، ٣١٤، ٤١٦، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٦٣، ٤٦٥، ٥٣٥، ٥٣٦
الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨): ٥٨، ٦٦، ١١١، ١٢١، ١٢٣، ٢٠٢
الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥): ٢٠٥
الحرب العربية الاسرائيلية (١٩٤٨): ٢٥٨، ٣١٨، ٤٠٥
الحرب العربية الاسرائيلية (١٩٦٧): ١٣، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٣١، ٣٤١، ٣٦٠، ٣٦١، ٤٠٦، ٤١٦، ٤٢٣، ٤٦٥، ٤٦٧، ٥٣٧
الحرب العربية الاسرائيلية (١٩٧٣): ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦٩، ٥٣٧، ٥٣٨
حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥): ٤٨٧
حركة التتريك: ٩
الحركة الصهيونية انظر الصهيونية
حركة فتح: ٣٠٤، ٣٣٢
الحركة الفدائية: ٣٣٥، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٢
الحركة الوهابية: ٤٨٠، ٥٠٣
الحركة اليهودية: ٥٧، ٥٨
الحروب الصليبية (١٠٩٦ ـ ١٢٩١): ٨٩، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠١
الحرية السياسية: ٢٢٠
حرية الفكر: ٢٠٠
حريق بغداد (١٢٥٨): ١٧٩
حزب الاتحاد والترقي (تركيا): ٢٢، ٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٤٨٨، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٢
حزب الأحرار (بريطانيا): ٥٢٢
حزب البعث العربي الاشتراكي: ٤٥٦
الحزب الحر الدستوري (تونس): ١١٨
حزب المابام (إسرائيل): ٤٣٣
حزب الماكي الشيوعي (إسرائيل): ٤٣٣
حزب المحافظين (بريطانيا): ٥٢١، ٥٢٢
حزب الوفد (مصر): ٤٥٤
حسن، عبد الجليل: ١٥٤
الحسين بن طلال (ملك الأردن): ١٧٧
حسين بن علي (شريف مكة): ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٥٨، ٦٧، ٨٣
الحصري، ساطع: ١٠
الحضارة الأوروبية: ٢٠٤
الحضارة العربية: ١٦٠، ٢١١، ٢١٨، ٢٥٤، ٤٤٤
الحضارة العربية الإسلامية: ١٧
الحضارة الغربية: ١١٠، ١٦٠، ١٦١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٥ ـ ١٩٧، ٢٤٢، ٢٤٣
الحضارة الفرنسية: ١٧٩
حلف بغداد (١٩٥٥): ٤٥٦، ٤٥٨ ـ ٤٦٠، ٥٣٣
حلف شمال الأطلسي: ٤٥٠، ٥٣٥، ٥٤٢
الحناوي، سامي: ٤٥٢
الحوفي، أحمد محمد: ٢٣٢

(خ)

خالد بن الوليد: ١٨٤، ١٨٥
خالد، خالد محمد: ١٣٩
الخط الشريف (١٨٣٩) انظر خط كلخانه (١٨٣٩)
خط كلخانه (١٨٣٩): ٤٨٦، ٤٨٧
خط هومايون (١٨٥٦): ٤٨٧
الخلفاء الراشدون: ٤١
خليل، خليل أحمد: ٤٤٢
خيري، سمير: ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١

(د)

الدبلوماسية الاسرائيلية: ٣٠١
الدبلوماسية الأمريكية: ٣٠١

دروزة، محمد عزة: ٥٢٧
الدعاية الصهيونية: ٣٠٤
دوبريه، ريجيس: ٣٦٤
الدولة العثمانية انظر الامبراطورية العثمانية
الدولة الفارسية: ٢٧
الدولة القطرية: ١٠، ١٥، ١٧
الدونمة: ٢٣٦
دياز أورداز، غوستافو: ٢٢
ديدرو: ١٤٥، ١٥٢
ديستيريا، بيير: ٤١٦
ديغول، شارل: ١٩٧، ٢١١، ٤٢٣
الديمقراطية: ٥٢، ٦٨، ١٠٣، ١٩٠، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٢٠ - ٢٢٣، ٢٨٧ - ٢٩٠، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٦٤، ٤٦٢
الديمقراطية الاجتماعية: ١٠٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٨٧
الديمقراطية الاقتصادية: ٢٨٧
الديمقراطية السياسية: ١٠٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٨٧
ديودور: ٢٣٣

(ر)

الرأسمالية: ١٦٠، ١٨٢، ٢٤٤، ٢٥٩، ٢٨٨، ٢٩٠، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٢
رانكه، ليوبولد: ٥١٠
راونتري: ٤٥٨، ٤٦٣، ٤٦٥
ربيع، حامد: ٥٠٨، ٥١٠ - ٥١٢
الرجعية: ١٨٩، ٢٤٤، ٢٤٥، ٣٢١، ٣٣٦ - ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨٥، ٤٢٦، ٤٥٨، ٥١٤
الرجعية العربية: ٣٥٢، ٣٦٧، ٣٧٤
رشيد باشا: ٤٨٦، ٤٨٧
رعمسيس الثالث: ٢٣٣
رعمسيس الرابع: ٢٣٣
رفعت، محمد: ٨٣
روتشيلد (اللورد): ٥٩
رودنسون، ماكسيم: ٣١١، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٢
روزفلت، تيودور: ٥٣٣
روسو، جان جاك: ١٤٥، ١٥٢

(ز)

زريق، قسطنطين: ٢٦٤
الزعيم، حسني: ٤٥٢
زغلول، سعد: ٢٠٣
الزهراوي، عبد الحميد: ٣٧
الزيات، أحمد حسن: ٥٤
زيدان، اميل: ٩٣

(س)

ستارك، فريا: ٢٠٤
ستالين، جوزف: ٤٣٠، ٤٦٢
الستالينية: ٢٨٩
ستورز، رونلد: ٩٣
السد العالي (مصر): ٢٠٧، ٤٥٦
سراج الدين، اسماعيل: ٢٩٣
سعادة، انطون: ٢٣٨
سعيد، أمين: ٥٦
سعيد، عدلي حسن: ٥٠٦ - ٥٠٨
السعيد، نوري: ٦٧، ١٩٥، ١٩٦، ٤٥٩، ٤٦٢، ٤٦٦
سقراط: ٢٨٢
سكوت، س. ب.: ٥٢٢
سكوت، وولتر: ٦٤
سليم الثالث (السلطان): ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨٥
سليمان القانوني (السلطان): ٤٧٦، ٤٧٧
سميلانسكي: ٤٢١
سنيه، موشيه: ٤٣٣
السوق الأوروبية المشتركة: ٣٠١
سوكولوف، ناحوم: ٥٢٧، ٥٢٩
السياسة العربية: ٤٤٣
السيد، لطفي: ٢٤٢
سيف الدولة، عصمت: ٣٣١، ٣٤٩، ٤٠٥

(ش)

شاريت، موشيه: ٣١٥
شاهاك، إسرائيل: ٥٣٩
شبنغلر، أزفلد: ٢٠٨
الشدياق، فارس: ٤٩٨
شرارة، عبد اللطيف: ١٩٣، ٢٠٠
شعراوي، هدى: ٣٤
الشعوبية: ١٢، ١٥٠، ١٧٥، ٢١٩
شفيق، منير: ٤٥١
شكسبير، وليم: ١٢٨، ١٨٥
شهاب، فؤاد: ٤٥٩
الشهبندر، عبد الرحمن: ٣٣، ٥١
الشورى: ١٦١، ٤٩٨
الشيشكلي، أديب: ٤٥٢
الشيوعية: ١٨٢، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٥، ٢١٢، ٢٩٠

(ص)

الصراع الاجتماعي انظر الصراع الطبقي
الصراع الطبقي: ٣٧٥ ـ ٣٧٧، ٤٢٧، ٤٢٨، ٥٠٧، ٥١٤، ٥١٥
الصراع العربي ـ الاسرائيلي: ٢٩٦، ٣١١، ٣١٤، ٣١٨، ٤٧١، ٥٣٤
الصراع العربي ـ العربي: ٤٧١
صفقة الأسلحة التشيكية انظر اتفاقية السلاح (١٩٥٥) (مصر/تشيكوسلوفاكيا)
صلاح الدين الأيوبي: ١٨٥، ٤٣٩
الصلح، كامل: ٣٤
الصهيونية: ١٢، ١٦، ٥٨، ٥٩، ٨٦، ٩٣، ٩٥ ـ ٩٩، ١٥٣، ٢٠٦، ٢٣٦، ٢٤٦ ـ ٢٥٣، ٢٥٧ ـ ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٠١، ٣١٣ ـ ٣١٨، ٣٢٠ ـ ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٨١، ٣٨٤ ـ ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٦، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٤ ـ ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٨، ٤٦١، ٥٠١، ٥١٤، ٥١٧ ـ ٥٣٣، ٥٣٦ ـ ٥٣٨، ٥٤١، ٥٤٢
صوافندي، عمانوئيل قره: ٢٣٧

(ط)

طارق بن زياد: ١١٢، ١٨٤
الطائفية: ٢١٦
طعمة، هادي: ٣٣٤
الطناحي، طاهر حمدي: ٣٦
الطهطاوي، رفاعة رافع: ٤٩٨

(ع)

عازوري، نجيب: ٢٤٠، ٥٣٠
عبد الله بن الحسين (الامير): ٣٦، ٣٧، ٦١، ٦٧، ١٧٧
عبد الحميد الثاني (السلطان): ٢٢، ٣٣، ٥٨، ٢٣٦، ٢٣٧، ٤٨٨، ٤٩٠ ـ ٤٩٩، ٥٠١، ٥٣٣
عبد الدائم، عبد الله: ١٧٠، ٢١٣، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٤٦، ٢٧٥، ٣١١، ٣٢٣، ٣٩٥، ٥١٧
عبد الرحمن، أسعد: ٤٧٢
عبد العزيز (السلطان): ٤٨٨، ٤٩٢
عبد الكريم الخطابي: ٤٨، ١٢٢
عبد المجيد (السلطان): ٤٨٦
عبد الملك بن مروان: ١٤٣
عبد الناصر، جمال: ١٦٤، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٩١، ٢٠٧ ـ ٢١٠، ٢٣٨، ٢٧٣، ٤٣٥، ٤٥١ ـ ٤٥٤، ٤٥٦ ـ ٤٦٧، ٤٧١
عبده، محمد: ٤٩٨
العداء للسامية انظر اللاسامية
العدالة الاجتماعية: ١٩٨، ٣٨٨
العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) انظر حرب السويس (١٩٥٦)

العروبة: ١٢، ١٣
عز الدين، يوسف: ٣٧، ٣٩
عزام، عبد الرحمن: ٤٠
عزت باشا (الصدر الأعظم): ٣٨
العزيز بالله (الخليفة): ٢٣٥
العسكري، جعفر: ٦٧
عصبة الأمم: ٥٢، ٧١
عصبة الأمم العربية: ٦٩ ـ ٧٢
العصبية التركية: ٢٣٦
العصبية العربية: ١١٢
عطفه، سامي: ١٤١ ـ ١٤٤، ١٤٦
عطية، ادوارد: ٢٤٠
العقاد، عباس محمود: ١٠١
العقيدة الدينية: ١٤١
العقيدة السياسية: ١٤١
العقيدة العلمية: ١٤١
العلاقات التركية ـ العربية: ٥٠٢
العلاقات العربية ـ الاسرائيلية: ٣١٤
العلمانية: ٤٢٩
علي بن الحسين (ملك الحجاز): ٣٩، ٦٧
عمر بن الخطاب: ٣٠، ٤١، ٢٨١
عمرو بن العاص: ٢٤٢
عنان، محمد عبد الله: ٢٧
العنصرية: ١٧٤، ١٨٧، ٢٠٣، ٢١٦، ٢٤٧، ٢٩٥، ٣٠٧، ٤٦٧، ٥٣٠
العنصرية اليهودية: ٢٤٧
العنف الاقتصادي: ٤٤٧
العنف السياسي: ٤٤٧
العنف العسكري: ٤٤٧
العنف الفكري: ٤٤٧
عودة، جهاد: ٥٠٥

(غ)

غازي الأول (ملك العراق): ٦١
غاندي (المهاتما): ٤٢٠
غراي، ادوارد: ٢٤٠
الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: ١٨٥
غليوم (امبراطور المانيا): ٩١
غيفارا، ارنستو شي: ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٨

(ف)

فاروق (ملك مصر): ٤٥٢، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٦
الفاشستية: ٥٢، ٩٤، ٢٠٥
فايست، فولفلغانغ: ٤١٦
الفتح الإسلامي: ٨٩، ٩٠
فرانكويل، إسرائيل: ٤٢١
فرسخ، عوني: ٥٣٧
الفرعونية: ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٠٣
فرويد، سيغموند: ٢٨٠
الفكر السياسي العربي: ١٢
الفكر الغربي: ١٦
فلابان، سيمحا: ٤٣٣
فنلي: ٢٨، ٣٢
فولستاف: ١٢٨
فيشر، أرنست: ٤٢٨
فيصل الأول (ملك العراق): ٣٧، ٣٩، ٦٠، ٦٧، ٢٤٣
فيصل، شكري: ٤٣٤
فيلبي، جون: ٥٣٣
الفينيقية: ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٢٠٣

(ق)

قابيل، يوسف: ٦٩
قاسم، عبد الكريم: ٢١٢، ٤٥٩، ٤٦٢
القاوقجي، فوزي: ٦١
قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢): ٤٥٨، ٤٦٣ـ ٤٦٥، ٤٦٧
القصيمي، عبد الله: ١٣٩ ـ ١٤٥، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣
قضية التحرر العربي: ١٩
القضية العربية: ٣٦، ٣٧، ٣٩، ١٠٨ ـ ١١٠، ١١٢، ١٧٩، ٢١٢، ٤٧٠
القضية الفلسطينية: ١١، ١٢، ١٨، ١٩، ٥٦، ٩٣ ـ ٩٥، ٢٥٧ ـ ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٨٣ ـ ٢٨٥، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٤٠، ٤٦٩

القط، عبد القادر: ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٢
القطرية: ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣
قلعجي، قدري: ١٣٩، ١٤٦، ١٤٨ ـ ١٥٣
القومية: ٣٥١، ٣٥٥ ـ ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٨، ٤١٩، ٤٢٢
القومية الأوروبية: ٩
القومية التركية: ٩
القومية العربية: ٨ ـ ١٣، ١٥ ـ ١٧، ٢٠، ١١١، ١٥٥، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧ ـ ١٦٩، ١٧١، ١٧٥، ١٧٧، ١٩٢، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٧٢، ٣٥٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٢٠، ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٥٦، ٤٥٩، ٤٦٥ ـ ٤٦٧، ٤٧٢ ـ ٤٧٦، ٤٩٧، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥١٤، ٥١٧ ـ ٥١٩، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٤، ٥٣٦، ٥٣٩ ـ ٥٤٢
القومية اليهودية: ٢٤٩، ٥١٩، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٤٢
القيم الإنسانية: ١٥٤ ـ ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١ ـ ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣، ٢٢٤

(ك)

كاما، ديفيد: ٥٣٤
كانت، عمانوئيل: ١٨٥
الكتاب الأبيض (١٩٣٩): ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٠
الكسم، بديع: ١٢٤
كشك، محمد جلال: ٢٣٦
كمال، أحمد: ٢٣٤
الكوسموبوليتية: ٤٣٠
الكولونيالية: ٤٢٧، ٤٢٩
الكومبرادورية: ٤٢٧، ٤٣١، ٤٦٤
كونت، أوغست: ٢٧٩
الكيبوتز: ٢٥٦
كيسنجر، هنري: ٤٣٨، ٤٣٩
الكيلاني، هيثم: ٥٢٥

(ل)

اللاجئون الفلسطينيون: ١٨٧، ٢٥٨، ٢٦٨، ٣٣٥، ٥٣١
لازار، برنار: ٩٧
اللاسامية: ٢٠٩، ٣٢٠، ٣٢١
لامرتين، الفونس دي: ١٩٩
اللامركزية: ٤٧٨، ٤٩١، ٤٩٦، ٥٠٠، ٥٠٣
لجنة الهلال الأحمر المصرية: ١٠٨
لورنس العرب: ٦٧، ٢٤٣
الليبرالية: ٤٢٩، ٤٩٢
لينين، فلاديمير إيليتش: ٤٦٢

(م)

ماجدوف، هاري: ٤٢٦
مارتن، هنري: ١٤٩
ماركس، كارل: ١٨٩، ٢٢٤، ٢٩٤، ٣١١
الماركسية: ١٥، ١٠٣، ٣١١، ٤٦٥
المازني، ابراهيم عبد القادر: ٦٣، ١٠٥
الماسونية: ٢٣٦، ٥٠١
المأمون (الخليفة): ١٥٠
ماندلستام، آندري: ٢٣٧
المانوية: ٢٨
مانيثون: ٢٣٣
مبدأ مونرو: ٤١٦
المتوكل (الخليفة): ٢٠٠
المجاعة: ١٠٨
محمد علي الكبير (والي مصر): ٤١، ٤٤، ٤٢٨، ٤٧١، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٦
محمود الثاني (السلطان): ٤٨٥
مختار، أحمد: ٢٣٨
مدحت باشا (الصدر الأعظم): ٣٧
مذابح الأرمن (١٨٩٥ ـ ١٨٩٦): ٤٩٥
مذبحة دير ياسين (١٩٤٨): ٣١٩
مراد الخامس (السلطان): ٤٨٨، ٤٩٢
مراد الرابع (السلطان): ٤٧٨
مركز دراسات الوحدة العربية: ٨، ١٠، ١٧، ٢٠

مركز ديمونا النووي (إسرائيل): ٢٢٩
مروة، حسين: ٢٦٧
المسألة الشرقية: ٤٨١، ٤٨٣، ٤٩٠، ٥٠٠
المستنصر (الخليفة): ٢٣٥
المشاط، عبد المنعم: ٥٠٨ ـ ٥١٠
مشروع جونستون: ٥٣١
مشروع روجرز (١٩٧٠): ٤٥٨، ٤٦٣ ـ ٤٦٥، ٤٦٧
مشروع فايتس: ٥٣١
مشروع همرشولد: ٢١٠
مطران، خليل: ٧٥
مطران، رشيد: ٢٤٠
مطران، نخلة: ٢٤٠
مظهر، اسماعيل: ١٤٠
معاهدة ١٩٣٢ (العراق/ بريطانيا): ٨٣
معاهدة ١٩٣٦ (مصر/ بريطانيا): ٨٣
معاهدة سايكس ـ بيكو (١٩١٦): ٢٠١، ٢٠٢، ٤٢٨، ٥٢٥، ٥٢٧
معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية (١٩٧٩): ٤٦٨، ٥٣٢، ٥٣٧
معاهدة الصلح المنفرد انظر معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية (١٩٧٩)
معاهدة كارلوتز (١٦٩٩): ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٥
معاوية بن أبي سفيان: ٢٤٣
المعتصم (الخليفة): ١٥٠، ٢٣٥
المعري، أبو العلاء: ١٨٥
معسعس، رياض: ٥٢٤
المقاومة: ٣٤٩ ـ ٣٥٢، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٣ ـ ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٨٣، ٣٨٩ ـ ٣٩٤
المقاومة الفلسطينية: ٣٦٣، ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤١٤، ٤٤٩، ٤٧٠
المقوقس: ٣٠
مكماهون، هنري: ٥٨
الملائكة، نازك: ١٢٦
مندريس، عدنان: ٥٣٥
مندور، محمد: ١٧٥
المنصور (الخليفة): ١٥٠
المهدي، محمد أحمد: ٤١
مؤتمر برلين (١٨٧٨): ٤٨٣، ٤٩٤، ٥٠٠
مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠): ٥٢٥
مؤتمر الصلح (١٩١٩: فرساي): ٥٢٥
المؤتمر الصهيوني (١: ١٨٩٧: بال): ٤١٥، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٣١
المؤتمر العربي (١: ١٩١٣: باريس): ٢٤١، ٥٠١
المؤتمر الفلسطيني (١: ١٩١٩: دمشق): ٦٠
ـ (٢: ١٩٢٠: دمشق): ٦٠
ـ (١٩٢٠: حيفا): ٦٠
ـ (٤: ١٩٢١: القدس): ٦١
ـ (٥: ١٩٢٢: نابلس): ٦١
ـ (٦: ١٩٢٣: يافا): ٦١
ـ (٧: ١٩٢٨: القدس): ٦١
مورفي، روبرت: ٤٥٨، ٤٥٩
موسوليني، بنيتو: ١١٧، ٢٠٣
الموشاف شيتوفي: ٢٥٦
الموشاف عوفيديم: ٢٥٦
موقعة الزاب (٧٥٠م): ١٥٠
موليه، غي: ١٧١ ـ ١٧٣
مونتسكيو: ١٤٥، ١٥٢
موين (اللورد): ٤٢١
المياه العربية: ٢٢٤ ـ ٢٣١
مئير، غولدا: ٥٣٤

(ن)

النادي الثقافي القومي (دمشق): ١٠٨
ناردين، تيري: ٥١٣
النازية: ٢٠٥، ٤٢١
الناصرية: ٢٠٨، ٤٦٥
ناصيف، جورج: ٥٢٣
نجيب، محمد: ٤٥٢
النحاس، مصطفى: ٧٥، ٤٥٣، ٤٥٥
النسبية الثقافية: ٥١٤
النصرانية: ٢٨

النضال القطري: ٣٠٤، ٣٠٥
النضال القومي: ٣٠٤
نظام الأبارثيد: ٢٩٤، ٢٩٥
النظام الفدرالي: ٨٤، ٨٥
النظام الكونفدرالي: ٨٤، ٣٧٢
النظام الماركسي: ٢٨٧، ٢٨٨
النظام الملكي: ١٩٧
النظام النيابي: ١٦١
نعيمه، ميخائيل: ٢٦٣
النفوذ الأجنبي: ١٠٥
النفير الإسلامي المجدد: ٤٩٨
النفير العلماني العروبي: ٤٩٨
النقاش، محمد: ٤٢٣
النهضة العربية الحديثة: ٩ ـ ١١، ١٦، ١٩
نوردو، ماكس: ٥٢١
النوردية: ٩١
نيتشه: ٩١، ٢٠٤، ٢١٣، ٥٢٩
نيكسون، ريتشارد: ٥٣٤
نيوتن، اسحق: ١٦١

(هـ)

هارون الرشيد: ١٥٠
الهاغانا: ٢٥٨
هتلر، أدولف: ٩١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٨
الهتلرية: ٢٠٨
الهجرة اليهودية: ٦٠، ٦١، ٦٤، ٩٥
هرتزل، تيودور: ٥٨، ٩٧، ٢٤٧، ٢٤٨، ٣١٥، ٣١٧، ٥٢٣، ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٣٢
هشام بن عبد الملك: ٢٣٤
الهكسوس: ٢٣٢، ٢٣٣
هولاكو: ١٧٩
هويدي، أمين: ٥٠٨
هيدغر، مرتن: ٢١٣
هيرودوت: ٢٣٣
هيكل، محمد حسنين: ٥٣٦
هيلا سلاسي: ٥٣٤

(و)

وايزمن، حاييم: ٢٤٧، ٢٤٨، ٤٢١، ٥٢٢، ٥٣٢
وجدي، محمد فريد: ٨١
الوحدة الأوروبية: ٤٣٧
الوحدة السورية ـ المصرية (١٩٥٨ ـ ١٩٦١): ١٣، ٢٧١، ٢٧٢، ٣٣٦، ٣٨١ ـ ٣٨٣، ٣٨٦، ٤٠٥، ٤١١، ٤١٦، ٤٣٩، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٦٨
الوحدة العربية: ١٣، ١٦، ١٧، ٤٠، ٧٥، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٤، ٩٩، ١٠٩، ١١٤، ١٦٧، ١٧٠، ٢١٢، ٢١٥، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٢، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٥٨ ـ ٣٦٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٩، ٣٨٣، ٤٠٥ ـ ٤٠٩، ٤١١ ـ ٤١٣، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٠ ـ ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٥ ـ ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥١٩، ٥٣٠، ٥٣٢ ـ ٥٣٥، ٥٣٨، ٥٤١
وعد بلفور (١٩١٧): ٥٩ ـ ٦١، ٩٤، ٩٥، ١٨٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٦٠، ٤٢٨، ٥٢٣، ٥٢٥، ٥٣١
الوعي العربي انظر الوعي القومي
الوعي القومي: ١١٦، ١١٨، ١٢٣، ١٣٩، ١٤٦، ٣٣٨
الولاء الاجتماعي: ١٥٩، ١٦٠
ويتز، جان: ١٧١، ١٧٢
ويغال: ٤٣، ٤٤
ويلسون، وودرو: ٢٠١

(ي)

اليازجي، ناصيف: ٤٩٨
يعقوب، محمد حافظ: ٤٢٥
ينون، أود: ٥٣٩
اليهودية: ٢٨، ٩١
يوسيفوس: ٢٣٣

هذا الكتاب

يتناول الكتاب الخامس من «قراءات في الفكر القومي» جملة من القضايا المركزية المترابطة التي تستعرض القومية العربية، والقضية الفلسطينية، والأمن القومي العربي، ومسائل ثقافية. كما يخاطب هذا الجزء الشباب العربي في السياق التاريخي للنضال القومي والتحذير من مخاطر الاستعمار والصهيونية ومن أجل النهوض الحضاري للأمة.

لقد أجّج الغزو الصهيوني لفلسطين والخطر الذي أحاق بشعبها العربي، الشعور القومي وشحذ الوعي بوحدة المصير العربي وضرورة استجماع قوى الأمة وتوحيدها من أجل درء الأخطار الخارجية عليها عبر تحصين أوضاعها الداخلية ومعالجة أسباب التشرذم والضعف فيها وتوجيه طاقاتها لإنجاز الأهداف القومية المشتركة.

وقد كان الصراع العربي ـ الصهيوني محفزاً هائلاً للإنتاج الفكري والثقافي المتعدد الأشكال، حيث حاول عدد وافر من المارسين والمثقفين بلورة التوجهات الفكرية التي تعزز وعي الأمة لذاتها، ووعيها للمخاطر التي تواجهها، كذلك إدراكها للمصاعب الداخلية التي تثقل كاهلها وتبطئ حركتها باتجاه التحرر القومي والتطور السياسي والاجتماعي.

ويعالج بعض مقالات الكتاب مسألة الأمن القومي الذي لم يعد يقتصر على الخطر الصهيوني والتهديدات الخارجية التقليدية، بل امتد ليشمل المياه والغذاء اللذين بدون توفيرهما الآمن يصبح الاستقلال مهدداً والوجود المادي والسياسي للأمة في أزمة فعلية.

يضم الكتاب الخامس ـ وهو الأخير من قراءات في الفكر القومي ـ واحداً وستين مقالة شارك في كتابتها ما يزيد على الأربعين باحثاً في الحقل القومي، وقد رتبت مقالاتهم وفق تاريخ صدورها.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٦٩١٦٤

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

أو ما يعادلها